٣٥ درس

التفسير المحرر

للقرآن الكريم

سورة الحجر وسورة النحل

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقًا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث عشر

الدرر السنية

www.dorar.net

التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَرِيمِ

(سورة الحجر وسورة النحل)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٣٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر
التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث عشر - سورة الحجر والنحل/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٣٩هـ
٧٣٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم
ردمك: ٣-٥٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨
١- القرآن - تفسير أ- العنوان
ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٣٩/٢٠٩٩

رقم الإيداع: ١٤٣٩/٣٠٩٩
ردمك: ٣-٥٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت:٠١٣٨٦٨٠١٢٣/فاكس:٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ -بريدإلكتروني nashr@dorar.net

الدرر السنية
www.dorar.net

التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحجر وسورة النحل)

إعدادُ

القِسمِ العِلميِّ بمُؤسَّسةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشرافُ العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

المجلد الثالث عشر

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الحِجْرِ







سورةُ الحِجْرِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ)[١].

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحِجْرِ مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن أهلِ العِلمِ[٣].

مقاصِدُ السُّورةِ:

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

تثبيتُ المؤمنينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحِجْرِ)؛ لاشتمالِها على قِصَّتِهم، في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]، ولأنَّ لفظَ (الحِجْرِ) لم يُذكَرْ في غيرها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥).

وقد ورَدَتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك، منها ما أخرجه النَّحاسُ في ((ناسخه)) (ص: ٥٣٩) وابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦١)- عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، وكذلك ما أخرجه ابنُ مردويه- كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٦١)- عن ابنِ الزبيرِ رضي الله عنهما.

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدة مدنيَّة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوردي، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٨).

موضوعاتُ السُّورةِ:

من أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّنويهُ بفَضلِ القُرآنِ ومكانتِه، وتكفُّلِ الله بحفظِه، وبيانُ سوءِ عاقبةِ الكافرينَ الذين أعرضوا عن دعوةِ الحقِّ عن عنادٍ وجحودٍ.

٢- ذِكرُ بعضِ الأدلَّةِ على وحدانيَّةِ الله وقُدرتِه، وما أسبَغه مِن نِعَمٍ على جميعِ خَلْقِه.

٣- حكايةُ قِصَّةِ خلقِ آدمَ عليه السلامُ، وتكليفِ الملائكةِ أن يَسْجدوا له، وامتثالِهم، وتكبُّرِ إبليسَ وحدَه عن ذلك، وطردِه مِن الجنَّةِ.

٤- ذِكرُ بعضِ جوانبَ مِن قَصصِ أنبياءِ الله: إبراهيمَ، ولوطٍ، وشعيبٍ، وصالحٍ، عليهم الصلاةُ والسلامُ.

٥- تسليةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتثبيتُه أمامَ ما يَلْقاه مِن قومِه.



الآيات (١-٥)

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أي: اترُكْهم، ودَعْهم، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يقذِفُه؛ لقلَّةِ اعتدادِه به(١).

المَعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السورةَ بهذه الحُروفِ المُقَطَّعةِ- وقد سبَقَ الكلامُ عنها في أوَّلِ سورةِ البَقرةِ- ثمَّ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ آياتِ القُرآنِ الكريمِ هي آياتُ الكتابِ الجامِعِ لأنواعِ الكَمالِ، وآياتُ القرآنِ المُعجزِ المُظهِرِ للحقائقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وسيندَمُ الكُفَّارُ يومَ القيامةِ على تَركِ الإيمانِ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا. فاترُكْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الكُفَّارَ يأكُلوا ويَستَمتِعوا بشهواتِهم، ويَشغَلْهم الأمَلُ عن الإيمانِ بالله وطاعتِه؛ فسوفَ يعلمونَ عاقِبةَ أمْرِهم وأنَّهم خاسرونَ. وما أهلَكْنا أهلَ قَريةٍ إلَّا ولإهلاكِهم أجَلٌ مُقدَّرٌ، لا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه، فلا تتجاوَزُ أمَّةٌ أجَلَها حتى تستوفيَه دونَما نُقصانٍ ولا زيادةٍ.

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾

﴿إِلَّا﴾ للحَصرِ، وجملةُ ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ اسميَّةٌ في محلِّ نَصبٍ حالٌ مِن

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١)، و(٤/ ٩٧).

﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيءَ الحالِ مِن النَّكرةِ وُقوعُ النَّكرةِ بعد نَفْيٍ، واقترانُ واوِ الحالِ بالجُملةِ. وقيل: إنَّ الجُملةَ واقِعةٌ صِفةً للنَّكرةِ قَبلَها ﴿قَرۡيَةٍ﴾، ودخَلَت الواوُ عليها تأكيدًا لِلُصوقِ الصِّفةِ بالموصوفِ[١].

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾.

﴿الٓر﴾.

تقدَّم الكلامُ عن الحُروفِ المقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ البَقَرةِ[٢].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: هذه الآياتُ العاليةُ المَقامِ، الرَّفيعةُ الشَّأنِ، آياتُ الكِتابِ الجامِعِ لأنواعِ الكَمالِ، وآياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهِرٍ للحقائِقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾.

أي: سيندمُ الذين كَفَروا باللَّهِ علَى ما كانوا فيه مِنَ الكفرِ، ويتمَنَّونَ لو كانوا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٢٩١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ البقرةِ (١/ ٦٤) من ((التفسير المحرر)).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠).

مُسلِمينَ في الدُّنيا، مُوَحِّدينَ، مُنقادِينَ لأمرِ اللهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

قال الشوكاني: (وكانت هذه الوَدادةُ منهم عندَ موتهم أو يومَ القيامة. والمرادُ: أنَّه لَمَّا انكشَف لهم الأمرُ، واتَّضَح بُطلانُ ما كانوا عليه مِن الكفرِ، وأنَّ الدينَ عندَ الله سبحانَه هو الإسلامُ، لا دينَ غيرُه، حصَلَت منهم هذه الوَدادة التي لا تُسمِنُ، ولا تُغني مِن جوعٍ، بل هي لمجرَّدِ التحسُّرِ والتندمِ، ولومِ النفسِ على ما فَرَّطَت في جنبِ الله. وقيل: كانت هذه الوَدادةُ منهم عندَ معاينةِ حالِهم وحالِ المسلمينَ. وقيل: عندَ خروج عُصاةِ الموحِّدينَ مِن النارِ. والظَّاهِرُ أنَّ هذه الوَدادةَ كائنةٌ منهم في كلِّ وقتٍ، مُستمِرَّةٌ في كلِّ لحظةٍ بعدَ انكشافِ الأمرِ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٦).

وقال الشنقيطي: (أقوالُ العلماءِ في هذه الآيةِ راجعةٌ إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ مَن يقولُ: إنَّ الكافِرَ إذا احتُضِرَ وعايَن الحقيقةَ تمنَّى أنَّه كان مسلمًا، ومَن يقولُ: إنَّه إذا عايَن النَّارَ ووقَف عليها تمنَّى أنَّه كان مسلمًا، ومَن يقولُ: إنَّهم إذا عاينوا إخراجَ الموحِّدين مِن النارِ تمنَّوا أنهم كانوا مسلمينَ، كلُّ ذلك راجعٌ إلى أنَّ الكُفَّارَ إذا عاينوا الحقيقةَ نَدِموا على الكفرِ، وتمنَّوْا أنَّهم كانوا مسلمينَ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٢).

ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٤ - ٥٨].

وعن صالحِ بن أبي طَريفٍ، قال: قلتُ لأبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه: أسَمِعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في هذه الآيةِ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾؟ فقال: نعم، سمعتُه يقولُ: ((يُخرِجُ اللهُ أناسًا من النَّارِ [أي: مِن المسلمينَ] بعدما يأخُذُ نِقمَتَه منهم، قال: لَمَّا أدخَلَهم اللهُ النَّارَ مع المُشرِكينَ قال المُشرِكونَ: أليس كُنتُم تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّكم أولياءُ؟ فما لكم معنا في النَّارِ؟! فإذا سَمِعَ اللهُ ذلك منهم أذِنَ في الشَّفاعةِ، فيتشَفَّعُ لهم الملائِكةُ والنبيُّونَ حتى يخرُجوا بإذنِ الله، فلمَّا أُخرِجوا قالوا [أي: المشركونَ]: يا ليتنا كُنَّا مِثلَهم فتُدرِكَنا الشَّفاعةُ فنخرُجَ مِن النَّارِ، فذلك قولُ الله جلَّ وعلا: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ ...))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (ما يزالُ اللهُ يشفَعُ ويُدخِلُ الجنَّةَ، ويَرحَمُ ويَشفَعُ، حتى يقولَ: من كان من المُسلمينَ فَليدخُلِ الجنَّةَ، فذاك حين يقولُ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾)(٢).

---

(١) أخرجه ابن حبان (٧٤٣٢) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨١١٠).
صححه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (١٦/ ٤٥٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣٣٤٥)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٧٥).
صحح إسناده الحاكم، وذكر البيهقي أن له متابعة، وصححه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣٨٤).
قال الترمذي: (رُوي عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ وإبراهيمَ النخعيِّ وغيرِ واحدٍ مِن التابعينَ في تفسيرِ هذه الآيةِ: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾ قالوا: إذا أُخرج أهلُ التوحيدِ مِن النارِ، وأُدخِلوا الجنةَ، ودَّ الذين كفَروا لو كانوا مسلمينَ). ((سنن الترمذي)) (٥/ ٢٤).

﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ ﴾.

﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ ﴾.

أي: اترُكِ الكُفَّارَ- يا محمَّدُ- يأكلُوا في هذه الدُّنيا ما هم آكِلوه، ويتمَتَّعوا بشَهَواتِها ولذَّاتِها، ويَشغَلْهم الأملُ[1] عن الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه، والاستعدادِ للآخرةِ[2].

﴿ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

أي: فسوفَ يعلَمُ الكُفَّارُ أنَّهم خاسِرونَ، وأنَّ عاقِبةَ كُفرِهم عذابٌ أليمٌ مُهينٌ[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

وقال سُبحانه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

---

(١) قال الألوسي: (﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ ويشغلْهم التوقعُ لطولِ الأعمارِ، وبلوغِ الأوطارِ، واستقامةِ الأحوالِ، وأن لا يَلْقَوا إلَّا خيرًا في العاقبةِ والمآلِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٥٧).
وقال القرطبي: (وحقيقةُ الأملِ: الحرصُ على الدُّنيا، والانكبابُ عليها، والحبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).
قال الشنقيطي: (وقد تقرَّر في فنِّ المعاني وفي مبحثِ الأمرِ عندَ الأصوليِّينَ أنَّ مِن المعاني التي تأتي لها صيغةُ افْعَل: التَّهديدَ، كما في الآيةِ المذكورةِ... وقال بعضُ العلماءِ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآياتِ السَّيفِ، والعلمُ عندَ اللَّه تعالَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توعَّدَ اللهُ تعالى مِن قَبلُ مَن كذَّبَ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ﴿ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، أتبعَه بما يؤكِّدُ الزَّجرَ، وهو قولُه تعالى[1]:

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ ﴾.

أي: وما أهلَكْنا أهلَ قريةٍ يستَحِقُّونَ العذابَ إلَّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه[2].

﴿ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ ﴾.

أي: لا يتقدَّمُ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الذي قدَّرَه اللهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له[3].

كما قال سُبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[يونس: ٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦).

قال ابن كثير: (وهذا تنبيهٌ لأهل مكَّة، وإرشادٌ لهم إلى الإقلاعِ عمَّا هم فيه من الشِّركِ والعنادِ والإلحاد، الذي يستحِقُّونَ به الهلاكَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٦-٥٢٧).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التلذُّذَ والتنعُّمَ، وعدمَ الاستعدادِ للمَوتِ والتأهُّبِ له؛ ليس من أخلاقِ مَن يطلُبَ النَّجاةَ مِن عذابِ اللهِ في الآخرةِ[1]، وفيه تعزيةٌ لما منَعه الله تعالى أولياءَه مِن التمتعِ بالدُّنيا، وكثرةِ الأكلِ فيها، وتأديبٌ لمن بسَط له فيها ألَّا يطغَى فيها، ولا يُعطي نفسَه شهواتِها[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ طولُ الأمَلِ داءٌ عُضالٌ ومَرَضٌ مُزمِنٌ، ومتى تمكَّنَ مِن القلبِ فسَدَ مِزاجُه، واشتَدَّ عِلاجُه، ولم يفارِقْه داءٌ، ولا نَجَعَ فيه دواءٌ، بل أعيا الأطبَّاءَ، ويَئِسَ من بُرئِه الحُكَماءُ والعُلَماء. وحقيقةُ الأمَلِ: الحِرصُ على الدُّنيا، والانكبابُ عليها، والحُبُّ لها، والإعراضُ عن الآخرة، قال الحسَنُ: (ما أطال عبدٌ الأمَلَ إلَّا أساءَ العمَلَ). فالأمَلُ يُكسِلُ عن العمَلِ، ويُورِثُ التَّراخيَ والتَّوانيَ، ويُعقِبُ التَّشاغُلَ والتَّقاعُسَ، ويُخْلِدُ إلى الأرضِ، ويُميلُ إلى الهَوى، وهذا أمرٌ قد شُوهِدَ بالعِيانِ، فلا يَحتاجُ إلى بَيان، ولا يُطلَبُ صاحِبُه ببُرهانٍ، كما أنَّ قِصَرَ الأمَل يبعَثُ على العَمَل، ويُحيلُ على المُبادرة، ويَحُثُّ على المُسابَقة[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ سمِّي القرآنُ كتابًا؛ لأنَّهم مأمورون بكتابةِ ما ينزلُ منه؛ لحفظِه ومراجعتِه، فقد سمِّي القرآنُ كتابًا قبلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢-٣).

أن يُكتبَ ويُجمعَ؛ لأنَّه بحيثُ يكونُ كتابًا(١)، وفي هذه التسميةِ معجزةٌ للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ ما أُوحِي إليه سيُكتَبُ في المصاحفِ، ولذلك اتَّخَذ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أصحابِه كُتَّابًا يكتبُون ما أُنزِل إليه، ومِن أوَّلِ ما ابتُدِئ نزولُه. وقد وُجِد جميعُ ما حفِظه المسلمونَ في قلوبِهم على قَدْرِ ما وجَدوه مكتوبًا يومَ أمَر أبو بكرٍ بكتابةِ المصحفِ(٢).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ يَستدِلُّ به مَن قال: إنَّ (رُبَّ) للتَّكثيرِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ في الوعيدِ، إذْ لو كانت ذنوبُ المُسلِمينَ تُخَلِّدُهم مع الكفَّارِ في النَّارِ، ما وَدُّوا إسلامَهم، ولا تَحَسَّروا على ما رأوا مِن انتقالِ حالِهم، ولو كان لا يَسعَدُ بالجنَّةِ إلَّا صالِحو المُسلِمينَ والأنقياءُ مِن الذُّنوبِ، لكان- واللهُ أعلمُ-: «ربَما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

قال القرطبي: (أصلُها أن تُستعمَلَ في القليلِ، وقد تُستعملُ في الكثيرِ، أي: يودُّ الكفَّارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لو كانوا مسلمينَ، قاله الكوفيُّونَ... وقال بعضُهم: هي للتقليلِ في هذا الموضعِ؛ لأنَّهم قالوا ذلك في بعضِ المواضعِ لا في كلِّها، لشغلِهم بالعذابِ، واللَّهُ أعلمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١).

قال ابنُ عطية: (و«رُبَّما» للتقليلِ، وقد تجيءُ شاذةً للتكثيرِ، وقال قومٌ: إنَّ هذه مِن ذلك. وأنكر الزجَّاجُ أن تجيءَ «رُبَّ» للتكثيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٩)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٧٣).

ومنهم مَن جمَع بينَ المعنيينِ بأنَّ مَن قال: إنَّها للتكثيرِ نظَر إلى المرَّاتِ مِن التمنِّي، ومَن قال: إنَّها للتقليلِ نظَر إلى أزمانِ إفاقتِهم مِن العذابِ، فلا تنافيَ بينَ القولينِ؛ لأنَّ التمنِّي يقعُ كثيرًا منهم في زمنِ إفاقتِهم القليلِ. يُنظر: ((حاشية الجمل على تفسير الجلالين)) (٢/ ٥٦٣).

يَوَدُّ الذين كفَروا لو كانوا صالحينَ»(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (﴿ذَرْهُمْ﴾ تهديدٌ، وقولُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ آخَرُ، فمتى يهنأُ العَيشُ بين تهديدَينِ)(٢).

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ كُلَّ من مات أو قُتِلَ، فإنَّما مات بأجَلِه، فقولُه: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا﴾ إنْ دخَل تحتَه الموتُ فالاستدلالُ ظاهِرٌ لازِمٌ، وإنْ لم يدخُلْ فيُقالُ: إنَّ ما لأجلِه وَجَب في عذابِ الاستئصالِ أنْ لا يتقدَّمَ ولا يتأخَّرَ عن وقتِه المعيَّنِ قائِمٌ في الموتِ، فوجَب أنْ يكونَ الحكمُ هاهنا كذلك(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ وهذه الإشارةُ (تلك)؛ لتنزيلِ آياتِ القُرآنِ مَنْزِلةَ الحاضِرِ المُشاهَدِ، ووقَعَت هذه الآيةُ في مُفتتَحِ تهديدِ المُكذِّبينَ بالقُرآنِ؛ لقصدِ الإعذارِ إليهم باستدعائِهم للنَّظرِ في دلائلِ صدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وحَقِّيَّةِ دِينِه. و(الكتابُ) عَلَمٌ بالغلبَةِ على القُرآنِ، ولمَّا كان أصلُ التَّعريفِ باللَّامِ في الاسمِ المجعولِ عَلَمًا بالغلبَةِ جائيًا مِن التَّوسُّلِ بحرفِ التَّعريفِ إلى الدَّلالةِ على معنى كَمالِ الجنسِ في المُعرَّفِ به: لم ينقطِعْ عنِ العلَمِ بالغلبَةِ أنَّه فائقٌ في جِنْسِه بمعونةِ المقامِ؛

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢١).

فاقتضى أنَّ تلك الآياتِ هي آياتُ كتابٍ بالغٍ مُنْتهى كَمالِ جِنْسِه، أي: مِن كُتُبِ الشَّرائعِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ تَنْكيرُ القُرآنِ؛ للتَّفخيمِ، أي: تلك آياتُ الكتابِ الكامِلِ الجامِعِ في كونِه كتابًا كاملًا، وقُرآنًا يُبَيِّنُ الرُّشدَ مِن الغَيِّ بيانًا غريبًا، كأنَّه قيل: الكتابُ الجامِعُ للكمالِ والغَرابةِ في البَيانِ[٢].

- وعُطِفَ ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ على الكتابِ؛ لأنَّ اسمَ القُرآنِ جُعِلَ عَلَمًا على ما أُنْزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للإعجازِ والتَّشريعِ؛ فهو الاسمُ العَلَمُ لكتابِ الإسلامِ، مثلُ اسمِ التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبُورِ للكُتُبِ المُشتهِرَةِ بتلك الأسماءِ، وللإشارةِ إلى ما في كلٍّ مِن العَلَمَينِ مِن معنًى ليس في العَلَمِ الآخرِ؛ حَسُنَ الجمعُ بينهما بطريقِ العطْفِ[٣]، فكُلُّ واحدٍ منهما يُفيدُ معنًى لا يُفيدُه الآخَرُ؛ فإنَّ الكِتابَ هو ما يُكتَبُ، والقرآنَ هو ما يُجمَعُ بَعضُه إلى بعضٍ[٤].

وقيل: جمَع بينَ وصفيِ الكتابيَّةِ والقرآنيَّةِ؛ لما فيه مِن تفخيمِ شأنِ القرآنِ، حيثُ أُشير بالأوَّلِ -أي: الكتابِ- إلى اشتمالِه على صفاتِ كمالِ جنسِ الكتبِ الإلهيَّةِ، فكأنَّه كلُّها، وبالثاني -أي: القرآنِ- إلى كونِه ممتازًا عن غيرِه، بديعًا في بابِه، خارجًا عن دائرةِ البيانِ، قرآنًا غيرَ ذي عوجٍ[٥]. وقيل: كأنَّ الأوَّلَ إشارةٌ إلى حفظِه في الطروسِ بالكتابةِ، والثاني إلى حفظِه في الصدورِ بالدراسةِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٥٠).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣-٤).

- قولُه: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ (المُبِين) اسمُ فاعلٍ مِن (أبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمعنى (بان)؛ مُبالغةً في ظُهورِه، أي: ظُهورِ قُرآنيَّتِه العظيمةِ، أي: ظُهورِ إعجازِه الَّذي تَحَقَّقَه المُعانِدونَ وغيرُهم، ولم نَقُلْ: إنَّ المُبِينَ بمعنى (أبان) المُتعدِّي؛ لأنَّ كونَه بَيِّنًا في نفْسِه أشدُّ في توبيخِ مُنْكِريه مِن وصْفِه بأنَّه مُظْهِرٌ لِمَا اشتمَلَ عليه[١].

- وفي قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ابْتُدِئَ بالمُعرَّفِ باللَّامِ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لِمَا في التَّعريفِ مِن إيذانٍ بالشُّهرةِ والوُضوحِ، وما فيه مِن الدَّلالةِ على معنى الكَمالِ، ولأنَّ المُعرَّفَ هو أصْلُ الإخبارِ والأوصافِ. ثمَّ جِيءَ بالمُنكَّرِ ﴿وَقُرْءَانٍ﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ وصْفُه بالمُبِينِ، والمُنَكَّرُ أنسَبُ بإجراءِ الأوصافِ عليه، ولأنَّ التَّنكيرَ يدلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فوُزِّعَت الدَّلالتانِ على نُكْتَةِ التَّعريفِ ونُكْتَةِ التَّنكيرِ. وأمَّا تقديمُ الكتابِ على القُرآنِ في الذِّكْرِ؛ فلأنَّ سِياقَ الكلامِ توبيخُ الكافرينَ وتهديدُهم بأنَّهم سيجيءُ وقْتٌ يتمَنَّونَ فيه أنْ لو كانوا مُؤمنينَ؛ فلمَّا كان الكلامُ مُوجَّهًا إلى المُنكِرينَ ناسَبَ أنْ يستحضِرَ المُنزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِه الأعمِّ، وهو كونُه كِتابًا؛ لأنَّهم حين جادَلوا ما جادَلوا إلَّا في كتابٍ، فقالوا: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]؛ ولأنَّهم يعرِفونَ ما عندَ الأُمَمِ الآخرينَ بعُنوانِ (كِتابٍ)، ويعرِفونَهم بعُنوانِ (أهْلِ الكتابِ)، وأمَّا عُنوانُ (القُرآنِ) فهو مُناسِبٌ لكونِ الكتابِ مَقروءًا مَدْروسًا، وإنَّما يقرَؤُه ويدرُسُه المُؤمِنونَ به؛ ولذلك قُدِّمَ عُنوانُ (القُرآنِ) في سُورةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠).

النَّملِ في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[(١)] [النمل: ١].

وقيل: لما كان الغالبُ في هذه السورةِ القطعَ الذي هو مِن لوازمِ الكتابِ قدَّمه، وذلك أنَّه قطَع بأمرِ الأجلِ والملائكةِ، وحفظِ الكتابِ والرمي بالشُّهب، وكفايةِ المستهزئين، فكان كما قال سبحانَه، وكان الجمعُ بينَ الوصفينِ- أي: وصفِه بكونِه كتابًا وقرآنًا- الدال كلٌّ منهما على الجمعِ؛ إشارةً إلى الردِّ عليهم في جعلِهم القرآنَ عضين، وأنَّ قولَهم شديدُ المباعدةِ لمعناه. مع أنَّ المفهومينِ- مع تصادُقِهما على شيءٍ واحدٍ- متغايرانِ، فالكتابُ: ما يُدوَّنُ في الطُّروسِ، والقرآنُ: ما يُقرأُ باللسانِ[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ اسْتِئنافٌ ابْتِدائيٌّ، وهو مُفتتَحُ الغرَضِ وما قبْلَه كالتَّنبيهِ والإنذارِ، والكلامُ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّهويلِ في عدَمِ اتِّباعِهم دينَ الإسلامِ، والتَّقليلُ هنا مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّخويفِ، أي: احْذَروا وَدادَتكم أنْ تكونوا مُسلمينَ؛ فلعلَّها أنْ تقَعَ نادِرًا. و(لو) في ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ مُستعمَلَةٌ في التَّمنِّي؛ لأنَّ أصلَها الشَّرطيَّةُ؛ إذ هي حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ فهي مُناسِبةٌ لمعنى التَّمنِّي الَّذي هو طلَبُ الأمْرِ المُمْتنعِ الحُصولِ؛ فإذا وقَعَت بعدَ ما يدلُّ على التَّمنِّي استُعْمِلَت في ذلك، كأنَّها على تقديرِ قولٍ محذوفٍ يقولُه المُتمنِّي، ولمَّا حُذِفَ فِعْلُ القولِ عُدِلَ في حِكايةِ المقولِ إلى حكايتِه بالمعنى، فأصْلُ ﴿لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾: (لو كنَّا مُسلمينَ)، والْتُزِمَ حذْفُ جوابِ (لو)؛ اكتفاءً بدَلالةِ المَقامِ عليه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨- ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣-٤).

ثمَّ شاع حذْفُ القولِ، فأفادت (لو) معنى المصدريَّةِ؛ فصار المعنى: (يودُّ الَّذين كفَروا كونَهم مُسلمينَ)؛ ولذلك عَدُّوها مِن حُروفِ المصدريَّةِ، وإنَّما المصدرُ معنًى عارضٌ في الكلامِ وليس مَدْلولَها بالوضْعِ[١].

- قولُه: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ (رُبَّ) حرفُ جَرٍّ لا يدخُلُ إلَّا على الاسمِ، و(ما) كافَّةٌ مُصحِّحةٌ لدُخولِه على الفعْلِ، وحقُّه الدُّخولُ على الماضي، ودُخولُه على المُضارعِ هنا في قولِه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لأنَّه لمَّا كان المُتَرَقَّبُ في أخبارِ اللهِ تعالى كالماضي المقطوعِ به في تحقُّقِه، أُجْرِيَ مَجْراه، فكأنَّه قيلَ: (رُبَّما وَدَّ). ومعنى التَّقليلِ فيه: الإيذانُ بأنَّهم لو كانوا يودُّونَ الإسلامَ مَرَّةً، فبالحَرِيِّ أنْ يُسارِعوا إليه؛ فكيف وهم يَوَدُّونَه كلَّ ساعةٍ؟! وهذا التَّقليلُ واردٌ على مذهَبِ العربِ في قولِهم: لعلَّك ستندَمُ على فعْلِك، ورُبَّما ندِمَ الإنسانُ على ما فعَلَ، ولا يشُكُّونَ في تَنَدُّمِه، ولا يقصِدونَ تقليلَه، ولكنَّهم أرادوا: لو كان النَّدمُ مشكوكًا فيه أو كان قليلًا، لحَقَّ عليك ألَّا تفعَلَ هذا الفعْلَ؛ لأنَّ العُقلاءَ يتحرَّزونَ مِن التَّعرُّضِ للغَمِّ المَظنونِ كما يتحرَّزونَ مِن المُتيقَّنِ، ومِن القليلِ منه كما مِن الكثيرِ[٢]. وقيل في سبَبِ التَّقليلِ الَّذي تفيدُه (رُبَّ): إنَّ العرَبَ تُعَبِّرُ عنِ المعنى بما يُؤَدِّي عكْسَ مقصودِه، وكِلَا هذينِ الوجهَينِ يحمِلُ الكلامَ على المُبالغةِ بنوعٍ مِن الإيقاظِ إليها، والعُمدةُ في ذلك على سِياقِ الكلامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١ - ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢١٦)، ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ الغرَضُ منه إقناطُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ارْعِوائِهم، وإيذانُه بأنَّهم مِن أهلِ الخِذْلانِ، وأنَّ نُصْحَهم يُعَدُّ اشتغالًا بما لا طائلَ تحتَه، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ ومُبالغةٌ في الإنذارِ وإعذارٌ فيه، وتحذيرٌ عن إيثارِ التَّنعُّمِ وما يُؤَدِّي إليه طولُ الأملِ[1]. ولمَّا دَلَّت (رُبَّ) على التَّقليلِ اقتضَت أنَّ استمرارَهم على غُلْوَائِهم هو أكثرُ حالِهم، وهو الإعراضُ عمَّا يَدْعوهم إليه الإسلامُ مِن الكَمالِ النَّفسيِّ؛ فبإعراضِهم عنه رَضُوا لأنفُسِهم بحياةِ الأنعامِ، وهي الاقتصارُ على اللَّذاتِ الجَسديَّةِ؛ فخُوطِبَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يُعَرِّضُ لهم بذلك مِن أنَّ حياتَهم حياةُ أكْلٍ وشُرْبٍ، وذلك ممَّا يَتَعيَّرونَ به في مَجاري أقوالِهم، والأمْرُ بتركِهم مُستعمَلٌ في لازمِه، وهو قِلَّةُ جَدْوى الحرْصِ على إصلاحِهم، وليس مستعْمَلًا في الإذنِ بمُتاركتِهم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بالدَّوامِ على دُعائِهم. وقد حُذِفَ مُتعلِّقُ التَّركِ؛ لأنَّ الفعْلَ نُزِّلَ مَنْزِلةَ ما لا يحتاجُ إلى مُتعلِّقٍ؛ إذ المَعْنِيُّ به ترْكُ الاشتغالِ بهم، والبُعْدُ عنهم؛ فلذلك عُدِّيَ فعْلُ التَّرْكِ إلى ذواتِهم؛ ليدُلَّ على اليأْسِ منهم[2].

- وقولُه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ﴾ وعيدٌ وتهديدٌ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وعيدٌ ثانٍ[3].

- وفي تَقْديمِ الأكْلِ إيذانٌ بأنَّ تمتُّعَهم إنَّما هو مِن قَبيلِ تَمتُّعِ البَهائمِ بالمآكِلِ والمَشارِبِ، والمُرادُ: دوامُهم على ذلك لا إحداثُه؛ فإنَّهم كانوا كذلك. أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٠).

تمتُّعُهم بلا استماعِ ما يُنَغِّصُ عَيْشَهم مِن القوارعِ والزَّواجِرِ؛ فإنَّ التَّمتُّعَ على ذلك الوجْهِ أمْرٌ حادثٌ يصلُحُ أنْ يكونَ مُترتِّبًا على تَخْلِيَتِهم وشأْنَهم[١].

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيدٌ أيَّما وعيدٍ، وتهديدٌ بعدَ تهديدٍ، ومع ذلك فهو تعليلٌ للأمْرِ بالتَّركِ؛ فإنَّ عِلْمَهم ذلك عِلَّةٌ لترْكِ النَّهيِ والنَّصيحةِ لهم، وفيه إلزامٌ للحُجَّةِ، ومُبالغةٌ في الإنذارِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الأمْرُ بالضِّدِّ إلَّا بعدَ تكرُّرِ الإنذارِ، وتقرُّرِ الجُحودِ والإنكارِ، وكذلك ما ترتَّبَ عليه مِن الأكْلِ والتَّمتُّعِ والإلهاءِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾

- ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ صِلَةٌ؛ تفيدُ استغراقَ الجِنْسِ[٣]، وهي أيضًا للتَّأكيدِ[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ؛ لأنَّ في هذه الجُملةِ حُكْمًا يشمَلُهم، وهو حكمُ إمْهالِ الأُمَمِ الَّتي حَقَّ عليها الهلاكُ، أي: ما أهلَكْنا أُمَّةً إلَّا وقد متَّعْناها زَمَنًا، وكان لهلاكِها أجَلٌ ووقْتٌ محدودٌ؛ فهي مُمَتَّعةٌ قبْلَ حُلولِه، وهي مأخوذةٌ عندَ إبَّانِه[٥].

- قولُه: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ جُملةٌ واقعةٌ صِفَةً لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، والقياسُ ألَّا يتوسَّطَ الواوُ بينهما، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١).

﴾[الشعراء: ٢٠٨]، ولكنْ لمَّا شابَهَت صُورتُها الحالَ، أُدْخِلَت وتوسَّطَت؛ لتأكيدِ لُصوقِ الصِّفةِ بالموصوفِ، كما يُقال في الحالِ: (جاءني زيدٌ عليه ثوبٌ، وجاءني وعليه ثوبٌ)، وللإيذانِ بكَمالِ الالْتِصاقِ بينَهما مِن حيثُ إنَّ الواوَ شأْنُها الجمْعُ والرَّبطُ؛ فإنَّ ما نحن فيه مِن الصِّفةِ أقْوى لُصوقًا بالموصوفِ منها به(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ هذا تعريضٌ لتهديدٍ ووعيدٍ مُؤيَّدٍ بتَنْظيرِهم بالمُكذِّبينَ السَّالِفينَ(٢).

- قولُه: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ جُملةُ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾؛ لبيانِ فائدةِ التَّحديدِ: أنَّه عَدمُ المُجاوزةِ بَدْءًا ونِهايةً. وأُنِّثَ مُفْردًا ضميرُ الأُمَّةِ مَرَّةً؛ مُراعاةً للَّفْظِ في قولِه: ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾، وجُمِعَ مُذكَّرًا في قولِه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ مُراعاةً للمعنى، وحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ وهو (عنه)؛ للعلْمِ به، أي: وما يستأْخِرونَ عنه(٣). وكذلك جاء إيرادُ الفعْلِ على صِيغَةِ جمْعِ المُذكَّرِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ للحمْلِ على المعنى مع التَّغليبِ، ولرِعايةِ الفواصِلِ؛ ولذلك حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ(٤).

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ معنى ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: يتأخَّرونَ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

للتَّأكيدِ[١]، وعُبِّرَ فيه بصِيغةِ الاستفعالِ؛ للإشعارِ بعجْزِهم عن ذلك مع طلَبِهم له، وإيثارُ صِيغَةِ المُضارعِ في الفعلَينِ (تَسْبِقُ- يَسْتَأْخِرُونَ) بعدَما ذُكِرَ نفْيُ الإهلاكِ بصِيغَةِ الماضي ﴿أَهْلَكْنَا﴾؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامِهما واسْتِمرارِهما فيما بينَ الأُمَمِ الماضيةِ والباقيةِ، وإسنادُهما إلى الأُمَّةِ بعدَ إسنادِ الإهلاكِ إلى القريةِ؛ لأنَّ السَّبْقَ والاستئخارَ حالُ الأُمَّةِ دونَ القريةِ، مع ما في (الأُمَّةِ) مِن العُمومِ لأهْلِ تلك القُرى وغيرِهم ممَّن أُخِّرَت عُقوباتُهم إلى الآخرةِ، وتأخيرُ ذِكْرِ عدَمِ تأخُّرِهم عن ذِكْرِ عدَمِ سبْقِهم مع كونِ المَقامِ مَقامَ المُبالغةِ في بيانِ تحقُّقِ عذابِهم؛ إمَّا باعتبارِ تقدُّمِ السَّبْقِ في الوجودِ، وإمَّا باعتبارِ أنَّ المُرادَ بيانُ سِرِّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقِهم لذلك[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٦).

الآيات (٦-٩)

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّنظَرِينَ﴾: أي: مُؤخَّرينَ، والإنظارُ: التَّأخيرُ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى أنَّ المشركينَ قالوا للنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استهزاءً: يا من يزعُمُ نُزولَ القُرآنِ عليه، إنَّك لَمجنونٌ فيما تدعونا إليه مِن اتِّباعِك، وتَركِ ما وجَدنا عليه آباءَنا، هلَّا تأتينا بالملائِكةِ؛ لتشهَدَ على قولِك، إن كنتَ صادِقًا. فردَّ الله عليهم مقولتَهم بقولِه: لا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلَّا بالحَقِّ -كالوحي أو العذابِ- لا بحسَبِ اقتراحاتِهم، وما كان اللهُ لِيُمهِلَهم حين تَنزِلُ عليهم الملائِكةُ -كما اقترحوا- ويرونهم ولا يؤمنون، بل سيعذِّبُهم حينئذٍ.

أوَلم يكفِهم مِن الآياتِ هذا القرآنُ الذي نزَّله الله تعالى على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والذي تولَّى حِفظَه جلَّ وعلا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بالغَ اللهُ تعالى في تهديدِ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ بعده شُبَهَهم في إنكارِ نبُوَّةِ النبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ [الحِجر: ٣]، والمناسبةُ أنَّ المعطوفَ عليها تضمَّنَت انهِماكَهم في الملذَّاتِ والآمالِ، وهذه تضَمَّنَت توغُّلَهم في الكُفرِ، وتكذيبَهم الرِّسالةَ المُحمَّديَّة[٢].

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُريشٍ لمحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- تهكُّمًا به: يا مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ نزَّل عليه القرآنَ، إنَّك لَمجنونٌ في دَعوتِك لنا إلى اتِّباعِك، وتَرْكِ عبادةِ الأصنامِ التي وجَدْنا عليها آباءَنا[٣].

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: وقالوا له: هلَّا تُحضِرُ إلينا الملائِكةَ؛ ليَشهَدوا لك على ما تَقولُ، إن كنتَ من الصَّادِقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ حقًّا، فإنْ لم تأتِنا بالملائكةِ، فلسْتَ بصادقٍ في دَعواك[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٤).

لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢١].

وقال تعالى حاكيًا قولَ فِرعونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣].

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ ﴾.

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: ما نُنَزِّلُ الملائِكةَ إلَّا بما يحِقُّ ويجِبُ- كالوحيِ أو العذابِ، وغيرِ ذلك- تَنزيلًا مُلتَبِسًا بالحِكمةِ والمصلحةِ، لا على حسَبِ اقتراحِ الكُفَّارِ(١).

﴿ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴾.

أي: ولو نزَّلنا الملائِكةَ على الكُفَّارِ- كما اقترَحوا- فرَأَوا الملائِكةَ عِيانًا ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

قال أبو حيان: (الحَقُّ هنا: العذابُ، قاله الحسنُ، أو الرِّسالةُ، قاله مجاهدٌ، أو قبضُ الأرواحِ عندَ الموتِ، قاله ابنُ السائبِ، أو القرآنُ، ذكَره الماوردي. وقال الزمخشري: إلَّا تنزُّلًا مُلتَبِسًا بالحكمةِ والمصلحةِ، ولا حكمةَ في أن تأتيَكم عِيانًا تشاهِدونَهم، ويشهدونَ لكم بصدقِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم؛ لأنَّكم حينئذٍ مصَدِّقونَ عن اضطرارٍ. وقال ابنُ عطيةَ: والظاهرُ أنَّ معناها: كما يجِبُ ويحِقُّ مِن الوحيِ والمنافعِ التي أرادَها الله تعالى لعبادِه، لا على اقتراحِ كافرٍ، ولا باختيارِ مُعترِضٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٤).

قال السمعاني: (الحقُّ الَّذي تنزلُ به الملائكةُ هو الوحيُ، وقبضُ أرواحِ العبادِ، وإهلاكُ الكفَّارِ، وكتابةُ الأعمالِ، وما أشبهَ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه استِئنافٌ لإبطالِ جُزءٍ مِن كَلامِ الكافِرينَ المُستَهزِئينَ به، إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، بعدَ أن عجَّلَ كَشْفَ شُبهَتِهم في قَولِهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾.

أي: إنَّا نحنُ نزَّلْنا القرآنَ الذي فيه الذِّكرَى والموعِظةُ والشَّرَفُ[2].

الخازن)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ جُزي، والخازنُ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّيُّ . يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٥٨).

وقيل: المعنى: ولو نزَّلنا الملائكةَ على الكفَّارِ بالعذابِ، فلن يُؤخِّرَ الله عنهم العذابَ حينَ نزولِه، ولن تُقبَلَ لهم توبةٌ. وممن اختار هذا المعنى: القرطبي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤-٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

قال ابنُ الجوزي: (الذِّكرُ: القرآنُ، في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).

وقال الرازي: (في تسميةِ القرآنِ بالذِّكْرِ وجوهٌ: أحدُها: أنَّه كتابٌ فيه ذِكْرُ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ مِنْ أمرِ دينِهم ودُنْياهم. وثانيها: أنَّه يذكُرُ أنواعَ آلاءِ اللَّه تعالَى ونعمائِه، ففيه التَّذكيرُ والمواعِظُ.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

وإنَّا له لحافِظونَ في حالِ إنزالِه مِن استِراقِ كلِّ شَيطانٍ رَجيمٍ، وبعدَ إنزالِه بحِفظِ ألفاظِه ومعانيه من الزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ قد أرادوا الاستهزاءَ بوصْفِه، فأنطَقَهم اللهُ بالحقِّ فيه صرْفًا لألسنتِهم عنِ الشَّتْمِ، وهذا كما كانوا إذا شَتَموا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو هَجَوه يَدْعونَه مُذَمَّمًا[2].

٢- قولُ المكذبينَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ من أعظمِ الظلمِ والجهلِ، أمَّا الظلمُ فظاهرٌ؛ فإنَّ هذا تجرؤٌ على الله، وتعنُّتٌ بتعيينِ الآياتِ التي

وثالثُها: فيه الذِّكرُ والشَّرفُ لك ولقومِك على ما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

عن أبي هريرةَ، رضِي اللَّه عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألا تعجبونَ كيفَ يصرِفُ اللَّهُ عنِّي شتمَ قُريشٍ ولعنَهم؟! يشتمونَ مُذَمَّمًا، ويلعنونَ مُذَمَّمًا، وأنا محمَّدٌ)). أخرجه البخاري (٣٥٣٣).

لم يختَرْها، وحصَل المقصودُ والبرهانُ بدونِها مِن الآياتِ الكثيرةِ الدالةِ على صحةِ ما جاء به، وأمَّا الجهلُ: فإنَّهم جهِلوا مصلحتَهم مِن مضرتِهم، فليس في إنزالِ الملائكةِ خيرٌ لهم، بل لا ينزلُ الله الملائكةَ إلَّا بالحقِّ الذي لا إمهالَ على من لم يَتبعْه، ويَنْقَدْ له[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ يُفهَم منه أنَّ الله مُنظِرُهم؛ لأنَّه لم يُرِدِ استئصالَهم؛ لأنَّه أراد أن يكونَ نشرُ الدينِ بواسطتِهم، فأمهَلهم حتَّى اهتدوا، ولكنَّه أهلَك كبراءَهم ومُدبِّريهم[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ من عادةِ المُلوكِ إذا فعلوا شيئًا، قال أحَدُهم: نحن فعَلْنا، يريدُ نفسَه وأتباعَه، ثمَّ صار هذا عادةً للمَلِكِ في خِطابِه، وإن انفرَدَ بفِعلِ الشَّيءِ، فخُوطِبَت العرَبُ بما تعقِلُ مِن كَلامِها[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الذي بَعَثَ اللهُ به نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، مَضبوطٌ ومحروسٌ[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الله سُبحانَه تكفَّلَ بحِفظِ كتابِه؛ فلم يتمكَّنْ أحدٌ مِن الزيادةِ في ألفاظِه، ولا مِن النَّقصِ منها[5]، فقد تكفَّلَ تعالى بحفْظِه في كلِّ وقْتٍ، فلا يَعْتَريه زيادةٌ ولا نُقصانٌ، ولا تحريفٌ ولا تَبْديلٌ، بخلافِ غيرِه مِن الكُتُبِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّه تعالى لم يتكفَّلْ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٥١٧).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٦٢٠).

حِفْظَها، بل أخبَرَ تعالى أنَّ الرَّبانيِّينَ والأحبارَ اسْتُحْفِظُوها؛ ولذلك وقَعَ فيها الاختلافُ[(١)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فيه أنَّ القرآنَ آيةٌ مستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ بخلافِ الآياتِ السَّابقةِ؛ الآياتُ السَّابِقةُ مَشهودةٌ ينتَفِعُ بها المُشاهِدونَ لها، أمَّا مَن بَعدَهم فإنَّما تَصِلُ إليهم عن طريقِ الأخبارِ، ومن المعلومِ أنَّه ليس الخبَرُ كالعِيانِ، وأمَّا القُرآنُ فإنَّه بيننا نشاهِدُه ونَسمَعُه ونتلوه، فليس هو مِن طريقِ الخبَرِ عن شيءٍ مضَى، فيكونُ أعظَمَ مِن الآياتِ التي انقَضَتْ وزالَتْ، وهذا هو السِّرُّ في أنَّ القُرآنَ كان آيةً لكُلِّ النَّاسِ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مبعوثٌ إلى جميعِ البَشَرِ[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ مِن جهةِ ذِكْرِ نزولِ الأشياءِ مِن عِندِه[(٣)].

٩- مَن زَعَم أنَّ القرآنَ قد حُذِفَ منه شَيءٌ، فإنَّه كافرٌ؛ لأنه مُكَذِّبٌ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(٤)].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ومِن حِفظِه أنَّ اللهَ يحفَظُ أهْلَه مِن أعدائِهم[(٥)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧).
(٢) يُنظر ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٣).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٢٩).
(٤) يُنظر: ((شرح منظومة القواعد والأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (٤٢٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ نادَوا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّهكُّمِ، وللتَّشهيرِ بالوصفِ المُنادى به؛ ويدلُّ على ما نادَوه له وهو قولُهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾، وهذا الوصفُ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ قالوه على جِهَةِ الاستهزاءِ والاستخفافِ، لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له، وإشعارًا بعِلَّةِ حُكمِهم الباطلِ في قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾؛ لأنَّهم لا يُقِرُّون بتنزيلِ الذِّكْرِ عليه، وينسِبونَه إلى الجُنونِ؛ كما قال فِرعونُ: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وكيف يُقِرُّونَ بنُزولِ الذِّكرِ عليه وينسِبونَه إلى الجُنونِ؟!(١). أو يكونُ في الكلامِ حذْفٌ، أي: يا أيُّها الَّذي تَدَّعي أنَّك نزَلَ عليك الذِّكرُ...إلخ(٢).

- وفي قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ تأكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لقصْدِهم تحقيقَ ذلك له؛ لعلَّه يرتدِعُ عن الاستمرارِ فيه، أو لقصْدِهم تحقيقَه للسَّامعينَ حاضِري مَجالِسِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦)، ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٣-٢٥٤) للشنقيطي.

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٦).

وهذا جريًا على قاعدةِ: أنَّ الخطابَ بالشيءِ قد يردُ في القرآنِ على اعتقادِ المخاطَبِ، دونَ ما في نفسِ الأمرِ، فقولُه ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ ﴾ صحيحٌ وحقٌّ، وإن كان قائلُه منكرًا لذلك، لكنَّه أطلَقه على حسبِ اعتقادِ مَن خاطَبه أولئك الكفَّارُ، وهو الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ محملُه هنا: أي: بحسبِ زعمِك. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦).

- وفي قولِه: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على القائمِ مَقامَ الفاعلِ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾؛ لأنَّ إنكارَهم مُتوجِّهٌ إلى كونِ النَّازلِ ذِكْرًا مِن اللهِ تعالى، لا إلى كونِ المُنزَّلِ عليه رسولَ اللهِ بعدَ تسليمِ كونِ النَّازِلِ منه تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ الإنكارَ هناك مُتوجِّهٌ إلى كونِ المُنزَّلِ عليه رسولَ اللهِ تعالى، وإيرادُ الفعْلِ على صِيغَةِ المجهولِ ﴿نُزِّلَ﴾؛ لإيهامِ أنَّ ذلك ليس بفعْلٍ له فاعلٌ، أو لتوجيهِ الإنكارِ إلى كونِ التَّنزيلِ عليه لا إلى استنادِه إلى الفاعِلِ[(١)].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا﴾ رُكِّبَ قولُه: ﴿لَّوۡ﴾ مع قولِه: ﴿مَا﴾- كما رُكِّبَت (لو) مع (لا)- لمعنيينِ: معنى امتناعِ الشَّيءِ لوُجودِ غيرِه، ومعنى التَّحضيضِ، والمعنى: هلَّا تأتينا بالملائكةِ يَشْهدونَ بصِدْقِك، ويُعضِّدونَك على إنذارِك، كقولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ٧]، أو: هلَّا تأتينا بالملائكةِ للعقابِ على تكذيبِنا لك إنْ كنْتَ صادقًا، كما كانت تأتي الأُمَمَ المُكذِّبةَ برُسُلِها[(٢)].

- وجُملةُ ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ استدلالٌ على ما اقتضَتْه الجُملةُ قبْلَها، باعتبارِ أنَّ المقصودَ منها تكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ ما يصدُرُ مِن المجْنونِ مِن الكلامِ لا يكونُ جاريًا على مُطابقةِ الواقعِ؛ فأكثَرُه كذِبٌ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧).

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، أي: مِن النَّاسِ الَّذين صِفَتُهم الصِّدقُ، وهو أقوى وأبلَغُ في التَّخلُّقِ بالصِّدقِ مِن: (إنْ كنْتَ صادقًا)(١).

٣- قولُه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ فيه ابتداءُ الجَوابِ بإزالةِ شُبْهتِهم -إذ قالوا قبْلُ: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾- أُرِيدَ منه إزالةُ جَهالتِهم؛ إذ سألوا نُزولَ الملائكةِ علامةً على التَّصديقِ؛ لأنَّهم وإنْ طَلَبوا ذلك بقصْدِ التَّهكُّمِ، فهم مع ذلك مُعتقِدونَ أنَّ نُزولَ الملائكةِ هو آيةُ صدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان جوابُهم مَشُوبًا بطرَفٍ مِن الأسلوبِ الحكيمِ، وهو صرْفُهم إلى تَعليمِهم المَيْزَ بينَ آياتِ الرُّسلِ وبينَ آياتِ العذابِ؛ فأراد اللهُ ألَّا يَدَّخِرَهُم هدْيًا، وإلَّا فهم أحْرِياءُ بألَّا يُجابوا(٢).

- و﴿إِذًا﴾ حرْفُ جَوابٍ وجَزاءٍ، وقد وُسِّطَت هنا بينَ جُزْأَيْ جوابِها؛ رعيًا لمُناسبةِ عطْفِ جَوابِها على قولِ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾، وكان شأْنُ ﴿إِذًا﴾ أنْ تكونَ في صدْرِ جوابِها، وجُملتُها هي الجوابُ المقصودُ لقولِهم: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وجُملةُ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مُقدَّمةٌ مِن تأْخيرٍ؛ لأنَّها تعليلٌ للجَوابِ؛ فقُدِّمَ لأنَّه أوقَعُ في الرَّدِّ، ولأنَّه أسعَدُ بإيجازِ الجوابِ، وتقديرُ الكلامِ: لَوْما تَأْتينا بالملائكةِ إنْ كنْتَ مِن الصَّادقينَ، إذنْ ما كنْتُم مُنْظَرِينَ بالحياةِ، ولعُجِّلَ لكم الاستئصالُ؛ إذ ما تُنَزَّلُ الملائكةُ إلَّا مَصْحوبينَ بالعذابِ الحاقِّ(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ في سَبْكِ هاتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩).

الجُملتينِ مِن الدَّلالةِ على كَمالِ الكِبرياءِ والجَلالةِ وعلى فَخامةِ شأْنِ التَّنزيلِ ما لا يَخْفَى، وفي إيرادِ الثَّانيةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾: دَلالةٌ على دَوامِ الحفْظِ[١].

- وقولُه أيضًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لإبطالِ جزءٍ مِن كلامِهم المستهزئينَ به، إذ قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، بعدَ أن عجَّل كشفَ شبهتِهم في قولِهم: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جاء نشْرُ الجوابَينِ على عكسِ لَفِّ المَقالَينِ[٢]؛ اهتمامًا بالابتداءِ بردِّ المَقالِ الثَّاني بما فيه مِن الشُّبْهةِ بالتَّعجيزِ والإفحامِ، ثمَّ انْتُقِل إلى رَدِّ تعريضِهم بالاستهزاءِ، وسُؤالِ رُؤْيةِ الملائكةِ، وكان هذا الجوابُ مِن نوعِ القولِ بالمُوجَبِ[٣] بتقريرِ إنزالِ الذِّكْرِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

(٢) اللَّف والنَّشْر: هو ذكرُ شيئين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا - بالنصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا - بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ - ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي، واللَّفُّ المُفصَّل يأتي النشرُ اللَّاحقُ له على وجهين:
الوجهُ الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّبَ».
الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٣) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليين: هو تسليمُ ما جعَله المستدلُّ موجِبًا لعِلَّته مع استبقاءِ

الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مُجاراةً لظاهِرِ كلامِهم، والمقصودُ: الرَّدُّ عليهم في استهزائِهم، فأُكِّدَ الخبَرُ بـ(إنَّا) وضميرِ الفصْلِ (نحن) مع مُوافقَتِه لِمَا في الواقعِ، وفي هذا -مع التَّنويهِ بشأْنِ القُرآنِ- إغاظةٌ للمُشركينَ بأنَّ أمْرَ هذا الدِّينِ سَيتِمُّ، ويَنْتشِرُ القُرآنُ، ويبقَى على مَمَرِّ الأزمانِ، وهذا مِن التَّحدِّي؛ ليكونَ هذا الكلامُ كالدَّليلِ على أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ آيةً على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان مِن قولِ البشَرِ أو لم يكُنْ آيةً، لَتطرَّقَتْ إليه الزِّيادةُ والنُّقصانُ، ولاشتمَلَ على الاختلافِ[1].

- قولُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ فيه توكيدُ أنَّه هو المُنَزِّلُ على القطْعِ والبَتاتِ، وهو رَدٌّ لإنكارِهم واستهزائِهم؛ ولذلك أكَّدَه مِن وُجوهٍ وقرَّرَه بقولِه: ﴿وَإِنَّا

الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بينهما. ومنه قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فقد قال رأسُ النفاقِ ابنُ سلولَ: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ من غزوة بني المصطلق ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ ﴾ -يقصد نفسه- ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ يعني: محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه؛ فأجابه الله تبارك وتعالى بمُوجَب قولِه مع عدمِ تسليمِه له، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فإنه لَمَّا ذكر صِفةً، وهي العزةُ، وأثبَت لها حُكمًا، وهو الإخراجُ مِن المدينةِ؛ ردَّ عليه ربُّ العِزة تبارك وتعالى بأنَّ هذه الصفةَ ثابتةٌ لكن لا لِمَن أراد ثُبوتَها له؛ فإنَّها ثابتةٌ لغيرِه، باقيةٌ على اقتضائِها للحُكمِ، وهو الإخراجُ؛ فالعزةُ موجودةٌ لكن لا له، بل للهِ ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. يُنظر: ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص٣٣٥)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (٤/ ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((شرح المحلِّي على جمع الجوامع)) (٢/ ٣١٦)، ((غايه الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١)، ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠ - ٢٢).

لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[١]، فلمَّا قالوا على سبيلِ الاستهزاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ ﴾، رَدَّ عليهم بأنَّه هو المُنَزِّلُ عليه، فليس مِن قِبَلِه ولا قِبَلِ أحدٍ، بل هو اللهُ تعالى الَّذي بعَثَ به جبريلَ عليه السَّلامُ إلى رسولِه، وأكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ ﴾ بدُخولِ (إنَّ) وبلفظِ (نحن)، وهو تأكيدٌ لاسمِ (إنَّ)، ثمَّ قال: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، أي: مِن كلِّ ما لا يليقُ به؛ فيدخُلُ فيه تكذيبُهم له واسْتِهزاؤهم به دُخولًا أوَّليًّا؛ فيكونُ وعيدًا للمُستهزِئينَ[٣].

- واتَّصَلَ قولُه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ بقولِه: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ ﴾؛ لأنَّه قد جعَلَ ذلك دليلًا على أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِه آيةً؛ لأنَّه لو كان مِن قولِ البشَرِ أو غيرَ آيةٍ، لَتطرَّقَ عليه الزِّيادةُ والنُّقصانُ كما يتطرَّقُ على كلِّ كلامٍ سِواه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧).

الآيات (١٠-١٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ
أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيَعِ﴾: أي: أُمَم وفِرَق، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ[١].

﴿نَسْلُكُهُ﴾: أي: نُدخِلُه، والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (سلك): يدلُّ على نفاذِ شَيءٍ في شَيءٍ[٢].

﴿يَعْرُجُونَ﴾: أي: يَصعَدونَ، وأصلُ (عرج): يدلُّ على سُمُوٍّ وارتِقاءٍ[٣].

﴿سُكِّرَتْ﴾: أي: سُدَّتْ، ومُنِعَت النَّظَرَ، وأصلُه مِنَ السَّكْرِ الذي هو سدُّ الشَّقِّ؛ لئلَّا ينفجرَ الماءُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥- ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((المخصص)) لابن سِيده (١/ ١٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قد أرسل رُسُلًا في الأُمَمِ الماضيةِ، فما كان منهم حينَ أتَتْهم رسلُهم إلَّا الاستهزاءُ بهم والتَّكذيبُ لهم، كذلك نُدخِلُ القرآنَ قلوبَ المجرمينَ، فهم يسمعونَه ويفهمونَه ويعلمونَ أنَّه حقٌّ ومع ذلك يُكذِّبونَ به، فلا يؤمنونَ بالقرآنِ الذي أُنزِلَ إليك، وقد مَضَت عادةُ اللهِ بإهلاكِ الكُفَّارِ.

ولو فتَحْنا على كفَّارِ مكَّةَ بابًا من السَّماءِ فاستَمَرُّوا صاعدينَ فيه حتى يشاهِدوا ما في السَّماءِ مِن عجائبِ مَلَكوتِ اللهِ؛ لَمَا صدَّقوا، ولقالوا: سُدَّتْ أبصارُنا فلم نرَ شيئًا، وما نحنُ إلَّا مَسحورونَ مِن محمَّدٍ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى استهزاءَ الكُفَّارِ بالنبيِّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - ونِسبَتَه إلى الجُنونِ، واقتراحَ نزولِ الملائكةِ؛ سلَّاه تعالى بأنَّ المرسلينَ مِن قَبلِه كان ديدَنُ مَن أُرسِلوا إليهم مِثلَ دَيدَنِ هؤلاء معَه[١]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- رسُلًا في الأُمَمِ الماضيةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضيةَ مِن رَسولٍ أرسَله اللهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلَّا سخِروا به وكَذَّبوه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

كذلك(٢) نُدخِلُ القرآنَ قلوبَ المجرمينَ، فهم يسمعونَه ويفهمونَه ويعلمونَ أنَّه حقٌّ، وأنَّه يفوقُ كلَّ كلامٍ، وأنَّهم عاجزونَ عن معارضتِه، مع أنَّه بلسانِهم، ومع ذلك يُكذِّبونَ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

(٢) قال الشوكاني: (مِثْلُ ذلك الَّذي سَلَكْناه في قلوبِ أولئك المستهزئينَ برسلِهم ﴿نَسْلُكُهُ﴾ أي: الذِّكرُ في قلوبِ المجرمينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣).

وقال الرازي: (﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أي: هكذا نَسْلُكُ القرآنَ في قلوبِ المجرمينَ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٢٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ أنَّ الضميرَ في قولِه تعالى: ﴿نَسْلُكُهُ﴾ عائدٌ على القرآنِ:

الزمخشري، والرازي، والغرناطي، وابنُ القيم، والشوكاني، والبقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٢٩٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

قال ابن عاشور: (أي: هكذا نولجُ القرآنَ في عُقولِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونه ويفهمونَه؛ إذ هو من كلامِهم، ويُدرِكونَ خصائِصَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤).

وممَّن اختار أن الضمير في قولِه تعالى: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائدٌ على الاستهزاءِ والتكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، (تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

قال النحاسُ: (هذا القَولُ [أي: نسلكُ التكذيبَ] هو الذي عليه أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ، إلَّا مَن شَذَّ منهم). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وابنُ جريجٍ، وقتادةُ، والحسنُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر : ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥).

قال ابنُ القيِّمِ بعدَ أن ذكَر أقوالَ السلفِ في معنى الآيةِ: (وهذه الأقوالُ ترجِعُ إلى شيءٍ واحدٍ، والتكذيبُ والاستهزاءُ والشِّركُ كُلُّ ذلك فِعلُهم حقيقةً، وقد أخبر أنَّه سبحانه هو الذي سلَكه في قلوبِهم، وعندي في هذه الأقوال شيءٌ؛ فإنَّ الظاهر أنَّ الضميرَ في قولِه ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ فلا يصِحُّ أن يكون المعنى: لا يؤمنون بالشِّركِ والتكذيبِ والاستهزاءِ، فلا تصِحُّ تلك الأقوالُ إلا باختلافِ مفسِّرِ الضميرين، والظاهِرُ اتحادُه؛ فالذين لا يؤمنون به هو الذي سلكَه في قلوبِهم، وهو القرآنُ، فإن قيل: فما معنى سَلْكِه إياه في قلوبِهم وهم ينكرونَه؟ قيل: سَلْكُه في قلوبهم بهذه الحال، أي: سلكناه غيرَ مؤمِنين به، فدخل في قلوبهم مُكذَّبًا به، كما دخَل في قلوبِ المؤمنينَ مُصَدَّقًا به، وهذا مرادُ مَن قال: إنَّ الذي سلَكه في قلوبِهم هو التكذيبُ والضَّلالُ، ولكن فسَّر الآيةَ بالمعنى؛ فإنَّه إذا دخَل في قلوبهم مكذِّبينَ به، فقد دخَل التكذيبُ والضلالُ في قلوبِهم، فإن قيل: فما معنى إدخالِه في قلوبِهم وهم لا يؤمنون به؟ قيل: لتقومَ عليهم بذلك حجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم، وعلِموا أنَّه حقٌّ، وكذَّبوا به فلم يدخُلْ في قلوبِهم دخولَ مُصَدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضِيٍّ به، وتكذيبُهم به بعد دخولِه في قلوبهم

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾.

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ الذي أنزَلْناه على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: وقد مضتْ عادةُ اللهِ بإهلاكِ الكفَّارِ مِن الأُممِ الماضيةِ ممن كَذَّبَ الرُّسلَ[(٢)].

أعظمُ كُفرًا من تكذيبهم به قبلَ أن يدخُلَ في قلوبهم؛ فإنَّ المكذِّبَ بالحَقِّ بعدَ معرفتِه له، شرٌّ مِن المكذِّبِ به ولم يعرِفْه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه من فِقهِ التفسيرِ، والله الموفِّقُ للصواب). ((شفاء العليل)) (ص: ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨).

قال أبو حيان: (و﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن كان إخبارًا مُستأنفًا فهو من العامِّ المرادِ به الخصوصُ فيمن ختم عليه؛ إذ قد آمَن عالَمٌ ممن كذَّب الرَّسولَ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٦٩).

وقال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى القرآنِ بالإجماعِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٥).

وقال العكبري: (والهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للرَّسولِ، أو للقرآنِ، وقيلَ: للاستهزاءِ أيضًا، والمعنَى: لا يُؤمِنونَ بسببِ الاستهزاءِ، فحُذِف المضافُ). ((التبيان في إعراب القرآن)) (٢/ ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ القومَ لَمَّا طَلَبوا نُزولَ ملائكةٍ يُصَرِّحونَ بتَصديقِ الرَّسولِ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في كونِه رسولًا مِن عندِ اللهِ تعالى؛ بيَّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّه بتقديرِ أن يحصُلَ هذا المعنى، لقال الذين كَفَروا: هذا مِن بابِ السِّحرِ[١]، فهو كلامٌ جامعٌ لإبطالِ جميعِ معاذيرِهم، فهم لا يطلُبونَ الدَّلالةَ على صدقِه، ولكنَّهم يَنْتَحِلونَ المعاذيرَ المختلِفَةَ[٢].

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(٤/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٩).

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: البغوي، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢).

وقيل: المعنى: وقد مَضَت سنَّةُ الأوَّلينَ بتكذيبِ رُسُلِ الله، وهؤلاء المُشرِكونَ يقتَفونَ آثارَهم. وممن اختار هذا المعنى: الزجاج، والنحاس، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٧٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٨٩).

قال ابنُ جريرٍ: (وقولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى ذِكرُه: لا يؤمِنُ بهذا القرآن قومُك الذين سلكتُ في قلوبهم التكذيبَ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أخذًا منهم سنَّةَ أسلافِهم من المشركين قبلَهم مِن قومِ عادٍ وثمودَ وضُرَبائهم من الأمم التي كذَّبت رسُلَها، فلم تؤمِنْ بما جاءها من عند اللهِ حتى حلَّ بها سخَطُ الله فهلَكَت). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((نفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥).

أي: ولو فَتَحْنا على هؤلاءِ الكُفَّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فجعلوا يصعَدُونَ في وضَحِ النَّهارِ في ذلك البابِ، ويُشاهِدونَ ما في السَّماءِ بأعيُنِهم مِن مَلَكوتِ اللهِ تعالى وقُدرتِه وسُلطانِه ومَلائكَتِه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممن ذهَب إلى هذا المعنَى المذكورِ: الزمخشري، والقرطبي، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

قال ابنُ جزي في قولِه: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ...﴾: (الضمائرُ لكفَّارِ قريشٍ المعاندينَ المحتومِ عليهم بالكفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ عائدٌ على الملائكة: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والواحدي، والثعلبي، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٤).

قال السمعاني: (الأكثرونَ على أنَّهم الملائكةُ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١).

وقال ابنُ الجوزي: (في المشارِ إليهم بهذا الصعودِ قولانِ: أحدهما: أنَّهم الملائكةُ، قاله ابنُ عبَّاس والضحَّاكُ، فالمعنى: لو كُشِف عن أبصارِ هؤلاء فرَأَوا بابًا مفتوحًا في السماءِ، والملائكةُ تصعَدُ فيه؛ لَمَا آمنوا به. والثاني: أنَّهم المشركونَ، قاله الحسنُ وقتادةُ، فيكون المعنى: لو وصَّلْناهم إلى صعودِ السَّماءِ لم يستشعِروا إلَّا الكفرَ؛ لعنادِهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٣).

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾.

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾.

أي: لجَحَدوا أن يكونوا رأَوا شَيئًا، فقالوا: إنَّما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحرِ، ومُنِعَت من النَّظَرِ[١]!

﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾.

أي: بل[٢] نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ، فما عُدْنا نعقِلُ الأشياءَ ونراها كما يجِبُ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الأنعام: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ * وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ [القمر: ٢- ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ هذا تعزيةٌ وتَسليةٌ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودَلالةٌ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن الرُّسُلِ كان مُبتلًى بقَومِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

(٢) قال الشوكاني: (أضْرَبوا عن قولِهم: ﴿سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، ثمَّ ادَّعَوْا أنَّهم مسحورونَ، أي: سَحَرهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّة والمُعتَزِلة، وهي أبيَنُ آيةٍ في ثُبُوتِ القَدَرِ؛ لِمَن أذعَنَ للحَقِّ ولم يُعانِدْ[١]، وهذا على اعتبارِ أنَّ ما يُسلَكُ في قلوبِهم هو الكفرُ والتكذيبُ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إبطالٌ لاستهزائِهم على طريقةِ التَّمثيلِ بنُظرائِهم مِن الأُمَمِ السَّالفةِ. وفي هذا التَّنظيرِ تحقيقٌ لكُفرِهم؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك السَّالفينَ مُقَرَّرٌ عندَ الأُمَمِ، ومُتحدَّثٌ به بينَهم. وفيه أيضًا تعريضٌ بوعيدِ أمثالِهم، وإدماجٌ بالكِنايةِ عن تسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ﴾ والتَّأكيدُ بلامِ القسَمِ و(قد)؛ لتحقيقِ سَبْقِ الإرسالِ مِن اللهِ، مِثْل الإرسالِ الَّذي جَحَدوه واسْتَعْجبوه[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هو تسليةٌ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، و(ما) للحالِ، لا يدخُلُ إلَّا مُضارِعًا بمعنى الحالِ، أو ماضيًا قريبًا منه، وهذا على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ فصِيغَةُ الاستقبالِ ﴿يَأْتِيهِم﴾ لاستحضارِه الصُّورةَ على طريقةِ حِكايةِ الحالِ الماضيةِ[٤]، وأكَّد

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

النفيَ فقال: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: على أيِّ وجهٍ كان[١].

- قولُه: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يدلُّ على تكرُّرِ ذلك منهم وأنَّه سُنَّتُهم؛ فـ(كان) دلَّت على أنَّه سَجِيَّةٌ لهم، والمُضارعُ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دلَّ على تكرُّرِه منهم، وتقديمُ المجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يفيدُ القصْرَ للمُبالغةِ؛ لأنَّهم لمَّا كانوا يُكْثِرونَ الاستهزاءَ برَسولِهم، وصار ذلك سَجِيَّةً لهم، نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَن ليس له عمَلٌ إلَّا الاستهزاءُ بالرَّسولِ[٢]، ولعلَّه عبَّر عنه بالسينِ المفهمةِ للطلبِ إشارةً إلى أنَّ رغبتَهم في الاستهزاءِ لا تنقضي، كما هو شأنُ الطالبِ للشيءِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن سُؤالٍ يخطُرُ ببالِ السَّامعِ لقولِه: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، فيتَساءلُ: كيف توارَدَت هذه الأُمَمُ على طريقٍ واحدٍ مِن الضَّلالِ، فلم تُفِدْهم دعوةُ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ؟ أو الجملة مُستأنَفَةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾؛ إذ قد يخطُرُ بالبالِ أنَّ حِفْظَ الذِّكْرِ يقتضي ألَّا يكفُرَ به مَن كفَرَ؛ فأُجِيبَ بأنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ لهم؛ لإجرامِهم وتلقِّيهم الحقَّ بالسُّخريةِ وعدَمِ التَّدبُّرِ، ولأجْلِ هذا اخْتِيرَ لهم وصْفُ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دونَ (الكافرينَ)؛ لأنَّ وصْفَ الكُفْرِ صار لهم كاللَّقَبِ لا يُشْعِرُ بمعنى التَّعليلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣).

- وعُبِّرَ بصِيغَةِ المُضارعِ ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾؛ لكونِ المُشبَّهِ به مُقدَّرًا في الوُجودِ، وهو السَّلْكُ الواقعُ في الأُمَمِ السَّالفةِ، أو للدَّلالةِ على استحضارِ الصُّورةِ[١].

- وفي قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ تَشبيهٌ تمثيليٌّ للعِنادِ المُستحوِذِ عليهم واللَّدَدِ الرَّاسخِ في صُدورِهم، وتفصيلُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى سلَكَ القُرآنَ في قُلوبِهم وأدخَله في سُوَيداءَاتِها كما سلَكَ ذلك في قُلوبِ المُؤمنينَ المُصدِّقينَ -على أحدِ أوجهِ التأويلِ-؛ فكذَّبَ به هؤلاء وصدَّقَ به هؤلاء، كلٌّ على علْمٍ وبيِّنةٍ؛ ليَهْلِكَ مَن هلَكَ عن بيِّنَةٍ، ويحيا مَن حيَّ عن بيِّنَةٍ، ولئلا يكونَ للكُفَّارِ على اللهِ حُجَّةٌ بأنَّهم ما فَهِموا وُجوهَ الإعجازِ كما فَهِمَها مَن آمَنَ، فأعلَمَهم اللهُ تعالى مِن الآنَ- وهم في مُهْلَةٍ وإمكانٍ- أنَّهم ما كَفَروا إلَّا على علْمٍ مُعاندينَ باغِينَ؛ ليكونَ أدحَضَ لأيَّةِ حُجَّةٍ يختلِقونَها، وأنفَى لكلِّ ادِّعاءٍ يخرُصونَ به؛ ولذلك عقَّبَه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ...﴾، أي: إنَّ هؤلاء فهِمُوا القُرآنَ حقَّ الفَهْمِ، واكْتَنَهوا أسرارَه، وسَبَروا أغْوارَ مُعجزاتِه، وعَلِموا وُجوهَ إعجازِه، وولَجَ ذلك إلى قَراراتِ نُفوسِهم، ووَقَرَ في أسماعِهم، ولكنَّهم قومٌ دَيْدَنُهم العِنادُ، وشِيمَتُهم اللَّجاجُ والمُكابرةُ، حتَّى لو سلَكَ بهم أوضَحَ السُّبلِ وأدْعاها إلى الإيمانِ بضُرورةِ العِيانِ والمُشاهدةِ؛ وذلك بأنْ يفتَحَ لهم بابًا في السَّماءِ، ويُعْرَجُ بهم حتَّى يَدْخلوا منه نهارًا، وقد أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿ظَلُّوا﴾؛ لأنَّ الظُّلولَ إنَّما يكونُ نهارًا، لقالوا بعدَ ذلك الإيضاحِ العظيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٩).

المكشوفِ: إنَّما سُكِّرَت أبصارُنا، وسحَرَنا محمَّدٌ، وما هذه إلَّا خيالاتٌ مُمَوَّهَةٌ لا حقائقَ تحتَها؛ فأسجَلَ عليهم بذلك أنَّهم لا عُذْرَ لهم في التَّكذيبِ مِن عدَمِ سماعٍ ووَعْيٍ، ووُصولٍ إلى القُلوبِ، وفَهْمٍ كما فَهِمَ غيرُهم مِن المُصدِّقينَ؛ لأنَّ شأْنَهم الاستمرارُ في اللَّددِ والعِنادِ والمُكابرةِ واللَّجاجِ؛ وعلى وجْهِ التَّفصيلِ: في هذا التَّشبيهِ التَّمثيلِيِّ[١]: التَّتميمُ[٢]، وذلك بعرْضِ مُختلفِ مَجالِي المُشاهَدةِ والاعتبارِ. وفيها الاحتراسُ[٣] بكلمةِ ﴿ظَلُّوا﴾؛ خشيةَ أنْ يكونَ عُروجُهم في الظَّلامِ، فيتعَلَّلوا به على عدَمِ الاهتداءِ. وفي

(١) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذي وصفٍ في وصفِه. وقيل: أن تُثبتَ للمشبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المشبَّهِ به. وقد اتَّفقَ الأدباءُ على شرفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم.

وينقسمُ التشبيهُ عدةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ:

فمنه: التشبيهُ المفرَدُ.

ومنه: التشبيهُ المركَّبُ (التَّمثيلي): هو الذي يكونُ وجهُ الشبهِ فيه منتزعًا مِن متعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّبٌ مِن أحوالِ الحمارِ. وخصَّ البيانيون لفظَ «التمثيلِ» بالتشبيهِ المركَّبِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤١٤)، ٤٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) التتميم: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صفاتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤).

(٣) الاحتراس: هو التحرُّز مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

استعمالِ أداتَي الحصْرِ والإضرابِ (إنَّما - بل) دَلالةٌ على البَتِّ بأنَّ ما يرَوْنَه لا حقيقةَ له، بل هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ مِن السِّحرِ حسَبَ ادِّعائِهم؛ وإيضاحُ ذلك أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّمَا﴾، وهي تفيدُ الحصرَ في المذكورِ آخِرًا؛ فيكونُ الحصْرُ في الأبصارِ لا في التَّسكيرِ، فكأنَّهم قالوا: سُكِّرَت أبصارُنا لا عُقولُنا، ونحن وإنْ كنَّا نتخيَّلُ بأبصارِنا هذه الأشياءَ لكنَّنا نعلَمُ بعُقولِنا أنَّ الحالَ بخلافِه، أي: لا حقيقةَ له، ثمَّ قالوا: ﴿بَلْ﴾ كأنَّهم أضْرَبوا عنِ الحصْرِ في الأبصارِ، وقالوا: بل جاوَزَ ذلك إلى عُقولِنا بسحْرٍ صنَعَه لنا، وهذه الآياتُ مِن الرَّوائعِ الَّتي يقِفُ البَيانُ أمامَها مُذْعِنًا[١].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بيانٌ للسَّلكِ المُشبَّهِ به، أو حالٌ مِن المُجرمينَ، وهذا عامٌّ مُرادٌ به مَن ماتوا على الكُفْرِ منهم، والمُرادُ: أنَّهم لا يؤمِنونَ وقتًا ما[٢].

- قولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ وجُملةِ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والكلامُ تعريضٌ بالتَّهديدِ بأنْ يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ مُعاملةً للنَّظيرِ بنَظيرِه؛ لأنَّ كونَ سُنَّةِ الأوَّلينَ مَضَت أمْرٌ معلومٌ غيرُ مُفيدٍ ذِكْرُه، فكان الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِه بقرينةِ تعذُّرِ الحمْلِ على أصْلِ الخبريَّةِ[٣]. وقيل: هو استئنافٌ؛ جِيءَ به تكمِلةً للتَّسليةِ، وتصريحًا بالوعيدِ والتَّهديدِ لأهْلِ مكَّةَ على تكذيبِهم[٤].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٢٧ - ٢٢٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٢٤- ٢٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٠).

- قولُه: ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ السُّنَّةُ: العادةُ المألوفةُ، وإضافتُها إلى الأوَّلينَ باعتبارِ تعلُّقِها بهم، وإنَّما هي سُنَّةُ اللهِ فيهم؛ لأنَّها المقصودُ هنا، والإضافةُ لأَدْنى مُلابَسَةٍ[(١)].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فيه ذِكْرُ الظُّلولِ؛ ليجعَلَ عُروجَهم بالنَّهارِ؛ ليكونوا مُسْتوضِحينَ لِمَا يَرَوْنَ؛ فإنَّ (ظَلَّ) تدلُّ على الكونِ في النَّهارِ، أي: وكان ذلك في وضَحِ النَّهارِ، وتبيُّنِ الأشباحِ، وعدَمِ التَّردُّدِ في المَرْئيِّ[(٢)].

٦- قوله تعالى: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أَتَوا بِصيغَةِ الحصرِ (إنَّما)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم قد بَتُّوا القولَ في ذلك (بأنَّه مِن التَّخيُّلِ ولا حقيقة له)، وأنَّه ليس إلَّا تَسْكيرًا للأبصارِ[(٣)]. ورَدُّ بعضِهم على بعضٍ ظَنٌّ أنْ يكونوا رَأَوا أبوابَ السَّماءِ وعَرَجوا فيها، وزَعَموا أنَّهم ما كانوا يُبْصِرونَ، ثمَّ أضْرَبوا عن ذلك إضرابَ المُتردِّدِ المُتحيِّرِ ينتقِلُ مِن فرْضٍ إلى فرْضٍ، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾؛ فعادوا إلى إلقاءِ تَبِعَةِ ذلك على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه سحَرَهم حين سأَلَ لهم اللهَ أنْ يفتَحَ بابًا مِن السَّماءِ، ففتَحَه لهم[(٤)].

- قولُه: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ في التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّةِ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦).

دَوامِ مَضْمونِها، وإيرادُها بعدَ تَسكيرِ الأبصارِ؛ لبيانِ إنكارِهم لغيرِ ما يرَوْنَه؛ فإنَّ عُروجَ كلٍّ منهم إلى السَّماءِ وإنْ كان مَرئيًّا لغيرِه، فهو معلومٌ بطريقِ الوُجدانِ، مع قطْعِ النَّظرِ عن الأبصارِ؛ فهم يدَّعونَ أنَّ ذلك نوعٌ آخَرُ مِن السِّحرِ غيرُ تَسكيرِ الأبصارِ(١).

- وقالوا كما حكَى الله عنهم هنا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ دونَ أنْ يقولوا: (بل نحن مَسحورونَ)؛ لأنَّ ذِكْرَ كلمةِ (قوم) يقتضي أنَّ السِّحرَ قد تمكَّنَ منهم، واستوى فيه جميعُهم حتَّى صار مِن خصائصِ قَوميَّتِهم(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٨).

الآيات (١٦-٢٥)

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ
وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ؛ مِن قَولِهم: بَرَجَ الشَّيءُ: إذا ظهَرَ وارتفَعَ، وسُمِّيت بذلك؛ لظُهورِها ووُضوحِها[١].

﴿رَّجِيمٍ﴾: أي: مَطرودٍ عن الخَيراتِ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ[٢].

﴿ٱسْتَرَقَ﴾: أي: تسَمَّعَ مُستخفيًا، وأصلُ (سرق): يدُلُّ على أخذِ شَيءٍ في خَفاءٍ وسِترٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿شِهَابٌ﴾: أي: كَوكَبٌ مضيءٌ، أو: شُعلةٌ ساطِعةٌ مِن النَّارِ، والشِّهابُ كلُّ ذي نورٍ، وأصلُ (شهب): يدلُّ على بياضٍ مُختَلِطٍ بسَوادٍ[1].

﴿رَوَٰسِىَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وكلُّ شيءٍ ثَبَت فقد رسَا، وأصلُه: يدلُّ على ثباتٍ[2].

﴿مَّوْزُونٍ﴾: أي: مُقَدَّرٍ مَعلومٍ مِقدارُه، لا يُجاوِزُ ما قدَّره اللهُ عليه، والوَزْنُ: مَعرِفةُ قَدرِ الشَّيءِ، وأصل (وزن): يدُلُّ على تَعديلٍ واستِقامةٍ[3].

﴿لَوَٰقِحَ﴾: أي: تُلَقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأصلُ (لقح): يدلُّ على إحبالِ ذَكَرٍ لأُنثى[4].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾

﴿وَمَن﴾: في محلِّ نَصبٍ، عطفًا على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، أي: وجعَلْنا لكم فيها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٧)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨).

مَنْ لستُم له برازقينَ من العَبيدِ والدوابِّ المنتَفَعِ بها. ويجوزُ أن تكونَ في محل جرٍّ عطفًا على (كم) في ﴿لَكُمۡ﴾، مِن غيرِ إعادةِ الجارِّ على رأيِ الكوفيِّينَ والأخفشِ، أي: جعَلْنا لكم... ولِمَن لستُم. وقيل غيرُ ذلك(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يُعَدِّدُ الله تعالى في هذه الآياتِ أدلَّةَ قُدرتِه سُبحانه، وأنَّه قد جعَلَ في السَّماءِ الدُّنيا مَنازِلَ للشمس والقمرِ، وزَيَّنَ هذه السَّماءَ بالنُّجومِ لِمَن ينظُرونَ إليها، ويتأمَّلونَ فيَعتَبِرونَ، وحَفِظَ السَّماءَ مِن كُلِّ شَيطانٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ الله أن يستمعَ إلى الملأِ الأعلى، إلَّا مَن اختلَسَ السَّمعَ فاختطف شَيئًا مِن كلامِ الملائكة مما سوَى الوحيِ، فلَحِقَه شِهابٌ مُضيءٌ ظاهرٌ يُحرِقُه أو يقتلُه، وبسَط الله تعالى هذه الأرضَ ووَسَّعَها، وجعل فيها جِبالًا تُثَبِّتُها، وأوْجَدْنا فِي الأرضِ مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، وجعَلَ للنَّاسِ في الأرضِ ما يَعيشونَ به؛ من المَطاعمِ والمَشارِبِ، ومِن أنواعِ المكاسِبِ، وجعَلَ لهم من الأولادِ والخدَمِ والدَّوابِّ ما يَنتَفِعونَ به، وليسوا لهم بِرازقين، وما مِن شَيءٍ إلَّا عندَ الله خزائِنُه ومفاتيحُه، وما يُنَزِّلُه اللهُ سُبحانَه إلَّا بمِقدارٍ محَدَّدٍ كما يشاءُ.

وأرسَلَ سُبحانَه الرِّياحَ لتُلَقِّحَ السَّحابَ، فأنزلَ مِن ذلك السَّحابِ المطَرَ لِشَرابِ النَّاسِ ومَواشيهم، وسقيِ أرضِهم، وليست خزائِنُه عندهم، وهو سُبحانَه يُحيي ويميتُ، وهو الوارِثُ للأرضِ ومَن عليها، وقد عَلِمَ تعالى مَن تقدَّم مِن الناسِ ومَن تأخَّر، وبأحوالِهم وأعمالِهم جميعًا، وهو وَحدَه سُبحانَه يَحشُرُ النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ؛ إنَّه حكيمٌ في تَدبيرِه، عليمٌ لا يخفى عليه شَيءٌ.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤١١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٥٢).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أجاب عن شُبهةِ مُنكِري النبُوَّةِ، وكان قد ثبَتَ أنَّ القَولَ بالنُّبوَّةِ مُفرَّعٌ على القَولِ بالتَّوحيدِ؛ أتبَعَه تعالى بدلائِلِ التَّوحيدِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ الكافرينَ لو رأَوا الآيةَ المَذكورةَ في السَّماءِ، لعانَدوا فيها؛ عَقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ، فكأنَّه قال: وإنَّ في السَّماءِ لَعِبَرًا منصوبةً غيرَ هذه المذكورةِ، وكُفرُهم بها وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعُتُوٌّ[٢].

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا في السَّماءِ الدُّنيا نُجومًا بمثابةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص:٥٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشر بُرجًا، وهي: الحمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزل... وهذه البروج مقسومةٌ على ثلاثمئة وستين درجة، لكلِّ برج منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البرجُ على بقعةٍ معينةٍ مِن سمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيارةِ، وتسمَّى

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

أي: وزيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ لِمَن يُبصِرُها، ولِمَن ينظُرُ إليها فيتأمَّلُها ويعتبِرُ، ويستدِلُّ بها على قُدرةِ خالِقِها ووحدانيَّتِه سُبحانَه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

النجومَ الثوابتَ متجمع بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بينَها، لا تتغيرُ فيما يشاهدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أن الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهم ضبطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وهميةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وحَرَسْنا[١] السَّماءَ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيطانٍ ذَميمٍ محقَّرٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ الله، لئلَّا يَسْتَمِعوا إلى الملأِ الأعلَى[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨- ٩].

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: لكن[٣] قد يتقدَّم بعضُ مردتِهم فيختطفُ بخُفْيةٍ خطفةً يسيرةً ممَّا يسمعُه مِن الملائكةِ مِن الأخبارِ والحوادثِ مما سوى الوحيِ، فيلحقُه شهابٌ مِن النَّارِ

---

(١) قال ابنُ عاشور: (المقصودُ مِن مَنْعِ الشَّياطينِ مِن ذلك منعُهم الاطِّلاعَ على ما أراد اللهُ عدَمَ اطِّلاعِهم عليه مِن أمرِ التَّكوينِ ونَحوِه ممَّا لو ألقَتْه الشَّياطينُ في عِلمِ أوليائِهم، لكان ذلك فَسادًا في الأرضِ، ورُبَّما استدرجَ اللهُ الشَّياطينَ وأولياءَهم فلم يمنَعِ الشَّياطينَ مِن استراقِ شَيءٍ قَليلٍ يُلقُونه إلى الكهَّانِ، فلمَّا أراد اللهُ عِصمةَ الوَحيِ منَعَهم من ذلك بتاتًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨).

(٣) ممَّن ذهبَ إلى أنَّ الاستثناءَ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى لكنْ: ابن جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

قال القرطبي: (وقيل: هو متَّصِلٌ، أي: إلَّا ممَّن استَرَق السمعَ، أي: حَفِظْنا السماءَ من الشياطينِ أن تسمعَ شيئًا من الوحيِ وغَيرِه، إلَّا من استرق السَّمعَ؛ فإنَّا لم نحفَظْها منه أن تسمعَ الخبَرَ من أخبار السَّماءِ سوى الوحي). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

مضيءٌ ظاهرٌ، فيقتلُه أو يُخبلُه أو يُحرِقُه[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه -يَبلُغُ به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

قال ابنُ الجوزي: (﴿شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابنُ قُتيبةَ: كوكبٌ مُضيءٌ. وقيل: ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: ظاهِر يراه أهلُ الأرض. وإنما يَسترِقُ الشيطانُ ما يكونُ مِن أخبارِ الأرض، فأمَّا وحيُ الله عزَّ وجلَّ فقد صانه عنهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٧).

ممن اختار أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: ظاهر: الواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١).

وممن اختار أن ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى مضيء: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٥).

وذهَب ابنُ جرير إلى أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: يبينُ أثرُه فيه إمَّا بإخبالِه وإفسادِه، وإما بإحراقِهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١).

وقال السعدي: (﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنٌ منيرٌ يقتلُه أو يخبلُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

قال الخازن: (قالوا: إنَّه ليس المرادُ أنَّهم يُرْمَون بأجرامِ الكواكبِ، بل يجوزُ أن تنفصِلَ مِن الكواكبِ شعلةٌ، وتُرمَى الشياطينُ بتلك الشعلةِ، وهي الشُّهبُ، ومثلُها كمثلِ قبسٍ يُؤخذُ مِن النارِ، وهي على حالِها). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٩).

وقال القرطبي: (واخْتُلِف في الشِّهابِ هل يقتلُ أم لا. فقالَ ابنُ عبَّاسٍ: الشِّهابُ يجرحُ ويحرقُ ويُخْبِلُ ولا يقتلُ. وقالَ الحسنُ وطائفةٌ: يقتلُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١).

قال الرسعني: (وعندي: أنَّه لا تنافيَ بينَ القولينِ؛ فإنَّه عذابٌ يُرمَون به؛ فمِنهم مَن يستأصلُه ويُهلكُه، ومنهم مَن يُعذِّبُه ولا يُهلكُه بالكليَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٢).

((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ، ضَرَبَت الملائكةُ بأجنِحَتِها خُضعانًا لِقَولِه، كالسِّلسلةِ على صفوانٍ[١]، فإذا فُزِّعَ[٢] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقو السَّمعِ، ومُستَرِقو السَّمعِ هكذا؛ واحِدٌ فَوقَ آخَرَ -ووصَفَ سُفيانُ بِيَدِه، وفرَّجَ بين أصابعِ يدِه اليُمنى، نَصَبَها بعضَها فوقَ بَعضٍ- فرُبَّما أدرَك الشِّهابُ المُستَمِعَ قبلَ أن يرمِيَ بها إلى صاحِبِه، فيُحرِقُه، وربَّما لم يُدرِكْه حتى يرميَ بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفَلُ منه، حتى يُلقُوها إلى الأرضِ، فتُلقَى على فَمِ السَّاحِرِ، فيَكذِبُ معها مائةَ كَذْبةٍ، فيُصدَّقُ، فيقولونَ: ألَمْ يُخبِرْنا يومَ كذا وكذا يكونُ كذا وكذا، فوَجَدْناه حقًّا؟! للكَلِمةِ التي سُمِعَت من السَّماءِ))[٣].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شرَحَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ السَّماويَّةَ في تقريرِ التَّوحيدِ؛ أتبَعَها بذِكرِ الدَّلائِلِ الأرضيَّةِ، فقال تعالى[٤]:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾.

أي: والأرضَ بَسَطناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها على

---

(١) كالسِّلسلة على صَفوانٍ: أي: القَولُ المَسموعُ يُشبِهُ صَوتَ وَقْعِ السِّلسلةِ على (صفوانٍ): وهو الحجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٢) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٠).

الامتدادِ بأرجائِها، والتناوُلِ مِن أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئلَّا تَضطَرِبَ بأهلها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾.

وأوْجَدْنا[٣] فِي الأرضِ[٤] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٠٣١، ٧٠٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢).

قال القرطبي: (والمقصودُ مِن الإنباتِ: الإنشاءُ والإيجادُ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣).

(٤) الأكثرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرضِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

وقيل: المرادُ به الجبالُ، وممن قال به الفرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: الأرضِ، ولا سيَّما الجبال). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٤).

وقال الشربيني: (قولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ واختُلِف في عودِ ضميرِ فيها، فقيل: يعودُ إلى

مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقَدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، بقصدٍ وإرادةٍ[١].

الأرضِ؛ لأنَّ أنواعَ النباتِ المنتفَعِ به يكونُ في الأرضِ، وقيل: إلى الجبالِ؛ لأنَّها أقربُ مذكورٍ، ولقولِه تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ وإنَّما يُوزَنُ ما يتولَّدُ مِن الجبالِ، والأَولَى عودُه لهما). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥١).

وممن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، وابنُ عطيةَ- ونسَبه للجمهورِ-، وابنُ جزي، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ بنحوِ القولِ المذكورِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ- في روايةٍ عنه-، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، والحكمُ بنُ عُتيبةَ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

قال الزجاجُ: (ومعنى ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ أي: مِن كلِّ شيءٍ مقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللَّه عزَّ وجلَّ، لا يُجاوِزُ ما قَدَّره الله عليه، لا يستطيع خلقَ زيادةٍ فيه ولا نقصانًا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٣/ ١٧٦).

وقال الواحدي: (اختلفوا في معنى ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ هاهنا، فذهب الأكثرون إلى أنَّ معناه: المحصَّلُ المعلومُ المقدورُ، ذلك أنَّ الوزنَ إنما يُستعمَلُ لبيانِ المقدارِ والإشرافِ على حقيقتِه، فوُصِفَ المعلومُ بالموزونِ وإن لم يكن هناك وزنٌ؛ لأنَّ أوكدَ ما يتحصَّلُ به معرفةُ المقادير الوزنُ... وهذا معنى قولِ ابنِ عباسٍ وعكرمةَ وسعيدِ بنِ جبيرٍ، والحكمِ ومجاهدٍ... وهذا القولُ اختيارُ أبي عبيدةَ والزجَّاجِ وأبي بكر [ابنِ الأنباري]... ويشهدُ لهذا التأويل قولُه: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨] وهذا عامٌّ في كلِّ ما خلَقه اللهُ تعالى على وجهِ الأرضِ- ما ليس مِن جنسِ الأرضِ- مما يكونُ في المعادن، وذلك للَفظِ الإنبات؛ لأنَّه إنما يُستعمَلُ فيما ينبُتُ من الأرض، ويُستعمَلُ في الحيوانات أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ [آل عمران: ٣٧] ويُقال: الرجلُ يَنبُتُ الجاريةَ، أي: يغذوها، ويُحسِنُ القيامَ عليها. حكاه الليثُ، فأمَّا الجواهرُ فقد دخَلت تحتَ قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ ولا تدخلُ في الإنباتِ. وذهَب آخرون في قوله: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ إلى حقيقةِ الوزنِ، وقال عطاءٌ: يريدُ الثِّمارَ ممَّا يُكالُ أو يُوزنُ. وقال الكلبي: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ في الجبالِ، ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ مِن الذهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ، والرصاصِ والكحلِ والزرنيخِ، وكلِّ شيءٍ يُوزن وزنًا،... قال أبو بكر [ابن الأنباري]: والقولُ الأولُ أثبتُ؛ لأنَّه يَحمِلُ

كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

الآيةَ فيه على العمومِ، والقول الثاني يوجِبُ اختصاصًا لم يأتِ به برهانٌ، على أنَّه على بُعدِه غيرُ خارجٍ عن الصوابِ. والله أعلم). ((البسيط)) (١٢/ ٥٦٨ - ٥٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٥).

وممن قال: إنَّ المرادَ ما أنبتَ في الأرضِ مِن أنواعِ النباتِ والزُّروعِ والثمارِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وعطاءٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢).

وقيل: المرادُ: الشيءُ الذي يُوزَنُ كالذهبِ، والفضةِ، والرصاصِ، والحديدِ، ونحوِ ذلك. وممن قال به الفراءُ، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠).

وممن قال به مِن السلفِ: الحسنُ، وعكرمةُ- في روايةٍ-، وابنُ زيدٍ، وابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٢٨).

قال الرسعني عن هذا القولِ: (وهو يجيءُ على ردِّه الضميرَ إلى الجبالِ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٥٩٥).

وممن جمع بين المعنيين السابقين البقاعي والشربيني.

قال البقاعي: (﴿مَوْزُونٍ﴾ أي: مقدَّرٍ على مقتضَى الحكمةِ؛ مِن المعادنِ والنباتِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٣٥).

وقال الشربيني: (والأولَى: أنَّه جميعُ ما ينبتُ في الأرضِ والجبالِ؛ لأنَّ ذلك نوعانِ: أحدُهما يُستخرَجُ مِن المعادنِ، وجميعُ ذلك موزونٌ. والثاني: النباتُ فبعضُه موزونٌ، وبعضُه بالكيلِ، وهو يرجعُ إلى الوزنِ؛ لأنَّ الصاعَ والمدَّ مقدرانِ بالوزنِ). ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٥٦).

[ق: ٧].

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾.

أي: وهيَّأْنا لكم في الأرضِ -أيُّها النَّاسُ- ما تعيشونَ به مِن المطاعِمِ والمَشارِبِ، ويسَّرْنا لكم الحِرَفَ، وأنواعَ المكاسِبِ[1].

﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾.

أي: وجَعَلْنا لكم الأولادَ والعَبيدَ والدوابَّ والأنعامَ التي نَرزُقُها نحن لا أنتم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١٦٧) و (١٠/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وجعَلْنا في الأرضِ معايشَ لكم ولِمَن لستُم له بمُطعِمينَ من الدوابِّ والوحوشِ والطيورِ. وممن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبة، والسمرقندي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٥).

قال النحاسُ: (قال تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ قال مجاهدٌ: يعني الدوابَّ والأنعامَ. وقال غيرُه: يعني المماليكَ والدوابَّ. قال أبو جعفر [النحاس]: وهذا أولَى؛ لأنَّ «مَن» لا تكونُ لما لا يعقلُ إلَّا أنْ يختلِطَ معه مَن يعقِلُ، والمعنَى: وجعَلْنا لكم المماليكَ والدوابَّ والأنعامَ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: أعَشْناكم، وأعَشْنا مَن لستُم له برازقينَ). ((معاني القرآن)) (٤/ ١٨).

وقال سُبحانه: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥ – ٨].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنه أنبتَ في الأرضِ كُلَّ شَيءٍ مَوزونٍ، وجعلَ فيها معايِشَ؛ أتبَعَه بذِكرِ ما هو كالسَّبَبِ لذلك(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ظهَرَ كالشَّمسِ كَمالُ قُدرةِ الله تعالى، وأنَّه واحِدٌ لا شريكَ له؛ بيَّنَ أنَّه كما كانت هذه الأشياءُ عنده بحِسابٍ قَدَّرَه على حِكمةٍ دَبَّرَها، كان غيرُها كذلك، فذلك هو المانِعُ مِن مُعاجَلتِهم بما يَهزَؤونَ به مِن العذابِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾.

أي: وما مِن شَيءٍ -مِن جميعِ الأرزاقِ، وأصنافِ الأقدارِ، مِن الأمطارِ وغيرِها- إلَّا عندَ الله وَحدَه خَزائِنُه، ومفاتيحُه بيَدِه؛ فهو مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وهو القادِرُ على إيجادِه وتكوينِه متى يشاء(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾.

أي: وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وكُلَّ شَيءٍ إلَّا بمِقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ الله، وما تَقتَضيه حِكمتُه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ [الشورى: ٢٧].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ ما أراد اللهُ تعالى من آيتَيِ السَّماءِ والأرضِ، وختَمَه بشُمولِ قُدرتِه لكُلِّ شَيءٍ؛ أتبَعَه ما ينشأُ عنهما ممَّا هو بينَهما مُودَعًا في خزائِنِ قُدرتِه[2].

﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.

أي: وأرسَلْنا رياحَ الرَّحمةِ لِتُلقِّحَ السَّحابَ، فينشأَ عن ذلك الماءُ الذي يحمِلُه

قال ابنُ جزي: (﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ قيل: يعني: المطَرَ، واللفظُ أعَمُّ من ذلك، والخزائِنُ: المواضِعُ الخازنةُ، وظاهِرُ هذا أنَّ الأشياءَ مَوجودةٌ قد خُلِقَت. وقيل: ذلك تمثيلٌ، والمعنى: وإن مِن شيءٍ إلا نحن قادرونَ على إيجادِه وتكوينِه). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٣٦).

السَّحابُ[١].

عن سَلَمةَ بنِ الأكوعِ رَضِيَ الله عنه -يرفَعُه إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- قال: ((كان إذا اشتَدَّت الرِّيحُ يقولُ: اللَّهُمَّ لَقَحًا لا عَقيمًا[٢]))[٣].

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾.

أي: فأنزَلْنا من السَّحابِ مَطَرًا، فمكنَّاكم من هذا الماءِ العذْبِ؛ لِشُربِكم، وشُربِ أنعامِكم، وسَقْيِ أراضيكم[٤].

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٠-١١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٦).
قال ابن عاشور: (معنى الإلقاح: أنَّ الرِّياحَ تُلَقِّحُ السحابَ بالماء، بتوجيهِ عمَلِ الحرارةِ والبرودة متعاقِبَينِ، فينشأُ عن ذلك البُخارُ الذي يصيرُ ماءً في الجوِّ، ثمَّ يَنزِلُ مطرًا على الأرض). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨).

(٢) لَقَحًا (بفتحِ اللَّامِ والقاف): أي: اجعَلْها حامِلةً للماءِ كاللَّقحةِ مِن الإبلِ، لا عَقيمًا: أي: لا خاليةً عنه. يُنظر: ((فيض القدير)) للمناوي (٥/ ١٠١).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٠٠٨)، والطبراني (٧/ ٣٣) (٦٢٩٦)، والحاكم (٧٧٧٠).
صحَّح إسنادَه الحاكِمُ وقال: (على شرطِ الشيخينِ ولم يُخرجاه)، والنووي في ((المجموع)) (٥/ ٩٨)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٣٨): (رجاله رجال الصحيح غيرَ المغيرة بن عبد الرحمن، وهو ثقة)، وصحَّحه ابنُ حجر، كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٢٧٥)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣).

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

أي: ليست خزائِنُ المطَرِ عِندَكم، بل نحن الخازِنونَ له، نُنَزِّلُه متى نشاءُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣).

وممن اختار المعنى المذكورَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنيسابوري، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: معنى ﴿بِخَازِنِينَ﴾: أي بحافظين. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زمنين، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

قال الشِّنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ فيه للعُلماءِ وجهانِ مِن التفسيرِ، كلاهما يشهَدُ له قرآنٌ:

الأول: أنَّ معنى ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: ليست خزائِنُه عندكم، بل نحن الخازنون له، ننزلُه متى شئنا، وهذا الوجهُ تدلُّ عليه آياتٌ، كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] الآية، ونحو ذلك من الآيات.

الوجه الثاني: أنَّ معنى ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ بعد أن أنزَلْناه عليكم، أي: لا تقدِرونَ على حفظِه في الآبارِ والعُيونِ والغُدرانِ، بل نحن الحافظون له فيها، ليكون ذخيرةً لكم عند الحاجة، ويدلُّ لهذا الوجه قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]...

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠].

قال سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ إنزالِ المطَرِ، وكان ممَّا يَسبِقُ إلى الأذهانِ عندَ ذِكرِ المطَرِ إحياءُ الأرضِ به؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بعده جِنسَ الإحياءِ كُلَّه؛ لِمَا فيه من غرضِ الاستدلالِ على الغافلينَ عن الوحدانيَّةِ، ولأنَّ فيه دليلًا على إمكانِ البَعثِ، والمقصودُ ذِكرُ الإحياءِ؛ ولذلك قُدِّمَ، وذكَرَ الإماتةَ للتَّكميلِ[(١)].

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ نُحيي الخَلقَ مِن العدَمِ، ونُحييهم بعدَ مَوتِهم يومَ البَعثِ، ونُميتُ الأحياءَ متى شِئْنا[(٢)].

﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات. ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٧٣).

وقيل المراد: وما أنتم له بمانعينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سفيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٩).

أي: ونحن الوارِثونَ للأرضِ ومَن عليها مِن الخَلقِ بعد مَوتِهم، فلا يبقَى إلَّا اللهُ وَحدَه سُبحانه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

وقال سُبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾؛ أتبعَه بقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه لا يخفَى على اللهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم، فيدخُلُ فيه عِلمُه تعالى بتقَدُّمِهم وتأخُّرِهم في الحُدوثِ والوجودِ، وبتقَدُّمِهم وتأخُّرِهم في أنواعِ الطاعاتِ والخَيراتِ(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن الله تعالى الحُجَجَ على كمالِ قدرتِه تعالى؛ بيَّن كمالَ علمِه جلَّ وعلا؛ فإنَّ ما يدلُّ عليها دليلٌ عليه ضرورةَ أنَّ القادرَ على كلِّ شيءٍ لا بدَّ مِن علمِه بما يصنعُه(٣).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولقدْ أحاطَ علمُنا بمَن تقدَّم منكم - أيُّها الناسُ - وبمَن تأخَّر، وبأحوالِكم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧٨).

وأعمالِكم جميعًا، فلا يخفَى علينا شيءٌ(١).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ جُملةَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ نتيجةٌ لهذه الأدلَّةِ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ فإنَّ الذي يُحيي الحياةَ الأُولى قادِرٌ على الحياةِ الثَّانية بالأَولى، والذي قدَّرَ الموتَ ما قَدَّره عَبَثًا بعد أن أوجَدَ الموجوداتِ، لكن قدَّره لتَسْتقبلوا حياةً أبديةً، ولولا ذلك لقَدَّرَ الدَّوامَ على الحياةِ الأُولَى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١).

قال القرطبي: (فيه ثمانيةُ تأويلاتٍ: الأول: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الخَلقِ إلى اليوم، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الذين لم يُخلَقوا بعدُ، قاله قتادةُ وعكرمةُ وغيرُهما. الثاني: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الأمواتُ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الأحياءُ، قاله ابنُ عباسٍ والضحَّاكُ. الثالث: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مَن تقدَّمَ أمَّةَ محمدٍ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قاله مجاهدٌ. الرابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في الطاعةِ والخيرِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ في المعصيةِ والشَّرِّ، قاله الحسنُ وقتادةُ أيضًا. الخامس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوفِ الحَربِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها، قاله سعيدُ بنُ المسيِّب. السادس: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ مَن قُتِل في الجِهاد، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ من لم يُقتَل، قاله القرظي. السابع: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ أوَّلُ الخَلقِ، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ آخِرُ الخلقِ، قاله الشعبي. الثامن: ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوف الصلاة، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها بسببِ النِّساء. وكلُّ هذا معلومٌ لله تعالى؛ فإنَّه عالمٌ بكُلِّ موجودٍ ومَعدومٍ، وعالمٌ بمن خَلَقَ، وما هو خالِقُه إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٥٦).

وقال أبو حيان: (والأَولى حملُ هذه الأقوالِ على التَّمثيلِ لا على الحصرِ، والمعنى: أنَّه تعالى محيطٌ عِلمُه بمن تقَدَّمَ وبمن تأخَّرَ وبأحوالِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥).

وممن اختار عمومَ الآيةِ: الرازي، وأبو حيان، والخازن، والنيسابوري، والبقاعي. ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٤١).

ﭐلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾[١] [الملك: ٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحدَه الذي يجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ، لا شَكَّ في قُدرتِه على ذلك، وصِدقِ وَعدِه[٢].

﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾.

أي: إنَّه -سُبحانه- حَكيمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، ومن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلقِه ومُجازاتِهم على أعمالِهم، وهو عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأعدادِ خَلقِه وأحوالِهم وأعمالِهم، فيُجازيهم عليها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ أصلٌ في عِلمِ المَواقيتِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ سمِّيَت بذلك؛ لأنَّها للكواكِبِ السَّيَّارةِ كالمنازِلِ لسُكَّانِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٩).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ فيه التَّنويهُ بعِصمةِ الوَحيِ مِن أن يتطَرَّقَه الزِّيادةُ والنَّقصُ[1]، فطريقُ الوحيِ إلى الرسولِ محفوظةٌ مِن الشياطينِ.

٤- إن قيلَ: قَولُه: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ وغيرُه من الآياتِ التي استُدِلَّ بها على حِفظِ السَّماءِ مِن الشَّياطينِ وارِدةٌ في حِفظِها مِن استِراقِ السَّمعِ، وذلك إنَّما يكونُ مِن شَياطينِ الجِنِّ، فدَلَّ ذلك على اختصاصِ الآياتِ المذكورةِ بشَياطينِ الجِنِّ؟

فالجوابُ: أنَّ الآيةَ المذكورةَ وغيرَها تَشمَلُ بدَلالتِها اللُّغَويَّةِ شَياطينَ الإنسِ مِن الكُفَّارِ، ولا شَكَّ أنَّ مِن أشَدِّ الكُفَّارِ تمَرُّدًا وعتُوًّا الذين يحاوِلونَ بُلوغَ السَّماءِ؛ فدُخولُهم في اسمِ الشَّيطانِ لُغةً لا شَكَّ فيه، وإذا كان لفظُ الشَّيطانِ يعُمُّ كُلَّ متمَرِّدٍ عاتٍ، فقَولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ صريحٌ في حِفظِ السَّماءِ مِن كلِّ متمَرِّدٍ عاتٍ، كائنًا مَن كان، وحمْلُ نصوصِ الوَحيِ على مَدلولاتِها اللُّغَويةِ واجِبٌ، إلَّا لدَليلٍ يدُلُّ على تخصيصِها أو صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادِرِ منها، وحِفظُ السَّماءِ مِن الشَّياطينِ معناه حِراستُها منهم، وهذا معروفٌ في كلامِ العرَبِ، فيكونُ مَدلولُ هذه الآيةِ بدَلالةِ المُطابقةِ ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴾ أي: وحَرَسناها -أي: السَّماءَ- مِن كُلِّ عاتٍ متمَرِّدٍ. ولا مفهومَ مُخالفةٍ لِقَولِه: ﴿رَّجِيمٍ ﴾ ولا لقوله: ﴿مَّارِدٍ﴾ في قَولِه: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]؛ لأنَّ مِثلَ ذلك من الصِّفاتِ الكاشِفةِ؛ فكُلُّ شَيطانٍ يُوصَفُ بأنَّه رَجيمٌ وبأنَّه مارِدٌ، وإن كان بعضُهم أقوى تمرُّدًا مِن بَعضٍ، وما حرَسَه اللهُ جلَّ وعلا مِن كُلِّ عاتٍ متمَرِّدٍ لا شَكَّ أنَّه لا يصِلُ إليه عاتٍ متمَرِّدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩-٣٠).

كائنًا مَن كان[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ هذه من الآياتِ التي تدُلُّ على أنَّ الأرضَ هي محَلُّ عِيشةِ الإنسانِ، فظاهِرُ القرآنِ- بلا شَكٍّ- يدلُّ على أنْ لا حياةَ للإنسانِ إلَّا في هذه الأرضِ التي منها خُلِقَ، وإليها يُعادُ، ومنها يُخرَجُ؛ قال الله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥]، فحصَرَ الحياةَ في الأرضِ والموتَ فيها والإخراجَ منها، وطريقُ الحَصرِ فيها تقديمُ ما حَقُّه التأخيرُ، ونحوُ هذه الآيةِ قَولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، حيث حَصَرَ ابتداءَ الخَلقِ مِن الأرضِ، وأنَّها هي التي نُعادُ فيها بعد الموتِ، ونُخرَجُ منها يومَ القيامةِ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ متضَمِّنٌ لكَنزٍ مِن الكنوزِ، وهو أنَّ كلَّ شَيءٍ لا يُطلَبُ إلَّا ممَّن عنده خَزائِنُه، ومفاتيحُ تلك الخزائِنِ بيَديه، وأنَّ طَلَبَه مِن غيرِه طَلَبٌ ممَّن ليس عِندَه، ولا يَقدِرُ عليه[٣].

٧- مذهَبُ السَّلَفِ قاطِبةً أنَّ الأمورَ كُلَّها بتقديرِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٤].

٨- الإرسالُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ هو إرسالٌ كونيٌّ، وهو ما وافقَ مشيئةَ اللهِ تعالى الكونيَّةَ، ويقابلُه: الإرسالُ الدينيُّ، وهو ما وافقَ محبَّةَ اللهِ ورضاه وأمْرَه الشَّرعيَّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٧٨).

قَوۡمِهِۦٓ ﴾[1] [نوح: ١].

٩- قولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، والوارِثُ من يتجَدَّدُ له المُلكُ بعد فناءِ المورِّثِ، واللهُ تعالى لم يتجَدَّد له مُلكٌ؛ لأنَّه لم يزَلْ مالكًا للعالَمِ؟

والجواب: أنَّ الخلائِقَ لَمَّا كانوا يعتَقِدونَ أنَّهم مالِكونَ، ويُسَمَّونَ بذلك أيضًا مجازًا، ثمَّ ماتوا؛ خَلَصَت الأملاكُ كُلُّها لله تعالى عن ذلك التعَلُّقِ، فبهذا الاعتبارِ سُمِّيَ وارِثًا، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، والمُلكُ له أزليٌّ وأبدِيٌّ. وقيل: (الوارِث) لغةً هو الباقي بعد فناءِ غَيرِه، وإن لم يتجَدَّدْ له مُلكٌ، فمعنى الآية: ونحن الباقونَ بعد فناء الخلائِقِ[2].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أسنَدَ الحَشرَ إلى اللهِ بعُنوانِ كَونِه رَبَّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنويهًا بشأنِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم كَذَّبوه في الخَبَرِ عن البَعثِ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ * أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ﴾ [سبأ: ٧-٨]، أي: فكيف ظنُّك بجزائِه مُكَذِّبيك إذا حشَرَهم[3]؟

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا ﴾ في الانتقالِ إلى ذِكرِ فتحِ أبوابِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٦-٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

السَّماءِ في تصويرِ غُلَوائِهم بعِنادِهم بعدَ ذِكْرِ دَلائلِ إمكانِ البعثِ في قولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾- تَخلُّصٌ بديعٌ، وفيه ضَرْبٌ مِن الاستدلالِ على مُكابرتِهم؛ فإنَّهم لو أرادوا الحقَّ لكان لهم في دَلالةِ ما هو منهم غُنْيَةٌ عن تطلُّبِ خَوارقِ العاداتِ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ والاستدلالِ؛ لأنَّ مَدلولَ هذه الأخبارِ معلومٌ لديهم. وافتُتِحَ الكلامُ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ تنزيلًا للمُخاطَبينَ الذَّاهلينَ عنِ الاستدلالِ بذلك مَنزِلةَ المُتردِّدِ؛ فأكَّدَ لهم الكلامَ بمُؤكِّدَينِ، ومرجِعُ التَّأكيدِ إلى تحقيقِ الاستدلالِ وإلى الإلجاءِ إلى الإقرارِ بذلك[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ استِراقُ السَّمعِ: سرِقَتُه؛ صِيغَ وزْنُ الافتعالِ للتَّكلُّفِ، وعُبِّرَ عن الكلامِ المُستَرَقِ بالسَّمعِ؛ لأنَّه يَؤُولُ إلى الخبرِ؛ فالَّذي يحصُلُ لمُسترِقِ السَّمعِ شُعورٌ ما تتوجَّهُ الملائكةُ لتَسخيرِه، والَّذي يحصُلُ للكاهِنِ كذلك، والمَآلُ أنَّ الكاهِنَ يُخْبِرُ به، فيَؤُولُ إلى مَسموعٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ ﴾ (إنْ) للنَّفيِ، و(مِن) صِلَةٌ؛ للتَّأكيدِ[٣].

- التعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٢).

- قولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ ﴾ فيه تَكريرُ الضَّميرِ ﴿نَحْنُ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصْرِ(١).

٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيه تخلُّصٌ مِن الاستدلالِ بالإحياءِ والإماتةِ على عِظَمِ القُدرةِ إلى الاستدلالِ بلازِمِ ذلك على عِظَمِ علْمِ اللهِ، وهو علْمُه بالأُمَمِ البائِدةِ وعلْمُ الأُمَمِ الحاضرةِ؛ وذلك لأنَّه ذكَرَ الإحياءَ والإماتةَ قبْلُ في قولِه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾، والإحياءُ- بكسْرِ الهمزةِ- يُذكِّرُ بالأحياءِ- بفتحِها-، والإماتةُ تُذكِّرُ بالأمواتِ الماضينَ(٢).

- والسِّينُ والتَّاءُ في الوصفَينِ (الْمُسْتَقْدِمِينَ - الْمُسْتَأْخِرِينَ)؛ للتَّأكيدِ، مثلُ (استجابَ)، ولكنَّ قولَهم: (استقدَمَ بمعنى تقدَّمَ) على خلافِ القياسِ؛ لأنَّ فعْلَه رُباعِيٌّ(٣).

- وفي تَكريرِ قولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا﴾ ما لا يَخْفى مِن الدَّلالةِ على كَمالِ التَّأكيدِ(٤).

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بقولِه: ﴿إِنَّ﴾؛ لتحقيقِ الوعْدِ والتَّنبيهِ على أنَّ ما سبَقَ مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه وعلْمِه بتفاصيلِ الأشياءِ؛ يدلُّ على صِحَّةِ الحُكمِ، كما صرَّحَ به بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩).

وأُكِّدَت جُملةُ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وبضميرِ الفصْلِ (هو)؛ لرَدِّ إنكارِهم الشَّديدِ للحشْرِ[(١)].

- قولُه أيضًا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ فيه توسيطُ الضَّميرِ (هو)؛ للدَّلالةِ على أنَّه القادِرُ والمُتولِّي لحشرِهم لا غيرُ، أي: هو وحدَه القادرُ على حشْرِهم، والعالِمُ بحصرِهم مع إفراطِ كثْرَتِهم وتباعُدِ أطرافِ عدَدِهم؛ لأنَّهم كانوا يستبعِدونَ ذلك ويستنكِرونَه، ويقولون: ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[(٢)] [يس: ٧٨].

- وفي الالتفاتِ والتَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿رَبَّكَ﴾؛ إشعارٌ بعِلَّةِ الحُكمِ[(٣)].

- وقد أُسْنِدَ الحشرُ إلى اللهِ بعُنوانِ كونِه ربَّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿رَبَّكَ﴾؛ تنويهًا بشأْنِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم كذَّبوه في الخبرِ عنِ البعْثِ[(٤)]، وفيه دَلالةٌ على اللُّطْفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(٥)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ تعليلٌ لجُملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ لأنَّ شأْنَ (إنَّ) إذا جاءت في غيرِ معنى الرَّدِّ على المُنكِرِ أنْ تُفيدَ معنى التَّعليلِ والرَّبطِ بما قبْلَها[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١).

الآيات (٢٦-٤٤)

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ٢٧ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨
فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ
أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ
مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ قَالَ
فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ
إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ
٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ
جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ[(١)].

﴿حَمَإٖ﴾: طينٍ أسوَدَ متغيِّرٍ مُنتِنٍ[(٢)].

﴿مَّسۡنُونٖ﴾: أي: مَصبوبٍ، مِن سَنَّ الماءَ: إذا صَبَّه، أي: أنَّه مفرَّغٌ على هيئةِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

الإنسانِ، أو مُنتِنٍ مُتغَيِّرِ الرَّائحةِ، مِن قَولِهم: سَنَنتُ الحجرَ على الحجَرِ: إذا حكَكْتَه به، فالذي يسيلُ بينهما يقال له: سَنِينٌ، ويكونُ ذلك مُنتِنًا[1].

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أي: الرِّيحِ الحارَّةِ التي تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصل (سمم): يدلُّ على مدخَلٍ في الشَّيءِ[2].

﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾: أي: فأخِّرني، وأجلني، والنظرُ: الانتظارُ، ونظرتُه: أي: انتظرتُه، كأنَّه ينظرُ إلى الوقتِ الذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): تأملُ شيءٍ ومعاينتُه[3].

﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾: أي: الضالِّينَ، والهالكينَ، والغَيُّ: جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خلافِ الرشدِ[4].

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ تعالى أنَّه خَلقَ آدمَ مِن طينٍ يابسٍ، كائنٍ مِن طينٍ أسودَ مُتغيِّرٍ، وخَلقَ أبا الجِنِّ- وهو إبليسُ- مِن قَبلِ خَلْقِ آدمَ من نارٍ شديدةِ الحرارةِ.

ثم حكَى الله تعالى ما أمَر به الملائكةَ عندَما أراد خلقَ آدمَ، فقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٧، ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٤، ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٥٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١).

اذكُرْ- يا محمَّدُ- حين قال ربُّك للملائكةِ: إنِّي خالِقٌ إنسانًا من طينٍ يابسٍ أسودَ مُتَغيِّرٍ، فإذا أكمَلْتُ صُورتَه ونفَخْتُ فيه الرُّوحَ، فخِرُّوا له ساجِدينَ سُجودَ تحيَّةٍ وتكريمٍ، فسجَدَ الملائِكةُ كُلُّهم أجمعونَ- كما أمَرَهم ربُّهم- إلَّا إبليسَ، امتنَعَ أن يسجُدَ لآدمَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ. قال اللهُ تعالى لإبليس: ما لك ألَّا تَسجُدَ مع الملائكةِ؟ قال إبليسُ تكَبُّرًا وحَسدًا: لا ينبغي لي أن أسجُدَ لإنسانٍ مخلوقٍ مِن طينٍ يابسٍ مُتغيِّرٍ!

قال اللهُ تعالى له: فاخرُجْ منها؛ فإنَّك مطرودٌ، وإنَّ عليك اللَّعنةَ إلى يومِ القيامةِ. قال إبليسُ: ربِّ أخِّرْني فلا تُهلِكْني إلى اليومِ الذي تَبعَثُ فيه الخلائِقَ، قال اللهُ له: فإنَّك من المؤخَّرين إلى اليومِ الذي يموتُ فيه الخَلقُ عندَ النَّفخةِ الأولى. قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ ما أغويتَني وأضلَلْتَني لأُحسِّنَنَّ لهم مَعصيتَك في الأرضِ، ولأُضِلَّنَّهم عن طريقِ الهُدى، إلَّا عبادَك المُخلَصين الذين اختَرْتَهم لِهدايتِك. قال الله: هذا طريقٌ مُستقيمٌ مُعتَدِلٌ مُوصِلٌ إليَّ وإلى جنَّتي.

إنَّ عبادي الذين أخلَصوا لي، لا سُلطانَ لك على قُلوبِهم، لكِنْ سُلطانُك على مَنِ اتَّبَعَك مِنَ المُشرِكينَ الضالِّينَ الذين رَضُوا بولايتِك وطاعتِك، وإنَّ جهنَّم لَموعِدُ إبليسَ وأتباعِه أجمعينَ، لها سبعةُ أبوابٍ، لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ يَدخُلونَ منه جهنَّمَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نبَّه تعالى على مُنتهى الخَلقِ -وهو الحَشرُ يومَ القيامةِ إلى ما يستقِرُّونَ فيه- نبَّهَهم على مبدَأ أصلِهم آدمَ، وما جرى لعدُوِّه إبليسَ مِن المحاورةِ مع اللهِ

تعالى[١]، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا آدمَ مِن طينٍ قد اشتَدَّ يُبْسُه بعدما خُمِّرَ، حتى صار له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨].

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

أي: وهذا الصَّلصالُ مِن طينٍ أسودَ متغَيِّرٍ؛ مِن طُولِ مُكثِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧، ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٤).

قال الخازن: (﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: آدمَ عليه السلام، في قولِ جميعِ المفسِّرين). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

قال ابن الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: لا خلافَ أنَّ الحمأَ: الطينُ الأسودُ المتغيِّرُ الريحِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى متغير: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المسنون بمعنى الأملسِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٣).

ولذا قال: (مقصودُ الآيةِ: التنبيهُ على شرفِ آدمَ عليه السلامُ، وطيبِ عنصرِه، وطهارةِ محتدِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانه خَلْقَ الإنسانِ؛ أتبَعَه ذِكْرَ ما خلَقَه قَبلَه مِن الجانِّ[١]؛ تمهيدًا إلى بيانِ نشأةِ العداوةِ بينَ بني آدمَ وجندِ إبليسَ[٢].

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وإبليسَ- أبا الجِنِّ، المتواريَ عن الأعيُنِ- خَلَقْناه من قبلِ آدمَ مِن النارِ الشَّديدةِ الحرارةِ[٣].

وقال ابن عاشور: (والمَسْنونُ: الذي طالت مُدَّةُ مُكثِه، وهو اسمُ مفعولٍ مِن فعلِ (سَنَّهُ): إذا تركه مدةً طويلة تُشبِه السَّنة. وأحسَبُ أنَّ فعل (سَنَّ) بمعنى تركَ شيئًا مدة طويلةً- غيرُ مسموعٍ. ولعل (تسَنَّه) بمعنى تغيَّرَ من طولِ المدة أصلُه مطاوِعُ سَنَّه، ثم تنوسي منه معنى المطاوعة. وقد تقدم قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ في سورةِ البقرةِ (آية: ٢٥٩). والمقصود مِن ذِكر هذه الأشياء التنبيهُ على عجيب صُنعِ الله تعالى؛ إذ أخرج من هذه الحالة المَهينةِ نوعًا هو سيدُ أنواع عالَمِ المادة ذاتِ الحياة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

وقال القاسمي: (﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مُصوَّرٍ، من (سُنَّةِ الوجه) وهي صورتُه، أو مصبوبٍ، من (سَنِّ الماءِ) صبِّه. أي: مُفرَغ على هيئة الإنسان. كأنَّه سبحانه أفرغَ الحمَأَ فصوَّرَ منها تمثالَ إنسان أجوف، فيَبِس حتى إذا نُقِرَ صلصل، ثم صيَّرَه جسدًا ولحمًا ونفخَ فيه من رُوحِه). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٣).

قال الشنقيطي: (وسُمِّيت نارَ السمومِ؛ لأنَّها تنفُذُ في مسامِّ البدَنِ؛ لشِدَّةِ حَرِّها). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٠).

وقال ابنُ عطية: (والسَّمُوم- في كلام العرب- إفراطُ الحَرِّ حتى يَقتُلَ، مِن نارٍ أو شمسٍ أو

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ قال ربُّك للملائكةِ: إنِّي خالِقٌ إنسانًا مِن طينٍ يابسٍ أسوَدَ متغَيِّرٍ(١).

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ ﴾.

أي: فإذا أكمَلتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصار جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرُّوا له ساجِدينَ تحيَّةً له وتكريمًا(٢).

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ ﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سجدَ له كلُّ الملائكةِ فَورًا، كما أمَرَهم اللهُ(٣).

ريحٍ... وأمَّا إضافةُ نارٍ إلى السَّمُومِ في هذه الآية فيَحتملُ أن تكونَ النارُ أنواعًا، ويكونَ السَّمُومُ أمرًا يختصُّ بنوعٍ منها، فتصحُّ الإضافةُ حينئذٍ، وإن لم يكنْ هذا فيُخرَّجُ هذا على قولِهم: مسجِدُ الجامعِ، ودارُ الآخرةِ، على حذفِ مُضافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٥٩).

وقال الواحدي: (اختلفوا في معنَى (السَّموم)، فقال ابنُ عباسٍ في روايةِ الكلبيِّ: هي نارٌ لا دُخَانَ لها، والصواعِقُ تكونُ منها... ونحوَ هذا القولِ سواءً رَوَى الفرَّاء عن الحسنِ. وقال آخرون: مِن نارِ الريحِ الحارَّةِ، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ). ((البسيط)) (١٢/ ٥٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال النيسابوري: (لا خلافَ في أنَّ الإضافةَ في قَولِه: ﴿رُّوحِي﴾ للتشريفِ والتكريمِ، مثل: ناقةِ اللهِ، وبيتِ اللهِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٢٠). ويُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤ - ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي

﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١ ﴾.

أي: إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ لآدمَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ(١).

كما قال سُبحانه: ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ * إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [ص: ٧٣-٧٤].

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ ﴾.

أي: قال الله: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألَّا تكونَ مع الملائكةِ السَّاجِدينَ لآدمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥].

﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣ ﴾.

أي: قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ -عليه السَّلامُ: لا ينبغي لي أنا- المخلوقَ

(١١/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال الواحدي: (قال الكلبي: فخَرُّوا له ساجدينَ سجدةَ تحيَّة، ولم تكن سجدةَ طاعةٍ. ونحو هذا قال جميعُ المفسِّرين). ((البسيط)) (١٢/ ٦٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧).

قال الرازي: (أجمَعوا على أنَّ المرادَ مِن قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ ﴾ أي: قال اللهُ تعالى له: يا إبليسُ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٠).

مِن نارٍ- أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعةَ فيه، إذا نُقِرَ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ متغيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتَنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤﴾.

أي: قال الله لإبليسَ: فاخرُجْ منها[2] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٣٨٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٢) قيل: الضَّميرُ يعودُ على السَّموات. وممن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦-٤٧).

قال ابنُ عاشور: (وضميرُ ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ إلى السمواتِ، وإن لم تُذْكرْ؛ لدلالةِ ذكرِ الملائكةِ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

وقيل: يعودُ على الجنةِ. وممن قال بهذا: مكي، والبغوي، وابنُ عطيةَ، والخازن، والعليمي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٣/ ٥٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٦).

وقال أبو السعود: (﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: مِن زمرةِ الملائكةِ المعزَّزينَ، لا مِن السماء؛ فإنَّ

فإنَّك مَشتومٌ مُحقَّرٌ مذمومٌ[(١)].

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: وإنَّ طَرْدَك التَّامَّ مِن رَحمتي سيبقَى في الدُّنيا مُتَّصِلًا بك، لاحِقًا لَك، إلى يومِ القيامةِ الذي تُلاقي فيه جزاءَ ما عَمِلتَ[(٢)].

كما قال سُبحانه: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: ربِّ فإذ أخرَجْتَني ولعَنْتَني، فأمهِلْني وأخِّرْني، ولا تُهلِكْني إلى أن تبعَثَ خلْقَك يومَ القيامةِ[(٣)].

وسوستَه لآدمَ عليه الصلاة والسلام في الجنةِ إنَّما كانتْ بعدَ هذا الطَّردِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

وقيل: يعود على المنزلةِ التي كان فيها مِن الملأ الأعلَى. وممن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

قال أبو السعود: (وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فُسحةً لإغوائِهم، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجوَ مِن الموتِ؛ لاستحالتِه بعدَ يومِ البعثِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٧).

قال الشوكاني: (وكأنَّه طلَبَ ألَّا يموتَ أبدًا؛ لأنَّه إذا أُخِّرَ موتُه إلى ذلك اليومِ، فهو يومٌ لا موتَ فيه. وقيل: إنَّه لم يَطلُب ألَّا يموتَ، بل طلب أن يؤخِّرَ عذابُه إلى يوم القيامة ولا يعذَّبَ في الدنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك من المؤخَّرينَ المُمهَلينَ(١).

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨﴾.

أي: إلى الوقتِ الذي يموتُ فيه الخلائقُ، وهو وقتُ النفخةِ الأُولَى(٢).

كما قال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٤).

ومِمن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦٤).

قال ابنُ الجوزي: (فأرادَ أن يذيقَه ألَمَ الموتِ قبلَ أن يذيقَه العذابَ الدائمِ في جهنمَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٤).

وقال ابن عطية: (قال أكثرُ النَّاسِ: الوقتُ المعلومُ هو النفخةُ الأولى في الصُّورِ، التي يَصعَقُ لها مَن في السموات ومَن في الأرض من المخلوقين)، ثم قال عن هذا القول: إنَّه (أصَحُّ وأشهَرُ في الشرع). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٧٩، ٣٨٠).

وقال الشنقيطي: (طلَب الشيطانُ الإنظارَ إلى يومِ البعثِ، وقد أعطاه الله الإنظارَ إلى يومِ الوقتِ المعلومِ. وأكثرُ العلماءِ يقولون: المرادُ به وقتُ النفخةِ الأُولَى، والعلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٢/ ١١).

وقال الرازي: (وإنَّما سُمِّيَ هذا الوقتُ (أي: وقتُ النفخةِ الأُولَى) بالوقتِ المعلومِ؛ لأنَّ مِنَ المعلومِ أنْ يموتَ كلُّ الخلائقِ فيه. وقيلَ: إنَّما سمَّاه اللَّهُ تعالَى بهذا الاسمِ، لأنَّ العالِمَ بذلك الوقتِ هو اللَّهُ تعالَى لا غير، كما قال تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤١).

وقيل: إنَّ المرادَ بيومِ الوقتِ المعلومِ: يومُ القيامةِ. وممن ذهَب إلى ذلك: ابنُ كثيرٍ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٣].

- وقال تعالى: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤-١٥].

- وقال سُبحانَه: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لأُحَسِّنَنَّ للنَّاسِ مَعصيتَك، ولأُرغِّبَنَّهم فيها، ولأَشغَلنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك[(١)].

﴿ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

أي: ولأُضِلَّنَّ جميعَ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا * وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

قال ابن تيمية: (لَفظُ «الغَيِّ» إذا أُطلِقَ تناولَ كلَّ معصيةٍ لله، كما في قَولِه تعالى عن الشَّيطانِ: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

قال ابنُ عاشور: (كلامُ الشيطانِ هذا طفحٌ بما في جبلَّتِه، وليس هو تشفيًا أو إغاظةً؛ لأنَّ العظمة الإلهيةَ تصدُّه عن ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٨-١٢٠].

وقال سُبحانه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ إبليسَ قال لرَبِّه: بعِزَّتِك وجَلالِك لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له الله: فبعِزَّتي وجلالي لا أبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني))(١).

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللَّامِ، اسم مفعولٍ من أُخلِصَ، بمعنى: أنَّ

(١) أخرجه أحمد (١١٢٤٤)، وأبو يعلى (١٢٧٣)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٨٧٨٨).
قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢١٠): أحد إسناديه رجاله رجال الصحيح. وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٣٧)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٥٠)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٧/ ٣٤٤).

الله أخلَصَهم فصاروا مخلَصِينَ، أي: اختارهم اللهُ وهداهم[١].

٢- قراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسرِ اللامِ، اسم فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم من الشِّركِ والرِّياءِ[٢].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾.

أي: إلَّا عبادَك الذين اختَرتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم[٣].

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١﴾.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿عَلِيٌّ﴾ بكسرِ اللامِ ورَفعِ الياءِ وتنوينِها، أي: هذا طريقٌ رفيعٌ شريفٌ في الدِّينِ[٤].

---

(١) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).
قال السعدي: (﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصتَهم، واجتبيتَهم؛ لإخلاصِهم وإيمانِهم وتوكُّلِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٤) قرأ بها يعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٩)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣).

٢- قِراءةُ ﴿عَلَيَّ﴾ بفتحِ اللَّامِ والياءِ من غير تنوينٍ، أي: هذا طريقٌ يدُلُّ عليَّ وعلى عبادتي وطاعتي، لا على معصيتي وطاعةِ الشَّيطانِ(١).

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال الله: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوِجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويُوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٦٩)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٠٦، ٦٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٨ - ٢١٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٩، ٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).
وممن اختار هذا المعنى المذكورَ في الجملةِ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ: هذا طريقٌ مَرجِعُه إليَّ فأجازيكم بأعمالِكم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥).
وممن قال مِن السلفِ: إنَّ معنى ﴿عَلَيَّ﴾: إليَّ: مجاهدٌ، وزيادُ ابنُ أبي مريمَ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٠).
وقيل: المعنى: هذا طريقٌ حقٌّ عَلَيَّ أن أراعيَه، وهو أن لا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي، إلَّا مَن اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوايتِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٩).

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم خطًّا، ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ - قال يَزيدُ: مُتَفَرِّقةٌ - على كُلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))(١).

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: إنَّ عبادي المؤمنينَ الموحِّدينَ الذين هديتُهم، ليس لك عليهم حُجَّةٌ وتسَلُّطٌ على قلوبِهم، لكنْ مَنِ اتَّبَعَك من النَّاسِ فرَضِيَ بولايتِك وطاعتِك، ومالَ إلى ما تدعو إليه من الضَّلالاتِ؛ فلك عليه تسَلُّطٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩-

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسناده أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في تحقيق ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٨، ٢٩)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٢١٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٢).

وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ بمعنى (لكنْ): ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٢)، ((جامع المسائل)) (١/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٥).

١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ [مريم: ٨٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ * وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٨].

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ جهنَّم لَموعِدُ إبليسَ وكُلِّ مَن اتَّبَعه من الإنسِ والجِنِّ أجمعينَ، فيَصيرونَ إليها في الآخرةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانه: ﴿ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وكما قال تعالى عن القرآن: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾.

﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾.

أي: لجهنَّمَ سَبعةُ أبوابٍ، يدخُلُ أهلُ النَّارِ منها[١].

﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾.

أي: لكلِّ بابٍ من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ، يَدخُلونَ منه إلى النَّارِ، كلٌّ يدخُلُ مِن بابٍ بحسَبِ عمَلِه، ويستقِرُّ في دَرْكٍ بقَدْرِ فِعْلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤-٩٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ هذا الإنظارُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ ناموسَ الشرِّ لا ينقضي مِن عالَمِ الحياةِ الدُّنيا، وأنَّ نِظامَها قائِمٌ على التصارُعِ بين الخيرِ والشَّرِّ، والأخيارِ والأشرارِ؛ قال تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]؛ فلذلك لم يستغنِ نظامُ العالَمِ عن إقامةِ قوانينِ العَدلِ والصلاحِ، وإيداعِها إلى الكُفاةِ لتَنفيذِها، والذَّودِ عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

قال البيضاوي: (لها سبعةُ أبواب يدخلونَ منها؛ لكثرتهم، أو طبقات ينزِلونها بحسَبِ مراتبهم في المتابعةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

٢- اعتلَّ إبليسُ بالقَدَرِ؛ حيث قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وأما آدمُ فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. فمن أراد اللهُ سعادتَه، ألهمه أن يقولَ كما قال آدمُ- عليه السَّلامُ- أو نحوِه، ومن أراد شقاوتَه اعتَلَّ بعلَّةِ إبليسَ أو نحوِها، فيكونُ كالمستجيرِ مِن الرَّمضاءِ بالنَّارِ، ومَثَلُه مَثَلُ رجُلٍ طار إلى دارِه شرارةُ نارٍ، فقال له العقلاءُ: أطفِئْها لئلَّا تُحرِقَ المنزلَ، فأخذ يقولُ: من أين كانت؟ هذه ريحٌ ألقَتْها وأنا لا ذنبَ لي في هذه النَّارِ، فما زال يتعلَّلُ بهذه العِلَلِ حتى استعَرَت وانتشرت وأحرقت الدارَ وما فيها! هذه حالُ مَن شَرَع يُحيل الذنوبَ على المقاديرِ ولا يرُدُّها بالاستغفارِ والمعاذيرِ[1]، فمن تاب أشبَهَ أباه آدمَ، ومن أصَرَّ واحتَجَّ بالقَدَرِ أشبَهَ إبليسَ[2].

٣- قَولُ الله تعالى حاكيًا عن إبليسَ قولَه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فيه دَليلٌ على جلالةِ هذا الوَصفِ، وأنَّه أفضَلُ ما اتَّصفَ به الطَّائِعُ[3].

٤- وضَعَ اللهُ تعالى سُنَّةً في نُفوسِ البشَرِ أنَّ الشَّيطانَ لا يتسَلَّطُ إلَّا على من كان غاويًا، مائِلًا للغَوايةِ، مُكتَسِبًا لها، دونَ من كبَحَ نفسَه عن الشَّرِّ؛ فإنَّ العاقِلَ إذا تعلَّقَ به وِسواسُ الشَّيطانِ عَلِمَ ما فيه من إضلالٍ، وعَلِمَ أنَّ الهُدى في خلافِه، فإذا وُفِّقَ وحمَلَ نفسَه على اختيارِ الهُدى، وصرَفَ إليه عَزمَه، قَوِيَ على الشَّيطانِ فلم يكنْ له عليه سُلطانٌ، وإذا مال إلى الضَّلالِ واستحسَنَه، واختار إرضاءَ شَهوتِه، صار متهيئًا إلى الغَوايةِ، فأغواه الشَّيطانُ فغَوى، قال الله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٩٩-٢٠٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٠٧-١٠٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٨).

مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[1].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] ظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ آدمَ خُلِقَ مِن صَلصالٍ، أي: طينٍ يابسٍ. وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وكقَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ثُمَّ بُلَّ فصار طينًا لازِبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفخَّارِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ علَّقَ السُّجودَ بأن يَنفُخَ فيه من رُوحِه، فالمُوجِبُ لتَفضيلِ آدمَ على إبليسَ هذا المعنى الشَّريفُ الذي ليس لإبليسَ مِثلُه[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، ظاهِرُه يقتضي أنَّ الله تعالى تكلَّم مع إبليسَ بغيرِ واسطةٍ، وأنَّ إبليس تكلَّم مع الله تعالى بغيرِ واسطةٍ فيه، وكيف يعقلُ هذا مع أنَّ مكالمةَ الله تعالى بغيرِ واسطةٍ مِن أعظمِ المناصبِ، وأشرفِ المراتب، فكيف يُعقَلُ حصولُه لرأسِ الكفرةِ ورئيسِهم؟

لعل **الجوابَ** عنه: أنَّ مكالمة الله تعالى إنما تكونُ منصبًا عاليًا إذا كان على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣١).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٦).

سبيلِ الإكرامِ والإعظامِ، فأما إذا كان على سبيلِ الإهانةِ والإذلالِ فلا، وهذا الخطابُ له ليس للتشريفِ والتكريمِ، بل للتقريعِ والتوبيخِ[١].

٤- قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ قولُه: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾ اختار هذا الاسمَ هنا؛ لأنَّ الإبلاسَ معناه اليأسُ مِن كُلِّ خيرٍ، والسُّكونُ والانكسارُ، والحُزنُ والتحيُّر، وانقطاعُ الحُجَّةِ، والنَّدمُ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ جرى فيه الاستخبارُ على ما تعرفُه العَرَبُ مِن كلامِها، وتستعمِلُه في مُحاوراتِها؛ فتسألُ عن الشَّيءِ تَعرِفُه، أو لِتؤكِّدَ الحُجَّةَ على المسؤولِ، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، قال اللهُ تبارك وتعالى لموسى صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] وهو يَعلَمُها ويَراها[٣].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ * وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ إبليسَ سيستمِرُّ على كُفرِه، وبُعدِه من الخيرِ[٤].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ إنْ قيل: كَلِمةُ (إلى) تفيدُ انتهاءَ الغايةِ، فهذا يُشعِرُ بأنَّ اللَّعنَ لا يحصُلُ إلَّا إلى يومِ القيامة، وعند قيامِ القيامةِ يزولُ اللَّعنُ؟ **والجوابُ** عنه مِن وجهينِ:

الوجه الأول: أنَّ المرادَ منه التأبيدُ، وذِكرُ القيامةِ أبعَدُ غايةٍ يذكُرُها النَّاسُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

كلامِهم، كقَولِهم: (ما دامت السَّمواتُ والأرضُ) في التأبيدِ، فجعَل يومَ الدينِ- وهو يومُ الجزاء- غايةً للَّعنِ، استعمالًا في معنى الدوامِ، كأنَّه قيل: أبدًا.

الوجه الثاني: أنَّك مذمومٌ مدعُوٌّ عليك باللَّعنةِ في السَّمواتِ والأرضِ إلى يومِ الدِّينِ مِن غيرِ أن يُعَذَّبَ، فإذا جاء ذلك اليومُ عُذِّبَ عذابًا ينسَى اللَّعنَ معه، فيصيرُ اللَّعنُ حينئذٍ كالزَّائلِ؛ بسبَبِ أنَّ شِدَّةَ العذابِ تُذهِلُ عنه، فاللعنةُ عليه في الدنيا إلى أن يلاقيَ جزاءَ عملِه، فذلك يومئذٍ أشدُّ مِن اللعنةِ(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾
إنْ قيلَ: كيف أجاب اللهُ تعالى إبليسَ إلى ذلك الإمهالِ؟

فالجوابُ: أنَّه إنما أجابَه إلى ذلك زيادةً في بلائِه وشَقائِه وعذابِه، لا لإكرامِه ورَفعِ مَرتبتِه(٢)، فهو امتحانٌ وابتلاءٌ مِن الله له وللعبادِ؛ ليتبيَّنَ الصادقُ الذي يطيعُ مولاه دونَ عدوِّه، ممن ليسَ كذلك، ولذلك حذَّرَنا منه غايةَ التحذيرِ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾
أجاب اللهُ دُعاءَه فى الحالِ، ولكنْ كان ذلك مَكرًا به؛ لأنَّه مكَّنَه من مُخالفةِ أمْرِه إلى يومِ القيامةِ، فلم يَزِدْه بذلك التَّمكينِ إلَّا شِقوةً؛ لِيَعلمَ الكافَّةُ أنَّه ليس كلُّ إجابةٍ للدُّعاءِ نِعمةً ولُطفًا، بل قد تكونُ بلاءً ومَكرًا(٤).

١٠- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وقَولِه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (١/ ٥٢٢).

إقرارَ العبدِ بالحقيقةِ الكونيَّةِ -وهي أنَّ اللهَ ربُّه وخالِقُه وخالِقُ غيرِه- دونَ القيامِ بما أُمِرَ به مِن الحقيقةِ الدينيَّةِ، التي هي عبادتُه المتعَلِّقةُ بإلهيَّتِه، وطاعةُ أمرِه وأمرِ رسولِه- أنَّه يكونُ مِن جِنسِ إبليسَ، وأهلِ النَّارِ. وإنْ ظَنَّ مع ذلك أنَّه مِن خواصِّ أولياءِ اللهِ، وأهلِ المعرفةِ والتَّحقيقِ، الذين يسقُطُ عنهم الأمرُ والنَّهيُ الشَّرعيَّانِ؛ كان من أشَرِّ أهلِ الكُفرِ والإلحادِ[1]!

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ فيه أنَّ العِلمَ لا يستلزِمُ الهدايةَ، وكثيرًا ما يكونُ الضَّلالُ عن عَمدٍ وعِلمٍ لا يشُكُّ صاحِبُه فيه، بل يُؤثِرُ الضَّلالَ والكُفرَ وهو عالِمٌ بقُبحِه ومَفسَدتِه؛ فهذا شَيخُ الضُّلَّالِ وداعي الكُفرِ وإمامُ الفَجَرةِ: إبليسُ عَدُوُّ اللهِ، قد عَلِمَ أمرَ اللهِ له بالسُّجودِ لآدمَ، ولم يشُكَّ فيه، فخالَفَه وعاند الأمرَ، وباء بلَعنةِ الله وعذابِه الدَّائمِ، مع عِلمِه بذلك ومَعرفتِه به، وأقسَمَ له بعِزَّتِه أنَّه يُغوي خَلْقَه أجمعينَ إلَّا عبادَه منهم المُخلَصينَ، فكان غيرَ شاكٍّ في الله وفي وحدانيَّتِه، وفي البعثِ الآخِرِ وفي الجنَّةِ والنَّارِ، ومع ذلك اختار الخُلودَ في النَّارِ، واحتمالَ لعنةِ اللهِ وغَضَبِه وطَرْدِه من سمائِه وجَنَّتِه عن عِلمٍ بذلك ومَعرفةٍ لم تحصُل لكثيرٍ مِن النَّاسِ؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، وهذا اعترافٌ منه بالبعثِ وإقرارٌ به، وقد عَلِمَ قسَمَ رَبِّه؛ لَيَملأنَّ جهنَّمَ منه ومِن أتباعِه، فكان كُفرُه كُفرَ عنادٍ مَحضٍ، لا كُفرَ جَهلٍ[2].

١٢- القَدَرُ يُؤمَنُ به، ولا يُحتَجُّ به، فمن لم يؤمِنْ بالقَدَرِ ضارَعَ المجوسَ، ومن احتَجَّ به ضارع المُشرِكينَ، ومن أقَرَّ بالأمرِ والقَدَرِ، وطعَنَ في عَدْلِ الله

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٠).

وحِكمتِه، كان شبيهًا بإبليسَ؛ فإنَّ اللهَ ذكَرَ عنه أنَّه طعَنَ في حِكمتِه وعارَضَه برأيِه وهواه، وأنَّه قال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

١٣- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بيَّنَ الله تعالى أنَّ عِبادَه هم الذين يَنجُونَ مِن السَّيِّئاتِ[2].

١٤- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ بيانُ العبوديَّةِ الخاصَّةِ -وهي عبوديةُ الطاعةِ والمحبَّةِ، واتِّباعِ الأوامرِ- ويُقابِلُها العبوديَّةُ العامَّةُ -وهي عبوديَّةُ أهلِ السَّموات والأرض كلِّهم لله؛ برِّهم وفاجرِهم، مؤمنِهم وكافرِهم- فهذه عبوديةُ القهرِ والمُلْكِ؛ قال تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهذا يدخُلُ فيه مؤمِنُهم وكافِرُهم[3].

١٥- في قَولِه تعالى عن إبليسَ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وقَولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يعبدِ اللهَ وحدَه، فلا بُدَّ أن يكونَ عابدًا لغَيرِه، فيكون مُشرِكًا، وليس في بني آدمَ قِسمٌ ثالثٌ، بل إمَّا مُوَحِّدٌ، وإمَّا مُشرِكٌ، أو مَن خَلطَ هذا بهذا، كالمُبَدِّلينَ مِن أهلِ المِلَلِ: النصارى، ومَن أشبَهَهم مِن الضُّلَّالِ المنتسبينَ إلى الإسلامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٨٢).

١٦- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هذا السُّؤالُ من إبليسَ لم يكُنْ مِن ثِقةٍ منه بمنزلتِه عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه أهلٌ أن يُجابَ له دعاءٌ، ولكِنْ سأل تأخيرَ عذابِه زيادةً في بلائِه، كفعلِ الآيسِ من السلامةِ، وأراد بسُؤالِه الإنظارَ إلى يومِ يُبعثونَ ألَّا يموتَ؛ لأنَّ يومَ البعثِ لا موتَ فيه ولا بَعدَه(١).

١٧- اللهُ لا يَغفِرُ أن يُشرَكَ به، سواءٌ كان المُشرِكُ مُقِرًّا بالقَدَرِ، وناظِرًا إليه، أو مُكَذِّبًا به، أو غافلًا عنه؛ فقد قال إبليسُ: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فأصَرَّ واحتجَّ بالقدَرِ، فكان ذلك زيادةً في كُفرِه، وسببًا لِمَزيدِ عَذابِه(٢).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، قيل: إنَّ الإضافةَ للتَّشريفِ، فلا تشمَلُ إلَّا الخُلَّصَ، فحينئذٍ يكونُ الاستثناءُ مُنقَطِعًا، وفائدةُ سَوقِه بصورةِ الاستثناءِ على تقديرِ الانقطاعِ: التَّرغيبُ في رُتبةِ التَّشريفِ بالإضافةِ إليه، والرُّجوعِ عن اتِّباعِ العَدُوِّ إلى الإقبالِ عليه؛ لأنَّ ذوي الأنفُسِ الأبيَّةِ والهِمَمِ العَلِيَّةِ يُنافِسونَ في ذلك المَقامِ، ويَرونَه- كما هو الحَقُّ- أعلى مَرامٍ(٣).

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ زيادةُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأنَّها أوَّلُ ما يخطرُ ببالِه عند خطورِ الغَوايةِ؛ لاقترانِ الغَواية بالنزولِ إلى الأرضِ الذي دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤]، أي: اخرجْ من الجنَّةِ إلى الأرضِ، كما جاء في الآيةِ الأُخرَى، قال: ﴿وَقُلْنَا

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٥٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٣).

﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ [البقرة: ٢]، ولأنَّ جعْلَ التزيينِ في الأرضِ يفيدُ انتشارَه في جميعِ ما على الأرضِ مِن الذواتِ وأحوالِها(١).

٢٠- قولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ جعَلَ المُغوَينَ هم الأصلَ، واستثنى منهم عبادَ اللهِ المُخلَصين؛ لأنَّ عزيمةَ إبليسَ مُنصرفةٌ إلى الإغواءِ، فهو الملحوظُ ابتداءً عنده، على أنَّ المُغوَينَ هم الأكثَرُ، وعكسُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢]، والاستثناءُ لا يُشعِرُ بقِلَّةِ المستثنى بالنِّسبةِ للمستثنى منه، ولا العكسِ(٢).

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ القِراءةُ بفَتحِ اللَّامِ في ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تدلُّ على أنَّ الإخلاصَ والإيمانَ ليس إلَّا مِن الله تعالى؛ حيثُ إنَّ معنى الآيةِ على هذه القراءةِ: الذين أخلَصَهم اللهُ بالهدايةِ والإيمانِ، والتَّوفيقِ(٣).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ سِرٌّ لطيفٌ في استخدامِ أداة «على»، وهو الإشعارُ بكَونِ السَّالكِ على هذا الصِّراطِ على هُدًى- وهو حَقٌّ- كما قال في حَقِّ المؤمنينَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٥]، وقال لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، واللهُ عزَّ وجلَّ هو الحقُّ، وصِراطُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ، فمَنِ استقامَ على صراطِه فهو على الحقِّ والهُدى، فكان في أداةِ «على» على هذا المعنى ما ليس

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٤).

في أداةِ «إلى»، فتأمَّلْه؛ فإنَّه سِرٌّ بديعٌ[(١)].

٢٣- الشَّيطانُ يَنزِلُ على كلِّ إنسانٍ ويُوحي إليه بحسَبِ مُوافقَتِه له، ويُطرَدُ بحسَبِ إخلاصِه لله وطاعتِه له؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ وعبادُه هم الَّذين عبَدوه بما أمَرَتْ به رسلُه مِنْ أداءِ الواجباتِ والمستحبَّاتِ[(٢)].

٢٤- مَن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يَعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا من أخلصَ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ، وهم الذين قال فيهم: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾[(٣)] [الحجر: ٤٢].

٢٥- الشَّيطانُ عَبدٌ لله يَملِكُه، فإذا استزلَّ عبدًا فبإطلاقِه، وبما سبَقَ في قضائِه، لا باقتدارِ نَفسِه؛ ألا تراه يقولُ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ فليس يتَّبِعُه إلَّا من قُضِيَ عليه، والمعصومُ لا وصولَ له إليه[(٤)].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ أنَّ الاستثناءَ إنْ كان مِن صفةٍ فيصِحُّ أن يُخرِجَ الكُلَّ أو الأكثرُ؛ فأتباعُ إبليسَ مِن بني آدمَ أكثَرُ مِن النِّصفِ[(٥)]! وذلك على اعتبارِ أنَّه استثناءٌ متصلٌ.

٢٧- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٤٠)، ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (٣/ ١٦٦).

ﵟٱلۡغَاوِينَﵞ لعلَّ قائلًا يقول: قد أخبَرَ الله عن صفةِ آدمَ وحوَّاءَ عليهما السَّلامُ بقَولِه: ﵟفَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُﵞ، وعن جملةٍ مِن أصحابِ نبيِّه بقَولِه: ﵟإِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْﵞ فكيف الجمعُ؟ **والجوابُ** هو: أنَّه ليس له سُلطانٌ على قُلوبِهم، ولا موضِعِ إيمانِهم، ولا يُلقيهم في ذَنبٍ يَؤولُ إلى عدمِ القَبولِ، بل تُزيلُه التَّوبةُ وتَمحُوه الأوبةُ، ثمَّ إنَّ قَولَه سُبحانَه: ﵟلَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌﵞ يحتمِلُ أن يكون خاصًّا فيمن حَفِظَه الله، ويحتمِلُ أن يكونَ في أكثَرِ الأوقاتِ والأحوالِ[1].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﵟإِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَﵞ، وقولِه تعالى: ﵟإِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَﵞ [النحل: ١٠٠] التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، وقد جاء في بعضِ الآياتِ ما يدُلُّ على نفيِ سُلطانِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﵟوَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞﵞ [سبأ: ٢٠- ٢١]. وقولِه تعالى حاكيًا عنه مقرِّرًا له: ﵟوَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍﵞ [إبراهيم: ٢٢].

والجوابُ: هو أنَّ السُّلطانَ الذي أثبتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك من وجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ المُثبَتَ له هو سُلطانُ إضلالِه لهم بتزيينِه، والسُّلطانَ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٩).

المنفيَّ هو سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يتسَلَّطُ بها غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القرآنِ.

الثاني: أنَّ اللهَ لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكنَّهم هم الذين سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه، ودُخولِهم في حِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّةٍ؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم(١).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ إنَّما أُخِّرَ عن ﴿حَمَإٍ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ابتداءَ مَسنونيَّتِه ليس في حالِ كونِه صَلصالًا، بل في حالِ كونه حمأً، كأنَّه سبحانه أفْرَغ الحمأَ، فصَوَّر مِن ذلك تِمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فيَبِس حتَّى إذا نُقِرَ صَوَّتَ، ثُم غيَّرَه إلى جوهرٍ آخَر؛ فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالِقينَ(٢).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ هذا تَكمِلةٌ لإقامةِ الدَّليلِ على انفرادِه تعالى بخلْقِ أجناسِ العوالِمِ وما فيها، ومنه يتخلَّصُ إلى التَّذكيرِ بعَداوةِ الشَّيطانِ للبشَرِ؛ ليأخُذوا حِذْرَهم منه، وجاء بمُناسبةِ ذِكْرِ الإحياءِ والإماتةِ؛ فإنَّ أهَمَّ الإحياءِ هو إيجادُ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ ففي هذا الخبرِ استدلالٌ على عظيمِ القُدرةِ والحِكمةِ وعلى إمكانِ البعثِ، والمقصودُ مِن

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٣- ٧٤).

ذِكْرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ تعالى. وتوكيدُ الجُملةِ بلامِ القسَمِ وبحرْفِ (قد)؛ لزيادةِ التَّحقيقِ؛ تنبيهًا على أهميَّةِ هذا الخَلْقِ، وأنَّه بهذه الصِّفةِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ في التَّعرُّضِ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئَةِ عن تبليغِ الشَّيءِ إلى كَمالِه اللَّائقِ به شيئًا فشيئًا، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إشعارٌ بعِلَّةِ الحُكْمِ، وتشريفٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- قولُه: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾ أبلَغُ مِن (أخلُقُ)؛ إذ فيه ما ليس في صِيغَةِ المُضارعِ مِن الدَّلالةِ على أنَّه تعالى فاعِلٌ له الْبتَّةَ مِن غيرِ صارفٍ يُثْنيه، ولا عاطفٍ يَلْويه[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾، مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال في سُورةِ (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ [ص:٧١]، وقال في البقرةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ ففي الأُولَيَينِ: ﴿خَٰلِقُۢ﴾، وفي البقرةِ: ﴿جَاعِلٌ﴾؛ ووجْهُ ذلك الاختلافِ: أنَّ (جعَلَ) إذا كان بمعنى (خلَقَ) يُسْتَعْمَلُ في الشَّيءِ الَّذي يَتجدَّدُ ويَتكرَّرُ، كقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]؛ لأنَّ الظُّلماتِ والنُّورَ يَتجدَّدانِ زَمانًا بعدَ زمانٍ، وكذلك (الخليفةُ) يدُلُّ لَفظُه على أنَّ بعضَهم يَخلُفُ بعضًا إلى يومِ القيامةِ، وخُصَّت هذه السُّورةُ بقولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾؛ إذ ليس في لَفظِ (البشَرِ) ما يدُلُّ على التَّجدُّدِ والتَّكرارِ؛ فجاء في كلِّ واحدةٍ مِن السُّورتَينِ ما اقتضاهُ ما بعدَه مِن الألفاظِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ إسنادُ النفخِ، وإضافةُ الرُّوحِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ تنويهٌ بهذا المخلوقِ[2]، والروحُ المضافةُ إلى الربِّ هي روحٌ مخلوقةٌ أضافَها إلى نفسِه إضافةَ تخصيصٍ وتشريفٍ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾ فيه تأكيدٌ بتَأكيدَينِ (كُلُّهُمْ - أَجْمَعُونَ)؛ للمُبالغةِ في التَّعميمِ ومنْعِ التَّخصيصِ؛ فهو تَأكيدٌ على تَأكيدٍ، أي: لم يتخلَّفْ عنِ السُّجودِ أحدٌ منهم؛ وذلك تعظيمًا لأمرِ اللهِ، وإكرامًا لآدمَ[4]. وقولُه: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ استثناءٌ صِناعيٌّ، وهو المُتعلِّقُ بعلْمِ البيانِ، وهذا الاستثناءُ لو لم يتقدَّمْ لَفْظَه هذا الاحتراسُ مِن قولِه: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لاحتمَلَ أنْ يكونَ في الملائكةِ مَن لم يسجُدْ، فيَتأسَّى به إبليسُ، ولا يكون مُنفردًا بهذه الكبيرةِ؛ لاحتمالِ أنْ تكونَ آلةُ التَّعريفِ للعَهدِ لا للجِنْسِ؛ فلمَّا كان هذا الإشكالُ يتوجَّهُ على الكلامِ إذا اقتُصِرَ فيه على ما دونِ التَّوكيدِ وجَبَ الإتيانُ بالتَّوكيدِ؛ ليُعْلَمَ أنَّ آلةَ التَّعريفِ للجِنْسِ، فيرتفِعَ هذا الإشكالُ بهذا الاحتراسِ؛ فحينئذٍ تعظُمُ كَبيرةُ إبليسَ؛ لكونِه فارَقَ جميعَ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٤-١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٤-٤٥).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٥-١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٥).

الملَأِ الأعلى، وخرَقَ إجماعَ الملائكةِ، فيستحِقُّ أنْ يُفْرَدَ بهذا اللَّعنِ إلى آخرِ الأبدِ(١).

٥- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لكيفيَّةِ عدَمِ السُّجودِ المفهومِ مِن الاستثناءِ(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالِ مَن قال: فماذا قال اللهُ تعالى عند ذلك؟ فقيل: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ ... ﴾(٣).

- قولُه: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ استفهامُ توبيخٍ، ومعناه: أيُّ شيءٍ ثبَتَ لك، أي: مُتَمَكِّنًا منك؛ لأنَّ اللَّامَ تفيدُ المُلْكَ، و﴿أَلَّا تَكُونَ ﴾ معمولٌ لحرْفِ جرٍّ محذوفٍ تقديرُه: (في)، وحَذْفُ حرْفِ الجرِّ مُطَّرِدٌ مع (أنْ)، وحرْفُ (أنْ) يفيدُ المصدريَّةَ؛ فالتَّقديرُ: ما لك في انتفاءِ كونِك مِن السَّاجدينَ(٤)؟!

٧- قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ الَّذي يَنساقُ إليه الكلامُ(٥).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٤٢ - ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٥).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

- واللَّامُ في ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، أي: لا يصِحُّ مِنِّي، ويُنافي حالي أنْ أسجُدَ، وهي لامُ الجُحودِ، وهذا أشدُّ في النَّفيِ مِن: (لا أسجُدُ)(١).

- واقتصَرَ هاهنا على الإشارةِ الإجماليَّةِ إلى ادِّعاءِ الخَيريَّةِ، وشرَفِ المادَّةِ؛ اكتفاءً بما صرَّحَ به حين قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، ولم يكتَفِ اللَّعينُ بمُجرَّدِ ذِكْرِ كونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن التُّرابِ الَّذي هو أخَسُّ العناصِرِ وأسفَلُها، بل تعرَّضَ لكونِه مَخلوقًا منه في أخسِّ أحوالِه مِن كونِه طِينًا مُتغيِّرًا، وقد اكْتَفى في سُورةِ الأعرافِ وسُورةِ (ص) بما حكى عنه هاهنا، فاقتصَرَ على حكايةِ تعرُّضِه لخَلْقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن طينٍ، وكذا في سُورةِ بني إسرائيل حيث قيل: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١]، وفي جوابِه دليلٌ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَا لَكَ﴾ ليس استفسارًا عن الغرَضِ بل هو استفسارٌ عنِ السَّببِ، وفي عُدولِه عن تَطبيقِ جوابِه على السُّؤالِ رَوْمٌ للتَّفصِّي عن المُناقشةِ، وأنَّى له ذلك؟! كأنَّه قال: لم أمتنِعْ عن امتثالِ الأمْرِ ولا عن الانتظامِ في سِلْكِ الملائكةِ، بل عمَّا لا يليقُ بشأْني مِن الخُضوعِ للمفضولِ، ولقد جرى -خذَلَه اللهُ تعالى- على سَنَنِ قياسٍ عقيمٍ، وزلَّ عنه أنَّ ما يدور عليه فَلَكُ الفضْلِ والكمالِ هو التَّحلِّي بالمَعارفِ الرَّبانيَّةِ، والتَّخلِّي عن المَلَكاتِ الرَّديَّةِ الَّتي أقبَحُها الكِبْرُ، والاستِعصاءُ على أمْرِ رَبِّ العالمينَ جلَّ جلالُه(٢).

٨- قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٠-٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

- قولُه: ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ وعيدٌ يتضمَّنُ الجَوابَ عن شُبْهتِه؛ فإنَّ مَن عارَضَ النَّصَّ بالقياسِ فهو رَجيمٌ مَلعونٌ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ دالَّةٌ على سبَبِ إخراجِه، و(إنَّ) مُؤْذِنَةٌ بالتَّعليلِ؛ وذلك إيماءٌ إلى سبَبِ إخراجِه مِن عَوالِمِ القُدُسِ، والرَّجيمُ: المطرودُ، وهو كِنايةٌ عنِ الحَقارةِ(٢).

٩- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

- (على) مُستعمَلَةٌ في الاستعلاءِ؛ لتَمكُّنِ اللَّعنةِ والشَّتمِ منه حتَّى كأنَّه يقَعُ فوقَه(٣).

١٠- قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ الإنظارُ: الإمهالُ والتَّأخيرُ، والمُرادُ: تأخيرُ إماتَتِه؛ لأنَّ الإنظارَ لا يكونُ للذَّاتِ؛ فتعيَّنَ أنَّه لبعضِ أحوالِها- وهو الموتُ- بقرينةِ السِّياقِ. وخاطَبَ اللهَ بصِفَةِ الرُّبوبيَّةِ؛ تخضُّعًا وحثًّا على الإجابةِ، والفاءُ في ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فاءُ التَّفريعِ، ووسَّطَ النِّداءَ بينَ ذلك(٤).

١١- قوله تعالى: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ فيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيث خُولِفَ بين

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٨).

العِباراتِ سُلوكًا بالكلامِ طريقةَ البَلاغةِ؛ فإنَّ ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ و﴿يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ في معنًى واحدٍ[١]، وذلك على أحدِ الأقوالِ؛ فعُبِّرَ هنا عن يومِ البَعثِ بـ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ﴾ تَفَنُّنًا؛ تَفاديًا مِن إعادةِ اللَّفظِ؛ قضاءً لحقِّ حُسْنِ النَّظمِ، ولِمَا فيه مِن التَّعليمِ بأنَّ اللهَ يعلَمُ ذلك الأجَلَ؛ فالمُرادُ: المَعلومُ لدينا، ويجوزُ أنْ يُرادَ: المعلومُ للنَّاسِ أيضًا علْمًا إجماليًّا. وفيه تعريضٌ بأنَّ مَن لم يؤمِنوا بذلك اليومِ مِن النَّاسِ لا يُعْبَأُ بهم، فهم كالعَدَمِ[٢]، وقيل بناءً على هذا القولِ أيضًا: الاختلافُ في العباراتِ لاختلافِ الاعتباراتِ، فالتعبيرُ بيومِ البعثِ؛ لأنَّ غرضَ اللعينِ به يتحقَّقُ، وبيومِ الدِّينِ؛ لما ذُكِر مِن الجزاءِ، وبيومِ الوقتِ المعلومِ؛ لاستئثارِه تعالى بعلمِه[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ فالإشارةُ إلى ما يُؤْخَذُ مِن الجُملةِ الواقعةِ بعدَ اسمِ الإشارةِ المُبيِّنَةِ للإخبارِ عنِ اسمِ الإشارةِ، وهي جُملةُ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ فتكونُ الإشارةُ إلى غيرِ مُشاهَدٍ؛ تنزيلًا له مَنزِلةَ المُشاهَدِ، وتنزيلًا للمسموعِ مَنزِلةَ المَرْئيِّ، ثمَّ إنَّ هذا المُنزَّلَ مَنزلةَ المُشاهَدِ هو مع ذلك غيرُ مَذكورٍ؛ لقَصْدِ التَّشويقِ إلى سَماعِه عندَ ذِكْرِه. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الاستثناءِ الَّذي سبَقَ في حكايةِ كلامِ إبليسَ مِن قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ لتَضمُّنِه أنَّه لا يستطيعُ غَوايةَ العِبادِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ للخيرِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٧).

﴿ مُستأنَفَةً[١].

- وقد اشتملتْ هذه الآيةُ على أغراضٍ كثيرةٍ، مع أنَّ كلماتِها قليلةٌ؛ ففيها إيجازٌ، ولعلَّه من أبلغِ الإيجازاتِ؛ إذ يدلُّ لفظُه على مُحتمَلاتٍ عِدَّةٍ ومُشتمَلاتٍ كثيرةٍ، ولا يمكن التعبيرُ عنه بمِثل ألفاظِه وفي عِدَّتِها؛ فقوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ تدلُّ على القُربِ، فكأنَّه يُشيرُ إلى ما هو على مرأًى مِن عُيونِهم، ومَسْمَعٍ مِن آذانِهم، وبينَ مُتناوَلِ أيديهم، و﴿صِرَٰطٌ﴾ تدلُّ على الطريقِ المسلوكةِ الَّتي تُفضي بسالكِها إلى حيثُ يَختارُ لنَفْسِه مِن مذاهبَ، ولكنَّ الطريقَ قد تكونُ مُعوجَّةً مُلتويةً كثيرةَ المُنعطَفاتِ؛ فيَتِيه السالكُ في متاهاتها، وتلتبِسُ عليه أوجهُ الاستهداءِ في سُلوكِها؛ فجاء بكلمةِ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾، والمستقيمُ هو أقصرُ بُعدٍ بَين نُقطتَينِ، وأقلُّ انحرافٍ يُخرِجُه عن سَننِ الاستقامةِ وحُدودِها، وكلمة ﴿عَلَيَّ﴾ تعني الإلزامَ والإيجابَ، ثمَّ إنَّ الإشارةَ تَضمَّنتْ كلَّ ما يَحتويه الاستثناءُ فيما بعدُ، وهو قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ فكأنَّه أخذ على نفْسه وأوجبَ على ذاتِه حقًّا لا انفكاكَ له عنه، وهو تخليصُ المخلِصينَ من إغوائِه، وقد تضمَّن تعريفُ المخلصين أيضًا ما يُؤكِّد هذا المعنى، ويَجعلُه مُستقرًّا في الذِّهن؛ لأنَّ التَّعريفَ فيه مع تحقيقِ الصِّفةِ للموصوفِ- وهي الإخلاصُ- تفخيمٌ لشأنِهم، وبيانٌ لمنزلتِهم، ولانقطاعِ مخالبِ الإغواءِ عنهم، وفَلِّ مَعاولِ النَّقدِ أن تتوجَّه إليهم[٢].

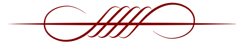
١٣- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فيه تأكيدُ الضَّميرِ (هُمْ) بقولِه: ﴿

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٤٠-٢٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٧٩).

﴿أَجۡمَعِينَ﴾[١]، والضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، والمَوعِدُ: مكانُ الوعْدِ، وفي ذلك تهكمٌ بهم؛ لأنَّهم يُنكِرونَ البعثَ والجَزاءَ، فجُعِلوا بمَنزِلةِ مَن عيَّنَ ذلك المكانَ للإتيانِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٣).

الآيات (٤٥-٥٠)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غِلٍّ﴾: أي: عداوةٍ وشحناءَ، وأصلُ (غلل) يدلُّ على تَخَلُّلِ شيءٍ، وثباتِ شيءٍ، كالشَّيءِ يُغْرَزُ[1].

﴿نَصَبٌ﴾: أي: إعياءٌ وتعَبٌ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ المتقينَ في بساتينَ وعُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ وغير ذلك، يُقالُ لهم: ادخُلوا هذه الجنَّاتِ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ مِن كُلِّ سُوءٍ، آمنينَ مِن الموتِ والعذابِ، ونزَعْنا ما في قُلوبِهم مِن عَداوةٍ وحِقدٍ مما كان في الدنيا، إخوانًا في الجنَّةِ مُتحابِّينَ، يجلِسونَ على الأسِرَّة بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، لا يُصيبُهم فيها تعَبٌ ولا مَشقَّةٌ، وهم فيها خالدون أبدًا، لا يخرجونَ منها.

ثم يأمر الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يخبرَ العبادَ أنَّه سبحانه هو الغفورُ للتَّائبينَ، الرَّحيمُ بهم، وأنَّ عذابَه هو العذابُ المُوجِعُ المُؤلِمُ للمُصِرِّينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

على الكفرِ والمعاصي.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٤٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما أعَدَّ لأهلِ النَّارِ؛ ذكَرَ ما أعدَّ لأهلِ الجنَّةِ؛ لِيَظهرَ تبايُنُ ما بينَ الفَريقينِ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ الكافرينَ، وما جرَّهم إلى الضَّلالِ، وجرَّأهم على قبائِحِ الأعمالِ؛ ذكَرَ المُخلَصينَ[٢]، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٤٥ ﴾.

أي: إنَّ الذين اتَّقَوا اللهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهَى، في بساتينَ- قد احتوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ- وعُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيمِ، وغير ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٨).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي: المتَّقينَ للشِّركِ بالله، كما قاله جمهورُ الصَّحابةِ والتابعينَ، وقيل: هم الذين اتَّقَوا جميعَ المعاصي، ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ وهي: البساتينُ، ﴿وَعُيُونٍ﴾ وهي الأنهارُ. والتركيبُ يحتملُ أن يكونَ: لجميعِ المتقينَ جناتٌ وعيونٌ، أو: لكلِّ واحدٍ منهم جناتٌ وعيونٌ، أو: لكلِّ واحدٍ منهم جنةٌ وعينٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٠).

٥١-٥٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥-١٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ * فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١-٤٤].

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَحسُنُ إلَّا بالسَّلامةِ والأُنسِ والأمنِ؛ قال تعالى[1]:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: يُقالُ[2] للمُتَّقينَ يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ مُسَلَّمًا عليكم، سالِمينَ من كلِّ داءٍ وآفةٍ، آمِنينَ مِنَ الموتِ والعذابِ، والهُمومِ والغُمومِ والأمراضِ، وانقطاعِ النَّعيمِ أو نُقصانِه، ومِن سائرِ المُكَدِّراتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(٢) قال الخازنُ: (القائلُ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ ملائكتِه). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

قال ابنُ عطيةَ: (و«السلامُ» هاهنا يحتملُ أن يكونَ السلامةَ، ويحتملُ أن يكونَ التحيةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٣).

وقال الشوكاني: (معنى ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ بسلامةٍ من الآفات، وأمْنٍ من المخافاتِ، أو مُسلِّمينَ

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الأُنسُ لا يَكمُلُ إلَّا بمَن هو مِن جنسِهم مع كمالِ المودَّةِ، وصَفاءِ القُلوبِ عن الكَدَرِ؛ قال[1]:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

أي: واقتَلَعْنا وأخرَجْنا ما في صُدورِ هؤلاء المتَّقينَ مِن الحِقدِ والبُغضِ والحَسَدِ، الذي كان بينَهم في الدُّنيا[2].

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((يَخلُصُ المُؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسونَ على قَنطرةٍ[3] بين الجنَّةِ والنَّارِ،

على بعضِهم بعضًا، أو مُسلَّمًا عليهم من الملائكةِ، أو مِن الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾... السلامُ ظاهرٌ في التحيَّة؛ لتقييدِه بـ﴿ءَامِنِينَ﴾، ولو كان السلامُ مُرادًا به السلامةُ، لكان التقييدُ بـ﴿ءَامِنِينَ﴾ توكيدًا، وهو خلافُ الأصلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٨٩)، ويُنظر: (١٤/ ٥٥).

وقال الرازي: (وقولُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ المرادُ: ادخُلوا الجنَّةَ معَ السَّلامةِ مِنْ كلِّ الآفاتِ في الحالِ، ومعَ القطعِ ببقاءِ هذه السَّلامةِ، والأمنِ مِنْ زوالِها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٨).

وممن جمَع بينَ المعنيين: أي: سالمينَ، مسلَّمًا عليكم: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٥).

(٣) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصراطِ الممدودِ بينَ الجنةِ والنارِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح

فيُقَصُّ[١] لِبَعضِهم من بعضٍ مَظالِمُ كانت بينهم في الدُّنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّة، فوالذي نَفسُ مُحمَّدٍ بِيَدِه، لَأحَدُهم أهدى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[٢].

﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

أي: حالَ كونِهم إخوانًا[٣]، يكونونَ على الأسِرَّةِ بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، ينظُرونَ إلى وُجوهِ جُلَسائِهم، ولا يَنظُرُ بعضُهم إلى قَفا بعضٍ[٤].

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ٤٨﴾.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

أي: لا ينالُ المتَّقينَ في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ[٥].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

المصابيح)) (٥/ ٥٢٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(١) فيُقَصُّ: أي: يمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخذِ القِصاصِ، وهو أن يفعلَ به مثلَ فِعلِه، من قتلٍ، أو قَطعٍ، أو ضربٍ أو جرحٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٢) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٣) قال القرطبي: (و﴿إِخْوَانًا﴾ نُصِب على الحالِ مِن ﴿الْمُتَّقِينَ﴾، أو مِن المضمَرِ في ﴿ادْخُلُوهَا﴾، أو مِن المضمَرِ في ﴿آمِنِينَ﴾، أو يكونُ حالًا مُقَدَّرَةً مِنَ الهاءِ والميم في ﴿صُدُورِهِم﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥، ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أي: وليس المتَّقونَ مِن الجنَّةِ بمُخرَجينَ، بل هم فيها دائِمونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقدَّمَ ذِكرُ ما في النَّارِ، وذِكرُ ما في الجنَّةِ؛ أكَّدَ تعالى تنبيهَ النَّاسِ، وتقريرَ ذلك، وتمكينَه في النَّفسِ(٢).

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ ما يُوجِبُ الرَّغبةَ والرَّهبةَ مِن مَفعولاتِ اللهِ مِن الجنَّةِ والنَّارِ؛ ذُكِرَ ما يُوجِبُ ذلك مِن أوصافِه(٣).

﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩﴾.

أي: أخبِرْ -يا مُحمَّدُ- عبادي خبَرًا جازِمًا مُؤكَّدًا أنِّي أنا كثيرُ المَغفِرةِ لذُنوبِهم إذا تابُوا، فأستُرُ ذُنوبَهم وأتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم، كثيرُ الرَّحمةِ بهم إذا استقاموا،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٣٩٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣١).

ومِن رحمتي أنِّي لا أعذِّبهم على الذنوب بعد تَوبتِهم منها[١].

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- رَسولَه بأنْ يُخبِرَ عِبادَه بتلك البِشارةِ العظيمةِ في الآيةِ السَّابقةِ؛ أمَرَه بأن يَذكُرَ لهم شيئًا ممَّا يتضَمَّنُ التَّخويفَ والتَّحذيرَ؛ حتى يجتَمِعَ الرَّجاءُ والخَوفُ، ويتقابَلَ التَّبشيرُ والتَّحذيرُ، ليَكونوا راجينَ خائِفينَ، فقال[٢]:

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

أي: وأخبِرْ عبادي أيضًا أنَّ عذابي لِمَن أصرَّ على الكُفرِ والمعاصي، فلم يتُبْ منها، هو العذابُ المُوجِعُ الكثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابي، ولْيُقبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليَّ[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((لو يعلَمُ المؤمِنُ ما عند اللهِ مِن العُقوبةِ، ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))[٤].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٤) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥)، واللفظ له.

ﱡﭐ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﱠ فيه أنَّ العبدَ ينبغي أن يكونَ قَلبُه دائِمًا بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ، والرَّغبةِ والرَّهبةِ، فإذا نظَرَ إلى رحمةِ رَبِّه ومَغفِرتِه وجُودِه وإحسانِه؛ أحدَثَ له ذلك الرَّجاءَ والرَّغبةَ، وإذا نظَرَ إلى ذُنوبِه وتَقصيرِه في حقوقِ رَبِّه؛ أحدَثَ له الخَوفَ والرَّهبةَ والإقلاعَ عنها[1].

٢- قال الله تعالى: ﱡﭐنَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﱠ قال ابنُ عَطاءٍ: (هذه الآيةُ إرشادٌ له صلَّى الله عليه وسلَّم إلى كيفيَّةِ الإرشادِ، كأنَّه قيل: أقِمْ عبادي بينَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ليصِحَّ لهم سبيلُ الاستقامةِ في الطَّاعةِ، فإنَّ مَن غلَبَ عليه رَجاؤه عطَّلَه، ومن غلَبَ عليه خَوفُه أقنَطَه)[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﱡﭐ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﱠ فيه سُؤالٌ: أنَّه تعالى حكَمَ قبلَ هذه الآيةِ بأنَّهم في جنَّاتٍ وعُيونٍ في قولِه: ﱡﭐ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﱠ، وإذا كانوا فيها فكيف يُمكِنُ أن يُقالَ لهم: ادخُلوها؟

والجوابُ فيه من أوجهٍ:

الوجه الأول: لعلَّ المرادَ به: قيلَ لهم قبل دُخولِهم فيها: ادخُلوها بسَلامٍ.

الوجه الثاني: لعلَّ المرادَ: لَمَّا مَلَكوا جنَّاتٍ كثيرةً، فكُلَّما أرادوا أن ينتَقِلوا من جنَّةٍ إلى أخرى، قيل لهم: ادخُلوها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٧-١٤٨).

الوجه الثالث: أنَّه جعَلَ ما يستقِرُّونَ فيه في الآخرةِ كأنَّهم مستقِرُّونَ فيه في الدُّنيا، ولذلك جاء: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا ﴾ على الأمرِ؛ لأنَّ مَن استقَرَّ في الشَّيءِ لا يُقالُ له: ادخُلْ فيه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أوَّلُ مَن يدخُلُ في هذا العُمومِ أصحابُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما شجَرَ بينهم من الحوادِثِ الدَّافعِ إليها اختلافُ الاجتهادِ في إقامةِ مَصالحِ المُسلِمينَ، والشِّدَّةُ في إقامةِ الحَقِّ على حسَبِ اجتهادِهم(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ دلَّ ذلك على تزاوُرِ أهلِ الجنَّةِ، واجتماعِهم، وحُسنِ أدَبِهم فيما بينهم؛ في كَونِ كُلٍّ منهم مُقابِلًا للآخَرِ، لا مُستدبِرًا له، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ المُزَيَّنةِ بالفُرُشِ واللُّؤلؤِ وأنواعِ الجواهِرِ(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فأخبَرَ عن تلاقي قُلوبِهم، وتلاقي وُجوهِهم(٤).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ هذه الآيةُ أنَصُّ آيةٍ في القُرآنِ على الخُلودِ(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴾ أنَّ الجنَّةَ مَن دخلَها لا يَخرُجُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٥-٥٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣١).
(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٦٥).

منها[١].

٧- قيل: للثوابِ أربعُ شرائطَ:

- أن يكون منافعَ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

- مقرونةً بالتعظيمِ، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

- خالصةً عن مظانِّ الشوائبِ الرُّوحانيةِ، كالحقدِ، والحسدِ، والغلِّ، والجسمانيةِ، كالإعياءِ، والنَّصَبِ، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿وَنَزَعْنَا ...﴾ إلى ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

- دائمةً، وإليه الإشارةُ بقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ قارِنْ بين هذه الآيةِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، تَجِدْ بينَهما فرقًا؛ لأنَّ قَولَه في هذه الآيةِ: ﴿نَبِّئْ﴾ أمرٌ مِن اللهِ إلى الرَّسولِ بأن يُنَبِّئَ الخلقَ، وقُدِّمَ الوَصفُ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليمِ؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن صِفةِ الله عزَّ وجَلَّ، فقَدَّمَ الجانِبَ الذي فيه اللُّطفُ والإحسانُ، وآيةُ المائدةِ ذُكِرَت عَقيبَ أحكامٍ عَظيمةٍ، قد يُخِلُّ بها المرءُ، فقَدَّمَ فيها جانِبَ التَّهديدِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ هي مِن صِفاتِه المذكورةِ بأسمائِه، فهي مِن مُوجِبِ نفسِه المقدَّسَةِ ومُقتضاها ولوازِمها، وأمَّا العذابُ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٤٢٦).

فمِن مَخلوقاتِه، الذي خَلَقَه بحكمةٍ[1].

بلاغة الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ... ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، انتقالٌ مِن وعيدِ المُجرمينَ إلى بِشارةِ المُتَّقينَ على عادةِ القُرآنِ في التَّفنُّنِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ المَسُّ كِنايةٌ عنِ الإصابةِ[3].

- قولُه: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ فيه تأكيدُ انتفاءِ الإخراجِ بدُخولِ الباءِ في ﴿بِمُخْرَجِينَ ﴾[4].

٣- قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ فَذْلَكةُ[5] ما سبَقَ مِن الوعدِ والوعيدِ، وتقريرٌ له[6].

- وهذا أيضًا تَصديرٌ لِذكْرِ القِصصِ الَّتي أُرِيدَ مِن التَّذكيرِ بها المَوعظةُ بما

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٧٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٥٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).
(٥) الفَذْلكةُ: كلمةٌ منحوتةٌ كالبَسملةِ والحوقلةِ مِن قولِهم: (فذلك كذا)، أي: ذكرُ مُجمَلِ ما فُصِّل أولًا وخلاصتِه. وقد يُرادُ بالفذلكةِ النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨ - ٦٣٩).
(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣).

حَلَّ بأهلِها، وابتداءُ الكلامِ بفعْلِ الإنباءِ؛ لتشويقِ السَّامعينَ إلى ما بعدَه، والمقصودُ هو قولُه تعالى الآتي: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾، وإنَّما قُدِّمَ الأمْرُ بإعلامِ النَّاسِ بمغفرةِ اللهِ وعَذابِه؛ ابتداءً بالموعظةِ الأصليَّةِ قبْلَ الموعظةِ بجُزئيَّاتِ حوادِثِ الانتقامِ مِن المُعاندينَ، وإنجاءِ مَن بينهم مِن المُؤمنينَ؛ لأنَّ ذلك دائرٌ بينَ أثَرِ الغُفرانِ وبين أثَرِ العذابِ، وقُدِّمَت المَغفرةُ على العَذابِ؛ لسَبْقِ رحمتِه غضَبَه[١].

- وفي قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ترجيحُ جهةِ الخيرِ مِن جهةِ أمرِه تعالَى رسولَه بهذا التَّبليغِ، فكأنَّه إشهادٌ على نفسِه بالتزامِ المغفرةِ والرَّحمةِ، وكونُه أضافَ العبادَ إليه فهو تشريفٌ لهم، وتأكيدُ اسمِ (أنَّ) بقولِه: (أنا)، وإدخالُ (ال) على هاتينِ الصِّفتينِ، وكونُهما جاءَتا بصيغةِ المبالغةِ، والبداءةِ بالصِّفةِ السَّارَّةِ أوَّلًا وهي الغُفرانُ، وإتْباعُها بالصِّفةِ الَّتي نَشَأ عنها الغفرانُ وهي الرَّحمةُ[٢]، ولَمَّا ذكَرَ العذابَ لم يَقُلْ: (أنِّي أنا المعَذِّب)، وما وصَفَ نفسَه بذلك، بل قال: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾[٣]، وفي توصيفِ ذاتِه بالغُفرانِ والرَّحمةِ دونَ التَّعذيبِ تَرجيحُ الوَعدِ وتأكيدُه[٤].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ضَميرُ فصْلٍ يُفيدُ تأكيدَ الخبرِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٤٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٧).

الآيات (٥١-٦٠)

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ
۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ
فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ
مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ
قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَجِلُونَ ﴾: أي: خائِفونَ، وأصلُ الوجَلِ: يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ[١].

﴿ الْقَانِطِينَ ﴾: أَي: اليائِسينَ، والقُنُوطُ: اليأسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط) يدُلُّ عَلَى اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ[٢].

﴿ خَطْبُكُمْ ﴾: أي: شَأْنُكم وأمْرُكم الذي جِئتُم له، والخَطْبُ: الأمرُ العَظيمُ الذي يَكثُرُ فيه التَّخاطُبُ، ولا يكادُ يُقالُ (الخَطبُ) إلَّا في الأمرِ الشَّديدِ، وأصل: (خطب): يدُلُّ على الكَلامِ بين اثنَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦).

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في العذابِ، والغابرُ مِن الأضدادِ[١]، يُراد به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدلُّ على البقاءِ[٢].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾

﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾: (مَنْ) اسمُ استفهامٍ بمعنى الإنكارِ، فهو نفيٌ في المعنى؛ ولذلك جاءت بعدَه (إلَّا) التي للإيجابِ، ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ، و (يَقْنَطُ) فعلٌ وفاعلُه ضميرٌ يعودُ على (مَنْ) والجملةُ خبَرٌ. ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بدلٌ من الضَّميرِ في (يَقنَطُ) وهو المُختارُ؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ مُوجَبٍ[٣].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وأخبِرْ -يا محمَّدُ- عبادي عن ضيوفِ إبراهيمَ- عليه السلام- مِن الملائكةِ، حين دخَلوا عليه فقالوا: سَلامًا، فرَدَّ عليهم السَّلامَ، ثمَّ قدَّمَ لهم الطَّعامَ فلم يأكُلوا، فقال: إنَّا مِنكم خائِفون. قالت الملائِكةُ له: لا تخَفْ؛ إنَّا نبَشِّرُك بولَدٍ كثيرِ العِلمِ بالدِّينِ، قال إبراهيمُ متعجِّبًا: أبشَّرتُموني بالولَدِ وأنا كبيرٌ، فبأيِّ شَيءٍ عَجيبٍ تُبشِّرونَني؟! قالوا: بشَّرْناك بالحَقِّ الذي أعلَمَنا اللهُ به،

(١) قال ابن عطية: (والغابرُ الباقي في الدهرِ وغيرِه، وقالت فرقةٌ- منهم النحاسُ-: هو مِن الأضدادِ، يُقالُ في الماضي وفي الباقي، وأمَّا في هذه الآيةِ فهي للبقاءِ، أي: مِن الغابرينَ في العذابِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣) ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٦٦)، وانظر أيضًا (٣/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٥٣).

فلا تكُنْ مِن اليائسينَ. قال: لا ييئَسُ مِن رَحمةِ رَبِّه إلَّا الضَّالُّونَ. قال: فما الأمرُ الخطيرُ الذي جِئتُم من أجْلِه أيُّها المُرسَلونَ؟ قالوا: إنَّ اللهَ أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِ لُوطٍ المُشركينَ إلَّا لُوطًا وأهلَه المؤمنينَ به، فلن نُهلِكَهم، وسنُنَجِّيهم أجمعينَ إلَّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَينا أنَّها مِن المهلكينَ الباقينَ في العذابِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالغَ في تقريرِ أمْرِ النبُوَّةِ، ثمَّ أردَفَه بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، ثمَّ ذكَرَ عَقيبَه أحوالَ القيامةِ، وصِفةَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ- أتبَعَه بذِكرِ قَصَصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ ليكونَ سَماعُها مُرَغِّبًا في الطاعةِ الموجِبةِ للفَوزِ بدَرَجاتِ الأنبياءِ، ومُحَذِّرًا عن المعصيةِ لاستحقاقِ دَرَكاتِ الأشقياءِ، فبدأ أوَّلًا بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[(١)].

وأيضا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أعَدَّ للعاصِينَ مِن النَّارِ، وللطَّائِعينَ مِن الجنَّة- ذكَّرَ العرَبَ بأحوالِ مَن يَعرِفونَه ممَّن عصى وكذَّبَ الرُّسُلَ، فحَلَّ به عذابُ الدُّنيا قبلَ عذابِ الآخرةِ؛ ليزدَجِروا عن كُفرِهم، وليَعتَبِروا بما حَلَّ بغَيرِهم، فبدأ بذِكرِ جَدِّهم الأعلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وما جرى لقَومِ ابنِ أخيه لوطٍ عليه السَّلامُ[(٢)].

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١﴾.

أي: وأخبِرْ عبادي -يا مُحمَّدُ- عن قِصَّةِ الملائكةِ؛ ضُيوفِ إبراهيمَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٤).

الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ في قَصِّك عليهم ذلك ما يُوجِبُ لهم العِبرةَ(١).

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾.

أي: حينَ دخَلَ الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له عَقِبَ دُخولِهم: نسلِّمُ عليك سَلامًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾.

أي: قال لهم إبراهيمُ بعدَ أن ردَّ عليهم السَّلامَ: إنَّا منكم خائِفونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٠).

وقال الشِّنقيطيُّ: (لم يُبيِّنْ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ هل ردَّ إبراهيمُ السَّلامَ على الملائكةِ أو لا؛ لأنَّه لم يذكُرْ هنا ردَّه السَّلامَ عليهم، وإنَّما قال عنه إنَّه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وبيَّنَ في هودٍ والذَّارياتِ أنَّه ردَّ عليهم السَّلامَ، بقَولِه في هودٍ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وقَولِه في الذَّاريات: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٥- ٢٦]. وبيَّنَ أنَّ الوجَلَ المذكورَ هنا هو الخَوفُ؛ لِقَولِه في القِصَّةِ بعَينِها في هودٍ: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]، وقَولِه في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]... وبيَّنَ أنَّ سببَ خَوفِه هو عدَمُ أكلِهم، بقَولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٠).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٥ - ٢٨].

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣)﴾.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: لا تخَفْ منَّا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨].

ثمَّ عَلَّلوا ذلك بقولِهم مؤكِّدينَ لِقَلعِ ما في نفسِه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى[(٢)]:

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾.

أي: إنَّا نبشِّرُك بمولودٍ لك غزيرِ العِلمِ بالشَّريعةِ الإلهيَّةِ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠].

وقال سبحانه: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٠).

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ مُتعَجِّبًا: أبشَّرتُموني بولدٍ مع كِبَرِ سِنِّي(١)؟!

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾.

أي: فبأيِّ شَيءٍ عَجيبٍ تُبشِّرونَني؟! فإنَّ البِشارةَ بما لا يُتصوَّرُ وقوعُه عادةً لا تصِحُّ(٢).

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللهُ أنَّه كائِنٌ بلا شَكٍّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ استفهامَ نبيِّ الله إبراهيم- عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ- للملائكةِ بقولِه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ استفهامُ تعجُّبٍ مِن كمالِ قدرةِ الله تعالى، ويدلُّ لذلك أنَّه تعالى ذكرَ أنَّ ما وقَع له وقَع نظيرُه لامرأتِه؛ حيث قالت: ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ ﴾ [هود: ٧٢]، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ ذلك الاستفهامَ لعجَبِها مِن ذلك الأمرِ الخارقِ للعادةِ في قولِه: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [هود: ٧٣]، ويدلُّ له أيضًا وقوعُ مثلِه من نبي الله زكريا- عليه وعلى نبينا الصلاةُ والسلامُ- لأنَّه لَمَّا قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقوله: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩]؛ عَجِبَ من كمال قدرة الله تعالى، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾ الآية [آل

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾.

أي: فلا تكُنْ -يا إبراهيمُ- من اليائسينَ مِن فَضلِ اللهِ، الذين يستبعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَر، واقبَلِ البُشرى بذلك(١).

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾.

أي: قال إبراهيمُ: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللهِ إلَّا الذَّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلونَ بكَمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللهِ الوهَّابِ(٢).

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ٥٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لـمَّا تحقَّقَ إبراهيمُ عليه السلامُ البُشرَى، ورأى إتيانَهم مُجتَمِعينَ على غيرِ الصِّفةِ التي يأتي عليها المَلَكُ للوحيِ، وكان يعلَمُ بأنَّه ما تَنزِلُ الملائِكةُ إلَّا بالحَقِّ- كان ذلك سببًا لِأن يسألَهم عن أمرِهم؛ لِيَزولَ وَجَلُه كُلُّه(٣).

عمران: ٤٠]. ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨١-٢٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٢).

قال الخازن: (إبراهيمُ عليه السَّلام لم يكنْ مِن القانطينَ، ولكنَّه استبعَد حصولَ الولدِ على الكِبَر، فظَنَّت الملائكةُ أنَّ به قنوطًا، فنفى ذلك عن نفسِه، وأخبَرَ أنَّ القانطَ مِن رحمة الله تعالى من الضالِّينَ؛ لأنَّ القُنوطَ مِن رحمة الله كبيرةٌ، كالأمنِ مِن مكرِ الله، ولا يحصُلُ إلَّا عند من يجهَلُ كونَ الله تعالى قادرًا على ما يريد، ومن يجهَلُ كونَه سبحانه وتعالى عالِمًا بجميعِ المعلومات، فكلُّ هذه الأمور سببٌ للضَّلالة). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٧).

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧﴾.

أي: قال إبراهيمُ للملائكةِ: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللهُ به سِوى البِشارةِ[(١)]؟!

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قومٍ كافرينَ كَثُرَ فسادُهم، وعظُمَ خَبَثُهم؛ لنُهلِكَهم[(٢)].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩﴾.

أي: لكنَّ[(٣)] لوطًا وأهلَه، لن نُهلِكَهم، وسنُخَلِّصُهم جميعًا من العذابِ[(٤)].

كما قال تعالى حاكيًا محاورةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع الملائكةِ عليهم السَّلامُ: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

(٣) الاستثناءُ هنا منقطعٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).
قال أبو حيَّان: (يحتمِلُ أن يكونَ استثناءً مِن الضميرِ المستكِنِّ في ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾، والتقديرُ: أجرموا كُلُّهم إلا آلَ لوطٍ، فيكونُ استثناءً متَّصلًا، والمعنى: إلَّا آلَ لوطٍ فإنَّهم لم يُجرِموا. ويكونُ قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ استئنافَ إخبارٍ عن نجاتِهم؛ وذلك لكونِهم لم يُجرِموا، ويكونُ حُكمُ الإرسالِ منسحبًا على ﴿قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ وعلى ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾؛ لإهلاكِ هؤلاء، وإنجاءِ هؤلاء، والظاهِرُ أنَّه استثناءٌ منقطعٌ؛ لأنَّ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ لم يندرِجْ في قولِه: ﴿قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

طِينٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٦].

﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: إلَّا[١] امرأةَ لُوطٍ، قَضَينا أنَّها مِن المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١- ٣٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

مَن أنعمَ الله عليه بالهدايةِ والعِلمِ العظيمِ، فلا سبيلَ للقُنوطِ إليه؛ لأنَّه يعرِفُ مِن كثرةِ الأسبابِ والوسائلِ والطُّرُقِ لرحمةِ الله شيئًا كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الذين لا عِلمَ لهم بربِّهم، وكمالِ اقتدارِه[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ هذه القِصَّةُ فيها إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، وقد تواتَرَ في الكتُبِ الإلهيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ أنَّ

(١) الاستثناءُ هنا متصلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٦-٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣٢).

الملائِكةَ تتصَوَّرُ بصورةِ البشَرِ، ويُرَونَ في تلك الصورةِ، فيُخاطبُهم ويراهم في هذه الصُورةِ الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كما أخبَرَ الله عن ضيفِ إبراهيمَ، ورؤيةِ سارَةَ امرأةِ الخليلِ عليه السَّلامُ لهم، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ إذا جاء، ومن ذلك رؤيتُهم له لما جاء في صورةِ أعرابيٍّ[1]، وفي صورةِ دِحْيةَ[2] الكلبيِّ[3].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سمَّاهم ضيفًا مع امتناعِهم عن الأكلِ؟

الجوابُ من وجهينِ:

الوجه الأول: لَمَّا ظَنَّ إبراهيمُ أنَّهم إنَّما دخلوا عليه لطلَبِ الضيافةِ، جاز تسميتُهم بذلك.

الوجه الثاني: أنَّ مَن يدخُل دارَ الإنسانِ ويلتجِئ إليه، يُسمَّى ضيفًا وإن لم يأكُلْ[4].

٣- يُستحَبُّ بِشارةُ مَن وُلِدَ له ولَدٌ؛ قال الله تعالى عن الملائكةِ: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[5].

٤- القُنوطُ مِن رحمةِ الله لا يجوزُ؛ لأنَّه سوءُ ظَنٍّ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وذلك مِن وَجهينِ:

الأولُ: أنَّه طَعنٌ في قُدرتِه سُبحانَه؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ الله على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) مِن حديثِ أبي هريرةَ.
وما أخرجه مسلم (٨) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّابِ.

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أم سلمة.

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٦)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

لم يَستبعِدْ شيئًا على قدرةِ اللهِ.

الثاني: أنَّه طَعنٌ في رحمتِه سُبحانَه؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ اللهَ رَحيمٌ لا يَستبعِدُ أن يرحَمَه اللهُ سُبحانَه؛ ولهذا كان القانِطُ مِن رحمةِ اللهِ ضالًّا؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ القُنوطَ مِن الكبائرِ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ هِبةَ الولدِ على الكِبَرِ مِن رَحمةِ الله؛ إذ يشدُّ عضُدَ والدِه به، ويؤازِرُه حالةَ كَونِه لا يستقِلُّ، ويَرِثُ منه عِلمَه ودينَه[٣].

٧- في قَولِه تعالى عن الملائكةِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ لفظَ آلِ فلانٍ في الكتابِ والسُّنَّةِ يدخلُ فيه ذلك الشَّخصُ[٤].

٨- في قولِه تعالى عن الملائكةِ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ امرأةَ الرجلِ مِن آلِه[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٥).

﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الاستثناءَ إذا تكرَّر، فكُلٌّ لِما يليه[1].

١٠- عن النَّخعيِّ قال: (بيني وبين القَدَريَّةِ هذه الآيةُ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾)[2].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ أسنَدَ الملائكةُ فِعلَ التَّقديرِ إلى أنفُسِهم مع أنَّه لله تعالى، ولِمَ لمْ يقولوا: قدَّرَ الله تعالى؟

الجوابُ: إنَّما ذكَروا هذه العبارةَ؛ لِما لهم من القُربِ والاختصاصِ بالله تعالى، كما يقولُ خاصَّةُ المَلِك: (دبَّرْنا كذا وأمَرْنا بكذا)، والمدبِّرُ والآمِرُ هو المَلِك لا هم، وإنَّما يريدونَ بذِكرِ هذا الكلامِ إظهارَ ما لهم من الاختصاصِ بذلك المَلِك، فكذا هاهنا، واللهُ أعلم[3]. وقيل: أسند التَّقديرَ إلى ضَميرِ الملائكةِ؛ لأنَّهم مُزْمِعونَ على سببِه، وهو ما وُكِّلوا به مِن تَحذيرِ لُوطٍ عليه السَّلامُ وآلِه مِن الالتفاتِ إلى العَذابِ، وتَرْكِهم تَحذيرَ امرأتِه، حتَّى الْتفتَتْ، فحَلَّ بها ما حَلَّ بقَومِ لُوطٍ[4].

١٢- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَر: عنايتُه تعالى بخليلِه إبراهيمَ؛ فإنَّ لوطًا عليه السَّلامُ من أتباعِه، وممَّن آمنَ به، فكأنَّه تلميذٌ له؛ فحين أراد اللهُ إهلاكَ قَومِ لُوطٍ حين استحَقُّوا ذلك، أمَرَ رُسُلَه أن يمُرُّوا على إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ كي يُبشِّروه بالولَدِ ويُخبِروه بما بُعِثوا له، حتى إنَّه جادَلَهم عليه السَّلامُ في إهلاكِهم

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

(٢) أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٥/ ٨٨). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٢).

حتى أقنَعوه، فطابت نَفسُه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ...﴾[(١)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث حذَفَ منه ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ اختصارًا، بينما ذكَرَه في سُورةِ هودٍ، حيث قال: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]؛ لأنَّ هذِه السُّورةَ مُتأخِّرةٌ، فاكْتَفَى بها عمَّا في هودٍ؛ لأنَّ التَّقديرَ: (فقالوا: سلامًا، قال: سَلامٌ، فما لَبِثَ أنْ جاء بعِجْلٍ حَنيذٍ، فلمَّا رأى أيدِيَهم لا تصِلُ إليه نكِرَهم، وأوجَسَ منهم خِيفةً، قال: إنَّا منكم وَجِلونَ)؛ فحُذِفَ للدَّلالةِ عليه[(٢)].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾، أي: لا تخَفْ، وبه عُبِّرَ في سُورةِ هودٍ، حيث قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠]؛ توسعةً في التَّعبيرِ عنِ الشَّيءِ الواحِدِ بمُتساويَيْنِ، وخُصَّ ما هنا بالأوَّلِ؛ لمُوافقتِه قولَه: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وما في هودٍ بالثَّاني؛ لمُوافقتِه قولَه: ﴿خِيفَةً﴾[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٩٨).

- قولُه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ استئنافٌ في معنى التَّعليلِ للنَّهيِ عن الوَجَلِ؛ فإنَّ المُبشِّرَ لا يُخافُ منه؛ أرادوا: إنَّك بمَثابةِ الآمِنِ المُبَشَّرِ، فلا تَوْجَلْ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، وكذا قال في سُورةِ الذَّارياتِ: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ورَدَ في سُورةِ الصَّافاتِ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] خِلافَ الوَصفِ بالعِلْمِ في السُّورتَينِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ ما في هذه السورةِ، وما في سورةِ الذارياتِ المرادُ به إسحاقُ عليه السلامُ؛ لأنَّ تبشيرَ إبراهيمَ بعلمِه ونبوتِه فيه دلالةٌ على بقائِه إلى كبرِه، وأمَّا ما في سورةِ الصافاتِ فالمرادُ به إسماعيلُ عليه السلامُ، ووُصِف بالحلمِ؛ لما ذكرَ عنه مِن الانقيادِ إلى رُؤيا أبيه، مع ما فيه مِن أمرِّ الأشياءِ على النفسِ، وأكرهِها عندَها، ووعدِها بالصبرِ[2]، فوصفُه بالحليمِ مناسبٌ لمقامِه وصبرِه، فلا أحلمَ ممن أسلَم نفسَه للذبحِ طاعةً لربِّه[3].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ الاستفهامُ في ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ للتَّعجُّبِ، أي: تعجَّبَ مِن بِشارتِه بولدٍ مع أنَّ الكِبَرَ مَسَّه، أو إنكارٌ لأنْ يُبشَّرَ به في مثْلِ هذه الحالةِ، وأكَّدَ هذا التَّعجُّبَ بالاستفهامِ الثَّاني بقولِه: ﴿فَبِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٠، ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((كشف المعانى)) للحموي (ص: ٣٠٨).
(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٧٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ١٨٦).

تُبَشِّرُونَ ﴾؛ فهو أيضًا استفهامُ تعجُّبٍ؛ نزَّلَ الأمْرَ العجيبَ المعلومَ مَنزلةَ الأمْرِ غيرِ المعلومِ؛ لأنَّه يكادُ يكونُ غيرَ معلومٍ، وقد علِمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن البِشارةِ أنَّهم ملائكةٌ صادِقونَ؛ فتعيَّنَ أنَّ الاستفهامَ للتَّعجُّبِ؛ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ مِن أنَّ ما بَشَّروه به أمْرٌ يكادُ أنْ يكونَ مُنْتفيًا وباطلًا؛ فكلامُهم رَدٌّ لكلامِه، وليس جوابًا على استفهامِه؛ لأنَّه استفهامٌ غيرُ حَقيقيٍّ[(١)]. وقيل: قولُه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ تأكيدُ استبعادٍ وتَعجُّبٍ، وكأنَّه لم يعلَمْ أنَّهم ملائكةٌ؛ رُسُلُ اللهِ إليه؛ فلذلك استفهَمَ، واستنكَرَ أنْ يُولَدَ له، ولو علِمَ أنَّهم رُسُلُ اللهِ ما تعجَّبَ ولا استنكَرَ، ولا سيَّما وقد رأى مِن آياتِ اللهِ عِيانًا كيف أحيا الموتَى[(٢)]، وقيل غيرُ ذلك[(٣)].

٤- قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ هو استفهامُ إنكارٍ في معنى النَّفيِ، أو في ضِمْنِه النَّفيُ؛ ولذلك دخَلَت (إلَّا) واستثنى منه في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾، يعني: أنَّه لم يذهَبْ عنه اجْتنابُ القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ، ولكنَّه امْتَلَكه المُعتادُ فتعجَّبَ؛ فصار ذلك كالذُّهولِ عنِ المَعلومِ، فلمَّا نبَّهَه الملائكةُ أدنى تَنبيهٍ تذكَّرَ[(٤)].

٥- قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ القائلُ هو إبراهيمُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٠).

الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتوسيطُ الفعْلِ ﴿قَالَ﴾ بينَ قولِه السَّابقِ وبينَ قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ صَريحٌ في أنَّ بينهما مَقالةً مَطْويَّةً لهم أُشيرَ به إلى مَكانِها، كما في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ...﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]؛ فإنَّ قولَه الأخيرَ ليس مَوصولًا بقولِه الأوَّلِ، بل هو مَبْنِيٌّ على قولِه تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]؛ فإنَّ تَوسيطَ ﴿قَالَ﴾ بينَ قَولَيْه؛ للإيذانِ بعدَمِ اتِّصالِ الثَّاني بالأوَّلِ، وعدَمِ ابْتِنائِه عليه، بل غيرِه، ثمَّ خِطابُه لهم -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- بعُنوانِ الرِّسالةِ بعدَما كان خِطابُه السَّابِقُ مُجرَّدًا عن ذلك، مع تَصديرِه بالفاءِ: دَليلٌ على أنَّ مَقالتَهم المَطْوِيَّةَ كانت مُتضمِّنَةً لبَيانِ أنَّ مَجيئَهم ليس لمُجرَّدِ البِشارةِ، بل لهم شأْنٌ آخرُ لأجْلِه أُرْسِلوا، فكأنَّه قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنْ لم يكُنْ شأْنُكم مُجرَّدَ البِشارةِ؛ فماذا هو؟ فلا حاجةَ إلى الالتجاءِ إلى أنَّ علْمَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ كلَّ المقصودِ ليس البِشارةَ بسبَبِ أنَّهم كانوا ذَوِي عدَدٍ، ولعلَّه علِمَ أنَّ كَمالَ المقصودِ ليس البِشارةَ؛ لأنَّهم كانوا عَددًا والبِشارةُ لا تحتاجُ إلى العدَدِ؛ ولذلك اكْتُفِيَ بالواحدِ في زَكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومريمَ، وهذا على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ، أو لأنَّهم بَشَّروه في تَضاعيفِ الحالِ؛ لإزالةِ الوجَلِ، ولو كانت تَمامَ المقصودِ لَابْتَدؤوا بها(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ فيه تَنكيرُ ﴿قَوْمٍ﴾، وتَنكيرُ صِفتِهم ﴿مُّجْرِمِينَ﴾؛ تَقليلًا لهم واستِهانَةً بهم(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٢).

٧- قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ استئنافٌ للإخبارِ بنَجاتِهم؛ لعدَمِ إجْرامِهم، أو لبَيانِ ما فُهِمَ مِن الاستثناءِ مِن مُطلَقِ عدَمِ شُمولِ العَذابِ لهم[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٣).

الآيات (٦١-٧٧)

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ
عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ
﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن
سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَمْتَرُونَ﴾: أي: يَشكُّونَ، وماراه مماراةً ومِراءً. وامترَى فيه وتمارَى: شكَّ، والمِريةُ: هي التردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ من الشَّكِّ[(١)].

﴿فَأَسْرِ﴾: أي: سِرْ ليلًا؛ من السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ[(٢)].

﴿بِقِطْعٍ﴾: أي: ببقيَّةٍ تبقَى مِن آخِرِه، وأصلُ (قطع): يدلُّ على صَرمٍ وإبانةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٥٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٩٧).
(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).
(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠١)،

﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾: أي: يُستَأْصلونَ عن آخِرِهم حتَّى لا يبقَى منهم أحدٌ، وقطْعُ دابرِ الإنسان: هو إفناءُ نوعِه، ودابِرُ القومِ: آخرُهم، وأصلُ (قطع): يدلُّ على إبانةِ شيءٍ مِن شيءٍ، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[1].

﴿لَعَمْرُكَ﴾: أي: وحَياتِك، وأصلُ (عمر): يدلُّ على بقاءٍ، وامتدادِ زَمانٍ[2].

﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: أي: غَوايتِهم وضَلالتِهم، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[3].

﴿يَعْمَهُونَ﴾: أي: يتَحيَّرون ويترَدَّدونَ، وأصلُ (عمه): يدلُّ على حَيرةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ[4].

﴿مُشْرِقِينَ﴾: أي: داخِلينَ في الإشراقِ، وهو سُطوعُ ضَوءِ الشَّمسِ وظُهورُه، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ[5].

((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤) و(٥/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧ - ٦٧٨)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنكِ وكِل)[١] أي: الحَجَر والطِّين[٢].

﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: المتَفرِّسين المُعتَبِرينَ، الناظرينَ في السِّمةِ الدَّالةِ؛ يُقال: توسَّمتُ فيه الخيرَ: إذا رأيتَ مِيسَمَه فيه، أي: علامَتَه التي تدُلُّ عليه، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعلَمٍ[٣].

﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾: أي: لَبِطَريقٍ واضِحٍ ثابتٍ، وأصلُ (سبل): يدلُّ على امتدادِ شَيءٍ، وأصلُ (قوم): يدلُّ عَلَى انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٤].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا جاءتِ الملائِكةُ إلى لوطٍ وأهلِه، قال لهم: إنَّكم قومٌ غيرُ مَعروفينَ لي. قالوا: قد جِئْنا بعذابِ قومِك الذي كان يَشُكُّون فيه، وجِئناك بالحَقِّ مِن عندِ الله، وإنَّا لصادِقونَ فيما أخْبَرناك به، فاخرُجْ ومعك أهلُك بعد مرورِ وقتٍ مِن اللَّيلِ، وسِرْ أنت وراءَهم ولا يلتَفِتْ منكم أحدٌ، وأسرِعوا إلى حيثُ أمَرَكم اللهُ.

---

(١) قال الواحدي: (الذي عليه أعظمُ أهلِ التفسيرِ أنَّه معربٌ عن (سنك كل)، وهو قولُ ابنِ عباسٍ، وقتادةَ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ). ((البسيط)) (١١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩) (٥/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

وأوحَينا إلى لوطٍ أنَّ قومَك مُهلَكون عن آخِرِهم عند مَطلَعِ الصُّبحِ، وجاء أهلُ مدينةِ لُوطٍ إلى لوطٍ عليه السلامُ، وهم فَرِحونَ، يَستبشِرونَ بضُيوفِه؛ ليَفعَلوا بهم الفاحِشةَ. قال لهم لوطٌ: إنَّ هؤلاء ضُيوفي، فلا تَفضَحوني، وخافوا عِقابَ الله، ولا تتعَرَّضوا لهم فتُذلُّوني بإيذائِكم لهم. قال قَومُه: أولَم نَنْهَك أن تُضيِّفَ أحدًا مِن العالَمينَ؟ قال لوطٌ لهم: هؤلاء نساؤُكم فتزوَّجوهنَّ إن كُنتُم فاعلينَ.

ثمَّ أقسَم الله تعالى بحياةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائلًا: وحياتِك -يا محمَّدُ- إنَّ قَومَ لوطٍ لَفي غفلةٍ وضلالةٍ يتحَيَّرونَ، فنزلت بهم صيحةٌ هائلةٌ وقتَ شُروقِ الشَّمسِ، فقَلَبْنا مدينتَهم فجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها، وأمطَرْنا عليهم حجارةً مِن طينٍ متصَلِّبٍ. إنَّ فيما أصاب قومَ لوطٍ لَعِظاتٍ للمتفَكِّرينَ المتفَرِّسينَ، وإنَّ مدينةَ قَومِ لوطٍ لَفي طريقٍ ثابتٍ يراها المارُّونَ بها، وإنَّ في إهلاكِنا لهم لَدَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللهِ مِن الكافرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ ما أُريدَ الإخبارُ عنه مِن تَحاوُرِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ، أخبَرَ عن أمْرِهم مع لوطٍ عليه السَّلامُ، فقال[(١)]:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ ﴾.

أي: فلمَّا أتَتِ الملائكةُ لوطًا وأهلَه[(٢)].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

أي: قال لُوطٍ للملائكةِ: إنَّكم قومٌ غيرُ مَعروفينَ لدَيَّ، فلا أدري مَن أنتم[(١)]!

﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: بل نحنُ مَلائِكةُ الله، جِئناك بعذابِ قَومِك، الذي كانوا يشُكُّونَ في وُقوعِه بهم[(٢)].

﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: وأتَيناك باليَقينِ مِن عندِ اللهِ- وهو عذابُ قَومِك- وإنَّا لَصادِقونَ فيما أخبَرْناك به مِن هلاكِهم[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨].

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قال الخازنُ: (إنَّما قال هذه المقالةَ لوطٌ؛ لأنَّهم دخلوا عليه وهم في زِيِّ شُبَّانٍ مُردان حِسانِ الوجوهِ، فخاف أن يهجُمَ عليهم قومُه؛ فلهذا السببِ قال هذه المقالةَ. وقيل: إنَّ النَّكِرة ضِدُّ المعرفة، فقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ يعني: لا أعرِفُكم، ولا أعرفُ مِن أيِّ الأقوامِ أنتم، ولا لأيِّ غرَضٍ دخلتُم). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

أي: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيٍّ وقتٍ مِن اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسراك[١].

﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾.

أي: وكنْ -يا لوطُ- مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم[٢].

﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾.

أي: ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدُّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عن القريةِ، وتنجوا مِن العذابِ النازلِ بأهلِها[٣].

﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾.

أي: واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمضيِّ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قيل: نُهوا عن الالتفاتِ؛ لِيَجِدُّوا في السَّيرِ، ويتباعَدوا عن القريةِ قبلَ أن يفاجِئَهم الصُّبحُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨).

وقيل: نُهوا عن ذلك حتَّى لا يَرْتاعوا مِن العذابِ إذا نزَل بقومِهم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٤٥).

وقيل: نُهوا عن ذلك؛ لئلَّا يَرَوا ما ينزِلُ بقومِهم مِن العذابِ فيرقُّوا لهم، وليوطِّنوا نفوسَهم على المهاجَرةِ، ويُطيِّبوها عن مساكنِهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ٦٦﴾.

أي: وأوحَينا إلى لوطٍ ما قدَّرْناه من الأمرِ العظيمِ؛ أنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرِهم هَلاكَ استِئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وقال سبحانه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣].

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧﴾.

أي: وجاء أهلُ مدينةِ قَومِ لُوطٍ إلى بيتِ لُوطٍ فَرِحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدومِ أضيافِ لُوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦).

قال الشنقيطي: (سببُ استبشارِ قومِ لُوطٍ أنَّهم ظَنُّوا الملائكةَ شَبابًا من بني آدم، فحَدَّثَتهم أنفُسُهم بأن يَفعَلوا بهم فاحِشةَ اللُّواط). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٦).

قال الخازن: (وذلك أنَّ الملائكةَ لَمَّا نَزَلوا على لوطٍ، ظَهَرَ أمرُهم في المدينة، وقيل: إنَّ امرأته أخبَرَتهم بذلك، وكانوا شبانًا مُردًا في غاية الحُسن، ونهايةِ الجمالِ، فجاء قومُ لوطٍ إلى دارِه؛ طمعًا منهم في ركوبِ الفاحشةِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٩).

.[٣٧

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾.

أي: وخافُوا اللهَ أن يُحِلَّ بكم عَذابَه، ولا تُذِلُّوني وتُهينوني بالتعَرُّضِ لضيوفي بمَكروهٍ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨-٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).
قال أبو حيان: (والظاهِرُ أنَّ هذا المجيءَ ومحاورتَه مع قومِه في حَقِّ أضيافه، وعَرْضَه بناتِه عليهم؛ كان ذلك كلُّه قبل إعلامِه بهلاكِ قومِه، وعِلمِه بأنَّهم رسُلُ الله؛ ولذلك سمَّاهم ضِيفانًا خَوفَ الفضيحةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩). وقال ابنُ كثيرٍ: (هذا إنَّما قاله لهم قبلَ أن يعلمَ بأنَّهم رسُلُ الله، كما قال في سياقِ سورةِ هودٍ، وأمَّا هاهنا فتقدَّمَ ذِكرُ أنهم رسُلُ الله، وعطفَ بذكرِ مجيءِ قومِه ومحاجَّته لهم. ولكنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ، ولا سيما إذا دلَّ دليلٌ على خلافِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٨).
وممن ذهب إلى أنَّ الخِزيَ هنا بمعنى الذُّلِّ والإهانة: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن ذهب إلى أنَّه بمعنى الخجل: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢).
وقال القرطبي: (يجوز أن يكونَ مِن الخِزيِ: وهو الذلُّ والهوان، ويجوزُ أن يكون مِن الخزاية: وهو الحياءُ والخجَل). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩).

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾.

أي: قال قَومُ لُوطٍ له: أولَم نَنهَك -يا لُوطُ- عن ضيافةِ أحدٍ من النَّاسِ؟ فنحن قد أنذَرْناك، ومَن أنذَرَ فقد أعذَرَ(١).

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: تزوَّجوا مِن نسائِكم(٢)، ولا تَفعَلوا ما حرَّمَ اللهُ عليكم من إتيانِ الذُّكورِ، إن كنتُم فاعلينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ﴿بَنَاتِيٓ﴾: نساءُ أمَّتي؛ لكونِ النبيِّ بمنزلةِ الأبِ لِقَومِه. وممَّن ذهَب إلى ذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والزمخشري، وابنُ العربي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٢).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٦٩).

وقيل: المراد بهنَّ: بناتُ لوطٍ عليه السلام، فعرَضَ على قومه التزوُّجَ بهنَّ إن أسلَموا. وممن ذهَب إلى هذا القولِ: البغوي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥).

وفي معنى ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أقوال:

قيل: المراد: إن كنتم فاعلينَ ما آمرُكم به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن جرير، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ * قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٨-٧٩].

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾.

أي: أُقسِمُ بحَياتِك -يا محمَّدُ- إنَّ قومَ لوطٍ لَفي ضَلالتِهم وجَهلِهم وغَفلتِهم يتحيَّرونَ، ولا يهتدونَ؛ بسبَبِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ[1].

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾.

وقيل: المرادُ: إن كنتُم مريدينَ لهذا الشَّأنِ- يعني: اللذَّةَ وقَضاءَ الوطَرِ- فعليكم بالتَّزويجِ ببناتي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجَّاج، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٥).

وقيل: هذا شَكٌّ في قَبولِهم لقولِه، كأنَّه قال: إن فعلتُم ما أقولُ لكم، وما أظنُّكم تفعلونَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

ومن اختار هذا المعنى المذكورَ: ابنُ عطيةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبه الواحدي لعامةِ المفسِّرين، وابنُ الجوزي لأكثرِهم. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٤-٦٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٣٨).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ المشركونَ في زمنِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٣٤، ٦٣٥).

قال القاضي عياض: (اتَّفق أهلُ التفسير في هذا أنَّه قسَمٌ من الله جلَّ جلالُه بمُدَّة حياةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (١/ ٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩).

أي: فأخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ[(١)].

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾.

أي: قَلَبْنا عَليهم مدينَتَهم، فجَعَلْنا أعلاها أسفَلَها[(٢)].

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن طينٍ مُتحَجِّرٍ[(٣)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾.

أي: إنَّ في قصَّةِ قَومِ لوطٍ وما فَعَلْناه بهم من العذابِ، وبقاءِ آثارِ هَلاكِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: صاح بهم جبريلُ صَيحةً أهلكَتهم، وقال أهل المعاني: ويجوزُ أن يكون جاءهم صوتٌ عظيمٌ مِن فِعلِ الله عز وجل). ((البسيط)) (١٢/ ٦٣٦).

قال الرازي: (قال أهلُ المعاني: ليس في الآيةِ دلالةٌ على أنَّ تلك الصَّيحةَ صيحةُ جبريلَ عليه السَّلامُ، فإنْ ثبت ذلك بدليلٍ قويٍّ قيل به، وإلا فليس في الآية دَلالةٌ إلَّا على أنه جاءتهم صيحةٌ عظيمةٌ مهلكة). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

قال الواحدي: (يقال: إنَّ أوَّلَ العذابِ كان مع طلوعِ الصُّبحِ، ثمَّ امتدَّ إلى شروقِ الشَّمسِ؛ لذلك قال: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾، ثم قال: ﴿مُشْرِقِينَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٤٩).

وقال ابنُ عطية: (أُهلِكوا بعد الفجرِ مُصبِحينَ، واستوفاهم الهلاكُ مُشرِقينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٦).

لَعلاماتٍ للمُتفَرِّسينَ المتأمِّلينَ المتفَكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتَبِرونَ(١).

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۝٧٦﴾.

أي: وإنَّ مدينةَ قَومِ لُوطٍ لَفي طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النَّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الصافات: ١٣٧-١٣٨].

وقال سُبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٨)، ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).
قال ابنُ القيم: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال مجاهد رحمه الله: المتفَرِّسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للنَّاظرينَ. وقال قتادةُ: للمعتبرينَ. وقال مقاتلٌ: للمتفكِّرين. ولا تنافيَ بين هذه الأقوال؛ فإنَّ الناظرَ متى نظر في آثارِ ديار المكذِّبين ومنازِلهم، وما آلَ إليه أمرُهم؛ أورثَه فِراسةً وعِبرةً وفِكرةً. وقال تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، فالأوَّلُ: فِراسةُ النَّظَر والعينِ، والثاني: فِراسةُ الأذنِ والسَّمع). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٥٢). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).
قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني: قُرى قومِ لوطٍ. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: على طريقِ قَومِك -يا محمَّدُ- إلى الشَّامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).

عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لُوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللهِ مِن الكافرينَ، وإنجائِهم مِن بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يبيِّنُ أنَّ كُلَّ مَن آمن باللهِ، وصَدَّق الأنبياءَ والرسُلَ، عرَفَ أنَّ ما وقع بقومِ لوطٍ إنَّما كان لأجلِ أنَّ اللهَ تعالى انتقَمَ لأنبيائِه مِن أولئك الجُهَّالِ، أمَّا الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ، فإنَّهم يَحمِلونَه على حوادِثِ العالَمِ ووقائِعِه(٢).

٢- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَر: أنَّ الله تعالى إذا أراد أن يُهلِكَ قريةً ازداد شَرُّهم وطُغيانُهم، فإذا انتهى أوقَعَ بهم مِن العقوباتِ ما يستحِقُّونَه، قال تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ * فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ * فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ فأمَر لوطًا عليه السلام أن يكونَ مِن ورائِهم، وتلمَّس العلماءُ أوجهَ الحكمةِ في ذلك، ومنها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

أولًا: أنه أُمِر أن يكونَ مِن ورائِهم لِئلَّا يتخَلَّفَ منهم أحدٌ فينالَه العذابُ[(١)]، فهذا أحفَظُ لهم[(٢)].

ثانيًا: ليكونَ أقرَبَهم إلى الملائكةِ وإلى محَلِّ العذابِ؛ لأنَّه أثبتُهم قَلبًا، وأعرَفُهم بالله، وقد جَرَت عادةُ الكُبَراءِ أن يكونوا أدنى جماعتِهم إلى الأمرِ المَخوفِ؛ سَماحًا بأنفُسِهم، وتَثبيتًا لِغَيرِهم.

ثالثًا: لئلَّا يشتَغِلَ قلبُه بمن خلفَه[(٣)].

رابعًا: ليكونَ كالحائلِ بينَهم وبينَ العذابِ الذي يحُلُّ بقَومِه بعَقِبِ خُروجِه؛ تنويهًا ببركةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ.

خامسًا: لأنَّهم أمَروه ألَّا يلتفِتَ أحدٌ مِن أهلِه إلى ديارِ قَومِهم؛ لأنَّ العذابَ يكونُ قد نزل بديارِهم، فبِكونِه وراءَ أهلِه يخافونَ الالتفاتَ؛ لأنَّه يُراقِبُهم[(٤)].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ تعبيرُه بالمضارعِ في قَولِه: ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّه يكونُ معهم بعضُ الملائكةِ عليهم السَّلامُ[(٥)].

٣- ذكَّرَ لوطٌ قَومَه بالوازعِ الدِّينيِّ- وإن كانوا كفَّارًا- استقصاءً للدَّعوةِ التي جاء بها، وبالوازعِ العُرفيِّ؛ فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾[(٦)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قسَمٌ من اللهِ بحياةِ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا من أعظَمِ فَضائِلِه؛ أن يُقسِمَ الرَّبُّ -عَزَّ وجَلَّ- بحياتِه، وهذه مَزِيَّةٌ لا تُعرَفُ لِغَيرِه[1]. فما أقسَمَ الله بحياةِ أحَدٍ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّه أكرَمُ الخَلقِ على اللهِ تعالى[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ كَرِه كثيرٌ مِن العُلَماءِ أن يقولَ الإنسانُ: لَعَمْرِي؛ لأنَّ معناه: وحَيَاتي، وإن كان اللهُ سُبحانَه أقسَمَ به في هذه القِصَّةِ؛ فذلك بَيانٌ لِشَرَفِ المنزلةِ والرِّفعةِ لِمَكانِه، فلا يُحمَلُ عليه سِواه، ولا يُستعمَلُ في غَيرِه[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فعمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو عُمُرٌ شَريفٌ عَظيمٌ أهلٌ أن يُقسمَ اللهُ به؛ لِمَزيَّتِه على كُلِّ عُمُرٍ مِن أعمارِ بني آدمَ، ولا ريبَ أنَّ عُمُرَه وحياتَه مِن أعظَمِ النِّعَمِ والآياتِ، والقَسَمُ به أَولى من القسَمِ بغَيرِه من المَخلوقاتِ[4].

٧- قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إنَّما وصَفَ اللهُ- سُبحانَه- اللُّوطيَّةَ بالسَّكرةِ؛ لأنَّ سَكرةَ العِشقِ مِثلُ سَكرةِ الخَمرةِ[5].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وصَفَهم الله تعالى بالسَّكرةِ التي هي فَسادُ العَقلِ، والعَمَهِ الذي هو فسادُ البَصيرةِ، فالتعلُّقُ بالصُّوَرِ يُوجِبُ فَسادَ العَقلِ، وعَمَهَ البصيرةِ، وسُكْرَ القَلبِ[6].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ أصلٌ في الفِراسةِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّه تارِكٌ آثارَ القَومِ المعذَّبينَ للمُشاهَدةِ، ولِيُستدَلَّ بذلك على عُقوبةِ اللهِ لهم[٢]، فالنَّاظِرُ متى نَظَرَ في آثارِ ديارِ المكذِّبينَ ومنازِلِهم؛ وما آلَ إليه أمرُهم؛ أورثَه فِراسةً وعِبرةً وفِكرةً[٣].

١١- في هذه القِصَّةِ مِن العِبَرِ أنَّ لُوطًا- عليه السَّلامُ- لَمَّا كانوا أهلَ وَطَنِه، فرُبَّما أخَذَتْه الرِّقَّةُ عليهم والرَّأفةُ بهم، قَدَّرَ الله من الأسبابِ ما به يشتَدُّ غَيظُه وحَنَقُه عليهم، حتى استبطأَ إهلاكَهم لَمَّا قيل له: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ ولم يقولوا: (بعذابِهم) مع حصولِ الغرضِ؛ ليتضمَّنَ الكلامُ الاستئناسَ مِن وجهينِ: تحقُّق عذابِهم، وتحقُّق صدقِه عليه السلامُ، ففيه تذكيرٌ لما كان يُكابِدُ منهم مِن التكذيبِ. وقيل: وقد كنَّى عليه السلامُ عن خوفِه ونفارِه بأنَّهم (منكرونَ) فقابَلوه عليه

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٠).

والفِراسَة هي الاستدلالُ بالأمورِ الظَّاهرةِ على الأمورِ الخفيَّةِ. يُنظر: ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٢٦٥)، ((موسوعة الأخلاق)) إعداد القسم العلمي بالدُّرر السَّنية (٢/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

السلامُ بكنايةٍ أحسنَ وأحسنَ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ المُرادُ بالحقِّ: الإخبارُ بمَجِيءِ العَذابِ المَذكورِ، وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تأكيدٌ له، أي: أتيناك فيما قُلْنا بالخبَرِ الحقِّ، أي: المُطابقِ للواقِعِ، ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في ذلك الخبَرِ، أو في كلِّ كلامٍ؛ فيكونُ كالدَّليلِ على صِدْقِهم فيه، وعلى الأوَّلِ تأكيدٌ إثْرَ تأكيدٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ فيه إيثارُ (الاتِّباعِ) على السَّوقِ، مع أنَّه المقصودُ بالأمْرِ، ولعلَّ ذلك للمُبالغةِ في ذلك؛ إذ السَّوقُ رُبَّما يكونُ بالتَّقدُّمِ على بعضٍ مع التَّأخُّرِ عن بعضٍ، ويلزَمُه عادةً الغَفلةُ عن حالِ المُتأخِّرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ النَّهيُ عن الالتفاتِ كِنايةً عن مُواصلةِ السَّيرِ، وتَرْكِ التَّواني والتَّوقُّفِ؛ لأنَّ مَن يلتفِتُ لا بُدَّ له في ذلك مِن أدنى وَقفةٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ فيه حَذفٌ، والتَّقديرُ: إلى حيث أمَرَكم اللهُ تعالى بالمُضِيِّ إليه وهو الشَّامُ أو مِصرُ، وإيثارُ المُضِيِّ إلى ما ذُكِرَ على الوصولِ إليه واللُّحوقِ به؛ للإيذانِ بأهميَّةِ النَّجاةِ، ولمُراعاةِ المُناسَبَةِ بينه

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣١١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).

وبين ما سلَفَ مِن الغابرينَ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾، في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ إبهامٌ؛ للتَّهويلِ، والإشارةُ للتَّعظيمِ، أي: الأمْرُ العظيمُ، و﴿مَقْطُوعٌ﴾، أي: مُزالٌ، وهو كِنايةٌ عنِ استئصالِهم كلِّهم[٢]، وأشار بصيغةِ المفعولِ ﴿مَقْطُوعٌ﴾ إلى عظمتِه سبحانَه، وسهولةِ الأمرِ عندَه[٣]، وفيه إيثارُ اسمِ الإشارةِ على الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على اتِّصافِهم بصِفاتِهم القَبيحةِ الَّتي هي مَدارُ ثُبوتِ الحُكمِ، أي: دابِرُ هؤلاء المُجرمينَ[٤].

- في قَولِه: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ تَبيينٌ بعدَ إجمالٍ، وهو أوقَعُ في النَّفسِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ ﴾ عندَ الوقوفِ على قولِه: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾؛ يُستفهَمُ: ما هذا الأمرُ؟ فيأتي التبيينُ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ وهو كِنايةٌ عن الاستِئصالِ، ثمَّ إنَّه فسَّرَ بعدَ ذلك القضاءَ المَبتوتَ بقولِه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾، وفي إبهامِه أوَّلًا وتَفسيرِه ثانيًا: تَفخيمٌ للأمْرِ، وتَعظيمٌ له[٥].

- وعُدِّيَ ﴿قَضَيْنَا﴾ بـ (إلى)؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعنى: (أوحينا)، كأنَّه قيل: وأوحينا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

إليه مَقْضِيًّا مَبْتوتًا[١].

- وأيضًا فيه إيرادُ صِيغَةِ المفعولِ ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بدَلَ صِيغَةِ المُضارعِ (يُقْطَعُ)؛ لكونِها أدخَلَ في الدَّلالةِ على الوُقوعِ. وفي لفظِ القضاءِ ﴿وَقَضَيْنَآ﴾، والتَّعبيرِ عن العذابِ بالأمْرِ، والإشارةِ إليه بذلك، وتأخيرِه عن الجارِّ والمجرورِ، وإبهامِه أوَّلًا، ثمَّ تفسيرِه ثانيًا: دَلالةٌ على فَخامةِ الأمْرِ وفَظاعتِه[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ مُبالغةً في الفرَحِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ وهو ليس لإنكارِهم ذلك، بل لتَحقيقِ اتِّصافِهم به، وإظهارِ اعتنائِه بشأْنِهم، وتَشمُّرِه لمُراعاةِ حُقوقِهم وحِمايتِهم مِن السُّوءِ؛ ولذلك قال: ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾[٤].

٧- قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ﴾ الاستفهامُ إنكاريٌّ، والمعطوفُ هو الإنكارُ؛ فالهمزةُ للاستفهامِ والإنكارِ، والواوُ للعطفِ على مَحذوفٍ مُقدَّرٍ، أي: أَلَمْ نتقدَّمْ إليك ولَمْ نَنْهَكَ عن التعرضِ لهم بمنعِهم عنا وضيافتِهم؟ وقيل: الواوُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٥).

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ عطفٌ على كلامِ لوطٍ -عليه السلامُ- جارٍ على طريقةِ العطفِ على كلامِ الغيرِ. وتعديةُ النهيِ إلى ذاتِ العالمينَ على تقديرِ مضافٍ دلَّ عليه المقامُ، أي: ألم ننهك عن حمايةِ الناسِ أو عن إجارتِهم[(١)]؟

٨- قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بين أجزاءِ القِصَّةِ؛ للعبرةِ في عدمِ جَدوى المَوعِظةِ فيمَن يكونُ في سَكرةِ هواه[(٢)].

- قولُه: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ هذه صِيغَةُ قسَمٍ، واللَّامُ الدَّاخِلةُ على لفظِ (عَمْر) لامُ القسَمِ، والعَمْرُ -بفتحِ العَينِ وسُكونِ اللَّامِ- أصلُه لُغَةٌ في (العُمُرِ) بضَمِّ العينِ؛ فخُصَّ المفتوحُ بصِيغَةِ القسَمِ لخِفَّتِه بالفتحِ؛ لأنَّ القسَمَ كثيرُ الدَّورانِ في الكلامِ؛ فهو قسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ به وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقسَمُ باسمِ أحدٍ تَعظيمٌ له؛ فاسْتُعْمِلَ لفْظُ القسَمِ كِنايةً عنِ التَّعظيمِ[(٣)].

- قولُه: ﴿لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ السَّكرةُ: ذَهابُ العقْلِ، وأُطْلِقَت هنا على الضَّلالِ؛ تَشبيهًا لغَلَبةِ دَواعي الهَوى على دَواعي الرَّشادِ بذَهابِ العقْلِ وغَشْيتِه؛ فكَنَّى عنِ الضَّلالةِ والغَفلةِ بالسَّكرةِ[(٤)].

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ تَذييلٌ، والمتوسِّمون: أصحابُ التوسُّم، وهو التأمُّلُ في السِّمةِ، أي: العَلامةِ الدالَّةِ على المَعْلَم، والمراد: للمُتأمِّلين في الأسبابِ وعواقِبِها، وأولئك هم المؤمِنون، وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم تَرْدَعْهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٨).

العِبرُ بأنَّهم دونَ مَرتبةِ النَّظرِ؛ تَعريضًا بالمُشركينَ الَّذين لم يتَّعِظوا بأنْ يحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ مِن قبْلِهم الَّتي عَرَفوا أخبارَها، ورَأَوا آثارَها؛ ولذلك أعقبَ الجُملةَ بجُملةِ ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: المدينةَ المذكورةَ آنفًا هي بطريقٍ باقٍ، يُشاهِدُ كثيرٌ منكم آثارَها في بِلادِ فلسطينَ في طَريقِ تِجارتِكم إلى الشَّامِ وما حولَها، وهذا كقولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الصافات: ١٣٧- ١٣٨].

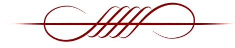
١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَذييلٌ، وعُبِّرَ في التَّذييلِ بالمُؤمنينَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُتوسِّمينَ هم المُؤمنونَ[2].

- وفي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث جمَعَ الآيةَ أوَّلًا فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾، ووحَّدَها ثانيًا هنا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والقِصَّةُ واحدةٌ؛ فاختُصَّت التي في هذا الموضعِ بالآيةِ على التَّوحيدِ، والسابقةُ بالآياتِ على الجَمْعِ؛ وهذا لأنَّ (ذلك) في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ إشارةٌ إلى ما قَصَّ مِن حديثِ لُوطٍ وضَيفِ إبراهيمَ، وتعرُّضِ قومِ لُوطٍ لهم طَمعًا فيهم، وما كان مِن أمْرِهم آخرًا؛ مِن إهلاكِ الكفَّارِ، وقلْبِ المدينةِ على مَن فيها،...إلخ، وهذه أشياءُ كثيرةٌ، في كلِّ واحدةٍ منها آيةٌ، وفي جميعِها آياتٌ لمَن يتوسَّمُ؛ فكان ذِكْرُ الآياتِ هاهنا أَولى وأشبَهَ بالمعنى، وأمَّا قولُه: ﴿لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فلأنَّ قبْلَها: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، أي: تلك المدينةُ المقلوبةُ ثابتةُ الآثارِ، مُقيمةٌ للنُّظارِ، فكأنَّها بمَرأى العُيونِ؛ لبَقاءِ آثارِها، وهذه واحدةٌ مِن تلك الآياتِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٩- ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٧٠).

فلذلك جاء عَقِيبَها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فجمَعَ أوَّلًا باعتبارِ تَعدُّدِ ما قَصَّ مِن حديثِ لُوطٍ، وضَيفِ إبراهيمَ، ووحَّدَ ثانيًا باعتبارِ وَحدَةِ قَريةِ قَومِ لُوطٍ، المُشارِ إليها بقولِه: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[1].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٨١٨-٨٢٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٦-١٥٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩١-٢٩٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٢٩٩-٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٦٩- ٧٠).

الآيات (٧٨-٨٤)

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾
وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟
يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ ﴾: أي: قَومُ شُعَيبٍ، والأيكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): اجتماعُ شَجَرٍ[1].

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: لَبِطَريقٍ واضِحٍ بيِّنٍ، وقيل للطَّريقِ إمامٌ؛ لأنَّ المُسافِرَ يأتَمُّ به، حتى يصيرَ إلى الموضِعِ الذي يُريدُه، ويُطلَقُ الإمامُ على كُلِّ ما ائتَمَمْتَ به واهتَدَيتَ به، وأصلُ (أم): يدُلُّ على القَصْدِ[2].

﴿ٱلْحِجْرِ﴾: هو اسمُ وادٍ بينَ المدينةِ والشَّامِ كان يسكُنُه ثَمودُ؛ قَوْمُ صَالِحٍ عليه السَّلامُ[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقد كان أصحابُ الأيكةِ (وهو الشجرُ الملتفُّ) -قومُ شُعَيبٍ-

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٨٩).

ظالِمينَ، فانتقَمْنا منهم وأهلَكْناهم، وإنَّ مَساكِنَ قَومِ لُوطٍ وقومِ شُعَيبٍ لَفي طريقٍ واضحٍ يمرُّ بهما النَّاسُ في سَفَرِهم، ويُشاهِدونَ آثارَ هلاكِهم فيَعتَبِرونَ. ولقد كذَّبَ سُكَّانُ الحِجْرِ -منازِلِ ثمودَ- صالحًا عليه السَّلامُ، فكانوا بذلك مكَذِّبينَ لكُلِّ المُرسَلينَ؛ وآتينا ثمودَ آياتِنا الدَّالَّةَ على صِدقِ صالحٍ -ومن جُملتِها النَّاقةُ- فلم يَعتَبِروا بها، وكانوا ينحِتونَ من الجِبالِ بُيوتًا، وهم آمِنونَ فيها، فأخَذَتْهم صيحةُ العذابِ وقتَ الصَّباحِ، فما دفع عنهم عذابَ اللهِ ما كانوا يَعمَلونَه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ قَومِ لُوطٍ، ضَمَّ إليها ما هو على طريقِها ممَّا عُذِّبَ قَومُه بنَوعٍ آخَرَ مِن العذابِ يُشابِهُ عَذابَ قَومِ لُوطٍ، في كَونِه نارًا مِن السَّماءِ، فقال مؤكِّدًا؛ لأجْلِ إنكارِ الكُفَّارِ أن يكونَ عذابُهم لأجلِ التَّكذيبِ، أو عَدًّا لهم -لأجلِ تمادِيهم في الغَوايةِ مع العِلمِ بِه- عِدادَ المُنكِرينَ(١):

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

أي: وقد كان أصحابُ الغَيضةِ(٢) -وهي جماعةُ الشَّجرِ الملتَفِّ المُجتَمِعِ-

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٧٩).

(٢) قال ابن عاشور: (أصحابُ الأيكةِ: هم قومُ شُعَيبٍ عليه السلام، وهم مدينُ. وقيل: أصحابُ الأيكة فريقٌ من قومِ شُعَيبٍ غيرُ أهل مدينَ. فأهلُ مَدْينَ هم سكَّان الحاضرة، وأصحابُ الأيكةِ هم باديتُهم، وكان شعيبٌ رَسولًا إليهم جميعًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١).

وقال الشنقيطي: (والعلماءُ مختلفونَ: هل أصحابُ الأيكةِ هم مَدْيَنُ أنفسُهم، فيكون شعيبٌ أُرْسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مدينُ أمةٌ، وأصحابُ الأيكةِ أمةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرْسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنهم أمةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ

ظالِمينَ بِشِركِهم باللهِ، وتكذيبِهم برَسولِه شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وقَطعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٣].

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ٧٩﴾.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

أيكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأن اللَّهَ سماهم مرةً بنسبهم «مدين»، ومرةً أضافهم إلى الأيكةِ التي يعبدونَها. وجزمَ بصحةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، ومِمَّنِ اشتهر عنه أنهم أُمَّتَانِ: قتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ. والذين قالوا: إنهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أما أصحابُ الأيكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧] ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ. وأُجِيب عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدينَ ذَكَر الجدَّ الذي يشملُ القبيلةَ، ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكَر أنَّه أخوهم مِن النسبِ. أما قولُه: ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يعبدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشركِ وعبادةِ غيرِ اللَّهِ لم يُدْخِلْ معهم شعيبًا في ذلك وهم أمةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللَّهُ أعلمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٨٨).
و(إنْ) هي المخففةُ مِن الثقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشأنِ المحذوفِ، أي: وإنَّ الشأنَ كان أصحاب الأيكةِ، واللامُ الداخلةُ على (الظالمين) اللامُ الفارقةُ بينَ (إن) التي أصلُها مشددةٌ، وبين (إن) النافيةِ. وقيل: (إنْ) بمعنى (ما)، واللام في قوله: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بمعنى إلَّا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١).

أي: فانتقَمْنا مِن أصحابِ الأيكَةِ الظَّالِمينَ، فأهلَكْناهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: وإنَّ كُلًّا مِن دِيارِ قَومِ لُوطٍ ودِيارِ أصحابِ الأيكةِ[٢] لعلى طريقٍ واضِحٍ[٣] تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها من يمرُّ عليها[٤].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

جُمِعَت قَصَصُ هؤلاء الأُمَمِ الثَّلاثِ: قومِ لُوطٍ، وأصحابِ الأيكةِ، وأصحابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ في المُكنَى عنهما قولان: أحدُهما: أنَّهما الأيكةُ ومدينةُ قَومِ لوطٍ، قاله الأكثرونَ. والثاني: لوطٌ وشُعَيبٌ، ذكره ابنُ الأنباريِّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٠).

وقال أبو حيان: (الظاهرُ قولُ الجمهورِ مِن أنَّ الضميرَ في ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ عائِدٌ على قريتَي قَومِ لوطٍ وقومِ شُعيبٍ. أي: على أنَّهما ممَرُّ السَّابلةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩١).

(٣) قال ابنُ كثيرٍ: (وقد كانوا قريبًا مِن قَومِ لوطٍ، بعدَهم في الزمانِ، ومُسامِتينَ لهم في المكانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤).

وقال ابن عاشور: (كلتا القريتينِ بطريقِ القوافلِ بأهلِ مكَّة). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧١، ٧٢).

قال الواحدي: (﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ لَبطريقٍ واضحٍ؛ في قول عامَّة المفسِّرين). ((البسيط)) (١٢/ ٦٤١).

الحِجرِ، في نَسَقٍ؛ لتَماثُلِ حالِ العذابِ الذي سُلِّطَ عليها، وهو: عذابُ الصَّيحةِ، والرَّجْفة، والصَّاعِقة(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان ربَّما قيل: إنَّه لو كان لأصحابِ الأيكةِ بُيوتٌ مُتقَنةٌ لَمَنعَتْهم من العذابِ، عطَفَ عليهم مَن هم على طَريقٍ أُخرَى مِن مَتاجِرِهم إلى الشَّامِ، وكانوا قد طال اغترارُهم بالأملِ حتى اتَّخَذوا الجبالَ بُيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوُضوحِ فكَذَّبوا بها؛ تحقيقًا لأنَّ المتعَنِّتينَ لو رأَوا كلَّ آيةٍ لقالُوا: إنَّما سُكِّرَت أبصارُنا، فقال(٢):

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾.

أي: ولقد كذَّبَ سُكَّانُ الحِجرِ(٣)- وهم ثَمودُ- رَسولَهم صالحًا عليه السَّلامُ، فكذَّبوا بذلك جميعَ المرسَلينَ؛ لأنَّ دَعوتَهم واحِدةٌ(٤).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وقال سُبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ * أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٣-٢٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا مَرَّ بالحِجرِ قال: لا تَدخُلوا مَساكِنَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم إلَّا أن تكونوا باكِينَ؛ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٠).

(٣) قال الشنقيطي: (الحِجْرُ: منازلُ ثمودَ، بين الحجاز والشام عند وادي القُرى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

يُصيبَكم ما أصابَهم))(١).

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٨١﴾.

أي: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدَّالَّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالحٍ- ومنها الناقةُ- فكانوا لا يتَّعِظونَ بها ولا يعتَبِرونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٨٠) واللفظ له، ومسلم (٢٩٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

قال البيضاوي: (يعني: آياتِ الكتابِ المنزَّلِ على نبيِّهم، أو معجزاتِه- كالنَّاقةِ وسَقيِها وشِربِها ودَرِّها- أو ما نُصِبَ لهم من الأدلَّةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

وقال الشنقيطي: (لم يبيِّنْ جلَّ وعلا هنا شيئًا مِن تلك الآياتِ التي آتاهم، ولا كيفيةَ إعراضِهم عنها، ولكنَّه بيَّن ذلك في مواضعَ أُخرَ. فبيَّن أنَّ مِن أعظمِ الآياتِ التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم. بل قال بعضُ العلماءِ: إنَّ في الناقةِ المذكورةِ آياتٍ جمةً...كما قال تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).

وذهب البقاعي إلى أنَّ المرادَ بتكذيبِهم بالآياتِ: تكذيبُهم بآيةٍ واحدةٍ هي آيةُ الناقةِ، ولكن لأنَّ الممكناتِ كلَّها بالنسبةِ إلى قدرتِه سبحانَه على حدٍّ سواءٍ، فمَن كذَّب بواحدةٍ منها فقد كذَّب بالجميعِ، مثلما أنَّهم لما كذَّبوا بصالحٍ نسَب الله إليهم التكذيبَ بجميعِ المرسلينَ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١١/ ٨١).

وقال سُبحانه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾.

أي: وكان قَومُ صالحٍ يَنحِتونَ مِن الجبالِ مَساكِنَ آمِنينَ فيها مِن المخاوِفِ[1].

كما قال الله حاكيًا قولَ صالحٍ لِقومِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سُبحانه حاكيًا أيضًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ * وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).
قيل: آمنينَ مِن عذابِ الله. قاله ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤).
وقيل: آمنين من أن تسقُطَ عليهم أو تَخرَبَ. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).
وقيل: آمنينَ من الموت. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣).
وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: أنَّهم ينحِتونَ مِن الجبالِ بيوتًا آمنينَ، أي: من غيرِ خَوفٍ ولا احتياجٍ إليها، بل أشَرًا وبطَرًا وعبثًا. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).
قال البيضاوي: (آمِنينَ مِن الانهدام، ونقبِ اللصوصِ، وتخريبِ الأعداءِ؛ لوثاقتِها، أو مِن العذابِ؛ لفرطِ غفلتِهم، أو حسبانِهم أنَّ الجبالَ تحميهم منه). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢١٦).

[الشعراء: ١٤٦-١٤٩].

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ ﴾.

أي: فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في الصَّباحِ[١].

﴿ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ ﴾.

أي: فما دفَعَ العذابَ عنهم، ولا أجزأَ عنهم ما كانوا يَعمَلونَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [غافر: ٨٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴾ هؤلاء هم قَومُ شُعَيبٍ، نعَتَهم اللهُ وأضافَهم إلى الأيكةِ؛ لِيَذكُرَ نِعمَتَه عليهم، وأنَّهم ما قاموا بها، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

قيل: المرادُ بـ﴿ مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾: ما كانوا يجترِحونَ مِن الأعمال الخبيثةِ قبل ذلك. قاله ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٤).

وقيل: ما كانوا يستغلُّونَه من زروعِهم وثمارِهم التي ضَنُّوا بمائها عن النَّاقةِ، حتى عَقَروها لئلا تُضَيِّقَ عليهم في المياه، فما دفَعَت عنهم تلك الأموالُ، ولا نفعَتْهم لَمَّا جاء أمرُ ربِّك. قاله ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

وقيل: ﴿ مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ أي: يَصنَعونَ، أي: البُيوتُ التي عُنُوا بتحصينِها وتحسينِها. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

وقال البقاعي: (﴿ يَكۡسِبُونَ ﴾ مِن البيوتِ والأعمالِ والعُدَد والآلاتِ الخبيثةِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٢).

جاءَهم نبيُّهم شُعَيبٌ، فدعاهم إلى التَّوحيدِ، وتَرْكِ ظُلمِ النَّاسِ في المَكاييلِ والموازينِ، وعالجَهم على ذلك أشَدَّ المُعالجةِ، فاستَمَرُّوا على ظُلمِهم في حَقِّ الخالقِ، وفي حَقِّ الخَلقِ؛ ولهذا وصَفَهم هنا بالظُّلم[1].

٢- العجائبُ والآياتُ التي للأنبياءِ تارةً تُشاهدُ آثارُها الدالَّةُ على ما حدَث بالعِيانِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وتارةً تُعلَمُ بمجرَّدِ الأخبارِ المتواترةِ، وإن لم نُشاهِدْ شيئًا مِن آثارِها، وهذه الأخبارُ كانت منتَشِرةً مُتواترةً في العالَمِ، وقد عَلِمَ الناسُ أنَّها آياتٌ للأنبياءِ، وعُقوبةٌ لِمُكذِّبيهم؛ ولهذا كانوا يَذكُرونَها عند نَظائرِها للاعتبارِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠-٣١]، وقال شُعَيب: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾[2] [هود: ٨٩].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ والإمامُ المبين هو الطريقُ المستبينُ الواضحُ، بيَّن سبحانه أنَّ هذه وهذه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥١٥).

-أي: دِيارَ قَومِ لُوطٍ ودِيارَ أصحابِ الأيكةِ- كلاهما بسبيلٍ للناسِ، يرونَها بأبصارِهم، فيعلمونَ بذلك ما فعَل الله بمن كذَّب رسلَه وعصاهم. ودلالةُ نصرِ الله المؤمنينَ، وانتقامِه مِن الكافرين على صدقِ الأنبياءِ مِن جنسِ دلالةِ الآياتِ والمعجزاتِ على صدقِهم، فكونُ هذا فُعِل لأجلِ هذا، وكونُ ذاك سببَ هذا هو مما يُعلم بالاضطرارِ عندَ تصورِ الأمرِ على ما هو عليه، كانقلابِ العصا حيةً عقبَ سؤالِ فرعونَ الآيةَ، وانشقاقِ القمرِ عندَ سؤالِ مشركي مكةَ آيةً، وأمثالِ ذلك[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهم إنَّما كَذَّبوا صالِحًا وَحدَه؛ لأنَّ من كذَّبَ نبيًّا فقد كذَّبَ الأنبياءَ- صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- لأنَّهم على دينٍ واحدٍ، ولا يجوزُ التَّفريقُ بينهم[2]. وقيل: إنَّ تَعريفَ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للجِنْسِ؛ فيَصدُقُ بالواحِدِ؛ إذ المُرادُ أنَّهم كَذَّبوا صالحًا عليه السَّلامُ؛ فهو كقولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[3] [الشعراء: ١٠٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أضاف الآياتِ إليهم -وإن كانت لنَبِيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ- لأنَّه مُرسَلٌ مِن رَبِّهم إليهم بهذه الآياتِ[4].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ...﴾ الآياتِ، عَطْفُ قِصَّةِ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٠).

على قِصَّةٍ؛ لِمَا في كِلْتَيهما مِن الموعظةِ، وذِكْرُ هاتينِ القِصَّتينِ المَعطوفتينِ: تكميلٌ وإدماجٌ؛ إذ لا علاقةَ بينهما وبين ما قبْلَهما مِن قِصَّةِ إبراهيمَ والملائكةِ. وخُصَّ بالذِّكْرِ أصحابُ الأيكةِ وأصحابُ الحِجْرِ؛ لأنَّهم مثْلُ قومِ لُوطٍ؛ لأنَّ أهْلَ مكَّةَ يُشاهِدونَ دِيارَ هذه الأُمَمِ الثَّلاثِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ فيه تَهكُّمٌ بهم؛ والفاءُ لتَرتيبِ عدَمِ الإغناءِ الخاصِّ بوقْتِ نُزولِ العذابِ حَسْبما كانوا يَرْجونَه لا عدَمِ الإغناءِ المُطلَقِ؛ فإنَّه أمْرٌ مُستمِرٌّ[٢]. وتَحْتَمِلُ (ما) الاستفهامَ المُرادَ منه التَّعجُّبُ[٣].

- وقولُه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارِعِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾؛ لدِلالتِها على التَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ المُكَنَّى به عن إتْقانِ الصَّنعةِ، وبذلك كان مَوقِعُ الموصولِ والصِّلةِ أبلَغَ مِن مَوقِعِ لفْظِ (بُيوتِهم) مثلًا؛ ليدُلَّ على أنَّ الَّذي لم يُغْنِ عنهم شَيءٌ مُتَّخَذٌ للإغناءِ ومِن شأنِه ذلك[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٠-٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٣).
وهذا الوجهُ بناءً على القولِ بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: ما كانوا يَصْنعون، أي: البُيوتُ التي عُنُوا بتَحصينِها وتَحسينِها.

الآيات (٨٥-٩٩)

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ
ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي
وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى
ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾
عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ
﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿فَٱصْفَحِ﴾: أي: فأَعرِضْ، والصَّفحُ: ترْكُ التَّثريبِ واللَّومِ، والإعراضُ عن الذَّنبِ؛ لأنَّه إذا أعرض عنه فكأنَّه قد ولَّاه صَفْحتَه، أي: عُرْضَه وجانِبَه، وأصلُ الصَّفحِ: عرضُ الشَّيءِ وجانبُه[1].

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾: هي سُورةُ الفاتحةِ، وهي سَبعُ آياتٍ، وسُمِّيَت مَثانيَ؛ لأنَّها تُثنَّى -أي: تُكرَّرُ- في كلِّ صلاةٍ، وقيل غير ذلك[2]، وأصلُ (ثني) تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جعلُه شيئينِ مُتواليينِ أو متباينينِ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٢) سيأتي الخلافُ في معنى (مثاني)، وأسبابِ التسميةِ بذلك مفصَّلًا.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)،

﴿أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾: أي: أصنافًا منهم وأمْثالًا وأشبَاهًا؛ مِن المُزاوَجةِ بين الأشياءِ، وهي المُشاكَلةُ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾: أي: ألِنْ جانِبَك، واسْكُنْ لهم، وارفُقْ بهم، وجَناحُ الإنسانِ: جانِبُه، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ؛ وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلهما في الشِّقَّينِ[٢].

﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾: أي: الذين تقَسَّمَت أقوالُهم في القُرآنِ، فقال بعضُهم: سِحرٌ، وقال بعضُهم: كِهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأصلُ (قسم): يدلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[٣].

﴿عِضِينَ﴾: أي: مُفَرَّقًا؛ لأنَّ المُشرِكينَ فرَّقوا أقاويلَهم فيه، فجعلوه كَذِبًا وسِحرًا وكِهانةً وشِعرًا؛ من عَضَّيتُ الشَّيءَ تعضيةً: أي: فَرَّقتَه، وأصلُ (عضو): يدلُّ على تجزئةِ الشَّيءِ[٤].

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٣٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((الصحاح))

﴿ فَٱصۡدَعۡ ﴾: أي: فاجهَرْ وأظهِرْ، وأصلُ (صدع): يدلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحَقِّ، وإنَّ يومَ القِيامةِ لآتٍ لا محالةَ؛ لتُجزَى كلُّ نَفسٍ ما عَمِلَت، فاصفَحْ- يا محمَّدُ- عن المُشرِكينَ، وتجاوَزْ عمَّا يَفعَلونَه. إنَّ ربَّك هو الخلَّاقُ لكُلِّ شَيءٍ، العَليمُ به.

ولقد أعطيناك -يا محمَّدُ- فاتحةَ القُرآنِ، وهي سَبعُ آياتٍ مِن المثاني، وهي القرآنُ العَظيمُ القَدْرِ. لا تنظُرْ بعَينَيك وتتمَنَّ ما مَتَّعْنا به أصنافًا مِن الكُفَّارِ، ولا تَحزَنْ على كُفرِهم، وتواضَعْ للمُؤمِنينَ وارفُقْ بهم. وقلْ للمُشرِكينَ: إنِّي أنا المُنذِرُ البَيِّنُ النِّذارةِ؛ أن يُصيبَكم عَذابٌ مِثلُ العذابِ الذي أنزَلَه اللهُ على الذين قسَّموا القُرآنَ، فجَعَلوه أقسامًا وأجزاءً؛ فمنهم من يقولُ: سِحرٌ، ومنهم من يقول: كِهَانةٌ، ومنهم من يقولُ غيرَ ذلك.

فورَبِّك -يا محمدُ- لنسألَنَّهم يومَ القيامةِ أجمعينَ، عما كانوا يَعمَلونَه في الدنيا. فاجهَرْ بدَعوةِ الحَقِّ التي أمَرَك اللهُ بها، ولا تهتمَّ بالمُشرِكينَ؛ واكفُفْ عن قِتالِهم، إنَّا كَفَيناك المُستَهزِئينَ الذين اتَّخذوا شَريكًا مع اللهِ في عبادتِه، فسوف يَعلَمونَ ما يَلقَونَ مِن العذابِ يومَ القيامةِ. ولقد نعلَمُ ضِيقَ صَدرِك؛ بسبَبِ تكذيبِ قَومِك واستهزائِهم، فنَزِّهْ ربَّك عن كلِّ ما لا يليقُ به متلبِّسًا بحَمدِه، وكُنْ

للجوهري (٦/ ٢٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

مِن المصَلِّينَ لله العابدينَ له، واستمِرَّ في عبادةِ رَبِّك حتى يأتيَك الموتُ وأنت على ذلك.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه أنزل العذابَ على الأُمَمِ السَّالفةِ، فعندَ هذا قال لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾، وإنَّ اللهَ لَينتَقِمُ لك فيها مِن أعدائِك، ويُجازيك وإيَّاهم على حَسناتِك وسَيِّئاتِهم؛ فإنَّه ما خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحَقِّ والعَدلِ والإنصافِ، فكيف يَليقُ بحِكمتِه إهمالُ أمْرِك[(١)]؟!

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلَّا لحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٢).

﴿بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ * وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال سُبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا صبَّرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أذَى قَومِه، رغَّبَه بعدَ ذلك في الصَّفحِ عن سيِّئاتِهم بقَولِه تعالى(١):

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾.

أي: وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَونَ بأعمالِهم، ومِنهم مُشرِكو قَومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن مؤاخَذتِهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٠).

الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا مِن غَيرِ عِتابٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ * فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- قادِرٌ على إقامةِ السَّاعةِ؛ لأنَّه هو الذي خلق كُلَّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وسيُعيدُ خَلقَ عِبادِه يومَ البَعثِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تفَرَّق من أجسادِ العبادِ، وعِلمُه بجميعِ أعمالِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١-٨٢].

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا صبَّرَ اللهُ تعالى نبيَّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على أذى قَومِه، وأمَرَه بأن يصفَحَ الصَّفحَ الجميلَ؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ النِّعَمِ العظيمةِ التي خَصَّه اللهُ تعالى بها؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٣).
قال ابنُ كثير: (قال مجاهدٌ وقتادةُ وغيرهما: كان هذا قبلَ القِتالِ. وهو كما قالا؛ فإنَّ هذه مكيَّةٌ، والقتالُ إنَّما شُرِع بعدَ الهجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥، ٥٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤).

لأنَّ الإنسانَ إذا تذكَّرَ كَثرةَ نِعَمِ الله عليه، سَهُلَ عليه الصَّفحُ والتَّجاوُزُ[(١)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ صِفةَ العِلمِ بصيغةِ المُبالغة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، أتبعَها ما آتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الدَّارِ من مادةِ العِلمِ بصيغةِ العَظَمةِ، فقال[(٢)]:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾.

أي: ولقد أعطَيناك -يا محمَّدُ- سبعَ آياتٍ؛ هي سُورةُ الفاتحةِ التي تتَّصِفُ بأنَّها مَثانٍ[(٣)]، ....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥).

(٣) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾: الفاتحة: الواحدي، والقرطبي، والبقاعي، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

ونسَب الواحديُّ والشوكاني هذا القولَ إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٠).

قال الشوكاني: (ومما يُقوِّي كونَ السَّبعِ المثاني هي الفاتحةَ: أنَّ هذه السورةَ مكيَّةٌ، وأكثَرُ السَّبعِ الطِّوال مدنيةٌ، وكذلك أكثرُ القرآن وأكثرُ أقسامِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٠).

وقال القرطبي: (وقد قدَّمنا في الفاتحةِ أنَّه ليس في تسميتِها بالمثاني ما يمنعُ مِن تسميةِ غيرِها بذلك، إلَّا أنَّه إذا ورَد عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وثبَت عنه نصٌّ في شيءٍ لا يَحتمِلُ التأويلَ؛ كان الوقوفُ عندَه). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وهذا النصُّ هو قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُمُّ القرآنِ هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ الْعَظِيمُ)).

قال ابنُ كثير: (فهذا نصٌّ في أنَّ الفاتحةَ السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ، ولكن لا يُنافي وصفَ غَيرِها من السَّبعِ الطُّوَلِ بذلك؛ لِما فيها من هذه الصِّفة، كما لا ينافي وصفَ القرآنِ بكماله بذلك أيضًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] فهو مَثانٍ مِن وجهٍ، ومتشابهٌ من وجه، وهو القرآنُ العظيم أيضًا، كما أنَّه - عليه السَّلامُ- لَمَّا سُئِل عن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى، فأشار إلى مسجِدِه، والآيةُ نزلتْ في مسجدِ قُباء، فلا

تَنافيَ؛ فإنَّ ذِكرَ الشَّيءِ لا ينفي ذِكرَ ما عداه إذا اشتركَا في تلك الصفةِ، والله أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٧-٥٤٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعود، وابنُ عباس، وأبيُّ بنُ كعبٍ، والحسنُ، وأبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١١٣: ١١٦).

وفي سببِ اتصافِ الفاتحةِ بكونِها مثانيَ أقوالٌ:

منها: أنَّها تُثنَّى في كلِّ صلاةٍ، أي: تُقرَأُ في كلِّ ركعةٍ. وممن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسنُ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢).

ومنها: اشتمالُها على الثناءِ على الله تعالى.

ومنها: أنها قسمان: ثناءٌ ودعاءٌ، وأيضًا النصفُ الأوَّلُ منها حقُّ الربوبيةِ وهو الثناءُ، والنصفُ الثاني حقُّ العبوديةِ، وهو الدعاءُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٨٥-٨٦).

وقيل: المرادُ بالسبعِ المثاني: السَّبعُ الطِّوالُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وابنُ جبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٧٢).

قال محمد رشيد رضا: (والقولُ بأنَّها السبعُ الطُّوَلُ، رواه النَّسائي والطَّبَريُّ والحاكِمُ عن ابن عباسٍ بإسنادٍ قويٍّ، كما قال الحافظ. ولا حاجةَ إلى التفصيلِ فيه؛ فإنه مردودٌ؛ لِمخالفتِه للحديثِ الصحيحِ المرفوعِ، ولا قولَ لأحدٍ [مع] قولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير المنار)) (١/ ٨٠).

قال ابنُ الجوزي: (في تسميتِها [أي: السبعِ الطوالِ] بالمثاني قولانِ:

أحدهما : لأنَّ الحدودَ والفرائضَ والأمثالَ ثُنيت فيها، قاله ابنُ عباسٍ.

والثاني : لأنَّها تُجاوزُ المائةَ الأولَى إلى المائةِ الثانيةِ، ذكره الماورديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢).

وقيل: المرادُ بالسبعِ: الفاتحةُ؛ لأنَّها سبعُ آياتٍ، والمرادُ بالمثاني: كلُّ القرآنِ، ويكونُ التقديرُ: ولقد آتيناك سبعَ آياتٍ هي الفاتحةُ، وهي مِن جملةِ المثاني الذي هو القرآنُ. قال الرازي: (وهذا

وهي القرآنُ العَظيمُ القَدْرِ[١].

القولُ عينُ الأوَّلِ [أي: تفسيرِ السبعِ المثاني بأنَّها الفاتحةُ]، والتفاوتُ ليس إلَّا بقليلٍ والله أعلم). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢١، ١٢٤).

وقيل: المرادُ بـ﴿سَبْعًا﴾: السبعُ الطوالُ، والمرادُ بالمثاني: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٣).

وفي سببِ تسميةِ القرآنِ بالمثاني أقوالٌ:

منها: أنَّ بعضَ الآياتِ يتلو بعضًا، فتُثنى الآخرةُ على الأولَى، ولها مقاطعُ تفصِلُ الآيةَ بعدَ الآيةِ حتى تنقضيَ السورةُ.

ومنها: أنَّه سُمِّي بالمثاني لما يترددُ فيه مِن الثناءِ على الله عزَّ وجلَّ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٤).

وكلمةُ (من) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ لبيانِ الجنسِ، وقيل: للتبعيضِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٣).

(١) وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالقرآنِ العظيمِ هنا: الفاتحةُ أيضًا: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٥).

قال الشنقيطي: (قيل لها: «القرآنُ العظيمُ»؛ لأنَّها هي أعظمُ سورةٍ؛ كما ثبَت عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصحيحِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٥).

وقال القرطبي: (لاشتمالِها على ما يتعلَّقُ بأصولِ الإسلامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٥).

وقال الخطَّابي في شرحِ حديثِ ((هي السَّبعُ المثاني والقرآنُ العظيم)): (وفيه بيانٌ: أنَّها القرآنُ العظيمُ، وأنَّ الواوَ في هذه الآيةِ ليست بواوِ العطفِ الموجبةِ الفصلَ بينَ الشيئينِ، وإنَّما هي الواوُ التي تجيءُ بمعنى التخصيصِ والتفضيلِ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وكقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] ونحو ذلك). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٧٩٨).

وقيل: القرآنُ العظيم مرادٌ به جميعُ القرآنِ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨١).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: كيف صحَّ عطفُ القرآنِ العظيم على السَّبعِ؟ وهل هو إلَّا عطفُ الشيءِ على نفسِه؟! قلتُ: إذا عُنِيَ بالسَّبع الفاتحةُ أو الطوالُ فمَا وراءهنَّ ينطلِقُ عليه اسمُ

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبعُ المَثاني، والقُرآنُ العَظيمُ))[(١)].

وعن أبي سَعيدِ بنِ المُعلَّى رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنتُ أصلِّي في المسجِدِ، فدعاني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم أُجِبْه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إنِّي كنتُ أصلِّي، فقال: ألم يَقُلِ اللهُ: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟! ثم قالَ لي: لأعَلِّمَنَّك سورةً هي أعظَمُ السُّوَرِ في القُرآنِ قبل أن تخرُجَ مِن المسجِدِ، ثمَّ أخذَ بيدي، فلمَّا أراد أن يخرُجَ قُلتُ له: ألم تقُلْ: لأعَلِّمَنَّك سورةً هي أعظَمُ سورةٍ في القُرآنِ؟ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السَّبعُ المثاني، والقُرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه))[(٢)].

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عرَّف رسولَه عِظَمَ نِعَمِه عليه فيما يتعَلَّقُ بالدِّينِ -وهو أنَّه آتاه سبعًا مِن المَثاني والقُرآنَ العظيمَ- نهاه عن الرَّغبةِ في الدُّنيا، فحظَرَ عليه أن يمُدَّ عَينَيه إليها رغبةً فيها[(٣)].

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

القرآن؛ لأنَّه اسمٌ يقعُ على البعضِ كما يقعُ على الكلِّ، ألا ترَى إلى قولِه: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ يعني سورةَ يوسفَ. ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦).

(١) رواه البخاري (٤٧٠٤).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١).

أي: لا تَنظُرَنَّ -يا محمَّدُ- وتتطلَّعَنَّ إلى نعيمِ الدُّنيا الَّذي متَّعْنا به أصنافًا مِن الأغنياءِ مِن قَومِك، الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ولا تتمَنَّاه، واستغنِ بما آتاك اللهُ مِن القرآنِ عمَّا هم فيه مِن المَتاعِ الفاني؛ فقد أُوتيتَ تلك النِّعمةَ العُظمَى، التي كلُّ نِعمةٍ أُخرَى وإن عَظُمَت، فهي حقيرةٌ في جانِبِها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تَحزَنْ على الكُفَّارِ أنَّهم لم يُؤمِنوا، فقَدْ بَلَّغْتَ رسالةَ ربِّك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦، ٥٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٤).

قال الواحدي: (المرادُ بنَهيِه- صلَّى الله عليه وسلَّم- من مدِّ العَينِ: نهيُه عن التطلُّعِ إليه رغبةً فيه، وإنما يكون مادًّا عينيه إلى الشيءِ: إذا أدام النظرَ نحوَه، وإدامةُ النظرِ إلى الشيء تدلُّ على استحسانِه وتمنِّيه... وقولُه تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ قال الزجاج: أي: أمثالًا في النِّعَم، يعني: أن الأغنياءَ بعضُهم أمثالُ بعضٍ في الغِنى والنِّعمةِ، فهم أزواجٌ. وقال ابنُ قتيبة: أي: أصنافًا منهم، والزوجُ في اللغةِ: الصِّنفُ، يعني أصنافَ الكُفَّارِ مِن المشركينَ واليهودِ وغيرِهم. وقال المفضَّلُ: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: رجالًا ونساءً أغنيناهم، فلا تمدَّنَّ عينيك إلى ما أعطيناهم). ((البسيط)) (١٢/ ٦٥٦- ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٦).

وممن قال بأنَّ المعنى: لا تحزَنْ عليهم لعدمِ إيمانِهم: الزمخشري، والرازي، وابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشنقيطي: (الصحيحُ في معنَى هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ اللَّهَ نهَى نبيَّه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم عن الحزنِ على الكفَّارِ إذا امْتَنَعوا مِن قبولِ الإسلامِ. ويدُلُّ لذلك كثرةُ وُرودِ هذا المعنَى في القرآنِ

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣-٢٤].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وألِنْ جانِبَك للمُؤمنينَ، وارفُقْ بهم، وتواضَعْ لهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ

العظيمِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقولِه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقولِه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وقولِه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٦).

وقال البقاعي: (﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لكونِهم لم يُؤمنوا؛ فيخلِّصوا أنفسَهم مِن النارِ، ويقوَى بهم جانبُ الإسلامِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٨).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: ولا تحزَنْ على ما مُتِّعُوا به فعُجِّلَ لهم؛ فإنَّ لك في الآخرةِ ما هو خيرٌ منه، معَ الذي قد عجَّلْنا لك في الدنيا مِن الكرامةِ، بإعطائِنا السبعَ المثاني والقرآنَ العظيمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٦-١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٦).

حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بألَّا يَحزَنَ على مَن لم يُؤمِنْ، وأمَرَه بخَفضِ جَناحِه للمُؤمِنينَ؛ أمَرَه أن يُعلِمَ المؤمنينَ وغَيرَهم أنَّه هو النَّذيرُ المُبينُ؛ لئلَّا يظُنَّ المؤمِنونَ أنَّهم لَمَّا أُمِرَ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بخَفضِ جَناحِه لهم، خَرَجوا مِن عُهدةِ النِّذارةِ، فأمَرَه تعالى بأن يقولَ لهم[1]:

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ٨٩﴾.

أي: وقُلْ- يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنِّي أنا النَّذيرُ الذي قد أبان إنذارَه، وأظهَرَ الحَقَّ لكم، أُنذِرُكم عذابَ اللهِ إن لم تُؤمِنوا به[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥- ٤٦].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: ((مَثَلي ومثَلُ ما بعَثَني اللهُ، كمَثَلِ رجُلٍ أتَى قومًا، فقال: رأيتُ الجيشَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٢)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٤).

قال الرازي: (أمَرَه بأنْ يَقولَ لِلقومِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ فيدخلُ تحت كونِه نذيرًا، كونُه مُبَلِّغًا لجميعِ التَّكاليفِ؛ لأنَّ كلَّ ما كان واجبًا ترتَّبَ على تركِه عقابٌ، وكلَّ ما كانَ حرامًا ترتَّبَ على فعلِه عقابٌ، فكانَ الإخبارُ بحصولِ هذا العقابِ داخِلًا تحتَ لفظِ النَّذيرِ، ويدخلُ تحتَه أيضًا كونُه شارِحًا لمراتبِ الثَّوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ أردفَه بكونِه مُبينًا، ومعناه كونُه آتيًا في كلِّ ذلك بالبياناتِ الشَّافيةِ والبيِّناتِ الوافيةِ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٢).

بِعَيْنَيَّ، وإنِّي أنا النَّذيرُ العُريانُ[١]، فالنَّجاءَ النَّجاءَ[٢]، فأطاعَته طائِفةٌ فأدلَجوا[٣] على مَهَلِهم[٤] فنَجَوا، وكذَّبَته طائفةٌ فصَبَّحَهم الجيشُ[٥] فاجتاحَهم[٦]))[٧].

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾.

أي: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ[٨] الذي نزلَ على الذين اقْتَسَموا

(١) النذيرُ العُريان: مثلٌ مَشهورٌ سائِرٌ بين العرَبِ، يُضرَبُ لشِدَّةِ الأمرِ، ودُنُوِّ المحذورِ، وبراءةِ المُحَذِّرِ عن التُّهمةِ، وأصلُه: أنَّ الرجُلَ إذا رأى العدُوَّ قد هجَم على قَومِه، وأراد أن يفاجِئَهم وكان يخشى لُحوقَهم قبل لُحوقِه، تجَرَّدَ عن ثوبِه وجعلَه على رأسِ خَشَبةٍ وصاح؛ ليأخُذوا حِذرَهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٢) فالنَّجاءَ النَّجاءَ: أَيِ: اطلُبوا النَّجاةَ بأن تُسرِعوا الهَرَب. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣١٧).

(٣) فأدلجوا: أي: سارُوا أوَّلَ الليَّلِ، أو ساروا اللَّيلَ كُلَّه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٤) على مَهَلِهم: المَهَلُ: الهِينةُ والسُّكونُ والتأنِّي. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٥) فصَبَّحهم الجَيشُ: أي: أتاهم جيشُ العَدُوِّ صَباحًا للإغارةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٦) فاجتاحهم: أي: استأصَلَهم وأهلَكَهم بالكُلِّيَّةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣١).

(٧) رواه البخاري (٦٤٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المشبَّهَ به هو العذابُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

قال الرسعني: (اختلفوا في متعلَّقِ الكافِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، فقال قومٌ:

القرآنَ(١).

هي متعلِّقةٌ بقَولِه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ فإنْ أريدَ بالمُقتسمينَ اليهودُ والنصارى، فالمعنى: ولقد أنزَلْنا عليك سبعًا مِن المثاني مثلَ ما أنزَلْنا على المقتَسِمين أهلِ الكتابِ. وهذا معنى قولِ مقاتلٍ. وإن أريدَ به كُفَّارُ قُريشٍ، فالمعنى: ولقد شرَّفْناك وكرَّمْناك وأنعَمْنا عليك بالسَّبعِ المثاني والقرآنِ العظيمِ مِثلَ ما شرَّفناك وأنعَمْنا عليك بما أنزَلْنا على أعدائِك المُقتَسِمين من العذابِ، حيثُ انتقَمْنا لك منهم. وإن أريدَ بهم قومُ صالحٍ، كان المعنى: ولقد كرَّمْناك وأيَّدْناك بإنزالِ السَّبعِ والقرآنِ عليك كما كرَّمْنا صالِحًا بإنزالِ العذابِ على المُقتَسِمين عليه.

وقال قومٌ: هي متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فإن أريدَ بالمقتسمين أهلُ الكتابِ أو قومُ صالحٍ، فالمعنى: قُلْ لكُفَّارِ قريش: إني أنا النذيرُ، أنذِرُكم عذابًا مِثلَ ما أُنزِل على المُقتَسمين. وقال بعضُهم: هو ما جرى على قُرَيظةَ والنَّضيرِ، فجَعَل المتوقَّعَ بمنزلة الواقعِ، وهو من الإعجازِ؛ لأنَّه إخبارٌ بما سيكون، وقد كان، وعذابُ قُريشٍ هو ما أصاب المُستهزِئين... وما أصابهم يومَ بدرٍ وغيرَه، وعذابُ قومِ صالحٍ مذكورٌ في سورة النملِ.

وقال الواحدي: يجوزُ أن يكونَ المعنى: أنِّي أنذِرُكم ما أنزَلْنا، فتكونُ الكافُ زائدةً. ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٦٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨).

ممن اختار أنَّ كلمةَ ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ مأخوذةٌ مِن القِسمةِ: ابنُ جريرٍ الطبريُّ، والواحدي، وابنُ حجرٍ، والشنقيطي، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

قال ابنُ حجرٍ: (والمعروفُ أنَّه مِن القِسْمَةِ، وبه جَزَم الطَّبريُّ وغيرُه، وسِياقُ الكلامِ يدُلُّ عليه). ((فتح الباري)) (٨/ ٣٨٣).

واختلَف المفسِّرونَ في مَن أُريدَ بـ ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ -بناءً على هذا المعنى المذكورِ- على أقوالٍ:

منها: أنَّهم جماعةٌ من كفَّارِ مكَّةَ اقتسموا القرآنَ بأقوالِهم الكاذبةِ، فقال بعضُهم: هو شِعرٌ، وقال بعضُهم: هو سِحرٌ، وقال بعضُهم: كهانةٌ، وقال بعضُهم: أساطيرُ الأوَّلينَ، وقال بعضُهم: اختلَقه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. ومال إلى هذا القولِ واستظهره الشنقيطي. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٢/ ٣١٧).

كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥١).

وقيل: هم الذين اقتسَموا طرقَ مكَّةَ يصدُّون الناسَ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإيمانِ به. وهو قولُ السمعاني، والواحدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨).

قال السمعاني: (ومعنَى الاقتسامِ: أنَّهم اقْتَسموا طرقَ مَكَّةَ، وهذا قولٌ معروفٌ، ذكَره مجاهدٌ وقتادةُ وغيرُهما). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٥٣).

وممن اختار أنَّ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ مأخوذٌ مِن القَسَمِ: ابنُ قتيبةَ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

واختلف المفسِّرون في المرادِ بهم بناءً على هذا القولِ، فقيل: إنَّهم قومُ صالحٍ الذين ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، فكفاه الله شرَّهم، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٥).

ورجَّح ابنُ جريرٍ العمومَ فقال: (الصوابُ من القول في ذلك عندي أن يقال: إنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يُعلِمَ قومَه الذين عَضَوُا القرآنَ ففرَّقوه أنَّه نذيرٌ لهم من سَخَطِ الله تعالى وعقوبتِه؛ أن يحُلَّ بهم على كُفرِهم ربَّهم وتكذيبِهم نبيَّهم ما حَلَّ بالمقتسمينَ مِن قبلِهم ومنهم، وجائزٌ أن يكون عُنِي بالمقتسمين: أهلُ الكتابين: التوراةِ والإنجيل؛ لأنَّهم اقتسموا كتابَ الله، فأقَرَّت اليهودُ ببعضِ التوراةِ، وكذَّبت ببعضها، وكذَّبت بالإنجيلِ والفرقانِ، وأقرَّت النصارى ببعضِ الإنجيلِ وكذَّبت ببعضِه وبالفرقانِ، وجائزٌ أن يكون عُني بذلك: المشركون مِن قريش؛ لأنَّهم اقتسموا القرآنَ، فسمَّاه بعضُهم شِعرًا، وبعضٌ كهانةً، وبعضٌ أساطيرَ الأولينَ، وجائزٌ أن يكون عُنِي به الفريقان، وممكنٌ أن يكونَ عُني به المقتسِمون على صالحٍ مِن قومِه، فإذ لم يكن في التنزيلِ دَلالةٌ على أنَّه عُني به أحدُ الفِرَق الثلاثة دونَ الآخَرينَ، ولا في خبرٍ عن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلم، ولا في فطرةِ عقلٍ، وكان ظاهِرُ الآيةِ مُحتَمِلًا ما وصفتُ- وجب أن يكون مقتضيًا بأنَّ كُلَّ من اقتسم كتابًا لله بتكذيبِ بَعضٍ وتصديقِ بعضٍ، واقتسم على معصية الله ممَّن حلَّ به عاجلُ نقمةِ الله في الدار الدنيا قبل نزول هذه الآية- فداخِلٌ في ذلك؛ لأنَّهم لأشكالِهم من أهلِ الكفرِ بالله كانوا عبرةً، وللمتَّعظين بهم منهم عِظةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٣-١٣٤).

١٣].

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ٩١﴾.

الذين[١] فرَّقوا القرآنَ[٢] أجزاءً، وافتروا عليه الباطلَ؛ فقال بعضُهم: هو شعرٌ،

---

(١) ممن اختار أنَّ هذه صفةُ المقتسمينَ: القرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ جملةٌ منفصلةٌ عمَّا قبلَها. على معنى إنذارِ الذين جعَلوا القرآنَ عضينَ بعذابٍ مثل الذي نزَل بالمقتسمينَ. وممن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٨).

وقيل: هو مبتدأٌ، خبرُه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مِن التقسيمِ فنجازيهم عليه. وممن قال بهذا: القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٤٥).

(٢) قال ابنُ الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ في المرادِ بالقرآنِ قولانِ: أحدهما: أنَّه كتابُنا، وهو الأظهرُ، وعليه الجمهورُ. والثاني: أنَّ المرادَ به: كتبُ المتقدمينَ قبلَنا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (والقرآنُ هنا يجوزُ أن يكونَ المرادُ به الاسمَ المجعولَ علمًا لكتابِ الإسلامِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ به الكتابَ المقروءَ، فيصدقُ بالتوراةِ والإنجيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥).

وقال أيضًا: (والمقتَسِمون يجوزُ أن يُرادَ بهم جمعٌ مِن المشركينَ مِن قريش...، فيكون المرادُ بالقرآنِ مسمَّى هذا الاسمِ العَلَم، وهو كتابُ الإسلامِ، ويجوزُ أن يرادَ بهم طوائِفُ أهل الكتابِ قَسَّموا كتابَهم أقسامًا، منها ما أظهروه، ومنها ما أُنسوه، فيكونُ القرآنُ مصدرًا أُطلِق بمعناه اللغويِّ، أي: المقروءِ من كُتُبِهم، أو قسَّموا كتابَ الإسلام، منه ما صدَّقوا به، وهو ما وافق دينَهم، ومنه ما كذَّبوا به، وهو ما خالف ما هم عليه... وعلى الوجهينِ المتقدِّمين في المرادِ مِن القرآنِ في هذه الآيةِ، فالمقتسمون الذين جعلوا القرآنَ عِضينَ: هم أهلُ الكتابِ؛ اليهود والنصارى، فهم جحدوا بعضَ ما أُنزل إليهم من القرآن، أُطلق على كتابِهم القرآنُ؛ لأنَّه كتابٌ مقروءٌ، فأظهروا بعضًا وكتموا بعضًا؛ قال الله تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١] فكانوا فيما كتَموه شبيهينَ بالمُشركين فيما رفَضوه مِن القرآن المنَزَّل على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم أيضًا جعلوا القرآنَ المنَزَّلَ على محمد صلَّى الله عليه وسلَّم عِضينَ،

وقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضُهم: هو كهانةٌ، وقال بعضُهم: هو أساطيرُ الأولينَ(١).

فصَدَّقوا بعضَه، وهو ما وافق أحوالَهم، وكذَّبوا بعضَه المخالفَ لأهوائِهم، مِثلُ نَسخِ شريعتِهم، وإبطالِ بُنُوَّةِ عيسَى لله تعالى، فكانوا إذا سألهم المشركون: هل القرآنُ صِدقٌ؟ قالوا: بعضُه صِدقٌ، وبعضُه كَذِبٌ، فأشبه اختلافُهم اختلافَ المشركينَ في وصفِ القرآنِ بأوصافٍ مختلفةٍ، كقولِهم: أساطيرُ الأولينَ، و: قولُ كاهنٍ، و: قولُ شاعرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٥-٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٨، ١٣٩)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٣٨١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ، وابنُ القيمِ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٥).

ولابنِ تيميةَ تفسيرٌ آخرُ، فقال: (قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] أي: قسَّموه فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٥٩)، واختاره ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٤/ ٥٤٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٢٩).

وقال البقاعي: (لَمَّا ذَكَر ما التحم بقصَّةِ أصحابِ الحِجرِ المقتسمينَ على قَتلِ رسولِهم، وختَمَه بالإنذارِ الذي هم أهلُه؛ عاد إلى تتميمِ أمرِهم، فشَبَّهَهم بمن كذَّب مِن هذه الأمةِ، فقال: ﴿كَمَا﴾ أي: كذَّب أولئك وآتيناهم آياتِنا، فأعرضوا عنها، ففعَلْنا بهم مِن العذابِ ما هم أهلُه مثلَ ما ﴿أَنزَلْنَا﴾ أي بعظمتِنا مِن الآياتِ ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي: مثلِهم مِن قريشٍ؛ حيث اقتَسَموا شِعابَ مكةَ، ينفِّرون الناسَ عنك، ويفرِّقون القولَ في القرآنِ، فلا تأسَ عليهم لتكذيبِهم وعنادهم مع رؤيتِهم الآياتِ البيِّناتِ؛ فإنَّ سُنَّتَنا جرت بذلك فيمَن أردنا شِقوتَه، كقومِ صالحٍ، ثمَّ قال: ﴿الَّذِينَ﴾ أي: مع أنهم تقاسموا على قتلِك، واقتسموا طرقَ مكَّةَ للتنفيرِ عنك ﴿جَعَلُوا الْقُرْآنَ﴾ بأقوالهم ﴿عِضِينَ﴾ أي: قسَّموا القولَ فيه... فقالوا: سِحر، وقالوا: شِعر، وقالوا: كهانة، وقالوا: أساطيرُ الأولين، وغيرَ ذلك، أنزلنا عليهم آياتِنا البيناتِ، وأدلَّتَنا الواضحاتِ، فأعرضوا عنها واشتغلوا بما لا ينفعُهم من التعنُّتِ وغيرِه، دأبَ أولئك؛ فليرتقبوا مِثلَ ما حَلَّ بهم، ومِثلُهم كلُّ من تكلَّمَ في القرآنِ بمِثلِ ذلك ممَّا لا ينبغي، مِن العربِ وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١١/ ٨٩-٩٠).

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوه أجزاءً، فآمَنوا ببَعضِه، وكَفَروا ببعضِه)، يعني: قولَ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[١].

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

أي: فأُقسِمُ برَبِّك -يا مُحمَّدُ- لنسألَنَّهم يومَ القيامةِ أجمعين[٢].

وقال أيضًا: (ويؤيِّدُ أنَّ قولَه: ﴿كَمَآ﴾ راجعٌ إلى قصة صالح ومتعلِّقٌ بها- وإن لم أرَ من سبقني إليه- ذِكرُ الوصفِ الذي به تناسبت الآياتِ، وهو الاقتسامُ، ثمَّ وصَف المقتسمين بالذين جعلوا القرآنَ عضين؛ لئلَّا يُظَنَّ أنهم الذين تقاسموا في بَياتِ صالحٍ، أي: آتينا أولئك الآياتِ المقتضيةَ للإيمانِ، فما كان منهم إلا التكذيبُ والتقاسمُ، كما أنزلنا على هؤلاء الآياتِ، فما كان منهم إلَّا ذلك، وإنما عبَّرَ في أولئك بـ ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾؛ لأنَّ آياتِهم الناقةُ وولدُها والبئرُ، وهي معطاةٌ محسوسة، لا مُنَزَّلةٌ معقولة، وقال في هؤلاء: ﴿أَنزَلْنَا﴾ إشارةً إلى القرآن الذي هو أعظَمُ الآيات، أو إلى الجميعِ، وغَلَّب عليها القرآنَ؛ لأنَّه أعظمُها، وإلى أنَّهم مُبطِلون في جَحدِهم، وأنَّه لا ينبغي لهم أن يتداخلَهم نوعُ شَكٍّ في أنَّه مُنزَّلٌ؛ لأنه أعظَمُ من تلك الآياتِ مع كونِها محسوساتٍ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٩١).

(١) رواه البخاري (٣٩٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٩٤).

قال الرازي: (قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتملُ أن يكونَ راجعًا إلى المقتسمينَ الذين جعلوا القرآنَ عضينَ؛ لأنَّ عودَ الضميرِ إلى الأقربِ أولَى، ويكون التقديرُ أنَّه تعالى أقسَم بنفسِه أن يسألَ هؤلاء المقتسمينَ عمَّا كانوا يقولونَه مِن اقتسامِ القرآنِ وعن سائرِ المعاصي، ويحتمِلُ أن يكونَ راجعًا إلى جميعِ المكلفينَ؛ لأنَّ ذكرَهم قد تقدَّم في قولِه: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩] أي: لجميعِ الخلقِ، وقد تقدَّم ذكرُ المؤمنينَ، وذكرُ الكافرينَ، فيعودُ قولُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على الكلِّ، ولا معنَى لقولِ مَن يقولُ: إنَّ السؤالَ إنَّما يكونُ عن الكفرِ أو عن الإيمانِ، بل السؤالُ واقعٌ عنهما وعن جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ اللفظَ عامٌّ فيتناولُ الكلَّ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١١/ ٤٩٤)،

﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: عمَّا كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا [(١)].

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾.

أي: فاجهَرْ بدينِ اللهِ -الذي أمَرْناك بتبليغِه- وأظْهِرْه علانيةً، وفرِّقْ بين الحَقِّ

((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٣).

وممن اختار أنَّ الضميرَ في قوله تعالى: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾ يعودُ إلى المقتسمينَ الذين جعلوا القرآنَ عضينَ: ابنُ جريرٍ، ومكيُّ بنُ أبي طالب، وأبو حيان، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٣٩٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

وممن اختار أنَّ الضميرَ عامٌّ، يشملُ جميعَ الخلائقِ: ابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والنيسابوري، والثعالبي، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٩٠)، (٧/ ٤٩٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٧).

وقيل: الضميرُ المقصودُ به: جميعُ أصنافِ الكفرةِ مِن المقتسمينَ وغيرِهم. وممن اختار ذلك: أبو السعود، والألوسي، والقنوجي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٢٦)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

قال الشوكاني: (﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴾ في الدُّنيا مِن الأعمالِ الَّتي يُحاسبونَ عليها ويسألونَ عنها، وقيلَ: إنَّ المرادَ سؤالُهم عن كلمةِ التَّوحيدِ، والعمومُ في ﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعۡمَلُونَ ﴾، يُفيدُ ما هو أوسعُ من ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٢).

والباطلِ حتى تقومَ على النَّاسِ الحُجَّةُ[١].

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: بلِّغْ ما أُنزِلَ إليك من ربِّك، ولا تلتَفِتْ إلى المُشرِكينَ الذين يَصدُّونَك عن تبليغِ دينِ اللهِ، ولا تُبالِ باستِهزائِهم، واكفُفْ عن قِتالِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٢، ١٤٤)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٧٠، ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨).

وهذه الآيةُ قيل: إنَّها منسوخةٌ بآيةِ السيفِ، وهي قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشنقيطي، ونسبه ابنُ الجوزي إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٤٥).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥).

وقيل: إنها مُحكَمةٌ. وممن قال بذلك: السخاوي، والقنوجي. يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (٢/ ٧٤٠)، ((تفسير القنوجي)) (٧/ ٢٠٠).

قال ابن جُزي: (إن كان معناه: أعرِضْ عمَّا يدعونَك إليه أو عن مجادلتِهم، فهو مُحكَم، وإن كان عن قتالِهم وعقابِهم فهو منسوخٌ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٧٢). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٧٣)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ١٧١).

ومن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّ هذه الآيةَ وغيرَها مِن الآياتِ التي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم

كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠].

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الصَّدعُ في غايةِ الشِّدَّةِ عليه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لكثرةِ ما يَلقَى مِن الأذى؛ خَفَّف عنه سُبحانَه بقَولِه مُعَلِّلًا له[1]:

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾.

أي: إنَّا كَفَيناك الذين يَستهزِئونَ بك وبما جئتَ به، وسَنَحفَظُك منهم ونعاقِبُهم؛ فبلِّغْ ما أمَرَك اللهُ ولا تَخشَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ

يقاتِلْ من المشركين، ليست منسوخةً بآيةِ السيفِ، وأنَّ آيةَ السيفِ إنَّما يُعملُ بها في حالِ العزَّةِ والقوةِ والمنعةِ للمسلمينَ، وأمَّا آياتُ الموادعةِ والصفحِ والكفِّ فيُعملُ بها في حالِ الضعفِ والعجزِ، وأنَّ الأمرَ موكولٌ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسبِ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ. قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهرُ وأبينُ في الدليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدلَّة، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّر). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: نكفيك هؤلاء المُستَهزِئينَ الذين يتَّخِذونَ مع الله -المستحِقِّ للعبادةِ وَحدَه- شريكًا في عبادتِه يَعبُدونَه معه [١].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فسوف يعلمونَ -يومَ القيامةِ- ما يَلقَونَ مِن العذابِ[٢].

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الوعيدُ مُؤذِنًا بإمهالِهم قليلًا، كما دلَّ عليه حرفُ التَّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ طَمْأنَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مُطَّلِعٌ على تحرُّجِه مِن أذاهم، وبُهتانِهم من أقوالِ الشِّركِ وأقوالِ الاستهزاءِ، فأمَرَه بالثَّباتِ والتَّفويضِ إلى ربِّه؛ لأنَّ الحِكمةَ في إمهالِهم؛ ولذلك افتُتِحَت الجملةُ بلام القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠-٩١).

أي: وإنَّا لنعلَمُ -يا محمَّدُ- أنَّك يضيقُ صَدرُك؛ بسبَبِ ما تسمَعُه مِن مُشرِكي قَومِك، مِن تكذيبٍ واستهزاءٍ، وطعنٍ في دينِ الله سُبحانَه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨﴾.

أي: فافزَعْ- فيما نابك مِن أمرٍ تَكرهُه منهم- إلى تنزيهِ رَبِّك عن كُلِّ ما لا يليقُ به تنزيهًا مُتَلَبِّسًا بحَمدِه سُبحانَه، وافزَعْ إلى الصَّلاةِ لِرَبِّك(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعبادةٍ خاصَّةٍ، تَبِعَه بالعامَّةِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾.

أي: وتقَرَّبْ إلى رَبِّك على وجهِ الذُّلِّ والخضوعِ والمحبَّةِ له، وداوِمْ على عبادتِه، حتى يأتيَك الموتُ وأنت على ذلك[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٥-٤٧].

وعن أمِّ العَلاءِ الأنصاريَّةِ رضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لَمَّا توفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظعونٍ: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ))[(٣)].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((مِن خيرِ مَعاشِ النَّاسِ لهم رجلٌ مُمسِكٌ عِنانَ[(٤)] فَرَسِه في سَبيلِ الله، يطيرُ على مَتنِه[(٥)]، ....

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

قال ابن القيم: (اليقينُ هاهنا هو الموتُ؛ بإجماعِ أهل التفسير). ((مدارج السالكين)) (١/ ١٢٤).
ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٤١٨).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٧).

(٤) العِنانُ: اللِّجامُ الذي تُمسَكُ به الدَّابَّةُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/ ٤١٤).

(٥) يطيرُ على مَتْنِه: أي: يُسرِعُ راكِبًا على ظَهرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٥٩).

كلَّما سمِعَ هَيعةً[١] أو فَزعةً طار عليه؛ يبتغي القَتلَ والموتَ مَظانَّه، أو رجلٌ في غُنيمةٍ في رأسِ شَعَفةٍ[٢] مِن هذه الشَّعَفِ، أو بطنِ وادٍ مِن هذه الأوديةِ، يُقيمُ الصَّلاةَ، ويُؤتي الزَّكاةَ، ويَعبُدُ رَبَّه حتى يأتيَه اليقينُ، ليس مِن النَّاسِ إلَّا في خيرٍ))[٣].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ هذا وإن كان خِطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالمعنى: نهيُ أمَّتِه عن ذلك؛ لأنَّ مَن أوتيَ القُرآنَ شغله النَّظَرُ فيه وامتثالُ تكاليفِه وفَهمُ معانيه عن الاشتغالِ بزهرةِ الدُّنيا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بالتواضُعِ لإخوانِه، فإنَّه وإن كان رفيعَ المنزلةِ فَليَخفِضْ جناحَه، ولْيتذَلَّلْ ولْيتواضَعْ لإخوانِه، ولْيعلَمْ أنَّ مَن تواضعَ لله رفعَه الله عزَّ وجلَّ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُفهَمُ مِن دليل خِطابِ الآيةِ الكريمةِ- أعني مفهومَ مُخالفتِها- أنَّ غيرَ المؤمنينَ لا يُخفَضُ لهم الجناحُ، بل يُعامَلونَ بالشِّدَّةِ والغِلظةِ[٦]. فالكافرُ يُترَفَّعُ عليه ويُتعالى عليه، ولْيجعَل المسلِمُ نفسَه في موضعٍ أعلى منه؛ لأنَّه مُستمسِكٌ بكَلمةِ اللهِ -وكلمةُ اللهِ هي العُليا-

(١) هَيْعةً: أي: صَيحةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٥٩).
(٢) في رأس شَعَفةٍ: أي: رأسِ جَبَلٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٦/ ٢٤٦٠).
(٣) رواه مسلم (١٨٨٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٦).
(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٤٣).
(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣١٧).

ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ في وصفِ النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، يعني: أنَّهم على الكُفَّارِ أقوياءُ ذوو غِلظةٍ، أمَّا فيما بينهم فهم رُحَماءُ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في ترتيبه -جلَّ وعلا- الأمرَ بالتَّسبيحِ والسُّجودِ على ضِيقِ صَدرِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بسبَبِ ما يقولونَ له مِن السُّوءِ؛ دليلٌ على أنَّ الصَّلاةَ والتَّسبيحَ سبَبٌ لزوالِ ذلك المكروهِ؛ ولذا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا حَزَبَه أمرٌ بادرَ إلى الصلاةِ، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، فينبغي للمُسلمِ إذا أصابه مَكروهٌ أن يفزَعَ إلى اللهِ تعالى بأنواعِ الطَّاعاتِ مِن صلاةٍ وغَيرِها[(٢)].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ حِكمةُ التَّغْيِيَةِ باليقينِ -وهو الموتُ- أنَّه يقتضي ديمومةَ العبادةِ ما دام حيًّا، بخلافِ الاقتصارِ على الأمرِ بالعبادةِ غيرَ مُغيًّا؛ لأنَّه يكونُ مُطلقًا فيكونُ مُطيعًا بالمرَّة الواحدةِ، والمقصودُ ألَّا يُفارِقَ العبادةَ حتى يموتَ[(٣)].

٦- عمَلُ المؤمِنِ لا ينقضي حتى يأتيَه أجَلُه؛ قال الحسَنُ: (إنَّ اللهَ لم يجعَلْ لعمَلِ المؤمِنِ أجَلًا دونَ الموتِ، ثم قرأ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾)[(٤)].

الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ هذه

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٩).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٢٣).

الآيةُ تدُلُّ على أنَّه سُبحانَه هو الخالِقُ لجَميعِ أعمالِ العِبادِ؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّه سُبحانَه هو الخالِقُ للسَّمواتِ والأرضِ ولكُلِّ ما بينَهما، ولا شَكَّ أنَّ أفعالَ العبادِ بينهما، فوجَب أن يكونَ خالِقُها هو اللهَ سُبحانَه(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ دلَّ على أنَّ فاتحةَ الكِتابِ نَزَلتْ بمكَّةَ بلا رَيبٍ، وقد ثبَت في الصَّحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال عن الفاتحةِ: ((هي السَّبعُ المَثاني والقُرآنُ العظيمُ الذي أُوتيتُه))(٢)، وسورةُ الحِجرِ مكِّيَّةٌ بلا رَيبٍ، وفيها كلامُ مُشركي مكَّةَ وحالُه معهم(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، يدُلُّ على أنَّ اللهَ يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦]، وقولُه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وقد جاءَتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خلافِ ذلك؛ كقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وكقوله: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

والجوابُ عن هذا من ثلاثةِ أوجُهٍ:

الأوَّل -وهو أوجَهُها؛ لدَلالةِ القُرآنِ عليه- هو: أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالـمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستخبارِ والاستعلامِ، ووجهُ دلالةِ القرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٩٠).

توبيخٌ وتقريعٌ، كقوله: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٤-٢٥]، وقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

الثاني: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

الثالث: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عَنِ التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[1]، وقيل غير ذلك[2].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ التعبيرُ عنهم بوصفِ المُستهزِئينَ إيماءٌ إلى أنَّه كفاه استهزاءَهم، وهو أقَلُّ أنواعِ الأذى، فكفايتُه ما هو أشَدُّ مِن الاستهزاءِ مِن الأذى، مَفهومٌ بطريقِ الأحْرَى[3].

٥- في كفايةِ اللهِ لِرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعداءَه، وعِصمتِه له من النَّاسِ، آيةٌ لنبُوَّتِه؛ وذلك لأنَّه تصديقٌ لِقَولِه تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ * ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٦] فهذا إخبارٌ مِن الله بأنَّه يكفيه المُشرِكينَ المُستَهزِئينَ، وأخبَرَ أنَّه يكفيه أهلَ الكِتابِ بقَولِه تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠-٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٩).

وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ * فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٦- ١٣٧] فأخبَرَه اللهُ أنَّه يكفيه هؤلاءِ المُشاقِّين له مِن أهلِ الكتابِ، وأخبَرَه أنَّه يَعصِمُه مِن جميعِ النَّاسِ بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] فهذا خبَرٌ عامٌّ بأنَّ اللهَ يَعصِمُه من جميعِ النَّاسِ، فكُلٌّ مِن هذه الأخبارِ الثلاثةِ العامَّةِ قد وقَع كما أخبَرَ[١].

٦- مِن سُنَّةِ الله أنَّ مَن لم يُمكِنِ المؤمِنونَ أن يُعَذِّبوه مِن الذين يُؤذُونَ اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه ينتَقِمُ منه لرَسولِه ويكفيه إيَّاه؛ كما قال سُبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أخَذ بعضُهم منه أنَّ هذا الموضِعَ محَلُّ سَجدةٍ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أَمَر اللهُ تعالى بتسبيحِه بحَمدِه بعدَ أن قال: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأنَّ المقامَ هنا مقامٌ يَحتاجُ إلى تنزيهِ الربِّ -عزَّ وجلَّ- وحَمْدِه، مِن هذه الضَّائقةِ التي تُصيبُ النَّبيَّ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِن قُرَيشٍ، يعني: نَزِّهْه عن كلِّ ما لا

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦١).

قال الشنقيطي: (ولأجلِ كونِ المرادِ بالسجودِ الصلاةَ لم يكنْ هذا الموضعُ محلَّ سجدةٍ عندَ جمهورِ العلماءِ، خلافًا لمن زعَم أنَّه موضعُ سجودٍ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٢٢).

يليقُ به، واعلمْ أنَّ الذي أجراه اللهُ- جلَّ وعلا- فهو في غايةِ الحكمةِ وفي غايةِ الرَّحمةِ، مما يُحمَدُ عليه عزَّ وجلَّ(١).

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيه سؤالٌ: أيُّ فائدةٍ لهذا التوقيتِ، مع أنَّ كُلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّه إذا مات سقَطَت عنه العباداتُ؟

الجوابُ: المرادُ منه: واعبُدْ رَبَّك في زمانِ حَياتِك، ولا تُخْلِ لحظةً مِن لحظاتِ الحياةِ عن هذه العبادةِ(٢).

١٠- ظنَّ طائفةٌ مِن ضُلَّالِ المتصَوِّفةِ أنَّ غايةَ العباداتِ هو حصولُ المعرفةِ، فإذا حصلَت سقطَت العباداتُ! وقد يحتَجُّ بعضُهم بقولِه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ويزعمون أنَّ اليقينَ هو المعرفةُ، وهذا خطأٌ بإجماعِ المسلمين: أهلِ التَّفسيرِ وغيرِهم؛ فإنَّ المسلمين متَّفِقون على أنَّ وجوبَ العباداتِ- كالصَّلواتِ الخَمسِ ونحوِها -وتحريمَ المحَرَّماتِ- كالفواحِشِ والمظالمِ- لا يزالُ واجبًا على كلِّ أحدٍ ما دام عقلُه حاضرًا، ولو بلَغ ما بلَغ؛ وأنَّ الصَّلواتِ لا تسقُطُ عن أحدٍ قَطُّ إلَّا عن الحائِضِ والنُّفَساءِ أو مَن زال عقلُه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ مَوقِعُ الواوِ في صَدْرِ هذه الجُملةِ بَديعٌ؛ فهذه الجُملةُ صالِحةٌ لأنْ تكونَ تَذييلًا لِقَصَصِ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٠).

الأُمَمِ المُعذَّبةِ ببَيانِ أنَّ ما أصابهم قد استحَقُّوه؛ فهو مِن عدْلِ اللهِ بالجَزاءِ على الأعمالِ بما يُناسِبُها، ولأنْ تكونَ تَصديرًا للجُملةِ الَّتي بعدَها، وهي جُملةُ: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾[١].

- وتَفريعُ قولِه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ باعتبارِ المعنى الكِنائيِّ له، وهو أنَّ الجَزاءَ على أعمالِهم مَوكولٌ إلى اللهِ تعالى؛ فلذلك أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عن أذاهم، وسُوءِ تَلقِّيهم للدَّعوةِ[٢].

- وفي هذه الآيةِ ضَرْبٌ مِن رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ إذ كان قد وقَعَ الاستدلالُ على المُكذِّبينَ بالبعثِ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ عندَ قولِه: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ * وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ...﴾ الآياتِ [الحجر: ١٤-١٦]، وخُتِمَت بآيةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣] إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الحجر: ٢٥]، وانتقَلَ هُنالك إلى التَّذكيرِ بخَلْقِ آدمَ عليه السَّلامُ وما فيه مِن العِبَرِ، ثمَّ إلى سَوْقِ قِصَصِ الأُمَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ- المتَّفقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانسَينِ المُتفقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثم إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للميداني (ص: ٣٥٨).

الَّتي عَقِبَت عُصورَ الخِلقةِ الأُولى؛ فآنَ الأوانُ للعودِ إلى حيث افترَقَ طَريقُ النَّظمِ، حيث ذكَرَ خَلْقَ السَّمواتِ ودِلالتَه على البَعثِ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ الآياتِ؛ فجاءت على وِزانِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ...﴾ الآياتِ [الحجر: ١٦]؛ فإنَّ ذلك خَلْقٌ بَديعٌ، وزِيدَ هنا أنَّ ذلك خُلِقَ بالحقِّ، وكان قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ فذلكةً لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ إلى ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]؛ فعاد سِياقُ الكلامِ إلى حيثُ فارَقَ مَهْيَعَه[(١)]؛ ولذلك تخلَّصَ إلى ذِكْرِ القُرآنِ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: ٨٧]، النَّاظِرِ إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[(٢)] [الحجر: ٩].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في مَوقعِ التَّعليلِ للأمْرِ بالصَّفحِ عنهم، أي: لأنَّ في الصَّفحِ عنهم مَصلحةً لك ولهم يعلَمُها ربُّك؛ فمصلحةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّفحِ هي كَمالُ أخلاقِه، ومَصلحتُهم في الصَّفحِ رَجاءُ إيمانِهم[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث عدَلَ إلى ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ دونَ (إنَّ اللهَ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الَّذي هو ربُّه ومُدبِّرُ أمْرِه لا يأمُرُه إلَّا بما فيه صَلاحُه، ولا

(١) المَهْيَعُ: الطَّريقُ الواسِعُ الواضِحُ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٧٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٧٨).

يُقدِّرُ إلَّا ما فيه خيرُه[١].

- وأتَى بصِفَةِ المُبالغةِ ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾؛ لكثرةِ ما خلَقَ، أو الخَلَّاقُ مَن شاء لِما شاء مِن سَعادةٍ أو شَقاوةٍ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ اعتراضٌ بينَ جُملةِ ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾؛ أتبعَ التَّسليةَ والوعدَ بالمِنَّةِ؛ ليُذَكِّرَ اللهُ نَبِيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنِّعمةِ العظيمةِ، فيطمَئِنَّ بأنَّه كما أحسَنَ إليه بالنِّعمِ الحاصِلةِ، فهو مُنْجِزُه الوُعودَ الصَّادقةَ، وفي هذا الامتنانِ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المُكذِّبينَ، وهو ناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦] إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وهذا افتتاحُ غرَضٍ مِن التَّنويهِ بالقُرآنِ، والتَّحقيرِ لعَيشِ المُشركينَ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُوثِرَ هنا فِعْلُ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ دونَ (أوحَيْنا) أو (أنزَلْنا)؛ لأنَّ الإعطاءَ أظهَرُ في الإكرامِ والمِنَّةِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِمَا يُثيرُه المقصودُ مِن قولِه تعالى: ﴿

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾، ومِن تَساؤلٍ يَجيشُ في النَّفسِ عن الإملاءِ للمُكذِّبينَ في النِّعمةِ والتَّرفِ، مع ما رُمِقوا به مِن الغَضبِ والوعيدِ؛ فكانت جُملةُ ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... ﴾ بَيانًا لِمَا يَختلِجُ في نفْسِ السَّامعِ مِن ذلك؛ ولكونِها بهذه المَثابةِ فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها- أي: لم تُعْطَفْ عليها- فَصْلَ البَيانِ عن المُبيَّنِ؛ فإنَّ الجُملةَ الَّتي وقَعَت قبْلَها بمنزِلةِ التَّمهيدِ لها، والإجمالِ لمَضمونِها؛ ولذلك لم تُعْطَفْ هذه الجُملةُ؛ لأنَّها تكونُ حينئذٍ مُجرَّدَ نهيٍ لا اتِّصالَ له بما قبْلَه، كما عُطِفَت نَظيرتُها في قولِه تعالى في سُورةِ طه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [طه: ١٢٩- ١٣١]؛ فلمَّا فُصِلَت الجُملةُ هنا، فُهِمَ أنَّ الجُملةَ الَّتي قبْلَها مَقصودةُ التَّمهيدِ بهذه الجُملةِ، ولو عُطِفَت هذه لَمَا فُهِمَ هذا المعنى البَديعُ مِن النَّظمِ(١).

- قولُه: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ... ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في هذا النَّهيِ كِنايةٌ عن قِلَّةِ الاكتراثِ بهم، وعن تَوعُّدِهم بأنْ سيحُلَّ بهم ما يُثيرُ الحُزْنَ لهم، وكِنايةٌ عن رَحمةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّاسِ، ولمَّا كان هذا النَّهيُ يَتضمَّنُ شِدَّةَ قلْبٍ وغِلظةً؛ لا جرَمَ اعترَضَه بالأمرِ بالرِّفقِ للمُؤمنينَ بقولِه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وهو اعتراضٌ مُرادٌ منه الاحتراسُ(٢).

- وعلى القولِ بتَعليقِ قولِه: ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾ بقولِه: ﴿ وَلَقَدْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٨٨ - ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٢ - ٨٣).

ءَاتَيْنَاكَ ﴾، فوجْهُ تَوسُّطِ قولِه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ ...﴾ إلى آخرِه بينهما: أنَّه لمَّا كان ذلك تَسليةً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تكذيبِهم وعَداوتِهم، اعْتُرِضَ بما هو مَدَدٌ لمَعنى التَّسليةِ؛ مِن النَّهيِ عن الالتفاتِ إلى دُنياهم، والتَّأسُّفِ على كُفرِهم، ومِن الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بمَجامعِه على المُؤمنينَ(١).

- وقولُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾ أبلغُ مِن (لَا تَنْظُرَنَّ)؛ لأنَّ الَّذي يَمُدُّ بصرَه، إنَّما يَحمِلُه على ذلك حِرْصٌ مُقترِنٌ، والَّذي ينظُرُ قد لا يكونُ ذلك معَه(٢).

- قولُه: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ الشُّعراءِ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ فزِيدَ قولُه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ومَقصودُ الآيتَينِ واحدٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لمَّا لم يتقدَّمْ آيةَ الحِجْرِ تَخصيصٌ بمَدْعُوٍّ بل تقدَّمُها خِطابُه عليه السَّلامُ بالتَّأنيسِ والتَّسليةِ عمَّن أعرَضَ، والرِّفقِ بمَن آمَنَ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولم يَحتجْ هنا إلى زِيادةٍ. وأمَّا آيةُ الشُّعراءِ، فلمَّا تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، والإنذارُ يَستصحِبُ التَّخويفَ والاستعلاءَ على مَن يُخاطَبُ به؛ أتبعَ ذلك تَعالى- تَلطُّفًا وإنعامًا على مَن آمَنَ مِن عَشيرتِه عليه السَّلامُ وغيرِه- بقولِه: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ فقيل هنا: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ ليكونَ أنَصَّ في تَعميمِ المُؤمنينَ مُطلقًا مِن العشيرةِ وغيرِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٢-٢٩٣).

- قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفَصلِ ﴿أَنَا﴾، ومِن تَعريفِ الجُزأينِ (النَّذيرُ- المُبينُ): قَصْرُ قَلْبٍ[١]، أي: لستُ كما تحسِبونَ أنَّكم تَغيظونَني بعدَمِ إيمانِكم؛ فإنِّي نَذيرٌ مُبينٌ غيرُ مُتقايضٍ معكم لتَحصيلِ إيمانِكم[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾

- حَرفُ ﴿عَلَى﴾ في قولِه: ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ بمعنى لامِ التَّعليلِ، ولفظُ ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ افتعالٌ مِن (قسَّمَ)؛ إذا جعَلَ شيئًا أقسامًا، وصِيغَةُ الافتعالِ هنا تَقْتضي تكلُّفَ الفعْلِ[٣].

- ومعنى ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ -على أحدِ أوجهِ التفسير-: المُقتسِمونَ القُرآنَ، وهذا هو معنى ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾؛ فكان ثاني الوصْفَينِ بَيانًا لأوَّلِهما، وإنَّما اختلَفَتِ العِبارتانِ للتَّفنُّنِ[٤].

---

(١) القصر: في اصطِلاح البلاغيِّين هو تخصيصُ شيءٍ بشيء وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمر الأول: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيد قائم، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسم إلى قصرٍ حقيقي، وقصرٍ إضافي، وادِّعائي، وقَصْرِ قَلْب؛ وقصْرُ القَلب: أن يَقلِب المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يَعتقدُ أنَّ شاعرًا في قبيلة معيَّنة أو طرَف معيَّن، لكنَّه يقول: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقصرِ طُرُقٌ كثيرة؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناء، والقصر بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديم ما حَقُّه التأخير، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٨٤ -٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فيه مِن التَّشديدِ وتأكيدِ الوعيدِ ما لا يَخْفى، والفاءُ لتَرتيبِ الوَعيدِ على أعمالِهم الَّتي ذُكِرَ بعضُها[1]، فالفاءُ للتَّفريعِ، وهذا تَفريعٌ على ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾، والواوُ للقسَمِ، والمَقصودُ بالقسَمِ تَأكيدُ الخبرِ، وليس الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم ممَّن يشُكُّ في صِدْقِ هذا الوعيدِ، ولكنَّ التَّأكيدَ مُتسلِّطٌ على ما في الخبرِ مِن تَهديدِ مُعادِ ضَميرِ النَّصبِ في ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾[2].

- وفي التَّعرُّضِ لوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه: ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾: إظهارُ اللُّطْفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ في السُّؤالِ المُقْسَمِ عليه حَظًّا مِن التَّنويهِ به، وهو سُؤالُ اللهِ المُكذِّبينَ عن تَكذيبِهم إيَّاه سُؤالَ رَبٍّ يغضَبُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4]، ويجوزُ أنْ يكونَ السُّؤالُ كِنايةً عنِ الجَزاءِ، و﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عامٌّ في جَميعِ الأعمالِ[5].

٧- قولُه تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصْدَعْ ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ بصَريحِه وكِنايتِه عنِ التَّسليةِ على ما يُلاقيه مِن تَكذيبِ قَومِه، وقَصدُ شُمولِ الأمْرِ كلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٩٧).

ما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبليغِه هو نُكتةُ حَذفِ مُتعلِّقِ قولِه: ﴿تُؤْمَرُ﴾؛ فلم يُصرِّحْ بنحوِ (بتَبليغِه) أو (بالأمْرِ به) أو (بالدَّعوةِ إليه)، وهو إيجازٌ بَديعٌ[(١)].

٨- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالإعلانِ بما أُمِرَ به؛ فإنَّ اختفاءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدارِ الأرقَمِ كان بأمْرٍ مِن اللهِ تعالى؛ لحِكمةٍ عِلمَها اللهُ، أهمُّها تَعدُّدُ الدَّاخلينَ في الإسلامِ في تلك المُدَّةِ، بحيث يَغتاظُ المُشركونَ مِن وَفرةِ الدَّاخلينَ في الدِّينِ مع أنَّ دَعوتَه مَخفيَّةٌ، ثمَّ إنَّ اللهَ أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعلانِ دَعوتِه لحكمةٍ أعلى تهيَّأَ اعتبارُها في علْمِه تعالى[(٢)].

- وتَأكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ) لتَحقيقِه؛ اهتمامًا بشَأنِه، لا للشَّكِّ في تَحقُّقِه[(٣)].

- والتَّعريفُ في ﴿الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ للجِنْسِ، فيفيدُ العُمومَ[(٤)].

٩- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ وصَفَهم بالَّذين يجْعَلونَ مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ للتَّشويهِ بحالِهم، ولتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهوينًا للخَطْبِ عليه بإعلامِه أنَّهم ما اقْتَصروا على الافتراءِ عليه؛ فقدِ افترَوا على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، ولم يقتَصِروا على الاستهزاءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل اجْتَرؤوا على العظيمةِ الَّتي هي الإشراكُ باللهِ سُبحانَه[١].

- وأتَتْ صِيغَةُ المُضارعِ ﴿يَجۡعَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم مُستمرُّونَ على ذلك مُجدِّدونَ له[٢].

- وفُرِّعَ على الأمرينِ الوعيدُ بقولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: فسوفَ يَعْلمونَ جَزاءَ بُهتانِهم[٣].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾ فيه تَحليةُ الجُملةِ بالتَّأكيدِ؛ لإفادةِ تَحقيقِ ما تتضمَّنُه مِن التَّسليةِ، وليس المُخاطَبُ ممَّن يُداخِلُه الشَّكُّ في خَبرِ اللهِ تعالى، ولكنَّ التَّحقيقَ في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ﴾ كِنايةٌ عنِ الاهتمامِ بالمُخْبَرِ، وأنَّه بمَحَلِّ العِنايةِ مِن اللهِ[٤].

- وصِيغَةُ الاستقبالِ ﴿نَعۡلَمُ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ العِلْمِ حسَبَ استمرارِ مُتعلَّقِه باستمرارِ ما يُوجِبُه مِن أقوالِ الكَفرةِ[٥].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ فُرِّعَ على جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾ أمْرُه بتَسبيحِ اللهِ تعالى وتَنزيهِه، على أنَّ التَّسبيحَ قد يُستعمَلُ في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣).

مَعناه الكِنائيِّ مع معناه الأصلِيِّ؛ فيُفيدُ الإنكارَ على المُشركينَ فيما يقولونَ، أي: فاقتصِرْ في دَفعِهم على إنكارِ كَلامِهم، والباءُ في ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للمُصاحَبَةِ، والتَّقديرُ: فسبِّحْ ربَّك بحَمدِه؛ فحُذِفَ مِن الأوَّلِ لدَلالةِ الثَّاني[١].

- وقولُه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلَغُ في الاتِّصافِ بالسُّجودِ مِن: (وَكُنْ ساجدًا)[٢].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ فيه إيثارُ الإظهارِ بالعُنوانِ السَّالِفِ آنفًا ﴿رَبَّكَ﴾ -حيث لم يقُلْ: (واعبُدْه)-؛ لتَأكيدِ ما سبَقَ مِن إظهارِ اللُّطفِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والإشعارِ بعِلَّةِ الأمْرِ بالعِبادةِ[٣].

- قولُه: ﴿يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ فيه إسنادُ الإتيانِ إلى اليقينِ الَّذي هو الموتُ؛ للإيذانِ بأنَّه مُتوجِّهٌ إلى الحيِّ، طالبٌ للوُصولِ إليه[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ النَّحلِ







سورةُ النَّحلِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّحلِ)[١].

فعن أُبيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((سَمِعتُ رَجُلًا يقرأُ في سورةِ النَّحلِ قِراءةً تُخالِفُ قراءتي، ثم سمِعتُ آخَرَ يَقرؤُها قراءةً تُخالِفُ ذلك، فانطلقتُ بهما إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إنِّي سَمِعتُ هذين يقرأانِ في سورة النَّحلِ، فسألتُهما: مَن أقرَأهما؟ فقالا: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...))[٢].

بيانُ المكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ النَّحلِ سورةٌ مكِّيَّةٌ[٣].

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ سورةَ النَّحلِ؛ لِمَا فيها من عجائِبِ النَّحلِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ...﴾ [النحل: ٦٨]، ولأنَّ لفظَ النَّحلِ لم يُذكَرْ في سورةٍ أخرى.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٣)، ((تفسير أبي زهرة)) (٨/ ٤١٢٠).

وتُسمَّى أيضًا عندَ بعضِ السلفِ بسورةِ (النِّعَم)؛ وذلك بسبَبِ ما عدَّدَ اللهُ فيها مِن نِعَمِه على عبادِه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (٣٨).

وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثيرٍ في ((فضائل القرآن)) (١٠٠).

والحديث أصله في ((صحيح مسلم)) (٨٢٠).

(٣) وقيل: مكِّيَّةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ منها نزلتْ بالمدينةِ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا﴾ [النحل: ٩٥] إلى قولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] نزَلَتْ بعدَ قتلِ حمزةَ بأُحُدٍ. وقيل: مكِّيَّةٌ غيرَ ثلاثِ آياتٍ في آخِرِها. يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ١٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٢).

مقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

١- إقامةُ الأدلةِ على وحدانيةِ الله تعالى، وعلى اليومِ الآخرِ، وإثباتُ صِدق الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وما جاء به(١).

٢- الردُّ على شُبَهِ المشركينَ، وزجرُهم عمَّا هم عليه، وإنذارُهم(٢).

٣- بيانُ آلاءِ الله تعالى ونِعمِه على خلقِه(٣).

موضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشْتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:

١- التأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه آتٍ لا ريبَ فيه.

٢- إثباتُ وَحدانيَّةِ اللهِ، وبيانُ قُدرتِه في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وخَلقِ الإنسانِ والحيوانِ، وإنزالِ الماءِ مِن السماءِ، وتسخيرِ الشمسِ والقمرِ، والليلِ والنهارِ إلى غيرِ ذلك.

٣- ذِكرُ النِّعَمِ المتنَوِّعةِ على الإنسانِ، ومنها ما فى الأنعامِ مِن المنافعِ، وما فى المراكبِ من الزِّينةِ، إلى غيرِ ذلك من النِّعَمِ التي لا تُحصى.

٤- التَّحذيرُ ممَّا حلَّ بالأممِ التي أشركَت باللهِ وكذَّبَت رسُلَه- عليهم السلامُ- من عذابِ الدنيا، وما ينتظرُهم من عذابِ الآخرة؛ ومقابلةُ ذلك بضِدِّه من نعيمِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣ / ٧٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (٨/ ٩٦).

المتَّقين المصَدِّقين، والصَّابرين على أذى المشركين، والذين هاجروا في سبيلِ الله تعالى.

٥- ذكرُ عادةِ أهلِ الجاهليَّةِ في كراهيةِ البَناتِ، ووأدِهم أحياءً.

٦- ضربُ الأمثالِ للمؤمنِ والكافرِ، والشاكرِ والجاحدِ، والإلهِ الحقِّ والآلهةِ الباطلةِ.

٧- ذكرُ حالِ المُشرِكينَ مع الأوثانِ يومَ القيامةِ.

٨- ذِكرُ بَعضِ مكارِمِ الأخلاقِ؛ مِن العَدلِ والإحسانِ والبَذلِ، والنَّهيِ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ والبَغيِ، والدَّعوةِ إلى الوفاءِ بالعَهدِ، والنَّهيِ عن نكثِ العُهودِ والأيمانِ.

٩- ذِكرُ بعضِ الشُّبُهاتِ التي أثارها المشركون حولَ القرآنِ، مع الردِّ عليها بما يَدحَضُها.

١٠- بيانُ بعضِ آدابِ المُؤمِنِ عندَ قراءةِ القُرآنِ.

١١- ذِكْرُ جانبٍ مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، كمثالٍ للشَّاكرينَ.

١٢- بيانُ أنَّ التَّحليلَ والتَّحريمَ مِن اللهِ وَحدَه.

١٣- ذِكرُ حُكمِ من يكفُرُ بعد إيمانِه، ومَن يُكرَهُ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمئِنٌّ بالإيمانِ، ومن فُتِنوا عن دينِهم ثمَّ هاجَروا وجاهَدوا وصَبروا.

١٤- ذكرُ أهمِّ الأساليبِ في الدعوةِ إلى الله تعالى، وفي معاملةِ الناس، مِن الدعوةِ بالحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ، وفضيلةِ الصبرِ إلى غير ذلك.

الآيات (١-٤)

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلرُّوحِ﴾: أي: بِالوَحْيِ، وسُمِّيَ رُوحًا؛ لأنَّه حَياةٌ مِن مَوتِ الكُفرِ، فصار يحيا به النَّاسُ كالرُّوحِ الذي يحيا به الجَسدُ، أو: لأنَّ الوحيَ به حياةُ الأرواحِ[1].

﴿نُّطۡفَةٖ﴾: النُّطفةُ: المنيُّ[2]، وقيل: الماءُ الصَّافي قلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[3].

﴿خَصِيمٞ﴾: أي: مُخاصِمٌ، جَدِلٌ بِالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

(٢) قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لمنْ زَعَم أنَّها مِنْ ماءِ الرَّجلِ وحدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٢٨١)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قَرُبَ قيامُ السَّاعةِ، وقَضاءُ اللهِ بعَذابِكم -أيُّها الكُفَّارُ- فلا تَستَعجِلوا العذابَ استهزاءً بوعيدِ الرَّسولِ لكم، تنزَّهُ اللهُ عن أن يكونَ له شريكٌ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، ينزِّلُ -سُبحانَه- الملائكةَ بالوَحيِ مِن أمْرِه على مَن يشاءُ مِن عبادِه المُصطَفَين للرِّسالةِ: بأنْ أنذِروا -أيُّها الرُّسُلُ- النَّاسَ مِن عاقبةِ الشِّركِ؛ فإنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا أنا، فاتَّقونِ. خلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعدلِ، لا للعبثِ؛ ليُعبدَ وحدَه، تعاظَمَ -سُبحانَه- عن شِركِ المشركين، خَلَقَ الإنسانَ مِن منيِّ الرجلِ ومنيِّ المرأةِ، فإذا به يصيرُ شَديدَ الخُصومةِ والجدالِ لرَبِّه الذي خلَقَه وسوَّاه!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾.

أي: قَرُبَ مجيءُ يومِ القيامةِ بأهوالِه، وقَضاءُ اللهِ بعَذابِكم- أيُّها الكُفَّارُ- فلا تَستعجِلوا ذلك؛ فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٦).

قال ابن جرير: (هو تهديدٌ مِن الله أهلَ الكفرِ به وبرسولِه، وإعلامٌ منه لهم قُربَ العذابِ منهم، والهلاكِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٥٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (الخطابُ للمشركين ابتداءً؛ لأنَّ استعجالَ العذابِ مِن خصالهم؛ قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، ويجوز أن يكونَ شاملًا للمؤمنين؛ لأنَّ عذابَ الله وإن كان الكافِرونَ يستعجِلونَ به تهكُّمًا؛ لظَنِّهم أنَّه غيرُ آتٍ، فإنَّ المؤمنينَ يُضمِرونَ في نفوسِهم استبطاءَه، ويُحبُّونَ تعجيلَه للكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۞ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الجَزمُ بالأمورِ المُستقبَلةِ لا يليقُ إلَّا عند نفوذِ الأمرِ، ولا نفوذَ إلَّا لِمن لا كفُؤَ له، وكانت العجَلةُ -وهي الإتيانُ بالشَّيءِ قبلَ حينِه الأَولى به- نقصًا ظاهرًا، وكان التأخيرُ لا يكونُ إلَّا عن مُنازِعٍ مُشارِكٍ- نزَّه نفسَه سُبحانَه تنزيهًا مُطلَقًا جامِعًا، بقَولِه تعالى[1]:

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن أن يكونَ له شريكٌ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ ممَّا لا يليقُ به تعالى، ومِن ذلك وصفُهم له بعدمِ القدرةِ على بَعثِ الأمواتِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقَرَّرَ -بما سبَقَ- تنَزُّهُه تعالى عن كلِّ نَقصٍ؛ شِركٍ وغَيرِه- شرَعَ يصِفُ نفسَه سُبحانَه بصِفاتِ الكَمالِ مِن الأمرِ والخَلقِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان استِعجالُ المُشرِكينَ بالعذابِ استهزاءً بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتكذيبًا له، وكان ناشِئًا عن عقيدةِ الإشراكِ التي مِن أصولِها استحالةُ إرسالِ الرُّسُلِ مِن البَشَرِ، وأُتبِعَ تحقيقُ مَجيءِ العذابِ بتَنزيهِ اللهِ عن الشَّريكِ؛ قفَّيَ ذلك بتبرئةِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- من الكَذِبِ فيما يبَلِّغُه عن رَبِّه، ووصَفَ لهم الإرسالَ وصفًا مُوجَزًا، وهذا اعتراضٌ في أثناءِ الاستدلالِ على التوحيدِ[2].

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾.

أي: يُنزِّلُ اللهُ جبريلَ[3] بالوَحيِ -الذي هو كَلامُه- مِنْ أمْرِه[4]، على من يَشاءُ

(٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).

(٣) قولُه: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المرادُ به هنا: جبريلُ وحدَه، وهذا قولُ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٣).

وتسميةُ الواحدِ باسمِ الجمعِ- إذا كان ذلك الواحدُ رئيسًا مقدَّمًا- جائزٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٧٤).

(٤) قيل: ﴿مِن﴾ هنا: للتبعيضِ، أو لبيانِ الجنسِ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

مِن عِبادِه الذين اختارهم للنبُوَّةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال سُبحانه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: بأن أنذِروا -أيُّها الرُّسُلُ- الناسَ عذابي إن أشرَكوا بي؛ فإنَّه لا يستحِقُّ العبادةَ غَيري، فاحذَروني -أيُّها النَّاسُ- بإخلاصِ العبادةِ لي، وامتثالِ أوامِري، واجتنابِ نواهِيَّ؛ لتَنْجوا مِن عذابي[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ أي: بأمْرِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وحَّد اللهُ تعالى نفسَه، دلَّ على وحدانيَّتِه، وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، بما ذكَرَ مِمَّا لا يَقدِرُ عليه غيرُه، مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وإيجادِه أصولَ العالَمِ وفروعَه على وجهِ الحِكمةِ[(١)] فقال:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خَلقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ بالعَدلِ، ولم يخلُقْهنَّ عَبثًا؛ وذلك ليُعبَدَ وَحدَه، ولِيَعلمَ النَّاسُ عَظَمةَ خالِقِها، ويَعلَموا قُدرتَه على إعادةِ خَلقِه يومَ القيامةِ الذي يُجازي فيه كلَّ عاملٍ بحسَبِ عَمَلِه[(٢)].

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه المُستقِلُّ بالخَلقِ وَحدَه لا شريكَ له، وكان لذلك يستحِقُّ أن يُعبَدَ وَحدَه لا شريكَ له، ولا يصِحُّ أن يُعبَدَ معه مَن لا يَقدِرُ على شَيءٍ؛ لهذا أتبَعَ قَولَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بقولِه[(٣)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٩، ٣٣٠).
قال الشنقيطي: (ومعنَى كونِ خَلْقِه للسَّمواتِ والأرضِ مُتَلَبِّسًا بالحقِّ أنَّه خَلَقَهما لحكَمٍ باهرةٍ، ولم يخلُقْهما باطِلًا، ولا عبثًا، ولا لَعِبًا، فمِنَ الحقِّ الَّذي كان خَلْقُهما مُتَلَبِّسًا به- إقامةُ البرهانِ على أنَّه هو الواحدُ المعبودُ وحدَه -جلَّ وعلا- كما أوضَح ذلك في آياتٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٩).

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ عن شِركِ المُشرِكينَ، وترفَّعَ أن يكونَ له شَريكٌ؛ فهو المُنفَرِدُ بالخَلقِ، المُستحِقُّ وَحدَه لعبادةِ خَلقِه؛ فلا يكونُ إلهًا إلَّا مَن يخلُقُ بقُدرتِه مثلَ السَّمواتِ والأرضِ، فيُحدِثُها مِن غيرِ شَيءٍ، على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وليس ذلك في قُدرةِ أحدٍ سوى اللهِ الواحِدِ[١].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دلَّ على وحدانيَّتِه مِن خَلقِ العالَمِ العُلويِّ والأرضِ -وهو استدلالٌ بالخارجِ- ذكَرَ الاستدلالَ مِن نَفسِ الإنسانِ، فذكَرَ إنشاءَه مِن نُطفةٍ، فإذا هو خَصيمٌ مُبينٌ، وكان حَقُّه والواجِبُ عليه أن يُطيعَ وينقادَ لأمرِ اللهِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الدَّليلَ على توحيدِه؛ ذكَرَ بعده الإنسانَ ومُناكَدتَه وتَعدِّيَ طَورِه[٣].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾.

أي: خلقَ اللهُ الإنسانَ[٤] مِن منيِّ الرَّجُلِ ومَنيِّ المرأةِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨).

(٤) أي: جنسَ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٠).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥-٤٦].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ * فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ * فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ * مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧- ١٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: فإذا بهذا الإنسانِ -الذي خلَقَه اللهُ مِن نُطفةٍ- يُصبِحُ مُخاصِمًا ظاهِرَ الخُصومةِ، يُبِينُ عن خُصومتِه بمَنطِقِه، فيُخاصِمُ خُصومةً شديدةً في قُدرةِ اللهِ على البعثِ وغَيرِه، ويُكَذِّبُ بالحقِّ، ولا يشكُرُ رَبَّه على نِعَمِه[1]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣١).

وقال السَّعدي: (﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ يحتمِلُ أنَّ المرادَ: فإذا هو خَصيمٌ لرَبِّه، يَكفُرُ به، ويجادِلُ رسُلَه، ويكذِّبُ بآياته، ونَسِيَ خَلْقَه الأوَّلَ وما أنعمَ اللهُ عليه به من النِّعَم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: أنَّ الله أنشأ الآدميَّ من نُطفةٍ، ثمَّ لم يزَلْ ينقُلُه من طَورٍ إلى طورٍ حتى صار عاقِلًا متكلِّمًا ذا ذِهنٍ ورأيٍ، يخاصِمُ ويجادِلُ؛ فلْيشكُرِ العبدُ رَبَّه الذي أوصلَه إلى هذه الحالِ التي ليس في إمكانِه القدرةُ على شيءٍ منها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

وقال الشنقيطي: (قولُه -جَلَّ وعلا-: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ أظهَرُ القولينِ فيه: أنَّه ذَمٌّ

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧- ٧٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦-٦٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا * وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤-٥٥].

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزَقَ يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال الله: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيتَ بين بُردَينِ[(١)] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ[(٢)]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!))[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ سمَّى ذلك رُوحًا؛ لِما يحصُلُ به من الحياةِ النَّافِعةِ،

للإنسانِ المذكورِ. والمعنى: خَلَقْناه ليعبُدَنا ويخضَعَ لنا ويُطيعَ، ففاجأ بالخُصومةِ والتكذيبِ، كما تدلُّ عليه: «إذا» الفُجائيَّة). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣١).

(١) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٦).

(٢) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٣٢) (١١٩٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥).

صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٣/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٤٤).

فإنَّ الحياةَ بدُونِه لا تنفَعُ صاحِبَها البتَّةَ، بل حياةُ الحيوانِ البَهيمِ خَيرٌ منها، وأسلَمُ عاقِبةً[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ قد أحاطت جملةُ: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ بالشَّريعةِ كُلِّها؛ لأنَّ جُملةَ: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ تنبيهٌ على ما يَرجِعُ مِن الشَّريعةِ إلى إصلاحِ الاعتقادِ، وهو الأمرُ بكمالِ القُوَّةِ العقليَّةِ، وجملةُ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ تنبيهٌ على الاجتنابِ والامتثالِ اللَّذينِ هما مُنتهى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ حثٌّ على استشعارِ التذللِ والتواضعِ، إذ مَن كان خَلْقُه مِن نطفةٍ ضعيفةٍ؛ فإعدادُه نفسَه في عِدَادِ الخُصَماءِ جَهْلٌ به، وإغفالٌ لمراعاة ما خُلِقَ منه[٣].

٤- في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ على أنَّ التكبرَ مُتولِّدٌ في الإنسان مِن قِلَّةِ معرفتِه بنفسِه، وفِكْرِهِ فيما خُلِقَ منه[٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لفظُ (الأمر) يرادُ به المصدَرُ والمفعولُ؛ فالمفعولُ مخلوقٌ، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فهنا المرادُ به: المأمورُ به، ليس المرادُ به أمْرَه الذي هو كلامُه، وأمَّا في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق: ٥] فأمْرُه كلامُه؛ إذ لم يُنزِلْ إلينا الأفعالَ التي

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أمَرَنا بها، وإنما أنزَلَ القرآنَ، وهذا كقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] فهذا الأمرُ هو كلامُه[١].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ يدلُّ على أنَّ نُزولَ الوَحيِ بواسطةِ الملائكةِ، وأنَّ النبُوَّةَ عَطاؤُه تعالى[٢]، فالنبوَّةُ عطائيَّةٌ لا كَسْبيَّةٌ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ وأمثالُها رَدٌّ على الكُفَّارِ في قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[٤] [الزخرف: ٣١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ هذه الآيةُ أوَّلُ ما عَدَّدَ اللهُ على عبادِه مِن النِّعَمِ في سورةِ النِّعَمِ، التي تسمَّى سورة النَّحلِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ حَسُنَت النِّذارةُ هنا- وإن لم يكُنْ في اللَّفظِ ما فيه خَوفٌ- مِن حيثُ كان المُنذَرونَ كافِرينَ بألوهيَّتِه؛ ففي ضِمنِ أمْرِهم مكانُ خَوفٍ، وفي ضِمنِ الإخبارِ بالوحدانيَّةِ نَهيٌ عمَّا كانوا عليه، ووعيدٌ وتحذيرٌ مِن عبادةِ الأوثانِ[٦].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢١٦).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٤).
(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٢٨).
(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٧٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ سبَّبَ عن وحدانيَّتِه -التي هي مُنتهَى كمالِ القُوَّةِ العِلميَّةِ- قَولَه آمِرًا بما هو أقصَى كمالِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الاستدلالُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن سائرِ الأدلَّةِ وأجمَعُ؛ لأنَّها مُحتَويةٌ لهما، ولأنَّهما من أعظَمِ الموجوداتِ؛ فلذلك ابتُدئ بهما[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لمَّا كان مُعظَمُ أغراضِ هذه السُّورةِ زَجرَ المُشركينَ عن الإشراكِ وتوابِعِه، وإنذارَهم بسُوءِ عاقبةِ ذلك؛ صُدِّرَت السُّورةُ بالوعيدِ المَصوغِ في صُورةِ الخبَرِ بأنْ قد حَلَّ ذلك المُتوعَّدُ به؛ فجِيءَ بالماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ المُرادِ به المُستقبَلُ المُحقَّقُ الوُقوعُ، بقَرينةِ تَفريعِ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ استعجالِ حُلولِ ذلك اليومِ يَقْتضي أنَّه لَمَّا يحِلَّ بعدُ، وإتيانُه عبارةٌ عن دُنُوِّه واقترابِه، على طريقةِ نَظمِ المُتوقَّعِ في سِلكِ الواقعِ، أو عن إتيانِ مَباديه القريبةِ، على نَهجِ إسنادِ حالِ الأسبابِ إلى المُسبِّباتِ، وفيه تَنبيهٌ على كَمالِ قُربِه مِن الوُقوعِ واتِّصالِه، وتَكميلٌ لحُسنِ مَوقعِ التَّفريعِ في قولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؛ فإنَّ النَّهيَ عن استعجالِ الشَّيءِ وإنْ صَحَّ تَفريعُه على قُربِ وُقوعِه، أو على وُقوعِ أسبابِه القريبةِ، لكنَّه ليس بمَثابةِ تَفريعِه على وُقوعِه؛ إذ بالوُقوعِ يَستحيلُ الاستعجالُ رأسًا، لا بما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠١).

ذُكِرَ مِن قُربِ وُقوعِه، ووُقوعِ مَباديه[(١)].

- قولُه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ وعُبِّرَ عن ذلك بأمْرِ اللهِ؛ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ؛ ففي التَّعبيرِ عنه بأمْرِ اللهِ إبهامٌ يُفيدُ تَهويلَه وعَظَمتَه؛ لإضافتِه لِمَن لا يعظُمُ عليه شَيءٌ، وللإيذانِ بأنَّ تَحقُّقَه في نفْسِه وإتيانَه مَنوطٌ بحُكمِه النَّافذِ وقَضائِه الغالبِ[(٢)].

- وجُملةُ: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ تَفريعٌ على ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، وهي مِن المقصودِ بالإنذارِ، والمُرادُ مِن النَّهيِ هنا معنى دقيقٌ لم يَذكُروه في مَوارِدِ صِيَغِ النَّهيِ، ويجدُرُ أنْ يكونَ للتَّسويةِ، كما تَرِدُ صِيغةُ الأمْرِ للتَّسويةِ، أي: لا جَدْوى في استعجالِه؛ لأنَّه لا يُعَجَّلُ قبلَ وَقتِه المُؤجَّلِ له[(٣)].

- وجُملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها المقصودُ مِن الوعيدِ؛ إذ الوعيدُ والزَّجرُ إنَّما كانا لأجلِ إبطالِ الإشراكِ، فكانت جُملةُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ كالمُقدِّمةِ، وجُملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ كالمَقصدِ[(٤)].

- وعُبِّرَ بالاستقبالِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ إشراكِهم واستمرارِه[(٥)].

- وقولُه أيضًا: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ -على قِراءةِ الجُمهورِ بالتَّحتيَّةِ- على طريقةِ الالْتفاتِ، فعدَلَ عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ ذِكرِ قبائِحِهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥).

للإعراضِ عنهم، وطَرحِهم عن رُتبةِ الخطابِ، وحكايةِ شنائِعِهم لغيرِهم، وعلى تَقديرِ تَخصيصِ الخطابِ بالمُؤمنينَ تَفوتُ هذه النُّكتةُ[١].

- واتَّصلَ قولُه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ باستعجالِهم؛ لأنَّ استعجالَهم استهزاءٌ وتكذيبٌ، وذلك مِن الشِّركِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُنَزِّلُ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك عادةٌ مُستمرَّةٌ له سُبحانَه[٣].

- قولُه: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ وَجهُ إضافةِ الأمرِ إلى اللهِ تَعالى: أنَّ مَعنى ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ الجنسُ، أي: مِن أُمورِه، وهي شُؤونُه ومُقدَّراتُه الَّتي استأثَرَ بها؛ لِمَا تفيدُه الإضافةُ مِن التَّخصيصِ[٤].

- قولُه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ لمَّا كان الوحيُ به هَدْيُ العُقولِ إلى الحقِّ؛ فشُبِّهَ الوحيُ بالرُّوحِ كما يُشَبَّهُ العِلمُ الحقُّ بالحياةِ، وكما يُشَبَّهُ الجهلُ بالموتِ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[٥] [الأنعام: ١٢٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٢- ٥٩٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٩٨).

- قولُه: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ لمَّا كان هذا الخبَرُ مَسوقًا للَّذين اتَّخذوا مع اللهِ آلهةً أُخرى، وكان ذلك ضلالًا يَستحِقُّون عليه العِقابَ؛ جعَلَ إخبارَهم بضِدِّ اعتقادِهم، وتحذيرَهم ممَّا هم فيه إنذارًا، وفرَّعَ عليه ﴿فَٱتَّقُونِ﴾(١).

- قولُه: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الضَّميرُ في ﴿أَنَّهُۥ﴾ للشَّأنِ، ومدارُ وَضعِه مَوضعَه ادِّعاءُ شُهرتِه المُغْنيةِ عن التَّصريحِ به، وفائدةُ تَصديرِ الجُملةِ به: الإيذانُ مِن أوَّلِ الأمرِ بفَخامةِ مَضمونِها، معَ ما فيه مِن زيادةِ تَقريرٍ له في الذِّهنِ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفْهَمُ منه ابتداءً إلَّا شأنٌ مُبْهَمٌ، له خطرٌ، فيَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِمَا يعقُبُه؛ فيتمكَّنُ لديه عندَ وُرودِه فضْلَ تمكُّنٍ(٢).

- وقولُه أيضًا: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ خِطابٌ للمُستعجلينَ على طريقةِ الالْتفاتِ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ذلك تَرقَّبوا دليلَ تنزيهِ اللهِ عن أنْ يكونَ له شُركاءُ، فابتدِئَ بالدَّلالةِ على اختصاصِه بالخلْقِ والتَّقديرِ، وأعقَبَ قولَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بقولِه: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ تحقيقًا لنتيجةِ الدَّليلِ، كما يُذْكَرُ المطلوبُ قبلَ ذِكرِ القياسِ -في صِناعةِ المَنطقِ- ثمَّ يُذْكَرُ ذلك المطلوبُ عَقِبَ القياسِ في صُورةِ النَّتيجةِ؛ تحقيقًا للوَحدانيَّةِ(٤).

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٠).

٤- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ أيضًا، وهو استدلالٌ آخرُ على انفرادِه تَعالى بالإلهيَّةِ ووَحدانيَّته فيها، وتَعريفُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ، وهو تعريفُ الجنسِ، أي: خلَقَ الجنسَ المعلومَ الَّذي تَدْعونه بالإنسانِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ﴾ الفاءُ تدُلُّ على التَّعقيبِ، وكونُه خَصيمًا مُبينًا لا يكونُ عَقِبَ خلْقِه مِن نُطفةٍ، ولكنَّه إشارةٌ إلى ما تَؤولُ إليه حالُه[٢].

- والتعبير بحرفِ المُفاجأةِ (إِذَا) جعَلَ الكلامَ مُفهِمًا أمرينِ، هما: التَّعجُّبُ مِن تطوُّرِ الإنسانِ مِن أمْهنِ حالةٍ إلى أبدَعِ حالةٍ، وهي حالةُ الخُصومةِ والإبانةِ النَّاشئتَينِ عن التَّفكيرِ والتَّعقُّلِ، والدَّلالةُ على كُفرانِه النِّعمةَ وصَرفِه ما أنعَمَ به عليه في عِصيانِ المُنعِمِ عليه؛ فالجُملةُ في حَدِّ ذاتِها تَنويهٌ، وبضَميمةِ حَرفِ المُفاجأةِ أُدْمِجَت مع التَّنويهِ التَّعجيبَ، ولو قيل: (فهو خصيمٌ) أو (فكان خصيمًا)، لمْ يحصُلْ هذا المعنى البليغُ[٣].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٣).

الآيات (٥-٩)

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ
فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ
بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ
لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ
شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿تُرِيحُونَ﴾: أي: تَرُدُّونَها بالعَشِيِّ مِن مراعيها إلى مَبارِكِها التي تأوي إليها؛ ومنه الرَّواحُ؛ رَواحُ العَشِيِّ: وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ[1].

﴿تَسۡرَحُونَ﴾: أي: تُخرِجُونَها بالغداةِ إلى مَراعِيها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على انطِلاقٍ[2].

﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾: أي: بمشقَّتِها، والشِّقُّ: المشقَّةُ، والانكسارُ الذي يلحقُ النَّفسَ، والبدنَ، وأصلُ (شقق) يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٨).

﴿لَرَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ(١).

﴿قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: الطَّريقُ القاصِدُ المُستقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه؛ يقال: طَريقٌ قَصدٌ وقاصِدٌ: إذا أدَّاك إلى مَطلوبِك، وقصَدَ بك ما تريدُ، وأصلُ (قصد): يدُلُّ على إتيانِ شَيءٍ وأَمِّه(٢).

﴿جَآئِرٌ﴾: أي: عادِلٌ عن القَصدِ مائِلٌ، وأصلُ (جور): يدلُّ على مَيلٍ عن الطَّريقِ(٣).

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةً﴾

﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾: معطوفٌ مَنصوبٌ على (الأنعام) في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾، أي: وخلقَ الخيلَ. ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾: منصوبٌ بأن مُضمَرة، والمصدرُ المؤوَّلُ مجرورٌ باللامِ متعلِّقٌ بالفعلِ (خلق) المقدَّر، ﴿وَزِينَةً﴾: مفعولٌ لأجلِه مَنصوبٌ، وهو مَعطوفٌ على محلِّ المصدَرِ المؤوَّلِ، أي: للرُّكوبِ وللزِّينةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥، ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢).

(٤) إنَّما وُصِلَ الفِعلُ إلى الأوَّلِ باللامِ في قَولِه: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ وإلى ﴿وَزِينَةً﴾ بنفسِه؛ لاختلالِ شَرطٍ في الأوَّلِ وهو عدمُ اتِّحاد الفاعلِ؛ فإنَّ الخالقَ اللهُ، والراكِبَ المُخاطَبون، بخلافِ الثاني؛

وقيل: ﴿وَزِينَةً﴾ منصوبٌ على إضمارِ فِعلٍ، والتَّقديرُ: وجعَلَها زينةً. وقيل غيرُ ذلك[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: والإبِلَ والبَقَرَ والغَنَمَ خلَقَها اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- وجعَلَ لكم فيها دِفئًا مِن البَرْدِ؛ من الثيابِ المأخوذةِ من أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ومنافِعَ أُخَرَ من نسلِها وألبانِها ورُكوبِها وبَيعِها وغيرِ ذلك، ومِن لحومِها تأكلونَ، ولكم فيها زينةٌ تجلِبُ السُّرورَ لكم عندما تَرجِعونَها إلى مَنازِلِها في المَساءِ، وعندما تُخرِجونَها في الصَّباحِ إلى المراعي، وتحمِلُكم هذه الأنعامُ وأمتِعتَكم في سَفَرِكم إلى بلادٍ بعيدةٍ، لم تكونوا مُستَطيعينَ الوُصولَ إليها إلَّا بجَهدٍ شَديدٍ ومشَقَّةٍ بالغةٍ؛ إنَّ رَبَّكم لَرؤوفٌ رَحيمٌ بكم؛ حيث سخَّر لكم هذه الأنعامَ، وخلق اللهُ لكم أيضًا الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ؛ لكي تَركَبوها، وجعَلَها اللهُ لكم زينةً، ويخلُقُ لكم ما لا عِلْمَ لكم به، وإلى اللهِ ينتهي الطَّريقُ المُستَقيمُ فيُوصِلُ إليه -سُبحانَه- وإلى مَرضاتِه، ومِن الطُّرُقِ ما هو مائِلٌ مُعْوَجٌّ لا يُوصِلُ إلى اللهِ، ولو شاء اللهُ هدايتَكم لهداكم جميعًا للإيمانِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥﴾.

لأنَّ فاعِلَ الخَلقِ والتَّزيينِ هو اللهُ تعالى. يُنظر: ((شرح قطر الندى)) لابن هشام (ص: ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٤١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٧٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٩٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٨٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى خلْقَ الإنسانِ؛ ذكرَ ما امتَنَّ به عليه في قِوامِ مَعيشتِه، فذكرَ أوَّلًا أكثَرَها منافِعَ، وألزَمَ لِمَن أُنزِلَ القرآنُ بلُغتِهم، وذلك: الأنعامُ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا صار التَّوحيدُ بذلك كالشَّمسِ، وكان كلُّ ما في الكونِ- مع أنَّه دالٌّ على الوحدانيَّةِ- نِعمةً على الإنسانِ يجِبُ عليه شُكرُها؛ شرعَ يعَدِّدُ ذلك تنبيهًا له على وُجوبِ الشُّكرِ بالتبَرُّؤِ من الكُفرِ، فقال مُقَدِّمًا الحيواناتِ؛ لأنَّها أشرَفُ مِن غَيرِها، وقدَّمَ منها ما ينفَعُ الإنسانَ؛ لأنَّه أجلُّ مِن غَيرِه، مُبتَدِئًا بما هو أَولاها بالذِّكرِ؛ لأنَّه أجَلُّها منفعةً في ضروراتِ المَعيشةِ، وألزَمُها لِمَن أُنزِلَ الذِّكرُ بلِسانِهم[٢].

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ الإبِلَ والبقَرَ والغنَمَ، فسخَّرها لِمصالِحكم أيُّها النَّاسُ[٣].

﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٧-١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

قال الواحدي: (﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾؛ يعني: الإبلَ والبقَرَ والغنَمَ، ثم ابتدأ فقال: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ﴾، ويجوزُ أن يكون تمامُ الكلامِ عند قوله: ﴿لَكُمۡ﴾ ثمَّ يبتدِئُ فيقول: ﴿فِيهَا دِفۡءٞ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٥٦).

وقال الرازي: (قال صاحبُ النظم [أبو علي الجرجاني]: أحسَنُ الوَجهينِ أن يكونَ الوَقفُ عند قَولِه: ﴿خَلَقَهَا﴾ والدَّليلُ عليه أنَّه عطَف عليه قولَه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ﴾ والتقديرُ: لكم فيها دفءٌ، ولكم فيها جَمالٌ). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان أوَّلَ ما يُمكِنُ أن يَلقَى الإنسانُ عادةً مِن نِعَمِها اللِّباسُ؛ بدأ به، فقال تعالى[1]:

﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾.

أي: لكم- أيُّها النَّاسُ- في أصوافِ الأنعامِ وأوبارِها وأشعارِها مَلابِسُ وفُرُشٌ، وأغطيةٌ وأبنيةٌ تُدَفِّئُكم من البَردِ، ولكم فيها فوائِدُ كثيرةٌ مِن نَسلِها وألبانِها ودُهونِها، وبالحَرثِ بها، والسَّقيِ عليها، ورُكوبِها وبَيعِها، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾ [النحل: ٨٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١-٢٢].

﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾.

أي: ومِن لُحومِ الأنعامِ تأكُلونَ[3].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٢).

﴿ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ۝ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ ﴾.

أي: ولكم- أيُّها النَّاسُ- في الأنعامِ حُسْنٌ وجَمالٌ[1] يَجلِبُ لكم السُّرورَ والسَّعادةَ، وذلك حين تَرجِعونَها مَساءً مِن المَرعَى إلى مَنازِلِها، وحين تَذهَبونَ بها صَباحًا إلى مَراعيها[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧).

قال الواحدي: (كما قال: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، والمالُ ليس يخُصُّ الوَرِقَ والعَينَ، وأكثَرُ مالِ العرَبِ الإبلُ، كما أنَّ أكثَرَ أموالِ أهلِ البصرةِ النَّخلُ). ((البسيط)) (١٣/ ١٦).

وقال الرازي: (اعلَمْ أنَّ وجهَ التجمُّلِ بها: أنَّ الراعيَ إذا روَّحَها بالعَشيِّ وسَرَّحها بالغداةِ تزيَّنَت عند تلك الإراحةِ والتَّسريحِ الأفنيةُ، وتجاوَبَ فيها الثُّغاءُ والرُّغاءُ، وفَرِحَت أربابُها، وعظُمَ وقعُهم عندَ الناسِ؛ بسببِ كونِهم مالكينَ لها). ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦).

وقال القرطبي: (جمالُ الأنعامِ والدوابِّ مِن جمالِ الخِلقةِ، وهو مرئيٌّ بالأبصارِ موافِقٌ للبصائرِ. ومِن جمالِها كَثرتُها وقَولُ النَّاسِ إذا رأَوها: هذه نَعَمُ فلانٍ، قاله السُّدِّي، ولأنَّها إذا راحت توفَّرَ حسنُها وعَظُم شأنُها وتعلَّقت القلوبُ بها؛ لأنَّها إذ ذاك أعظَمُ ما تكون أسنِمةً وضروعًا، قاله قتادة). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧١).

أي: وتَحمِلُ الأنعامُ[١] أبدانَكم وأمتِعتَكم في أسفارِكم مِن بلدٍ إلى آخَرَ لم تكونوا واصِلينَ إليه- مِن دُونِ الأنعامِ- إلَّا بجَهدٍ شَديدٍ مِن أنفُسِكم، ومَشقَّةٍ كبيرةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّكم- الذي خلقَ الأنعامَ، وسخَّرها لِمَصالِحِكم- لَذو رأفةٍ ورَحمةٍ بكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ

(١) قال القرطبي: (منَّ الله -سُبحانه- بالأنعام عُمومًا، وخصَّ الإبلَ هنا بالذِّكرِ في حَملِ الأثقالِ على سائرِ الأنعامِ؛ فإنَّ الغنَمَ للسَّرْح والذَّبح، والبقَرَ للحَرثِ، والإبِلَ للحَملِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (الضميرُ عائدٌ إلى أشهَرِ الأنعام عندهم وهي الإبلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

وقيل: المرادُ: الإبلُ والبقرُ؛ فالبقرُ تُطيقُ كما تُطيقُ الإبلُ، وفي بعضِ الأقطارِ يحملونَ الأحمالَ الثقيلةَ على ذكورِ البقرِ إلى بلادٍ بعيدةٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٣٩٦)، ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٣٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥، ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾[الزخرف: ١٢-١٣].

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى منافِعَ الحَيواناتِ التي ينتَفِعُ الإنسانُ بها في المنافِعِ الضَّروريَّةِ والحاجاتِ الأصليَّةِ؛ ذكَرَ بعدَه منافِعَ الحيواناتِ التي ينتَفِعُ بها الإنسانُ في المنافِعِ التي ليست بضروريَّةٍ[1].

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ؛ لِتَركبوا على ظُهورِها، وجعَلَها اللهُ زينةً لكم[2].

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ويَخلقُ ما لا يُحيطُ عِلمُكم به مِن المخلوقاتِ، غيرَ ما أخبَرَكم به، وعدَّدَه لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٢)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٩)، (تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٠، ١١١).

للمفسِّرين في معنى هذه الآيةِ أقوالٌ شتَّى؛ قال الشوكاني: (﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: يخلُقُ ما لا يحيطُ عِلمُكم به مِن المخلوقاتِ غيرَ ما قد عدَّده هاهنا. وقيل: المرادُ من أنواعِ الحشَراتِ

كما قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ⁽٩⁾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى من الحيواناتِ ما يُسارُ عليه في السُّبُلِ الحِسِّيَّة، نبَّه على الطُّرُقِ

والهوامِّ في أسافِلِ الأرض وفي البحرِ، مِمَّا لم يَرَه البَشَرُ ولم يَسمَعوا به. وقيل: هو ما أعَدَّ الله لعباده في الجنَّةِ وفي النارِ مِمَّا لم تَرَه عينٌ، ولم تسمَعْ به أُذُنٌ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ... ولا وَجْهَ للاقتصارِ في تفسيرِ هذه الآية على نوعٍ مِن هذه الأنواع، بل المرادُ أنَّه سبحانه يخلُقُ ما لا يَعلَمُ به العبادُ، فيشمَلُ كُلَّ شيءٍ لا يحيطُ عِلمُهم به). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ المرادَ ما أعدَّه الله تعالى في الجنةِ لأهلِها، وفي النارِ لأهلِها، مما لم تره عينٌ، ولا سمِعته أذنٌ، ولا خطَر على قلبِ بشرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٦-١٧٧).

وقال ابنُ عطيةَ: (وكلُّ مَن خصَّص في تفسيرِ هذه الآيةِ شيئًا، كقولِ مَن قال: سوسُ الثيابِ وغيرِ ذلك، فإنَّما هو على جهةِ المثالِ، لا أنَّ ما ذكَره هو المقصودُ في نفسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٠).

وبعضُ المفسِّرينَ المعاصرين ألحقَ وسائِلَ المواصلاتِ المعاصرةِ في معنى الآيةِ. ومنهم: ابنُ عاشورٍ، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥).

قال السعدي: (﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ممَّا يكونُ بعدَ نزول القرآنِ مِن الأشياءِ التي يركبُها الخلقُ في البَرِّ والبحر والجوِّ، ويستعملونَها في منافعِهم ومصالحهم؛ فإنَّه لم يذكُرْها بأعيانِها؛ لأنَّ الله تعالى لا يذكُرُ في كتابِه إلَّا ما يَعرفُه العِبادُ، أو يعرفونَ نظيرَه، وأمَّا ما ليس له نظيرٌ في زمانِهم فإنَّه لو ذُكِرَ لم يعرفوه، ولم يفهَموا المرادَ منه، فيذكُر أصلًا جامعًا يدخلُ فيه ما يعلمون وما لا يعلمونَ، كما ذكر نعيمَ الجنَّة، وسَمَّى منه ما نعلمُ ونشاهِدُ نظيرَه، كالنخلِ والأعنابِ والرمَّانِ، وأجملَ ما لا نعرِفُ له نظيرًا في قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢] فكذلك هنا؛ ذكَر ما نعرفُه من المراكبِ كالخيل والبغال والحميرِ، والإبل والسفُن، وأجملَ الباقيَ في قولِه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

المعنويَّةِ الدِّينيَّةِ، وكثيرًا ما يقَعُ في القرآنِ العُبورُ مِن الأمورِ الحسِّيَّةِ إلى الأمورِ المعنويَّةِ النَّافعةِ الدِّينيَّةِ، فلَمَّا ذكَر في هذه السُّورةِ الحيواناتِ مِن الأنعامِ وغيرِها، التي يركبونَها، ويَبلُغونَ عليها حاجةً في صُدورِهم، وتحمِلُ أثقالَهم إلى البلادِ، والأماكنِ البَعيدةِ، والأسفارِ الشَّاقَّةِ؛ شرعَ في ذِكرِ الطُّرُقِ التي يَسلُكُها النَّاسُ إليه(١).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وإلى اللهِ ينتهي طريقُ الحَقِّ المُستَقيمُ، فيُوصِلُ مَن سلَكه إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ [الليل: ١٢].

وعن عبدِ اللهِ بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧، ٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ: الواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ القيم، وابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: وعلى الله بيانُ طريقِ الحَقِّ المستقيمِ. وممن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، ونسَبه الواحدي إلى أكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢-٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨١). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٧٧).

عليه وسلَّم خطًّا ثم قال: هذا سبيلُ اللهِ؛ ثم خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه؛ ثم قال: هذه سُبُلٌ- قال يَزيدُ [هو ابنُ هارونَ أحدُ رواةِ الحديثِ]: مُتفَرِّقةٌ- على كُلِّ سبيلٍ منها شَيطانٌ يدعو إليه، ثمَّ قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]))[١].

﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾.

أي: ومِن الطُّرُقِ المَسلوكةِ طُرُقٌ مُعوَجَّةٌ، غيرُ مُستقيمةٍ، لا تُوصِلُ سالِكَها إلى اللهِ، ونَيلِ رِضاه وجَنَّتِه[٢].

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ الخَلقِ ضالًّا، كان ربَّما توهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّه خارِجٌ عن الإرادةِ، فنفَى هذا التوهُّمَ بقَولِه- عَطفًا على ما تقديرُه: فمَن شاء هَداه قَصْدَ السَّبيلِ، ومن شاء أسلَكَه الجائِرَ، وهو قادِرٌ على ما يُريدُ مِن الهدايةِ والإضلالِ[٣].

﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لَهَداكم جميعًا- أيُّها النَّاسُ- إلى سُلوكِ الطَّريقِ المُستَقيمةِ،

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٤٢) واللفظ له، والدارمي (٢٠٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٧٤)، وابن حبان (٧).

ذكر ابنُ القيِّم في ((طريق الهجرتين)) (١٥٢) أنَّه ثابتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٦/ ٨٩)، وصحَّحه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٤/ ٢٨١)، والألباني في ((شرح الطحاوية)) (٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٥-١١٦).

ولكِن اقتَضَت حِكمتُه أن يهديَ مَن يشاءُ بفَضلِه، ويُضِلَّ مَن يشاءُ بعَدلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ عبَّرَ عن نَسلِها ودَرِّها بلَفظِ المَنفعةِ، وهو اللَّفظُ الدَّالُّ على الوَصفِ الأعَمِّ؛ لأنَّ النَّسلَ والدَّرَّ قد يُنتفَعُ به في الأكلِ، وقد يُنتفَعُ به في البَيعِ بالنُّقودِ، وقد يُنتفَعُ به بأن يُبدَّلَ بالثِّيابِ وسائرِ الضَّروريَّاتِ، فعبَّرَ عن جُملةِ هذه الأقسامِ بلَفظِ المَنافِعِ؛ ليتناولَ الكُلَّ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ناسبَ الامتنانَ بهذه النِّعمةِ- مِن حَملِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

الأثقالَ- الخَتمُ بصِفةِ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ لأنَّ مِن رأفتِه تَيسيرَ هذه المصالحِ، وتَسخيرَ الأنعامِ لكم[١].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ السَّفرِ بالدَّوابِّ وحملِ الأثقالِ عليها، ولكنْ على قدرِ ما تحتملُه مِن غيرِ إسرافٍ في الحملِ معَ الرِّفقِ في السَّيرِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ الحَملِ على البَقَرِ ورُكوبِها[٣]، على اعتبارِ أنَّ الضميرَ يعودُ على الإبلِ والبقرِ.

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعلَّلةٌ بالمَصالحِ والحِكَم؛ فظاهِرُ هذه الآيةِ يقتضي أنَّ هذه الحَيواناتِ مَخلوقةٌ لأجلِ المَنفعةِ المَذكورةِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ قرنَ الخيلَ بالبِغالِ والحَميرِ، وأخذ المالكيَّةُ من الاقترانِ المذكورِ ردًّا على الحنفيَّةِ في قَولِهم بوُجوبِ الزَّكاةِ فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

ويُنظر: ((المقدمات الممهدات)) لابن رشد الجد (١/ ٣٢٣)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٢/ ١٨٣).

٧- في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ دليلٌ على جوازِ طَلَبِ العبدِ للجمالِ والزينةِ -إذا جُرِّدَ صاحبُها مِن الفخرِ والخيلاءِ؛ وأراد بهما إظهارَ نعمةِ اللهِ عليه- وأنَّه ليس بمؤَثِّرٍ في نُسكِ الناسكِ؛ وليس مِن الدنيا المذمومةِ؛ فقد جعلَه سبحانه في عِدَادِ النعمةِ على خَلْقِه[١].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، وقولِه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] دليلٌ على أنَّه يجوزُ لنا أنْ ننتفِعَ بالبهائمِ بجميعِ وجوهِ الانتفاعِ[٢].

٩- قال الله تعالى عن الأنعام: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، فلم يَذكُرِ الأكلَ؛ لأنَّ البِغالَ والحُمُرَ مُحَرَّمٌ أكلُها، والخيلَ لا تُستعمَلُ -في الغالبِ- للأكلِ، فلم يذكُرْ مِن منافعِ الخيلِ الأكلَ معَ أنَّه جائزٌ أكلُه، فقد ثبَت في الصَّحيحَينِ[٣]: ((أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أذِنَ في لُحومِ الخَيلِ))، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي أنْ تُجْعَلَ الخيلُ للأكلِ، وإنما تُجْعَلُ للركوبِ، وللزينةِ، وللجهادِ في سبيلِ اللهِ، أمّا الأكلُ فهناك ما يكفي عنها -وهي الأنعامُ-، فالإبلُ أكبرُ منها أجسامًا، وأكثرُ منها لحومًا، والبقرُ، والغنمُ، ولأنها لو اتُّخِذَتْ للأكلِ لَفَنِيَتْ، وبَطَلَ الانتفاعُ بها في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فهذه هي الحكمةُ -واللهُ أعلمُ- في أنها قُرِنَتْ بالبغالِ والحَميرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٥٢٩).

(٣) البخاري (٥٥٢٠)، ومسلم (١٩٤١) -واللفظ له- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٣٠).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ يُوحي بأنَّ هناك أشياءَ ستحدُثُ -لا نعْلَمُها- تُرْكَبُ، وهذا هو الواقعُ[1]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ.

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ يجوزُ أنْ يُعْطَفَ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ﴾ عطْفَ المُفرَدِ على المُفرَدِ عطفًا على ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ فيحصُلُ اعتبارٌ بهذا التَّكوينِ العجيبِ لِشَبَهِه بتكوينِ الإنسانِ، وتكونُ جُملةُ ﴿خَلَقَهَا﴾ بمُتعلِّقاتِها مُستأنَفةً؛ فيحصُلُ بذلك الامتنانُ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ، فيكونُ الكلامُ مُفيدًا للتَّأكيدِ؛ لقَصدِ تَقويةِ الحكمِ؛ اهتمامًا بما في الأنعامِ من الفوائدِ؛ فيكونُ امتنانًا على المُخاطَبينَ، وتعريضًا بهم[2].

- قولُه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ الخِطابُ صالحٌ لشُمولِ المُشركينَ، وهم المقصودُ ابتداءً مِن الاستدلالِ، وأنْ يشمَلَ جميعَ النَّاسِ، ولا سيَّما فيما تضمَّنَه الكلامُ من الامتنانِ، وفيه الْتفاتٌ من طَريقِ الغَيبةِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل: ٣] باعتبارِ بعضِ المُخاطَبينَ[3].

- وفي قولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ التَّعبيرُ بـ (مَنَافِعُ)

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عن دَرِّ الأنعامِ ورُكوبِها وحَملِها والحراثةِ بها وغيرِ ذلك؛ ليتناوَلَ الكلَّ مع أنَّه الأنسبُ بمَقامِ الامتنانِ بالنِّعمِ. وتَقديمُ الدِّفْءِ على المنافِعِ؛ لرعايةِ أُسلوبِ التَّرقِّي إلى الأعلى(١).

- وقدَّم الملبوسَ على المطعومِ؛ لأنَّ الملبوسَ أكثَرُ بقاءً مِن المطعومِ؛ فلهذا قَدَّمَه عليه في الذِّكرِ(٢).

- وخصَّ الدِّفْء بالذِّكرِ مِن بينِ عُمومِ المنافعِ؛ للعِنايةِ به(٣)، وأفرَدَ منفعةَ الأكلِ بالذكرِ؛ لأنَّها معظمُ المنافعِ(٤)، فمَنفعةُ الأكلِ ومنفعةُ الدِّفءِ مِن أعظَمِ المَنافِعِ(٥).

- قولُه: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ فيه: تقديمُ الظَّرفِ، وهو مُؤذِنٌ بالاختصاصِ، وقد يُؤْكَلُ مِن غيرِها؛ إلَّا أنَّ الأكلَ منها هو الأصلُ الَّذي يعتمِدُه النَّاسُ في معايِشِهم، وأمَّا الأكلُ مِن غيرِها، فكغيرِ المُعتدِّ به، وكالجاري مَجْرى التَّفكُّهِ. ويحتملُ أنَّ طُعمتَكم منها؛ لأنَّكم تَحرُثون بالبقرِ، فالحبُّ والثِّمارُ الَّتي تَأكُلونها منها، وتكتسِبونَ بإكراءِ الإبلِ، وتَبيعونَ نِتاجَها وألبانَها وجُلودَها(٦). وقيل: تَقديمُ المجرورِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

ومن أهلِ العلمِ مَن رد القولَ بأنَّ التَّقديمَ يُفيدُ الاختصاصَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٦).

للاهتمامِ؛ لأنَّهم شَديدو الرَّغبةِ في أكلِ اللُّحومِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[١].

- والإتيانُ بالمُضارِعِ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك مِن الأعمالِ المُتكرِّرةِ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾

- قوله: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ﴾ خَصَّ هذَينِ الوَقتينِ؛ لأنَّ وجهَ التجمُّلِ بها: أنَّ الرَّاعيَ إذا روَّحَها بالعَشيِّ، وسَرَّحها بالغَداةِ تزيَّنَت عند تِلك الإراحةِ والتَّسريحِ الأفنيةُ، وتجاوَبَ فيها الثُّغاءُ والرُّغاءُ[٣]، وفرِحَت أَربابُها، وعظُمَ وقعُهم عند الناسِ؛ بسَبب كونِهم مالكينَ لها، ولأنَّ هذَينِ الوَقتينِ هما وقتُ نَظَرِ النَّاظِرينَ إليها؛ لأنَّها عند استقرارِها في الحظائِرِ لا يَراها أحَدٌ، وعند كَونِها في مَراعيها هي متفَرِّقةٌ غيرُ مُجتَمِعةٍ؛ كُلُّ واحدٍ منها يَرعَى في جانبٍ[٤].

- وقُدِّمَت الإراحةُ على التَّسريحِ لوجوهٍ:

منها: أنَّ الجَمالَ في الإراحةِ أكثَرُ؛ لأنَّها تُقبِلُ وقد نالت حاجتَها من الأكلِ والشُّربِ، مَلأى البُطونِ، حافلةَ الضُّروعِ، أعظمُ ما تكونُ أسنمةً، مَرِحةً بمسَرَّةِ الشِّبَعِ، ومَحبَّةِ الرُّجوعِ إلى منازلِها مِن معاطِنَ ومَرابِضَ، ثم اجتَمَعت في الحظائِرِ حاضِرةً لأهلِها، قد توفَّر حسنُها، وعظُم شأنُها، وتعلَّقت القلوبُ بها؛ بخلافِ التَّسريحِ؛ فإنَّها عند خُروجِها إلى المرعى تخرُجُ جائِعةً عادِمةَ اللَّبنِ، ثم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الثُّغاء: صوتُ الشاءِ والماعزِ وما شاكَلهما. والرُّغاء: صوتُ ذواتِ الخُفِّ، كالإبل. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٩٣) و(٦/ ٢٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٨).

تأخُذُ في التفَرُّقِ والانتشارِ، فظهَر أنَّ الجَمالَ في الإراحةِ أكثَرُ منه في التَّسريحِ؛ لتكاملِ درِّها، وسرورِ النفسِ بها إذ ذاك(١).

ومنها: أنَّ المنافِعَ منها إنَّما تُؤخَذُ بعد الرَّواحِ(٢).

- والإتيانُ بالمُضارعِ في ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك مِن الأحوالِ المُتكرِّرةِ، وفي تَكرُّرِها تكررُ النِّعمةِ بمَناظِرِها(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعلَّ تغييرَ النَّظمِ الكريمِ السَّابقِ الدَّالِّ على كونِ الأنعامِ مَدارًا للنِّعمِ السَّابقةِ إلى الجُملةِ الفعليَّةِ المُفيدةِ لمُجرَّدِ الحُدوثِ؛ للإشعارِ بأنَّ هذه النِّعمةَ ليست في العُمومِ -بحسَبِ المنشَأِ وبحسَبِ المُتعلَّقِ، وفي الشُّمولِ للأوقاتِ والاطِّرادِ في الأحيانِ المعهودةِ- بمَثابةِ النِّعمِ السَّالفةِ؛ فإنَّها بحسَبِ المنشَأِ خاصَّةٌ بالإبلِ، وبحسَبِ المُتعلَّقِ: بالضَّاربينَ في الأرضِ، المُتقلِّبينَ فيها للتِّجارةِ وغيرِها في أحايينَ غيرِ مُطَّرِدةٍ، وأمَّا سائرُ النِّعمِ المَعدودةِ فمَوجودةٌ في جميعِ أصنافِ الأنعامِ، وعامَّةٌ لكافَّةِ المُخاطَبينَ دائمًا، أو في عامَّةِ الأوقاتِ(٤).

- وأفاد قولُه: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ معنى: تحمِلُكم وتُبلِّغُكم، بطَريقةِ الكِنايةِ القريبةِ من التَّصريحِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٧٠-٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٦).

- وطابَقَ قولُه: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ قولَه: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾، ولم يقُلْ: (لمْ تكونوا حامِليها إليه)؛ لأنَّ طِباقَه مِن حيثُ إنَّ معناه: وتحمِلُ أثقالَكم إلى بلدٍ بعيدٍ قد علِمْتُم أنَّكم لا تبلُغونَه بأنفُسِكم إلَّا بجَهدٍ ومشقَّةٍ، فضلًا أنْ تَحمِلوا على ظُهورِكم أثقالَكم. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: لمْ تكونوا بالِغيه بها إلَّا بشِقِّ الأنفُسِ. وقيل: ﴿أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أجرامَكم[١].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَا﴾، أي: خلَقَها لهذه المنافِعِ؛ لأنَّه رَؤوفٌ رَحيمٌ بكم[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾

- اقتصَرَ على الرُّكوبِ؛ لأنَّه أعظَمُ منافِعِها[٣].

- قولُه: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ لم يَرِدِ المعطوفُ ﴿زِينَةٗ﴾ والمعطوفُ عليه مَحَلُّ ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ على سَنَنٍ واحدٍ، حيث لم يقُلْ: (ولتتزيَّنوا بها)؛ لأنَّ الرُّكوبَ فِعْلُ المُخاطَبين، وأمَّا الزِّينةُ ففِعْلُ الزَّائنِ[٤]، وهو الخالِقُ سُبحانَه وتَعالى[٥]. وقيل: التَّحقيقُ فيه أنَّ الرُّكوبَ هو المعتبرُ في المقصودِ، بخلافِ الزينةِ، فكأنَّه سبحانَه قال: خلقتُها لتركَبوها؛ فتَدْفَعوا عن أنفسِكم بواسطتِها ضررَ الإعياءِ والمشقَّةِ، وأمَّا التَّزيُّنُ بها فهو حاصلٌ في نفسِ الأمرِ، ولكنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٠٨).

(٤) ليس هذا مِن بابِ التسميةِ للهِ تعالَى؛ فأسماءُ الله توقيفيةٌ، إنَّما هو إخبارٌ عنه سبحانَه، وهو أوسعُ مِن بابِ الأسماءِ والصفاتِ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٥).

غيرُ مقصودٍ بالذَّاتِ[١].

- وفيه تأخيرُ الزِّينةِ عن الرُّكوبِ؛ لكونِ الرُّكوبِ أهمَّ منه[٢].

- قولُه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه العُدولُ إلى صِيغَةِ الاستقبالِ؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، أو لاستحضارِ الصُّورةِ، أو يخلُقُ لكم في الجنَّةِ غيرَ ما ذُكِرَ مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ[٣]. وقيل: إنَّ ﴿يَخْلُقُ﴾ مُضارعٌ مُرادٌ به زمنُ الحالِ لا الاستقبالِ، أي: هو الآن يخلُقُ ما لا تعلمونَ أيُّها النَّاسُ ممَّا هو مَخلوقٌ لنَفعِهم وهم لا يَشعُرون به، فكما خلَقَ لهم الأنعامَ والكُراعَ، خلَقَ لهم ويخلُقُ لهم خلائقَ أُخرى لا يَعلمونها[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ اقتضَتِ اعتراضَها مُناسبةُ الامتنانِ بنِعمةِ تَيسيرِ الأسفارِ بالرَّواحلِ والخيلِ والبغالِ والحميرِ، وإضافةُ ﴿قَصْدُ﴾ إلى ﴿السَّبِيلِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، وهي صِفةٌ مُخصِّصةٌ؛ لأنَّ التَّعريفَ في ﴿السَّبِيلِ﴾ للجنسِ[٥].

- قولُه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ فيه إيثارُ حَرفِ الاستعلاءِ على أداةِ الانتهاءِ (إلى)؛ لتأكيدِ الاستقامةِ على وَجهٍ تَمثيليٍّ مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك استعلاءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١١- ١١٢).

لشَيءٍ عليه سُبحانَه وتَعالى عنه عُلوًّا كبيرًا، كما في قولِه تَعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[1] [الحجر: ٤١].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٠).

الآيات (١٠-١٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ
(١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ
وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) وَمَا
ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ
(١٣) وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ
تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ
تَشۡكُرُونَ (١٤) وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ
تَهۡتَدُونَ (١٥) وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٨) ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُسِيمُونَ﴾: أي: تَرعَونَ أنعامَكم، وأصلُ (سوم): يدُلُّ على طلَبِ الشَّيءِ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخِيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدلُّ على استذلالٍ[2].

﴿ذَرَأَ﴾: أي: خلَق؛ يُقالُ: ذرأ اللهُ الخَلقَ: أي: أظهَرهم بالإيجادِ بعد العدَمِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

وأصلُ (ذرأ): يدُلُّ على الإظهارِ(١).

﴿مَوَاخِرَ﴾: أي جواريَ تَشُقُّ الماءَ مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتحٍ(٢).

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدلُّ على ثباتٍ(٣).

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تَضطَرِب، وتتحَرَّك يَمنةً ويَسرةً، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ في شَيءٍ(٤).

﴿وَسُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، وسُمِّي الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شيءٍ(٥).

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: أي: مَعالمَ للطُّرُقِ نَهارًا، وأصلُ (علم): يدلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٥٦٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٣)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٥).

يتميَّزُ به عن غَيرِه[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: اللهُ الذي أنزلَ لكم مِن السَّحابِ مطَرًا، فجعلَ لكم منه ماءً تَشرَبونَه، وأخرجَ لكم به شجَرًا تَرعَونَ فيه أنعامَكم، يُخرِجُ لكم بهذا الماءِ الزُّروعَ والزَّيتونَ والنَّخيلَ والأعنابَ، ومِن كلِّ أنواعِ الثِّمارِ والفَواكِه. إنَّ في ذلك الإنباتِ لدَلالةً واضِحةً لِقَومٍ يتأمَّلونَ فيَعتَبِرونَ. وسخَّر لكم اللَّيْلَ لراحتِكم، والنَّهارَ لِمَعاشِكم، وسخَّرَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ؛ لِمَعرفةِ السِّنينَ والحِسابِ، وغيرِ ذلك من المنافِعِ، والنُّجومُ في السَّماءِ مُذَلَّلاتٌ لكم بأمْرِ اللهِ؛ لتَهتَدوا بها في ظلُماتِ البرِّ والبحرِ. إنَّ في ذلك التَّسخيرِ لَدلائلَ واضِحةً لقومٍ يَعقِلونَ. وسخَّر ما بثَّه لكم في الأرضِ مِن الدوابِّ والثِّمارِ وغيرِ ذلك ممَّا تختلِفُ ألوانُه ومَنافِعُه، إنَّ في ذلك لَعِبرةً لقَومٍ يتَّعِظونَ.

وهو الذي سخَّر لكم البَحرَ لتأكُلوا منه سَمكًا طَريًّا، وتَستخرِجوا منه زينةً -من اللآلِئِ وغيرِها- تَلبَسونَها. وترى السُّفُنَ تشُقُّ الماءَ حالَ جَرَيانِها، فيُسمَعُ لذلك صوتٌ، ولتَطلُبوا رِزقَ اللهِ، ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ تعالى على نِعَمِه العظيمةِ، فلا تعبُدونَ غيرَه. وجعَلَ في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُها حتى لا تَضْطَرِبَ بكم، وجعلَ فيها أنهارًا لتشربُوا منها، وتسقيَ أنعامَكم وحرثَكم، وجعل فيها طُرُقًا لتهتَدوا بها في الوُصولِ إلى الأماكنِ التي تُريدونها، وجعل في الأرضِ معالِمَ تَستدِلُّونَ بها على الطُّرُقِ نَهارًا، كما جعل النُّجومَ للاهتداءِ بها ليلًا. أفمن يخلُقُ مِثلَ تلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

المخلوقاتِ، كمَن لا يخلُقُ شيئًا؟! أفلا تتذكَّرونَ نِعمةَ اللهِ عليكم، فتُفرِدوه بالعبادةِ؟! وإن تعدُّوا نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تَستطيعوا حَصرَها؛ لكَثرتِها وتنوُّعِها، إنَّ اللهَ لَغفورٌ لكم رَحيمٌ بكم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لمَّا قرَّر اللهُ تعالى الاستدلالَ على وجودِ الصَّانعِ الحكيمِ بعجائبِ أحوالِ الحيواناتِ؛ أتبَعَه في هذه الآيةِ بذِكرِ الاستدلالِ على وجودِ الصَّانِعِ الحكيمِ بعجائبِ أحوالِ النَّباتِ(١).

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا امتَنَّ بإيجادِهم بعدَ العدَمِ، وإيجادِ ما ينتَفِعونَ به من الأنعامِ وغَيرِها مِن الرُّكوبِ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به عليهم مِن إنزالِ الماءِ الذي هو قِوامُ حياتِهم، وحياةِ الحيوان، وما يتولَّدُ عنه من أقواتِهم وأقواتِها من الزَّرعِ(٢).

وأيضًا لَمَّا كان ما مضَى كفيلًا ببيانِ أنَّه -تعالى- الواحِدُ المُختارُ؛ شرَعَ يوضِّحُ ذلك بتفصيلِ الآياتِ إيضاحًا يدَعُه في أتمِّ انكشافٍ في سياق مُعَدِّدٍ للنِّعَم، مُذَكِّرٍ بها، داعٍ إلى شُكرِها، فقال بعدما دَلَّ به من الإنسانِ، وما يليه في الشَّرفِ مِن الحيوانِ، مُبتدِئًا بما يليهما في الشَّرَف من النباتِ(٣):

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٦).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾.

أي: اللهُ الذي أنعَمَ بكُلِّ تلك النِّعَمِ، هو الذي أنزلَ مِن السَّحابِ مطَرًا[١].

﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾.

أي: لكم مِن المطَرِ ماءٌ عَذْبٌ تَشرَبونَه، وأخرج اللهُ لكم به شجرًا تَرعَونَ فيه أنعامَكم[٢].

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكر - تعالى - الحيواناتِ تفصيلًا وإجمالًا، ذكرَ الثِّمارَ تفصيلًا وإجمالًا[٣].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان الشَّجَرُ عامًّا، شرع سبحانَه يفَصِّلُه تنويعًا للنِّعَم، وتذكيرًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

قال الشنقيطي: (﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾، أَيْ: ترعَوْنَ مواشِيَكم السَّائمةَ في ذلك الشَّجرِ الَّذي هو المرعَى. والعربُ تُطلِقُ اسمَ الشَّجرِ على كلِّ ما تُنبِتُه الأرضُ مِنَ المرعَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٤٠).

وقال الرسعني: (﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ على حذفِ المضافِ، أي: ومنه شربُ شجرٍ، أو يكونُ المعنى: ومنه ينشأُ الشجرُ ويتكوَّنُ. فعلى المعنى الأوَّلِ: «من» للتبعيضِ، وعلى الثاني: لابتداءِ الغايةِ. والمرادُ به: الشجرُ الذي ترعاه المواشي، لقولِه: ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾، أي: ترعَوْن). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٢٠).

بالتَّفاوُت؛ إشارةً إلى أنَّ الفعلَ بالاختيارِ، فقال مُبتَدِئًا بالأنفَعِ في القُوتيَّةِ والائتدامِ والتَّفَكُّهِ(١):

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ ﴾.

أي: يُخرِجُ اللهُ لكم بماءِ المطَرِ أنواعَ الزُّروعِ، والزَّيتونَ، والنَّخيلَ، والأعنابَ(٢).

﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

أي: ويخرِجُ لكم به مِن كُلِّ أنواعِ الفَواكِهِ أنواعًا أخرى غيرَ ذلك(٣).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّ في إنباتِ اللهِ أنواعَ الزُّروعِ والثِّمارِ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتفكَّروا في مَخلوقاتِ الله، وما أقامه من الحُجَجِ، فيَستَدِلُّوا بها على وحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وعلى رَحمتِه، وأنَّه المُبدِعُ الحَكيمُ الذي أنبت أصنافًا مختلفةً مِن ماءٍ واحدٍ(٤).

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

قال ابن كثير: (يُخرِجُها من الأرضِ بهذا الماء الواحِد، على اختلافِ صنوفِها، وطُعومِها، وألوانِها، وروائِحِها، وأشكالِها). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٨-١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا احتَجَّ على إثباتِ وحدانيتِه في المَرتبةِ الأولى بأجرامِ السَّمواتِ، وفي المرتبةِ الثَّانيةِ ببَدَنِ الإنسانِ ونَفسِه، وفي المرتبةِ الثَّالثةِ بعجائِبِ خِلقةِ الحيواناتِ، وفي المرتبةِ الرابعةِ بعجائبِ أحوالِ النَّباتِ؛ ذكَرَ في المرتبة الخامسةِ الاستدلالَ بعجائبِ أحوالِ العناصرِ، فبدأ منها بالاستدلالِ بعُنصرِ الماءِ(١).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم- أيُّها النَّاسُ- اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فالليلُ لسُكونِكم وراحتِكم، والنهارُ لانتِشارِكم في مَعايِشِكم ومنافعِكم، وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ باستمرارٍ؛ لتحقيقِ مَنافِعِكم ومصالِحِكم؛ كمعرفةِ الأوقاتِ، ونُضجِ الثِّمارِ، وغيرِ ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

أي: والنُّجومُ مُذَلَّلاتٌ لكم في السَّماءِ، تجري في فَلَكِها بإذنِ اللهِ؛ لتَهتَدوا بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الليلَ والنهارَ، والشمسَ والقمرَ والنجومَ، لدَلالاتٍ واضحاتٍ لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يفهَموا عن اللهِ ما أخبَرَ به من الحُجَجِ والدَّلالاتِ على قُدرتِه العظيمةِ وغَيرِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٦].

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما نبَّه سبحانَه على معالِمِ السمواتِ؛ نبَّه على ما خَلَق في الأرضِ مِن الأمورِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١).

العجيبةِ والأشياءِ المختلفةِ، مِن الحيواناتِ والمعادنِ والنَّباتاتِ والجماداتِ[(١)] فقال:

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾.

أي: وسخَّر اللهُ لكم ما بثَّ ونشَرَ في الأرضِ، كالدَّوابِّ والثِّمارِ والنَّباتِ، والمعادنِ والجماداتِ، مُختلِفًا ألوانُها، مُتعَدِّدًا أصنافُها وأشكالُها ومَنافِعُها[(٢)].

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

أي: إنَّ فيما ذرأ اللهُ في الأرضِ مُختَلِفًا ألوانُه لَدَلالةً وعِبرةً لِمَن شأنُهم وعادتُهم أن يتَّعِظوا فيستدلُّوا بذلك على وحدانيَّةِ اللهِ، وكمالِ قُدرتِه، وسَعةِ رَحمتِه، ويَشكُروه على نِعَمِه[(٣)].

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١].

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦١، ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى الاستدلالَ بما ذرأ في الأرضِ، ذكر ما امتَنَّ به من تسخيرِ البَحرِ[١]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

أي: والذي أنعمَ عليكم بتلك النِّعَمِ، هو اللهُ -وَحدَه- الذي ذلَّلَ لكم البَحرَ -مِلْحًا كان أو عَذبًا- كي تأكُلوا منه سَمكًا طَرِيًّا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

أي: ولِتَستخرِجوا منه اللآلئَ وغيرَها، فتتزَيَّنوا بلُبسِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾.

أي: وترَى[٤] السُّفُنَ جاريةً في البحرِ، وهي تشقُّ المياهَ والرِّياحَ بصَدرِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال ابن عطية: (تسخيرُ البحر هو تمكينُ البشَرِ مِن التصرُّفِ فيه، وتذليلُه للرُّكوبِ والإرفاقِ وغَيرِه، والبحرُ: الماءُ الكثيرُ، مِلحًا كان أو عذبًا، كلُّه يسمَّى بحرًا، والبحرُ هنا: اسمُ جِنس). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٤) خطابُ المفردِ هنا ﴿وَتَرَى﴾ المرادُ به كلُّ مَن يصلحُ للخطابِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٥٦).

فيُسمَعُ لِجَرِيها صوتٌ، فتَستَدِلُّونَ بعدَمِ رُسوبِها وغَرَقِها في الماءِ -مع ثِقَلِها ومُيوعةِ الماءِ ورِقَّتِه وشِدَّةِ لطافتِه- على وحدانيَّةِ الإلهِ وقُدرتِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: وسخَّر اللهُ لكم البحرَ لحملِ السُّفنِ؛ لتركبوها في طلبِ معايشِكم، وتنقلوا عليها البضائعَ مِن بلدٍ إلى بلدٍ؛ طلبًا للرزقِ مِن فضلِ الله[2].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وسخَّر الله لكم هذه المَخلوقاتِ؛ لعلَّكم تَشكُرونَ نِعَمَ اللهِ بالثَّناءِ عليه، وطاعتِه، وتوحيدِه[3].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: ومِن نِعَمِ اللهِ عليكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ جعلَ في الأرضِ جِبالًا تُثَبِّتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

الأرضَ؛ لئلَّا تضطَرِبَ بكم، وتتحَرَّكَ يمينًا وشِمالًا[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْهَارًا﴾.

أي: وجعل اللهُ في الأرضِ أنهارًا تجري بالماءِ مِن مَوضعٍ إلى آخَرَ؛ لِسَقيِ النَّاسِ، والأنعامِ، والحَرثِ[(٢)].

﴿وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: وطُرُقًا مُيسَّرةً وممتَدَّةً، تَسلُكونَها بيُسرٍ وسُهولةٍ في قضاءِ حوائِجِكم، وطلَبِ مَعايشِكم وغيرِها؛ رحمةً بكم؛ لِتهتَدوا بهذه الطُّرُقِ إلى كلِّ موضعٍ تُريدونَ الوصولَ إليه، فلا تَضِلُّوا، ولا تتحَيَّروا[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر أنَّه أظهَر في الأرضِ سُبُلًا مُعَيَّنةً؛ ذكَر أنَّه أظهَر فيها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال السعدي: (ومِن رحمتِه تعالى أنْ جعَلَ فيها أنهارًا على وجهِ الأرضِ، وأنهارًا في بطنِها يستخرجونَها بحَفرِها، حتى يصِلوا إليها فيَستخرجوها بما سخَّر اللهُ لهم من الدَّوالي والآلاتِ ونحوِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

علاماتٍ مخصوصةً؛ حيث يتمَكَّنُ المكَلَّفُ مِن الاستدلالِ بها، فيَصِلُ بواسطتِها إلى مَقصودِه، فقال[1]:

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾.

أي: وجعلَ لكم -أيُّها النَّاسُ- معالِمَ، كالجِبالِ وغَيرِها، تَستدِلُّونَ بها نهارًا، ونجومًا تستدِلُّونَ بها ليلًا على طُرُقِكم في أسفارِكم[2].

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الدلائِلَ الدالَّةَ على وجودِ القادِرِ الحكيمِ على التَّرتيبِ الأحسَنِ، والنَّظمِ الأكمَلِ، وكانت تلك الدلائِلُ كما أنَّها كانت دلائِلَ، فكذلك أيضًا كانت شَرحًا وتفصيلًا لأنواعِ نِعَمِ الله تعالى، وأقسامِ إحسانِه؛ أتبَعَه بذِكرِ إبطالِ عِبادةِ غَيرِ الله تعالى، والمقصودُ أنَّه لَمَّا دلَّت هذه الدَّلائلُ الباهرةُ، والبيِّناتُ الزَّاهِرةُ القاهرةُ على وجودِ إلهٍ قادرٍ حكيمٍ، وثبَت أنَّه هو المُولي لجميعِ هذه النِّعَم، والمُعطي لكُلِّ هذه الخَيراتِ، فكيف يَحسُنُ في العُقولِ الاشتغالُ بعبادةِ موجودٍ سواه؟! لا سيَّما إذا كان ذلك الموجودُ جَمادًا لا يَفهمُ ولا يَقدِرُ؛ فلهذا الوجهِ قال بعدَ تلك الآياتِ[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٣٩، ٧٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

قال ابن جرير: (كلُّ علامةٍ استدلَّ بها الناسُ على طرُقِهم وفِجاجِ سُبُلِهم فداخِلٌ في قولِه: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٢).

﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾.

أي: أفمن يخلُقُ مِثلَ تلك المخلوقاتِ العَجيبةِ التي أنعَمَ عليكم بها- وهو الله- كمَن لا يَخلقُ شَيئًا لا قليلًا ولا كثيرًا، ولا يُنعِمُ عليكم بشيءٍ، فتُشرِكونَ معه في العبادةِ غيرَه(١)؟!

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أفلا تتذكَّرونَ- أيُّها المُشرِكونَ- نِعَمَ اللهِ عليكم، وعظيمَ سُلطانِه وقُدرتِه، وعجْزَ مَعبوداتِكم، وأنَّها لا تجلِبُ نفعًا، ولا تَدفَعُ ضُرًّا، فتَعرِفوا بذلك خطأَ ما أنتم عليه مِن الشِّركِ باللهِ، وتَعرِفوا أنَّ المُنفَرِدَ بالخَلقِ أحَقُّ بالعبادةِ كُلِّها، فتُخلِصوا العبادةَ له(٢)؟!

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن بالآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّ الاشتغالَ بعِبادةِ غيرِ الله باطِلٌ وخَطأٌ؛ بيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ العبدَ لا يُمكِنُه الإتيانُ بعبادةِ الله تعالى، وشُكرِ نِعَمِه، والقيامِ بحُقوقِ كَرَمِه، على سبيلِ الكَمالِ والتَّمامِ، بل العبدُ وإن أتعَبَ نفسَه في القيامِ بالطَّاعاتِ والعباداتِ، وبالغ في شُكرِ نِعمةِ الله تعالى؛ فإنَّه يكونُ مُقَصِّرًا(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٤).

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾.

أي: وإن تعُدُّوا- أيُّها النَّاسُ- نِعَمَ اللهِ عليكم، لا تُطيقوا إحصاءَ عَدَدِها، فضلًا عن شُكرِها[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانوا مُستحِقِّينَ لسَلبِ النِّعَمِ بالإعراضِ عن التَّذكيرِ، والعمَى عن التبَصُّرِ؛ أشار إلى سبَبِ إدرارِها، فقال تعالى[٢]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يتجاوزُ عن عبادِه تقصيرَهم في شُكرِ نِعَمِه، رحيمٌ بهم، لا يقطَعُ عنهم إحسانَه، ولا يُعذِّبُهم بسبَبِ تَقصيرِهم، يرضى من عبادِه الشُّكرَ القَليلَ، ويُجازيهم عليه الثَّوابَ الكثيرَ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٧).

قال ابن كثير: (ولو طالبَكم بشُكرِ جميعِ نِعَمِه لعَجَزتُم عن القيام بذلك، ولو أمرَكم به لضَعُفتُم وتركتُم، ولو عذَّبكم لعذَّبكم وهو غيرُ ظالمٍ لكم، ولكنَّه غفورٌ رحيمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ أي: لا تَضبِطوا عدَدَها، ولا تبلُغُه طاقتُكم، فضلًا أنْ تُطِيقوا القِيامَ بحَقِّها من أداءِ الشُّكرِ، وقد أتبَعَ بذلك ما عدَّدَ مِن نِعَمِه؛ تنبيهًا على أنَّ وراءها ما لا ينحصِرُ ولا يَنعَدُّ[١]. وفيه إيماءٌ إلى الاستكثارِ مِن الشُّكرِ على مُجمَلِ النِّعَمِ، وتعريضٌ بفظاعةِ كُفرِ مَن كَفَروا بهذا المُنعِم، وتغليظُ التَّهديدِ لهم[٢].

٢- تأمَّلْ خلْقَ الأرضِ على ما هي عليه حينَ خَلَقَها واقِفةً ساكِنةً؛ لتكونَ مِهادًا ومُستقَرًّا للحيوانِ والنباتِ والأمتعةِ، ويتمكَّنَ الحيوانُ والنَّاسُ من السَّعيِ عليها في مآرِبِهم، والجلوسِ لراحاتِهم، والنَّومِ لِهدوئِهم، والتمكُّنِ مِن أعمالِهم، ولو كانت رجراجةً مُتكفِّئةً لم يستطيعوا على ظهرِها قرارًا، ولا ثَبَت لهم عليها بناءٌ، ولا أمكَنَهم عليها صناعةٌ ولا تجارةٌ ولا حِراثةٌ ولا مصلحةٌ، وكيف كانوا يتهنَّون بالعيشِ، والأرضُ ترتَجُّ من تحتِهم؟! واعتَبِرْ ذلك بما يصيبُهم من الزلازلِ على قِلَّةِ مُكثِها، كيف تصَيِّرهم إلى تَركِ منازِلِهم، والهَرَبِ عنها؟! وقد نبَّه اللهُ تعالى على ذلك بقَولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا ﴾[٣] [غافر: ٦٤].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أتَى بلَفظِ (مِن) التي للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كُلَّ الثَّمَراتِ لا تكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٧).

إلَّا في الجنَّةِ، وإنَّما أُنبتَ في الأرضِ بعضٌ مِن كُلِّها للتَّذكِرةِ[١]. وفيه وجهٌ آخر: أنَّه قُصِدَ منها تنويعُ الامتنانِ على كلِّ قَومٍ بما نالَهم مِن نِعَمِ الثَّمَراتِ، وإنما لم تدخُلْ على الزَّرعِ، وما عُطِفَ عليه؛ لأنَّها من الثَّمَراتِ التي تَنبُتُ في كُلِّ مَكانٍ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أفرد (الآيَة)؛ لِوَحدةِ المحَدَّثِ عنه، وهو الماءُ[٣]، فتوحيدُ (الآيةِ) لأنَّ موضِعَ الدَّلالةِ واحِدٌ، وهو الماءُ الذي أنزله من السَّماءِ، فأخرج به كُلَّ ما ذكَرَه من الأرضِ، وهو على اختِلافِ أنواعِه لِقاحُه واحِدٌ، وأمُّه واحدةٌ، فهذا نوعٌ واحدٌ مِن آياتِه[٤]!

٣- في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ دليلٌ على أنَّ الكَلَأَ مُباحٌ كماءِ السماءِ، لأنَّ الشجرَ- على أحدِ الأقوالِ- هو الكلأ؛ وقرَنَه في الآيةِ بالماءِ؛ وأَخبرَ أنَّا نُسِيمُ فيه، أي: نَرعى[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ فيه سؤالٌ: التَّسخيرُ عِبارةٌ عن القَهرِ والقَسرِ، ولا يليقُ ذلك إلَّا بمن هو قادِرٌ يجوزُ أن يُقهَرَ، فكيف يصِحُّ ذلك في اللَّيلِ والنَّهارِ، وفي الجماداتِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٣).
(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧).

والشَّمسِ والقَمَرِ؟

الجوابُ: أنَّ الله تعالى لَمَّا دبَّر هذه الأشياءَ على طريقةٍ واحدةٍ مُطابِقةٍ لمصالحِ العبادِ، صارت شبيهةً بالعبدِ المنقادِ المِطواعِ؛ فلهذا المعنى أُطلِقَ على هذا النَّوعِ مِن التدبيرِ لَفظُ التسخيرِ. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى يحَرِّكُ هذه الكواكِبَ، وهذه الحركةُ قَسريةٌ؛ فلهذا السَّبَبِ ورد فيها لَفظُ التَّسخيرِ(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ في ذِكرِ الطَّريِّ مَزيدُ فائدةٍ؛ وذلك لأنَّه لو كان السَّمَكُ كُلُّه مالِحًا، لَما عُرِفَ به مِن قُدرةِ الله تعالى ما يُعرَفُ بالطَّريِّ؛ فإنَّه لَمَّا خرَج من البَحرِ المِلحِ الزُّعاقِ الحَيوانُ الذي لَحمُه في غايةِ العُذوبةِ- عُلِمَ أنَّه إنَّما حدث لا بحسَبِ الطَّبيعةِ، بل بقُدرةِ اللهِ وحِكمتِه؛ حيث أظهَرَ الضِّدَّ مِن الضِّدِّ(٢).

٦- يجوز أكلُ القديدِ ممَّا في البحرِ بإجماعِ العلماءِ، وقَولُه تعالى: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ ليس له مفهومُ مخالفةٍ؛ لأنَّه ذكَر اللحمَ الطريَّ في معرضِ الامتنانِ، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يُقال: يُفهَمُ مِن التقييد بكونه طريًّا أنَّ اليابس- كالقديدِ- ممَّا في البحرِ لا يجوزُ أكلُه(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ التعبيرُ عنه باللَّحمِ مع كونِه حَيوانًا؛ للإشارةِ إلى قِلَّةِ عِظامِه، وضَعفِها في أغلَبِ ما يُصطادُ للأكلِ بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ المُمتَنِّ بالأكلِ منها فيما سبق. وقيل: للتَّلويحِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٨٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٨).
(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥)، (٢/ ٣٤٤).

بانحصارِ الانتفاعِ به في الأكلِ[(١)].

٨- في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ رُكُوبَ البحرِ للتجارة مُباحٌ، إذْ مُحالٌ أنْ يجعلَه في جُمْلَةِ النِّعَمِ؛ ويَضمَّ ذِكْرَه في المباحاتِ؛ ويَذْكُرَ ابتغاءَ فضْلِه جملةً فيه؛ ثم يَحْظُرَ رُكُوبَه في حالٍ دونَ حالٍ[(٢)]!

٩- قولُ الله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ فيه دليلٌ على إباحةِ لبسِ النساءِ والرجالِ حليةَ البحرِ مِن الجواهرِ ونحوِها[(٣)]؛ لأنَّ الله تعالى امتنَّ على الرجالِ والنِّساءِ امتنانًا عامًّا بما يخرجُ مِن البحرِ، فلا يَحرمُ عليهم شيءٌ منه، وإنما حرَّم الله تعالى على الرِّجال الذهبَ والحريرَ[(٤)].

١٠- في قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ دلالةٌ على أنَّ الغوصَ في استخراجِ حِلْيَةِ البحرِ مُباحٌ، ولا يكون تعرُّضًا للهلكة ومخاطرةً بالرُّوح!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٨٧). ويُنظر أيضًا: ((فقه اللباس والزينة)) إعداد الفريق العلمي بمؤسسة الدرر السنية (ص: ١٨٤).

قال الشوكاني: (ولا حاجةَ لما تَكَلَّفَه جماعَةٌ مِنَ المفسِّرينَ في تأويلِ قولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقولِه: تلبسُه نساؤُهم، لأنَّهنَّ من جملتِهم، أو لكونِهنَّ يلبَسْنَها لأجلِهم، وليس في الشَّريعةِ المطهَّرةِ ما يقتضي منعَ الرِّجالِ مِن التَّحلِّي باللُّؤلُؤِ والمَرجانِ، ما لم يستعمِلْه على صفةٍ لا يستعمِلُه عليها إلَّا النِّساءُ خاصَّةً، فإنَّ ذلك ممنوعٌ مِنْ جهةِ كونِه تشبُّهًا بهنَّ، وقد ورَد الشَّرعُ بمنعِه لا مِنْ جهةِ كونِه حليةَ لؤلُؤٍ أو مَرجانٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤).

ولكنَّ ذلك لِمَن يُحسِنُ العَوْمَ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استدلَّ به من قال: يحنَثُ الحالِفُ لا يلبَسُ حُلِيًّا بلُبسِ اللُّؤلؤِ؛ لأنَّه تعالى سمَّاه حُلِيًّا[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ ﴿أَلْقَىٰ﴾ أخَصُّ مِن (خلقَ) و(جعَلَ)؛ وذلك أنَّ ﴿أَلْقَىٰ﴾ تقتضي أنَّ الله أحدثَ الجِبالَ ليس من الأرضِ، لكِنْ مِن قُدرتِه واختِراعِه[٣]. وقيل: لمَّا كانت هذه المخلوقاتُ مَجعولةً كالتَّكملةِ للأرضِ، وموضوعةً على ظاهرِ سَطحِها، عبَّرَ عن خلقِها ووضْعِها بالإلقاءِ الَّذي هو رَمْيُ شَيءٍ على الأرضِ، ولعلَّ خَلْقَها كان مُتأخِّرًا عن خَلقِ الأرضِ، وأمَّا السُّبُلُ والعلاماتُ فتأخُّرُ وُجودِها ظاهرٌ، فصار خَلْقُ هذه الأربعةِ شبيهًا بإلقاءِ شَيءٍ في شَيءٍ بعدَ تمامِه[٤].

١٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا﴾ لما كان أكثَرُ الأنهارِ إنَّما تتفجَّرُ مَنابِعُها في الجبالِ؛ فلهذا السَّبَبِ لَمَّا ذكَرَ الله تعالى الجِبالَ أتبَعَ ذِكرَها بتَفجيرِ العُيونِ والأنهارِ[٥].

١٤- جُملةُ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ مُعترِضةٌ، وهو كلامٌ مُوجَّهٌ يصلُحُ للاهتداءِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ وقولُ أبي يوسفَ ومحمدِ بنِ الحسنِ مِن الحنفيةِ، خلافًا لأبي حنيفةَ، فيرَى أنَّ الأيمانَ على العُرفِ لا على استعمالِ القرآنِ. يُنظر ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٥)، ((التجريد)) للقدوري (١٢/ ٦٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

إلى المقاصِدِ في الأسفارِ؛ مِن رَسمِ الطُّرقِ، وإقامةِ المَراسي على الأنهارِ، واعتبارِ المسافاتِ، وكلُّ ذلك مِن جَعْلِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بإلهامِه، ويصلُحُ للاهتداءِ إلى الدِّينِ الحقِّ، وهو دِينُ التَّوحيدِ؛ لأنَّ في تلك الأشياءِ دَلالةً على الخالقِ المُنْفرِدِ بالخَلقِ(١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أصلٌ لِمُراعاةِ النُّجومِ لِمَعرفةِ الأوقاتِ والقِبلةِ والطُّرُقِ(٢).

١٦- في قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ دلالةٌ على اعتبارِ النجومِ دليلًا على القبلةِ في السفرِ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أطلقَ الاهتداءَ بالنجمِ، فالنجمُ يُهتدَى به على الجهاتِ لكلِّ غرضٍ(٣)، وكذلك مِن الفُقَهاءِ مَن يجعَلُ هذه الآية دليلًا على الاستدلالِ بالعَلاماتِ التي في الأرضِ، وهي الجِبالُ والرِّياحُ؛ لأنَّه كما يمكِنُ الاهتداءُ بهذه العلاماتِ في معرفةِ الطُّرُقِ والمَسالِكِ، فكذلك يُمكِنُ الاستدلالُ بها في مَعرفةِ طلَبِ القِبلةِ(٤).

١٧- الامتِنانُ بما في الأعيانِ مِن المَنافِعِ، وما يتعلَّقُ بها مِن الأفعالِ، هو أحدُ الأمورِ التي يُستفادُ منها الإباحةُ، وذلك نحو قَولِه تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا﴾ [النحل: ٨٠]، ونحو: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾(٥).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦).

أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُقِرُّونَ بنوعٍ مِن التوحيدِ الذي هو نفيُ خالِقِينَ سوى اللهِ تعالى، ولم يكونوا يُنازِعونَ في ذلك[١].

١٩- بيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّه أحقُّ بالكمالِ مِن غَيرِه، وأنَّ غَيرَه لا يُساويه في الكَمالِ في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقد بيَّنَ أنَّ الخَلقَ صِفةُ كَمالٍ، وأنَّ الذي يخلُقُ أفضَلُ مِن الذي لا يخلُقُ، وأنَّ مَن عدَلَ هذا بهذا فقد ظلَمَ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ دونَ ما يُعبَدُ مِن دونِه، وأنَّه لا مِثلَ له[٣]، فالتمثيل الذي هو اعتقادُ المُثْبِتِ أنَّ ما أَثْبَتَه مِن صفاتِ اللهِ تعالى مماثِلٌ لصفاتِ المخلوقين! هو اعتقاد باطل بدلالة السمع؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٤] [الشورى: ١١].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ هذا كلامٌ جامعٌ للتَّنبيهِ على وَفرةِ نِعَمِ اللهِ تعالى على النَّاسِ، بحيثُ لا يمكِنُ إحصاؤُها، وإذا كانت كذلك فقد حصَلَ التَّنبيهُ إلى كَثرتِها بمعرفةِ أصولِها وما يَحويها مِن العَوالِمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٠).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٢١).
(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٦).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ استئنافٌ لِذِكْرِ دليلٍ آخرَ مِن مظاهرِ بَديعِ خَلقِ اللهِ تَعالى، أُدْمِجَ فيه امتنانٌ بما يأتي به ذلك الماءُ العجيبُ مِن المنافعِ[1].

- وصِيغةُ تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ﴾ أفادتِ الحصرَ، أي: هو لا غيرُه، وهذا قَصرٌ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ لا يُنكِرون ذلك، ولا يَدَّعون له شريكًا في ذلك، ولكنَّهم لمَّا عَبَدوا أصنامًا لم تُنْعِمْ عليهم بذلك، كان حالُهم كحالِ مَن يدَّعي أنَّ الأصنامَ أنعَمَت عليهم بهذه النِّعمِ، فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن يدَّعي الشَّركةَ للهِ في الخَلقِ؛ فكان القصرُ قَصرَ إفرادٍ؛ تَخريجًا للكلامِ على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهرِ[2].

- قولُه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ فيه تأخُّرُ المفعولِ ﴿مَآءٗ﴾ عن المجرورِ؛ لأنَّ المقصودَ هو الإخبارُ بأنَّه أنزَلَ مِن السَّماءِ شيئًا هو الماءُ، لا أنَّه أنزَلَه مِن السَّماءِ، والسِّرُّ فيه: أنَّه عندَ تأخيرِ ما حَقُّه التَّقديمُ يَبْقَى الذِّهنُ مُترقِّبًا له، مُشتاقًا إليه؛ فيتمكَّنُ لديه عندَ وُرودِه عليه فضْلَ تمكُّنٍ[3].

- وقولُه: ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾ فيه تقديمُ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ، الَّذي يُوهِمُ حصرَ المشروبِ فيه، ولا بأْسَ به؛ لأنَّ مِياهَ العُيونِ والآبارِ منه؛ لقولِه: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]، وقولِه: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المؤمنون: ١٨][4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢١).

وقيل: ﴿لَّكُم﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿شَرَابٌ﴾؛ قُدِّمَ عليه للاهتمامِ(١).

- قولُه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ فيه إعادةُ حَرفِ الجرِّ (مِن) بعد واوِ العطفِ؛ لأنَّ حرفَ (مِن) هنا للابتداءِ، أو للسَّببيَّةِ؛ فلا يحسُنُ عطفُ ﴿شَجَرٌ﴾ على ﴿شَرَابٌ﴾(٢).

- وفي قولِه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ تَقديمُ ما يُسامُ فيه على ما يُؤكَلُ منه، وهو ما ذكَرَه في قولِه بعدُ: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأنَّ ما يُسامُ فيه سيصيرُ غِذاءً حَيوانيًّا، هو أشرَفُ الأغذيةِ(٣).

- ومِن الدَّقائقِ البلاغيَّةِ في قولِه: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: الإتيانُ بحرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ فالإسامةُ في الشجرِ تكونُ بالأكلِ منه، والأكلِ ممَّا تحتَه مِن العُشبِ(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ ...﴾ فيه إيثارُ صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُنۢبِتُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وأنَّها سُنَّتُه الجاريةُ على مَرِّ الدُّهورِ، أو لاستحضارِ صُورةِ الإنباتِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢١).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١).

- وقوله: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ ...﴾ لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ﴾؛ لأنَّه ليس ممَّا يَحصُلُ بنزولِ الماءِ وَحدَه، بل لا بُدَّ معه مِن زَرعٍ وغَرسٍ، وهذا الإنباتُ مِن دلائلِ عظيمِ القدرةِ الربانيَّةِ، فالغرضُ منه الاستدلالُ ممزوجًا بالتذكيرِ بالنعمةِ(١).

- وقولُه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرفَينِ ﴿لَكُم بِهِ﴾ على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾؛ لأنَّه عند تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ يَبقى الذِّهنُ مُترقِّبًا له، مُشتاقًا إليه؛ فيتمكَّنُ لديه عند وُرودِه عليه فضْلَ تمكُّنٍ، مع ما في تَقديمِ أوَّلِهما من الاهتمامِ به؛ لإدخالِ المَسرَّةِ ابتداءً. وتقديمُ ﴿ٱلزَّرۡعَ﴾ على ما عداه؛ لأنَّه أصلُ الأغذيةِ وعَمودُ المعاشِ، وهو قُوتُ أكثَرِ العالَمِ. وتقديمُ ﴿الزَّيْتُونَ﴾؛ لِمَا فيه من الشَّرفِ، من حيث إنَّه إدامٌ من وَجهٍ، وفاكهةٌ من وَجهٍ، بالإضافة إلى الاطِّلاءِ بدُهنِه إلى غيرِ ذلك من فوائدِه. وتقديمُ ﴿النَّخِيلَ﴾ على الأعنابِ؛ لظُهورِ أصالتِها وبَقائِها، ولأنَّ ثَمرتَه مِن أطيَبِ الفواكِهِ وقُوتٌ في بعضِ البلادِ. وجمْعُ ﴿الْأَعْنَابَ﴾؛ للإشارةِ إلى ما فيها مِن الاشتمالِ على الأصنافِ المُختلفةِ. وتَخصيصُ الأنواعِ المعدودةِ بالذِّكرِ مع اندراجِها تحت قولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ للإشعارِ بفَضلِها، لأنَّها أشرَفُ ما يَنبُتُ، وأجمَعُه للمنافِعِ. وتقديمُ الشَّجرِ عليها مع كونِه غِذاءً للأنعامِ؛ لحُصولِه بغيرِ صُنعٍ من البشَرِ، أو للإرشادِ إلى مكارمِ الأخلاقِ؛ فإنَّ مُقتضاها أنْ يكونَ اهتمامُ الإنسانِ بأمْرِ ما تحتَ يَدِه أكمَلَ مِن اهتمامِه بأمْرِ نفسِه، أو لأنَّ أكثَرَ المُخاطَبينَ مِن أصحابِ المواشي ليس لهم زَرعٌ ولا ثَمرٌ. وقيل: المُرادُ تَقديمُ ما يُسامُ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٤).

تَقديمُ غِذائِه؛ فإنَّه غِذاءٌ حَيوانيٌّ للإنسانِ وهو أشرفُ الأغذيةِ(١).

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تَذييلٌ، ونِيطَتْ دَلالةُ هذه بوَصفِ التَّفكيرِ؛ لأنَّها دَلالةٌ خَفيَّةٌ؛ لحُصولِها بالتَّدريجِ، وهو تعريضٌ بالمُشركينَ الَّذين لم يهتَدُوا بما في ذلك مِن دَلالةٍ على تفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، بأنَّهم قومٌ لا يتفكَّرونَ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذا انتقالٌ للاستدلالِ بإتقانِ الصُّنعِ على وَحدانيَّةِ الصَّانعِ وعِلْمِه، وإدماجٌ بين الاستِدلالِ والامتنانِ. ونِيطَتْ هذه الدَّلالاتُ بوَصْفِ العقلِ؛ لأنَّ أصلَ العَقلِ كافٍ في الاستِدلالِ بها على الوَحدانيَّةِ والقُدرةِ؛ إذ هي دَلائلُ بيِّنةٌ واضحةٌ حاصلةٌ بالمُشاهَدةِ كلَّ يومٍ وليلةٍ(٣).

- قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ الماضي ﴿سَخَّرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلك أمرٌ واحدٌ مُستمِرٌّ، وإنْ تجدَّدت آثارُه(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠١).

- قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ وصفَ اختلافَ ألوانِه؛ زيادةً للتَّعجيبِ. ولكونِ محَلِّ الاستدلالِ هو اختلافَ الألوانِ، مع اتِّحادِ أصلِ الذَّرءِ؛ أُفْرِدَت الآيةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾. ونِيطَ الاستدلالُ باختِلافِ الألوانِ بوَصفِ التَّذكُّرِ؛ لأنَّه استدلالٌ يحصُلُ بمُجرَّدِ تذكُّرِ الألوانِ المُختلفةِ؛ إذ هي مَشهورةٌ[(١)].

- وفي قولِه: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[النحل: ١١-١٣] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وحَّدَ (الآيةَ) أوَّلًا وآخرًا، وجمَعَها في المُتوسِّطِ، وفي كلِّ ذلك آياتٌ كثيرةٌ؛ ووجهُ ذلك:

أنَّه وحَّد الآيةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ موضعَ الدَّلالةِ واحدٌ، وهو الماءُ الَّذي أنزَله مِن السَّماءِ فأخرَج به كلَّ ما ذكَره مِن الأرضِ، وهو على اختلافِ أنواعِه لقاحُه واحدٌ وأُمُّه واحدةٌ، فهذا نوعٌ واحدٌ مِن آياتِه.

وجمعَ الآياتِ في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّها تضَمَّنت اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقمَرَ والنُّجومَ، وهي آياتٌ متعَدِّدةٌ مُختلِفةٌ في أنفُسِها وخَلقِها وكيفيَّاتِها؛ فإنَّ إظلامَ الجوِّ لغُروبِ الشَّمسِ ومَجيءِ اللَّيلِ الذي يلبِسُ العالَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٨).

كالثَّوبِ، ويَسكُنونَ تحتَه؛ آيةٌ باهرةٌ، ثمَّ ورود جَيشِ الضِّياءِ يَقدُمُه بَشيرُ الصَّباحِ، فيَنهَزِمُ عسكرُ الظَّلامِ وينتَشِرُ الحيوانُ وينكَشِطُ ذلك اللِّباسُ بجُملتِه؛ آيةٌ أخرى، ثمَّ في الشَّمسِ -التي هي آيةُ النَّهارِ- آيةٌ أخرى، وفي القمَرِ -الذي هو آيةُ اللَّيلِ- آيةٌ أخرى، وفي النُّجومِ آياتٌ أُخَرُ، هذا مع ما يَتبَعُها من الآياتِ المُقارِنةِ لها من الرِّياحِ واختلافِها، وسائِرِ ما يُحدِثُه اللهُ بسَبَبِها، آياتٌ أُخَرُ، فالموضِعُ مَوضِعُ جَمعٍ.

ووحَّد الآيةَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ لأنَّ ما ذَرَأ في الأرضِ على اختلافِه مِن الجواهِرِ والنباتِ والمعادنِ والحيوانِ كلِّه في محلٍّ واحدٍ، فهو نوعٌ مِن أنواعِ آياتِه، وإنْ تعدَّدتْ أصنافُه وأنواعُه[1]. وقيل غير ذلك[2].

- ومِن المناسَبةِ الحَسَنة أيضًا: أنَّه تَعالى قال في الأُولى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، وقال في الثَّانيةِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وفي الثَّالثةِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣]؛ ووجه ذلك: أنَّ التَّفكُّرَ إعمالُ النَّظرِ لتطلُّبِ فائدةٍ، وهذه المخلوقاتُ الَّتي تنجُمُ من الأرضِ إذا فكَّرَ فيها علِمَ أنَّ مُعظمَها ليس إلَّا للأكلِ، وأنَّ الأكْلَ به قِوامُ ذي رُوحٍ، وأنَّ المُنعَمَ عليه يحتاجُ أنْ يعرِفَ المُنعِمَ به؛ ليقصِدَ شُكرَ إحسانِه، فهذا مَوضِعُ تفكُّرٍ، بُعِث النَّاسُ عليه؛ ليُفْضِيَ بهم إلى المطلوبِ منهم. ولأنَّ إنباتَ الزَّرعِ والزَّيتونِ والنَّخيلِ والأعنابِ ومُختلَفِ الثَّمراتِ بالماءِ المُنزَّلِ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٢١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٦).

من السَّماءِ، مع كونِه واحدًا والمُنْبَتُ مُختلفَ الأنواعِ والطُّعومِ والمنافعِ: أمْرٌ يُوصَلُ إلى تعرُّفِه وارتباطِه باستِعمالِ الفِكْرِ في ذلك وإنْ لم يطُلْ، بشَرطِ السَّلامةِ من الغَفلةِ؛ فيحصُلُ بمُجرَّدِ الفِكْرِ على عظيمِ المُعتبَرِ؛ فختَمَ الآيةَ بالتَّفكيرِ.

وأمَّا تَعقيبُ ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما سخَّرَ في الهواءِ مِن الأنوارِ بقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ فلأنَّ مُتدبِّرَ ذلك أعلى رُتبةً مِن مُتدبِّرِ ما تَقدَّمَ؛ إذ كانتِ المنافعُ المَجعولةُ فيها أخفى وأغمَضَ؛ فمَن استدرَكَ الآياتِ فيها استحَقَّ الوصفَ بما هو أعْلَى مِن رُتبةِ المُتفكِّرِ المُتدبِّرِ؛ لأنَّه المَنزلةُ الثَّانيةُ الَّتي تُؤَدِّي إليها الفِكرةُ، وهو أنْ يعقِلَ مَطلوبَه منها، ويُدرِكَ فائدتَه منها؛ ففي تَسخيرِ الليلِ والنَّهارِ إلى ما ذُكِرَ معهما لا يُكتفَى في معرفة ذلك، والحصولِ على الاعتبارِ به بمُجرَّدِ الفِكرِ؛ فإنَّ العِلمَ بتسخيرِ هذه ممَّا يَغمُض ويَخفَى إلَّا على ذَوي البصائرِ والفِطنِ السَّليمةِ والعقولِ الراجحةِ، فوُصِفَ المعتبِرُ بها بما هو فَوقَ الفِكرِ؛ فقيل: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

وأمَّا الثَّالثةُ، وهي قولُه: ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ فلأنَّه لَمَّا نبَّهَ في الأُوليَينِ على إثباتِ الصَّانعِ، نبَّهَ في الثَّالثةِ على أنَّه لا شِبْهَ له ممَّا صنَعَ؛ لأنَّ مَن رأى المخلوقاتِ أصنافًا مُزْدَوجةً مُؤتلِفةً أو مُختلِفةً نَفى عنه صِفاتِها، وعلِمَ أنَّ خالقَها يُخالِفُها، لا يُشبِهُها ولا تُشبِهُه؛ فيَعْلَمَ بعدَ العِلمِ بما تقدَّمَ أنَّه لا صاحِبةَ له ولا ولَدَ، ولا مُشْبِهَ له فيما أنشَأَ وبرَأَ، إذا تذكَّرَ حالَه فيها اتَّفقَ منه واختلَفَ؛ فقَصدُ التذكير هنا كافٍ في حُصولِ الاعتبارِ بذلك؛ فورَدَ كلُّ خِتامِ آيةٍ على أَجَلِّ مُناسَبةٍ، وكلُّ آيةٍ مِن هذِه الثَّلاثِ لا يُناسِبُها إلَّا ما أُعقِبَ به[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٢٥-٨٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن))

- وقيل: وَجهُ اختلافِ الأوصافِ في قولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وقولِه: ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾: أنَّ ذلك لمُراعاةِ اختلافِ شِدَّةِ الحاجةِ إلى قُوَّةِ التَّأمُّلِ، فدَلالةُ المخلوقاتِ النَّاجمةِ عن الأرضِ يحتاج إلى التَّفكُّرِ؛ وهو إعمالُ النَّظرِ المُؤَدِّي إلى العلمِ. ودلالةُ ما ذرَأه في الأرضِ مِن الحيوانِ مُحتاجةٌ إلى مَزيدِ تأمُّلٍ في التَّفكيرِ للاستِدلالِ على اختلافِ أحوالِها وتناسُلِها وفوائدِها، فكانت بحاجةٍ إلى التَّذكُّرِ؛ وهو التَّفكُّرُ مع تذكُّرِ أجناسِها واختلافِ خَصائصِها. وأمَّا دَلالةُ تَسخيرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والعوالِمِ العُلويَّةِ؛ فلأنَّها أدَقُّ وأحوجُ إلى التَّعمُّقِ. وعُبِّرَ عنِ المُستدِلِّين عليها بأنَّهم يَعْقِلون، والتَّعقُّلُ هو أعلى أحوالِ الاستدلالِ[١]. وقيل: ذُكِرَ العقلُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ الآثارَ العُلويَّةَ أظهَرُ دَلالةً على القُدرةِ الباهرةِ، وأبيَنُ شَهادةً للكِبرياءِ والعظَمةِ[٢]؛ فخصَّصَ الاعتبارَ بأهلِ العَقلِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ أعظَمُ ممَّا قبلَها وأدَلُّ وأكبَرُ، والأُولى هي كالبابِ لهذه، فمَنِ استدَلَّ بهذه الآياتِ وأعطاها حقَّها مِن الدَّلالةِ، استحقَّ مِن الوَصفِ ما يستَحِقُّه صاحِبُ الفِكرِ -وهو العَقلُ- وأيضًا لأنَّ مَنزلةَ العَقلِ بعد مَنزلةِ الفِكْرِ؛ فلمَّا دَلَّهم بالآيةِ الأولى على الفِكرِ، نَقَلَهم بالآيةِ الثَّانيةِ -التي هي أعظَمُ منها- إلى العَقلِ الذي هو فوقَ الفِكرِ[٣].

وقد يقال: ذُكِرَ التفكُّرُ أولًا؛ لأنَّ إعمالَ الفِكرِ في ذلك يَقودُه إلى ما بَعدَه،

للكرماني (ص: ١٥٧-١٥٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٨)، ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل)) للإسكافي (١/ ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٣).

وهو أنْ يَعقِلَ ما دَلَّتْ عليه تِلكَ الآياتُ مِن وَحدانيَّةِ اللهِ، وبُطلانِ عِبادَةِ مَن سواه، وهذا العقلُ يُوصلُه إلى التَّذكُّرِ؛ فلا يكونُ غافلًا، وذلك يَرفَعُهُ إلى مَرتبةِ الشُّكرِ ومَنزلَتِه لِمَن أَوْلَى هذِه النِّعمَ وأسْدَاها.

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ بدأ أوَّلًا مِن منافِعِه بما هو الأهَمُّ، وهو الأكلُ[١].

- وجُملةُ: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ مُعترِضةٌ بين الجُملِ المُتعاطفةِ مع إمكانِ العطفِ؛ لقَصدِ مُخالفةِ الأسلوبِ، للتَّعجُّبِ مِن تَسخيرِ السَّيرِ في البحرِ باستحضارِ الحالةِ العجيبةِ بواسطةِ فعْلِ الرُّؤيةِ؛ فهذا النَّظمُ للكلامِ لإفادةِ هذا المعنى، ولولاها لكان الكلامُ هكذا: (وتَسْتخرِجوا منه حِليةً تلبَسُونها وتَبْتغوا مِن فضلِه في فُلكٍ مُواخِرَ)[٢].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تَخصيصُه بتَعقيبِ الشُّكرِ؛ ولعلَّ ذلك لأنَّه أقوى في بابِ الإنعامِ، مِن حيث إنَّه جعَلَ المهالِكَ سببًا للانتفاعِ وتَحصيلِ المعاشِ[٣]؛ فإن فيها قطعًا لمسافةٍ طويلةٍ معَ أحمالٍ ثقيلةٍ، في مدَّةٍ قليلةٍ مِن غيرِ مزاولةِ أسبابِ السفرِ، بل مِن غيرِ حركةٍ أصلًا، معَ أنَّها في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢).

تضاعيفِ المهالِكِ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على بقيَّةِ العِلَلِ؛ لأنَّه مِن الحِكَمِ الَّتي سخَّرَ اللهُ بها البحرَ للنَّاسِ؛ حملًا لهم على الاعترافِ للهِ بالعُبوديَّةِ، ونَبذِهم إشراكَ غيرِ ربِّه فيها، وهو تعريضٌ بالَّذين أشْرَكوا[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

- وقولُه: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ تَعليلٌ لإلقاءِ الرَّواسي في الأرضِ، ولمَّا كان المقامُ مقامَ امتنانٍ، عُلِمَ أنَّ المُعلَّلَ به هو انتفاءُ المَيْدِ، لا وقوعُه؛ فالكلامُ جارٍ على حَذفٍ تَقْتضيه القرينةُ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيه الْتفاتٌ، حيث أُخْرِجَ الكلامُ عن سَنَنِ الخطابِ؛ فقدِ الْتفَتَ مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ، والفائدةُ منه: أنَّه لمَّا كانتِ الدَّلالةُ مِن النَّجمِ أنفَعَ الدَّلالاتِ وأوضَحَها في البَرِّ والبحرِ، نبَّهَ على عِظَمِها بالالتفاتِ إلى مقامِ الغَيبةِ؛ لإفهامِ العُمومِ، ولئلا يُظَنَّ أنَّ المُخاطَبَ مَخصوصٌ بذلك[٤]. وقيل: إنه عدَل عن الخطابِ إلى الغَيبةِ الْتفاتًا يُومِئُ إلى فريقٍ خاصٍّ، وهم السَّيَّارةُ والملَّاحونَ؛ فإنَّ هِدايتَهم بهذه النُّجومِ لا غيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢).

وقيل: إن قريشًا كانت تُكثِرُ أسفارَها لطلبِ المال، ومَن كثُرتْ أسفارُه كان علمُه بالمنافعِ الحاصلةِ مِن الاهتداءِ بالنجومِ أكثرَ وأتمَّ، فقولُه: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى قريشٍ لهذا السببِ[1].

- وتَقديمُ الجارِّ والضَّميرِ ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ﴾؛ للتَّخصيصِ، كأنَّه قيل: وبالنَّجمِ خُصوصًا هؤلاء خُصوصًا يَهْتدونَ؛ فالاعتِبارُ بذلك والشُّكرُ عليه بالتَّوحيدِ ألْزَمُ لهم، وأوجَبُ عليهم[2]. أو قُدِّمَ المُتعلِّقُ في قولِه: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ تقديمًا يُفيدُ الاهتمامَ، وكذلك بالمُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، وتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ لمُجرَّدِ تَقَوِّي الحُكمِ؛ إذ لا يَسمَحُ المقامُ بقَصدِ القصرِ[3].

٨- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ إنكارٌ بعدَ إقامةِ الدَّلائلِ المُتكاثرةِ على كَمالِ قُدرتِه، وتَناهي حِكمتِه، والتَّفرُّدِ بخَلقِ ما عدَّدَ مِن مُبدعاتِه: لِأَنْ يُساويَه ويستحِقَّ مُشاركتَه ما لا يقدِرُ على خَلقِ شَيءٍ من ذلك، بل على إيجادِ شَيءٍ ما، وهذا مِن عكسِ التَّشبيهِ؛ إذ مُقْتضى الظَّاهرِ العكسُ، فكان حَقُّ الكلامِ: (أفمَن لا يَخلُقُ كمَن يَخلُقُ؟!)؛ لأنَّ الخِطابَ لعُبَّادِ الأوثانِ حيث سَمَّوها آلهةً؛ تشبيهًا به تعالى، فجعَلوا غيرَ الخالقِ كالخالقِ؛ فخُولِفَ في خِطابِهم؛ لأنَّهم بالَغوا في عِبادتِها، حتَّى صارت عندهم أصلًا في العِبادةِ، والخالقُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٢٩٤-٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) للدرويش (٥/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٢- ١٢٣).

فرعًا، وعكَسَ تنبيهًا على أنَّهم بالإشراكِ باللهِ سُبحانَه وتعالى جَعَلوه من جِنسِ المخلوقاتِ العَجَزةِ شبيهًا بها؛ فجاء الإنكارُ على وَفقِ ذلك؛ لِيَفْهموا المُرادَ على مُعتقدِهم(١)، وأيضًا فالمرادُ منه أنَّ مَن يخلُقُ هذه الأشياءَ العظيمةَ، ويُعطي هذه المنافِعَ الجليلةَ: كيف يُسَوَّى بينَه وبينَ هذه الجماداتِ الخسيسةِ في التَّسميةِ باسمِ الإلهِ، وفي الاشتِغالِ بعبادتِها والإقدامِ على غايةِ تَعظيمِها؟! فوقعَ التعبيرُ عن هذا المعنى بقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(٢).

- قولُه: ﴿أَفَمَن﴾ فيه تَعقيبُ الهمزةِ بالفاءِ؛ لتَوجيهِ الإنكارِ إلى تَوهُّمِ المُشابهةِ المذكورةِ على ما فُصِّلَ من الأُمورِ العظيمةِ الظَّاهرةِ الاختصاصُ به تَعالى، المعلومةِ كذلك فيما بينَهم(٣).

- وعبَّر عن الأصنامِ بقولِه: ﴿كَمَن﴾، والأصنامُ جماداتٌ، ولفظةُ (مَن) تكونُ لمن يُوصَفُ بالعلمِ؛ وذلك لأنَّ الكُفَّارَ لَمَّا سَمَّوها آلهةً وعَبدُوها، لا جرَمَ أُجرِيَت مجرَى مَن يُوصَفُ بالعلمِ، أو أنَّ السَّببَ فيه المُشاكَلةُ(٤) بينَه وبينَ (مَن يَخلُقُ)(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٤).

(٤) المشاكلة: لغةً: هي المماثلةُ، واصطلاحًا: هي ذكرُ الشيءِ بغيرِ لفظِه؛ لوقوعِه في صحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السيئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيئةٍ عقوبةٌ مثلُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٢-١٩٣).

- وفُرِّعَ على إنكارِ التَّسويةِ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ استفهامٌ عن عدَمِ التَّذكُّرِ في انتفائِها؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ على انتفاءِ التَّذكُّرِ، وذلك يختلِفُ باختلافِ المُخاطَبينَ؛ فهو إنكارٌ على إعراضِ المُشركينَ عن التَّذكُّرِ في ذلك[1].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- جُملةُ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ وهي كالتَّكمِلةِ لها؛ لأنَّها نتيجةٌ لِمَا تضَمَّنَته تلك الأدِلَّةُ مِن الامتنانِ كما تقَدَّم، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ للامتنانِ؛ لأنَّ فيها عمومًا يشمَلُ النِّعَمَ المذكورةَ وغيرَها[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ استئنافٌ عقَّبَ به تَغليظَ الكُفرِ والتَّهديدَ عليه؛ تنبيهًا على تَمكُّنِهم من تَدارُكِ أمرِهم بأنْ يُقْلِعوا عن الشِّركِ، ويتأهَّبوا للشُّكرِ بما يُطيقونَ، على عادةِ القُرآنِ من تَعقيبِ الزَّواجِرِ بالرَّغائبِ؛ كَيْلَا يقنَطَ المُسرِفون[3].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَقديمُ وَصفِ المغفرةِ على نَعتِ الرَّحمةِ؛ لتقدُّمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ، حيث خُولِفَ بين خِتامِ هذه الآيةِ وخِتامِ آيةِ سُورةِ إبراهيمَ؛ إذ وقَعَ هنالك: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤]؛ لأنَّ تلك جاءت في سِياقِ وعيدٍ وتَهديدٍ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: ٢٨]، فكان المُناسِبُ لها تَسجيلَ ظُلمِهم وكُفرِهم بنِعمةِ اللهِ، وأمَّا هذه الآيةُ فقد جاءت خِطابًا للفريقَينِ كما كانت النِّعمُ المعدودةُ عليهم مُنتفِعًا بها كِلاهما، ثمَّ كان من اللَّطائفِ: أنْ قُوبِلَ الوصفانِ اللَّذانِ في آيةِ سُورةِ إبراهيمَ: ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ بوَصفينِ هنا: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ تلك النِّعمَ كانت سببًا لظُلمِ الإنسانِ وكُفرِه، وهي سبَبٌ لغُفرانِ اللهِ ورحمتِه، والأمرُ في ذلك مَنوطٌ بعمَلِ الإنسانِ(١).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

الآيات (١٩-٢٥)

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ
شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ
يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ
رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ
ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَيَّانَ﴾: أي: متى، أو: أيُّ حينٍ أو وقتٍ، وهو سُؤالٌ عن زمَانٍ، وقيل: أصلُه: أيُّ أوانٍ، أي: أيُّ وقتٍ، فحُذِف الألفُ ثم جُعل الواوُ ياءً فأُدغِم فصار أيَّان[1].

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ وتُرَّهات؛ جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

﴿يَزِرُونَ﴾: أي: يَحمِلونَ، والوِزرُ: الثِّقلُ المُثقِلُ للظَّهرِ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[١].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾: كلمةُ جزمٍ ويقينٍ جَرَت مجرى المَثَل. وفي هذا التَّركيبِ أقوالٌ: أحدها: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى (لا بُدَّ ولا محالةَ)، فـ(لا) نافيةٌ للجِنسِ، و(جَرَم) اسمُها مبنيٌّ على الفَتحِ في محلِّ نَصبٍ، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها في محلِّ جَرٍّ بحَرفِ جَرٍّ محذوفٍ، فيصيرُ المعنى: لا بدَّ مِن علمِ اللهِ سِرَّهم وعَلانيتَهم، ولا محالةَ فيه. الثاني: أنَّ ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةٌ واحِدةٌ مركَّبةٌ تركيبَ خَمسةَ عشَرَ، وبعدَ التَّركيبِ صار معناها معنى فعلٍ، وهو (حَقَّ)، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ ومعمولَيها فاعِلٌ لمَجموعِ ﴿لَا جَرَمَ﴾ لتأويلِه بالفعلِ (حقَّ)، وقيل: مُؤَوَّلٌ بمصدرٍ قائمٍ مقامَه، وهو (حَقًّا)، فيصيرُ المعنى: حَقَّ عِلمُ اللهِ سِرَّهم وعلانيَتَهم. الثالث: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامٍ سابقٍ مُقَدَّرٍ، والوقفُ على (لا) تامٌّ، ثم قال: (جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ...)، أي: حَقَّ وثبَتَ عِلمُه، وعليه فالمصدرُ المؤَوَّلُ مِن أنَّ ومَعمولَيها في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ لـ﴿جَرَمَ﴾. وقيل غيرُ ذلك[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٩٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٣٥٧-٣٥٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٦٩٣)، ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٣٤٧)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٣٠٣)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣١٤).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: واللهُ -سُبحانَه- يعلَمُ ما تُخفُونَه في أنفُسِكم -أيُّها النَّاسُ- وما تُظهِرونَه، وسيُجازيكم عليه يومَ القيامةِ، والأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ لا تَخلُقُ شَيئًا بل هي مَخلوقةٌ، فكيف يَعبُدونَها مِن دونِ الله؟ هي جميعًا جماداتٌ لا حياةَ فيها، ولا تدري متى يبعَثُها اللهُ. إلهُكم المُستحِقُّ للعبادةِ إلهٌ واحِدٌ، فالكافِرون الذين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ وما فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، قلوبُهم جاحِدةٌ لنِعَمِ اللهِ ولوحدانيَّتِه سُبحانَه وقدرتِه، وهم مُتكَبِّرونَ عن قَبولِ الحَقِّ. حقًّا أنَّ اللهَ يعلَمُ ما يُخفيه المُشرِكون مِن إنكارِ الحَقِّ وما يُظهِرونه مِن الكُفرِ والعِصيانِ، وسيُجازيهم على ذلك، إنَّه عزَّ وجَلَّ لا يُحِبُّ المُستكبِرينَ. وإذا قيل لهؤلاء المُشرِكينَ: ما الذي أنزل الله على النبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قالوا كَذِبًا وزُورًا: ما نزل عليه شَيءٌ، وإنَّما هذا القُرآنُ قَصَصُ السَّابقينَ وأباطيلُهم؛ ليَحمِلوا آثامَهم كامِلةً يومَ القيامةِ ويَحمِلوا بعضَ آثامِ الذين أضَلُّوهم بغيرِ عِلمٍ. ألا بئسَ ما يَحمِلونَه مِن ذُنوبٍ ثِقالٍ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الكُفَّارَ كانوا -مع اشتِغالِهم بعبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى- يُسِرُّونَ ضُروبًا مِن الكُفرِ في مكايدِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- فجُعِلَ هذا زَجرًا لهم عنها[1].

وأيضًا فإنَّه تعالى زيَّفَ في الآيةِ الأولى عِبادةَ الأصنامِ؛ بسبَبِ أنَّه لا قُدرةَ لها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

على الخَلقِ والإنعامِ، وزَيَّفَ في هذه الآيةِ أيضًا عبادتَها؛ بسبَبِ أنَّ الإلهَ يجِبُ أن يكونَ عالِمًا بالسِّرِّ والعَلانيةِ، وهذه الأصنامُ جَماداتٌ لا مَعرِفةَ لها بشيءٍ أصلًا، فكيف تَحسُنُ عبادتُها(١)؟!

وأيضًا فإنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ فبعدَ أن أثبتَ أنَّ الله منفرِدٌ بصِفةِ الخَلقِ دُونَ غَيرِه بالأدلَّةِ العديدةِ، ثمَّ باستنتاجِ ذلك بقَولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، انتقل هنا إلى إثباتِ أنَّه مُنفَرِدٌ بعُمومِ العِلمِ(٢).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا جرت العادةُ بأنَّ المكفورَ إحسانُه يُبادِرُ إلى قَطعِه عند عِلمِه بالكُفرِ، فكان ربَّما توهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّ سببَ مُواترةِ الإحسانِ عدمُ العِلمِ بالكُفرانِ، أو عدَمُ العِلمِ بكُفرانٍ لا يدخُلُ تحت المَغفرةِ- قال مهدِّدًا مُبرِزًا للضَّميرِ بالاسمِ الأعظَمِ الذي بُنِيَت عليه السُّورةُ؛ للفَصلِ بالفَرقِ بين الخالقِ وغَيرِه، ولئلَّا يُتوهَّمَ تقيُّدُ التهديدِ بحيثيَّةِ المغفرةِ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك نتيجةُ ما مضَى(٣):

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ -أيُّها النَّاسُ- الذي تُخفُونَه في أنفُسِكم، ويعلَمُ الذي تُظهِرونَه أمامَ الآخرينَ مِن الأقوالِ والأفعالِ، فيُحصِيها عليكم ويُجازيكم بها يومَ القيامةِ؛ إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٠-١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أثبت اللهُ تعالى لنَفسِه كمالَ القُدرةِ، وتمامَ العِلمِ، وأنَّه المُنفَرِدُ بالخَلقِ؛ شرعَ يُقيمُ الأدلَّةَ على بُعدِ ما يُشرِكونَه به مِن الآلهةِ، بسَلبِ تلك الصِّفاتِ[(١)].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ ﴾.

أي: والأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ لا تستطيعُ أن تخلُقَ شَيئًا، بل هي مخلوقةٌ، فكيف يكون إلهًا ما كان مخلوقًا لا يَملِكُ نَفعًا ولا ضَرًّا[(٢)]؟!

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان مِن المخلوقاتِ المَيِّتُ والحَيُّ، وكان المَيِّتُ أبعَدَ شَيءٍ عن صِفةِ الإلهِ؛ نفَى عن الأصنامِ الحياةَ -بعدَ أن نفَى القُدرةَ والعِلمَ- المُستلزِمِ لأن يكونَ عَبَدتُها أشرَفَ منها، المُستلزِمِ لأنَّهم بخُضوعِهم لها في غايةِ السَّفَهِ[(٣)].

﴿ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾.

أي: الأصنامُ التي يعبُدُها المُشرِكونَ جَماداتٌ لا أرواحَ فيها، فلا تسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعقِلُ شيئًا، فكيف تُتَّخَذُ هذه آلِهةً[(٤)]؟

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: وما تدري هذه الأصنامُ متى يَبعَثُها اللهُ، فكيف يُرتجى عندَ هذه نفعٌ أو ثوابٌ وجزاءٌ[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا زيَّفَ -فيما تقَدَّمَ- طريقةَ عبَدةِ الأوثانِ والأصنامِ، وبيَّنَ فسادَ مَذهَبِهم بالدَّلائِلِ القاهرةِ؛ قال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ثمَّ ذكَر تعالى ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٤).

قال الرازي: (الضَّميرُ في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ عائدٌ إلى الأصنامِ، وفي الضميرِ في قوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّه عائدٌ إلى العابدينَ للأصنامِ، يعني: أنَّ الأصنامَ لا يشعرون متى تُبعَثُ عبَدتُهم، وفيه تهكُّمٌ بالمشركينَ وأنَّ آلهتَهم لا يعلمونَ وقتَ بَعثِهم، فكيف يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ منهم على عبادتِهم؟! والثاني: أنَّه عائدٌ إلى الأصنامِ، يعني: أنَّ هذه الأصنامَ لا تعرِفُ متى يبعَثُها اللهُ تعالى). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٧).

وممن قال بالقولِ الأولِ: الزمخشري، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٧).

وممن قال بالقولِ الثاني: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦١).

وقيل: المعنى: وما يدري الكفارُ متى يُبعثونَ. وممن قال بذلك: القرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

لأجلِه أصرَّ الكفارُ على القولِ بالشركِ، وإنكارِ التوحيدِ[١].

وأيضًا فإنَّ اللهُ تعالى لَمَّا ذكر ما اتَّصَفَت به آلِهةُ المُشرِكينَ بما يُنافي الألوهيَّةَ؛ أخبَرَ تعالى أنَّ إلهَ العالَمِ هو واحِدٌ، وأنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالجَزاءِ بعد وُضوحِ بُطلانِ أن تكونَ الإلهيَّةُ لِغَيرِه، بل له وَحدَه؛ هم مُستَمِرُّونَ على شِركِهم، مُنكِرونَ وحدانيَّتَه، مُستَكبِرونَ عن الإقرارِ بها؛ لاعتقادِهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم[٢].

وأيضًا فهو استئنافُ نتيجةٍ لحاصلِ المُحاجَّةِ الماضيةِ، أي: قد ثبت بما تقَدَّمَ إبطالُ إلهيَّةِ غيرِ الله، فثبَت أنَّ لكم إلهًا واحدًا لا شريكَ له[٣].

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

أي: مَعبودُكم - أيُّها النَّاسُ - الذي يستحِقُّ عبادتَكم دونَ سائِرِ الأشياءِ، مَعبودٌ واحِدٌ؛ فلا تُشرِكوا به شيئًا[٤].

﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: فالذين لا يُؤمِنونَ بيومِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ، قُلوبُهم تُنكِرُ ما أخبَرَ به مِن قُدرتِه وعَظَمتِه ونِعَمِه، وتُنكِرُ إفرادَ اللهِ بالعبادةِ، وأنَّ الألوهيَّةَ لا تَصلُحُ لِغَيرِه، وهم مُمتَنِعونَ كِبرًا عن قَبولِ الحَقِّ، والانقيادِ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٤-٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

أي: حقًّا أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ في قُلوبِهم مِن إنكارِهم للحَقِّ، واعتقادِهم بالباطِلِ، ويعلَمُ حَقًّا ما يُعلِنونَه مِن الكُفرِ والمعاصي، وسيُجازيهم على أعمالِهم الظَّاهِرةِ والباطنةِ[1].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان في قَولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ معنى التَّهديدِ؛ لأنَّ المرادَ: فلَيُجازيَنَّهم على دِقِّ ذلك وَجِلِّه مِن غيرِ أن يَغفِرَ منه شَيئًا، كما يأتي التَّصريحُ به في قَولِه: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾ [النحل:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

٢٥]- علَّلَ هذا المعنى بقَولِه[١]:

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُستكبِرينَ عن تَوحيدِه، وإفرادِه بالعبادةِ، فهو يُبغِضُهم وسيُعاقِبُهم[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالغَ في تقريرِ دلائِلِ التَّوحيدِ، وأوردَ الدَّلائِلَ القاهِرةَ في إبطالِ مذاهِبِ عَبدةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ بعد ذلك شُبُهاتِ مُنكِري النبُوَّةِ مع الجوابِ عنها[٣].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ﴾.

أي: وإذا قيلَ لهؤلاء المُشرِكينَ: ما الذي أنزَلَه ربُّكم مِن الوحيِ على نبيِّه مُحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤]؟

﴿قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: لم يَنزِلْ عليه شيءٌ، وهذا القُرآنُ الذي يزعُمُ محمَّدٌ أنَّ الله أنزَلَه عليه، هو ما سَطَره الأقدَمونَ في كُتُبِهم من الأكاذيبِ والأباطيلِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

والقِصَص التي يتناقَلُها النَّاسُ جِيلًا بعد جِيلٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

وقال سُبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: لِيحمِلوا ذُنوبَهم كامِلةً يومَ القيامةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩،١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

قال ابنُ عطية: (واللامُ في قولِه: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ يحتملُ أن تكونَ لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لم يقصِدوا بقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ليحمِلوا الأوزارَ. ويحتملُ أن تكونَ صريحَ لامِ «كي»، على معنَى: قدَّر هذا. ويحتملُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، على معنى الحتمِ عليهم بذلك، والصغارِ الموجبِ لهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧).

وقال الشنقيطي: (واللامُ في قَولِه ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ تتعلقُ بمحذوفٍ دلَّ المقامُ عليه، أي: قدَّرْنا عليهم أن يقولوا في القرآن: أساطيرُ الأوَّلين؛ ليَحمِلوا أوزارَهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥).

وقال الشوكاني: (﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ أي: قالوا هذه المقالةَ لكي يَحمِلوا أوزارَهم كاملةً، لم يُكَفَّرْ منها شيءٌ؛ لعدمِ إسلامِهم الَّذي هو سببٌ لتكفيرِ الذُّنوبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

وقيل: اللامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾: لامُ العاقبةِ، أي: قالوا ذلك القولَ، فكانت عاقبتُه

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: ولِيحملَ المُشرِكونَ المَتبوعونَ أيضًا بعضَ[1] ذُنوبِ أتباعِهم الذين

أنَّهم يحمِلونَ أوزارَهم. وممَّن نصَّ على أنَّ اللامَ هنا للعاقبةِ: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والرسعني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٢).

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ (من) هنا للتبعيضِ: ابنُ عطية، وابنُ تيمية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٢٦-٧٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٣).

قال ابن تيميَّة: (فقولُه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ هي الأوزارُ الحاصلةُ لضَلالِ الأتباعِ، وهي حاصلةٌ مِن جهةِ الآمِرِ، ومن جهة المأمورِ الممتَثِلِ، فالقُدرتان مُشتركتانِ في حصولِ ذلك الضَّلالِ؛ فلهذا كان على هذا بعضُه، وعلى هذا بعضُه، إلَّا أنَّ كلَّ بعضٍ مِن هذينِ البعضينِ هو مِثلُ وِزرِ عاملٍ كاملٍ، كما دلت عليه سائرُ النُّصوصِ، مثل قولِه صَلَّى الله عليه وسَلَّم: «من دعا إلى الضَّلالةِ، كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ»). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٧٢٦-٧٢٧).

قال الألوسي: (فـ«مِن» تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ مُقابلتَه لقولِه تعالى: ﴿كَامِلَةً﴾ يعَيِّنُ ذلك، والمرادُ بهذا البَعضِ حِصَّةُ التسَبُّبِ؛ فالمضَلُّ والضالُّ شريكانِ: هذا يُضِلُّه، وهذا يُطاوِعُه، فيتحاملانِ الوِزرَ، وللضالِّ أوزارٌ غيرُ ذلك، وليست تلك محمولةً). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٦٥).

وقيلَ: «مِن» هنا لبيانِ الجنسِ. وممن اختار هذا القولَ: الواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٦).

قال الواحدي: (و«مِنْ» في قوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ ليست للتبعيضِ؛ لأنَّها لو كانت للتبعيضِ لخفَّ عن الأتباعِ بعضُ أوزارِهم بحَملِ الرُّؤساءِ ذلك، ولكنَّها للجِنسِ، أي: ليحملوا مِن جنسِ أوزارِ الأتباعِ، وإنما ذلك لأنَّ النبيَّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم قال: «مِن غيرِ أن يَنقُصَ من أوزارِهم شيءٌ»، ولو جعلنا المحمولَ من أوزارِ الأتباعِ نقَصَت أوزارُهم؛ فليس يأتي التابعُ بجنسٍ مِن الذنبِ في ضلالتِه إلَّا وعلى المتبوعِ مثلُ ذلك، كما قال صَلَّى الله عليه وسَلَّم: «فإنَّ عليه مثلَ أوزارِ مَن اتَّبَعه»). ((البسيط)) (١٣/ ٤٤).

يُضِلُّونَهم فيقلدونهم بغيرِ عِلمٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن دعا إلى هُدًى، كان له مِن الأجرِ مِثلُ أجُورِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن أجورِهم شَيئًا، ومَن دعا إلى ضَلالةٍ، كان عليه مِن الإثمِ مِثلُ آثامِ مَن تَبِعَه، لا يَنقُصُ ذلك مِن آثامِهم شَيئًا))[(٢)].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

قال أبو السعود: (﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ حالٌ من الفاعلِ، أي: يضلُّونَهم غيرَ عالمينَ بأنَّ ما يَدْعونَ إليه طريقُ الضَّلالِ... أو حالٌ من المفعول، أي: يُضِلُّونَ مَن لا يعلمُ أنَّهم ضُلَّالٌ. وفائدة التقييدِ بها: الإشعارُ بأنَّ مَكرَهم لا يَروجُ عند ذي لُبٍّ، وإنَّما يتَّبِعُهم الأغبياءُ والجَهَلةُ، والتنبيهُ على أنَّ جَهلَهم ذلك لا يكونُ عُذرًا؛ إذ كان يجِبُ عليهم أن يبحَثوا ويُميِّزوا بين المُحِقِّ الحقيقِ بالاتِّباعِ وبين المُبطِلِ). ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٧).

وممن قال بالمعنى الأول: الواحدي، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٨).

وممن قال بالمعنى الثاني: الزمخشري، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

أي: ألا بِئسَ ما يحمِلُه المُشرِكونَ على ظُهورِهم مِن الذُّنوبِ الثَّقيلةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ المعنى: أنَّ الذين يُؤمِنونَ بالآخرةِ، ويَرغَبونَ في الفَوزِ بالثَّوابِ الدَّائمِ، ويخافونَ الوُقوعَ في العِقابِ الدَّائمِ؛ إذا سَمِعوا الدَّلائِلَ والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، خافوا العِقابَ فتأمَّلوا وتفكَّروا فيما يَسمَعونَه؛ فلا جرَمَ ينتَفِعونَ بسَماعِ الدَّلائِلِ، ويَرجِعونَ مِن الباطِلِ إلى الحَقِّ، أمَّا الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ ويُنكِرونَها، فإنَّهم لا يَرغَبونَ في حُصولِ الثَّوابِ، ولا يَرهَبونَ مِن الوقوعِ في العِقابِ، فيَبقَونَ مُنكِرينَ لكُلِّ كلامٍ يُخالِفُ قَولَهم، ويَستَكبِرونَ عن الرُّجوعِ إلى قَولِ غَيرِهم، فلا جرَمَ يَبقَونَ مُصِرِّينَ على ما كانوا عليه مِن الجَهلِ والضَّلالِ(٢).

٢- كثيرًا ما يكونُ الكِبْرُ مانِعًا مِن قَبولِ الحَقِّ؛ قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ قال العُلماءُ: (كُلُّ ذَنبٍ يُمكِنُ التستُّرُ منه وإخفاؤُه إلَّا الكِبْرَ؛ فإنَّه فِسقٌ يَلزَمُه الإعلانُ، وهو أصلُ العِصيانِ كُلِّه)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٥).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عامٌّ في الكافرينَ والمُؤمِنينَ، يأخُذُ كُلُّ واحِدٍ منهم بقِسطِه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس أنَّ قَولَه تعالى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تخلُقُ شَيئًا، وقولَه هاهنا: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يدُلُّ على نفسِ هذا المعنى، فكان هذا مَحضَ التَّكريرِ؟

الجوابُ: أنَّ المذكورَ في أوَّلِ الآيةِ أنَّهم لا يَخلُقونَ شَيئًا، والمذكورَ هاهنا أنَّهم لا يخلُقونَ شَيئًا، وأنَّهم مَخلوقونَ لِغَيرِهم، فكان هذا زيادةً في المعنى، وكأنَّه تعالى بدأ بشَرحِ نَقصِهم في ذَواتِهم وصِفاتِهم؛ فبيَّنَ أوَّلًا أنَّها لا تخلُقُ شَيئًا، ثمَّ ثانيًا أنَّها كما لا تَخلُقُ غيرَها فهي مخلوقةٌ لِغَيرِها[٢]، وأيضًا فقولُه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لبيانِ المستحقِّ للعبادةِ، وأمَّا قولُه: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ فلبيانِ عجزِ هذه الأصنامِ وضعفِها.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أنَّ الجَمادَ يُسَمَّى مَيِّتًا، وإن كان غيرَ قابلٍ للحياةِ؛ فإنَّ اللهَ في هذه الآيةِ سَمَّى الأصنامَ أمواتًا، وهي حِجارةٌ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ قيل: فيه دليلٌ على أنَّ الأصنام تُجعَلُ فيها الحياةُ، وتُبعَثُ يومَ القيامةِ حتَّى تتبرَّأَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٢).

عابديها، وذلك على اعتبارِ أنَّ قولَه: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ يعني به هذه الأصنامَ[(١)].

وقيل: إنَّما عبَّر عنها كما عبَّر عن الآدميينَ؛ لأنَّهم زعموا أنَّها تعقلُ عنهم، وتعلمُ وتشفعُ لهم عندَ الله تعالى، فجرَى خطابُهم على ذلك[(٢)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ نفَى عنهم مُطلَقَ الشُّعورِ الذي هو أعمُّ مِن العِلمِ، فيَنتفي كلُّ ما هو أخَصُّ منه[(٣)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾ وصَفَهم بأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ؛ مُبالغةً في نِسبةِ الكُفرِ إليهم؛ إذ عَدَمُ التَّصديقِ بالجَزاءِ في الآخِرةِ يتضَمَّنُ التَّكذيبَ باللهِ تعالى وبالبَعثِ؛ إذ مَن آمَنَ بالبَعثِ يَستحيلُ أن يُكَذِّبَ بالله عَزَّ وجَلَّ[(٤)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: أنَّه تعالى لا يُخفِّفُ مِن عقابِهم شَيئًا، بل يُوصِلُ ذلك العِقابَ بكُلِّيَّتِه إليهم. وهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى قد يُسقِطُ بعضَ العِقابِ عن المُؤمِنينَ؛ إذ لو كان هذا المعنى حاصِلًا في حَقِّ الكُلِّ، لم يكُنْ لتَخصيصِ هؤلاء الكُفَّارِ بهذا التَّكميلِ معنًى[(٥)].

٧- في قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن أَفْتَى بغير علمٍ فعُمِلَ بفتواه؛ كان إِثْمُ العاملِ عليه[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٣).

٨- قال الله تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ فلم يُكفَّرْ عنهم شَيءٌ مِن ذُنوبِهم بما يُصيبُهم في الدُّنيا مِن نَكبةٍ وبَليَّةٍ، كما يُكفَّرُ عن المُؤمِنينَ[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم ﴾ لا يُعارِضُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾[الأنعام: ١٦٤]؛ فمعناه: وِزْرًا لا مَدخَلَ لها فيه، ولا تعَلُّقَ له بها بتسبُّبٍ ولا غَيرِه، ونظيرُ هاتينِ الآيتينِ سُؤالًا وجَوابًا، قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾[2] [العنكبوت: ١٢- ١٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ تحذيرٌ للذي يُحدِثُ البدعةَ؛ أنَّه قد يَتهاوَنُ بها لِخفَّةِ أمرِها في أوَّلِ الأمرِ، ولا يَشعرُ بما يترتَّبُ عليها مِن المفسَدةِ، وهو أن

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٣٠٤).

قال الشنقيطي: (فإن قيل: ما وجهُ تحمُّلِهم بعضَ أوزارِ غَيرِهم المنصوصِ عليه بقَولِه: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾ الآية، وقولِه: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾ الآية، مع أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾، ويقولُ جلَّ وعلا: ﴿وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَا ﴾، ويقولُ: ﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ؟

فالجوابُ -والله تعالى أعلمُ- أنَّ رؤساءَ الضَّلالِ وقادتَه تحمَّلوا وِزرَينِ: أحدُهما: وِزرُ ضلالِهم في أنفُسِهم. والثاني: وِزرُ إضلالِهم غيرَهم؛ لأنَّ مَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها، لا يَنقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئًا، وإنما أُخِذَ بعَمَلِ غيرِه؛ لأنَّه هو الذي سَنَّه وتسَبَّب فيه، فعوقِبَ عليه من هذه الجهةِ؛ لأنَّه مِن فِعلِه، فصار غيرَ مُنافٍ لِقَولِه: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ ﴾ الآية).

((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٣-٣٦٤).

يَلحقه إثمُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه، ولو لم يكُنْ هو عَمِلَ بها، بل لِكَونِه كان الأصلَ في إحداثِها[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ما تَوَلَّدَ عن فِعلِ العبدِ يَحصُلُ له منه ثوابٌ وعِقابٌ وإنْ لم يَقصِدْه[(٢)]؛ فاللهُ سُبحانَه يُعاقِبُ على الأسبابِ المحَرَّمة وعلى ما تولَّدَ منها، كما يُثيبُ على الأسبابِ المأمورِ بها وعلى ما يتولَّدُ منها؛ ولذا كان من دعا إلى بِدعةٍ وضلالةٍ فعليه مِن الوِزرِ مِثلُ أوزارِ مَن اتَّبعه؛ لأنَّ اتِّباعَهم له تولَّدَ عن فِعلِه؛ ولذلك كان على ابنِ آدَمَ القاتِلِ لأخيه كِفلٌ مِن ذنبِ كُلِّ قاتلٍ إلى يومِ القيامةِ، وقد قال تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾[(٣)] [العنكبوت: ١٣].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ غَيرُ مَعذورٍ بعد إبلاغِ الرُّسُلِ المؤَيَّدِ بالمُعجِزاتِ، الذي لا لبْسَ معه في الحَقِّ، ولو كان يَظُنُّ أنَّ كُفرَه هُدًى؛ لأنَّه ما منَعَه من معرفةِ الحَقِّ مع ظُهورِه إلَّا شِدَّةُ التعَصُّبِ للكُفرِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقَوله: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤]، وقَوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾[(٤)] [الزمر: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية)) (٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ السِّرِّ على العلَنِ؛ لتَحقيقِ المُساواةِ بين عِلمَيه المُتعلِّقَينِ بهما على أبلَغِ وَجهٍ، كأنَّ عِلمَه تَعالى بالسِّرِّ أقدَمُ منه بالعلَنِ، أو لأنَّ كلَّ شَيءٍ يُعْلَنُ فهو قبلَ ذلك مُضمَرٌ في القلبِ، فتعلُّقُ علمِه تَعالى بحالتِه الأُولى أقدَمُ مِن تعلُّقِه بحالتِه الثَّانيةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ بأنَّ اللهَ مُحاسِبُهم على كُفرِهم، وفيه إعلامٌ بأنَّ أصنامَهم بخلافِ ذلك، كما دَلَّ عليه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ فإنَّه يفيدُ القصرَ لِرَدِّ دعوى الشَّركةِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾

- شُروعٌ في تَحقيقِ كونِ الأصنامِ بمَعزِلٍ مِن استحقاقِ العِبادةِ، وتَوضيحِه بحيث لا يَبْقَى فيه شائبةُ رَيبٍ بتعديدِ أوصافِها وأحوالِها المُنافيةِ لذلك مُنافاةً ظاهرةً، وتلك الأحوالُ وإنْ كانت غَنيَّةً عن البَيانِ لكنَّها شُرِحَت للتَّنبيهِ على كَمالِ حَماقةِ عَبَدَتِها، وأنَّهم لا يعرِفونَ ذلك إلَّا بالتَّصريحِ، أي: والآلِهةُ الَّذين يعبُدُهم الكُفَّارُ[3].

- والمقصودُ من هذه الجُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ...﴾ التَّصريحُ بما اسْتُفِيدَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥).

ضِمنًا ممَّا قبلَها، وهو نَفيُ الخالِقيَّةِ، ونفيُ العلمِ عن الأصنامِ؛ فالخبرُ الأوَّلُ -وهو جُملةُ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾- استُفيدَ من جُملةِ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، وعُطِفَ ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ارتقاءً في الاستدلالِ على انتفاءِ إلهيَّتِها، والخبرُ الثَّاني -وهو جُملةُ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾- تَصريحٌ بما استُفيدَ من جُملةِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بطَريقةِ نَفيِ الشَّيءِ بنَفيِ مَلزومِه، وهي طريقةُ الكِنايةِ الَّتي هي كذِكْرِ الشَّيءِ بدَليلِه[1].

- وبِناءُ الفعلِ ﴿يُخْلَقُونَ﴾ للمفعولِ؛ لتَحقيقِ التَّضادِّ والمُقابَلةِ بينَ ما أُثبِتَ لهم، وبينَ ما نُفِيَ عنهم مِن وَصفَيِ المخلوقيَّةِ والخالقيَّةِ، وللإيذانِ بعدَمِ الافتقارِ إلى بَيانِ الفاعلِ؛ لظُهورِ اختصاصِ الفعلِ بفاعلِه جَلَّ جلالُه. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الخلقُ الثَّاني عبارةً عن النَّحتِ والتَّصويرِ؛ رِعايةً للمُشاكَلَةِ بينه وبين الأوَّلِ، ومُبالغةً في كونِها مَصنوعةً لعَبَدَتِها وأعجَزَ عنهم، وإيذانًا بكَمالِ رَكاكةِ عُقولِهم حيث أشْرَكوا بخالقِهم مَخلوقَهم.

- ولأنَّ إثباتَ المخلوقيَّةِ لهم غيرُ مُستَدْعٍ لنَفيِ الحياةِ عنهم لِمَا أنَّ بعضَ المخلوقينَ أحياءٌ، فقد صُرِّحَ بذلك، فقيل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، جُملةُ ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيدٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿أَمْوَاتٌ﴾؛ للدَّلالةِ على عَراقةِ وَصفِ الموتِ فيهم بأنَّه ليس فيهم شَائبةُ حياةٍ؛ لأنَّهم حِجارةٌ[3]، وفيه احتراسٌ[4]؛ إذ قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٥- ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

(٤) الاحتراس: هو التحرُّزُ مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن

وصَفَ الأصنامَ بـ ﴿غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ بعدَ قولِه: ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾؛ لأنَّ الأصنامَ أمواتٌ لا يَعْقُبُ موتَها حياةٌ؛ احترازًا عن أمواتٍ يعقُبُ موتَها حياةٌ؛ كالنُّطَفِ، والبَيضِ، والأجسادِ الميتةِ، وذلك أبلغُ في موتِها، كأنَّه قال: أمواتٌ في الحالِ، غيرُ أحياءٍ في المآلِ(١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ إدماجٌ(٢)؛ لإثباتِ البعثِ عَقِبَ الكلامِ على إثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ تَعالى؛ لأنَّ هذينِ هما أصلُ إبطالِ عَقيدةِ المُشركينَ، وتَمهيدٌ لوَجهِ التَّلازُمِ بين إنكارِ البعثِ وبين إنكارِ التَّوحيدِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾(٣).

- وقولُه أيضًا: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ فيه تَهكُّمٌ بالمُشركينَ، وأنَّ آلهتَهم لا يَعْلمون وقتَ بَعثِهم؛ فكيف يكونُ لهم وقتُ جزاءٍ منهم على

يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٣).

(٢) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى- مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ- وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٦).

عِبادتِهم[(١)]؟! وهو أيضًا على طَريقةِ التَّهكُّمِ بهم؛ لأنَّ شُعورَ الجمادِ بالأُمورِ الظَّاهرةِ بَديهيُّ الاستحالةِ عند كلِّ أحدٍ؛ فكيف بما لا يعلَمُه إلَّا العليمُ الخبيرُ[(٢)]؟! وهذا على أحدِ أوجهِ التأويلِ.

٤- قوله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ فذلَكةٌ لِمَا سبَق، وإعادةٌ لأمْرِ الأُلوهيَّةِ مُجمَلًا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليها مُفصَّلًا؛ والمعنى: قد ثبَتَ بالدَّلائلِ الدالَّةِ على أنَّ الإلهيَّةَ مُختصَّةٌ باللهِ تعالى، وأنَّه واحدٌ متفرِّدٌ بالألوهيَّة، وهو المعبودُ الحقُّ، وإذا كان كذلك؛ فمِن حَقِّه أنْ يَختَصَّ بالعبادةِ، وأنْ لا تُنكَرَ إلهيتُه، وهؤلاء عكَسوا واستمرُّوا على شِركِهم، وقلوبُهم منكرةٌ للوحدانيَّة[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث عَرِيَت الجُملةُ عن المُؤكِّدِ؛ لكون ما مَضى قبلَ هذا الموضعِ كافيًا في إبطالِ إنكارِ المُشركينَ الوَحدانيَّةَ؛ تَنزيلًا لحالِ المُشركينَ بعدما سَمِعوا من الأدلَّةِ مَنزلةَ مَن لا يُظَنُّ به أنَّه يتردَّدُ في ذلك، بخلافِ قولِه تعالى في سُورةِ الصَّافاتِ: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]؛ لأنَّ ذلك ابتداءُ كلامٍ لم يتقدَّمْه دليلٌ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٧).

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾ بيانٌ لِمَا اقْتَضى إصرارَهم بعدَ وُضوحِ الحقِّ، وذلك عدَمُ إيمانِهم بالآخرةِ -فإنَّ المُؤمنَ بها يكونُ طالبًا للدَّلائلِ، مُتأمِّلًا فيما يسمَعُ، فينتفِعُ به، والكافرُ بها يكونُ حالُه بالعكسِ- وإنكارُ قُلوبِهم ما لا يُعْرَفُ إلَّا بالبُرهانِ اتِّباعًا للأسلافِ، ورُكونًا إلى المألوفِ؛ فإنَّه يُنافي النَّظرَ- والاستكبارُ عن اتِّباعِ الرَّسولِ وتَصديقِه، والالتفاتِ إلى قولِه، والأوَّلُ- يعني: الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ- هو العُمدةُ في البابِ؛ ولذلك رُتِّبَ عليه ثُبوتُ الآخرينِ- يعني: إنكارَ قُلوبِهم واستكبارَهم[١].

- والتَّعبيرُ عن المُشركينَ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّهم قد عُرِفُوا بمَضمونِ الصِّلةِ، واشْتُهِرُوا بها اشتهارَ لَمْزٍ وتَنقيصٍ عندَ المُؤمنينَ، وللإيماءِ إلى أنَّ لهذه الصِّلةِ ارتباطًا باستمرارِهم على العِنادِ؛ لأنَّ انتفاءَ إيمانِهم بالبعثِ والحسابِ قد جرَّأَهم على نَبذِ دَعوةِ الإسلامِ ظِهْريًّا، فلم يتوقَّعوا مُؤاخذةً على نَبذِها- على تَقديرِ أنَّها حقٌّ- فيَنْظروا في دَلائلِ أحقِّيَّتِها، مع أنَّهم يُؤمِنون باللهِ، ولكنَّهم لا يُؤمِنون بأنَّه أعَدَّ للنَّاسِ يومَ جزاءٍ على أعمالِهم[٢].

- قولُه: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ﴾، أي: جاحدةٌ بما هو واقعٌ، اسْتُعْمِلَ الإنكارُ في جَحدِ الأمرِ الواقعِ؛ لأنَّه ضِدُّ الإقرارِ، فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿مُّنكِرَةٞ﴾؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، أي: مُنكِرةٌ للوَحدانيَّةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعُبِّرَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ ثابتٌ لهم دائمٌ لاستمرارِهم على الإنكارِ بعد ما تبيَّنَ من الأدلَّةِ، وذلك يفيدُ أنَّ الإنكارَ صار لهم سَجِيَّةً، وتمكَّنَ مِن نُفوسِهم؛ لأنَّهم ضَرُوا به- أي: اعتادُوه واجتَرؤوا عليه- من حيث إنَّهم لا يُؤمِنون بالآخرةِ، فاعتادوا عدَمَ التَّبصُّرِ في العواقبِ. وكذلك جُملةُ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ بُنِيَت على الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الاستكبارِ منهم[(١)].

- وفي قولِه: ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث بُنِيَت على الاسميَّةِ؛ لما سبَق، وقد خُولِفَ ذلك في آيةِ سُورةِ الفُرقانِ، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الفرقان: ٢١]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تلك الآيةَ لم تتقدَّمْها دَلائلُ على الوَحدانيَّةِ مِثلُ الدَّلائلِ المذكورةِ في هذه الآيةِ في سُورةِ النَّحلِ[(٢)].

٥- قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ كنايةً عن الوعيدِ بالمُؤاخذةِ بما يُخْفونَ وما يُظهِرون من الإنكارِ والاستكبارِ وغيرِهما، مُؤاخذةَ عِقابٍ وانتقامٍ؛ فلذلك عقَّبَ بجُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ الواقعةِ موقعَ التَّعليلِ والتَّذييلِ لها؛ لأنَّ الَّذي لا يُحِبُّ فِعلًا وهو قادرٌ يُجازي فاعلَه بالسُّوءِ[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا تضمَّنَه الكلامُ من الوعيدِ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٩).

أي: لا يُحِبُّ المُستكبِرين عن التَّوحيدِ، أو عن الآياتِ الدَّالَّةِ عليه، أو لا يحِبُّ جِنسَ المُستكبرينَ؛ فكيف بمَن استكبَرَ عمَّا ذُكِرَ(١)؟!

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ للاستغراقِ؛ لأنَّ شأنَ التَّذييلِ العمومُ، ويشمَلُ هؤلاء المُتحدَّث عنهم؛ فيكونُ إثباتُ العِقابِ لهم كإثباتِ الشَّيءِ بدَليلِه(٢).

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ذِكْرُ فعْلِ القولِ ﴿قِيلَ﴾ يَقْتضي صُدورَه عن قائلٍ يسألُهم عن أمرٍ حدَثَ بينهم، وليس على سبيلِ الفرضِ، وأنَّهم يُجيبونَ بما ذُكِرَ؛ مَكرًا بالدِّينِ، وتظاهُرًا بمظهَرِ النَّاصحينَ للمُسترشِدين المُستنصِحين، بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، و﴿إِذَا﴾ ظرْفٌ مُضمَّنٌ معنى الشَّرطِ، وهذا الشَّرطُ يُؤذِنَ بتكرُّرِ هذينِ القولَينِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال بعدَه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا﴾؛ فرفَعَ الأوَّلَ ﴿أَسَٰطِيرُ﴾؛ لأنَّهم أنْكروا إنزالَ القُرآنِ، فعَدَلوا عن الجوابِ، فقالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. ونصَبَ الثَّانيَ ﴿خَيْرًا﴾ من كلامِ المُتَّقينَ، وهم مُقِرُّون بالوحيِ والإنزالِ، فقالوا: ﴿خَيْرًا﴾، أي: أنزَلَ خيرًا؛ فيكونُ الجوابُ مُطابِقًا(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٢٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٣٠).
(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٨-١٥٩).

٧- قوله تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

- عُبِّرَ بصِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يُضِلُّونَهُم﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإضلالِ، أو باعتبارِ حالِ قولِهم لا حالِ الحمْلِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٧).

الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾: أي: تُخالِفونَ، وتُعادونَ، وتُخاصِمونَ، والمشاقةُ عبارةٌ عن كونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصداعٍ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: قد مكرَ الكُفَّارُ مِن قَبْلِ مُشرِكي قريشٍ مكرًا شديدًا برُسُلِهم، فأتى اللهُ بُنيانَهم مِن أساسِه وقاعِدتِه، فسقطَ عليهم السَّقفُ مِن فَوقِهم، فأهلكَهم اللهُ من حيثُ لا يحتَسِبونَ ولا يتوقَّعونَ. ثمَّ يومَ القيامةِ يَفضَحُهم اللهُ ويُذِلُّهم، ويَقولُ: أين ما كنتُم تعبُدون مِن دُوني، وتُعادُونَ اللهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؛ فلْيَدفَعوا

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٦).

عنكم العذابَ.

ثمَّ حكى سُبحانَه ما يَقولُه أولو العِلمِ في هذا الموقِفِ الهائلِ الشَّديدِ، حيث قالُوا: إنَّ الذُّلَّ في هذا اليَومِ والعذابَ على الكافرينَ، الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم في حالِ ظُلمِهم لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي، فاستسلَموا لأمرِ اللهِ حين عايَنوا الموتَ، وقالوا: ما كُنَّا نكفُرُ باللهِ، ولا نَعمَلُ شَيئًا مِن المعاصي، فيُقالُ لهم: كَذَبتُم، قد كُنتم تَعمَلون السُّوءَ، إنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم كُلِّها، وسيُجازيكم عليها، فادخُلوا أبوابَ جَهنَّم ماكثينَ فيها أبدًا، فلَبِئسَ منزلُ الذينَ تكبَّروا عن الإيمانِ باللهِ وتوحيده: نارُ جهنَّمَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عاقِبةَ إضلالِ المُشرِكينَ، وصَدِّهم السَّائلينَ عن القُرآنِ والإسلامِ في الآخِرةِ؛ أتبَعَه بالتَّهديدِ بأنْ يقعَ لهم ما وقَعَ فيه أمثالُهم في الدُّنيا مِن الخِزيِ والعذابِ، مع التَّأييسِ مِن أن يَبلُغوا بصُنعِهم ذلك مبلَغَ مُرادِهم، وأنَّهم خائِبونَ في صُنعِهم، كما خابَ مِن قَبلِهم الذين مَكَروا برُسُلِهم[١].

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ ﴾.

أي: قد مكرَ الكُفَّارُ- الذين كانوا مِن قَبلِ مُشرِكي قُرَيشٍ- بالرُّسُلِ وأتباعِهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، فأتاهم عذابُ اللهِ الذي اجتَثَّ بُنيانَهم مِن أصلِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٣).

وأساسِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وعامةُ المفسِّرين على أنَّه بُنيانٌ سَقَط، واختلفوا في هؤلاء الذين خَرَّ عليهم السَّقفُ، فذهب أكثَرُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ به نمروذُ بنُ كنعان؛ حيث بنى بناءً عظيمًا ببابل، ورام الصعودَ إلى السماءِ ليُقاتِلَ أهلَها، فأهبَّ اللهُ الريحَ، فخرَّ ذلك البناءُ عليه وعلى قومِه فهلكوا. وقيل: إنَّه بُختنصَّر وأصحابه. وقيل: هم المقتَسِمون الذين تقَدَّم ذِكرُهم في سورة الحِجرِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٩).

قال ابن جرير: (وأولى القولينِ بتأويل الآية قَولُ من قال: معنى ذلك: تساقطت عليهم سقوفُ بيوتِهم؛ إذ أتى أصولَها وقواعِدَها أمرُ الله، فائتفَكَت بهم منازِلُهم؛ لأنَّ ذلك هو الكلامُ المعروفُ مِن قواعدِ البُنيان وخَرِّ السَّقفِ، وتوجيهُ معاني كلامِ الله إلى الأشهَرِ الأعرَفِ منها أولى من توجيهِها إلى غيرِ ذلك ما وُجِدَ إليه سبيلٌ. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] يقولُ تعالى ذكره: وأتى هؤلاءِ الذين مكَروا من قَبلِ مُشركي قُريشٍ عذابُ اللهِ مِن حيثُ لا يَدرون أنَّه أتاهم منه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٦).

قال الشوكاني: (والأولى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في جميعِ المُبطِلين من المتقَدِّمين الذين يحاولون إلحاقَ الضُّرِّ بالمحقِّين، ومعنى المكر هنا: الكيدُ والتدبيرُ الذي لا يطابِقُ الحَقَّ، وفي هذا وعيدٌ للكُفَّار المعاصِرين له صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مَكرَهم سيعودُ عليهم كما عاد مكرُ مَن قبلَهم على أنفُسِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٩).

وقيل: هذا من بابِ المثَل؛ لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفَروا بالله وأشركوا في عبادتِه غيرَه، والمعنى: أهلكهم فكانوا بمنزلةِ من سقط بنيانُه عليه. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

قال السعدي: (وهذا من أحسَنِ الأمثالِ في إبطالِ اللهِ مَكرَ أعدائه؛ فإنهم فكَّروا وقدَّروا فيما جاءت به الرسُلُ لَمَّا كذَّبوهم، وجعلوا لهم أصولًا وقواعدَ مِن الباطِلِ يَرجِعون إليها، ويرُدُّون بها ما جاءت به الرسُلُ، واحتالوا أيضًا على إيقاعِ المكروه والضَّرَرِ بالرسُلِ ومَن تَبِعَهم، فصار مكرُهم وبالًا عليهم، فصار تدبيرُهم فيه تدميرَهم؛ وذلك لأنَّ مَكرَهم سَيِّئٌ، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾.

أي: فسقَطَ السَّقفُ على أولئك الكُفَّارِ مِن فَوقِ رُؤوسِهم، فأهلَكَهم اللهُ(١).

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.

أي: وأتاهم عذابُ اللهِ بَغتةً مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ ولا يتوقَّعونَ؛ إذ ظَنُّوا أنَّهم في أمانٍ منه(٢).

﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ المكَرةِ المتمَرِّدينَ عليه في الدُّنيا، أخَذ يذكُرُ حالَهم في الآخرةِ؛ تقريرًا للآخرةِ، وبيانًا لأنَّ عَذابَهم غيرُ مَقصورٍ على الدُّنيويِّ(٣).

وأيضًا فإنَّها عطفٌ على ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [النحل: ٢٥]؛ لأنَّ ذلك وعيدٌ لهم، وهذا تكملةٌ له(٤).

﴿ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).

أي: ثُمَّ يومَ القيامةِ يُذِلُّ اللهُ الكافرينَ ويُهينُهم بالعذابِ، ويُظهِرُ فَضائِحَهم، فما كانت تُخفِيه ضمائِرُهم يَجعَلُه علانِيَةً[١].

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾.

أي: ويَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ للمُشرِكينَ: أين الذين كُنتُم تَعبُدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُركائي، وتتَّخِذونَهم أولياءَ مِن دوني، وتُعادُونَ اللهَ وحِزبَه بسَبَبِهم؟! فلْيَدفَعوا عنكم هذا العَذابَ[٢].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

أي: قال الذينَ آتاهم اللهُ العِلمَ: إنَّ الذِّلَّةَ والهَوانَ يومَ القيامةِ والعذابَ كائِنٌ على الكافِرينَ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

قال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾: (الصَّوابُ: أن يَعُمَّ جميعَ مَن آتاه اللهُ عِلمَ ذلك مِن جَميعِ مَن حضَرَ الموقِفَ، مِن ملَكٍ أو إنسيٍّ، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٨٩).

وقال ابن عاشور: (والذينَ أوتُوا العِلمَ: هم الذين آتاهم اللهُ عِلمَ الحقائقِ مِن الرُّسُلِ والأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- والمُؤمِنونَ، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ حُلولِ العَذابِ بمَن حَلَّ بهم الاستِئصالُ، وما يحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ؛ ذكَرَ حالةَ وَفاتِهم التي هي بين حالَيِ الدُّنيا والآخِرةِ، وهي حالٌ تَعرِضُ لجَميعِهم، سَواءٌ منهم مَن أدركَه الاستِئصالُ ومَن هلك قبلَ ذلك[١].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الخِزيَ والسُّوءَ على الكافِرينَ الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فأورَدوها بذلك موارِدَ الهَلاكِ[٢].

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾.

أي: فاستسلَمَ أولئك الظَّالِمونَ عندَ المَوتِ لله، وانقادُوا لطاعةِ رَبِّهم حين عايَنوا المَوتَ، وقالوا للمَلائِكةِ الذين يَقبِضونَ أرواحَهم، مُنكِرينَ كُفرَهم ومَعاصِيَهم: ما كُنَّا نكفُرُ باللهِ، ولا نُشرِكُ به ولا نَعصِيه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨).

أي: فيُقالُ لهم: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ، بل كُنتُم تَعمَلونَ السُّوءَ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بالذي كُنتُم تَعمَلونَه مِن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، فلا ينفَعُكم إنكارُكم، وسيُجازيكم على أعمالِكم(١).

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تَفريعٌ على إبطالِ نَفيِ المُشرِكينَ عمَلَ السُّوءِ؛ لأنَّ إثباتَ كَونِهم كانوا يَعمَلونَ السُّوءَ يقتضي استِحقاقَهم العذابَ، وذلك عندما كشفَ لهم عن مَقَرِّهم الأخيرِ(٢).

﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ، فكُلٌّ منكم يُعذَّبُ في طبقةٍ مِن طَبقاتِها بحسَبِ عمَلِه، ماكثينَ في جهنَّمَ أبدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨).

قال الرازي: (لا يبعُدُ أن يكون قائِلُ هذا القولِ هو اللهُ تعالى، أو بعضُ الملائكةِ؛ ردًّا عليهم وتكذيبًا لهم). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠).

وقال البيضاوي: (أي: فتُجيبهم الملائكة... واحتمل أن يكونَ الرَّادُّ عليهم هو اللهُ تعالى أو أولو العِلمِ). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٥).

واختار ابن جرير، وابن كثير أنَّ الرادَّ عليهم هو اللهُ سُبحانه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٧).

واختار ابن الجوزي، والقرطبي أنَّ الرادَّ عليهم هم الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: فلَبِئسَ مَنزِلُ المتكبِّرينَ عن الإيمانِ باللهِ وتَوحيدِه، نارُ جهنَّمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فيه فَضيلةُ أهلِ العِلمِ، وأنَّهم النَّاطِقونَ بالحَقِّ في هذه الدُّنيا، ويومَ يَقومُ الأشهادُ، وأنَّ لِقَولِهم اعتِبارًا عندَ اللهِ، وعند خَلقِه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الإتيانُ والمَجيءُ مِن اللهِ تعالى نوعانِ: مُطلَقٌ ومُقَيَّدٌ.

النوعُ الأولُ: المَجيءُ والإتيانُ المقيَّدُ، كأن يُقيَّدَ المجيءُ بمجيءِ رَحمتِه أو عذابِه وغيرِ ذلك، ومِن المقيَّدِ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقولُه تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١].

النوعُ الثاني: المجيءُ والإتيانُ المُطلَقُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقَولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ

(ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٨).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا لا يكونُ إلَّا مَجيئَه سُبحانَه، هذا إذا كان مُطلَقًا، فكيف إذا قُيِّدَ بما يجعَلُه صريحًا في مجيئِه نَفسِه، كقَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فعَطَفَ مَجيئَه على مجيءِ الملائِكةِ، ثمَّ عطَفَ مَجيءَ آياتِه على مَجيئِه.

ومِنَ المجيءِ المُقَيَّدِ قَولُه تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، فلمَّا قَيَّده بالمفعولِ -وهو البُنيانُ- وبالمجرورِ -وهو القَواعِدُ- دلَّ ذلك على مجيءِ ما بيَّنَه؛ إذ مِن المعلومِ أنَّ اللهَ -سُبحانَه وتعالى- إذا جاء بنَفسِه، لا يَجيءُ مِن أساسِ الحِيطانِ وأسفَلِها، وهذا يُشبِهُ قَولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢] فهذا مجيءٌ مُقَيَّدٌ لِقَومٍ مَخصوصينَ، قد أوقَعَ بهم بأسَه، وعَلِمَ السَّامِعونَ أنَّ جُنودَه مِن المَلائِكةِ والمُسلِمينَ أَتَوهم، فكان في هذا السِّياقِ ما يدُلُّ على المرادِ، على أنَّه لا يمتَنِعُ في الآيتَينِ أن يكونَ الإتيانُ على حَقيقتِه، ويكونَ ذلك دُنُوًّا ممَّن يُريدُ إهلاكَهم بغَضَبِه وانتِقامِه، كما يَدنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ مِن الحُجَّاجِ برَحمتِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ عدلَ عن أن يقولَ: (أعداؤُهم) أو (المُؤمِنونَ) ونحوُه؛ إجلالًا لهم بوَصفِهم بالعِلمِ الذي هو أشرَفُ الصِّفاتِ؛ لِكَونِه مَنشأَ كُلِّ فَضيلةٍ، وتَعريضًا بأنَّ الحامِلَ للكُفَّارِ على الاستِكبارِ الجَهلُ الذي هو سبَبُ كُلِّ رَذيلةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيم (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إن قيلَ: هذه الآياتُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يكتُمونَ يومَ القيامةِ ما كانوا عليه مِن الكُفرِ والمعاصي، كقَولِه تعالى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقَولِه تعالى عنهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾، ونحوِ ذلك، مع أنَّ اللهَ صَرَّحَ بأنَّهم لا يَكتُمونَ حَديثًا في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

فالجوابُ: هو أنَّهم يقولونَ بألسِنَتِهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ أيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَ، فالكَتمُ باعتِبارِ النُّطقِ بالجُحودِ وبالألسِنةِ، وعدمُ الكَتمِ باعتبارِ شَهادةِ أعضائِهم عليهم، وهذا الجمعُ يُشيرُ إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. وأجاب بعضُ العلماءِ بتعدُّدِ الأماكنِ، فيكتمونَ في وقتٍ، ولا يكتمونَ في وقتٍ آخرَ، والعلم عند الله تعالى[(١)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ يدُلُّ على تَفاوُتِ مَنازِلِهم في العِقابِ، فيكونُ عِقابُ بَعضِهم أعظَمَ مِن عِقابِ بَعضٍ[(٢)].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إنَّما صرَّحَ تعالى بذِكرِ الخُلودِ؛ ليَكونَ الغَمُّ والحُزنُ أعظَمَ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾
وَصفُ التكَبُّرِ دَليلٌ على استِحقاقِ صاحِبِه النَّارَ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فيه تَشبيهٌ، حيث شُبِّهَت حالُ أولئك الماكِرينَ في تَسويتِهم المكايدَ؛ للإيقاعِ بالرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وفي إبطالِه تعالى تلك الحيلَ، وجَعْلِه إيَّاها أسبابًا لهلاكِهم، بحالِ قومٍ بَنَوا بُنيانًا وعَمَدوه بالأساطينِ، فأُتِيَ ذلك مِن قِبَلِ أساطينِه بأنْ ضُعْضِعَت، فسقَطَ عليهم السَّقفُ فهَلَكوا؛ ووَجْهُ الشَّبهِ: أنَّ ما عَدُّوه سبَبَ بقائِهم، عاد سبَبَ استئصالِهم وفَنائِهم، كقولِهم: مَن حفَرَ لأخيه جُبًّا، وقَعَ فيه مُنكبًّا[2]، وهذا الوجهُ على اعتبارِ أنَّ المذكورَ مِن بابِ المثلِ.

- وقولُه: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ فيه احتراسٌ، حيث أتَى بذِكْرِ ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مع أنَّ السَّقفَ لا يكونُ إلَّا مِن فوق؛ للاحتراسِ من احتمالِ أنَّ السَّقفَ قد يكونُ أرضًا بالنِّسبةِ لغيرِهم؛ فإنَّ كثيرًا من السُّقوفِ يكونُ أرضًا لقومٍ وسَقفًا لقومٍ آخرينَ؛ فرفَعَ اللهُ تعالى هذا الاحتمالَ بجُملتَينِ، وهما قولُه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾، وقولُه: ﴿فَخَرَّ﴾؛ لأنَّها لا تُستَعْمَلُ إلَّا فيما يهبِطُ أو

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٨٩-٢٩٠).

يسقُطُ مِن العُلوِّ إلى السُّفلِ[١]. وقولُه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ تأكيدٌ لجُملةِ ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ﴾[٢]. وقيل: إنَّ السَّقفَ رُبَّما يخِرُّ ولا يكونُ تحتَه أحَدٌ، فلمَّا قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾، عُلِم أنَّهم كانوا تَحتَه، فخرَّ عليهم فأُهلِكوا جميعًا[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ فيه الجَمعُ بينَ الإهانةِ بالفعلِ، والإهانةِ بالقولِ بالتَّقريعِ والتَّوبيخِ، وأضاف تَعالى الشُّركاءَ إليه، والإضافةُ تكونُ بأدْنَى مُلابَسةٍ، والمعنى: شُركائي في زَعمِكم؛ فالإضافةُ إلى نفْسِه حكايةٌ لإضافتِهم؛ ليُوبِّخَهم بها على طريقِ الاستهزاءِ بهم[٤]، وهو أقطَعُ في تَوبيخِهم، وأدَلُّ على تناهي الغَضَبِ[٥].

- ﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ الاستفهامُ عن المكانِ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ تَهكُّمٍ؛ ليظهَرَ لهم كالطَّماعيَةِ للبحثِ عن آلهتِهم، وهم عَلِموا أنْ لا وُجودَ لهم، ولا مكانَ لحُلولِهم[٦].

(١) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن الكريم)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٩٢-٢٩٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ١٩٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٨).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٢).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٦).

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للإيماءِ إلى ما بينَ الجَزاءَين مِن التَّفاوُتِ، مع ما يدُلُّ عليه من التَّراخي الزَّمانيِّ. وتَغييرُ السَّبكِ بتقديمِ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ ليس لقَصرِ الخِزْيِ على يومِ القيامةِ- كما هو المُتبادِرُ مِن تَقديمِ الظَّرفِ على الفعلِ- بل لأنَّ الإخبارَ بجزائِهم في الدُّنيا مُؤْذِنٌ بأنَّ لهم جزاءً أُخرويًّا، فتبقَى النَّفسُ مُترقِّبةً إلى وُرودِه، سائلةً عنه بأنَّه ماذا؟ مع تيقُّنِها بأنَّه في الآخرةِ؛ فسيقَ الكلامُ على وَجْهٍ يُؤْذِنُ بأنَّ المقصودَ بالذِّكرِ إخزاؤُهم، لا كونُه يومَ القيامةِ[1].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا القولُ قاله الَّذين أُوتوا العلمَ؛ توبيخًا لهم، وإظهارًا للشَّماتةِ بهم، وتَقريرًا لِمَا كانوا يَعِظونهم، وتحقيقًا لِمَا أَوعَدوهم به. وإيثارُ صِيغَةِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه وتَحتُّمِ وُقوعِه، حسْبَما هو المُعتادُ في إخبارِه سُبحانَه[2].

- وإيرادُ الظَّرفِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم كانوا قبلَ ذلك في عِزَّةٍ وشِقاقٍ[3].

- وَجِيءَ بجُملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ غيرَ معطوفةٍ؛ لأنَّها واقعةٌ مَوقِعَ الجوابِ لقولِه: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الَّذين أُوتوا العلمَ ابْتَدروا الجوابَ لَمَّا وجَمَ المُشركونَ، فلم يُحِيروا جوابًا، فأجاب الَّذين أُوتوا العلمَ جوابًا جامعًا؛ لنَفيِ أنْ يكونَ الشُّركاءُ المَزْعومون مُغْنِينَ عن الَّذين أشركوا شيئًا، وأنَّ الخِزيَ والسُّوءَ أحاطَا بالكافِرين[4].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٠٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٦).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على حَصرِ الخزيِ والضَّرِّ يومَ القيامةِ في الكونِ على الكافرينَ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ لبُلوغِ المُعرَّفِ بلامِ الجنسِ ﴿ٱلْخِزْىَ﴾ حَدَّ النِّهايةِ في جنسِه، حتَّى كأنَّ غيرَه من جنسِه ليس من ذلك الجنسِ. وتأكيدُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾، وبصِيغةِ القصرِ، والإتيانُ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾ الدَّالِّ على تمكُّنِ الخزيِ والسُّوءِ منهم: يفيدُ معنى التَّعجُّبِ مِن هَولِ ما أُعِدَّ لهم(١).

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ ...﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾؛ لاستحضارِ صُورةِ تَوفِّيهم إيَّاهم لِمَا فيها مِن الهَولِ. والعُدولُ إلى صِيغَةِ الماضي ﴿فَأَلْقَوُا۟﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الوُقوعِ(٢).

- قولُه: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ هو عطفٌ على قولِه: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ...﴾ وما بينهما -يعني قولَه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾- جُملةٌ اعتراضيَّةٌ جِيءَ بها؛ تحقيقًا لِمَا حاق بهم من الخِزيِ على رُؤوسِ الأشهادِ(٣).

٤- قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جُملةُ ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ تذييلٌ، ولم يُعبِّرْ عن جهنَّمَ بالدَّارِ كما عبَّرَ عن الجنَّةِ فيما يأتي بقولِه تعالى: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ تَحقيرًا لهم، وأنَّهم ليسوا في جَهنَّمَ بمنزلةِ أهلِ الدَّارِ، بل هم مُتراصُّونَ في النَّارِ وهم في مَثْوًى، أي: محَلِّ ثَواءٍ[1]. وذِكْرُهم بعُنوانِ التَّكبُّرِ للإشعارِ بعِلِّيتِه لثَوائِهم فيها[2].

- قولُه: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال في سُورةِ الزُّمرِ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢]، وقال في سُورةِ غافرٍ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]؛ فخُصَّتِ الآيةُ في سُورةِ النَّحلِ وحدَها بدُخولِ اللَّامِ على (بِئْسَ) فيها، وخَلَتِ الآيتانِ مِن السُّورتينِ منها؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ من هذه السُّورةِ في ذِكْرِ قومٍ قد ضَلُّوا في أنفُسِهم وأضَلُّوا غيرَهم، وهم الَّذين أخبَرَ اللهُ تعالى عن أتباعِهم أنَّهم سأَلُوهم عن القُرآنِ، فقالوا: ليس من عند اللهِ، وإنَّما هو أساطيرُ الأوَّلينَ، وهؤلاء أكثرُ النَّاسِ وأشَدُّهم آثامًا، وأشدُّهم عِقابًا، ومَن هذه صِفَتُه احْتِيجَ عند تَغليظِ العِقابِ له إلى المُبالغةِ في تأكيدِ لفظِه، فاختِيرَت اللَّامُ هنا لذلك، ولأنَّ بعدها في ذِكْرِ أهلِ الجنَّةِ قولَه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]؛ فاللَّامُ في ﴿وَلَنِعۡمَ﴾ بإزاءِ اللَّامِ في ﴿لَبِئۡسَ﴾، وليس كذلك الآيتانُ في سُورتَي الزُّمَرِ وغافرٍ؛ لأنَّهما في ذِكْرِ جُملةِ الكُفَّارِ؛ فلمَّا كان المَذكورونَ في سُورةِ النَّحلِ ممَّن لزِمَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٠٩).

وِزْرانِ؛ عن ذُنوبِهم الَّتي أَتَوها، وعن ذُنوبِ غيرِهم الَّتي حملوا عليها، ولم يذكُرْ مَن سِواهم في الآيتينِ الأُخريينِ بحمْلِ أثقالِهم: حسُنَ التَّوكيدُ هناك فضلَ حُسنٍ؛ فلذلك خُصَّ باللَّامِ[1]. وقيل غير ذلك[2].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٣٧-٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٧).

الآيات (٣٠-٣٢)

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقيلَ للمُتَّقين: ما الذي أنزلَ اللهُ على النبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قالوا: أنزلَ اللهُ عليه القُرآنَ، وهو الخيرُ والهُدى. للَّذينَ آمَنُوا باللهِ ورَسولِه وأحسَنوا في هذه الدُّنيا ثوابٌ حَسَنٌ؛ مِن النَّصرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وغيرِ ذلك مِن خيرِ الدُّنيا، ولَدارُ الآخرةِ لهم خَيرٌ وأعظَمُ ممَّا أُوتوه في الدُّنيا، ولَنِعمَ دارُ المتَّقين في الآخرةِ جنَّاتُ إقامةٍ لهم، يستَقِرُّون فيها تجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ، لهم فيها كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم. مِثلَ هذا الجزاءِ الطَّيِّبِ يَجزي اللهُ المتَّقين الذين تَقبِضُ الملائِكةُ أرواحَهم طاهرينَ مِن الكُفرِ والمعاصي، تقولُ الملائِكةُ لهم: سَلامٌ عليكم، ادخُلوا الجنَّةَ بما كُنتُم تعمَلونَ مِن الإيمانِ باللهِ والأعمالِ الصَّالحةِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِيلَ المُكَذِّبينَ بما أنزَلَ اللهُ؛ ذكَرَ ما قالَه المتَّقونَ، وأنَّهم

اعتَرَفوا وأقَرُّوا بأنَّ ما أنزَلَه اللهُ نِعمةٌ عَظيمةٌ، وخَيرٌ عَظيمٌ امتَنَّ اللهُ به على العِبادِ، فقَبِلوا تلك النِّعمةَ، وتلَقَّوها بالقَبولِ والانقيادِ، وشَكَروا اللهَ عليها، فعَلِموها وعَمِلوا لها(١)، فلمَّا افْتُتِحَت صِفَةُ سيِّئاتِ الكافرينَ وعواقِبِها بأنَّهم إذا قيل لهم: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، جاءت هنا مُقابَلَةُ حالِهم بحالِ حَسناتِ المُؤمنينَ، وحُسْنِ عواقِبِها؛ فافْتُتِحَ ذلك بمُقابلِ ما افْتُتِحَت به قِصَّةُ الكافرينَ، فجاء التَّنظيرُ بين القِصَّتينِ في أبدعِ نَظمٍ(٢).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ في الدُّنيا والآخرةِ، ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ في الدارَينِ، فقال تعالى(٣):

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْۚ قَالُواْ خَيْرًا﴾.

أي: وقيلَ للمُتَّقينَ: ماذا أنزَلَ ربُّكم مِن الوَحيِ على نَبيِّه مُحمَّدٍ- عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ قالوا: أنزَلَ اللهُ خَيرًا عَظيمًا في الدُّنيا والآخِرةِ- وهو القُرآنُ- رَحمةً وهُدًى وبَرَكةً لِمَن آمنَ به واتَّبَعَه(٤).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٩).

قال ابنُ عاشور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾: (المرادُ بهم المُؤمِنونَ المعهودونَ في مكَّة، فالموصولُ للعَهدِ. والمعنى: أنَّ المؤمنينَ سُئِلوا عن القرآنِ ومَن جاء به، فأرشَدوا السائلينَ، ولم يتردَّدوا في الكَشفِ عن حقيقةِ القرآنِ بأوجَزِ بيانٍ وأجمَعِه، وهو كلمةُ ﴿خَيْرًا﴾ المنصوبةُ؛ فإنَّ لَفظَها شامِلٌ لكُلِّ خيرٍ في الدنيا وكلِّ خيرٍ في الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤١).

أي: للمُؤمِنينَ الذين أحسَنوا[(١)] في عِبادةِ اللهِ، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ، ثوابٌ حَسَنٌ عاجِلٌ في الدُّنيا، بالحياةِ الطَّيِّبةِ والرِّزقِ الحسَنِ، وحُصولِ السُّرورِ، وتحَقُّقِ السَّعادةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِى فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

---

(١) قال ابنُ عطيةَ: (واختلف المتأوِّلون في قولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ...﴾ إلى آخر الآية، فقالت فِرقةٌ: هو ابتداءُ كلامٍ مِن اللهِ مَقطوعٌ مِمَّا قبله، لكنَّه بالمعنى وعدٌ متَّصِلٌ بذِكرِ إحسانِ المتَّقين في مقالتِهم، وقالت فرقةٌ: هو من كلامِ الذين قالوا خيرًا، وهو تفسيرٌ للخيرِ الذي أنزل اللهُ في الوحي على نبيِّنا، خبرًا أنَّ مَن أحسَنَ في الدنيا بطاعةٍ فله حسنةٌ في الدنيا ونعيمٌ في الآخرةِ بدُخول الجنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٠).

وممن اختار الأوَّل، وهو أنَّه ابتداءُ كلامٍ مِن الله: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحدي، والخازن، والعليمي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).

وممن اختار أنَّه مِن كلامِ الذين اتَّقَوا: الزمخشري، والرسعني، والرازي، وابنُ جزي، وأبو حيان، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت دارُ الدُّنيا سريعةَ الزَّوالِ، أخبَرَ عن حالِهم في الآخرةِ، فقال:

﴿وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

أي: ولَجزاءُ المُؤمِنينَ في الدَّارِ الآخرةِ في الجنَّةِ خَيرٌ لهم مِن الجزاءِ المُعَجَّلِ لهم في دارِ الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ [القصص: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: ولَنِعْمَ دارُ المُتَّقينَ -الذين يَمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ، ويَجتَنِبونَ نواهيَه- الجنةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٠).

في الآخرةِ(١).

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان المَدحُ في قَولِه: ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مُشَوِّقًا لتفصيلِ ذلك، قيلَ هنا(٢):

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: بَساتينُ إقامةٍ يَدخُلُها المُتَّقونَ، ولا يَرحَلونَ عنها، تَجري مِن تَحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ(٣).

﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

أي: للمتَّقينَ في جناتِ عدنٍ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وما يُريدونَه(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجَزاءِ الحسَنِ يَجزي اللهُ كُلَّ مَن آمنَ به واتَّقاه، وأحسَنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

عَمَلَه[١].

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٣٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى عاد إلى وَصفِ المتَّقينَ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في مُقابلةِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[٢] [النحل: ٢٨].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكر ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، حَثَّ هنا على مُلازَمةِ التَّقوى بالتَّنبيهِ على أنَّ العِبرةَ بحالِ المَوتِ، فقال تعالى[٣]:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾.

أي: يَجزي اللهُ بذلك المتَّقينَ الذين تَقبِضُ ملائِكةُ المَوتِ أرواحَهم، والحالُ أنَّهم طَيِّبونَ بطَهارتِهم من الشِّركِ والمعاصي، ومِن كُلِّ ما يُخِلُّ بإيمانِهم[٤].

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾.

أي: تقولُ ملائِكةُ الموتِ للمُتَّقينَ عند قَبضِ أرواحِهم: سَلامٌ عليكم، تحيَّةٌ كامِلةٌ لكم، وسَلامةٌ لكم مِن كُلِّ مَكروهٍ وآفةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٤).

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ويقولون أيضًا: ادخُلوا الجنَّةَ بسبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في حياتِكم الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ طلبًا لِمَرضاةِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ * نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ * وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣- ٧٤].*

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ من الإيمانِ باللهِ والانقيادِ لأمرِه؛ فإنَّ العمَلَ هو السَّببُ والمادَّةُ والأصلُ في دخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ، وذلك العمَلُ حصل لهم برحمةِ الله ومِنَّتِه عليهم، لا بحَولِهم وقوَّتِهم(٢).

قال السعدي: (﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: التحيةُ الكاملةُ حاصلةٌ لكم، والسلامةُ مِن كلِّ آفةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

قال القرطبي: (قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ يحتَمِل وجهين: أحدهما: أن يكونَ معناه: أبشِروا بدخُولِ الجنَّة. الثاني: أن يقولوا ذلك لهم في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩). ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١١٥).

٢- دلَّ القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ على أنَّ لكلِّ مَن عَمِلَ خيرًا أجرينِ: عَمَلُه في الدُّنيا، ويُكَمَّلُ له أجرُه في الآخرةِ، كقَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وفي الآيةِ الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]، وقال في هذه السُّورةِ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال فيها عن خليلِه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢] فقد تكرَّر هذا المعنى في هذه السُّورةِ دونَ غيرِها في أربعةِ مَواضِعَ لسِرٍّ بديعٍ؛ فإنَّها سورةُ النِّعَمِ التي عَدَّد اللَّهُ سبحانَه فيها أصُولَ النِّعَمِ وفُروعَها، فعرَّفَ عبادَه أنَّ لهم عنده في الآخرةِ مِن النِّعَمِ أضعافَ هذه بما لا يُدرَكُ تَفاوُتُه، وأنَّ هذه مِن بَعضِ نِعَمِه العاجِلةِ عليهم، وأنَّهم إن أطاعوه زادَهم إلى هذه النِّعَمِ نِعَمًا أخرى، ثمَّ في الآخرةِ يُوَفِّيهم أجورَ أعمالِهم تمامَ التَّوفيةِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بيانُ أنَّه سُبحانَه يُسعِدُ المُحسِنَ بإحسانِه في الدُّنيا وفي الآخِرةِ- كما أخبَرَ أنَّه يُشقي المُسيءَ بإساءَتِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(٢) [طه: ١٢٤].

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).
(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾، فهذه الحالةُ لا تَحصُلُ إلَّا في الجنَّةِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ يفيدُ الحصرَ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا يجِدُ كُلَّ ما يُريدُه في الدُّنيا[1].

٢- أسندَ هنا -جلَّ وعلا- التَّوفِّيَ للمَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾، وأسنده في (السجدة) لملَكِ الموتِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [السجدة: ١١]، وأسنَدَه في (الزُّمَر) إلى نفسِه- جلَّ وعلا- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، ولا مُعارَضةَ بين الآياتِ المذكورةِ؛ فإسنادُه تعالى التَّوفِّيَ لنَفسِه؛ لأنَّه لا يموتُ أحدٌ إلَّا بمَشيئتِه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وأسنده لمَلَك الموتِ؛ لأنَّه هو المأمورُ بقَبضِ الأرواحِ، وأسنَدَه إلى الملائِكةِ؛ لأنَّ لِمَلَك الموتِ أعوانًا مِن الملائكةِ، يَنزِعونَ الرُّوحَ مِن الجسَدِ إلى الحُلقومِ فيأخُذُها ملَكُ الموتِ، كما قاله بعضُ العُلَماءِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ هذا النَّصُّ وأمثالُه صَريحٌ بإثباتِ المَلائِكةِ، وأفعالِها، وكَلامِها، وتأثيرِها في العالَمِ بالقَولِ والفِعلِ، وهذا يُبطِلُ قولَ مَن قال: (إنَّ المُؤَثِّرَ في العالَم هو القُوى النَّفسانيَّةُ أو القُوى الطبيعيَّةُ)؛ فإنَّ الملائِكةَ خارِجةٌ عن هذا وهذا، وحينئذٍ فما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣-٣٧٤).

يَحصُلُ مِن خوارِقِ العاداتِ بأفعالِ الملائِكةِ أعظَمُ ممَّا يَحصُلُ بمُجَرَّدِ القُوى النَّفسانيَّةِ[1].

٤- قد حرَّمَ اللهُ الجنَّةَ على كلِّ خَبيثٍ، بل جعَلَها مأوى الطَّيِّبينَ، ولا يَدخُلُها إلَّا طَيِّبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] استحَقُّوا سلامَ المَلائكةِ ودُخولَ الجنَّةِ بِسبَبِ طِيبِهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الملائكةَ تُسَلِّمُ على المُؤمِنِ عند قَبضِ رُوحِه، وتُبَشِّرُه بما له عند ربِّه مِن الثَّوابِ[3].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دليلٌ على نعيمِ القبرِ؛ لأنَّه قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآنَ، مِن موتِكم[4].

بلاغةُ الآيات:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُبتدأً

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

عِدَةً للقائلينَ، ويُجْعَلَ قولُهم من جُملةِ إحسانِهم، ويُحْمَدوا عليه(١).

- قولُه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ الَّذين أحْسَنوا هم المُتَّقونَ؛ فهو مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ توصُّلًا بالإتيانِ بالموصولِ إلى الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخبرِ، أي: جزاؤُهم حَسنةٌ؛ لأنَّهم أحْسَنوا(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿فِيهَا﴾؛ للاحترازِ عن توهُّمِ تعلُّقِه بالمشيئةِ، أو لأنَّ تأخيرَ ما حَقُّه التَّقديمُ يُوجِبُ تَرقُّبَ النَّفسِ إليه، فيتمكَّنُ عند وُرودِه عليها فضْلَ تمكُّنٍ(٣).

- ومَضمونُ جُملةِ ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ مُكمِّلٌ لِمَا في جُملةِ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مِن استحضارِ الحالةِ البديعةِ(٤).

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مُستأنَفةٌ، والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لتَمييزِ الجزاءِ والتَّنويهِ به، وجَعلِ الجزاءِ لتَمييزِه وكمالِه بحيث يُشَبَّهُ به جَزاءُ المُتَّقينَ. والتَّقديرُ: يَجْزي اللهُ المُتَّقينَ جَزاءً كذلك الجزاءِ الَّذي عَلِمْتموه، وهو تَذييلٌ؛ لأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للعُمومِ(٥).

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مُقابِلُ قولِه في أضدادِهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ هو سَلامُ تأنيسٍ وإكرامٍ حين مَجيئِهم ليتوفَّوْهم. وقولُهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مُقابِلُ قولِهم لأضدادِهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ، ونزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: ما ينتظِرُ المُشرِكونَ إلَّا أن تأتيَهم الملائِكةُ؛ لِتَقبِضَ أرواحَهم وهم على الكُفرِ، أو يأتيَ أمرُ اللهِ بحَشرِهم يومَ القيامةِ، كذلك أصَرَّ الكافِرونَ مِن قَبلِهم على الكُفرِ، فأتاهم أمرُ اللهِ فهَلَكوا، وما ظَلَمَهم اللهُ، ولكِنَّهم كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم، فاستحَقُّوا عذابَ اللهِ، فأصابَتْهم عُقوبةُ ذُنوبِهم التي عَمِلوها، وأحاط بهم العَذابُ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومن الرسلِ إذا توعَّدوهم به.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا طعَن القَومُ في القُرآنِ بأن قالوا: إنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وذكَرَ اللهُ تعالى أنواعَ التَّهديدِ والوعيدِ لهم، ثمَّ أتبَعَه بذِكرِ الوَعدِ لِمَن وصفَ القُرآنَ بكَونِه خيرًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

وصِدقًا وصَوابًا- عاد إلى بيانِ أنَّ أولئك الكُفَّارَ لا يَنزَجِرونَ عن الكُفرِ بسَبَبِ البياناتِ التي ذَكَرناها، بل كانوا لا يَنزَجِرونَ عن تلك الأقوالِ الباطِلةِ إلَّا إذا جاءَتهم الملائِكةُ بالتَّهديدِ، وأتاهم أمرُ رَبِّك، وهو عذابُ الاستِئصالِ[1].

وأيضًا فلَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن أحوالِ الكُفَّارِ السَّائلينَ في نُزولِ الملائكةِ بعدَ أن وهَّى شُبَهَهم، وأخبَرَ عن تَوفِّي الملائِكةِ لهم ولأضدادِهم المُؤمِنينَ، مُشيرًا بذلك إلى أنَّ سُنَّتَه جَرَت بأنَّهم لا يَنزِلونَ إلَّا لإنزالِ الرُّوحِ مِن أمْرِه على مَن يختَصُّه لذلك، أو لأمرٍ فَيصلٍ لا مُهلةَ فيه- قال مُنكِرًا عليهم[2]:

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: هل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ -المُتقاعِسونَ عن الإيمانِ بالرُّسُلِ فيما أنزلَ إليهم ربُّهم- إلَّا أن تأتيَهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم[3]؟

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾.

أي: أو يأتيَ أمرُ اللهِ بحَشرِهم يومَ القيامةِ[4].

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩).

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المعنى: أو يأتيَ أمرُ الله بعذابهم في الدُّنيا. وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

أي: كما يفعَلُ هؤلاءِ المُشرِكونَ فعَل أسلافُهم الكفرةُ ذلك أيضًا، فأصرُّوا على كفرِهم، وتَمادَوا في شركِهم إلى أن هلكوا[1].

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: وما ظلَمَ اللهُ الكافرينَ بعدَ أن أقامَ عليهم الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ، وإنزالِ الكتُبِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والمعاصي، ومُخالَفةِ الرُّسُلِ، فاستحَقُّوا عذابَ اللهِ[2].

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾.

أي: فأصاب أولئك الكافرينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ- الذين فَعَلوا فِعلَ مُشركي قُرَيشٍ- عُقوباتُ كُفرِهم، وأعمالِهم السَّيِّئةِ التي اكتَسَبوها[3].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

أي: ونزَل وأحاطَ بالكافرينَ عذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ومِن الرُّسُلِ إذا توعَّدوهم به[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).
وقال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: كما يفعلُ هؤلاء مِن انتظارِهم ملائكةَ اللَّهِ لقبضِ أرواحِهم، أو إتيانِ أمرِ اللَّهِ فَعَلَ أسلافُهم مِنَ الكفرةِ باللَّهِ؛ لأنَّ ذلك في كُلِّ مشركٍ باللَّهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير))

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ القَومُ لم ينتَظِروا هذه الأشياءَ؛ لأنَّهم ما آمَنوا بها، ولكِنَّ امتِناعَهم عن الإيمانِ أوجبَ عليهم العذابَ، فأُضيفَ ذلك إليهم، أي: عاقِبَتُهم العذابُ[(١)].

بلاغة الآيتين:

١- قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جُملةِ ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والاستفهامُ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء بعدَه الاستثناءُ. و﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا بمعنى الانتظارِ، وهو النَّظِرَةُ، والكلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تذكيرًا بتَحقيقِ الوعيدِ، وعدَمِ استبطائِه، وتعريضًا بالمُشركينَ بالتَّحذيرِ من اغتِرارِهم بتأخُّرِ الوعيدِ، وحَثًّا لهم على المُبادرةِ بالإيمانِ، وهذا قَريبٌ من تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّه، وما هو بذلك[(٢)].

- وإسنادُ الانتظارِ المذكورِ إليهم جارٍ على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ بتَنزيلِهم منزلةَ مَن ينتظِرُ أحدَ الأمرينِ؛ لأنَّ حالَهم من الإعراضِ عن الوعيدِ، وعدَمِ التَّفكُّرِ في دَلائلِ صِدْقِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع ظُهورِ تلك

(٤/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

الدَّلائلِ، وإفادتِها التَّحقُّقَ- كحالِ مَن أيقَنَ حُلولَ أحدِ الأمرينِ به، فهو يترقَّبُ أحدَهما(١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾؛ ووَجْهُ هذا الاعتراضِ: أنَّ التَّعرُّضَ إلى ما فعَلَه الَّذين مِن قبلِهم يُشيرُ إلى ما كان مِن عاقبتِهم، وهو استئصالُهم، فعُقِّبَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: فيما أصابَهم، ولمَّا كان هذا الاعتراضُ مُشتمِلًا على أنَّهم ظَلموا أنفُسَهم، صار تَفريعُ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ عليه أو على ما قبلَه، وهو أسلوبٌ مِن نَظْمِ الكلامِ عزيزٌ. وتَقديرُ أصلِه: كذلك فعَلَ الَّذين من قبلِهم وظَلموا أنفُسَهم، فأصابَهم سَيِّئاتُ ما عَمِلوا، وما ظَلَمهم اللهُ؛ ففي تَغييرِ الأُسلوبِ المُتعارفِ تَشويقٌ إلى الخبرِ، وتَهويلٌ له بأنَّه ظُلْمُ أنفُسِهم، وأنَّ اللهَ لم يظلِمْهم، فيترقَّبُ السَّامعُ خبرًا مُفظِعًا، وهو: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ كان الظَّاهرُ أنْ يُقال: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كما في سُورةِ الزُّخرفِ (آية: ٧٦)، لكنَّه أُوثِرَ هنا ما عليه النَّظْمُ الكريمُ؛ لإفادةِ أنَّ غائِلةَ ظُلْمِهم آيلةٌ إليهم، وعاقِبَتَه مَقصورةٌ عليهم، مع استلزامِ اقتصارِ ظُلْمِ كلِّ أحدٍ على نفسِه مِن حيثُ الوقوعُ اقتصارَه عليه من حيث الصُّدورُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١).

٢- قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا وفي الجاثيةِ: ﴿مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]، أمَّا في سُورةِ الزُّمرِ فقال: ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]؛ مُوافقةً لِمَا قبلَ كلٍّ منها، أو بعدَ، أو قبلَه وبعدَه؛ إذْما هنا قبلَه: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨] و﴿تَعْمَلُونَ﴾ مرَّتينِ، وقبلَ ما في الجاثيةِ: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨] و﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعدَه ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]، وقبلَ ما في الزُّمرِ ﴿وَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] وبعدَه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[١] [الزمر: ٥٠].

- ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ ﴾ وإصابةُ السَّيِّئاتِ إمَّا بتَقديرِ مُضافٍ، أي: أصابهم جزاؤُها، أو جُعِلَت أعمالُهم السَّيِّئةُ كأنَّها هي الَّتي أصابَتْهم؛ لأنَّها سبَبُ ما أصابَهم[٢].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أي: أحاط بهم، مِن: الحَيْقِ الَّذي هو إحاطةُ الشَّرِّ، وهو أبلغُ مِن الإصابةِ، وأفظَعُ[٣].



(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٤-٣٠٥). ويُنظر كذلك: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٥٩)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١١).

الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ
(٣٥) وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ
هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن
نَّٰصِرِينَ (٣٧)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغُوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيَانٍ عَلَى الله، فكلُّ مَعْبُودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شَيْطانًا، أو وَثنًا، أو صَنَمًا، كَائِنًا ما كان من شيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللَّهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتقاقُه من الطُّغْيان: وهو الظُّلْم والبغْيُ، يقال: طَغَا فُلانٌ يَطْغَى: إذا عَدا قَدْرَه فتجاوَز حَدَّه، وأصلُ (طغو): يدلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ(١).

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال المُشرِكونَ: لو شاء اللهُ أن نَعبُدَه وَحدَه ما عَبدْنا أحدًا غيرَه نحنُ ولا آباؤُنا مِن قَبلِنا، ولا حَرَّمْنا شَيئًا لم يُحَرِّمْه. مِثلَ هذا الإشراكِ، وتحريم ما أحلَّ الله، والاحتِجاجِ الباطِلِ، فعَل الكُفَّارُ السَّابِقونَ، فليس على الرُّسُلِ إلَّا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

التَّبليغُ الواضِحُ، وقد وضَّحوا لكم طريقَ الحَقِّ بما لا يَبقَى معه حُجَّةٌ لأحدٍ.

ولقد بعَثْنا في كلِّ أمَّةٍ سبقَت رَسولًا يأمُرُهم بعِبادةِ اللهِ وَحدَه وتَرْكِ عبادةِ غَيرِه، فكان منهم مَن هداه اللهُ فاتَّبَع الرُّسُلَ، ومنهم من وجَبَت عليه الضَّلالةُ فهَلَك. فامشُوا في الأرضِ، وانظروا كيف كان مآلُ هؤلاء المكَذِّبينَ؛ لتَعتَبِروا.

ثم أخبَرَ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ حرصَه على هدايةِ المشركينَ المصرِّينَ على ضلالِهم، لن يغيِّرَ مِن واقعِ أمرِهم شيئًا؛ لأنَّ اللهَ لا يَهدي إليه مَن قدَّر بحِكمتِه وعَدلِه دوامَ ضَلالِه، وما للضَّالِّينَ مِن ناصِرينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ ما هو عجَبٌ مِن مَقالِ المُشرِكينَ ومآلِهم، في سوءِ أحوالِهم، وخَتَم بتَهديدِهم؛ عطَفَ على قَولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ مُوجِبًا آخَرَ للتهديدِ، مُعَجِّبًا مِن حالِهم فيه، فقال[1]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ مُحتَجِّينَ -كَذِبًا- بالقَدَرِ على شِركِهم، وتَحريمِهم ما لم يُحَرِّمْه اللهُ: لو شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا شَيئًا مِن دُونِه، ولا حَرَّمْنا شيئًا مِن الأنعامِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٣).

التي ابتَدَعْنا تحريمَها، فِفعْلُنا إذَن لذلك دليلٌ على رِضاه عن أعمالِنا، وإلَّا لقدَّرَ غيرَ ذلك[(١)]!

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: مثلَ هذا الإشراكِ وتحريمِ ما أحَلَّ اللهُ والاحتجاجِ الباطِلِ الصَّادِرِ مِن المُشرِكينَ على مَشروعيَّةِ ذلك تكذيبًا للرُّسُلِ، فعَلَ مَن قَبلَهم مِن المُشرِكينَ، فأهلَكَهم اللهُ، فهلَّا استَدَلُّوا بهلاكِ أولئك على أنَّ اللهَ غيرُ راضٍ عن فِعلِهم، وعلى عدَمِ صِحَّةِ حُجَّتِهم[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ * قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

فقال اللهُ أيضًا ردًّا على شُبهتِهم:

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تقولونَ مِن أنَّ اللهَ رَضِيَ أفعالَكم هذه، بل أنكَرَها عليكم، ونهاكم عنها على ألسِنَةِ رُسُلِه، فإنَّما وظيفتُهم تبليغُ الرِّسالةِ تبليغًا واضِحًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٨).

مُوضِّحًا لطريقِ الحَقِّ بما لا يَبقَى معه حُجَّةٌ لأحدٍ، فقد بلَّغُوكم، وأوضَحُوا لكم، فصار وَبالُ كُفْرِكم وعِصيانِكم عليكم(١).

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

أي: ولقد بعَثْنا في كلِّ طائفةٍ مِن النَّاسِ رَسولًا يأمُرُهم بعبادةِ اللهِ وَحدَه، وتَرْكِ عبادةِ كُلِّ مَن دونَه، كالشَّياطينِ والأصنامِ، فحُجَّتُه سُبحانَه قد قامَتْ على جميعِ الأُمَمِ(٢).

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ ﴾.

أي: فمِنَ الأُمَمِ مَن هداهم اللهُ، فأرشَدَهم إلى دينِه، ووفَّقَهم للإيمانِ به، واتِّباعِ رُسُلِه وطاعتِه(٣).

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٥-١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).
قال ابنُ القيِّمِ: (الطاغوتُ اسمٌ لكُلِّ ما عَبَدوه مِن دونِ الله، فكلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٥).

أي: ومِن الأُمَمِ مَن وجَبَت عليهم الضَّلالةُ، ولَزِمَهم الكُفرُ، فأهلَكَهم اللهُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ * قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٠].

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: فسِيروا في الأرضِ للاعتبارِ، فانظُروا إلى آثارِ عَذابِ اللهِ للأُمَمِ السَّابقةِ مِن الذين كَذَّبوا الرُّسُلَ، فصار آخِرَ أمرِهم الهَلاكُ[(٢)].

كما قال سُبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لِمُشركي قُريشٍ: إنْ كنتُم- أيُّها النَّاسُ- غيرَ مصدِّقي رَسولِنا فيما يُخبِرُكم به عن هؤلاء الأمَمِ الذين حَلَّ بهم ما حلَّ من بأسِنا؛ بكُفرِهم بالله، وتكذيبِهم رسولَه- فسيروا في الأرضِ التي كانوا يَسكُنونها والبلادِ التي كانوا يَعمُرونها، فانظُروا إلى آثارِ اللهِ فيهم، وآثارِ سَخَطِه النَّازلِ بهم، كيف أعقبَهم تكذيبَهم رسُلَ اللهِ ما أعقبَهم؛ فإنَّكم تَرَون حقيقةَ ذلك، وتعلمونَ به صِحَّةَ الخبرِ الذي يُخبِرُكم به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧).

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥-٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

قولُه تعالى: ﴿يَهْدِى ﴾ فيه قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿يَهْدِى ﴾ بفتحِ الياءِ، وكسرِ الدالِ، والمعنى: إنَّ الله لا يَهْدِي مَن قدَّر دوامَ ضلالِه. وقيل: المعنى: إنَّ الله مَن يُضلُّ لا يَهْدي، أي: لا يَهْتَدي[1].

٢- قراءةُ ﴿يُهْدَى ﴾ بضمِّ الياءِ، وفتحِ الدالِ، أي: من أضلَّهُ الله لَا يهديه أحدٌ، كما قال تعالى: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾[2] [الأعراف: ١٨٦].

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾.

---

(١) قرأ بها حمزةُ وعاصِمٌ والكسائِيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٨٩).

أي: إنْ تَحرِصْ -يا مُحمَّدُ- على هدايةِ المُشرِكينَ لاتِّباعِ الحَقِّ، فإنَّ اللهَ لا يَهدي إليه مَن قدَّر بحِكمتِه وعَدلِه دوامَ ضَلالِه، فلن يهتَديَ أبدًا ولو حَرَصْتَ على هدايتِه، فلا تُجهِدْ نَفسَك في أمْرِه، وبلِّغْه ما أُرسِلْتَ به؛ لِتقومَ عليه الحُجَّةُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [المائدة: ٤١].

وقال سُبحانه: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وما للضَّالِّينَ مِن ناصِرينَ يَمنَعونَ عنهم عُقوبةَ اللهِ، ويُنقِذونَهم مِن عَذابِه[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ فهم استدلُّوا على محبَّتِه سُبحانه لِشركِهم ورضاه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٣).

عنه، بمَشيئتِه لذلك، وعارضوا بهذا الدَّليلِ أمرَه ونهيَه، وقد أنكَر اللهُ سُبحانه وتعالى عليهم؛ فالمَشيئةُ والمحبَّةُ ليسا واحِدًا؛ ولا هما مُتلازِمَينِ، بل قد يشاءُ سُبحانَه ما لا يُحبُّه؛ ويُحِبُّ ما لا يَشاءُ كَونَه[1]، ولم يكُنْ قَصدُهم بقولِهم هذا إلَّا ردَّ الحَقِّ الذي جاءت به الرسُلُ، وإلَّا فعندهم عِلمٌ أنَّه لا حُجَّةَ لهم على الله؛ فإنَّ الله أمَرَهم ونهاهم، ومكَّنَهم من القيامِ بما كلَّفَهم، وجعلَ لهم قُوَّةً ومَشيئةً تصدُرُ عنها أفعالُهم، فاحتِجاجُهم بالقضاءِ والقَدرِ مِن أبطلِ الباطِلِ، هذا وكلُّ أحدٍ يعلَمُ بالحِسِّ قُدرةَ الإنسانِ على كُلِّ فعلٍ يُريدُه، من غيرِ أن ينازِعَه مُنازِعٌ، فجمعوا بين تكذيبِ اللهِ وتكذيبِ رسُلِه، وتكذيبِ الأمورِ العَقليَّةِ والحسِّيَّةِ[2]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى كان أبدًا في جميعِ المِلَلِ والأُمَمِ آمِرًا بالإيمانِ، وناهيًا عن الكُفرِ[3].

٣- البعثُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ هو البعثُ الدِّينيُّ، ويُقابِلُه: البعثُ الكونيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴾[4] [الإسراء: ٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ فيه دلالةٌ على إجماعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ على الدَّعوةِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٥).
(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

إلى التَّوحيدِ؛ وأنَّهم أُرسِلُوا به(١)، وأنَّه أعظمُ ما دعَوْا إليه مِن أوَّلِهم؛ نوحٍ عليه الصلاةُ والسَّلامُ، إلى آخرِهم؛ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ لا بُدَّ لتَحقيقِ شهادةِ (أنْ لَا إله إلَّا اللهُ) مِن اجتنابِ الطَّاغوتِ، وهو كلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو تحاكَمَ النَّاسُ إليه مِن دونِ اللهِ(٣).

٦- قولُ الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فيه أبيَنُ دَليلٍ على أنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللهُ تعالى؛ لأنَّه المتصَرِّفُ في عبادِه؛ يهدي من يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ، لا اعتِراضَ عليه فيما حكَمَ به لسابِقِ عِلمِه(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ فيه ردٌّ على القَدَريَّةِ(٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ فيه التَّعريضُ بالثَّناءِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حِرصِه على خَيرِهم، مع ما لقِيَه منهم من الأذى الذي شأنُه أن يُثيرَ الحَنَقَ في نَفسِ مَن يَلحَقُه الأذى، ولكِنَّ نفسَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ نَقصٍ ينشأُ عن الأخلاقِ الحيوانيَّةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ بيانُ أنَّ مُجرَّدَ دُعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتبليغِه وحِرصِه على هدايةِ الخَلقِ؛ أنَّه ليس بمُوجِبٍ لذلك، وإنَّما يحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم، فشَرَح صُدورَهم للإسلامِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ فيه العُدولُ عن الإضمارِ إلى الموصولِ- حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)-؛ لتقريعِهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، وذَمِّهم بذلك من أوَّلِ الأمرِ[٢].

- وضَميرُ (نحن) في قولِهم: ﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ المُتَّصلِ في ﴿عَبَدۡنَا﴾، وإعادةُ حَرفِ النَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ لتأكيدِ (ما) النَّافيةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاستفهامُ بـ(هل) إنكاريٌّ بمعنى النَّفيِ؛ ولذلك جاء الاستثناءُ عَقِبَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٨).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والقصرُ المُستفادُ من النَّفيِ والاستثناءِ (فهل... إلَّا) قَصرٌ إضافيٌّ؛ لقلْبِ اعتقادِ المُشركينَ مِن مُعاملتِهم الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ للرَّسولِ غرضًا شخصيًّا فيما يَدْعو إليه[١].

- وفي قولِه: ﴿عَلَى ٱلرُّسُلِ﴾ أثْبتَ الحُكمَ لعُمومِ الرُّسلِ عليهم السَّلامُ، وإنْ كان المَردودُ عليهم لم يخطُرْ ببالِهم أمْرُ الرُّسلِ الأوَّلينَ؛ لتكونَ الجُملةُ تذييلًا للمُحاجَّةِ، فتفيدَ ما هو أعمُّ من المَردودِ، والكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تعليمًا وتَسليةً، ويتضمَّنُ تعريضًا بإبلاغِ المُشركينَ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وهو تكملةٌ لإبطالِ شُبهةِ المُشركينَ؛ إبطالًا بطريقةِ التَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ؛ لزيادةِ تَقريرِ الحُجَّةِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ بيانٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وجُملةُ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى آخرِها بيانٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فيه إسنادُ هِدايةِ بعضِهم إلى اللهِ تعالى، مع أنَّه أمَرَ جميعَهم بالهُدى؛ تَنبيهًا للمُشركينَ على إزالةِ شُبهتِهم في قولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ اللهَ بيَّنَ لهم الهُدى؛ فاهتداءُ المُهتدينَ بسبَبِ بيانِه، فهو الهادي لهم(١).

- والتَّعبيرُ في جانبِ الضَّلالةِ بلفظِ ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمُ﴾ دونَ إسنادِ الإضلالِ إلى اللهِ: إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ لمَّا نهاهم عن الضَّلالةِ، فقد كان تَصميمُهم عليها إبقاءً لضَلالتِهم السَّابقةِ؛ فحقَّتْ عليهم الضَّلالةُ، أي: ثبَتَتْ ولم ترتفِعْ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ بَقاءَ الضَّلالةِ مِن كَسبِ أنفُسِهم(٢).

- قولُه: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فيه تَرتيبُ الأمرِ بالسَّيرِ على مُجرَّدِ الإخبارِ بثُبوتِ الضَّلالةِ عليهم مِن غيرِ إخبارٍ بحُلولِ العذابِ؛ للإيذانِ بأنَّه غَنِيٌّ عن البَيانِ، وأنْ ليس الخبرُ كالعِيانِ، وتَرتيبُ النَّظرِ على السَّيرِ؛ لأنَّه بعدَه، وأنَّ مِلاكَ الأمرِ في تلك العاقبةِ هو التَّكذيبُ، والتَّعللُ بأنَّه لو شاء اللهُ ما عبَدْنا من دونِه مِن شَيءٍ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَقسيمَ كلِّ أمَّةٍ ضالَّةٍ إلى مُهتدٍ منها، وباقٍ على الضَّلالِ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن حالِ هذه الأمَّةِ: أهو جارٍ على حالِ الأُمَمِ الَّتي قبلَها، أو أنَّ اللهَ يَهديهم جميعًا؟ وذلك مِن حرصِه على خيرِهم، ورأفَتِه بهم؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه مع حِرْصِه على هُداهم، فإنَّهم سيَبْقَى منهم فَريقٌ على ضَلالةٍ(٤).

- والشَّرطُ -﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾- هنا ليس لتَعليقِ حُصولِ مَضمونِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجوابِ على حُصولِ مَضمونِ الشَّرطِ؛ لأنَّ مَضمونَ الشَّرطِ معلومُ الحُصولِ؛ لأنَّ علاماتِه ظاهرةٌ بحيثُ يعلَمُه النَّاسُ، كما قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، وإنَّما هو لتَعليقِ العلمِ بمَضمونِ الجوابِ على دَوامِ حُصولِ مَضمونِ الشَّرطِ؛ فالمعنى: إنْ كنتَ حريصًا على هُداهم حِرصًا مُستمِرًّا، فاعلَمْ أنَّ مَن أضلَّه اللهُ لا تستطيعُ هَدْيَه، ولا تجِدُ لهَدْيه وسيلةً، ولا يَهْديه أحدٌ؛ فالمُضارعُ ﴿تَحْرِصْ﴾ مُستعمَلٌ في معنى التَّجدُّدِ لا غيرُ[1].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ فيه جَعلُ المُسنَدِ إليه في جُملةِ الإخبارِ عن استمرارِ ضَلالِهم اسمَ الجلالةِ؛ للتَّهويلِ المُشوِّقِ إلى استطلاعِ الخبرِ، والخبرُ هو أنَّ هُداهم لا يحصُلُ إلَّا إذا أراده اللهُ، ولا يستطيعُ أحدٌ تَحصيلَه لا أنتَ ولا غيرُك، فمَن قدَّرَ اللهُ دَوامَ ضَلالِه فلا هادِيَ له، ولولا هذه النُّكتةُ لكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يكونَ المُسنَدُ إليه ضَميرَ المُتحدَّثِ عنهم بأنْ يُقال: (فإنَّهم لا يَهْديهم غيرُ اللهِ)[2]، وإنَّما وُضِعَ الموصولُ (مَنْ) موضِعَ الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّهم ممَّن حَقَّت عليه الضَّلالةُ، وللإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المذكورُ عِلَّةً للجزاءِ المحذوفِ، أي: إنْ تحرِصْ على هُداهم فلسْتَ بقادرٍ على ذلك؛ لأنَّ اللهَ لا يَهْدي مَن يُضِلُّه، وهؤلاء مِن جُملتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١ - ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٣).

الآيات (٣٨-٤٠)

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ، ومُنتهى الطَّاقةِ، ثمَّ أطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: حلفَ هؤلاء المُشرِكونَ باللهِ أيمانًا مُغلَّظةً أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ مَن يموتُ بعدما بَلِيَ وتفرَّق، بلى سيبعَثُهم اللهُ حَتمًا، وعدًا عليه حَقًّا، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ. يبعَثُ اللهُ جميعَ العِبادِ؛ لِيُبيِّنَ لهم الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، ومِن ذلك أمرُ البعثِ، وليحكُمَ بينهم ويُجازيَ كلًّا بعمَلِه، ولِيعلَمَ الكُفَّارُ المُنكِرونَ للبعثِ أنَّهم على باطلٍ، وأنَّهم كاذِبونَ حين حَلَفوا أنْ لا بَعْثَ. إنَّ أمْرَ البَعثِ يَسيرٌ على الله؛ فإنَّه سبحانَه إذا أرادَ شيئًا فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فإذا هو كائِنٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

أي: وحلفَ مُشرِكو قُرَيشٍ باللهِ، وغَلَّظوا الأيمانَ وأكَّدُوها، على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ الموتَى بعدَ أنْ صاروا تُرابًا[1]!

﴿بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

أي: بلى سيبعَثُ اللهُ الموتى، وعَدَ سبحانَه بذلك وعدًا، ولا يُخلِفُ اللهُ وَعدَه[2].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ باعِثُهم يومَ القيامةِ بعد مَوتِهم، فيُخالِفونَ الرُّسُلَ؛ لجَهلِهم، ويَقَعونَ في الكُفرِ[3].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقولُه: لن يُعيدَني كما بَدَأني، وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقولُه: اتَّخذَ اللهُ ولدًا، وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[4].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

(٤) رواه البخاري (٤٩٧٤).

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

أي: سيَبعَثُ اللهُ الموتى؛ لِيُظهِرَ لهم في الآخرةِ الحقَّ الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا- ومِن ذلك اختِلافُهم في ثُبوتِ البَعثِ- ويَحكُمَ بينهم، ويَجزيَ كلًّا بما عَمِلَه(١).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ الذين كَفَروا باللهِ تعالى، وأنكَروا البَعثَ أنَّهم كانوا في الدُّنيا كاذِبينَ في حَلِفِهم على أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ مَن يَموتُ(٢).

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى تحتُّمَ البَعثِ، وحِكمَتَه؛ بيَّنَ إمكانَه ويُسْرَه عليه تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٧).

قال ابنُ عاشور: (الله تعالى حكيمٌ لا تجري أفعالُه على خلافِ الحِكمةِ التامَّةِ، أي: جعلَ البعثَ؛ ليُبيِّن للنَّاسِ الشيءَ الذي يختلِفون فيه من الحَقِّ والباطل، فيظهر حَقُّ المحِقِّ، ويظهَر باطِلُ المُبطِلِ في العقائِدِ ونحوها من أصولِ الدينِ وما ألحِقَ بها. وشَمِل قولُه: ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾ كُلَّ معاني المحاسَبةِ على الحقوقِ؛ لأنَّ تمييزَ الحقوقِ مِن المظالمِ كُلُّه محلُّ اختلافِ النَّاسِ وتنازُعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٥).

وخِفَّته لَديه[(١)].

وأيضًا فإنَّ هذه الجُملةَ مُتَّصِلةٌ بجُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لبَيانِ أنَّ جَهلَ المُشرِكينَ بمَدى قُدرةِ اللهِ تعالى هو الذي جرَّأهم على إنكارِ البَعثِ واستحالتِه عِندَهم؛ فهي بيانٌ للجُملةِ التي قبلَها؛ ولذلك فُصِلَت، ووقَعَت جُملةُ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ...﴾ إلى آخِرِها اعتِراضًا بينَ البيانِ والمُبيَّنِ[(٢)].

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾.

أي: إنَّما قولُنا لشَيءٍ نُريدُ إيجادَه أن نقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيكونُ كما أرَدْنا بلا تأخيرٍ، ولا تعَبٍ، ولا مشَقَّةٍ علينا، ومن ذلك إحياءُ الموتى[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ * قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨-٨٢].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٥-١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٧).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ ذكَرَ اللهُ حِكمتَينِ بالغتَينِ في بَعثةِ اللهِ سُبحانَه للأمواتِ بَعدَما أماتهم:

إحداهما: أن يُبَيِّنَ للنَّاسِ الذي اختَلَفوا فيه، وهذا بيانٌ عِيانِيٌّ تَشتَرِكُ فيه الخلائِقُ كلُّهم، والذي حصلَ في الدنيا بيانٌ إيمانيٌّ اختصَّ به بعضُهم.

والحكمةُ الثانيةُ: عِلْمُ المُبطِلِ بأنَّه كان كاذِبًا، وأنَّه كان على باطلٍ، وأنَّ نسبةَ أهلِ الحقِّ إلى الباطلِ هي مِن افترائِه وكَذِبِه وبُهتانِه، فيُخزيه ذلك أعظمَ خِزيٍ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، قال البُويطيُّ: (خلقَ اللهُ الخَلقَ كُلَّه بقَولِه كُنْ، فلو كان «كُنْ» مخلوقًا لكان قد خَلَق الخلقَ بمخلوقٍ، وليس كذلك)[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ القسَمُ على نَفيِ البعثِ، أرادوا به الدَّلالةَ على يَقينِهم بانتفائِه، وإنَّما أيقنوا بذلك، وأقْسَموا عليه؛ لأنَّهم توهَّموا أنَّ سلامةَ الأجسامِ، وعدَمَ انخرامِها شَرطٌ لقَبولِها الحياةَ، وقد رَأَوْا أجسادَ الموتَى مُعرَّضةً للاضمحلالِ، فكيف تُعادُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٤٣).

كما كانت[١]؟!

- قولُه: ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ﴾ فيه إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَن يَمُوتُۚ﴾ على التَّعبيرِ بـ (الموتى)؛ لقَصدِ إيذانِ الصِّلةِ بتَعليلِ نَفيِ البعثِ؛ فإنَّ الصِّلةَ أقوَى دَلالةً على التَّعليلِ مِن دَلالةِ المُشتقِّ على عِلِّيةِ الاشتقاقِ؛ فهم جَعَلوا الاضمحلالَ مُنافيًا لإعادةِ الحياةِ، كما حُكِيَ عنهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾[٢] [النمل: ٦٧].

٢- قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ تَعليلٌ لقولِه تعالى: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا﴾؛ لقَصدِ بَيانِ حِكمةِ جَعْلِه وعدًا لازمًا لا يتخلَّفُ؛ لأنَّه مَنوطٌ بحِكمةٍ، واللهُ تعالى حكيمٌ لا تَجْري أفعالُه على خِلافِ الحكمةِ التَّامَّةِ، أي: جعَلَ البعثَ ليُبيِّنَ للنَّاسِ الشَّيءَ الَّذي يختلِفون فيه مِن الحقِّ والباطِلِ، فيظهَرُ حَقُّ المُحِقِّ، ويظهَرُ باطلُ المُبطلِ في العقائدِ ونحوِها مِن أصولِ الدِّينِ وما أُلْحِقَ بها[٣].

- قولُه: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الحقِّ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ للدَّلالةِ على فَخامتِه، وللإشعارِ بعِلِّيةِ ما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلةِ للتَّبيينِ وما عُطِفَ عليه، وجعَلَهما غايةً للبعثِ المُشارِ إليه باعتبارِ وُرودِه في معرِضِ الرَّدِّ على المُخالِفينَ، وإبطالِ مَقالةِ المُعاندين المُستدْعي للتَّعرُّضِ لِمَا يردَعُهم عن المُخالفةِ، ويُلْجِئُهم إلى الإذعانِ للحقِّ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥١ - ١٥٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٥٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استئنافٌ لبَيانِ كيفيَّةِ التَّكوينِ على الإطلاقِ إبداءً وإعادةً، بعد التَّنبيهِ على آنيَّةِ البعثِ، ومنه يظهَرُ كيفيَّتُه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أفادت ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرًا هو قَصرُ وُقوعِ التَّكوينِ على صُدورِ الأمرِ به، وهو قَصرُ قلبٍ؛ لإبطالِ اعتقادِ المُشركينَ تعذُّرَ إحياءِ الموتى؛ ظنًّا منهم أنَّه لا يحصُلُ إلَّا إذا سلِمَت الأجسادُ من الفسادِ، فإذا كان سبَبُ التَّكوينِ ليس زائدًا على قولِ: ﴿كُن﴾، فقد بطَلَ تعذُّرُ إحياءِ الموتى؛ ولذلك كان هذا قَصرَ قلبٍ لإبطالِ اعتقادِ المُشركينَ[٢].

- قولُه: ﴿لِشَيْءٍ﴾ أُطْلِقَ (الشَّيءُ) هنا على المعدومِ باعتبارِ إرادةِ وُجودِه، فهو من إطلاقِ اسمِ ما يَؤُول إليه، أو المُرادُ بالشَّيءِ مُطلَقُ الحقيقةِ المعلومةِ وإنْ كانت مَعدومةً، وإطلاقُ الشَّيءِ على المعدومِ مُستعمَلٌ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ تيمية: (والذي عليه أهلُ السنةِ والجماعةِ وعامةُ عقلاءِ بني آدمَ مِن جميعِ الأصنافِ: أنَّ المعدومَ ليس في نفسِه شيئًا، وأنَّ ثُبوتَه ووجودَه وحصولَه شيءٌ واحدٌ، وقد دلَّ على ذلك الكتابُ والسُّنةُ والإجماعُ القديم). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ١٥٥).

وقال أيضًا: (تنازَعوا في المعدومِ الممكِنِ: فذهَب فريقٌ مِن أهلِ الكلامِ مِنَ المعتزلةِ والرَّافضةِ وبعضِ مَن وافَقَهم مِن ضُلَّالِ الصُّوفيَّةِ: إلى أنَّه شيءٌ في الخارجِ لتعلُّقِ الإرادةِ والقدرةِ به! وهذا غلطٌ، وإنَّما هو معلومٌ للَّهِ ومرادٌ له إنْ كان مِمَّا يوجدُ، وليس له في نفسِه لا موتٌ ولا وجودٌ ولا حقيقةٌ أصلًا، بل وجودُه وثبوتُه وحصولُه شيءٌ واحدٌ، وماهيَّتُه وحقيقتُه في الخارجِ هي نفسُ وجودِه وحصولِه وثبوتِه ليس في الخارجِ شيئانِ وإنْ كان العقلُ يميِّزُ الماهيَّةَ المطلقةَ عن الوجودِ المطلَقِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٨٣).

الآيتان (٤١-٤٢)

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾: أي: لَنُسكِنَنَّهم ولَنُنزِلَنَّهم؛ مِن التبَوُّءِ: وهو الحُلولُ بالمكانِ، والنُّزولُ به، وأصلُ (بوأ): يدلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: والذين تَرَكوا ديارَهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ، بَعدَما وقَعَ عليهم الظُّلمُ، لَنُسكِنَنَّهم في الدُّنيا بلدًا حَسنًا، ولَنرزُقَنَّهم رِزقًا واسعًا، ولأجرُ الآخرةِ أكبَرُ؛ لأنَّ ثوابَهم فيها الجنَّةُ، لو كان المتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ يَعلَمونَ أجرَ اللهِ وثوابَه للمُهاجِرينَ في سَبيلِه، ما تخلَّفَ منهم أحدٌ عن الهجرة. هؤلاء المُهاجِرونَ في سبيلِ اللهِ هم الذين صَبَروا على أوامِرِ الله وعن نواهِيه وعلى أقدارِه المُؤلِمةِ؛ وعلى رَبِّهم وَحدَه يَعتَمِدونَ.

تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن الكُفَّارِ أنَّهم أقسَموا باللهِ جَهدَ أيمانِهم على إنكارِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

البَعثِ والقيامةِ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم تمادَوا في الغَيِّ والجَهلِ والضَّلالِ، وفي مِثلِ هذه الحالةِ لا يَبعُدُ إقدامُهم على إيذاءِ المُسلِمينَ وضَرِّهم، وإنزالِ العُقوباتِ بهم، وحينئذٍ يلزَمُ على المُؤمِنينَ أن يُهاجِروا عن تلك الدِّيارِ والمَساكِنِ، فذكر تعالى في هذه الآيةِ حُكمَ تلك الهجرةِ، وبيَّنَ ما لهؤلاءِ المهاجرينَ مِن الحَسَناتِ في الدُّنيا، والأجرِ في الآخرةِ؛ مِن حيثُ هاجروا وصَبَروا وتوكَّلوا على اللهِ، وذلك ترغيبٌ لغَيرِهم في طاعةِ اللهِ تعالى[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَر الله تعالى حِكمةَ البَعثِ بأنَّها تبيينُ الذي اختلَفَ فيه النَّاسُ مِن هُدًى وضَلالةٍ، وتبيينُ أنَّ الذين كَفَروا كانوا كاذِبينَ؛ وعُلم من ذلك أنَّه يتبيَّنُ بالبَعثِ أنَّ الذين آمنوا كانوا صادِقينَ بدَلالةِ المُضادَّةِ، وأنَّهم مُثابُونَ ومُكرَمونَ، فلمَّا عُلِمَ ذلك من السِّياقِ، وقَع التصريحُ به في هذه الآيةِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾.

أي: والذين تَرَكوا أوطانَهم وقَومَهم؛ ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ مِن بعدِ ما ظَلَمَهم الكُفَّارُ وعَذَّبوهم لِيَردُّوهم عن دينِهم- لَنُسكِنَنَّهم في الدُّنيا بلدًا يَرضَونَها، ولَنرزُقَنَّهم رِزقًا واسعًا، وعيشًا هنيئًا، ولنجازينَّهم جزاءً حَسَنًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧، ١٥٨).

قال الرسعني: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ أي: بلدةً أو دارًا حسنةً، وهي المدينةُ، في قولِ ابنِ عباسٍ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وقتادةَ، والأكثرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣١).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وقتادةُ: المدينةُ. وقيل: الرِّزقُ الطَّيِّبُ، قاله مجاهدٌ. ولا مُنافاةَ بينَ القولين). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢).

قال الشوكاني في قولِه تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾: (اختُلِف في معنى هذا على أقوالٍ،

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

وقال سُبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَثوابُ اللهِ للمُهاجِرينَ في الجنَّةِ أعظَمُ مِن ثوابِه لهم في الدُّنيا. لو كان المتخَلِّفونَ عن الهِجرةِ يَعلَمونَ ثوابَ اللهِ للمُهاجرينَ في الدُّنيا والآخرةِ، لَمَا تخلَّفَ أحدٌ منهم عن الهِجرةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

فقيل: المرادُ: نزولُهم المدينةَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، والشعبيُّ، وقتادةُ. وقيل: المرادُ: الرِّزقُ الحسَنُ، قاله مجاهدٌ. وقيل: النصرُ على عدوِّهم، قاله الضحَّاكُ. وقيل: ما استولَوا عليه مِن فتوحِ البلادِ، وصار لهم فيها مِن الولاياتِ. وقيل: ما بقيَ لهم فيها مِن الثناءِ وصار لأولادِهم من الشَّرفِ. ولا مانعَ من حملِ الآيةِ على جميعِ هذه الأمورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٦).
قال ابن تيمية: (سببُ نزولها المهاجرونَ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، وهي عامَّةٌ في كلِّ من اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٢٦).
وقال ابن كثير: (يحتملُ أن يكونَ سببُ نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجِرةِ الحبشةِ الذين اشتَدَّ أذى قومِهم لهم بمكَّةَ، حتى خرجوا من بين أظهُرِهم إلى بلادِ الحبشةِ؛ ليتمكَّنوا مِن عبادةِ ربِّهم، ومِن أشرافِهم: عثمانُ بنُ عفانَ، ومعه زوجتُه رُقيَّة بنتُ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وجعفرُ ابنُ أبي طالبٍ، ابنُ عمِّ الرسولِ، وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسدِ، في جماعةٍ، قريب مِن ثمانينَ، ما بينَ رجلٍ وامرأةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٠).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).
وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ الضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ راجعٌ إلى المؤمنين، أي: لو رأوا ثوابَ الآخرةِ، وعاينوه، لعلموا أنَّه أكبرُ من حسنةِ الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٧).

أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٠-٢٢].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾.

أي: المُهاجِرونَ الذين وصَفَهم اللهُ هم الذين صَبَروا في اللهِ على امتثالِ أوامِرِه، وتجنُّبِ نواهيه، وصَبَروا على أقدارِه المُؤلِمةِ، وأذَى النَّاسِ[١].

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

أي: وعلى ربِّهم يَعتَمِدونَ، وبه وَحدَه يَثِقونَ، ويُفوِّضونَ إليه أمورَهم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ﴾ فيه دليلٌ على إخلاصِ العمَلِ لله[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الصَّبرُ والتوكُّلُ مِلاكُ الأمورِ كُلِّها، فما فات أحدًا شَيءٌ مِن الخيرِ إلَّا لعَدمِ صَبرِه وبَذْلِ جُهدِه فيما أُريدَ منه، أو لعَدَمِ توَكُّلِه واعتمادِه على الله[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٠).

٣- قال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فإنَّهم ترَكوا مساكِنَهم وأموالَهم، فعوَّضَهم اللهُ خيرًا منها في الدُّنيا، فإنَّ من ترك شيئًا لله عوَّضه الله بما هو خيرٌ له منه، وكذلك وقَع؛ فإنَّهم مكَّن اللهُ لهم في البلادِ، وحكَّمَهم على رقابِ العِبادِ، فصاروا أمراءَ حُكَّامًا، وكلٌّ منهم للمُتَّقين إمامًا[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي: وقَع ظلمُهم مِن الكفَّارِ، بناه للمفعولِ؛ لأنَّ المحذورَ وقوعُ الظلمِ، لا كونُه مِن معيَّنٍ[٢].

بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جُملةِ الوعدِ كلِّها؛ لأنَّ ذلك الوعدَ العظيمَ بخيرِ الدُّنيا والآخرةِ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ أنْ يسألوا: كيف لم يقتَدِ بهم مَن بَقُوا على الكُفرِ؟ فتقَعُ جُملةُ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ بيانًا لِمَا استبْهَم على السَّائلِ، والتَّقديرُ: لو كانوا يعلمونَ ذلك لاقتدَوا بهم ولكنَّهم لا يعلمونَ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه تقديمُ الجارِّ والمجرورِ؛ للدَّلالةِ على قَصرِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، أي: لا يتوكَّلونَ إلَّا على رَبِّهم دونَ التَّوكُّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٢).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

على سَادةِ المُشركين ووَلائِهم[1].

- والتَّعبيرُ في جانبِ الصَّبرِ بالمُضيِّ، وفي جانبِ التوكُّلِ بالمُضارعِ إيماءٌ إلى أنَّ صَبرَهم قد آذنَ بالانقضاءِ؛ لانقضاءِ أسبابِه، وأنَّ اللهَ قد جعلَ لهم فَرَجًا بالهِجرةِ الواقعةِ والهِجرةِ المُترَقَّبةِ؛ فهذا بشارةٌ لهم، وأنَّ التوكُّلَ دَيدَنُهم؛ لأنَّهم يَستَقبِلونَ أعمالًا جليلةً تتِمُّ لهم بالتوكُّلِ على اللهِ في أمورِهم، فهم يُكَرِّرونَه؛ وفي هذا بِشارةٌ بضَمانِ النَّجاحِ[2]، ففي صِيغَةِ الاستقبالِ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ دَلالةٌ على دَوامِ التَّوكُّلِ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦).

الآيات (٤٢-٤٧)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: أي: بالحُجَجِ والأدِلَّةِ الواضِحةِ؛ يُقالُ: بان الشَّيءُ وأبانَ: إذا اتَّضح وانكَشفَ[(١)].

﴿وَٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر): يدُلُّ على الفَخامةِ والغِلَظ؛ يقال: زبَرْتُ الكِتابَ: إذا كَتبْتَه كِتابةً غليظةً، وكلُّ كتابٍ غليظِ الكِتابةِ يُقالُ له: زَبُورٌ[(٢)].

﴿تَقَلُّبِهِمْ﴾: أي: تَصَرُّفِهم في البِلادِ، وتَردُّدِهم في أسفارِهم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

﴿تَخَوُّفٍ﴾: أي: تَنَقُّصٍ؛ إمَّا بقَتلٍ أو بمَوتٍ، يَنقُصُ مِن أطرافِهم ونَواحيهم الشَّيءَ بعد الشَّيءِ حتى يُهْلِكَ جميعَهم. أو: حالَ تخَوُّفٍ وتوَقُّعٍ للبَلايا. وعلى المعنى الثَّاني فأصلُ (خوف): يدلُّ على ذُعرٍ وفَزَعٍ[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾

قولُه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فيما يتعَلَّقُ به أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، على أنَّه صِفةٌ لـ ﴿رِجَالٗا﴾ أي: رِجالًا مُتلَبِّسينَ بالبَيِّناتِ. الثاني: أنَّه مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ جوابًا لسُؤالٍ مُقَدَّرٍ، كأنَّه قيل: بمَ أُرسِلوا؟ فقيل: أرسَلْناهم بالبَيِّناتِ والزُّبُرِ. الثالث: أنَّه مُتعَلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ داخِلٌ تحتَ حُكمِ الاستثناءِ مع ﴿رِجَالٗا﴾، أي: وما أرسَلْنا إلَّا رِجالًا بالبَيِّناتِ[2]. وقيلَ غيرُ ذلك[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ١٩٨).

(٢) وهذا مبني على مذهب الكسائي والأخفش، وبه قال الحوفي والزمخشري. ولا يجيزه البصريون؛ إذ لا يُجيزون أن يقع بعد «إلا» إلَّا مُستثنًى، أو مُستثنًى منه، أو تابعٌ لذلك، وما ظُنَّ بخلافِه قُدِّرَ له عاملٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٢٣)، ((حاشية الصبان)) (٢/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٨٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٢٥).

المَعنى الإجماليُّ:

يقول عزَّ وجلَّ: وما أرسَلْنا في السَّابقينَ قَبلَك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رُسُلًا مِن الرِّجالِ لا مِن الملائكةِ، نُوحي إليهم، فاسألوا -أيُّها المُشرِكونَ- أهلَ الكُتُبِ السَّابقةِ يُخبِروكم أنَّ الأنبياءَ كانوا بشرًا، إنْ كُنتُم لا تعلمونَ، أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ الواضِحةِ وبالكُتُبِ السَّماويَّةِ، وأنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ؛ لتُوضِّحَ للنَّاسِ ما نزَّلَ اللهُ إليهم فيه، ولكي يتدَبَّروه ويهتَدوا به.

أفأمِنَ الكُفَّارُ المُدبِّرونَ للمكايدِ أن يخسِفَ اللهُ بهم الأرضَ، أو يأتيَهم عذابُ اللهِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ، أو يأخُذَهم اللهُ بالعذابِ وهم يتقَلَّبونَ في سَفَرِهم ومَعايشِهم؟ فما هم بمُمتَنِعينَ على اللهِ، ولا ناجينَ مِن عذابِه، أو يأخُذَهم اللهُ بنَقصٍ من نَواحيهم شيئًا بعد شَيءٍ حتى يُهلِكَ جميعَهم؛ فإنَّ رَبَّكم لرؤوفٌ بعباده رَحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه بعثَ الرُّسُلَ، وكان عاقِبةَ مَن كَذَّبَهم الهَلاكُ، بدَلالةِ آثارِهم، وكانوا قد قَدَحوا في الرِّسالةِ بكَونِ الرَّسولِ بشَرًا، ثمَّ بكَونِه ليس معه ملَكٌ يُؤيِّدُه- ردَّ ذلك بقولِه مُخاطِبًا لأشرَفِ خَلقِه صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم؛ لكَونِه أفهَمَهم عنه، مع أنَّه أجَلُّ مَن توكَّلَ وصبَرَ، عائدًا إلى مَظهَرِ الجَلالِ بيانًا لأنَّه يُظهِرُ من يشاءُ على مَن يشاءُ[١]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٦).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾.

أي: وما أرسَلْنا الأنبياءَ مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- إلَّا رِجالًا بَشَرًا مِن بني آدمَ لا ملائِكةً، نُوحي إليهم الشَّرائِعَ والأحكامَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فاسألوا -أيُّها المُشرِكونَ- أهلَ الكِتابِ الذين قَرَؤوا الكُتُبَ مِن قَبلِكم كالتَّوراةِ والإنجيلِ، إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ أنَّ رُسُلَ اللهِ كانوا رِجالًا من البشَرِ لا مَلائِكةً، فاسألُوهم: هل كان الأنبياءُ والرُّسُلُ بشرًا أو ملائِكةً(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٨).

قال الشنقيطي: (حَصْرُ الرسُلِ في الرِّجالِ في الآياتِ المذكورة لا يُنافي أنَّ مِن الملائكة رسُلًا، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]؛ لأنَّ الملائكةَ يُرسَلونَ إلى الرسُل، والرسُلَ تُرسَلُ إلى النَّاسِ. والذي أنكَرَه الكفَّارُ هو إرسالُ الرسلِ إلى الناس، وهو الذي حصر اللهُ فيه الرسُلَ في الرجالِ مِن الناسِ، فلا ينافي إرسالَ الملائكةِ للرسلِ بالوحي، ولقَبضِ الأرواحِ، وتسخيرِ الرياحِ والسحابِ، وكَتْبِ أعمالِ بني آدمَ، وغيرِ ذلك). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٩).

قال الخازن: (إنما أمَرَهم الله بسؤال أهل الكتاب؛ لأنَّ كُفَّارَ مكَّةَ كانوا يعتَقِدونَ أن أهلَ الكتاب أهلُ علمٍ، وقد أرسَلَ الله إليهم رسُلًا منهم، مثل موسى وعيسى وغيرِهم مِن الرسلِ، وكانوا

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ﴾.

أي: أرسَلْنا الأنبياءَ السَّابِقينَ بالحُجَجِ والكُتُبِ[١].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ[٢]- القُرآنَ؛ لتوضِّحَ للنَّاسِ ما نزَّلَ اللهُ إليهم فيه- لفظًا بتلاوتِه، ومَعنًى بتفسيرِه، وبيانِ ما أشكَلَ عليهم منه- وتُفصِّلَ لهم بسُنَّتِك القَوليَّةِ والفِعليَّةِ ما أُجمِلَ مِن أحكامِه[٣].

كما قال سُبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥].

بشرًا مِثلَهم، فإذا سألوهم فلا بدَّ أن يُخبِروهم بأنَّ الرسُلَ الذين أُرسِلوا إليهم كانوا بشرًا، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهةُ عن قلوبِهم. ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الخطابُ لأهل مكَّة). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٩-٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٢) قال ابنُ كثير: (﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ من رَبِّهم، أي: لعِلمِك بمعنى ما أُنزِلَ عليك، وحِرصِك عليه، واتِّباعِك له، ولعِلْمِنا بأنَّك أفضَلُ الخلائِقِ، وسَيِّدُ ولَدِ آدَمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ ﴾ وهو القرآنُ، بإجماع المفسِّرين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٢).

وقال سُبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليك القُرآنَ؛ كي يتفكَّرَ النَّاسُ في آياتِه، ويَعتَبِروا بها ويتَّعِظوا، فيَهتَدوا بالعمَلِ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه بعدَ أن ذُكِرَت مَساوئُ المُشرِكينَ ومكايدُهم، وبعدَ تهديدِهم بعذابِ يومِ البَعثِ تَصريحًا وبعذابِ الدُّنيا تعريضًا، فرَّع على ذلك تهديدَهم الصَّريحَ بعذابِ الدُّنيا[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا نَبَّه اللهُ سُبحانَه على التفكُّرِ، وكان داعيًا للعاقِلِ إلى تجويزِ المُمكِنِ، والبُعدِ مِن الخطَرِ، سبَّبَ عنه إنكارَ الأمنِ مِن ذلك، فقال تعالى[3]:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٩).

أي: أفأمِنَ الذين كَفَروا باللهِ وعَصَوه -ومِن ذلك سَعيُهم في إبطالِ الإسلامِ، وكَيدُهم بالمُسلِمينَ لإيذائِهم- أن تبتَلِعَهم الأرضُ فيَغيبوا في بَطنِها[1]؟

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أي: أو يأتيَهم عذابُ اللهِ غِرَّةً مِن حيثُ لا يَشعُرونَ بمَجيئِه إليهم، ولا يَدرونَ مِن أين يأتيهم[2].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦﴾.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾.

أي: أو يُهلِكَ اللهُ الكافرينَ بالعذابِ في حالِ سَفَرِهم وتصَرُّفِهم في مَعايشِهم وأشغالِهم[3].

كما قال تعالى: ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨- ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعني: كُفَّارَ قُرَيشٍ عند جمهورِ المُفَسِّرين). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥).

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت هذه الأحوالُ الثَّلاثةُ مَفروضةً في حالِ أمنِهم من العذابِ، وكان الأمنُ مِن العدُوِّ يكونُ عن ظَنِّ عدَمِ قُدرتِه عليه؛ علَّلَ ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾.

أي: فلَيسوا بفائِتينَ اللهَ، ولا مُمتَنِعينَ عليه؛ فهُم في قَبضتِه، يُهلِكُهم متى شاء، ولا مَهرَبَ لهم[2].

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧﴾.

﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾.

أي: أو يُهلِكَهم بنَقصٍ مِن أطرافِهم ونَواحيهم شيئًا بعد شَيءٍ، حتى يُهلِكَ جميعَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٠).

وممَّن اختار هذا المعنى للتخوُّف: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، ونسبه الواحدي إلى عامَّة المفسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٢٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٢).

وقيل: المعنى: يأخُذُهم حالَ تخوُّفٍ وتوقُّعٍ للبلايا؛ بأن يكونوا متوقِّعينَ للعذابِ حَذِرينَ منه غيرَ غافلين عنه. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ ربَّكم لا يُعاجِلُ الكافرينَ والعاصينَ بالعُقوبةِ؛ لأنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ بعبادِه، يَرزُقُهم ويُعافيهم، ويُمهِلُهم ليَتُوبوا[(١)].

عن أبي موسى رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما أحدٌ أصبَرَ على أذًى يَسمَعُه مِن الله تعالى؛ إنَّهم يجعَلونَ له نِدًّا، ويَجعَلونَ له ولدًا، وهو مع ذلك يَرزُقُهم ويُعافيهم ويُعطيهم!))[(٢)].

وعن أبي موسى رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه. قال: ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[(٣)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ عمومُ هذه الآيةِ فيه مَدحُ أهلِ العِلمِ، وأنَّ أعلى أنواعِه العِلمُ بكتابِ اللهِ المُنَزَّلِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَ مَن لا يعلَمُ بالرُّجوعِ إليهم في جميعِ الحوادِثِ، وفي ضِمنِه تعديلٌ لأهلِ العِلمِ وتَزكيةٌ لهم؛ حيث أمَرَ بسُؤالِهم، وأنَّه بذلك يخرُجُ الجاهِلُ مِن التَّبِعةِ، فدَلَّ على أنَّ الله ائتَمَنهم على وحْيِه وتَنزيلِه، وأنَّهم مأمورونَ بتَزكيةِ أنفُسِهم، والاتِّصافِ بصِفاتِ الكَمالِ[(٤)].

كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤١).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ هذا تخويفٌ مِن الله تعالى لأهلِ الكُفرِ والتَّكذيبِ وأنواعِ المعاصي مِن أن يأخُذَهم بالعذابِ على غِرَّةٍ، وهم لا يشعُرونَ؛ إمَّا أن يأخُذَهم العذابُ مِن فَوقِهم، أو مِن أسفَلَ منهم بالخَسفِ وغَيرِه، وإمَّا في حالِ تقَلُّبِهم وشُغلِهم، وعدمِ خُطورِ العذابِ ببالهم، وإمَّا في حالِ تَخَوُّفِهم مِن العَذابِ -على وجهٍ في التفسيرِ- فليسُوا بمُعجِزينَ لله في حالةٍ مِن هذه الأحوالِ، بل هم تحتَ قَبضتِه، ونواصيهم بيَدِه، ولكِنَّه رؤوفٌ رَحيمٌ لا يُعاجِلُ العاصينَ بالعُقوبةِ، بل يُمهِلُهم ويُعافيهم ويَرزُقُهم، وهم يُؤذونَه، ويُؤذونَ أولياءَه، ومع هذا يفتَحُ لهم أبوابَ التَّوبةِ، ويدعوهم إلى الإقلاعِ عن السَّيِّئاتِ التي تضُرُّهم، ويَعِدُهم بذلك أفضَلَ الكَراماتِ، ومغفرةَ ما صدَرَ منهم من الذُّنوبِ؛ فلْيَستَحِ المُجرِمُ مِن رَبِّه أن تكونَ نِعَمُ اللهِ عليه نازِلةً في جميعِ اللَّحظاتِ، ومعاصيه صاعِدةً إلى رَبِّه في كلِّ الأوقاتِ، ولْيَعلَمْ أنَّ اللهَ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، وأنَّه إذا أخذ العاصِيَ أخَذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ؛ فلْيَتُبْ إليه، ولْيَرجِعْ في جميعِ أمورِه إليه؛ فإنَّه رَؤوفٌ رحيمٌ، فالبِدارَ البِدارَ إلى رحمتِه الواسعةِ، وبِرِّه العَميمِ، وسُلوكِ الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلى فَضلِ الرَّبِّ الرحيم، ألا وهي تَقواه، والعمَلُ بما يُحبُّه ويَرضاه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ يدُلُّ على أنَّه تعالى ما

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤١).

أرسلَ أحدًا مِن النِّساءِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه لم يَبعَثْ نبيًّا إلَّا بآيةٍ تُبيِّنُ صِدْقَه، وتقومُ بها الحُجَّةُ؛ إذ تصديقُه بما لا يدُلُّ على صِدقِه غيرُ جائزٍ[٢]، وذلك لِكَمالِ عَدلِه -سُبحانَه- ورَحمتِه، وإحسانِه، وحِكمتِه، ومحبَّتِه للعُذْرِ، وإقامتِه للحُجَّةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ في تثبيتِ خَبَرِ الواحِدِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المسؤولينَ مُخبِرٌ عن ذلك على الانفرادِ، والحُجَّةَ لازِمةٌ على المُخْبَرِ بقَولِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنَّه يجوزُ التَّقليدُ في العَقائِدِ، مِمَّا لا يُتمَكَّنُ مَعرِفتُه بالدَّليلِ، فسؤالُنا أهلَ الذِّكْرِ عن هؤلاءِ الرُّسُلِ معناه أن نُقَلِّدَ المَسؤولَ، ونأخذَ بقَولِه، فالتَّقليدُ في المَسائلِ العَقَديَّةِ كالتَّقليدِ في المَسائلِ العَمَليَّةِ تمامًا ولا فَرقَ، فالذي لا يستطيعُ الوصولَ إلى الحقِّ بنفسِه ففَرضُه التَّقليدُ ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٥]، فالتَّقليدُ جائزٌ لِمَن لا يَصِلُ إلى العِلمِ بنَفسِه[٦].

٥- ليس في كلامِ اللهِ ورَسولِه شيءٌ لا يَعرِفُ معناه جميعُ الأُمَّةِ، بل لا بُدَّ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (رقم اللقاء: ٩٤).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٩٥).

يكونَ مَعروفًا لجميعِ الأُمَّةِ أو بَعضِها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، ولأنَّه لو كان فيه ما لا يَعلَمُ معناه أحدٌ لكان بعضُ الشَّريعةِ مجهولًا للأمَّةِ، ولكِنَّ المَعرِفةَ والخفاءَ أمرانِ نِسبيَّانِ؛ فقد يكونُ معروفًا لشَخصٍ ما كان خَفيًّا على غَيرِه، إمَّا لنَقصٍ في عِلمِه، أو قُصورٍ في فَهمِه، أو تَقصيرٍ في طَلَبِه، أو سوءٍ في قَصدِه[(١)].

٦- لله تعالى حِكَمٌ في إبقاءِ أهلِ الكِتابينِ بينَ أظهُرِنا؛ فإنَّهم مع كُفرِهم شاهِدونَ بأصلِ النبُوَّاتِ والتَّوحيدِ، واليومِ الآخِرِ والجنَّةِ والنَّارِ، وفي كُتُبِهم من البِشاراتِ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وذِكرِ نُعوتِه وصِفاتِه، وصفاتِ أُمَّتِه، ما هو مِن آياتِ نُبوَّتِه وبراهينِ رسالتِه، وما يَشهَدُ بصِدقِ الأوَّلِ والآخِرِ، وهذه الحِكمةُ تختَصُّ بأهلِ الكتابِ دونَ عَبَدةِ الأوثانِ، فبَقاؤُهم مِن أقوى الحُجَجِ على مُنكِرِ النبُوَّاتِ والمعادِ والتوحيدِ، وقد قال تعالى لمُنكري ذلك: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ذكَرَ هذا عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: سَلُوا أهلَ الكِتابِ: هل أرسلنا قبلَ محمَّدٍ رِجالًا يُوحَى إليهم، أم كان محمَّدٌ بِدْعًا مِن الرُّسُلِ لم يتقَدَّمْه رَسولٌ، حتى يكونَ إرسالُه أمرًا مُنكَرًا لم يَطرُقِ العالَمَ رَسولٌ قبله[(٢)]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى وَكَلَ بيانَ ما أَشكَلَ مِن التَّنزيلِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٣)].

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٩٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الاقتِصارِ على إنزالِ الذِّكرِ عَقِبَ قَولِه تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الكِتابَ المُنَزَّلَ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو بَيِّنةٌ وزَبورٌ مَعًا، أي: هو مُعجِزةٌ وكِتابُ شَرعٍ، وذلك مِن مزايا القُرآنِ التي لم يُشارِكْه فيها كِتابٌ آخَرُ، ولا مُعجِزةٌ أخرى[1].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ إنَّما سَمَّاه ذِكرًا؛ لأنَّ فيه مواعِظَ، وتَنبيهًا للغافِلينَ[2].

١٠- قال الإمامُ أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ إدريسَ الشَّافِعيُّ: (كلُّ ما حكَمَ به رسولُ الله صلَّى الله عليه وسَلَّم فهو ممَّا فَهِمَه من القُرآنِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤])[3].

١١- الدِّينُ الذي اجتَمع عليه المُسلِمونَ اجتِماعًا ظاهِرًا مَعلومًا، هو مَنقولٌ عن نبيِّهم نَقلًا متواتِرًا، نقلوا القرآنَ، ونَقلوا سُنَّتَه؛ وسُنَّتُه مُفَسِّرةٌ للقرآنِ، مُبَيِّنةٌ له، كما قال تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ فبَيَّنَ ما أنزَلَ اللهُ لَفْظَه ومَعناه، فصارت معاني القُرآنِ التي اتَّفقَ عليها المُسلِمونَ اتِّفاقًا ظاهِرًا ممَّا توارثَته الأُمَّةُ عن نبيِّها، كما توارَثَت عنه ألفاظَ القرآنِ، فلم يكُنْ -ولله

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٧٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٦٣).

الحمدُ- فيما اتَّفَقَت عليه الأمَّةُ شَيءٌ مُحَرَّفٌ مُبدَّلٌ مِن المعاني، فكيف بألفاظِ تلك المعاني؟! فإنَّ نَقْلَها والاتِّفاقَ عليها أظهَرُ منه في الألفاظِ، فكان الدِّينُ الظَّاهِرُ للمُسلِمينَ -الذي اتَّفَقوا عليه ممَّا نقلوه عن نبيِّهم- لفظه ومعناه، فلم يكُنْ فيه تحريفٌ ولا تبديلٌ، لا لِلَّفظِ ولا للمَعنى، بخلافِ التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ مِن ألفاظِها ما بَدَّلَ معانيَه وأحكامَه اليهودُ والنَّصارى- أو مَجموعَهما- تبديلًا ظاهِرًا مَشهورًا في عامَّتِهم[١].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] قد ذكرَ جلَّ وعلا في هذه الآيةِ حِكمَتَينِ مِن حِكَمِ إنزالِ القُرآنِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

إحداهما: أنْ يُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إليهم في هذا الكِتابِ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، والوعدِ والوعيدِ، ونحوِ ذلك.

الحكمةُ الثانيةُ: هي التفكُّرُ في آياتِه والاتِّعاظُ بها[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ فيه تَغييرُ أُسلوبِ نَظْمِ الكلامِ هنا بتَوجيهِ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعدَ أنْ كان جاريًا على أُسلوبِ الغَيبةِ ابتداءً مِن قولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ...﴾؛ تأنيسًا للنَّبيِّ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٠).

صَلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ فيما مَضى من الكلامِ آنفًا حكايةَ تكذيبِهم إيَّاه تصريحًا وتعريضًا، فأقبَلَ اللهُ على الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطابِ؛ لِمَا في هذا الكلامِ مِن تَنويهِ مَنزلتِه بأنَّه في مَنزلةِ الرُّسلِ الأوَّلين عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا الخطابِ تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ ولذلك الْتفَتَ إلى خِطابِهم بقولِه تعالى: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فيه الإقبالُ عليهم بالخطابِ؛ توبيخًا لهم؛ لأنَّ التَّوبيخَ يُناسِبُه الخطابُ لكونِه أوقَعَ في نفْسِ المُوبَّخِ، فاحتجَّ عليهم بقولِه: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. ولمَّا كان المقصودُ مِن الخطابِ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَنبيهَ الكُفَّارِ على مَضمونِه، صُرِفَ الخطابُ إليهم فقيل: ﴿فَسَـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾[2].

- وصِيغَةُ القَصرِ (ما... إلَّا) لقَلْبِ اعتقادِ المُشركينَ؛ حيثُ قُصِرَ الإرسالُ على التعَلُّقِ برِجالٍ موصوفينَ بأنَّهم يُوحَى إليهم[3].

- وفي قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يَعْلمونَ ذلك، ولكنَّهم قَصَدوا المُكابرةَ والتَّمويهَ لتَضليلِ الدَّهماءِ؛ فلذلك جِيءَ في الشَّرطِ بحَرفِ (إنْ) الَّتي ترِدُ في الشَّرطِ المَظنونِ عدَمُ وُجودِه[4].

٢- قوله تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٠ - ١٦١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٠ - ١٦١).

- لعلَّ عطفَ (الزُّبُرِ) على (الْبَيِّنَاتِ) عطفُ تَقسيمٍ بقَصدِ التَّوزيعِ، أي: بعضُهم مَصحوبٌ بالبيِّناتِ، وبعضُهم بالأمرينِ؛ لأنَّه قد تَجِيءُ رسُلٌ بدُونِ كُتُبٍ، وقد تُجْعَلُ الزُّبُرُ خاصَّةً بالكُتبِ الوجيزةِ الَّتي ليست فيها شَريعةٌ واسعةٌ، مثل صُحُفِ إبراهيمَ وزَبورِ داودَ عليهما السَّلامُ، والإنجيلِ[١].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ التَّعريفُ في ﴿النَّاسِ﴾ للعُمومِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ...﴾ الاستفهامُ للتَّعجيبِ مِن استرسالِهم في المُعانَدةِ غيرَ مُقدِّرين أنْ يقَعَ ما يُهدِّدُهم به اللهُ على لِسانِ رسولِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يُقْلِعونَ عن تَدبيرِ المكرِ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكانت حالُهم في استرسالِهم كحالِ مَن هم آمِنونَ بأْسَ اللهِ، فالاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ المَشوبِ بالتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: من مكانٍ لا يترقَّبونَ أنْ يأتيَهم منه ضَرٌّ؛ فمعناه: أنَّه يأتيهم بَغتةً، لا يَستطيعونَ دفْعَه؛ لأنَّهم لبأْسِهم ومنعَتِهم لا يَبْغَتُهم ما يَحذرونه؛ إذ قد أعَدُّوا له عُدَّتَه، فكان عذابًا غيرَ مَعهودٍ؛ فوقَعَ قولُه: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كِنايةً عن عذابٍ لا يُطيقون دفْعَه بحسَبِ اللُّزومِ العُرفيِّ، وإلَّا فقد جاء العذابُ عادًا من مكانٍ يَشعُرون به؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وحَلَّ بقومِ نُوحٍ عذابُ الطُّوفانِ وهم ينظُرونَ، وكذلك عذابُ الغَرقِ لِفرعونَ وقومِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

- تَفريعُ قولِه: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ اعتراضٌ، أي: لا يمنَعُهم مِن أخْذِه إيَّاهم في تقلُّبِهم شَيءٌ؛ إذ لا يُعجِزُه اجتماعُهم وتعاونُهم[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- تفرَّعَ قولُه: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على الجُملِ الماضيةِ تَفريعَ العِلَّةِ على المُعلَّلِ، وحَرفُ (إنَّ) هنا مُفيدٌ للتَّعليلِ ومُغنٍ عن فاءِ التَّفريعِ؛ فهِيَ مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادتْه الفاءُ. والتَّعليلُ هنا لِمَا فُهِمَ من مَجموعِ المذكوراتِ في الآيةِ مِن أنَّه تعالى قادرٌ على تَعجيلِ هلاكِهم، وأنَّه أمهَلَهم حتَّى نَسُوا بأسَ اللهِ، فصاروا كالآمنينَ منه بحيث يُستفهَم عنهم: أهم آمِنون من ذلك أمْ لا[٣]؟



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٦٧).

الآيات (٤٨-٥٥)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ
وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا
تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ
الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ
تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ يَتَفَيَّأُ ﴾: أي: يَرجِعُ ويَمِيلُ؛ مِن الفَيءِ، يقال: فاء الظِّلُّ يَفيءُ فَيئًا: إذا رجَعَ وعادَ، وأصلُه يدلُّ على الرُّجوعِ[(١)].

﴿ دَاخِرُونَ ﴾: أي: أذِلَّاءُ صاغِرونَ، وأصلُ (دخر): يدلُّ على الذُّلِّ[(٢)].

﴿ وَاصِبًا ﴾: أي: دائِمًا ثابِتًا واجِبًا، وأصلُ (وصب): يدلُّ على دوامِ شَيءٍ[(٣)].

﴿ تَجْأَرُونَ ﴾: تَرفَعونَ أصواتَكم بالدُّعاءِ وتَستَغيثونَ، وأصلُه: مِن جُؤارِ الثَّورِ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

إذا رفع صوتًا شديدًا مِن جُوعٍ أو غيره[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ألَمْ يَنظُرْ هؤلاء الكُفَّارُ الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ إلى ما خلَقَ اللهُ مِن شَيءٍ له ظِلٌّ -كالجِبالِ والأشجارِ وغيرهما- تَميلُ ظِلالُها تارةً يمينًا وتارةً شِمالًا، فتَسجُدُ لله وتخضَعُ لِعَظمتِه، وهي تحتَ تسخيرِه وتَدبيرِه وقَهرِه سُبحانَه؟

ولله وَحْدَه يَسجُدُ كُلُّ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن دابَّةٍ، والملائِكةُ يَسجُدونَ لله، سجودَ ذلٍّ وخضوعٍ، وهم لا يَستكبِرونَ عن عبادتِه، يخافُ الملائِكةُ رَبَّهم الذي هو فَوقَهم بذاتِه وقَهرِه وكَمالِ صفاتِه، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ به.

وقال اللهُ لعِبادِه: لا تَعبُدوا إلهَينِ اثنَينِ؛ إنَّما المعبودُ المُستحِقُّ للعبادةِ إلهٌ واحِدٌ، فخافوني وَحدي. ولله ملكُ كلِّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وله وَحْدَه العِبادةُ والطَّاعةُ والإخلاصُ دائِمًا، أغيرَ اللهِ تخافونَ وتَعبُدونَ؟! وما بكم مِن نِعمةٍ -ظاهِرةً كانت أو باطِنةً- فمِنَ اللهِ وَحدَه، ثمَّ إذا نزل بكم السَّقَمُ والبَلاءُ والفَقرُ، فإلى اللهِ وَحْدَه تَضِجُّون بالدُّعاءِ، ثمَّ إذا كشَفَ عنكم ما أصابكم، إذا جماعةٌ منكم برَبِّهم يُشرِكونَ؛ لِيَجحَدوا نِعَمَنا عليهم -ومنها كَشفُ البَلاءِ عنهم- فاستَمتِعوا بدُنياكم قليلًا، فسوفَ تَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِكم!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٥).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا خَوَّف اللهُ تعالى المُشرِكينَ بأنواعٍ مِن العذابِ أربعةٍ، أردَفَه بذِكرِ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه في تَدبيرِ أحوالِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وتدبيرِ أحوالِ الأرواحِ والأجسامِ؛ ليُظهِرَ لهم أنَّه مع كمالِ هذه القُدرةِ القاهرةِ، والقُوَّةِ غيرِ المُتناهيةِ، لا يَعجِزُ عن إيصالِ العَذابِ إليهم على أحدِ تلك الأقسامِ الأربعةِ(١).

وأيضًا فإنَّه بعدَ أن نهَضَت براهينُ انفرادِه تعالى بالخَلقِ بما ذُكِرَ مِن تَعدادِ مَخلوقاتِه العظيمةِ، جاء الانتقالُ إلى دَلالةٍ مِن حالِ الأجسامِ التي على الأرضِ، كلُّها مُشعِرةٌ بخُضوعِها لله تعالى خُضوعًا مُقارِنًا لوُجودِها وتقَلُّبِها آنًا فآنًا، عَلِمَ بذلك مَن عَلِمَه، وجَهِلَه مَن جَهِلَه. وأنبأ عنه لسانُ الحالِ بالنِّسبةِ لِما لا عِلمَ له، وهو ما خلَقَ اللهُ عليه النِّظامَ الأرضيَّ خَلقًا ينطِقُ لِسانُ حالِه بالعبوديَّةِ لله تعالى، وذلك في أشَدِّ الأعراضِ مُلازَمةً للذَّواتِ، ومُطابَقةً لأشكالِها، وهو الظِّلُّ(٢).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قُدرتَه على تعذيبِ الماكرينَ وإهلاكِهم بأنواعٍ مِن الأخذِ؛ ذكَرَ تعالى طواعيَةَ ما خلَقَ مِن غيرِهم وخُضوعَه، ضِدَّ حالِ الماكرينَ؛ ليُنَبِّهَهم على أنَّه ينبغي- بل يجِبُ- عليهم أن يكونوا طائعينَ مُنقادينَ لأمْرِه(٣).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾.

أي: أولَمْ يَنظُرْ هؤلاء -الذين مَكَروا السَّيِّئاتِ- إلى مخلوقاتِ اللهِ القائمةِ التي لها ظِلٌّ، كالأشجارِ والجِبالِ وغيرِها، تَرجِعُ ظِلالُها مِن مَوضِعٍ إلى آخَرَ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٥).

فتَميلُ ذاتَ اليَمينِ أوَّلَ النَّهارِ، وذاتَ الشِّمالِ في آخِرِه[(١)]، منقادةً لأمْرِه خاضِعةً لعَظَمتِه بمَيَلانِها ودَوَرانِها مِن جانبٍ إلى جانبٍ آخَرَ، وهم صاغِرونَ تحتَ تَسخيرِه وتَدبيرِه وقَهْرِه سُبْحانَه[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

(١) قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، أي: عن جِهاتِ اليَمينِ وجِهاتِ الشَّمائِلِ، مقصودٌ به إيضاحُ الحالةِ العجيبةِ للظِّلِّ؛ إذ يكونُ عن يمينِ الشَّخصِ مَرَّةً، وعن شِمالِه أُخرَى، أي: إذا استقبَلَ جهةً ما ثُمَّ استدبَرَها. وليس المرادُ خُصوصَ اليَمينِ والشِّمالِ، بل كذلك الأمامُ والخَلفُ، فاختُصِرَ الكلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٣٩، ٢٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

قال ابنُ جزي: (واختُلِف في معنى هذا السجودِ؛ فقيل: عبَّر به عن الخضوعِ والانقيادِ. وقيل: هو سجودٌ حقيقةً). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٨).

وقال السمعاني: (أكثَرُ السَّلَفِ أنَّ السُّجودَ هاهنا: هو الطَّاعةُ لله، وأنَّ كُلَّ الأشياءِ ساجِدةٌ لله مُطيعةٌ؛ مِن حيوانٍ وجَمادٍ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٦).

قال أبو حيان: (فغاير الزمخشري بينَ الحالين، جعَل ﴿سُجَّدًا﴾ حالًا مِن الظِّلال، و﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حالًا مِن الضميرِ في ﴿سُجَّدًا﴾، وأن يكونَ حالًا ثانيةً مِن الظلالِ، كما تقولُ: جاء زيدٌ راكبًا، وهو ضاحكٌ، فيجوزُ أن يكونَ وهو ضاحكٌ حالًا مِن الضميرِ في «راكبًا»، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن زيدٍ، وهذا الثاني عندي أظهرُ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩).

وقال ابن عاشور: (وجملة ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ في موضعِ الحالِ مِن الضميرِ في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمعِ؛ لرجوعِه إلى ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧).

ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا﴾ [الفرقان: ٤٥].

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السَّابقةِ السُّجودَ القَسْريَّ، ذكَرَ بعدَه هنا سُجودًا آخَرَ بَعضُه اختيارٌ، وفي بَعضِه شِبهُ اختيارٍ(١).

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾.

أي: ولله وحدَه يسجُدُ جميعُ ما في السَّمواتِ، وجميعُ ما في الأرضِ مِن كلِّ ما يَدِبُّ ويتحَرَّكُ سجودَ ذلٍّ وخضوعٍ، فكلُّ أحدٍ خاضعٌ لربوبيتِه، ذليلٌ لعزَّتِه، مقهورٌ تحتَ سلطانِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالسجودِ هنا الاستسلامُ والانقيادُ والخضوعُ: ابنُ جريرٍ، والسمرقندي، والواحدي، وابنُ القيم، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٠).

قال الرسعني: (أمَّا مَنْ يعقِلُ فسجودُه: عبادتُه وخضوعُه لله تعالى، وأمَّا ما لا يعقِلُ فسجودُه انقيادُه لتسخيرِ الله تعالى ونفاذ أمرِه فيه، وظهورُ أثَرِ صنعتِه عليه. هذا قولُ جمهور المفسِّرين). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

وقال أيضًا: (والصحيحُ عندي والذي يدلُّ عليه العِلمُ: أنَّه سجودٌ على الحقيقةِ، كما قلنا في تسبيحِ ما لا يعقِلُ، ويكون منشأُ ذلك معنًى يخلُقُه الله فيه، كما أفهم السَّمواتِ والأرضَ والجبالَ خطابَه، حيث عَرَضَ عليها الأمانةَ فأبَتْ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٣٧).

وقال الخازن: (لفظةُ الدَّابَّة مُشتَقَّةٌ مِن الدَّبيبِ، وهو: عِبارةٌ عن الحَرَكةِ الجُسمانيَّة، فالدابَّةُ: اسمٌ

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: والملائِكةُ يَسجُدونَ لله، وهم لا يَستَكبِرونَ عن عِبادتِه، والتَّذَلُّلِ له بطاعتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا مدَحَ اللهُ تعالى الملائِكةَ بكَثرةِ الطَّاعةِ والخُضوعِ لله، مدَحَهم بالخَوفِ مِن اللهِ الذي هو فوقَهم بالذَّاتِ والقَهرِ، وكَمالِ الأوصافِ، فهم أذِلَّاءُ تحتَ

يقعُ على كل حَيوانٍ جُسمانيٍّ يتحَرَّكُ ويَدِبُّ، فيدخُلُ فيه الإنسانُ؛ لأنَّه مِمَّا يَدِبُّ على الأرضِ. ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

قَهْرِه سُبْحانَه[١].

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾.

أي: يخافُ الملائِكةُ مِن اللهِ الذي هو فَوقَهم بذاتِه وقَهرِه وكَمالِ صِفاتِه[٢].

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

أي: ويَفعَلُ الملائِكةُ ما يأمُرُهم اللهُ بفِعلِه، ولا يَعصُونَه[٣].

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ٥١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ الأولى أنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ- سواءٌ كان مِن عالَمِ الأرواحِ أو مِن عالَمِ الأجسامِ- فهو مُنقادٌ خاضِعٌ لجَلالِ اللهِ تعالى وكِبريائِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

قال ابن الجوزي: (في قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قولان: أحدُهما: أنَّه مِن صِفةِ الملائكةِ خاصَّةً، قاله ابنُ السائب ومقاتل. والثاني: أنَّه عامٌّ في جميعِ المذكوراتِ، قاله أبو سُلَيمانَ الدِّمَشقيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٤).

وممَّن اختار القولَ الأول: الواحِديُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختاره أيضًا السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٥٤).

وممن اختار القول الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

أتبَعَه في هذه الآيةِ بالنَّهيِ عن الشِّركِ، وبالأمرِ بأنَّ كُلَّ ما سِواه فهو مِلكُه، وأنَّه غَنيٌّ عن الكُلِّ[(١)].

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾.

أي: وقال اللهُ لعِبادِه: لا تَعبُدوا مَعبُودَينِ اثنَينِ، فتَجعَلوا لي شَريكًا في العبادةِ[(٢)].

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: إنَّما المعبودُ المُستحِقُّ للعبادةِ واحِدٌ، وهو اللهُ وَحدَه؛ فلا تَعبُدوا غَيرَه[(٣)].

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

أي: فخافُوني وَحْدِي، وامتَثِلوا أمْري، واجتَنِبوا نَهْيي، ولا تُشرِكوا بي شَيئًا[(٤)].

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ثَبَت بالدَّليلِ الصَّحيحِ، والبُرهانِ الواضِحِ أنَّ اللهَ تعالى هو إلهُ العالَمِ لا شَريكَ له في الإلهيَّةِ؛ وجَبَ أن يكونَ جميعُ المخلوقاتِ عَبيدَه، وفي مِلكِه وتَصَرُّفِه، وتحتَ قَهرِه[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٦).

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن خَلقِه، وكُلُّهم عبيدُه(١).

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾.

أي: ولله وَحْدَه الطَّاعةُ والإخلاصُ والخُضوعُ والذُّلُّ دائِمًا في جميعِ الأوقاتِ؛ فطاعتُه واجِبةٌ وثابتةٌ على عبادِه أبدًا، لا تنقَطِعُ ولا تزولُ، بخلافِ طاعةِ غَيرِه سُبحانَه(٢).

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

أي: أفغَيرَ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- تخافونَ وتُطيعونَ، وهو المَعبودُ الحَقُّ، المتفَرِّدُ بالخَلقِ والمُلْكِ والتدبيرِ(٣)؟!

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ بالآيةِ الأُولَى أنَّ الواجِبَ على العاقِلِ ألَّا يتَّقِيَ غيرَ اللهِ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه يجِبُ عليه ألَّا يَشكُرَ أحدًا إلَّا اللهَ تعالى؛ لأنَّ الشُّكرَ إنَّما يلزَمُ على النِّعمةِ، وكلُّ نِعمةٍ حَصَلت للإنسانِ فهي مِن اللهِ تعالى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ فثبت بهذا أنَّ العاقِلَ يجِبُ عليه ألَّا يخاف وألَّا يتَّقِيَ أحدًا إلَّا اللهَ، وألَّا يَشكُرَ أحدًا إلَّا اللهَ تعالى[١].

وأيضًا فإنَّها انتِقالٌ مِن الاستدلالِ بمَصنوعاتِ اللهِ الكائنةِ في ذاتِ الإنسانِ، وفيما يُحيطُ به مِن الموجوداتِ، إلى الاستدلالِ بما ساق اللهُ مِن النِّعَمِ؛ فمِنَ النَّاسِ مُعرِضونَ عن التدَبُّرِ فيها، وعن شُكرِها، وهم الكافِرونَ، فكان في الأدلَّةِ الماضيةِ القَصدُ إلى الاستدلالِ ابتِداءً مَتبوعًا بالامتِنانِ[٢].

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾.

أي: كلُّ ما لديكم - أيُّها النَّاسُ - من نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ، فهو مِن الله وَحْدَه، لا مِن غيرِه[٣].

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا أصابَكم مَرَضٌ أو فَقرٌ أو شِدَّةٌ وبلاءٌ، فإلى اللهِ تَصرُخونَ بالدُّعاءِ، وبه تَستَغيثونَ؛ ليَكشِفَ عنكم ما أصابَكم مِن شِدَّةٍ؛ لعِلْمِكم أنَّه وَحْدَه القادِرُ على إغاثَتِكم[٤].

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾.

أي: ثمَّ إذا أزال اللهُ عنكم الشِّدَّةَ، ورفَع البلاءَ، إذا جماعةٌ منكم - أيُّها النَّاسُ -

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

يَجعَلونَ لربِّهم شَريكًا في عبادتِه[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢- ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

أي: لِيَكْفُرَ[(٢)] المُشرِكونَ بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشْفِ الضُّرِّ ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣).

(٢) قال ابن عطية: (قوله: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ يجوزُ أن تكونَ اللامُ لامَ الصَّيرورةِ، أي: فصار أمرُهم ليَكفُروا، وهم لم يقصِدوا بأفعالِهم تلك أن يكفُروا. ويجوز أن تكونَ لامَ أمرٍ على معنى التهديدِ والوعيدِ، كقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]. والكفرُ هنا يحتمِلُ أن يكون كُفرَ الجَحدِ بالله والشِّرك، ويؤيدُه قولُه: ﴿بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾، ويحتَمِلُ أن يكون كُفرَ النِّعمةِ، وهو الأظهرُ؛ لِقَولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بما أنعَمْنا عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥).

وممَّن قال: إنَّ اللام للعاقبة والصيرورة، أي: آل أمرُهم إلى الكفر: الألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٧٩).

وقال الشوكاني: (اللامُ في ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ لام كي، أي: لكي يكفُروا بما آتيناهم مِن نِعمةِ كَشفِ الضُّرِّ، وحتى كأنَّ هذا الكُفرَ منهم الواقِعَ في موضعِ الشُّكرِ الواجِبِ عليهم، غَرَضٌ لهم ومَقصِدٌ مِن مقاصِدِهم، وهذا غايةٌ في العتُوِّ والعنادِ ليس وراءَها غايةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣).

عنهم[١].

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فتَمَتَّعوا في حياتِكم الدُّنيا قليلًا -أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِكم[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سجَدَ للهِ فقد بَرِئَ مِن الكِبرِ، ووطَّنَ نَفسَه على الذُّلِّ، ولم يُنازِعْ رَبَّه في كِبريائِه وعظَمتِه، ويُؤيِّدُه ما قال قَبلَ هذه الآيةِ: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾، فكيف يجِدُ التكَبُّرُ مَساغًا فيمَن صَغَّرَه السُّجودُ، وذَلَّه لِرَبِّه جَلَّ وتعالى[٣]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ كلَّ ما نحصُلُ عليه -مِن عِلْمٍ أو قُدرةٍ أو إرادةٍ- فمِنَ اللهِ، فالواجِبُ علينا أن نُضيفَ هذه النِّعَمَ إلى اللهِ سُبحانَه، حتى ولو حصَلَتْ هذه النِّعمَةُ للإنسانِ بعِلْمِه أو مَهارتِه؛ فالذي أعطاه هذا العِلمَ أو المهارةَ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، ثمَّ إنَّ المهارةَ أو العِلمَ قد لا يكونُ

ومِمَّن جعل اللامَ هنا لامَ كي: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٥٧).

سببًا لحُصولِ الرِّزْقِ، فكم مِن إنسانٍ عالِمٍ أو ماهِرٍ حاذِقٍ؛ ومع ذلك لا يُوَفَّقُ، بل يكونُ عاطلًا[1]، فجميعُ النِّعَمِ المُكتَسَبةِ منَّا إنَّما هي مِن إيجادِه واختراعِه سُبحانَه، ففي الآيةِ إشارةٌ إلى وجوبِ الشُّكرِ على ما أسدَى مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: ما السَّبَبُ في ذِكْرِ (اليمين) بلَفظِ الواحِدِ، و(الشَّمائل) بصيغةِ الجَمعِ؟

أُجيب عن ذلك من عدةِ وجوهٍ:

منها: أنَّه لما كانت اليمينُ جهةَ الخيرِ والفلاحِ، وأهلُها هم الناجون أُفرِدت، ولما كانت الشمالُ جهةَ أهلِ الباطلِ، وهم أصحابُ الشمالِ جُمعت، فاليمينُ مأخوذٌ مِن اليُمنِ، وذلك راجعٌ إلى طريقِ الحقِّ، والشمالُ راجعٌ إلى طريقِ الباطلِ، بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧] ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، وطريقُ الحقِّ واحدةٌ، وطرقُ الباطلِ متعددةٌ[3].

ومنها: أنَّ الشمالَ إنَّما جُمِعت في الظلالِ، وأُفرِد اليمينُ؛ لأنَّ الظلَّ حين ينشأُ أوَّلَ النهارِ يكونُ في غايةِ الطولِ، يبدو كذلك ظلًّا واحدًا مِن جهةِ اليمينِ، ثم

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٨٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١).

يأخذُ في النقصانِ، وأمَّا إذا أخَذ في جهةِ الشمالِ فإنَّه يتزايدُ شيئًا فشيئًا، والثاني منه غيرُ الأوَّل، فلمَّا زاد منه شيئًا فهو غيرُ ما كان قبلَه، فصار كلُّ جزءٍ منه كأنَّه ظلٌّ، فحسُنَ جمعُ الشمائلِ في مقابلةِ تعدُّدِ الظلالِ(١).

ومنها: أنَّ اليمينَ مقصودٌ به الجمعُ أيضًا؛ فإنَّ الألفَ واللَّامَ فيه لِلجنسِ، فقامَ العمومُ مقامَ الجمعِ(٢). وقيل غيرُ ذلك(٣).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ لَمَّا كان حَقُّ المُشرِكينَ المُبادرةَ بالتَّوبةِ، فلم يَفعَلوا؛ أعرَضَ تعالى عنهم، فقال: ﴿يَرَوۡاْ﴾(٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾ سُجودُ المَخلوقاتِ لله تعالى قِسمانِ: سُجودُ اضطِرارٍ ودَلالةٍ على ما له مِن صِفاتِ الكَمالِ، وهذا عامٌّ لكُلِّ مَخلوقٍ؛ مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، وبَرٍّ وفاجِرٍ، وحيوانٍ ناطِقٍ وغَيرِه، وسُجودُ اختيارٍ يَختَصُّ بأوليائِه وعِبادِه المُؤمِنينَ مِن الملائِكةِ وغَيرِهم مِنَ المَخلوقاتِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١).

وقال ابنُ القيمِ عن هذا الوجهِ: (وهذا معنًى حسنٌ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢١).

(٢) ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٩٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٨-٥٣٩)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ شَرحُ صِفاتِ الملائكةِ، وهي دَلالةٌ قاهِرةٌ قاطِعةٌ على عِصمةِ الملائِكةِ عن جميعِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّهم مُنقادونَ لصانِعِهم وخالِقِهم، وأنَّهم ما خالَفوه في أمرٍ مِن الأمورِ، وقَوله: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أيضًا يدُلُّ على أنَّهم فعلوا كلَّ ما كانوا مأمورينَ به، وذلك يدُلُّ على عِصمتِهم عن كُلِّ الذُّنوبِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾، وقال لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، وقال أيضًا له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، فثبت أنَّ الملائكةَ لا يستكبِرون، وثبت أنَّ إبليسَ تكبَّرَ واستكبَرَ، فوجب أن لا يكونَ مِن الملائكةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى فوقَ خَلْقِه[٣]، وأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه بذاتِه في السَّماءِ على العَرشِ، وليس في الأرضِ إلَّا عِلْمُه المحيطُ بكُلِّ شَيءٍ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنَّ الإلهَينِ لا بُدَّ أنْ يكونَا اثنَينِ، فما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٣).
(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٦٨).

الجوابُ مِن وجوهٍ:

منها: أنَّ الاثنينيَّةَ مُنافِيةٌ للإلهيَّةِ؛ فقولُه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ المقصودُ منه التَّنبيهُ على حُصولِ المُنافاةِ، والمُضادَّةِ بين الإلهيَّةِ وبَينَ الاثنينيَّةِ[١].

ومنها: أن ذِكرَ الاثنينِ لِدَفعِ احتمالِ إرادةِ الجِنسِ، وإذ نُهُوا عن اتِّخاذِ إلهَينِ فقد دَلَّ بدَلالةِ الاقتضاءِ على إبطالِ اتِّخاذِ آلهةٍ كثيرةٍ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الإيمانَ حصَلَ بخَلقِ اللهِ تعالى؛ فالإيمانُ نِعمةٌ، وكلُّ نِعمةٍ فهي مِنَ الله تعالى[٣].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ يَدخُلُ فيه نِعَمُ الدِّينِ والدُّنيا[٤].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢١٩-٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٢-١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٢).

قال ابنُ عثيمين: (الصوابُ أن نقولَ: إيمانُنا كلُّه مخلوقٌ... فمَن قال: إيماني مخلوقٌ فقد صدَق، أمَّا ما آمَن به ففيه التفصيل؛ منه ما هو مخلوقٌ، ومنه ما هو غيرُ مخلوقٍ، رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم مخلوقٌ، وأنا مؤمنٌ به، والقرآنُ غيرُ مخلوقٍ وأنا مؤمنٌ به، وكذلك الإيمانُ بالله وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخِرِ؛ فالملائكةُ مخلوقونَ، والكتبُ غيرُ مخلوقةٍ، والإيمانُ بالرسلِ إيمانٌ بمخلوقٍ، واليومُ الآخِرُ مخلوقٌ.

فصار المؤمَنُ به منه مخلوقٌ، ومنه غيرُ مخلوقٍ، أمَّا مجردُ إيمانِ العبدِ فإنَّه مخلوقٌ؛ لأنَّه حادثٌ، فالعبدُ لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان وأحدَث الإيمانَ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٠).

- قوله: ﴿وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ جُمِع بالواو؛ لأنَّ الدخورَ من أوصافِ العُقلاءِ، أو لأنَّ في جملةِ ذلك مَن يَعقِلُ فغُلِّب[(١)].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الاستفهامُ هنا معناه التَّوبيخُ. وقيل: ويجوزُ أنْ يكونَ معناه التَّعجُّبَ[(٢)].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ على قِراءةِ حَمزةَ والكسائيِّ وخَلفٍ[(٣)]: (أولَمْ ترَوا) بالتَّاءِ المُثنَّاةِ الفوقيَّةِ على الخِطابِ؛ فهو على طَريقةِ الالْتفاتِ[(٤)].

- قَولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ قولُه: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ بيانٌ للإبهامِ الَّذي في (ما) الموصولةِ[(٥)]. فإنْ قيل: كيف بيَّنَ الموصولَ (ما) -وهو مُبهَمٌ- بشَيءٍ هو مُبهَمٌ، بل أبهَمُ ممَّا قَبلَه؟

فالجوابُ: أنَّ ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ قد اتَّضَح وظَهَر بوَصفِه بالجُملةِ بعدَه ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ الجُملةَ بيانٌ لـ (ما)[(٦)].

- وخَصَّ الظِّلَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّه سَريعُ التَّغيُّرِ، والتغيُّرُ يقتضي مُغيِّراً غيَّرَه، ومُدبِّرًا له[(٧)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٠)، ((شرح طيبة النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٣٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

- ولَمَّا كان سجودُ الظلالِ في غايةِ الظهورِ بُدئ به، ثم انتقَل إلى سجودِ ما في السمواتِ والأرضِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ تَقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على فِعْلِه ﴿يَسْجُدُ﴾ مُؤْذِنٌ بالحصرِ، أي: سجَدَ للهِ لا لغيرِه ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وهو تَعريضٌ بالمُشركين؛ إذ يَسجُدونَ للأصنامِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث لم يُعَبِّرْ بـ (مَن) تغليبًا للعُقلاءِ مِن الدَّوابِّ على غيرِهم، وإنَّما جاء بـ ﴿مَا﴾؛ لأنَّه لو جِيءَ بـ (مَن) لم يكُنْ فيه دَليلٌ على التَّغليبِ؛ فكان مُتناوِلًا للعُقلاءِ خاصَّةً، فجِيءَ بما هو صالحٌ للعُقلاءِ وغيرِهم؛ إرادةً للعُمومِ[٣]، فجاء بـ (ما) الموصوليَّةِ للتَّغليبِ؛ لأنَّ ما لا يعقِلُ أكثرُ ممَّن يعقِلُ في العدَدِ، والحُكمُ للأغلبِ. و(ما) الموصولةُ في أصلِ وضْعِها لِمَا لا يعقِلُ، كما أنَّ (مَن) موضوعةٌ في الأصلِ لمَن يعقِلُ، وقد تَتخالفانِ[٤]، وإنَّما قال: ﴿مَا﴾ ولم يُغلِّبِ العُقلاءَ مِن الدَّوابِّ على غيرِهم، كما في قولِه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]؛ لأنَّه أراد هنا عُمومَ كلِّ دابَّةٍ ولم يقترِنْ بتغليبٍ؛ فجاء بـ ﴿مَا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣١٤- ٣١٥).

﴿ الَّتي تعُمُّ النَّوعينِ، وفي آيةِ النُّورِ - وإنْ أراد العُمومَ - لكنَّه اقترَنَ بتغليبٍ، وهو ذِكْرُ ضَميرِ العُقلاءِ ﴿مَّن﴾ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي﴾؛ فجاء بـ﴿مَّن﴾ تَغليبًا للعُقلاءِ(١). فإنْ قلْتَ: سُجودُ المُكلَّفينَ ممَّا انتظَمَه هذا الكلامُ خِلافَ سُجودِ غيرِهم، فكيف عُبِّرَ عن النَّوعينِ بلفظٍ واحدٍ؟ قلْتُ: المُرادُ بسُجودِ المُكلَّفينَ: طاعتُهم وعِبادتُهم، وبسُجودِ غيرِهم: انقيادُه لإرادةِ اللهِ، وأنَّها غيرُ مُمتنِعةٍ عليها، وكِلَا السُّجودينِ يجمَعُهما معنى الانقيادِ فلم يختلِفَا؛ فلذلك جاز أنْ يُعَبَّرَ عنهما بلفظٍ واحدٍ(٢).

- قولُه: ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بيانًا لِمَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ جميعًا، على أنَّ في السَّمواتِ خلقًا للهِ يَدُبُّون فيها كما يدُبُّ الأناسيُّ في الأرضِ، وأنْ يكونَ بيانًا لِمَا في الأرضِ وحدَه، ويُرادُ بـ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: الملائكةُ، وكرَّرَ ذِكْرَهم على معنى: والملائكةُ خُصوصًا مِن بين السَّاجدينَ؛ لأنَّهم أطوَعُ الخلقِ وأعبَدُهم. ويجوزُ أنْ يُرادَ بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: ملائكتُهنَّ(٣). وقيل: عَطَفَ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهم مُندَرِجونَ في عُمومِهما؛ تَشريفًا لهم وتكريمًا. ويجوزُ أن يُرادَ بهم الحَفَظةُ التي في الأرضِ، وبـ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَلائِكتُهنَّ، فلم يدخُلوا في العُمومِ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - مع الحاشية)) (٢/ ٦٠٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٠٩ - ٦١٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٠).

- جُملةُ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: لا يستكبِرونَ خائفينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ بيانًا لنَفيِ الاستكبارِ، وتأكيدًا له وتَقريرًا؛ لأنَّ مَن يخافُ اللهَ سُبحانَه لا يستكبِرُ عن عِبادتِه[١].

- وفي قولِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ تَربيةٌ للمَهابةِ، وإشعارٌ بعِلَّةِ الحُكمِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ



- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ فيه إظهارُ الفاعِلِ، وتخصيصُ لفظةِ الجلالةِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّه متعيِّنُ الأُلوهيَّةِ، وإنَّما المنهيُّ عنه هو الإشراكُ به، لا أنَّ المنهيَّ عنه مُطلَقُ اتِّخاذِ إلَهينِ بحيث يتَحقَّقُ الانتهاءُ عنه برَفْضِ أيِّهما كان[٣].

- وجملةُ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ يَجوزُ أن تَكونَ بَيانًا لِجُملةِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ فالجملةُ مَقولَةٌ لِفعلِ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ عطْفَ البيَانِ تابعٌ للمبيَّنِ؛ فلِذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الجملةِ التي قبْلَها، وبذلك أُفيدَ بالمنطوقِ ما أُفيدَ قبْلُ بدَلالةِ الاقتضاءِ. ويَجوزُ أن تَكونَ جملةُ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ مُعترِضةً، واقعةً تَعليلًا لجملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، أي: نَهى اللهُ عن اتِّخاذِ إلَهيْنِ؛ لأنَّ اللهَ واحدٌ، أي: واللهُ هو مُسمَّى إلهٍ؛ فاتِّخاذُ إلَهينِ اثنَينِ قَلْبٌ لِحَقيقةِ الإلهيَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) ٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٣).

- والقَصْرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قَصْرُ موصوفٍ على صِفةٍ، أي: اللهُ مُختصٌّ بصِفَةِ توحُّدِ الإلهيَّةِ، وهو قَصْرُ قَلْبٍ؛ لإبطالِ دَعْوى تَثنيَةِ الإلهِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ فيه نقلٌ للكلامِ عن الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ، وجاز لأنَّ الغالِبَ هو المتكلِّمُ، وهو مِن طريقةِ الالْتِفاتِ، وهو أبلَغُ في التَّرهيبِ مِن (وإيَّاه فارهَبوه)، ومِن أن يَجيءَ ما قَبْلَه على لَفْظِ المتكلِّمِ[٢]؛ فهذا الالتِفاتُ من الغَيبةِ إلى التَّكلمِ؛ لِتَربيَةِ المهابةِ وإلقاءِ الرَّهبةِ في القُلوبِ؛ ولِذَلك قَدَّم وكرَّر الفِعْلَ، أي: إنْ كُنتُم راهِبين شَيئًا فإيَّايَ ارْهَبوا لا غَيرُ؛ فإنِّي ذلك الواحِدُ الَّذي يَسجُدُ لَه ما في السَّمواتِ والأرضِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ تفريعٌ، يَجوزُ أن يكونَ تَفريعًا على جُملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ فيَكونَ ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ مِن مَقولِ القولِ، ويَكونَ في ضَميرِ المتكلِّمِ مِن قولِه: ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ. ويَجوزُ أن يَكونَ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾؛ فلا يَكونَ مِن مَقولِ القولِ، وليس في الكلامِ الْتِفاتٌ على هذا الوجهِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾ تفريعٌ بصِيغةِ القصرِ، وهو قَصرُ قلبٍ إضافيٌّ، أي: قَصْرُ الرَّهبةِ التَّامَّةِ مِنه عليه؛ فلا اعْتِدادَ بقُدرةِ غيرِه على ضُرٍّ أحدٍ.

واقتِرانُ فِعْلِ ﴿فَٱرْهَبُونِ﴾ بالفاءِ؛ لِيَكونَ تَفريعًا على تفريعٍ؛ فيُفيدُ مَفادَ التَّأكيدِ؛ لأنَّ تَعلُّقَ فِعلِ (ارْهَبُونِ) بالمفعولِ لَفْظًا يَجعَلُ الضَّميرَ المنفصِلَ المذكورَ قبْلَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٤).

في تقديرِ مَعمولٍ لِفِعلٍ آخَرَ؛ فيكونُ التَّقديرُ: فإيَّايَ ارْهَبوا فارْهَبونِ، أي: أمَرتُكم بأن تَقْصُروا رَهبتَكم علَيَّ، فارهَبونِ امتِثالًا للأمرِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾: لَمَّا نَهى عن اتِّخاذِ الإلهَينِ، واستَلزَم النَّهيَ عن اتِّخاذِ آلهةٍ؛ أخبَر تعالى أنَّه إلهٌ واحدٌ كما قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣]، بأَداةِ الحَصْرِ، وبالتَّأكيدِ بالوَحْدةِ، ثمَّ أمَرَهم بأن يَرهَبوه، والْتَفَت مِن الغَيبةِ إلى الحُضورِ؛ لأنَّه أبلَغُ في الرَّهبةِ(٢).

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ تقريرٌ لعِلَّةِ انْقِيادِ ما فيها له سُبحانَه خاصَّةً، وتحقيقٌ لتخصيصِ الرَّهبةِ به تعالى(٣).

- قولُه: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ فيه تقديمُ الظَّرفِ (لَهُ) لِتقْويةِ ما في اللَّامِ مِن مَعنى الاخْتِصاصِ، وكذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾(٤)، وهو يُفيدُ الحصْرَ؛ فدخَل جميعُ ما في السَّماءِ والأرضِ في مَفادِ لامِ المِلكِ؛ فأفادَ أنْ ليس لِغَيرِه شيءٌ مِن المخلوقاتِ خيرِها وشَرِّها؛ فانتَفى أن يكونَ معَه إلهٌ آخَرُ؛ لأنَّه لو كان معَه إلهٌ آخَرُ لكان له بعضُ المخلوقاتِ؛ إذْ لا يُعقَلُ إلهٌ بدونِ مخلوقاتٍ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ فالدِّينُ يَحتمِلُ أن يَكونَ المرادُ به الطَّاعةَ؛ مِن قولِهم: دانَتِ القَبيلةُ للمَلِكِ، أي: أطاعَتْه؛ فهو مِن مُتمِّماتِ جُملةِ: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قَصَر الموجوداتِ على الكونِ في مُلكِه، كان حَقيقًا بِقَصْرِ الطَّاعةِ عليه؛ ولذلك قدَّم المجرورَ (له)

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١١٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في هذه الجملةِ على فِعْلِه، كما وقَع في الَّتي قبْلَها[١].

- قولُه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ تَضمَّنَ التَّوبيخَ والتَّعجُّبَ، أي: بَعدَما عرَفْتُم وَحْدانيَّتَه، وأنَّ ما سِواه له، ومُحتاجٌ إليه؛ كيف تتَّقونَ وتَخافونَ غَيرَه، ولا نَفْعَ ولا ضُرَّ يَقدِرُ علَيه[٢]؟!

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ في إيرادِ النِّعمةِ بالجملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الدَّوامِ، والتَّعبيرِ عن مُلابَستِها للمُخاطَبين بباءِ المُصاحَبةِ، وإيرادِ (ما) المُعرِبةِ عن العمومِ، وإيرادِ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ بالجملةِ الفعليَّةِ المعْرِبةِ عن الحُدوثِ مع (ثَمَّ) الدَّالَّةِ على وُقوعِه بعدَ بُرهةٍ مِن الدَّهرِ، وتَحْليَةِ الضُّرِّ بلامِ الجنسِ المفيدةِ لِمساسِ أدْنَى ما يَنطلِقُ عليه اسمُ الجنسِ: ما لا يَخْفى مِن الجزالةِ والفَخامةِ. ولعلَّ إيرادَ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ)؛ للتَّوسُّلِ به إلى تَحقُّقِ وُقوعِ الجوابِ[٣]؛ لأنَّ (إذا) للَّذي يقَعُ، و(إنْ) للَّذي قد يقَعُ أو لا يقَعُ.

- قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ الباءُ ﴿بِكُم﴾ للمُلابَسةِ، أي: ما لابَسَكم واستَقرَّ عِندَكم، و﴿مِّن نِّعْمَةٍ﴾ لِبيانِ إبهامِ ﴿مَا﴾ الموصولةِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٧).

- و(مِن) في قولِه: ﴿فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: واصِلةٌ إليكم مِن اللهِ، أي: مِن عطاءِ اللهِ. ولَمَّا كان قولُه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ﴾ مُفيدًا للعُمومِ، كان الإخبارُ عنه بأنَّه مِن عِندِ اللهِ مُغنيًا عن الإتيانِ بصيغةِ قَصْرٍ(١).

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، كما هو شأنُها الغالب في عَطْفِها الجُمَل؛ لأنَّ اللَّجَأَ إلى اللهِ عِندَ حُصولِ الضُّرِّ أعجَبُ إخبارًا مِن الإخبارِ بأنَّ النِّعَمَ كلَّها مِن اللهِ، ومضمونُ الجملةِ المعطوفةِ أبعَدُ في النَّظَرِ مِن مضمونِ المعطوفِ عليها. والمقصودُ: تقريرُ أنَّ اللهَ تعالى هو مُدبِّرُ أسبابِ ما بِهم مِن خيرٍ وشرٍّ، وأنَّه لا إلهَ يَخلُقُ إلَّا هو، وأنَّهم لا يَلتجِئون إلَّا إليه إذا أصابَهم ضُرٌّ، وهو ضدُّ النِّعمةِ(٢).

٧- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾

- ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِ الجُمَلِ؛ فليستْ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للدَّلالةِ على تَمادي زَمانِ مِساسِ الضُّرِّ ووُقوعِ الكَشفِ بعدَ بُرهَةٍ مَديدةٍ، بل للدَّلالةِ على تَراخي رُتبةِ ما يترَتَّبُ عليه مِن مُفاجَأةِ الإشراكِ المدلولِ عليها بقولِه سُبحانَه: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾؛ فإنَّ ترَتُّبَها على ذلك في أبعَدِ غايةٍ مِن الضَّلالِ. وجيءَ بحرفِ (ثُمَّ)؛ لأنَّ مَضمونَ الجملةِ المعطوفةِ أبعَدُ في النَّظرِ مِن مَضمونِ المعطوفِ عليها؛ فإنَّ الإعراضَ عن المنعِمِ بكَشْفِ الضُّرِّ وإشراكَ غيرِه به في العِبادةِ أعجَبُ حالًا، وأبعَدُ حُصولًا مِن اللَّجأِ إليه عندَ الشِّدَّةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨).

- قولُه: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ فيه التَّعرُّضُ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ؛ للإيذانِ بكَمالِ قُبحِ ما ارتكَبوه مِن الإشراكِ والكُفرِ(١).

- قولُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ عامًّا، ويُريدَ بالفَريقِ: فريقَ الكفَرةِ وأن يَكونَ الخِطابُ للمُشرِكين و﴿مِّنكُم﴾ للبَيانِ لا للتَّبعيضِ، كأنَّه قال: فإذا فريقٌ كافِرٌ، وهم أنتُم. ويجوزُ أن يكونَ فيهم مَن اعتبَر، كقولِه: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ فمِن تبعيضيَّةٌ أيضًا(٢).

٨- قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ لامُ التَّعليلِ في ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ -على أحدِ القولينِ- مُتعلِّقةٌ بفِعلِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ الَّذي هو مِن جوابِ قولِه: ﴿إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ﴾، والكُفرُ هنا كفرُ النِّعمةِ؛ ولِذلك عَلَّق به قولَه: ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾، أي: مِن النِّعَمِ، وكُفرُ النِّعمةِ ليس هو الباعِثَ على الإشراكِ؛ فإنَّ إشراكَهم سابِقٌ على ذلك، وقد استَصْحَبوه عَقِبَ كشْفِ الضُّرِّ عنهم، ولكن شُبِّهَت مُقارَنةُ عَوْدِهم إلى الشِّركِ بعدَ كشْفِ الضُّرِّ عنهم بمُقارَنةِ العِلَّةِ الباعِثةِ على عمَلٍ لذلك العمَلِ، ووجهُ الشَّبَهِ: مُبادَرتُهم لكُفرِ النِّعمةِ دونَ تريُّثٍ(٣).

- قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أمرُ تهديدٍ، والالتفاتُ إلى الخطابِ؛ للإيذانِ بتَناهي السُّخطِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٧٨- ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود))

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فيه وعيدٌ أكيدٌ، مُنْبِئٌ عن أخْذٍ شديدٍ، حيث لم يَذكُرِ المفعولَ؛ إشعارًا بأنَّه ممَّا لا يُوصَفُ[1].



(٥/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٠).

الآيات (٥٦-٦٠)

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ
فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كَظِيمٌ ﴾: أي: مُمسِكٌ على حُزنِه، لا يُظهِرُه، ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدلُّ على إمساكِ الشَّيءِ، وجَمعِه[١].

﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾: أي: يختفي ويتغَيَّبُ، وأصلُه مِن الوَراءِ، وهو جِهةُ الخَلفِ[٢].

﴿ هُونٍ ﴾: أي: هَوانٍ، وأصلُ (هون): يدلُّ على ذُلٍّ[٣].

﴿ يَدُسُّهُۥ ﴾: أي: يُخفِيه ويَئِدُه، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحت خَفاءٍ وسِرٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).

قال البقاعي: (﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ أي: يَستخفي بما يجعلُه في موضعٍ كأنَّه الوراءُ، لا اطلاعَ لأحدٍ عليه). ((نظم الدرر)) (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٢)،

﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: أي: الصفةُ العُلْيا، التي هي أعلَى مِن كلِّ صفةٍ، مِن تنزُّهِه عن الولدِ، وسائرِ ما لا يليقُ بجلالِه، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المشركينَ يجعَلُون للأصنامِ التي اتَّخذوها آلِهةً -وهي لا تعلَمُ شيئًا ولا تنفَعُ ولا تضُرُّ- حظًّا من أموالِهم التي رزَقَهم اللهُ إيَّاها -كالحَرْثِ والأنعامِ-؛ تقَرُّبًا إليها! ثم يتوعَّدُهم الله مقسمًا بذاتِه قائلًا: واللهِ لتُسألُنَّ -أيُّها المُشرِكون- يومَ القيامةِ عمَّا كنتُم تختَلِقونَه مِن الكَذِبِ عليه سُبحانَه. ويجعَلُونَ لله سُبحانَه البَناتِ، فيقولونَ: الملائِكةُ بناتُ الله -تنزَّه اللهُ عن قَولِهم- ولأنفُسِهم ما يحبُّونَ مِن البَنينَ! وإذا أُخبِرَ أحدُهم بولادةِ بِنتٍ له، اسودَّ وَجْهُه؛ كراهِيةً لِما سَمِعَ، وامتلأ غمًّا وحُزنًا، يَستَخفي مِن قَومِه كراهةَ أنْ يَلقاهم مُتلَبِّسًا بما ساءَه مِن الحُزنِ والعارِ؛ بسبَبِ البِنتِ التي وُلِدَت له، يتحَيَّرُ في أمرِ هذه المولودةِ: أيُبقِيها حَيَّةً على ذُلٍّ وهَوانٍ، أم يَدفِنُها حَيَّةً في التُّرابِ؟ ألا بِئسَ الحُكمُ الذي حَكَموه مِن جَعْلِ البناتِ -اللَّاتي لا يَرضَونَهنَّ لأنفُسِهم- لله، والذُّكورِ لهم!

للَّذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ المثَلُ القَبيحُ مِن العَجزِ والحاجة، والعَيبُ والنَّقصُ؛ ولِلَّه الصِّفاتُ العُليا مِن الكَمالِ، والاستغناءِ عن خَلقِه، والتنزُّهِ عن الولدِ، وهو العزيزُ في مُلكِه، الحَكيمُ في تَدبيرِه.

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٤٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ بالدَّلائِلِ القاهِرةِ فَسادَ أقوالِ أهلِ الشِّركِ والتَّشبيهِ؛ شرح في هذه الآيةِ تفاصيلَ أقوالِهم، وبَيَّن فَسادَها وسَخافتَها[1]، فقال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

أي: ويجعَلُ المُشرِكونَ للأصنامِ -التي لا يَعلَمونَ لها حَقًّا، ولا ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا حُجَّةَ لهم في عِبادتِها- حظًّا مِمَّا رزَقْناهم من الأموالِ، كالحَرْثِ والأنعامِ؛ يتقَرَّبونَ بها إليها[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٧).

قال ابنُ الجوزي: (في الذينَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان: أحدهما: أنَّهم الجاعِلونَ، وهم المُشرِكونَ، والمعنى: لِمَا لا يَعلَمونَ لها ضَرًّا ولا نَفعًا، فمفعولُ العلمِ مَحذوفٌ، وتقديرُه: ما قُلْنا، هذا قولُ مجاهدٍ وقتادةَ. والثاني: أنَّها الأصنامُ التي لا تعلَمُ شَيئًا، وليس لها حِسٌّ ولا معرفةٌ، وإنَّما قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا نَحَلوها الفَهمَ، أجراها مجرى مَن يَعقِلُ على زَعْمِهم، قاله جماعةٌ مِن أهلِ المعاني). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٥).

وممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي، وأبو حيان، وابنُ عاشورٍ. ونسَبه الواحديُّ إلى عامةِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨١).

وممن اختار القول الثاني: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٨٩-٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٢).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾.

أي: واللهِ- أيُّها المُشرِكونَ- ليَسألنَّكم اللهُ يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَختَلِقونَه في الدُّنيا مِن الكَذِب عليه، بادِّعائِكم أنَّه أمَرَكم بعبادةِ غَيرِه، وسيُعاقِبُكم على ذلك[١].

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧﴾.

أي: ويَنسُبُ المُشرِكونَ لله البناتِ- إذ زَعَموا أنَّ الملائِكةَ بَناتُه تعالى- تنزَّه الله عن أن يكونَ له ذلك، ولهم ما يُحِبُّونَ، وهم الذُّكورُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ * أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ * مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ * فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ * سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٢).

بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٦ - ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وإذا أُخبِرَ أحدُ المُشرِكينَ -الذين يَجعَلونَ لله البَناتِ- بوِلادةِ بنتٍ له، يظَلُّ وَجهُه متغَيِّرًا؛ من كآبتِه وكراهِيَتِه الشَّديدةِ لذلك، قد امتلأ غمًّا وغَضَبًا وغَيظًا(١)!

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾.

أي: يَختَفي عن أنظارِ قَومِه؛ مِن كَراهِيَتِه للبِنتِ، ومِمَّا يَلحَقُه مِن الحُزنِ والعارِ والحَياءِ(٢)!

﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كان الرَّجُلُ في الجاهليَّةِ إذا ضرَبَ امرأتَه المخاضُ توارى إلى أن يَعلَمَ ما يُولَدُ له، فإن كان ذكَرًا سُرَّ به وابتهَجَ، وإن كانت أنثى اكتأبَ لها وحَزِنَ، ولم يَظهَرْ للنَّاسِ أيَّامًا؛ يُدَبِّرُ كيف يَصنَعُ في أمرِها). ((البسيط)) (١٣/ ٩٣).

أي: يتحَيَّرُ ويتَرَدَّدُ بين أمرينِ: هل يُمسِكُها على هَوانٍ وذِلَّةٍ[١]، أم يُخفِيها في التُّرابِ بدَفنِها حَيَّةً[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

أي: ألا بِئسَ الحُكمُ ما يَحكُمُ به هؤلاء المُشرِكونَ، في نِسبتِهم البناتِ -اللاتي لا يَرضَونَهنَّ لأنفُسِهم ويَكرَهونَهنَّ- إلى اللهِ، ونِسبتِهم البَنينَ الذين يُحِبُّونَهم إلى أنفُسِهم[٣]!

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

(١) قال الرازي: (وفي أنَّ هذا الهُونَ صِفةُ مَن؟ قولان: الأول: أنَّه صِفةُ المولودةِ، ومعناه: أنَّه يُمسِكُها عن هُونٍ منه لها. والثاني: قال عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: إنَّه صِفةٌ للأبِ، ومعناه: أنَّه يُمسِكُها مع الرِّضا بهوانِ نَفسِه، وعلى رَغمِ أنْفِه). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٥). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٦).

وممَّن اختار أنَّ الهوانَ هنا صِفةٌ للمولودةِ، أي: يُهينُها والِدُها ويُذِلُّها، كألَّا يُورِّثَها، ولا يَعتنيَ بها، ويُفَضِّلَ أولادَه الذُّكورَ عليها: الواحدي، وابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٠).

وممَّن اختار أنَّه صِفةٌ لوالِدِها، أي: يَستَبقيها على هَوانٍ يتحمَّلُه، وهَمٍّ يتجَلَّدُ له: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨).

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ تكَلَّموا بالباطِلِ في جانِبِه تعالى وجانِبِهم؛ بيَّنَ ما هو الحَقُّ في هذا المَقامِ، فقال تعالى -على تقديرِ الجوابِ لمن كأنَّه قال: فما يُقالُ في ذلك[١]-:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾.

أي: لهؤلاءِ المُشرِكينَ -الذين لا يُصَدِّقونَ بالبَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ- المثَلُ القَبيحُ، والعَيبُ والنَّقصُ[٢].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾.

أي: ولله الوَصفُ الأفضَلُ والأطيَبُ والأحسَنُ، مِن تَوحيدِه، وتنَزُّهِه عن الولَدِ، وأنَّ له جميعَ صِفاتِ الكَمالِ المُطلَقِ مِن جَميعِ الوُجوهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ، القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ[٤]، الحَكيمُ الذي يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللَّائقةِ بها، بلا خَللٍ ولا خَطأٍ في تدبيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٤) قال ابنُ جريرٍ: (والله ذو العزةِ التي لا يمتنعُ عليه معها عقوبةُ هؤلاء المشركينَ -الذين وصَف صفتَهم في هذه الآياتِ- ولا عقوبةُ مَن أراد عقوبتَه على معصيتِه إيَّاه، ولا يتعذَّر عليه شيءٌ أراده وشاءه؛ لأنَّ الخلقَ خلقُه، والأمرَ أمرُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ عِظَةٌ لِمَن يتسخَّطُ قِسْمةَ اللهِ له في الإناثِ، ولا يُسَلِّمُ لِحُكمِه عليه، ولا تَطيبُ نَفْسُه به[(١)]، فالتَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ الجاهِليَّةِ الذين ذَمَّهم اللهُ تعالى[(٢)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وهو كُلُّ صِفةِ كَمالٍ، وكُلُّ كَمالٍ في الوُجودِ فاللهُ أحَقُّ به مِن غَيرِ أن يَستلزِمَ ذلك نقصًا بوَجهٍ، وله المَثَلُ الأعلى في قُلوبِ أوليائِه، وهو: التَّعظيمُ والإجلالُ، والمَحبَّةُ والإنابةُ والمَعرِفةُ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ في اعتبارِهم الجَعلَ بمعنى الخَلقِ في كلِّ مَوضِعٍ، واستدلالِهم بذلك على خلقِ القرآنِ، فيُقالُ لهم: أخَلَقوا البَناتِ، ولهم البَنونَ في هذه الآيةِ؟ فإن قالوا: نعم، كفَروا برَبِّهم؛ حيث جعَلُوا معه خالِقًا سِواه، وإن قالوا: ليس الجَعلُ بمعنى الخَلقِ، رَجَعوا عن قَولِهم في الجَعلِ، وبطَلَت في الاحتجاجِ به على خَلقِ القُرآنِ[(٤)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ بيانُ أنَّ الربَّ الخالقَ أَولى

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٤).

بأنْ يُنَزَّهَ عن الأمورِ النَّاقِصةِ مِن النَّاسِ، فكيف يَجعَلونَ له ما يَكرَهونَ أن يكونَ لهم، ويَستَخْفونَ مِن إضافتِه إليهم، مع أنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ، ولا يُنَزِّهونَه عن ذلك، ويَنفُونَه عنه، وهو أحَقُّ بنَفيِ المكروهاتِ المُنَقِّصاتِ منهم[١]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُستعمَلُ في حقِّه قِياسُ الأَولى، كما جاء بذلك القُرآنُ، وهو الطَّريقُ التي يَسلُكُها السَّلَفُ والأَئِمَّةُ كأحمدَ وغيرِه مِن الأئمَّة، فكلُّ كمالٍ ثبتَ للمَخلوقِ، فالخالقُ أَولى به -إذا كان مُجَرَّدًا عن النَّقصِ- وكلُّ نقصٍ يُنَزَّهُ عنه المَخلوقُ، فالخالقُ أَولى أنْ يُنَزَّهَ عنه[٢]، فاللهُ تعالى له المثَلُ الأعلى، فلا يُضرَبُ له المثَلُ المُساوِي؛ إذا لا كُفْوَ ولا نِدَّ له، فضلًا عن أن يُضرَبَ له المثَلُ النَّاقِصُ، ولا يُكتَفى في حَقِّه بالمَثَلِ العالي، بل له المثَلُ الأعلى؛ إذ هو الأعلى سُبحانَه[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ لعَلَّه اختِيرَ لَفظُ (ظَلَّ) الذي معناه العَمَلُ نَهارًا -وإن كان المرادُ العُمومَ في النَّهارِ وغَيرِه- دَلالةً على شُهرةِ هذا الوَصفِ شُهرةَ ما يُشاهَدُ نَهارًا[٤].

٥- لَمَّا كان المُشرِكونَ يُغَيِّبونَ المَوءُودةَ في الأرضِ على غيرِ هيئَةِ الدَّفنِ، عبَّرَ عنه تعالى بالدَّسِّ، فقال: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٨٥).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: كيف أضاف المَثَلَ هنا إلى نَفسِه تعالى، وقد قال: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؟

الجواب: أنَّ المَثَلَ الذي يَذكُره اللهُ حَقٌّ وصِدقٌ، والذي يَذكُره غَيرُه فهو الباطِلُ[١]. وفيه وجهٌ آخرُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾، أي: الأمثالَ التي تُوجِبُ الأشباهَ والنَّقائِصَ، أي: لا تَضرِبوا لله مَثَلًا يَقتَضي نَقصًا، وتَشَبُّهًا بالخَلقِ. والمثَلُ الأعلى: أي: الصفةُ العُليا، ووَصفُه بما لا شَبيهَ له ولا نَظيرَ، جَلَّ وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالِمونَ والجاحِدونَ عُلُوًّا كَبيرًا[٢].

٧- صِفاتُ اللهِ تعالى كُلُّها صِفاتُ كَمالٍ لا نَقْصَ فيها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، كالحياةِ، والعِلمِ، والقُدرةِ، والسَّمعِ، والبَصَرِ، والرَّحمةِ، والعِزَّةِ، والحِكمةِ، والعُلوِّ، والعَظَمةِ، وغيرِ ذلك. وممَّا دَلَّ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والمثَلُ الأعلى: هو الوَصفُ الأعلى[٣].

٨- اللهُ تعالى أثبَتَ لنَفسِه الصِّفاتِ إجمالًا وتَفصيلًا مع نَفيِ المُماثَلةِ، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. وهذا يدُلُّ على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يَستلزِمُ التَّمثيلَ، ولو كان يَستلزِمُ التَّمثيلَ لكان كلامُ اللهِ مُتناقِضًا[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فيه أنَّ كُلَّ صفةِ عَيْبٍ -كالعَمى،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩).
(٣) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ١٨).
(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

والصَّمَمِ، والخَرَسِ، والنَّومِ، والموتِ، ونحوِ ذلك- مَنفيَّةٌ عن اللهِ تعالى؛ فإنَّ ثُبوتَ المَثَلِ الأعلى له -وهو الوَصفُ الأعلى- يَستَلزِمُ انتفاءَ كلِّ صفةِ عَيبٍ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ دَلالةٌ على القاعدةِ: «لا يُوجَدُ في صِفاتِ اللهِ نفيٌ مُجَرَّدٌ»، والنَّفيُ المُجَرَّدُ ليس مَثَلًا أعلى، المَثَلُ الأعلى، أي: الوصفُ الأعلى والأكمَلُ، والنفيُ المُجَرَّدُ عَدَمٌ، والعَدَمُ ليس بشَيءٍ، فضلًا عن أن يكونَ وصْفًا أعلى(٢)!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ وَصَفَ النَّصيبَ بأنَّه ممَّا رزَقْناهم؛ لِتَشنيعِ ظُلمِهم؛ إذْ ترَكوا المنعِمَ فلَم يتقرَّبوا إليه بما يُرْضيه في أموالِهم ممَّا أمَرَهم بالإنفاقِ فيه، كإعطاءِ المحتاجِ، وأنفَقوا ذلك في التَّقرُّبِ إلى أشياءَ موهومةٍ لم ترزُقْهم شيئًا. ثمَّ وُجِّه الخِطابُ إليهم على طريقةِ الالْتِفاتِ؛ لِقَصدِ التَّهديدِ، ولا مانِعَ مِن الالْتفاتِ هنا؛ لِعَدمِ وُجودِ فاءِ التَّفريعِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾(٣).

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ﴾ في تَصْديرِ الجملةِ بالقَسَمِ، وصَرْفِ الكلامِ مِن الغَيبةِ إلى الخطابِ المنبِئِ عن كمالِ الغضَبِ- مِن شِدَّةِ الوعيدِ ما لا يَخْفَى(٤). وتصديرُ جملةِ التَّهديدِ والوَعيدِ بالقَسَمِ أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢١).

لتَحْقيقِه؛ إذِ السُّؤالُ الموعودُ به يَكونُ يومَ البَعْثِ، وهُم يُنكِرونه؛ فناسَب أن يُؤكَّدَ[١]. والقسَمُ بالتَّاءِ يَختصُّ بما يَكونُ المقسَمُ عليه أمرًا عَجيبًا ومُستغرَبًا؛ فالإتيانُ في القسَمِ هنا بحرفِ التَّاءِ مُؤْذِنٌ بأنَّهم يُسألون سُؤالًا عجيبًا بمِقْدارِ غَرابةِ الجُرْمِ المسؤولِ عنه[٢].

- وقال هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾، وفي سورةِ الأنعام قال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ فاقتَصَر هنا على ذِكْرِ ما جعَلوه لِشُركائِهم دونَ ما جعَلوه للهِ؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حسَنةٍ؛ لأنَّ المقامَ هنا لِتَفصيلِ كُفْرانِهمُ النِّعمةَ، بخِلافِ ما في سورةِ الأنعامِ؛ فهو مَقامُ تَعْدادِ أحوالِ جاهليَّتِهم، وإن كان كلُّ ذلك مُنكَرًا عليهم، إلَّا أنَّ بعضَ الكُفرِ أشَدُّ مِن بعضٍ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ اعتراضُ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾؛ لِغَرَضِ التَّنزيهِ والتَّعظيمِ، وفيه الشَّناعةُ على مَن جعَل البَناتِ للهِ[٤]. وقَدَّم قولَه: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ على قولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ لِيَكونَ نَصًّا في أنَّ التَّنزيهَ عن هذا الجَعْلِ لِذاتِه، وهو نِسبةُ البُنُوَّةِ للهِ، لا عَن جَعلِهم له خُصوصَ البَناتِ دونَ الذُّكورِ الَّذي هو أشَدُّ فَظاعةً، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٥٧).

﴿مَّا يَشۡتَهُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك زيادةٌ في التَّفْظيعِ، فقولُه: ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ جُملةٌ في موضعِ الحالِ، وتقديمُ الخبَرِ في الجملةِ؛ للاهتِمامِ بهِم في ذلك؛ على طَريقةِ التَّهكُّمِ[١]. وهذا على أحدِ الأوجهِ الإعرابيةِ.

- واقتَصَر هنا على لفظِ ﴿ٱلۡبَنَٰتِ﴾ الدَّالِّ على الذَّوَاتِ، واقتَصَر على أنَّهم يَشتَهون الأبناءَ، ولم يتَعرَّضْ إلى كَراهتِهِمُ البَناتِ، وإن كان ذلك مأخوذًا بالمفهومِ؛ لأنَّ ذلك درَجةٌ أخرى مِن كُفرِهم ستُخَصُّ بالذِّكرِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ الواوُ في قولِه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ يجوزُ أن تَكونَ واوَ الحالِ، ويَجوزُ أن تَكونَ الجملةُ مُعترِضةً والواوُ اعتِراضيَّةً؛ اقْتَضى الإطالةَ بها أنَّها مِن تَفاريعِ شِرْكِهم؛ فهي لذلك جَديرةٌ بأن تَكونَ مقصودةً بالذِّكْرِ كأخَواتِها، وهذا أَوْلى مِن أن تُجعَلَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ الَّتي هي في مَوضعِ الحالِ؛ لأنَّ ذلك يُفِيتُ قَصْدَها بالعَدِّ، وهذا القَصدُ مِن مُقتضَياتِ المقامِ وإن كان مآلُ الاعتِبارَينِ واحِدًا في حاصلِ المعنى[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ المشهورُ أنَّ البِشارةَ أوَّلُ خَبرٍ يَسُرُّ، وهنا قد يُرادُ به مُطلَقُ الإخبارِ، أو تَغيُّرُ البَشرةِ، وهو القَدْرُ المشترَكُ بينَ الخبَرِ السَّارِّ أو المحزنِ، وفي هذا تقبيحٌ لِنِسبتِهم إلى اللهِ- المنزَّهِ عن الولَدِ- البَناتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٢- ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٣- ١٨٤).

وأحدُهم أكرهُ الناسِ فيهنَّ، وأنفرُهم طبعًا عنهنَّ[١]. وقيل: لعَلَّه عبَّرَ عنه بهذا اللَّفظِ؛ تنبيهًا على تَعكيسِهم للأُمورِ، في جَعلِهم وسُرورِهم وحُزنِهم وغيرِ ذلك مِن أمْرِهم[٢].

- قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿ظَلَّ﴾ بمعنى صارَ، ويجوز أن يكونَ واردًا ومستعملًا في الآيةِ بمعناه الأصليِّ، وهو اتِّصافُ الشَّيءِ بصِفةٍ نهارًا فقط؛ لأنَّ أكثرَ الوضعِ يتَّفقُ باللَّيلِ، فيَظلُّ نَهارَه مُغتمًّا عابسَ الوجهِ مِن الكآبةِ والحياءِ مِن الناسِ؛ فيُرادَ به الظلولُ نَهارًا؛ لقصدِ المبالغةِ في وصْفِهم[٣].

- قولُه: ﴿مُسْوَدًّا﴾ اسْوِدادُ الوجهِ كِنايةٌ عن الاغْتِمامِ والتَّخْجيلِ[٤].

- وقوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿كَظِيمٌ﴾ للمُبالَغةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ بمعنى مَفعول (مَكظُوم)[٥].

٤- قوله: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

- كانوا يَئِدونَ بَناتِهم، وذلك مِن أفظَعِ أعمالِ الجاهليَّةِ[٦]، وكانوا يَحسَبونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٢/ ٥٩١).
(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٤٨).
(٦) يُنظر في تفصيلِ الكلامِ عن هذه العادةِ الجاهليةِ: ((المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)) لجواد علي (٩/ ٨٨).

حَقًّا للأبِ، فلا يُنكِرُها الجَماعةُ على الفاعِلِ؛ ولذلك سَمَّاه اللهُ (حُكمًا) بقَولِه تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، وأعلَنَ ذَمَّه بحَرفِ ﴿أَلَا﴾؛ لأنَّه جَورٌ عَظيمٌ قد تمالَؤوا عليه، وخَوَّلوه للنَّاسِ ظُلمًا للمَخلوقاتِ، فأُسنِدَ الحُكمُ إلى ضَميرِ الجَماعةِ مع أنَّ الكَلامَ كان جاريًا على فِعلِ واحدٍ غيرِ مُعَيَّنٍ؛ قضاءً لحقِّ هذه النُّكتةِ[1].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ للابتِداءِ المفيدِ مَعْنى التَّعليلِ، أي: يَتَوارى مِن أجْلِ تلك البِشارةِ[2].

- والتَّعبيرُ عن الإعلامِ بازْدِيادِ الأُنْثى بفِعْلِ ﴿بُشِّرَ﴾ في مَوضِعَين؛ لأنَّه كذلك في نفْسِ الأمرِ؛ إذِ ازْدِيادُ المولودِ نِعمةٌ على الوالِدِ؛ لِمَا يترَقَّبُه مِن التَّأنُّسِ به ومِزاحِه والانتفاعِ بخِدْمتِه، وإعانتِه عندَ الاحتياجِ إليه، ولِمَا فيه مِن تَكثيرِ نَسْلِ القَبيلةِ الموجِبِ عِزَّتَها، وآصِرَةِ الصِّهرِ، ثمَّ إنَّ هذا مع كونِه بِشارةً في نَفْسِ الأمرِ فالتَّعبيرُ به يُفيدُ تَعريضًا بالتَّهكُّمِ بهم؛ إذْ يَعُدُّون البِشارةَ مُصيبةً، وذلك مِن تَحريفِهِمُ الحقائقَ، والتَّعريضُ مِن أقسامِ الكِنايةِ، والكِنايةُ تُجامِعُ الحقيقةَ[3].

٥- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾ فيه إضافةُ المَثَلِ إلى السُّوءِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٨٣- ١٨٤).

للبَيانِ[١].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠] فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (الرُّومِ): ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فزِيدَ في آيةِ (الرُّومِ) قولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ ذلك إنَّما جَرى بحسَبِ مُقتَضى المقصودِ في كلٍّ مِن الآيتَينِ؛ أمَّا آيةُ (النَّحلِ) فقد تَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ [النحل: ٦٠]، فقُوبِلَ بحسَبِ التَّفصيلِ، ومُقتَضى التَّقابُلِ بقَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ فتطابَقَ الكلامُ وتَناسَب؛ مُوازَنةَ لفظٍ، وجَليلَ تَقابُلٍ، ولم يقَعْ قَبْلَها ذِكْرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلم يَكُنْ لِيُناسِبَ ذلك ذِكرُهما بعدَه. وأمَّا آيةُ (الرُّومِ) فتَقدَّمَها قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ثمَّ قال بَعدُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، ووُضوحُ التَّناسُبِ في هذا غيرُ مُحتاجٍ إلى زيادةِ بَيانٍ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٠).

الآيات (٦١-٦٤)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾
تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّفْرَطُونَ﴾: أي: مُخَلَّفونَ، مَتروكونَ في النَّارِ، مَنسيُّونَ فيها. وقيل: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ مُقَدَّمونَ إليها؛ مِن الفَرَطِ: وهو السَّابِقُ إلى الوِرْدِ[1].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّه لو يُؤاخِذُ النَّاسَ بكُفرِهم وافتِرائِهم، لأهلكَهم جميعًا وما ترَكَ على الأرضِ مَن يتحرَّكُ، ولكِنْ يُمهلُهم إلى وقتٍ مُحَدَّدٍ وَقَّتَه لهم، فإذا جاء الوَقتُ المُقَدَّرُ لهَلاكِ الظَّالِمينَ، لا يُؤَخَّرونَ عن الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمون عنه فيُهلَكونَ قبلَه.

ويخبرُ الله سبحانَه عن إحدَى رذائلِ المشركينَ، وهي أنهم يَجعَلونَ لله ما يكرهونَه لأنفُسِهم مِن البَناتِ، وتقولُ ألسِنَتُهم كَذِبًا: إنَّ لهم حُسنَ الجزاءِ في الدُّنيا والآخرةِ. ويكذِّبُهم الله تعالى على زعمِهم هذا، متوعدًا لهم بقولِه: حقًّا أنَّ لهم النَّارَ، وأنَّهم مُعجَّلون إليها مَتروكونَ مَنسيُّونَ فيها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

ثمَّ قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مسلِّيًا له ومثبِّتًا: تاللهِ -يا مُحمَّدُ- لقد أرسَلْنا رسُلًا إلى أمَمٍ مِن قَبلِك، فحسَّن لهم الشَّيطانُ ما عَمِلوه مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، فهو وليُّهم يومَ القيامةِ، ولا قدرةَ له على نصرِهم ولا نفعِهم، ولهم عذابٌ مُوجِعٌ.

وقال له أيضًا: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- إلَّا لتُوَضِّحَ للنَّاسِ ما اختَلَفوا فيه مِن الدِّينِ والأحكامِ، وأنزَلْنا القُرآنَ هِدايةً ورحمةً للمُؤمِنينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عن القَومِ عَظيمَ كُفرِهم وقَبيحَ قَولِهم؛ ذكَرَ كَمالَ حِلمِه وصَبرِه، وأنَّه يُمهِلُهم، ولا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ[١].

وأيضًا لمَّا وصَف جَعْلَهم للهِ البناتِ اللَّاتي يَأنَفون مِنها لأنفُسِهم، ووَصَف ذلك بأنَّه حُكمُ سَوءٍ، ووَصَف حالَهم بأنَّها مَثَلُ سَوءٍ، وعرَّفهم بأخَصِّ عَقائدِهم أنَّهم لا يُؤمِنون بالآخِرةِ؛ أتبَعَ ذلك بالوعيدِ على أقوالِهم وأفعالِهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

أي: ولو يُعاجِلُ اللهُ النَّاسَ بالعُقوبةِ؛ بسَبَبِ شِرْكِهم وكُفرِهم، وافترائِهم على اللهِ، وعِصيانِهم له- لأهلَكَ بسببِ شؤمِ ذلك جميعَ النَّاسِ وغيرهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٦).

الدَّوابِّ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولكِنْ يُمهِلُ اللهُ بحِلْمِه الظَّالِمينَ، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ إلى وقتٍ وَقَّتَه لهم[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩١).
قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ قولَه تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ فيه وجهان للعلماءِ:
أحدهما: أنَّه خاصٌّ بالكفارِ؛ لأنَّ الذنبَ ذنبُهم، والله يقولُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ومَن قال هذا القولَ قال: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ أي: كافرةٍ، ويُروى عن ابنِ عباسٍ. وقيل: المعنى: أنَّه لو أهلَك الآباءَ بكفرِهم لم تكنِ الأبناءُ.
وجمهورُ العلماءِ، منهم ابنُ مسعودٍ، وأبو الأحوصِ، وأبو هريرةَ وغيرُهم- كما نَقَله عنهم ابنُ كثيرٍ وغيرُه- على أنَّ الآيةَ عامَّةٌ؛ حتَّى إنَّ ذنوبَ بني آدمَ لَتُهْلِكُ الجُعْلَ في جُحْرِه، والحُبارى في وَكْرِها، ونحوَ ذلك؛ لولا أنَّ اللَّه حليمٌ لا يُعَجِّلُ بالعقوبةِ، ولا يؤاخِذُهم بِظُلْمِهم... وهذا القولُ هو الصَّحيحُ؛ لما تقَرَّر في الأُصولِ مِنْ: أنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي إذا زيدَتْ قبلَها لفظةُ ﴿مِن﴾ تكونُ نصًّا صريحًا في العمومِ. وعليه فقولُه: ﴿مِن دَابَّةٍ﴾ يشملُ كلَّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ الدَّابَّةِ نصًّا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩١).
وممن اختار أنَّ المرادَ بالدابةِ هنا: الكافرُ على وجهِ الخصوصِ: الواحدي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))(١).

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

أي: فإذا جاء الوَقتُ المُقَدَّرُ لهَلاكِ الظَّالِمينَ، لا يُؤخَّرونَ عن الهَلاكِ ساعةً فيُمهَلونَ، ولا يتقدَّمون عنه فيُهلَكونَ قَبلَه، فلْيَحْذروا ما داموا في وَقتِ الإمهالِ قبل أن يَحِينَ الوَقتُ الذي لا يُمهَلونَ فيه(٢).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾.

(٤/ ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

قال الرازي: (في تفسيرِ هذا الأجَلِ قولان:

القول الأول:... أنَّه يريدُ أجَلَ القيامةِ.

والقول الثاني: أنَّ المرادَ مُنتهى العُمرِ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٢٩).

وممن اختار القولَ الأوَّل: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

وممن اختار القولَ الثاني: الواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٣).

(١) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

أي: وينسبُ المُشرِكونَ لله البَناتِ اللَّاتي يَكرَهونَهنَّ لأنفُسِهم، ويَعُدُّونَ نِسبَتَهنَّ إلى أحَدِهم نقصًا وعيبًا، ويَجعَلونَ له شُرَكاءَ مِن عَبيدِه في عبادتِه، وهم يَكرهونَ أن يكونَ عبيدُهم شُرَكاءَ لهم في أموالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ * أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٥- ١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٥).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني: البَناتِ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٣/ ١٠٠).

وقال ابنُ تيمية: (هو قولُ مَن قال من العربِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٤٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: من البناتِ ومِن الشُّركاءِ الذين هم مِن عَبيدِه، وهم يأنفونَ أن يكونَ عند أحَدِهم شريكٌ له في مالِه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المقصودَ البناتُ والشُّركاءُ: السعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٠).

نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: ويَكذِبُ المُشرِكونَ بألسِنَتِهم، فيَزعُمونَ أنَّ لهم الجَزاءَ الحسَنَ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٤).
وممَّن اختار هذا المعنى المذكور: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.
قال الشنقيطي: (والحقُّ الذي لا شَكَّ فيه: أنَّ المرادَ بالحُسنى: هو زَعمُهم أنَّه إن كانت الآخرةُ حَقًّا فسيكونُ لهم فيها أحسَنُ نصيبٍ، كما كان لهم في الدُّنيا. ويدُلُّ على صِحَّةِ هذا القولِ الأخيرِ دليلانِ:
أحدهما: كثرةُ الآياتِ القُرآنيَّةِ المُبيِّنةِ لهذا المعنى، كقَولِه تعالى عن الكافِرِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]... والدليل الثاني: أنَّ اللهَ أتبَعَ قولَه: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ الآية، فدلَّ ذلك دَلالةً واضِحةً على ما ذَكَرْنا. والعِلمُ عند الله). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩٤).
وقيل: الحُسنى التي جعلوها لأنفُسِهم: الذُّكورُ مِن الأولاد. وممن اختار هذا القول: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦١).
وممن قال بهذا القول من السلفِ: مجاهدٌ، وقتادةُ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).
وقيل: هي الجنَّةُ. وممن اختار هذا القول: الواحدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٠٢).
وممن قال بهذا القول من السلفِ: أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

* ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾.

أي: حَقًّا لا بُدَّ مِنه أنَّ لهم النَّارَ يومَ القيامةِ[١].

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُفْرِطُونَ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ وتَخفيفِها، اسمُ فاعلٍ مِن أفْرَطَ في الأمرِ: إذا أسرَفَ فيه وجاوزَ الحَدَّ. بمعنى: أنَّهم مُفرِطونَ في الذُّنوبِ والمعاصي، أي: مُسرِفونَ على أنفُسِهم بالإكثارِ منها[٢].

٢- قِراءةُ ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ وتَشديدِها، اسمُ فاعلٍ مِن فَرَّط في الأمرِ: إذا ضَيَّعَه وقَصَّر فيه. بمعنى: أنَّهم مُقَصِّرونَ في أداءِ الواجِباتِ، وفَرَّطوا في الدُّنيا فلم يَعمَلوا فيها للآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها نافع. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

(٣) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي))

٣- قِراءةُ ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بفَتحِ الرَّاء مُخففَّةً، اسمُ مَفعولٍ من أُفْرِطَ: إذا نُسِي وتُرِكَ غَيرَ مُلتَفَتٍ إليه. والمعنى: أنَّهم مَتروكونَ في النَّارِ مَنْسِيُّونَ فيها. وقيل: هو مِن أفرَطْتُ فُلانًا في طَلَبِ الماءِ: إذا قَدَّمْتَه. والمعنى: أنَّهم مُعَجَّلونَ ومقدَّمونَ إلى النَّارِ[1].

﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

أي: وحَقًّا أنَّهم مُعجَّلونَ ومُقَدَّمونَ إلى النَّارِ، مَنْسِيُّونَ ومَترُوكونَ فيها أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

(٢/ ٥٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٩).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٨٠، ٨١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهدٌ، وسعيدُ بن جُبير، وقتادةُ وغيرُهم: مَنْسِيُّونَ فيها مُضَيَّعونَ. وعن قتادة أيضًا: ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ أي: مُعَجَّلونَ إلى النَّارِ، من الفَرَط: وهو السَّابِقُ إلى الوِردِ، ولا مُنافاةَ؛ لأنَّهم يُعَجَّلُ بهم يومَ القيامةِ إلى النَّارِ، ويُنسَونَ فيها، أي: يُخَلَّدونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

وذكر السَّعدي نحو ذلك، فجمَع بينَ كلا المعنيَين. قال: (﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ مُقَدَّمونَ إليها، ماكِثونَ فيها، غيرُ خارجينَ منها أبدًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنَّ مِثلَ هذا الصُّنعِ الذي يَصدُرُ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ، قد صدَرَ مِن سائِرِ الأُمَم السَّابقينَ في حَقِّ الأنبياءِ المتقَدِّمينَ عليهم السَّلامُ(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى مآلَ الكافرينَ، وكانوا يقولونَ: إنَّ لهم مَن يَشفَعُ فيهم؛ بيَّنَ لهم ما يكونُ مِن حالِهم، بالقياسِ على أشْكالِهم؛ تهديدًا، وتَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسَلَّم(٢).

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: واللهِ -يا مُحمَّدُ- لقد أرسَلْنا رُسُلًا إلى أُمَمٍ ماضيةٍ مِن قَبلِك بمِثْلِ ما أرسَلْناك به؛ مِن الدُّعاءِ إلى توحيدِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له، وطاعتِه(٣).

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

أي: فحسَّنَ الشَّيطانُ لهم ما كانوا يَعمَلونَه؛ مِن كُفرٍ وشِركٍ باللهِ، وتَكذيبٍ للرُّسُلِ(٤).

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

أي: فالشَّيطانُ يومَ القيامةِ هو وليُّ المشركينَ الذين كذَّبوا الرُّسلَ، وزيَّن لهم سوءَ أعمالِهم، وهو ناصرُهم، ليس لهم ناصرٌ غيرُه، ولا قدرةَ له على نصرِهم، ولا يملكُ خلاصَهم ولا نفعَهم(١).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

وممن اختار أنَّ المرادَ باليوم: يومُ القيامةِ- أي: أن الشَّيطانَ وليُّهم يومَ القيامةِ-: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحدي، والسمين الحلبي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، واختيارُ البقاعي، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٦).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ السائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).

قال السمين الحلبي: (يجوزُ أن تكونَ هذه الجملةُ حكايةَ حالٍ ماضيةٍ- أي: فهو ناصرُهم- أو آتيةٍ، ويراد باليومِ: يومُ القيامة، هذا إذا عاد الضميرُ على ﴿أُمَمٍ﴾ وهو الظاهرُ). ((الدر المصون)) (٧/ ٢٤٩).

وقال الشوكاني: (يحتملُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ عبارةً عن يومِ القيامةِ وما بعدَه، فيكونَ للحالِ الآتيةِ، ويكونَ الوليُّ بمعنَى الناصرِ، والمرادُ: نفيُ الناصرِ عنهم على أبلغِ الوجوهِ؛ لأنَّ الشيطانَ لا يُتصوَّرُ منه النصرةُ أصلًا في الدارِ الآخرةِ، وإذا كان الناصرُ منحصرًا فيه لزِم أن لا نصرةَ مِن غيرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٧).

وقيل: المرادُ باليومِ هنا: الدُّنيا. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤-١٩٥).

وولايةُ الشيطانِ في الدُّنيا قيل: هي نصرُه لهم. وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٥٠).

وقيل: هي بتزيينِه أعمالَهم، وكونِه قرينًا لهم يُغويهم، فيطيعونَه ويتبعونه. وممن اختار هذا المعنى: القاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللمُشرِكينَ عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخرةِ، فلا تَنفَعُهم وَلايةُ الشَّيطانِ[1].

السعدي)) (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤-١٩٥).
قال السعدي: (لمَّا زيَّن لهم الشيطانُ أعمالَهم، صار وليَّهم في الدُّنيا، فأطاعوه واتَّبعوه وتولَّوْه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).
وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: الشيطانُ وليُّ كفارِ مكةَ اليومَ؛ يتولَّى إغواءَهم وصرفَهم عنك، كما فعَل بكفارِ الأممِ قبلَك، فهو متولِّي أمرِهم، كما كان وليَّ الأممِ مِن قبلِهم، إذْ زيَّن لهم أعمالَهم، فيكونُ على هذا التقديرِ رجَع عن أخبارِ الأممِ الماضيةِ إلى الإخبارِ عن كفارِ مكةَ. وممن اختار هذا القولَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠).
وممن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ باليومِ هنا الدُّنيا: أبو سليمان الدمشقي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧).
قال الماتُريدي: (قال بعضُهم: هو وليُّهم اليومَ في الدُّنيا؛ لأنَّ الدُّنيا هي دارُ الوَلايةِ بينهم، كقَولِه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقوله: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وأمَّا في الآخرة فيَصيرونَ أعداءً، كقوله: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقَولِه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧]، ونحوه). ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٥٢٤).
قال الشوكاني: (يحتملُ أن يكونَ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ عبارةً عن زمانِ الدنيا، فيكونَ المعنَى: فهو قرينُهم في الدنيا... ويحتملُ أن يُرادَ بـ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ بعضُ زمانِ الدنيا، وهو على وجهينِ:
الأول: أنْ يُرادَ البعضُ الذي قد مضَى، وهو الذي وقَع فيه التزيينُ مِن الشيطانِ للأممِ الماضيةِ، فيكون على طريقِ الحكايةِ للحالِ الماضيةِ.
الثاني: أنْ يُرادَ البعضُ الحاضرُ، وهو وقتُ نزولِ الآيةِ، والمرادُ: تزيينُ الشيطانِ لكفَّارِ قريشٍ، فيكونُ الضميرُ في ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ لكفارِ قريشٍ، أي: فهو وليُّ هؤلاءِ اليومَ، أو: على حذفِ مضافٍ، أي: فهو وليُّ أمثالِ أولئك الأممِ اليومَ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٧).
(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٣).

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ذكَرَ تعالى أنَّه مع هذا الوَعيدِ الشَّديدِ المتَقَدِّم قد أقام الحُجَّةَ، وأزاح العِلَّةَ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى الخِلافَ والضَّلالَ والنِّقمةَ، كان كأنَّه قيل: فبَيِّنْ لهم وخَوِّفْهم ليَرجِعوا؛ فإنَّا ما أرسَلْناك إلَّا لذلك[٢].

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ ﴾.

أي: وما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا مُحمَّدُ- إلَّا من أجلِ أن تُبَيِّنَ للنَّاسِ بواسطةِ بياناتِ هذا القُرآنِ ما اختَلَفوا فيه من الدِّينِ، فتُرشِدَهم إلى الحَقِّ والصَّوابِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: وأنزَلْنا القُرآنَ هاديًا للقُلوبِ مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخِرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٢).

قال الشوكاني: (﴿ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ مِنَ التَّوحيدِ، وأحوالِ البعثِ، وسائرِ الأحكامِ الشرعيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٨).

لِقَومٍ يُصَدِّقونَ بما فيه، ويُقِرُّونَ بما تضَمَّنَه، ويَعمَلونَ به[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ مَن تقَدَّمَه مِن الأنبياءِ قد كَفَرَ بهم قَومُهم[2].

٢- القُرآنُ فاصِلٌ بين النَّاسِ في كُلِّ ما يَتنازَعونَ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ الدَّابَّةِ واقِعٌ على النَّاسِ؛ لِدَبيبِهم على الأرضِ[(١)].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ في هذا التَّأخيرِ حِكمةٌ بالِغةٌ:

منها: الإعذارُ إليهم، وإرخاءُ العِنانِ معهم.

ومنها: حُصولُ مَن سبَقَ في عِلمِه مِن أولادِهم.

ومنها: أن يَستَغفِرَ منهم من يَستَغفِرُ، فيُغفَرَ له، ويُصِرَّ مَن يُصِرُّ، فيزدادَ عذابًا، فإذا جاء أجَلُهم الذي سَمَّاه لهم، حَقَّت عليهم كَلِمةُ اللهِ سُبحانَه في ذلك الوَقتِ، مِن دُونِ تقَدُّمٍ عليه ولا تأخُّرٍ عنه[(٢)].

٣- جانِبُ الرَّحمةِ أغلَبُ في هذه الدَّارِ الباطِلةِ الفانيةِ الزَّائِلةِ عن قُربٍ، مِن جانبِ العُقوبةِ والغَضَبِ، ولولا ذلك لَمَا عَمَرَت[(٣)]، ولا قام لها وُجودٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[(٤)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ إن قيل: كيف يَعُمُّ بالهَلاكِ مع أنَّ فيهم مؤمِنًا ليس بظالمٍ؟

قيل: يجعلُ هلاكَ الظالمِ انتقامًا وجزاءً، وهلاكَ المؤمنِ معوضًا بثوابِ الآخرةِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٥)، كما يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨١).

(٣) عَمَرَت: أي: سُكِنَت وأقيمَ فيها. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٨٥).

وفي ((صحيح مسلم))[١] عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم يقولُ: ((إذا أراد الله بقومٍ عذابًا أصاب العذابُ مَن كان فيهم ثمَّ بُعثوا على أعمالِهم))[٢]. وقيل: ظاهرُ الآيةِ العمومُ؛ والإنسانُ لا يخلو مِن تقصيرٍ وإساءةٍ، فهو لا يؤدِّي شكرَ نعمِ الله عليه، على وجهٍ يكافئُها.

٥- إنْ قيل: لماذا أبهَمَ سُبحانَه فاعِلَ التَّزيينِ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وقال هنا: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فمَن هو مُزيِّنُ الأعمالِ للكُفَّارِ في الحَقيقةِ؟

الجوابُ: المُزَيِّنُ في الحقيقةِ هو اللهُ تعالى، وإنَّما جَعَل الشَّيطانَ آلةً بإلقاءِ الوَسْوسةِ في قُلوبِهم، وليس له قُدرةٌ أن يُضِلَّ أحدًا، أو يَهديَ أحدًا، وإنَّما له الوَسْوسةُ فقط، فمن أراد شَقاوَتَه سَلَّطَه عليه حتى يَقبَلَ وَسْوسَتَه؛ فالتَّزيينُ مِن الشَّيطانِ بالإغواءِ، والإضلالِ، والوَسْوَسةِ، وإيرادِ الشُّبَهِ، ومِنَ الله تعالى بخَلقِ جَميعِ ذلك؛ فصَحَّت الإضافتانِ[٣].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالقرآنُ أهَمُّ مَقاصِدِه هذه الفوائدُ الجامعةُ لأصولِ الخيرِ، وهي كَشفُ الجهالاتِ، والهُدى إلى المَعارفِ الحقِّ، وحُصولُ أثَرِ ذَيْنِك الأمرَينِ، وهو الرَّحمةُ النَّاشئةُ عن مُجانَبةِ الضَّلالِ واتِّباعِ الهُدى[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ١٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٦).

بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ اعتراضٌ في أثناءِ التَّوبيخِ على كفرِهم الَّذي مِن شرائِعِه وَأْدُ البناتِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾: المؤاخَذةُ: الأخذُ، والمقصودُ منه الجزاءُ، فهو أخذٌ شديدٌ؛ ولذلك صِيغَت له صيغةُ المفاعَلةِ: ﴿يُؤَاخِذُ﴾ الدَّالَّةُ على الكثرةِ، فدَلَّ على أنَّ المؤاخَذةَ المنتفِيَةَ بـ(لو) هي الأخذُ العاجِلُ المناسِبُ للمُجازاةِ؛ لأنَّ شأنَ الجزاءِ في العُرفِ أن لا يتأخَّرَ عن وقتِ حُصولِ الذَّنبِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ يُحمَلُ على تعريفِ الجنسِ؛ لِيَشمَلَ جميعَ النَّاسِ؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بمَقامِ الزَّجْرِ، فليس قولُه: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مُرادًا به خُصوصُ المشرِكين مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين عادَتْ عليهِم الضَّمائرُ المتقدِّمةُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٥] وما بعدَه مِن الضَّمائرِ، وبذلك لا يَكونُ لفظُ النَّاسِ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[٣].

- قولُه: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾، أي: على الأرضِ، وإنَّما أضمرَها مِن غيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٠).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿يُؤَاخِذُ ...﴾ الآيةَ، الظاهرُ أنَّ المفاعلة فيه بمعنى الفعلِ المجردِ؛ فمعنى آخَذَ الناسَ يؤاخذُهم: أخذَهم بذنوبِهم؛ لأنَّ المفاعلةَ تقتضي الطرفين، ومجيئُها بمعنى المجردِ مسموعٌ نحو: سافَر وعافَى). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٨٨).

ذِكرٍ؛ لِدَلالةِ النَّاسِ والدَّابَّةِ عليها(١).

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ بصيغةِ الاستِفْعالِ: ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾؛ للإشعارِ بعَجْزِهم عنه، مع طلَبِهم له(٢).

- وتَعرَّض لذِكْرِ ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ مع أنَّه لا يُتَصوَّرُ الاستِقْدامُ عندَ مَجيءِ الأَجَلِ؛ مُبالَغةً في بَيانِ عدَمِ الاستِئْخارِ بنَظْمِه في سِلْكِ ما يَمتنِعُ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]؛ فإنَّ مَن مات كافِرًا مع أنَّه لا توبةَ له رأسًا قد ذُكِر مع مَن لم تُقبَلْ توبتُه؛ للإيذانِ بأنَّهما سِيَّانِ في ذلك(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وقال في سورةِ (فاطرٍ): ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [فاطر: ٤٥]؛ فقال في الأُولى: ﴿بِظُلۡمِهِم﴾ و﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾، وقال في الثَّانيةِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ و﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾؛ فقيل: إنَّ وجهَ ذلك أنَّ آيةَ (النَّحلِ) تقدَّمَها قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾، فلَمَّا أشار في الآيةِ إلى وَأْدِهِمُ البَناتِ -وهو ظلمٌ عظيمٌ شنيعٌ؛ إذْ لم يتقدَّمْ للمَوْءودةِ جَريمةٌ ولا شُبهةٌ يتعلَّقُ بها

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قاتِلُها- ناسَب هذا ذِكْرُ الظُّلمِ؛ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾؛ فناسَب ما أُشيرَ إليه مِن عَظيمِ ظُلمِهم التَّوبيخُ بذِكرِ الظُّلمِ. ولَمَّا لم يتَقدَّمْ في آيةِ سورةِ (فاطرٍ) إفصاحٌ بذِكْرِ الظُّلمِ، بل تَقدَّمَها قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۞ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[فاطر: ٤٢- ٤٣] فأشيرَ إلى اجْتِراماتِهم وسَيِّئِ اكتِسابِهم بنُفورِهم ومَكْرِهم السَّيِّئِ؛ فناسَبَ ذلك قولُه: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾؛ فورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُه[١]. وقيل: لأنَّ ﴿مَا كَسَبُوا﴾[فاطر: ٤٥] يعمُّ الظلمَ وغيرَه[٢].

وقيل: آيةُ (النحلِ) جاءتْ بعدَ أوصافِ الكفارِ بأنواعِ كفرِهم في اتخاذِهم إلهينِ اثنينِ، وكفرِهم وشركِهم في عبادةِ الله سبحانَه، وجعلِهم للأصنامِ نصيبًا مِن مالِهم، ووأدِ البناتِ، وغيرِ ذلك، وكلٌّ ظلمٌ منهم، فناسَب قولُه تعالى: ﴿بِظُلْمِهِم﴾، ولم يتقدَّمْ مثلُ ذلك في (فاطرٍ)[٣]. وقال هنا: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ وقال في (فاطر): ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ وهو تفنُّنٌ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ تكريرٌ لما سبَق؛ تثنيةً للتَّقريعِ وتَوطِئةً لقولِه تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((كشف المعاني)) لابن جماعة (ص: ٢٢٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

- وخَصَّ في هذه الآيةِ ذِكْرَ الكَراهيةِ تَصريحًا؛ ولذلك كان الإتيانُ بالموصولِ والصِّلةِ: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ هو مُقتَضى المقامِ الَّذي هو تَفظيعُ قولِهم، وتَشنيعُ استِئْثارِهم. وقد يَكونُ الموصولُ للعُمومِ؛ فيُشيرُ إلى أنَّهم جعَلوا للهِ أشياءَ يَكْرَهونها لأنفُسِهم مِثلَ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ، وأشياءَ لا يَرْضَونها لآلهتِهم ونَسَبوها للهِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(١) [الأنعام: ١٣٦].

٣- قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استئنافٌ ابتِدائيٌّ داخِلٌ في الكلامِ الاعتِراضيِّ؛ قُصِد منه تَنظيرُ حالِ المشرِكين المتحدَّثِ عنهم، وكُفْرِهم في سوءِ أعمالِهم وأحكامِهم بحالِ الأُممِ الضَّالَّةِ مِن قَبلِهم الَّذين استَهْواهم الشَّيطانُ مِن الأُممِ البائدةِ، مِثلِ عادٍ وثمودَ، والحاضرةِ كاليَهودِ والنَّصارى(٢).

- قولُه: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ حكايةُ الحالِ الماضيَةِ الَّتي كان يُزيِّنُ لهم الشَّيطانُ أعمالَهم فيها. أو فهُو وليُّهم في الدُّنيا، فجَعَل اليومَ عِبارةً عن زَمانِ الدُّنيا. أو يُجعَلُ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ حِكايةً للحالِ الآتيَةِ، وهي حالُ كونِهم معذَّبين في النَّارِ، أي: فهُو ناصِرُهم اليومَ لا ناصِرَ لهم غيرُه؛ نفيًا للنَّاصرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٣).

لهم على أبلَغِ الوُجوهِ(١). وقيل: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ مُستعمَلٌ في زمانٍ معهودٍ بعهدِ الحضورِ، أي: فهو وَلِيُّهم الآنَ، وهو كنايةٌ عن استمرارِ ولايتِه لهم إلى زمَنِ المتكلِّمِ مُطلَقًا بدونِ قصدٍ(٢).

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: فيه تأكيدُ إرسالِ الرُّسلِ إلى الأُممِ السَّابقةِ بالقَسَمِ ﴿تَٱللَّهِ﴾، وبـ (قَد) الَّتي تقتَضي تحقيقَ الأمرِ؛ على سَبيلِ التَّسْليَةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِمَا كان يَنالُه بسبَبِ جَهالاتِ قومِه، ونِسْبتِهم إلى اللهِ ما لا يَجوزُ(٣).

- قولُه: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ تَزْيينُ الشَّيطانِ أعمالَهم كِنايةٌ عن المَعاصي؛ فمِن ذلك عدَمُ الإيمانِ بالرُّسلِ، وهو كَمالُ التَّنظيرِ بحالِ المشرِكين المكذِّبين بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيث سلَكوا مَسلَكَ مَن قبلَهم مِن الأممِ الَّتي زيَّن لهم الشَّيطانُ أعمالَهم(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآيةُ بمنزلَةِ التَّذييلِ للعِبَرِ والحُجَجِ النَّاشئةِ عن وصفِ أحوالِ المخلوقاتِ، ونِعَمِ الخالقِ على النَّاسِ، المبتدِئَةِ مِن قولِه تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾(٥) [النحل: ١٧].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾: فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ١٩٧).

الإتيانُ بصِيغةِ القَصْرِ (ما... إلَّا)؛ لِقَصدِ الإحاطةِ بالأَهمِّ مِن غايةِ القرآنِ وفائدتِه الَّتي أُنزِل لأجلِها؛ فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لِيَرغَبَ السَّامِعون في تَلَقِّيه وتَدبُّرِه مِن مؤمنٍ وكافرٍ كلٌّ بما يَليقُ بحالِه، حتَّى يَستَوُوا في الاهتِداءِ. ثمَّ إنَّ هذا القصرَ يُعرِّضُ بتَفْنيدِ أقوالِ مَن حَسِبوا مِن المشركين أنَّ القرآنَ أُنزِلَ لِذِكْرِ القَصصِ؛ لِتَعليلِ الأنفُسِ في الأسمارِ ونَحوِها، حتَّى قال مُضِلُّهم: أنا آتيكُم بأحسَنَ مِمَّا جاء به محمَّدٌ[١]!

- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَصْفُ القُرآنِ بكَونِه هُدًى ورَحمةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ، لا ينفي كَونَه كذلك في حَقِّ الكُلِّ، كما أنَّ قَولَه تعالى في أوَّلِ سُورةِ (البَقَرة): ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] لا ينفي كَونَه هُدًى لكُلِّ النَّاسِ، كما ذكَرَه في قَولِه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وإنَّما خَصَّ المُؤمِنينَ بالذِّكرِ؛ مِن حيثُ إنَّهم قَبِلوه فانتَفَعوا به، كما في قَولِه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]؛ لأنَّه إنما انتفَعَ بإنذارِه هذا القَومُ فقط[٢].

- وعبَّر بقولِه: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دونَ (للمُؤمِنين)، أو (للَّذين آمَنوا)؛ إشارةً إلى أنَّ إيمانَ هؤلاءِ كالسَّجيَّةِ والعادةِ الرَّاسِخةِ الَّتي تتَقوَّمُ بها قَوميَّتُهم؛ لأنَّ إجراءَ الوَصفِ على لَفْظِ (قوم) يُشيرُ إلى أنَّ ذلك الوَصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومِن مُكمِّلاتِ قوميَّتِهم؛ فإنَّ للقَبائِلِ والأُممِ خَصائِصَ تُميِّزُها وتَشتهرُ بها[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٨٩)، و(١٤/ ١٩٧).

الآيات (٦٥-٦٩)

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةًۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ
﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ
كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ
شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: اعتِبارًا وموعظةً، ودلالةً على قدرةِ الله، والاعْتبارُ والعِبرةُ: الحالةُ التي يتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المشاهَدِ إلى ما ليسَ بمشاهَدٍ، وأصلُ (العَبْرِ): تجاوُزٌ مِن حالٍ إلى حالٍ(١).

﴿فَرْثٍ﴾: أي: ما في الكَرِشِ مِن فَضَلاتٍ، وأصلُ (فرث): يدُلُّ على شَيءٍ مُتفَتِّتٍ(٢).

﴿سَآئِغًا﴾: أي: سَهلًا هَنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ واستِمرارِه في الحَلقِ خاصَّةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٠٩).

﴿سَكَرًا﴾: أي خَمْرًا، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[1].

﴿يَعْرِشُونَ﴾: أي: يَبْنونَ ويَسقُفونَ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يكونُ مِن إتقانِ الأغصانِ والخَشَبِ وتَرتيبِ ظِلالِها، وأصلُ (عرش): يدلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبنيٍّ[2].

﴿ذُلُلًا﴾: أي: مُسَهَّلةً مُستَقيمةً مُذَلَّلةً، وأصلُ (ذلل): يدلُّ على اللِّينِ[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

يذكرُ اللهُ تعالى ألوانًا مِن نعمِه على خلقِه، فهو سبحانه أنزلَ مِن السَّماءِ مَطرًا، فأخرجَ به النَّباتَ مِن الأرضِ بعد أن كانت يابِسةً. إنَّ في ذلك لَدليلًا على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه على البَعثِ لِقَومٍ يَسمَعونَ ويَتدَبَّرونَ.

ثم يُرشِدُ إلى مظهرٍ آخرَ مِن مظاهرِ وحدانيتِه، وعظيمِ قدرتِه، فيقولُ تعالى: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الأنعامِ لَعِظةً تَستَدِلُّونَ بها على استحقاقِ الله للعبادةِ؛ يخرِجُ لكم مِمَّا في بُطونِها مِن بينِ فَرْثٍ ودمٍ لَبَنًا خالِصًا مِن كُلِّ الشَّوائبِ، لَذيذًا لا يَغَصُّ به مَن شَرِبَه، وتأخُذونَ مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ما تَجعَلونَه خَمرًا مُسْكِرًا -وهذا قبلَ تَحريمِها- ورزقًا حسنًا كالتمرِ والعنبِ والعصيرِ، إنَّ في هذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣-٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان الأندلسي (ص: ١٢٩).

الإنعامِ لَدليلًا على قُدرةِ الله، لِقَومٍ يَعقِلونَ آياتِ اللهِ فيَعتَبِرون بها.

ثمَّ يقولُ تعالى مبينًا دليلًا آخرَ مِن دلائلِ وحدانيتِه وقدرتِه: وألْهَمَ ربُّك- يا مُحمَّدُ- النَّحلَ بأن اجعَلِي لكِ بُيوتًا مِن الجِبالِ، ومِن الشَّجَرِ، ومِمَّا يبني النَّاسُ، ثُمَّ كُلي مِن كُلِّ الثِّمارِ، فاسلُكي طُرُقَ رَبِّك مُذَلَّلةً لكِ؛ لطَلَبِ الرِّزقِ. يَخرُجُ مِن بُطونِ النَّحلِ عَسَلٌ مُختَلِفُ الألوانِ مِن بياضٍ وصُفرةٍ وحُمرةٍ وغيرِ ذلك، فيه شِفاءٌ للنَّاسِ مِن الأمراضِ. إنَّ في ذلك لَدلالةً قَويَّةً على عظمةِ اللهِ وقُدرتِه، لِقَومٍ يتفَكَّرونَ فيَعتَبِرون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ الأعظَمُ مِن هذا القُرآنِ العَظيمِ تَقريرَ أُصولٍ أربعةٍ: الإلهيَّاتِ، والنُّبُوَّاتِ، والمَعادِ، وإثباتِ القَضاءِ والقَدَرِ، والمقصودُ الأعظَمُ مِن هذه الأُصولِ الأربعةِ تقريرَ الإلهيَّاتِ؛ فلِهذا السَّبَبِ كُلَّما امتَدَّ الكَلامُ في فَصلٍ مِن الفُصولِ في وعيدِ الكُفَّارِ، عاد إلى تقريرِ الإلهيَّاتِ[(١)]، فشرَع في أدلةِ الوحدانيةِ والقدرةِ والفعلِ بالاختيارِ المستلزمِ للقدرةِ على البعثِ على وجهٍ غيرِ المتقدِّمِ، وقال قولًا جامعًا في الدليلِ بينَ العالمِ العلويِّ والعالمِ السفليِّ[(٢)]، مع ما أُدمِجَ فيه مِن التَّذكيرِ بالنِّعَمِ؛ فهذه مِنَّةٌ مِن المِنَنِ، وعِبرةٌ مِن العِبَرِ، وحُجَّةٌ مِن الحُجَجِ المُتفرِّعةِ عن التَّذكيرِ بنِعَمِ الله والاعتبارِ بعَجيبِ صُنعِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بتَبيينِ ما اختُلِفَ فيه؛ نَصَّ على العِبَرِ المؤدِّيةِ إلى تَبيينِ أمرِ الرُّبوبيَّةِ، فبدأ بنِعمةِ المطَرِ التي هي أبيَنُ العِبَرِ، وهي مِلاكُ الحياةِ، وهي في غايةِ الظُّهورِ لا يُخالِفُ فيها عاقِلٌ[(١)].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه أنزَلَ مِن السَّحابِ مَطرًا، فأخرَجَ به نَباتَ الأرضِ بعد أن كانت يابِسةً لا زَرْعَ فيها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ * وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلۡعٌ نَّضِيدٌ * رِّزۡقًا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾[ق: ٩-١١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في إحياءِ اللهِ الأرضَ المَيْتةَ بالمطَرِ لدَلالةً واضِحةً على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على البَعثِ، لِقَومٍ يَسمَعونَ هذه الحُجَّةَ، فيتدَبَّرونَها ويَفهمونَها[(٣)].

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إحياءَ الأرضِ بعد مَوتِها، ذكَرَ ما يَنشأُ عَمَّا ينشأُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٨).

المطَرِ، وهو: حياةُ الأنعامِ التي هي مألوفُ العَرَبِ، بما يتناوَلُه مِن النَّباتِ النَّاشِئِ عن المطَرِ، ونَبَّه على العِبرةِ العَظيمةِ، وهو: خروجُ اللَّبَنِ مِن بينِ فَرْثٍ ودَمٍ، فقال تعالى(١):

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾.

أي: وإنَّ لكم -أيُّها النَّاسُ- في الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ لَدَلالةً تَستَدِلُّونَ بها على قُدرةِ اللهِ ورَحمتِه، وحِكمَتِه ولُطفِه وعَظَمتِه، وأنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ للعِبادةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ * وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٣].

﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أي: نُسْقِيكم لبنًا نُخرِجُه لكم -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا في بُطونِ الأنعامِ مِن بينِ فَرْثِها(٣) ودَمِها صافيًا، غيرَ مُختَلِطٍ برائِحةِ الفَرْثِ، ولا لَونِ الدَّمِ، سَهْلَ المُرورِ في الحَلقِ، لذيذًا هنيئًا لا يَغَصُّ به شارِبُه(٤).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٩٦).

(٣) قال البيضاوي: (الفَرْثُ: هو الأشياءُ المأكولةُ المُنهَضِمةُ بعضَ الانهِضامِ في الكَرِش). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى بعضَ مَنافِعِ الحَيواناتِ في الآيةِ المتَقَدِّمةِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ بَعضَ مَنافِعِ النَّباتِ[1].

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾.

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2] [المائدة: ٩٠- ٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٥٤٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١١٣)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٥، ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٦).

وممن قال بأنَّها منسوخةٌ، بناءً على أنَّ المرادَ بالسَّكَرِ: الخمرُ: البغوي، وابنُ العربي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٣٣-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٤-٤٠٧).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وسعيد بنُ جبير، وأبو رزين، والشعبي في رواية عنه، والحسنُ، والضَّحَّاك، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٥).

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾.

أي: ولكم أيضًا -أيُّها النَّاسُ- عِبرةٌ فيما نُسقِيكم ونَرزُقُكم مِن[1] ثَمَراتِ النَّخيلِ ومِنَ الأعنابِ[2]، فتَتَّخِذونَ منه[3] شَرابًا مُسْكِرًا -وهو الخَمرُ- ورِزْقًا حَسَنًا[4] لا ينشَأُ عنه ضَرَرٌ في بَدَنٍ ولا عَقلٍ، كالتَّمرِ والرُّطَب، والعِنَب والزَّبيب،

وممَّن ذهب إلى أنَّها مُحكَمةٌ غيرُ مَنسوخةٍ: ابنُ جرير. وذلك بناءً على أنَّ المرادَ بالسَّكَرِ: كُلُّ ما كان حَلالًا شُربُه، كالنَّبيذِ الحَلالِ، والخَلِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣، ٢٨٥). ويُنظر أيضًا: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٤٩٣).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الشعبي في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٣).

قال القرطبي: (فعَلى أنَّ السَّكَر: الَخلُّ أو العصيرُ الحُلوُ، لا نَسْخَ، وتكونُ الآيةُ مُحكَمةً، وهو حسَنٌ. قال ابنُ عبَّاس: الحَبَشةُ يُسَمُّونَ الخلَّ السَّكَرَ. إلَّا أنَّ الجُمهورَ على أنَّ السَّكَرَ: الخَمرُ، منهم ابن مسعود، وابن عمر، وأبو رَزين، والحسن، ومجاهد، وابن أبي ليلى، والكلبي، وغيرهم مِمَّن تقَدَّم ذِكرُهم، كلُّهم قالوا: السَّكَرُ: ما حَرَّمَه اللهُ مِن ثَمَرتَيهما). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

(١) قال ابن عاشور: (و ﴿مِن﴾ في الموضعينِ ابتدائيَّةٌ، فالأولى متعَلِّقةٌ بِفعلِ «نُسقِيكم» المُقَدَّر، والثانية متعلِّقةٌ بفِعلِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾. وليست الثانيةُ تبعيضيَّةً؛ لأنَّ السَّكَر ليس بعضَ الثَّمراتِ، فمعنى الابتداءِ يَنتَظِمُ كِلا الحرفينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣).

(٢) قال الواحدي: (الأعنابُ عَطفٌ على الثَّمَراتِ لا على النَّخيلِ؛ لأنَّه يصيرُ التَّقديرُ: ومِن ثَمَراتِ الأعنابِ، والأعنابُ ثِمارٌ، ولكِنَّه: ومِن الأعنابِ). ((البسيط)) (١٣/ ١١٦).

(٣) قال القرطبي: (قيل: معنى ﴿مِنۡهُ﴾ أي: مِن المذكورِ، فلا يكونُ في الكلامِ حَذفٌ، وهو أَولى). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

وقال الشوكاني: (وإنَّما ذُكِّر الضميرُ في ﴿مِنۡهُ﴾؛ لأنَّه يعودُ إلى المذكور، أو إلى المضافِ المحذوفِ، وهو العصيرُ، كأنَّه قيل: ومِن عصيرِ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ تتَّخذونَ منه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) قال الواحديُّ: (﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ يريدُ الخَلَّ، والزَّبيبَ، والتَّمرَ، وكُلَّ ما يُتَّخَذُ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ؛ قالوا: السَّكَرُ: هي الخَمرُ بعَينِها، والسَّكَرُ حَرامٌ، والرِّزقُ

والعَصيرِ والخَلِّ[1].

الحسَنُ حَلالٌ، وقالوا: نزَلَت هذه قبلَ تحريمِ الخَمرِ، ونزل تحريمُها في سورةِ المائدة). ((البسيط)) (١٣/ ١١٧-١١٨).

وقال ابنُ عطية: (نزلت هذه الآيةُ قبلَ تحريمِ الخَمرِ، وأراد بالسَّكَرِ الخَمْرَ، وبالرِّزقِ الحَسَنِ جميعَ ما يُشرَبُ ويُؤكَلُ حَلالًا مِن هاتَينِ الشَّجَرتينِ، وقال بهذا القَولِ: ابنُ جُبير، وإبراهيم، والشعبي، وأبو زيد). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٥).

وقال ابن جرير: (وقال آخرون: (السَّكَرُ): هو كلُّ ما كان حلالًا شُربُه، كالنبيذ الحلالِ، والخَلِّ، والرُّبِّ. (والرزق الحَسَن): التَّمرُ والزبيبُ... وهذا التأويل عندي هو أولى الأقوال بتأويل هذه الآية... فإذا كان ... ما يُسكرُ من الشراب حرامًا... وكان غيرَ جائزٍ لنا أن نقولَ: هو منسوخٌ؛ إذ كان المنسوخُ هو ما نفى حُكمَه النَّاسِخُ، وما لا يجوزُ اجتماعُ الحُكمِ به وناسِخِه، ولم يكُنْ في حكمِ الله تعالى ذِكرُه بتحريمِ الخَمرِ دليلٌ على أنَّ السَّكَر الذي هو غيرُ الخَمرِ، وغيرُ ما يُسكِرُ مِن الشَّراب- حرامٌ؛ إذ كان السَّكَرُ أحَدُ معانيه عند العرب ومن نزَلَ بلسانِه القرآنُ: هو كُلُّ ما طُعِمَ، ولم يكُنْ مع ذلك، إذ لم يكُنْ في نفس التنزيلِ دليلٌ على أنَّه منسوخٌ، أو ورد بأنَّه منسوخٌ خبَرٌ من الرسولِ، ولا أجمعت عليه الأمَّةُ؛ فوجب القولُ بما قُلْنا من أنَّ معنى السَّكَر في هذا الموضعِ: هو كلُّ ما حَلَّ شُربُه مِمَّا يُتَّخذُ مِن ثَمَر النَّخلِ والكَرْم، وفسد أن يكونَ معناه الخمرَ أو ما يُسكِرُ مِن الشَّرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٧).

قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: التقديرُ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ ما ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، فحُذِف، ودَلَّ على حذفِه قولُه: ﴿مِنْهُ﴾. وقيل: هو معطوفٌ على ﴿الْأَنْعَامِ﴾، والتقديرُ: وإنَّ لكم مِن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ لَعبرةً. ويجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، أي: نُسقيكم ممَّا في بطونه ومِن ثمراتِ النَّخيلِ. ويجوزُ أن يتعلَّق بمحذوفٍ دَلَّ عليه ما قبله، تقديرُه: ونُسقيكم مِن ثمراتِ النَّخيلِ، ويكونُ على هذا ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ بيانًا للإسقاءِ، وكَشفًا عن حقيقتِه، ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، تقديرُه: ومن ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ثَمَرٌ تتَّخِذونَ منه سَكَرًا، ويكونَ تكريرُ الظَّرفِ، وهو قَولُه: ﴿مِنْهُ﴾ للتأكيدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٢٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنعامِنا على النَّاسِ بلَبَنِ الأنعامِ وثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ لَدَلالةً واضِحةً لِقَومٍ يَفهَمونَ حُجَجَ اللهِ ومَواعِظَه، فيتَدَبَّرونَها ويتَّعِظونَ بها، ويُقِرُّونَ بوَحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه[1].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ إخراجَ الألبانِ مِن النَّعَمِ، وإخراجَ السَّكَرِ والرِّزقِ الحَسَنِ مِن ثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ؛ دلائِلُ قاهِرةٌ، وبيِّناتٌ باهِرةٌ على أنَّ لهذا العالَمِ إلهًا قادِرًا مُختارًا حَكيمًا- فكذلك إخراجُ العَسَلِ مِن النَّحلِ دَليلٌ قاطِعٌ وبُرهانٌ ساطِعٌ على إثباتِ هذا المَقصودِ[2].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان أمرُ النَّحلِ في الدَّلالةِ على تَمامِ القُدرةِ وكَمالِ الحِكمةِ أعجَبَ مِمَّا تقَدَّمَ وأنْفَسَ، ثلَّثَ به وأخَّرَه؛ لأنَّه أقَلُّ الثَّلاثةِ عِندَهم، وغيَّرَ الأُسلوبَ وجعَلَه مِن وَحْيِه؛ إيماءً إلى ما فيه من غَريبِ الأمرِ، وبَديعِ الشَّأنِ[3].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وألْهَم[4] ربُّك -يا مُحمَّدُ- النَّحلَ أنِ اتَّخِذي مِن الجِبالِ بُيوتًا تَأوينَ إليها،

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٦).

(٤) قال القرطبي: (لا خِلافَ بين المتأوِّلينَ أنَّ الوَحيَ هنا بمعنى الإلهامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

ومِن الأشجارِ، ومِمَّا يبني النَّاسُ[1].

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان أهَمَّ شَيءٍ للحَيوانِ بعدَ الرَّاحةِ مِن همِّ المَقيلِ الأكلُ، ثَنَّى به[2]، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾.

قال الشَّوكاني: (﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ الوَحي يكونُ بمعنى الإلهامِ، وهو ما يخلُقُه في القَلبِ ابتداءً مِن غَيرِ سَبَبٍ ظاهرٍ، ومنه قولُه سُبحانَه: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧-٨]، ومِن ذلك إلهامُ البهائمِ لفعلِ ما ينفعُها، وتركِ ما يضُرُّها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٠) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).

قال ابنُ عطية: (و«عَرَشَ» معناه هيَّأ، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ فيما يكونُ من إتقانِ الأغصانِ والخشبِ وترتيبِ ظلالِها ...). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٤).

وقال الواحدي: (وقوله: ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ... معناه: يبنون ويسقُفون، يعني: ما يبني النَّاسُ لها من خلاياها التي تعمَلُ فيها النَّحلُ). ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧١).

وقال الزمخشري: (و﴿يَعْرِشُونَ﴾: بكَسرِ الرَّاءِ وضَمِّها: يَرفَعونَ مِن سُقوفِ البُيوتِ. وقيل: ما يَبنونَ للنَّحلِ في الجِبالِ والشَّجَرِ والبُيوتِ، مِن الأماكِنِ التي تتعَسَّلُ فيها. والضميرُ في ﴿يَعْرِشُونَ﴾ للنَّاسِ). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٨).

و(من) التي تكرَّرت في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ للتبعيضِ؛ لأنَّ النحلَ إنَّما تتخذُ بيوتًا في بعضِ الجبالِ، وبعضِ الشجرِ، وبعضِ الأماكنِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٨).

أي: ثمَّ ألْهَمَ اللهُ النَّحلَ أنْ كُلِي مِن كُلِّ أنواعِ الثِّمارِ[١].

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا أذِنَ اللهُ تعالى لها في ذلك كُلِّه، وكان مِن المعلومِ عادةً أنَّ تَعاطِيَه لا يكونُ إلَّا بمشَقَّةٍ عظيمةٍ في مُعاناةِ السَّيرِ إليه؛ نَبَّه على خَرْقِه للعادةِ في تَيسيرِه لها، فقال تعالى[٢]:

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾.

أي: فادخُلي -أيُّها النَّحلُ- طُرُقَ رَبِّكِ مُذَلَّلةً لكِ[٣]؛ لتطلُبي الرِّزقَ حيثما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

قال ابن جُزي: (﴿مِن﴾ للتَّبعيضِ، وذلك أنَّها إنما تأكُلُ النُّوَّارَ مِن الأشجارِ. وقيل: المعنى: مِن كُلِّ الثَّمَراتِ التي تَشتَهيها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ١٩٨).

(٣) قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿ذُلُلٗا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ حالًا مِن النَّحلِ، أي: مُطيعةً مُنقادةً لِما يُسِّرْتِ له، قاله قتادةُ... ويحتَمِلُ أن يكونَ حالًا مِن «السُّبُل» أي: مُسَهَّلةً مُستقيمةً، قال مجاهدٌ: لا يتوعَّرُ عليها سَبيلٌ تَسلُكُه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٦).

وممَّن اختار القول الأولَ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٥).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ زيدٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٠).

وممَّن اختار القولَ الثاني: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٠).

وقال ابن جرير: (وكلا القولينِ غيرُ بعيدٍ مِن الصوابِ في الصحةِ، وجهانِ مخرَّجان). ((تفسير

توجَّهْتِ[(١)].

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾.

أي: يَخرُجُ مِن بُطونِ النَّحلِ عَسَلٌ مُختَلِفُ الألوانِ؛ ما بينَ أحمَرَ وأصفَرَ وأبيضَ وغَيرِ ذلك مِن الألوانِ الحَسَنةِ، على اختلافِ مَراعيها ومَأكَلِها منها[(٢)].

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾.

أي: في العسَلِ شِفاءٌ للنَّاسِ مِن الأمراضِ[(٣)].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجلًا أتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أخي يَشتكي بَطْنَه، فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتى الثَّانيةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه الثَّالِثةَ فقال: اسْقِه عَسَلًا، ثمَّ أتاه فقال: قد فَعَلْتُ، فقال: صدَقَ

ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٢).

قال ابنُ القيِّم: (اختلف النَّاسُ في قولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ هل الضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ راجِعٌ إلى الشَّراب، أو راجِعٌ إلى القرآن؟ على قولين: الصحيحُ: رجوعُه إلى الشَّرابِ، وهو قولُ ابنِ مسعود، وابنِ عباس، والحسَن، وقتادة، والأكثرين؛ فإنَّه هو المذكورُ، والكلامُ سِيقَ لأجلِه، ولا ذِكرَ للقرآنِ في الآيةِ، وهذا الحديثُ الصَّحيحُ، وهو قولُه صَّلى اللهُ عليه وسلَّم: «صدق الله» كالصَّريحِ فيه، والله تعالى أعلم). ((زاد المعاد)) (٤/ ٣٤).

اللهُ، وكَذَب بَطنُ أخيك، اسْقِه عَسَلًا، فسَقاه فبَرَأ))[(١)].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنْ كان في شيءٍ مِن أدوِيَتِكم- أو: يكونُ في شَيءٍ مِن أدوِيَتِكم- خيرٌ، ففي شَرطةِ مِحْجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو لَذعةٍ بنارٍ تُوافِقُ الدَّاءَ، وما أُحِبُّ أن أكتَوِيَ))[(٢)].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشِّفاءُ في ثلاثةٍ: في شَرطَةِ مِحجَمٍ، أو شَربةِ عَسَلٍ، أو كيَّةٍ بنارٍ، وأنا أنهى أمَّتي عنِ الكيِّ))[(٣)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في إلهامِ الله للنحلِ باتخاذِ البيوتِ مِن الجبالِ والشَّجرِ والعُروشِ، والسلوكِ في المراعي للاجتناءِ مِن سائرِ الثِّمار؛ ليَخرجَ مِن بطونِها هذا العسلُ ذو الألوانِ المتعددةِ، الذي جعَل الله فيه شفاءً للناسِ مِن الأمراضِ؛ إنَّ في ذلك لدلالةً وحجةً واضحةً لقومٍ يتفكَّرون في عظمةِ خالقِها ومسخِّرِها، فيَستدِلُّون بذلك على أنَّه القادرُ، الحكيمُ، العليمُ، الكريمُ، الرحيمُ، اللطيفُ الذي يستحقُّ

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٢١٧).

قال ابنُ كثير: (قال بعضُ العلماءِ بالطِّبِّ: كان هذا الرجلُ عنده فضلاتٌ، فلمَّا سقاه عسلًا- وهو حارٌّ- تحلَّلت، فأسرعت في الاندفاعِ، فزاد إسهالُه، فاعتقد الأعرابيُّ أنَّ هذا يضرُّه، وهو مصلحةٌ لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليلُ والدَّفعُ، ثم سقاه فكذلك، فلما اندفعت الفضلاتُ الفاسدةُ المضِرَّةُ بالبدنِ استمسك بطنُه، وصلَحَ مِزاجُه، واندفعت الأسقام والآلام ببركةِ إشارته عليه مِن رَبِّه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٣).

(٢) رواه البخاري (٥٦٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٠٥).

(٣) رواه البخاري (٥٦٨١).

العبادةَ وَحْدَه(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في خَلقِ هذه النَّحْلةِ الصَّغيرةِ التي هداها اللهُ هذه الهِدايةَ العَجيبةَ، ويَسَّرَ لها المراعيَ، ثمَّ الرُّجوعَ إلى بُيوتِها التي أصلَحَتْها بتَعليمِ اللهِ لها، وهِدايتِه لها، ثمَّ يَخرُجُ مِن بُطونِها هذا العسَلُ اللَّذيذُ مختَلِفَ الألوانِ بحَسَبِ اختلافِ أرْضِها ومَراعيها، فيه شِفاءٌ للنَّاسِ مِن أمراضٍ عديدةٍ- في ذلك دَليلٌ على كَمالِ عِنايةِ الله تعالى، وتمامِ لُطفِه بعِبادِه، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحَبَّ غيرُه، ويُدعَى سِواه(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تأمَّلِ العِبرةَ التي ذكَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ في الأنعامِ، وما سَقانا مِن بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ الخالِصِ السَّائغِ، الهَنيءِ المَريءِ، الخارجِ مِن بينِ الفَرثِ والدَّمِ؛ فاللهُ تعالى إنَّما خلَقَ اللَّبَنَ مِن فَضلةِ الدَّمِ، وإنَّما خَلَقَ الدَّمَ مِن الغِذاءِ الذي يَتناوَلُه الحَيوانُ، فالشَّاةُ لَمَّا تناوَلَت العُشبَ والماءَ، فاللهُ تعالى خلَقَ الدَّمَ مِن لَطيفِ تلك الأجزاءِ، ثمَّ خلَقَ اللَّبَنَ مِن بَعضِ أجزاءِ ذلك الدَّمِ، وسَلِ المُعَطِّلَ الجاحِدَ: مَنِ الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ، وقَدَّرَ هذا التَّقديرَ، وأتقَنَ هذا الصُّنعَ، ولَطَفَ هذا اللُّطفَ سوى اللَّطيفِ الخَبيرِ؟! فهذه الأحوالُ إنَّما تَحدُثُ بتَدبيرِ فاعِلٍ حَكيمٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

رَحيمٍ، يُدَبِّرُ أحوالَ هذا العالَمِ على وَفقِ مَصالِحِ العِبادِ، فسُبحانَ مَن تَشهَدُ جَميعُ ذَرَّاتِ العالَمِ الأعلى والأسفَلِ بكَمالِ قُدرتِه، ونِهايةِ حِكمَتِه ورَحمتِه، له الخَلقُ والأمرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ[١]!

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ﴾، ثمَّ خَتَمَها بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾، وهذا يدُلُّ على ظُهورِ هذا المُعتَبَرِ فيه وبَيانِه؛ لأنَّه لا يَحتاجُ إلى تفكُّرٍ، ولا نظَرِ قَلبٍ، وإنَّما يَحتاجُ المُنَبَّهُ إلى أن يَسمَعَ القَولَ فقط[٢]. وقيل: بل المرادُ سماعُ تدبرٍ وإنصافٍ ونظرٍ؛ لأنَّ سماعَ القلوب هو النافعُ لا سماع الآذانِ، فمن سمِع آياتِ القرآنِ بقلبِه وتدبرها، وتفكَّر فيها انتفَع، ومَن لم يسمَعْ بقلبِه فكأنَّه أصمُّ لم يسمعْ، فلم ينتفعْ بالآياتِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ استُدِلَّ به على طَهارةِ لَبَنِ المأكولِ، وإباحةِ شُربِه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾، لَمَّا كان اللَّبَنُ لا يَحتاجُ إلى مُعالجةٍ مِن النَّاسِ، أخبَرَ عن نَفسِه تعالى بقَولِه: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾، ولَمَّا كان السَّكَرُ والرِّزقُ الحسَنُ يَحتاجُ إلى مُعالَجةٍ قال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُلاقاةَ المائِعِ للنَّجِسِ في الباطِنِ لا حُكْمَ لها(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ فيه سؤالٌ: الخَمرُ مُحَرَّمةٌ، فلماذا ذكَرَها اللهُ تعالى في مَعرِضِ الإنعامِ؟

والجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوجه الأوَّل: أنَّ هذه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ، وتحريمُ الخَمرِ نَزَل في سُورةِ (المائدةِ)، فكان نُزولُ هذه الآيةِ في الوَقتِ الذي كانت الخَمرُ فيه غيرَ مُحَرَّمةٍ.

الوجه الثَّاني: أنَّه تعالى ذكَرَ ما في هذه الأشياءِ مِنَ المنافِعِ، وخاطَبَ المُشرِكينَ بها، والخَمرُ مِن أشرِبَتِهم، فهي مَنفعةٌ في حَقِّهم، ثمَّ إنَّه تعالى نَبَّه في هذه الآيةِ أيضًا على تَحريمِها؛ وذلك لأنَّه مَيَّزَ بينها وبينَ الرِّزقِ الحَسَنِ في الذِّكرِ، فوجَبَ ألَّا يكونَ السَّكَرُ رِزقًا حَسَنًا(٢).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دَلَّ على التَّسويةِ بين السَّكَرِ المُتَّخَذِ مِن العِنَبِ، والمُتَّخَذِ مِن النَّخلِ، كما هو مذهَبُ مالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ وجُمهورِ العُلَماء، وكذا حُكمُ سائِرِ الأشربةِ المتَّخَذةِ مِن الحِنطةِ والشَّعيرِ والذُّرَةِ والعَسَلِ، كما جاءت السُّنَّةُ بتَفصيلِ ذلك(٣).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ناسَبَ ذِكْرُ العَقلِ هاهنا؛ فإنَّه أشرَفُ ما في

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨١).

الإنسانِ؛ ولهذا حَرَّمَ اللهُ على هذه الأمَّةِ الأشربةَ المُسكِرةَ؛ صِيانةً لِعُقولِها[(١)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخَمرَ لا يَحِلُّ ثمنُها؛ ولا تُعَدُّ في عِدَادِ الأملاكِ؛ لإفرادِ ذِكْرِها بالسَّكَرِ؛ وسائرِها بالرِّزقِ الحَسَنِ، فما لم يكُنْ رِزْقًا لم يَجُزْ أنْ يكونَ مِلْكًا، ولو كان أيضًا رِزقًا لكان خَبيثًا؛ لِتَسميتِه سائِرَها بالحَسَنِ، والخبيثُ لا ثَمَنَ له[(٢)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾، في تركِ تعليمِه خلقَه كيفيةَ اتِّخاذِ الرِّزقِ الحسنِ، وإخبارِه عن اتِّخاذِهم معدودًا في ذكرِ النعمِ- دليلٌ على أنَّ اتخاذَه كيفَ أحبُّوه مباحٌ لهم[(٣)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗا﴾ بيانُ أنَّ النَّحلَ خَلْقٌ يَسوقُه اللهُ حيث يشاءُ، فإذا اتَّخذَتْ بيتًا في مِلْكِ بَشَرٍ كان ما يَخرُجُ مِن بطونِها رِزقًا لصاحِبِ المِلْكِ؛ لِحُدوثِه في مِلْكِه، فإذا تَحوَّلَ النَّحلُ إلى غيرِ مِلْكِه لم يكُنْ له المُطالبةُ به، فإنِ اتُّخِذَ في أرضٍ مَوَاتٍ- لا مالكَ لها- كان عَسَلُه لِمَن بادرَ إلى أخْذِه، وتحصيله بالحِيازةِ والنُّقْلةِ[(٤)].

١١- ليس كلُّ مَن أُوحيَ إليه الوحيَ العامَّ يكونُ نبيًّا؛ فاللهُ تعالى قد أوحى إلى غيرِ النَّاسِ، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٨٧).

وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾[(١)].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ فأُشيرَ إلى أنَّ بُيوتَها تُتَّخَذُ في أحسَنِ البِقاعِ مِن الجِبالِ أو الشَّجَرِ أو العَرشِ دونَ بُيوتِ الحَشَراتِ الأخرى؛ وذلك لشرَفِها بما تَحتويه مِن المنافِعِ، وبما تَشتَمِلُ عليه مِن دقائِقِ الصَّنعةِ، ألا ترى إلى قَولِه تعالى في ضِدِّها: ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾[(٢)] [العنكبوت: ٤١].

١٣- مِن الحِكَمِ في أنَّ الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، ولم يَقُلْ: (مِن الثمرات كلِّها)- أنه تقدَّمَها في النَّظْمِ قولُه تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ فلو قال بعدها: (كُلِي مِن الثمراتِ كُلِّها) لذهبَ الوهمُ إلى أنه يريدُ الثمراتِ المذكورةَ قَبْلُ - ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ -، لأنَّ اللامَ إنما تنصرفُ إلى المعهود، فكان الابتداءُ بـ﴿كُلِّ﴾ أحْصَنَ للمعنى، وأجمعَ للجنس، وأرفعَ للَّبْسِ، وأبدعَ في النَّظْمِ[(٣)].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ عَبَّرَ عن العَسَلِ باسمِ الشَّرابِ دُونَ العَسَلِ؛ لِما يُومِئُ إليه اسمُ الجِنسِ مِن مَعنى الانتفاعِ به، وهو محَلُّ المِنَّةِ، وليُرَتِّبَ عليه جُملةَ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾، وسُمِّيَ شَرابًا؛ لأنَّه مائعٌ يُشرَبُ شُربًا، ولا يُمضَغُ[(٤)].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ أصلٌ في الطِّبِّ[(٥)]، وفيه دليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

إباحةِ التَّداوي[١].

١٦- قال الله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وقال ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] لم يَصِفِ اللهُ في كتابِه بالشِّفاءِ إلَّا القُرآنَ والعَسَلَ، فهما الشِّفاءانِ؛ هذا شِفاءُ القُلوبِ مِن أمراضِ غَيِّها وضَلالِها، وأدواءِ شُبُهاتِها وشَهَواتِها، وهذا شِفاءٌ للأبدانِ مِن كثيرٍ مِن أسقامِها وأخلاطِها وآفاتِها، وتأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفسَه شِفاءٌ، وقال عن العَسَل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ وما كان نَفسُه شِفاءً أبلَغُ ممَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ[٢]!

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تأمَّلْ أحوالَ النَّحلِ وما فيها مِنَ العِبَرِ والآياتِ، فانظُرْ إليها وإلى اجتِهادِها في صَنعةِ العَسَلِ، وبِنائِها البُيوتَ المُسَدَّسةَ التي هي مِن أتَمِّ الأشكالِ وأحسَنِها استِدارةً، وأحكَمِها صُنعًا، فإذا انضَمَّ بَعضُها إلى بعضٍ لم يكُنْ بينَها فُرجةٌ ولا خَلَلٌ، كُلُّ هذا بغيرِ مِقياسٍ ولا آلةٍ، وتلك مِن أثَرِ صُنعِ اللهِ، وإلهامِه إيَّاها، وإيحائِه إليها، كما قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. فسَلِ المُعَطِّلَ مَن الذي أوحى إليها أمْرَها، وجعَلَ ما جعَلَ في طِباعِها؟ ومَن الذي سَهَّلَ لها سُبُلَه ذُلُلًا مُنقادةً، لا تَستَعصي عليها، ولا تَستوعِرُها، ولا تَضِلُّ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠).

عنها على بُعدِها، ومَن الذي هداها لِشَأنِها[١]؟!

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: فيه بِناءُ الجُملَةِ على المسنَدِ الفِعْليِّ؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: اللهُ لا غَيرُه أنزَل مِن السَّماءِ ماءً[٢]، وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾ تَكريرٌ لِمَا سبَق؛ تأكيدًا لمضمونِه، وتَوطِئةً لِمَا يَعقُبُه مِن أدلَّةِ التَّوحيدِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقديمُ المجرورِ على المنصوبِ؛ للتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

- جملةُ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةً﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ﴾، أي: كما كان القومُ يَسمَعون عِبرةً في إنزالِ الماءِ من السَّماءِ، لكم في الأنعامِ عِبرةٌ أيضًا؛ إذْ قد كان المخاطَبون -وهم المؤمِنون- القومَ الَّذين يَسمَعون. وضَميرُ الخطابِ ﴿لَكُمۡ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ، وتوكيدُها بـ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨ - ٢٤٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ كتَأكيدِ الجُملةِ قَبلَها(١).

- قولُه: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ استِئْنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: كيف العِبرةُ؟ فقيل: نُسْقيكُم مِن بَينِ فَرثٍ ودَمٍ، أي: يَخلُقُ اللهُ اللَّبنَ وسَطًا بينَ الفَرْثِ والدَّمِ يَكتَنِفانِه، وبينَه وبينَهما برزَخٌ مِن قُدرةِ اللهِ لا يَبْغي أحَدُهما عليه بلَونٍ ولا طعمٍ ولا رائحةٍ، بل هو خالِصٌ مِن ذلك كلِّه(٢).

- وفي قولِه: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أفرَد ضَميرَ الأنعامِ؛ مُراعاةً لِكَونِ اللَّفظِ مُفرَدًا؛ لأنَّ اسْمَ الجمعِ لفظٌ مُفرَدٌ؛ إذْ ليس مِن صِيَغِ الجُموعِ، فقد يُراعَى اللَّفظُ فيَأتي ضَميرُه مُفرَدًا، وقد يُراعى مَعناه فيُعامَلُ مُعامَلةَ الجُموعِ، كما في سورةِ (المؤمنون) في قولِه: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١] بِجَمعِه مؤنَّثًا(٣). وفي هذا مناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أعاد في أحَدِ الموضِعَينِ ذِكْرَ المذكَّرِ، وفي الآخَرِ ذِكْرَ المؤنَّثِ، واللَّفظانِ سَواءٌ؛ ووَجهُ ذلك: أنَّ (الأنعامَ) في سورةِ (النَّحلِ) وإنْ أُطلِقَ لفظُ جَمعِها، فإنَّ المرادَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠١)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٣٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٨).

وقال ابنُ كثير: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أفردَ هاهنا الضَّميرَ عودًا على معنى النَّعَمِ، أو الضَّميرُ عائِدٌ على الحيوانِ؛ فإنَّ الأنعامَ حَيواناتٌ، أي: نُسقيكم مِمَّا في بَطنِ هذا الحيوانِ. وفي الآية الأخرى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، ويجوزُ هذا وهذا، كما في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٤- ٥٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ * فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ [النمل: ٣٥-٣٦] أي: المالُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٠-٥٨١).

بَعضُها؛ لأنَّ الدَّرَّ لا يَكونُ لِجَميعِها، وأنَّ اللَّبَنَ لِبَعضِ إناثِها، فكأنَّه قال: وإنَّ لكم في بعضِ الأنعامِ لَعِبرَةً نُسْقيكم ممَّا في بُطونِه؛ ولهذا ذهَب مَن ذهَب إلى أنَّه رُدَّ على النَّعَمِ؛ لأنَّه يُؤدِّي ما يؤدِّيه الأنعامُ مِن المعنى. وليس كذلك ذِكْرُها في سورةِ (المؤمنون)؛ لأنَّه قال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، فأخبَر عَن النِّعَمِ التي في أصنافِ النَّعَمِ إناثِها وذُكورِها؛ فلَم يَحتمِلْ أن يُرادَ بها البعضُ كما كان في الأوَّلِ ذلك[١].

- قولُه: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾ (مِن) ابتدائيَّةٌ، لابتداءِ الغايةِ؛ لأنَّ بينَ الفَرْثِ والدَّمِ مَكانَ الإسقاءِ الَّذي مِنه يُبتَدَأُ؛ فهو صِلَةٌ لـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ ومُتعلِّقةٌ به، كقولِك: سَقيتُه مِن الحوضِ. وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يَبعَثُ للنَّفسِ شوقًا إلى المؤخَّرِ، موجِبًا لِفَضلِ تَمْكينِه عندَ وُرودِه عليها، لا سيَّما إذا كان المقدَّمُ مُتضمِّنًا لوصفٍ مُنافٍ لوصفِ المؤخَّرِ، كالَّذي نحنُ فيه؛ فإنَّ بينَ وَصْفَي المقدَّمِ والمؤخَّرِ تَنافِيًا وتَنائِيًا بحيث لا يتَراءى ناراهُما؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ الشَّوقَ والاستِشْرافَ إلى المؤخَّرِ[٢]. أو مَوْقِعُ ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ مَوقِعُ الصِّفةِ لـ ﴿لَّبَنًا﴾، قُدِّمَت عليه للاهتمامِ بها؛ لأنَّها مَوضِعُ العِبرةِ، فكان لها مَزيدُ اهتِمامٍ، وقد صارَتْ بالتَّقديمِ حالًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٢-٨٥٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٢-١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦-٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠١)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦- ٦١٧).

- ولَمَّا كانت المَشروباتُ مِن اللَّبَنِ وغَيرِه هي الغالِبةَ في النَّاسِ أكثَرَ مِنَ العَسَلِ، قَدَّمَ اللَّبَنَ وغَيرَه عليه، وقَدَّمَ اللَّبَنَ على ما بَعدَه؛ لأنَّه المُحتاجُ إليه كثيرًا[١].

٣- قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تعلَّق قولُه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ بمحذوفٍ تقديرُه: ونُسْقيكم مِن ثَمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ، أي: مِن عَصيرِها، وحُذِفَ لِدَلالةِ نُسْقيكم قَبلَه عليه. أو يتعلَّقُ بـ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾، ويَجوزُ أن يَكونَ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ صِفةَ مَوصوفٍ محذوفٍ، تقديرُه: ومِن ثَمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ ثَمرٌ تتَّخِذون مِنه سَكَرًا ورِزقًا حسَنًا؛ لأنَّهم يَأكُلون بعضَها ويتَّخِذون مِن بَعضِها السَّكَرَ. و﴿مِنْهُ﴾ مِن تكريرِ الظَّرفِ للتَّوكيدِ، وعلى هذا يَرجِعُ الضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ إلى المضافِ المحذوفِ الَّذي هو العصيرُ كما رجَع في قولِه تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] إلى الأهلِ المحذوفِ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تكريرٌ لِتَعدادِ الآيةِ؛ لأنَّها آيةٌ مُستقِلَّةٌ[٣].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٦- ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٣).

يَعۡرِشُونَ ﴾

- افتُتِحَتِ الجُمْلةُ بفِعْلِ ﴿أَوۡحَىٰ﴾ دونَ أن تُفتتَحَ باسْمِ الجَلالةِ مِثلَ جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾؛ لِمَا في ﴿أَوۡحَىٰ﴾ مِن الإيماءِ إلى إلهام تلك الحشَرةِ الضَّعيفةِ تَدبيرًا عَجيبًا، وعَملًا مُتقَنًا، وهَندَسةً في الجِبِلَّةِ. وأُطلِقَ الوحيُ هنا على التَّكوينِ الخَفيِّ الَّذي أودعَه اللهُ في طبيعةِ النَّحلِ، بحيث تَنْساقُ إلى عمَلٍ مُنظَّمٍ مُرتَّبٍ بَعضُه على بعضٍ، لا يَختلِفُ فيه آحادُها؛ تَشبيهًا للإلهامِ بكلامٍ خفيٍّ يتَضمَّنُ ذلك التَّرتيبَ الشَّبيهَ بعمَلِ المتعلِّمِ بتَعليمِ المعلِّمِ، أو المؤتَمِرِ بإرشادِ الآمِرِ، الذي تَلقَّاه سِرًّا[١].

- وفي قولِه: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾ تَنْكيتٌ[٢]، وهو هُنا في قولِه: ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾؛ إذْ مَعْنى (مِنْ) هُنا للتَّبعيضِ، وهي مُتعلِّقةٌ باتِّخاذِ البُيوتِ، ولم يَقُلْ: في الجِبالِ؛ لأنَّها لا تَبْني بُيوتَها في كلِّ جبلٍ وفي كلِّ شجرٍ وكلِّ ما يُعْرَشُ، فلم يَترُكْ لها الحُرِّيَّةَ في بِناءِ البُيوتِ، كأنَّه تعالى وَكَلَ الأكلَ إلى شَهوَتِها واختيارِها، فلم يَحجُرْ عليها فيه، وإنْ حجَر عليها في البيوتِ، وأُمِرَت باتِّخاذِها في بعضِ المواضِعِ دونَ بعضٍ؛ فلم يَكِلِ الأمرَ إلى شَهواتِها كما وَكَلَه إليها في قولِه: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وإنَّما خولِف ذلك وحَجَر عليها في المسكَنِ، ولم يَحجُرْ عليها في المأكَلِ؛ لأنَّ مَصلَحةَ الأكلِ على

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٢) التَّنكيتُ: هو أن يَقصِدَ المتكلِّمُ إلى شيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيره ممَّا يَسُدُّ مَسَدَّه؛ لأجْلِ نُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ اختصاصَه بالذِّكر دون ما يَسُدُّ مَسدَّه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٩٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١-١٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٣٩٩).

الإطلاقِ باستِمْراءِ مُشْتَهاها مِنه، وأمَّا البُيوتُ فلا تَحصُلُ مَصلَحتُها في كلِّ مَوضِعٍ؛ ولهذا المعنى دخَلَتْ ﴿ ثُمَّ ﴾ لِتفاوُتِ الأمرِ بينَ الحَجْرِ عليها في اتِّخاذِ البيوتِ والإطلاقِ لها في تَناوُلِ الثَّمراتِ؛ فتوسَّط ﴿ ثُمَّ ﴾ لِتفاوُتِ الحَجْرِ والإطلاقِ[1].

- وقَدَّمَ البُيوتَ مِن الجبالِ؛ لأنَّ أكثرَ بُيوتِها في الجِبالِ، ثُمَّ في الأشجارِ وهي مِن أكثَرِ بُيوتِها، ثمَّ مِمَّا يَعرِشُ النَّاسُ وهي أقَلُّ بُيوتِها بينهم حيثُ يَعرِشونَ، وأمَّا في الجِبالِ والشَّجَرِ فبُيوتٌ عَظيمةٌ يُؤخَذُ منها مِن العَسَلِ الكثيرُ جِدًّا[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ إلهامَ النَّحلِ للأكلِ مِن الثَّمراتِ يترتَّبُ عليه تكوُّنُ العَسلِ في بُطونِها، وذلك أعلى رُتبةً مِن اتِّخاذِها البُيوتَ؛ لاخْتِصاصِها بالعَسلِ دونَ غيرِها مِن الحشَراتِ التي تَبْني البُيوتَ، ولأنَّه أعظَمُ فائدةً للإنسانِ، ولأنَّ مِنه قُوتَها الَّذي به بَقاؤُها. وسُمِّي امْتِصاصُها أكْلًا؛ لأنَّها تَقْتاتُه، فلَيس هو بِشُربٍ[3].

- قولُه: ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ فيه إضافةُ السُّبلِ إلى ربِّك؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّحلَ مُسخَّرةٌ لسُلوكِ تلك السُّبلِ لا يَعدِلُها عنها شيءٌ؛ لأنَّها لو لم تَسلُكْها لَاختَلَّ نِظامُ إفرازِ العسَلِ منها. وجُملةُ ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- الحاشية)) (١/ ١٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٠٧).

مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما تَقدَّم مِن الخبَرِ عن إلهامِ النَّحلِ تلك الأعمالَ يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعِ أن يَسأَلَ عن الغايةِ مِن هذا التَّكوينِ العَجيبِ، فيَكونُ مضمونُ جملةِ ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ﴾ بيانًا لِما سأَل عنه. وهو أيضًا موضِعُ المِنَّةِ كما كان تَمامَ العِبْرةِ[1].

- قولُه: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ استئنافٌ عُدِل به عن خِطابِ النَّحلِ؛ لِبَيانِ ما يَظهَرُ مِنها مِن تَعاجيبِ صُنعِ اللهِ تعالى الَّتي هي مَوضِعُ العبرةِ بعدَما أُمِرَت بما أُمِرَت[2].

- في قولِه: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخطابِ إلى الغَيبةِ، ولو جاء الكلامُ على النَّسقِ الأوَّلِ لقيلَ: مِن بُطونِكِ، وإنَّما صرَف الكلامَ هاهنا مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ لِفائدةٍ، وهي أنَّه ذَكَر للبَشرِ العَسلَ وأوصافَه وألوانَه المختلِفةَ، وأخبَرهم أنَّ فيه فَوائدَ شَتَّى لهم؛ لِيَلفِتَ انتِباهَهم إليه، ولو قال: (مِن بُطونِكِ) لَذَهَبَت تلك الفائدةُ التي أنتَجَها خِطابُ الغَيبةِ، وليس ذلك بخافٍ عن نقَدةِ الكَلامِ[3]. وقيل: لأنَّه محَلُّ الإنعامِ عليهم، والمقصودُ مِن خَلقِ النَّحلِ وإلهامه لأجْلِهم[4].

- وقال: ﴿مِنۢ بُطُونِهَا﴾ لأنَّ استحالةَ الأطعمةِ لا تكونُ إلَّا في البُطونِ، فيخرجُ بَعضُها من الفَمِ، كالرِّيقِ الدائِمِ الذي يخرُجُ مِن فَمِ ابنِ آدمَ، فالنَّحلُ تُخرِجُ العسَلَ مِن بُطونِها إلى أفواهِها[5].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٠، ٢١١).

- في قولِه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾: تنكيرُ ﴿شِفَآءٌ﴾؛ إمَّا لِتَعظيمِ الشِّفاءِ الَّذي فيه، فيَكونُ المعنى: فيه شِفاءٌ أيُّ شِفاءٍ، وإمَّا لِدَلالَتِه على مُطلَقِ الشِّفاءِ، أي: فيه بعضُ الشِّفاءِ، وكِلاهُما مُحتمِلٌ؛ لأنَّه مِن جُملةِ الأشفِيَةِ والأدويَةِ المشهورةِ النَّافعةِ، وليس الغرَضُ أنَّه شفاءٌ لكلِّ مَريضٍ، كما أنَّ كلَّ دَواءٍ كذلك؛ فنَكَّر قولَه: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ ولم يَقُلْ: (فيه الشِّفاءُ لكلِّ النَّاسِ)؛ فاندَفَع الاعتِراضُ بأنَّ كَثيرينَ يَأكُلون العَسَلَ ولا يُشفَوْن ممَّا ألَمَّ بهِم، فيُلاحَظُ أنَّ النَّكِرةَ في سياقِ الإثباتِ لا تُفيدُ العُمومَ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ...﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيث قال: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في الأُولى، و﴿يَعۡقِلُونَ﴾ في الثَّانيةِ، و﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في الثَّالثةِ؛ ووجهُ ذلك: أنَّه إنَّما ذكَر ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في الأُولى توبيخًا لِمَن أنكَر البَعثَ، واستَبْعَدَ الحياةَ الثَّانيَةَ، فكأنَّه قيل له: إنَّ ذلك قبلَ التَّدبُّرِ مُقرَّرٌ في أوَّلِ العَقلِ حتَّى إنَّ مَن يَسمَعُه يَعترِفُ به، وهو أنَّ الأرضَ المَيْتةَ يُحْييها اللهُ تعالى بماءِ السَّماءِ، فتَعودُ حَيَّةً بنَباتِها، فكذلك لا يُستنكَرُ أن يُحيِيَ الخَليقةَ بعدَ موتِها. وأمَّا اختِصاصُ الثَّانيةِ بقَولِه: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ فلأنَّه قال: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، والفَرْثُ والدَّمُ لا يَنعصِرُ مِنه ما يَسوغُ للشَّارِبِ، والدَّمُ أحمَرُ، فيُحوَّلُ بقُدرةِ اللهِ تعالى لبَنًا أبيَضَ طيِّبًا بَعدَ بُعدِه ممَّا استَحالَ عنه في اللَّونِ والطِّيبِ؛ ففيه عِبرةٌ لِمَن اعتبَر، ولَمَّا قُرِن إليه ثَمراتُ النَّخيلِ والأعنابِ وما يتَحوَّلُ مِن عَصيرِهما إلى ما يُستَلَذُّ، ويَجلِبُ ما يَسُرُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٣٢- ٣٣٣).

سِوى طِيبِ رَطْبِها ويابِسِها؛ احْتاج ذلك إلى تَدبُّرٍ يُعقَلُ به صُنعُ صانِعٍ لا يَقدِرُ غيرُه عليه؛ فلذلك قال في الثَّانيةِ: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾[١]. ولأنَّه لَمَّا كان مُفتَتَحُ الكَلامِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾، ناسَبَ الختْمُ بِقَولِه: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يَعتبِرُ إلَّا ذَوُو العُقولِ[٢]. وأمَّا اختِصاصُ الثَّالثةِ بقَولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فلأنَّ التَّفكُّرَ استِعْمالُ الفِكرِ حالًا بعدَ حالٍ، وفي النَّحلِ عَجائِبُ مِن صُنعِ اللهِ تعالى وهي أشياءُ تَقتَضي فِكرًا بعدَ فكرٍ، ونظرًا بعدَ نظَرٍ؛ فلِذلك عُقِّبَت بقولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، فاختِيرَ وَصفُ (التفكُّر) هنا؛ لأنَّ الاعتبارَ بتَفصيلِ ما أجمَلَتْه الآيةُ في نظامِ النَّحلِ مُحتاجٌ إلى إعمالِ فِكرٍ دَقيقٍ، ونظَرٍ عميقٍ[٤].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٠-٨٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٠).

الآيات (٧٠-٧٢)

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: أي: أردَئِه وأوضَعِه. والرَّذْلُ: المَرغوبُ عنه لِرَداءتِه، والدُّونُ مِن كُلِّ شَيءٍ[1].

﴿بِرَآدِّى﴾: أي: بمُعْطِي، وأصلُ (رد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[2].

﴿وَحَفَدَةً﴾: أي: ولَدَ ولَدِ الرَّجُلِ، الذين يُعينونَه ويَخدُمونَه. وقيل: هم الأنصارُ والأعوانُ والخَدَمُ، وأصلُ (حفد): يدُلُّ على الخِفَّةِ في الخِدمةِ والعَمَلِ، والتجمُّعِ[3].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٦٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٣٧).

المعنى الإجماليُّ:

يخاطبُ الله تعالى عبادَه قائلًا: واللهُ وحدَه خلَقَكم- أيُّها النَّاسُ- من العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم، ومِنكم مَن يصيرُ إلى أردأِ العُمُرِ، وهو الهَرَمُ، فيَضعُفُ، وتَنقُصُ قُوَّتُه وعَقلُه، ليصيرَ لا يعلَمُ شيئًا ممَّا كان يَعلَمُه. ثم ختم الله الآيةَ بما يدلُّ على كمالِ علمِه، وتمامِ قدرتِه فقال: إنَّ اللهَ عَليمٌ قَديرٌ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى التفاوُتَ بينَ الناسِ في أرزاقِهم، فقال: واللهُ فَضَّل بَعضَكم على بَعضٍ فيما أعطاكم مِن الرِّزقِ في الدُّنيا؛ فمنكم غنيٌّ ومنكم فقيرٌ، ومِنكم مالِكٌ ومنكم مَملوكٌ، فلا يُعطي المالِكونَ مَملوكِيهم ممَّا أعطاهم اللهُ ما يَصيرونَ به شُرَكاءَ لهم، مُتَساوينَ معهم في المالِ، فإذا لم يَرْضَوا أن يُشرِكوا معهم بعضَ خَلقِ اللهِ فيما رزقَهم سبحانَه، فلماذا رَضُوا أن يُشرِكوا مع ربِّهم في العبادةِ بَعضَ خَلقِه، وهو أعظم؟! إنَّ هذا لَمِن أعظَمِ الظُّلمِ والجُحودِ لحَقِّ اللهِ ونِعَمِه.

ثمَّ ذكَر الله تعالى نعمةً أُخرَى مِن نِعمِه على الناسِ، فقال: واللهُ سُبحانَه خلقَ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جِنسِكم أزواجًا؛ لِتَسكنوا إليهنَّ، وجعل لكم مِنهنَّ الأبناءَ، ومِن نَسلِهنَّ الأحفادَ المُسرِعين في عَونِكم وخِدمتِكم، ورَزَقَكم مِن الأموالِ الحلالِ، والأطعمةِ الطَّيِّبةِ، أفبالباطِلِ مِن ألوهيَّةِ شُرَكائِهم يُؤمِنونَ، وبنِعَمِ اللهِ التي لا تُحصَى يَجحَدونَ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الآياتِ التي في الأنعامِ والثَّمَراتِ والنَّحْلِ؛ ذكَرَ ما نبَّهَنا به على قُدرتِه التَّامَّةِ في إنشائِنا مِن العَدَمِ وإماتَتِنا، وتنَقُّلِنا في حالِ الحياةِ مِن حالةِ الجَهلِ إلى حالةِ العِلمِ، وذلك كُلُّه دليلٌ على القُدرةِ التَّامَّةِ، والعِلمِ الواسِعِ[1].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه أوجَدَكم -أيُّها النَّاسُ- من العَدَمِ، ثمَّ يُميتُكم عندَ انتهاءِ آجالِكم[2].

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾.

أي: ومِنكم مَن يُؤَخِّرُ اللهُ مَوتَه، ويُترَكُ إلى أخَسِّ العُمُرِ وأردَئِه، وهو الذي يَهرَمُ فيه، فيَضعُفُ وتَنقُصُ قُوَّتُه وعَقلُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

قال ابن عاشور: (لَمَّا قُوبِلَ ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ عُلِمَ أنَّ المعنى: ثمَّ يتوفَّاكم في إبَّانِ الوَفاةِ، وهو السِّنُّ المعتادةُ الغالِبةُ؛ لأنَّ الوصولَ إلى أرذَلِ العُمُرِ نادِرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).

قال ابن عاشور: (الهَرَمُ لا ينضَبِطُ حُصولُه بعدَدٍ مِن السِّنينَ؛ لأنَّه يختَلِفُ باختلافِ الأبدانِ والبُلدانِ والصِّحَّةِ والاعتدالِ، على تفاوُتِ الأمزِجةِ المعتدلة، وهذه الرَّذالةُ رَذالةٌ في الصِّحَّةِ لا تعلُّقَ لها بحالةِ النَّفسِ، فهي ممَّا يَعرِضُ للمُسلِمِ والكافِرِ، فتُسمَّى أرذَلَ العُمُرِ فيهما، وقد استعاذ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أن يُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَدعو: ((أعوذُ بك مِن البُخلِ والكَسَلِ، وأرذَلِ العُمُرِ، وعذابِ القَبرِ، وفِتنةِ الدَّجَّالِ، وفِتنةِ المَحْيا والمَماتِ[(١)]))[(٢)].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((تعوَّذُوا بكَلِماتٍ كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتعَوَّذُ بهنَّ: اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن الجُبنِ، وأعوذُ بك مِن البُخلِ، وأعوذُ بك من أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وأعوذُ بك مِن فِتنةِ الدُّنيا، وعذابِ القَبرِ))[(٣)].

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

وقال الشنقيطي: (عن عليٍّ رَضِيَ الله تعالى عنه: أنَّ أرذَلَ العُمُرِ خَمسٌ وسَبعون سنة. وعن قتادة: تسعونَ سنة. والظَّاهِرُ أنَّه لا تحديدَ له بالسِّنينَ، وإنَّما هو باعتبار تفاوتِ حالِ الأشخاصِ؛ فقد يكونُ ابنُ خمس وسبعين أضعَفَ بدنًا وعقلًا، وأشدَّ خَرَفًا مِن آخَرَ ابنِ تسعينَ سنةً). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤١٠).

(١) فِتنةُ المحيا: ما يَعرِضُ للإنسانِ مُدَّةَ حياتِه من الافتتانِ بالدُّنيا والشَّهواتِ والجهالاتِ، وفتنةُ المماتِ: الفِتنةُ عند الموتِ، ويجوزُ أن يرادَ بها فِتنةُ القبرِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣١٩).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٦).

(٣) رواه البخاري (٦٣٧٤).

أي: نَرُدُّ مَن نشاءُ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ لِيَصيرَ[(١)] جاهِلًا لا يعلَمُ بعد عِلمِه بالأمورِ شَيئًا، فيَنسى ما كان يَعلَمُه مِن قبلُ، فالذي ردَّه إلى هذه الحالِ قادرٌ -سُبحانَه- على أن يُميتَه ثُمَّ يُحييَه ويَبعَثَه للحِسابِ والجزاءِ يومَ القيامةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر ما يَعرِضُ في الهَرَمِ من ضعفِ القُوى والقُدرةِ، وانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ عِلمَه وقدرتَه اللَّذَينِ لا يتبدَّلانِ ولا يتغيَّرانِ، ولا يدخُلُهما الحوادثُ، وولِيَت

---

(١) قال ابنُ جزي: (﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ اللامُ لامُ الصيرورةِ، أي: يصيرُ إذا هرِم لا يعلمُ شيئًا، بعدَ أن كان يعلمُ قبلَ الهرمِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٨٨-٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠).

قال ابن جزي: (وليس المرادُ نفيَ العلمِ بالكليةِ، بل ذلك عبارةٌ عن قلةِ العلمِ؛ لغلبةِ النسيانِ. وقيل: المعنَى: لئلَّا يعلمَ زيادةً على علمِه شيئًا). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣١).

وقال أبو حيان: (الظاهرُ أنَّ ﴿مَن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ عامٌّ، فيمَن يلحقُه الخرفُ والهرمُ. وقيل: هذا في الكافرِ؛ لأنَّ المسلمَ لا يزدادُ بطولِ عمرِه إلا كرامةً على الله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: لم يُردُّوا إلى أسفلِ سافلينَ. وقال قتادةُ: «مَن قرأ القرآنَ لم يُردَّ إلى أرذلِ العمرِ»). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٢).

صفةُ العلمِ ما جاورَها مِن انتفاءِ العلمِ(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ ما كان ويكونُ، فلا يَنسى ولا يتغيَّرُ عِلمُه، ولا يَجهَلُ شَيئًا، قديرٌ على كلِّ شيءٍ سُبحانَه(٢).

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا مِن الاستدلالِ على أنَّ التصَرُّفَ القاهِرَ لله تعالى؛ وذلك أنَّه أعقَبَ الاستِدلالَ بالإحياءِ والإماتةِ وما بينهما مِن هَرَمٍ، بالاستدلالِ بالرِّزقِ، ولَمَّا كان الرِّزقُ حاصِلًا لكُلِّ مَوجودٍ، بُنِيَ الاستدلالُ على التَّفاوُتِ فيه بخِلافِ الاستدلالِ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾(٣) [النحل: ٧٠].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى خَلْقَنا ثمَّ إماتَتَنا وتفاوُتَنا في السِّنِّ، ذكَرَ تفاوُتَنا في الرِّزق، وأنَّ رِزقَنا أفضَلُ مِن رِزقِ المماليكِ، وهم بشَرٌ مِثلُنا(٤).

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾.

أي: واللهُ فضَّل بَعضَكم -أيُّها النَّاسُ- على بَعضٍ فيما رزَقَكم مِن الأموالِ، فجعَلَ بَعضَكم غنيًّا، وبَعضَكم فَقيرًا، وبَعضَكم حُرًّا له مالٌ، وبَعضَكم مملوكًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٣).

لا مالَ له[١].

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ﴾.

أي: فليس الذين فضَّلهم الله على غَيرِهم بالرِّزقِ بجاعِلي رِزْقِهم لعَبيدِهم، فيَكونوا هم وعبيدُهم شُرَكاءَ فيه بالسَّوِيَّة؛ فإذا لم يكُنْ عَبيدُكم معكم سواءً في أموالِكم، ولا تَرضَونَ هذه الحالَ لأنفُسِكم، فكيف تجعَلونَ مع اللهِ شُرَكاءَ له في العبادةِ وهم عبيدٌ له، ليس لهم من المُلْك مِثقالُ ذَرَّةٍ[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

أي: أفبِنعمَةِ اللهِ التي أنعَمَ بها مِن الرِّزقِ يَجحَدُ هؤلاء الكافِرونَ، بإشراكِهم غَيرَه في عبادتِه، واستعمالِ نِعَمِه في مَعصِيَتِه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١).

قال الشوكاني: (فوسَّعَ على بعضِ عبادِه حتى جعَل له مِن الرِّزقِ ما يكفي ألوفًا مُؤَلَّفةً مِن بني آدمَ، وضَيَّقَه على بعضِ عِبادِه حتى صار لا يجِدُ القُوتَ إلَّا بسُؤالِ النَّاسِ، والتكَفُّفِ لهم؛ وذلك لحِكمةٍ بالغةٍ تقصُرُ عُقولُ العبادِ عن تعقُّلِها، والاطِّلاعِ على حقيقةِ أسبابِها. وكما جعَلَ التَّفاوُتَ بين عبادِه في المالِ، جعَلَه بينهم في العَقلِ والعِلمِ والفَهمِ، وقُوَّةِ البدَنِ وضَعفِه، والحُسنِ والقُبحِ، والصِّحَّة والسَّقَم، وغيرِ ذلك من الأحوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٠، ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان))

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا نوعٌ آخَرُ مِن أحوالِ النَّاسِ، ذكَرَه اللهُ تعالى ليُستَدَلَّ به على وجودِ الإلهِ المُختارِ الحَكيمِ، وليكونَ ذلك تنبيهًا على إنعامِ اللهِ تعالى على عَبيدِه بمِثلِ هذه النِّعَمِ(١).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى امتِنانَه بالإيجادِ ثُمَّ بالرِّزقِ المُفَضَّلِ فيه؛ ذكَرَ امتِنانَه بما يقومُ بمصالحِ الإنسانِ ممَّا يأنَسُ به ويَستنصِرُ به ويَخدُمُه(٢).

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جِنسِكم البَشَريِّ وعلى هَيئتِكم(٣)

للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٤).

(٣) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

وممن قال بهذا القول من السلف: ابن زيد. ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧١).

وقيل: المعنى: خلَقَ حوَّاءَ مِن آدَمَ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جريرٍ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٢). ونسَبه الرسعني إلى أكثرِ المفسرينَ. ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٦٣).

وممن قال بهذا القول من السلف: قتادة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥).

قال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فيه قولانِ:

أَحدهما: أنَّ هذا في آدمَ -عليه السَّلامُ- فإنَّ الله تعالى خلَق حَوَّاءَ مِن بعضِ أضلاعِه.

والقولُ الثَّاني: خلَق مِن أنفسِكم أزواجًا، أَي: مِن جنسِكم أزواجًا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٨٨).

أزواجًا، فتَسكنونَ إليها، ويحصُلُ الائتلافُ والمودَّةُ بينكم[(١)].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

أي: وخلَقَ لكم مِن نسائِكم أبناءً، وأبناءً لأبنائِكم، يُسرِعونَ في خِدمتِكم، ويَقضُونَ حَوائِجَكم، وتَنتَفِعونَ بهم[(٢)].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى إنعامَه على عَبيدِه بالمَنكوحِ، وما فيه مِن المنافِعِ والمَصالحِ؛ ذكَرَ إنعامَه عليهم بالمَطعوماتِ الطَّيِّبةِ، فقال[(٣)]:

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٦، ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٣).

قال ابنُ عطيةَ: (ولا خِلافَ أنَّ معنى الحَفْدِ: الخِدمةُ والبِرُّ، والمشيُ مُسرِعًا في الطاعةِ، ومنه في القُنوتِ: «وإليك نَسعى ونَحفِدُ»). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥).

أي: ورزَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن حلالِ الأموالِ والأطعِمةِ والأشرِبةِ اللَّذيذةِ الصَّالحةِ[1].

﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

أي: أفَبالباطِلِ[2] يُؤمِنُ هؤلاء المُشرِكونَ، وبِنِعَمِ اللهِ التي أنعَمَ بها عليهم يَكفُرونَ، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ولا يُوَحِّدونَه، ويَنسُبونَ نِعَمَه إلى غيرِه، ويَستَعمِلونَها في مَعصِيَتِه، والكُفرِ به[3]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

وقال البقاعي: (﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بجَعْلِه مُلائمًا للطِّباعِ، شَهِيًّا للأرواحِ، نافعًا للإشباعِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢١٢).

(٢) قيل: المرادُ به: الأصنامُ. وممن قال بذلك: الواحدي، والبغوي، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٨)، (تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧-٥٨٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

قال السعدي: (﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ أي: أيؤمِنونَ بالباطِلِ الذي لم يكن شيئًا مذكورًا ثمَّ أوجده اللهُ، وليس له من وجودِه سوى العدَمِ، فلا تخلقُ ولا ترزُقُ ولا تدبِّرُ مِن الأمر شيئًا، وهذا عامٌّ لكُلِّ ما عُبِدَ مِن دون الله؛ فإنها باطلةٌ، فكيف يتَّخِذُها المشركونَ مِن دون الله؟!!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

وقيل: المرادُ: يصدِّقون بتحريمِ ما أحلَّ الله مِن البحائرِ والسوائبِ والوصائلِ مِن الأنعامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٤).

قال ابن جرير: (﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ يقول: وبما أحَلَّ اللهُ لهم من ذلك، وأنعم عليهم بإحلالِه ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يقولُ: يُنكِرونَ تحليلَه، ويجحدون أن يكونَ الله أحَلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ انتقالٌ مِن الاستدلالِ بدَقائقِ صُنعِ اللهِ على وَحْدانيَّته إلى الاستدلالِ بتَصرُّفِه في الخَلْقِ التَّصرُّفَ الغالِبَ لهم الَّذي لا يَستطيعونَ دَفْعَه، على انفِرادِه برُبوبيَّتِهم، وعلى عَظيمِ قُدرتِه، كما دلَّ عليه تَذييلُها بجُملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾؛ فهو خَلَقَهم بدونِ اختِيارٍ مِنهم، ثمَّ يَتوفَّاهم كُرْهًا عليهم، أو يَرُدُّهم إلى حالةٍ يَكرَهونها، فلا يَستَطيعون ردًّا لذلك، ولا خَلاصًا منه، وبذلك يتَحقَّقُ معنى العبوديَّةِ بأوضَحِ مَظهَرٍ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ نَصٌّ صَريحٌ في إبطالِ مَذهَبِ الاشتراكيَّةِ القائِلِ: بأنَّه لا يكونُ أحَدٌ أفضَلَ مِن أحدٍ في الرِّزقِ، ولله في تفضيلِ بَعضِهم على بعضٍ في الرِّزقِ حِكمةٌ؛ قال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، إلى غيرِ ذلك من الآياتِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ ممتنًّا على بني آدم بأنَّ أزواجَهم مِن نوعِهم وجنسِهم، يُفهمُ منه عدمُ جوازِ مناكحةِ الإنسِ الجنَّ؛ لأنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١١).

ما جعَل لهم أزواجًا تُبايِنُهم[١].

٤- الجَعْلُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا﴾ هو جَعْلٌ كونيٌّ، ويُقابِلُه: الجَعلُ الدِّينيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شَرَعَ ذلك ولا أمَرَ به، وإلَّا فهو مَخلوقٌ له، واقِعٌ بقدَرِه ومَشيئَتِه[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا﴾ الوَصفُ بالزَّوجِ يُؤذِنُ بمُلازمتِه لآخَرَ؛ فلذا سُمِّيَ بالزَّوجِ قَرينُ المرأةِ وقَرينةُ الرَّجُلِ، وهذه نِعمةٌ اختَصَّ بها الإنسانُ؛ إذ ألهَمَه اللهُ جَعْلَ قَرينٍ له، وجَبَله على نظامِ مَحبَّةٍ وغَيرةٍ، لا يَسمَحانِ له بإهمالِ زَوجِه، كما تُهمِلُ العَجْماواتُ إناثَها، وتَنصَرِفُ إناثُها عن ذكورِها[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فيه استدلالٌ ببديعِ الصُّنعِ فِي خلقِ النَّسْلِ؛ إذ جُعِل مُقارِنًا للتَّأنُّسِ بينَ الزَّوجينِ؛ إذْ جُعِلَ النَّسلُ مِنهُما، ولم يجعَلْه مُفارِقًا لأحدِ الأبوَينِ أو كِلَيهما[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ أُطلِقَ الحَفيدُ على ابنِ الابنِ؛ لأنَّه يَكثُرُ أن يَخدُمَ جَدَّه؛ لِضَعفِ الجَدِّ بسَبَبِ الكِبَر، فأنعم اللهُ على الإنسانِ بحِفظِ سِلسلةِ نَسَبِه بسَبَبِ ضَبطِ الحَلقةِ الأولى منها، وهي كَونُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢١٧).

أبنائِه مِن زَوجِه، ثمَّ كَونِ أبناءِ أبنائِه مِن أزواجِهم، فانضبَطَت سِلسلةُ الأنسابِ بهذا النِّظامِ المُحكَمِ البَديعِ. وغيرُ الإنسانِ مِن الحَيوانِ لا يَشعُرُ بحَفَدتِه أصلًا، لا يَشعُرُ بالبُنُوَّةِ إلَّا أُنثى الحيوانِ مُدَّةً قليلةً، قَريبةً مِن الإرضاعِ[1]!

٨- كَلِمةُ (مِنْ) في قَولِ الله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كُلَّ الطَّيِّباتِ في الجنَّةِ، وما طَيِّباتُ الدُّنيا إلَّا أُنموذَجٌ منها[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ...﴾: فيه ابتِداءُ الجُملةِ باسْمِ الجَلالةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل: ٦٥]؛ لأنَّ دلالةَ الاسْمِ العلَمِ أوضَحُ وأصرَحُ؛ فهو مُقتَضَى مَقامِ تحقيقِ الانفِرادِ بالخَلْقِ والتَّوفِّي دونَ غيرِه مِن شُركائِهم؛ لأنَّ المشرِكين يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ هذه الأشياءِ. وأمَّا إعادةُ اسْمِ الجَلالَةِ هنا دونَ الإضمارِ؛ فلأنَّ مَقامَ الاستدلالِ يَقْتضي تَكريرَ اسمِ المستدَلِّ على إثباتِ صفاتِه تَصريحًا واضِحًا، ولِقَصدِ التَّنويهِ بالخبَرِ إذ افتُتِح بهذا الاسمِ. وجيء بالمسنَدِ فِعليًّا ﴿خَلَقَكُمْ﴾؛ لإفادةِ تَخصيصِ المسنَدِ إليه بالمسنَدِ الفِعليِّ في الإثباتِ[3].

- قولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ فيه خُصَّ آخِرُ العُمُرِ بالرَّذيلةِ، وإن كانت حالُ الطُّفُوليَّةِ كذلك؛ مِن حيثُ كانت هذه لا رجاءَ بعدها لإصلاحِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١١).

فسدَ، والطُّفُوليَّةُ حالةٌ يُنتَقَلُ منها إلى القُوَّةِ، وإدراكِ الأشياءِ(١).

- قولُه: ﴿بَعْدَ عِلْمٍ﴾ تَنكيرُ (عِلْمٍ) هنا تنكيرُ الجنسِ، أي: لِكَيلا يَعلَمَ شَيئًا بعدَ أن كان له عِلمٌ، أي: لِيَزولَ منه قَبولُ العِلمِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تذييلٌ؛ تنبيهًا على أنَّ المقصودَ مِن الجملةِ الدَّلالةُ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ وعِظَمِ عِلمِه، وقدَّم وصْفَ (العَليمِ)؛ لأنَّ القُدرَةَ تتعلَّقُ على وَفْقِ العِلمِ، وبمِقْدارِ سَعةِ العلمِ يكونُ عِظمُ القُدرةِ؛ فضَعيفُ القُدرةِ يَنالُه تعَبٌ مِن قوَّةِ عِلمِه؛ لأنَّ هِمَّتَه تَدْعوه إلى ما لَيس بالنَّائلِ(٣).

- وقال هنا في سورةِ (النَّحلِ): ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، وقال في سورةِ (الحجِّ): ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]، فاختَصَّتِ الآيةُ الَّتي في سورةِ (الحجِّ) بـ (من)، وخَلَتْ منها الآيةُ في سورةِ (النَّحلِ)، وفي ذلك مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ ووَجهُها: أنَّه حذف (من) في قوله: ﴿بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ لأنه أَجملَ الكلامَ في هذه السورةِ، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، وفصَّله في (الحجِّ) فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ فاقتضى الإجمالُ الحذفَ، والتفصيلُ الإثباتَ، فجاءَ في كلِّ سورةٍ ما اقتضاه الحالُ(٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٠٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢١٣).
(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٥)، ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾

- أسنَد التَّفضيلَ في الرِّزقِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ أسبابَه خارِجةٌ عن إحاطةِ عُقولِ البشَرِ. وتُفيدُ وَراءَ الاستِدْلالِ مَعْنى الامْتِنانِ؛ لاقتِضائِها حُصولَ الرِّزقِ للجَميعِ؛ فجُملةُ ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ مُقدِّمةٌ للدَّليلِ، ومِنَّةٌ مِن المنِنِ، وقد تمَّ الاستدلالُ عندَ قولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ بطَريقةِ الإيجازِ، وفُرِّع على هذه الجملةِ بالفاءِ على وجهِ الإدماجِ قولُه تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾، وهو إدماجٌ جاء على وجهِ التَّمثيلِ؛ لِتبيانِ ضَلالِ أهلِ الشِّركِ حينَ سَوَّوْا بعضَ المخلوقاتِ بالخالقِ، فأشرَكوها في الإلهيَّةِ فَسادًا في تَفكيرِهم، فمَثَّل بُطلانَ عَقيدةِ الإشراكِ باللهِ بعضَ مَخلوقاتِه بحالةِ أهلِ النِّعمةِ المرزوقينَ؛ لأنَّهم لا يَرضَون أن يُشرِكوا عَبيدَهم معَهم في فَضلِ رِزقِهم، فكيف يُسوُّون باللهِ عَبيدَه في صِفَتِه العُظْمى، وهي الإلهيَّةُ؟! ورَشاقةُ هذا الاستِدْلالِ أنَّ الحالَتَينِ المشبَّهَتينِ والمشبَّهَ بهِما حالَتا مَولًى وعَبدٍ. والغرَضُ مِن التَّمثيلِ تَشنيعُ مَقالتِهم واستِحالةُ صِدقِها بحسَبِ العُرفِ، ثمَّ زيادةُ التَّشنيعِ بأنَّهم رضُوا للهِ ما لا يَرضَونه لأنفُسِهم. وقَرينةُ التَّمثيلِ والمقصِدُ منه دَلالةُ المقامِ(١).

التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٤-٨٥٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦١-١٦٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٢-٣٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٤- ٢١٥).

- قولُه: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ في إيثارِ الجملةِ الاسميَّةِ: دَلالةٌ على استِمْرارِهم على عدَمِ الرَّدِّ(١).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾؛ للدَّلالةِ على ترتيبِ التَّساوي على الرَّدِّ، أي: لا يَرُدُّونه عليهم ردًّا مُستتبِعًا للتَّساوي، وإنَّما يَرُدُّون عليهم مِنه شيئًا يسيرًا(٢).

- وفُرِّعت جملةُ ﴿فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ على جُملةِ ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾، أي: لا يُشاطِرون عَبيدَهم رِزقَهم فيَستَوُوا فيه، أي: لا يقَعُ ذلك فيقَعَ هذا؛ فمَوقِعُ هذه الجملةِ الاسميَّةِ شَبيهٌ بمَوقِعِ الفعلِ بعدَ فاءِ السَّببيَّةِ في جوابِ النَّفيِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ عُدِّي فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ؛ لِتَضَمُّنِه معنى (يَكْفُرون)، وتكونُ الباءُ لِتوكيدِ تَعلُّقِ الفعلِ بالمفعولِ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]. وتقديمُ (بنِعْمةِ اللهِ) على مُتعلَّقِه وهو ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ(٤).

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فيه وضعُ الظَّاهرِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٥- ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤).

﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ موضِعَ المضمَرِ (مِنهنَّ)؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ: جَعَلَ لكلٍّ منكم مِن زوجِه لا مِن زوجٍ غيرِه(١).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ فيه تأخيرُ المنصوبِ في الموضِعَينِ (أزواجًا - بَنينَ) عن المجرورِ (مِنْ أَنْفُسِكُمْ - مِنْ أَزْواجِكُمْ)؛ للتَّشويقِ وللاهتمامِ. وتَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المجرورِ بـ (مِن)؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بعَودِ مَنفَعةِ الجَعْلِ إليهِم، إمدادًا للتَّشويقِ، وتَقْويةً له(٢).

- قولُه: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ على إيمانِهم بالباطِلِ(٣).

- وفيه تقديمُ الصِّلةِ ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ﴾ على الفعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ، أو لإيهامِ الاختِصاصِ؛ مُبالَغةً، أو لِرعايةِ الفَواصِلِ(٤).

- وقولُه: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ عن الخطابِ السَّابقِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ بأنَّ حالَهم استَوْجَبت الإعراضَ عنهم، وصَرَفَ الخِطابَ إلى غيرِهم مِن السَّامِعينَ؛ تَعجُّبًا لهم ممَّا فعَلوه؛ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن الاستدلالِ المشرِكين، فكانوا مَوضِعَ التَّوبيخِ: ناسَب أن يُعرِضَ عن خِطابِهم، ويَنالَهم المقصودُ مِن التَّوبيخِ بالتَّعريضِ(٥). وعلى

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن

قراءةِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالتَّاءِ؛ فهو خِطابُ إنكارٍ وتقريعٍ لهم، والجملةُ بعدَ ذلك مُجرَّدُ إخبارٍ عنهم(١).

- وقولُه تعالى: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ التَّوبيخِ، وهو توبيخٌ مُتوجِّهٌ على ما تَضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مِن الامْتِنانِ بذَلك الخَلْقِ والرِّزقِ بعدَ كونِهما دَليلًا على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ(٢).

- وضميرُ الغَيبةِ ﴿هُمْ﴾ في قولِه: ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ضميرُ فَصلٍ؛ لتأكيدِ الحُكمِ بكُفرانِهم النِّعمةَ؛ لأنَّ كُفرانَ النِّعمةِ أخْفَى مِن الإيمانِ بالباطلِ؛ لأنَّ الكُفْرانَ يتَعلَّقُ بحالاتِ القلبِ، فاجتَمع في هذه الجملةِ تأكيدانِ: التَّأكيدُ الَّذي أفادَه التَّقديمُ، والتَّأكيدُ الَّذي أفادَه ضميرُ الفصلِ(٣).

- والإتيانُ بالمضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكريرِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (العنكبوتِ): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧]؛ فزِيدَ في الآيةِ مِن سورةِ (النَّحلِ) ﴿هُمْ﴾، وخلَتْ مِنها الآيةُ مِن سورةِ

عاشور)) (١٤/ ٢١٦، ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢١).

(العنكَبوتِ)؛ ووجهُ ذلك: أَنَّ فى هذه السورةِ اتَّصل الخطابُ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ ثم عاد إلى الغَيبةِ فقال: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴾ فلا بدَّ مِن تقييده بهم؛ لئلا يلتبسَ الغَيْبَةُ بالخطابِ والتاءُ بالياءِ، وما فى العنكبوت اتَّصل بآياتٍ استمرَّت على الغَيبةِ، فلم يحتجْ إلى تقييدِه بالضميرِ(١).



(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٨٦). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٥٧-٨٥٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:١٦٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٣-٣٠٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٩).

الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَبْكَمُ﴾: هو الذي يُولَدُ أخرَسَ، فالخرسُ ملازمٌ له منذُ ولادتِه، وكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، والبَكَمُ: آفَةٌ في اللِّسانِ مانِعةٌ من الكلامِ[1].

﴿كَلٌّ﴾: أي: ثقيلٌ، عالةٌ على غيرِه، وأصلُه مِن الغِلَظِ الذي هو نَقيضُ الحِدَّةِ، يقالُ: كَلَّ السِّكينُ كُلولًا: إذا غَلُظَت شَفْرتُه فلم يَقطَعْ[2].

﴿كَلَمْحِ﴾: اللمحُ: النظرُ بسرعةٍ، واللَّمْحُ أيضًا: لمعانُ البرقِ، وأصلُ (لمح):

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٩).

يدلُّ على لمعِ شيءٍ[(١)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

﴿شَيۡـٔٗا﴾: في نَصْبِه ثلاثةُ أوجُهٍ، أحدُها: أنَّه نائبٌ عن المَصدَرِ منصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، أي: ما لا يَملِكُ لهم شَيئًا مِن المِلكِ، لا قليلًا ولا كثيرًا. والثاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ ﴿رِزۡقٗا﴾ أي: ما لا يملِكُ لهم أن يَرزُقَهم شيئًا. الثالث: أنَّه مَنصوبٌ على البَدَليَّةِ مِن ﴿رِزۡقٗا﴾، أي: ما لا يَملِكُ لهم شيئًا مِن الرِّزقِ[(٢)].

المَعنى الإجْماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ المُشرِكينَ يَعبُدُون أصنامًا لا تَملِكُ أن تُعطيَهم شيئًا مِن الرِّزقِ؛ لا مِن السَّماءِ كالمطَرِ، ولا مِن الأرضِ كالزَّرعِ، ولا يَقدِرونَ على شَيءٍ، فهذه صفةُ آلهتِهم، فكيف يعبدونَها مع اللهِ؛ لذا قال سبحانه: فلا تجعَلوا -أيُّها النَّاسُ- لله أندادًا وأمثالًا مِن خَلْقِه، تُشرِكونَهم معه في العبادةِ، إنَّ اللهَ يَعلَمُ، وأنتم لا تَعلَمونَ.

ثُمَّ ساق الله تعالى مثلينِ يدُلَّانِ على وحدانيتِه وقدرتِه، وعلى بُطلانِ الشِّركِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٦٦)، ((شرح ألفية ابن مالك)) للشاطبي (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٥٥).

فقال تعالى مبيِّنًا المثلَ الأوَّلَ: ضرَبَ اللهُ مثَلًا عبدًا مَملوكًا لا يَملِكُ شيئًا، ورجلًا آخَرَ حُرًّا، له مالٌ حَلالٌ رزَقَه اللهُ إيَّاه، يَملِكُ التصَرُّفَ فيه، ويُعطي منه في السِّرِّ والعَلَنِ، فهل يستوي هذان الرَّجُلانِ؟ فكذلك اللهُ الخالِقُ المالِكُ المتصَرِّفُ؛ لا يَستوي مع خَلقِه وعَبيدِه، فكيف تُسَوُّونَ بينهما؟! الحمدُ للهِ وَحدَه؛ فهو المُستَحِقُّ للحَمدِ والثَّناءِ، بل أكثَرُ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ والحَمدِ.

ثم قال تعالى مبيِّنًا المثلَ الثاني: وضرَبَ اللهُ مثَلًا آخَرَ: رَجُلينِ: أحدُهما أخرَسُ أصَمُّ لا يَعقِلُ ولا يَقدِرُ على مَنفعةِ نَفسِه أو غيرِه، وهو عِبءٌ ثقيلٌ على مَن يَلي أمْرَه ويَعولُه، إذا أرسَلَه مولاه لقضاءِ أمرٍ، لا ينجَحُ، ولا يعودُ عليه بخَيرٍ؛ ورجُلٌ آخَرُ سَليمُ الحَواسِّ، يَنفَعُ نَفسَه وغَيرَه، يأمُرُ بالإنصافِ، وهو على طريقٍ واضحٍ لا عِوَجَ فيه، فهل يستوي هذان الرَّجُلانِ؟! فكيف تُسَوُّون بين الصَّنَمِ الأبكَمِ الأصمِّ وبين اللهِ القادِرِ القائِمِ بالقِسطِ، المُنعِمِ بكُلِّ خَيرٍ؟!

ولله سُبحانَه وتعالى عِلْمُ ما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ، وما أمرُ القيامةِ في سُرعةِ مَجيئِها إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ بالبَصَرِ، بل هو أسرَعُ من ذلك، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّها تَبيينٌ لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل:٧٢]، نعى عليهم فَسادَ نَظَرِهم في عبادةِ ما لا يُمكِنُ أن يقَعَ منه ما يَسعَى عابِدُه في تَحصيلِه منه، وهو

الرِّزقُ، ولا هو في استطاعتِه(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شَرَح الدَّلائِلَ الدَّالَّةَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ، وأتبَعَها بذِكرِ أقسامِ النِّعَمِ العَظيمةِ؛ أتبَعَها بالرَّدِّ على عَبَدةِ الأصنامِ(٢).

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ أصنامًا ومَعبوداتٍ لا تَملِكُ أن تَرزُقَهم شَيئًا؛ لا مَطَرًا مِن السَّماءِ ولا نباتًا مِنَ الأرضِ(٣).

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ الأصنامُ والمَعبوداتُ مِن دُونِ اللهِ أن تَرزُقَ عابِديها شَيئًا؛ فليس لهم أيُّ نَوعٍ مِن أنواعِ الاستطاعةِ أصلًا(٤).

﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن بيَّنَ اللهُ تعالى ضَعفَ هذه المعبوداتِ الباطلةِ وعَجزَها؛ رتَّب على ذلك ما هو كالنتيجةِ له، فقال(٥):

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٢٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٣).

قال السعدي: (غيرُ المالِكِ للشَّيءِ ربَّما كان له قُوَّةٌ واقتدارٌ على ما ينفَعُ مَن يتَّصِلُ به، وهؤلاء لا يَملِكونَ ولا يَقدِرونَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٤/ ١١٤).

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: فلا تَجعَلوا لله أندادًا وأمثالًا مِن مَخلوقاتِه؛ فإنَّه سُبحانَه لا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ(١).

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أي: فلا تَضرِبوا لله الأمثالَ؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ حقائِقَ الأشياءِ، وأنَّه لا شريكَ له، ولا مثيلَ له، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِكم، وأنتم -أيُّها المُشرِكونَ- لا تَعلَمونَ ذلك، فتَقعونَ بجَهلِكم في الشِّركِ به سُبحانَه(٢).

ثم أكَّدَ اللهُ تعالى إبطالَ مَذهَبِ عَبَدةِ الأصنامِ بهذا المثالِ، فقال تعالى(٣):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٩٠).

قال ابن الجوزي: (في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أربعةُ أقوال: أحدها: يعلمُ ضربَ المثَلِ، وأنتم لا تعلمون ذلك، قاله ابن السَّائبِ. والثاني: يعلمُ أنَّه ليس له شريكٌ، وأنتم لا تعلمون أنَّه ليس له شريكٌ، قاله مقاتل. والثالث: يعلم خطأَ ما تضرِبون من الأمثال، وأنتم لا تعلمون صوابَ ذلك من خطَئِه. والرابع: يعلمُ ما كان ويكون، وأنتم لا تعلمونَ قَدْرَ عظَمَتِه حين أشركتُم به ونسبتُموه إلى العجزِ عن بعثِ خَلقِه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٦).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أي: بالمعلوماتِ التي مِن جُملَتِها كيف يَضرِبُ الأمثالَ، ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾؛ عَلَّمَهم سُبحانَه كيف تُضرَبُ الأمثالُ[1]، فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا﴾.

أي: بيَّن اللهُ مثلًا لنَفسِه -تعالى- وللأصنامِ؛ كعَبدٍ مَملوكٍ عاجزٍ، لا يَملِكُ شَيئًا، فلا يَقدِرُ على شيءٍ مِنَ المالِ، ولا مِن أمْرِ نَفْسِه ورجُلٍ حُرٍّ غَنيٍّ آتاه اللهُ رِزقًا واسِعًا طيِّبًا، يَملِكُ التصرُّفَ فيه، فيُنفِقُ منه دائمًا في السرِّ والعَلانِيَةِ؛ إحسانًا منه إلى الآخَرينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠) و (١٠/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

وممن اختار هذا المعنَى المذكورَ: ابنُ عطيةَ، والقرطبي، والبيضاوي، وابنُ تيميةَ، وابنُ جزي، وابنُ القيِّمِ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: مجاهدٌ، والسدي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

وقيل: المعنى: ضرَب الله مثلًا للكافرِ والمؤمنِ، فالكافرُ لا يعملُ بطاعةِ الله، ولا ينفقُ مِن مالِه شيئًا في سبيلِ الله، فلا خيرَ عندَه؛ لخِذلانِ الله له، كعبدٍ مملوكٍ ذليلٍ عاجزٍ، لا يقدرُ على شيءٍ فينفقه، والمؤمنُ العاملُ بطاعةِ الله، المنفقُ مالَه في سبيلِه كحرٍّ رزَقه الله رزقًا حسنًا فهو ينفقُ مِن مالِه سرًّا وعلانيةً. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٩).

﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾.

أي: هل يستوي العَبدُ والحُرُّ الموصوفان بما تقَدَّمَ مِن الصِّفاتِ؟ فكذلك اللهُ الذي له المُلْكُ وبيَدِه الرِّزقُ، المتصَرِّفُ في مُلكِه كما يشاءُ؛ لا يستوي مع المَعبوداتِ العاجزةِ التي لا تَملِكُ شيئًا، ولا قُدرةَ لها على شَيءٍ، وأنتم تتَّخِذونَها شُرَكاءَ لله تعالى في عبادتِه، فكيف تُسَوُّونَ بينهما[(١)]؟!

ومِمن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

قال ابن القيم: (فالمثَلُ الأوَّلُ ما ضربه الله سُبحانَه لنفسه وللأوثانِ؛ فالله سُبحانَه هو المالكُ لكُلِّ شيءٍ، ينفِقُ كيف يشاءُ على عبيده سرًّا وجهرًا وليلًا ونهارًا، يمينُه ملأى لا يغيضُها نفقةٌ، سحَّاءُ اللَّيلَ والنهارَ، والأوثانُ مملوكةٌ عاجِزةٌ لا تقدِرُ على شيءٍ، فكيف يجعلونَها شُرَكاءَ لي ويعبدونَها من دوني مع هذا التفاوُتِ العظيمِ والفَرقِ المُبين؟! هذا قول مجاهد وغيره. وقال ابن عباس: هو مثَلٌ ضربه الله للمؤمِنِ والكافر، ومَثَلُ المؤمن في الخير الذي عنده، ثمَّ رزَقَه منه رزقًا حسنًا، فهو ينفِقُ منه على نفسِه وعلى غيره سرًّا وجهرًا، والكافِرُ بمنزلة عبدٍ مملوكٍ عاجزٍ، لا يقدِرُ على شيءٍ؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحدٍ مِن العقلاء؟! والقولُ الأولُ أشبه بالمراد؛ فإنَّه أظهَرُ في بطلان الشرك، وأوضَحُ عند المخاطب، وأعظَمُ في إقامة الحُجَّة، وأقربُ نسبًا بقوله: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ * فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾، ومن لوازم هذا المثَلِ وأحكامِه: أن يكون المؤمنُ الموحِّدُ كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافرُ المشرِكُ كالعبد المملوك الذي لا يقدِرُ على شيءٍ، فهذا مما نبَّه عليه المثَلُ وأرشد إليه، فذكره ابن عباسٍ منبِّهًا على إرادته، لا أنَّ الآية اختصَّت به، فتأمَّلْه؛ فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عباس وغيرِه من السَّلفِ في فهم القرآن، فيُظَنُّ أنَّ ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيرُه، فيحكيه قوله). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣).

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٢).

وعلى المعنى الآخرِ للآيةِ يكونُ معنى قولِه تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾: فكذلك لا يستوي

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: الحَمدُ الكامِلُ الخالِصُ لله المُنعِمِ المُستَحِقِّ لعبادةِ خَلقِه وشُكرِهم، دونَ ما يُعبَدُ مِن دُونِه؛ إذ لا نِعمةَ لتلك المَعبوداتِ على أحدٍ حتى تُحمَدَ عليها، ولكنَّ أكثَرَ(١) المُشرِكينَ لا يَعلمونَ أنَّ الله وَحْدَه هو المُستحِقُّ للعبادةِ والشُّكرِ؛ فهم يَعبُدونَ ويَحمَدونَ غَيرَه لجَهلِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾.

أي: وضرَبَ اللهُ لكم مثلًا لنَفسِه -تعالى- وللأصنامِ التي تُعبَدُ مِن دونِه؛

الكافرُ العاملُ بمعاصي الله، المخالفُ أمرَه، والمؤمنُ العاملُ بطاعتِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٧).

(١) قال القرطبي: (ذكَرَ الأكثَرَ وهو يريدُ الجميع، فهو خاصٌّ أريدَ به التَّعميمُ. وقيل: أي: بل أكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ وذلك أنَّ أكثَرَهم المُشرِكون). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (١٤/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٨).

كرَجُلَينِ أحَدُهما لا يَنطِقُ، ولا يَسمَعُ، ولا يَعقِلُ، عاجِزٌ لا يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن جَلبِ نَفعٍ، أو دَفْعِ ضُرٍّ، فكذلك الأصنامُ لا تَسمَعُ، ولا تَنطِقُ، ولا تَعقِلُ شَيئًا؛ فهي مصنوعةٌ مِن خَشَبٍ ونُحاسٍ وغَيرِ ذلك[1].

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾.

أي: وهو مع عدَمِ نُطقِه وعَجزِه ثَقيلٌ على مَن يلي أمْرَه ويَعولُه، فكذلك الصَّنَمُ ذو كُلفةٍ ومَشَقَّةٍ على من يَعبُدُه؛ حيثُ يَقومُ بحَملِه، ووَضْعِه، وخِدْمتِه[2].

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

أي: أينما يُرسِلْه مَولاه في عمَلٍ لِيَعمَلَه لا ينجَحْ فيه، فهو لا يأتي بخَيرٍ، ولا يَقضي حاجةً؛ لعَجزِه وعدَمِ فَهمِه لِما يُقالُ له، وعَدَمِ قُدرتِه على التَّعبيرِ عمَّا يُريدُ؛ فكذلك الصَّنَمُ لا يَعقِلُ ما يُقالُ له، ولا يَنطِقُ بشَيءٍ، فلا يأتي بخيرٍ، أو يقضي حاجةً[3].

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: هل يستوي هذا الأبكَمُ الكَلُّ على مَولاه الذي لا يأتي بخيرٍ حيثما توجَّهَ، ومَن هو ناطقٌ متكلِّمٌ قادِرٌ يأمُرُ بالحقِّ والقِسطِ، ويدعو إليه، وهو في نفسِه -مع ما ذُكِرَ مِن نَفعِه العامِّ- على طريقِ الحقِّ لا يَنحَرِفُ عنه، عامِلٌ بما يأمُرُ به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٤٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٨، ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٨).

ويدعو إليه، ولا يتوجَّهُ إلى مطلَبٍ إلَّا ويبلُغُه بأقرَبِ سَعيٍ وأسهَلِه، فهو عادِلٌ في أقوالِه، مُستقيمٌ في أفعالِه؟! فإذا امتنَعَ التَّساوي بين هذين الصِّنفَينِ المَذكورَينِ، فكذلك يمتنِعُ التَّساوي بينَ الله سُبحانَه العادِلِ الذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو قائِمٌ بالقِسطِ على صراطٍ مُستقيمٍ، وبينَ ما يَجعَلونَه شُرَكاءَ له[(١)].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ في الآيةِ الأولى مَثَلَ الكُفَّارِ بالأبكَمِ العاجِزِ، ومَثَلَ نَفسِه تعالى بالذي يأمُرُ بالعَدلِ، وهو على صِراطٍ مُستقيمٍ، ومعلومٌ أنَّه يَمتَنِعُ أن يكونَ آمِرًا بالعَدلِ، وأن يكونَ على صراطٍ مُستقيمٍ إلَّا إذا كان كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ- ذكَرَ في هذه الآيةِ بَيانَ كَونِه كامِلًا في العِلمِ والقُدرةِ[(٢)].

وأيضًا لَمَّا تمَّ هذانِ المَثَلانِ الدَّالَّانِ على تَمامِ عِلمِه وشُمولِ قُدرتِه؛ عطَفَ على قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ التصريحَ بتمامِ عِلمِه، وشُمولِ قُدرتِه[(٣)]، فقال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ ما غاب عن عِبادِه في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العالِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠)، (١٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٠).

بكُلِّ شَيءٍ مِن الغُيوبِ سُبحانَه، دونَ الآلهةِ التي تُعبَدُ مِن دُونِه، ودونَ كُلِّ مَن سواه، لا يَملِكُ ذلك أحَدٌ غيرُه، ولا اطِّلاعَ لأحدٍ على شَيءٍ مِن الغَيبِ إلَّا أن يُطلِعَه اللهُ عليه[1].

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾.

أي: وما أمرُ قيامِ السَّاعةِ في سُرعةِ وُجودِها، وبَعثِ الخَلقِ وسُهولتِه إلَّا كنَظرةٍ سَريعةٍ مِن البَصَرِ[2] أو[3] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٢) قال ابن كثير: (أي: فيكونُ ما يريدُ كطَرفِ العَينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٨٩).

(٣) قال الواحدي: (معنى «أَوْ» في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ أنَّ أمْرَها يكونُ على إحدى مَنزِلَتينِ: إمَّا لَمحِ البَصرِ، وإمَّا أقرَبَ، فأدخَلَ «أَوْ» لشَكِّ المُخاطَبِ؛ أي: كونُوا في تقديرِ سُرعةِ كَونِها على هذا الشَّكِّ، وهذا معنى قولِ قُطرُب: أراد أن يطوِيَه عنَّا، وقيل: إنَّ «أَوْ» هاهنا بمنزلةِ «بل»). ((البسيط)) (١٣/ ١٥١).

وقال الألوسي: (قال ابنُ عطيةَ: هي للشكِّ على بابِها، على معنى أنَّه لو اتفقَ أن يقفَ على أمرِها شخصٌ مِن البشرِ لكانت مِن السرعةِ بحيثُ يشكُّ هل هو كلمحِ البصرِ أو أقربُ. وتعقَّبه في «البحر» أيضًا بأنَّ الشكَّ بعيدٌ؛ لأنَّ هذا إخبارٌ مِن الله تعالى عن أمرِ الساعةِ، والشكُّ مستحيلٌ عليه سُبحانَه، أي: فلا بدَّ أن يكونَ ذلك بالنسبةِ إلى غيرِ المتكلِّم، وفي ارتكابِه بعدٌ، ويدلُّ على أنَّ هذا مرادُه تعليلُه البعدَ بالاستحالةِ، فليس اعتراضُه مما يقضي منه العجبُ كما توهَّم. وقال الزجَّاج: هي للإبهامِ. وتُعُقِّب بأنَّه لا فائدةَ في إبهامِ أمرِها في السرعةِ، وإنَّما الفائدةُ في إبهامِ وقتِ مجيئِها. وأُجيب بأنَّ المرادَ أنَّه يستبهمُ على مَن يشاهدُ سرعتَها هل هي كلمحِ البصرِ أو أقل، فتدبر. والمأثورُ عن ابنِ جريجٍ أنَّها بمعنى «بل»، وعليه كثيرون). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٣).

ومما يُقوِّي القولَ بأنَّها على بابِها للشكِّ أنَّ العربَ تُخرجُ الكلامَ المتيقَّنَ في صورةِ المشكوكِ لأغراضٍ متعددةٍ، منها: أن يكونَ ذلك بناءً على تصوُّرِ المخاطَبِ وظنِّه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٦).

هي أسرَعُ مِن ذلك[١].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، ولا يُعجِزُه شَيءٌ، ومن ذلك قدرتُه على إقامةِ السَّاعةِ، والمجيءِ بها في أسرعِ ما يكونُ؛ فهو سبحانَه يقولُ للشَّيءِ: كُنْ. فيَكونُ[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ الفائِدةُ في لَفظةِ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أنَّ مَن لا يَملِكُ شَيئًا قد يكونُ مَوصوفًا باستطاعةٍ أن يتَمَلَّكَه بطريقٍ مِن الطُّرُقِ، فبَيَّنَ تعالى أنَّ هذه الأصنامَ لا تَملِكُ، وليس لها أيضًا استطاعةُ تَحصيلِ المُلْك وذلك على أحدِ أوجُهِ التَّفسيرِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ فلا يَحِلُّ لأحدٍ أن يعتَقِدَ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى مُماثِلٌ لأحدٍ مِن المَخلوقينَ؛ ولا أنَّ أحدًا مُماثِلٌ للهِ تعالى[٤].

٣- التَّعبيرُ بنَفيِ التَّمثيلِ -في الأسماءِ والصِّفاتِ- أَولى مِن التَّعبيرِ بنَفيِ التَّشبيهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٥- ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((شرح كتاب الحج من صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٢/ ٤٢).

وذلك لأمورٍ:

أولًا: أنَّه المُوافِقُ لِلَفظِ القُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، و﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾، ولم يَقُلْ: «ليس كشِبْهِه شَيءٌ»، ولا قال: «فلا تَضرِبوا للهِ الأشباهَ».

ثانيًا: أنَّ التَّشبيهَ صار وصْفًا يختَلِفُ النَّاسُ في فَهمِه؛ فعند بَعضِ النَّاسِ إثباتُ الصِّفاتِ يُسمَّى تَشبيهًا، ويُسَمُّونَ مَن أثبَتَ صِفةً لله مُشَبِّهًا!

ثالثًا: أنَّ نَفيَ التَّشبيهِ على الإطلاقِ بين صِفاتِ الخالِقِ وصِفاتِ المَخلوقِ لا يَصِحُّ؛ لأنَّه ما مِن صِفَتينِ ثابِتَتينِ إلَّا وبينهما اشتِراكٌ في أصلِ المعنى، وهذا الاشتِراكُ نَوعٌ مِن المُشابَهةِ؛ فالعِلمُ مثلًا: للإنسانِ عِلمٌ، وللرَّبِّ سُبحانَه عِلمٌ، فاشتَرَكا في أصلِ المعنى، لكِنْ لا يَستَويانِ، أمَّا التَّمثيلُ فيَصِحُّ أن تنفيَه نَفيًا مُطلقًا[1]!

٤- قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قَولُه: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ إنَّما جُمِعَ الضَّميرُ وإن تقَدَّمَه اثنانِ؛ لأنَّ المُرادَ: جِنسُ العَبيدِ والأحرارِ المدلولِ عليهما بـ ﴿عَبْدًا﴾ وبـ (مَنْ رَزَقْنَاهُ). وقيل: على الأغنياءِ والفُقَراءِ المدلولِ عليهما بهما أيضًا. وقيل: اعتبارًا بمعنى ﴿مَنْ﴾ فإنَّ معناها جمعٌ، فراعَى معناها بعدَ أنْ راعى لَفظَها[2]. وقيل: جَمَعَه نظرًا إلى أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٨٠)، ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١١).

مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ لَمَّا كان الجوابُ قَطعًا: لا، وعُلِمَ أنَّ الفاضِلَ ما كان مِثالًا له سُبحانَه؛ عُلِمَ أنَّ مَن سَوَّى بينهما أو فعَلَ ما يَؤُولُ إلى التَّسويةِ أجهَلُ الجَهَلةِ، فثَبَت مَضمونُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأنَّ غيرَه تعالى لا يُساوي شيئًا، فثَبَت بلا رَيبٍ أنَّه المختَصُّ بالمَثَلِ الأعلى، فعبَّرَ عن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ جُعِلَ نفيُ صفةِ الكَلامِ مُوجِبًا لبُطلانِ الإلهيَّةِ، وهذا أمرٌ معلومٌ بالفِطَرِ والعُقولِ السَّليمةِ والكُتُبِ: أنَّ فاقِدَ صِفاتِ الكَمالِ لا يكونُ إلهًا، ولا مُدَبِّرًا، ولا ربًّا، بل هو مَذمومٌ مَعيبٌ ناقِصٌ، ليس له الحَمدُ لا في الأُولى، ولا في الآخرةِ، وإنَّما الحَمدُ في الأُولى والآخِرةِ لِمَن له صِفاتُ الكَمالِ، ونُعوتُ الجَلالِ، التي لأجلِها استحَقَّ الحَمدَ[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بيَّنَ أنَّ التَّفضيلَ إنَّما يكونُ بالكَلامِ المتضَمِّنِ للعَدلِ، وبالعَمَلِ المُستقيمِ، وإلَّا فإنَّ مجرَّدَ الكلامِ والعَمَلِ قد يكونُ مَحمودًا، وقد يكونُ مَذمومًا؛ فالمحمودُ هو الذي يَستَحِقُّ صاحِبُه الحمدَ، فلا يستوي هذا والعاجزَ عن الكَلامِ والفِعلِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ السَّاعةُ هي الوَقتُ الذي تقومُ فيه القيامةُ، سُمِّيَت ساعةً؛ لأنَّها تَفجَأُ الإنسانَ في ساعةٍ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢١٦).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٠).

فيَموتُ الخَلقُ بصَيحةٍ واحدةٍ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عَطفٌ على جُملتَيِ التَّوبيخِ، وهو مَزيدٌ مِن التَّوبيخِ؛ فإنَّ الجُملَتَينِ المعطوفَ عليهِما أفادَتا تَوبيخًا على إيمانِهم بالآلهةِ الباطلةِ، وكُفرِهم بنِعْمةِ المعبودِ الحقِّ، وهذه الجُملةُ المعطوفةُ أفادَتِ التَّوبيخَ على شُكرِ ما لا يَستحِقُّ الشُّكرَ؛ فإنَّ العبادةَ شُكرٌ، فهُم عبَدوا ما لا يَستحِقُّ العبادةَ، ولا بيَدِه نِعمةٌ، وهو الأصنامُ؛ لأنَّها لا تَملِكُ ما يَأتيهم مِن الرِّزقِ لاحْتِياجِها، ولا تَستطيعُ رِزقَهم لِعَجزِها؛ فمُفادُ هذه الجملةِ مُؤكِّدٌ لِمُفادِ ما قَبلَها مع اختِلافِ الاعتبارِ بمُوجِبِ التَّوبيخِ في كِلْتَيهِما[2].

- قولُه: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الأصنامِ بصيغةِ ﴿مَا﴾ وهي لغيرِ أُولي العِلمِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والجمعُ بالواوِ والنُّونِ مُختصٌّ بأُولي العلمِ؛ وذلك لأنَّه عبَّر عنها بلفظِ ﴿مَا﴾؛ اعتِبارًا لِمَا هو الحقيقةُ في نفسِ الأمرِ، وذكَر الجمعَ بالواوِ والنُّونِ اعتِبارًا لِمَا يَعتقِدون فيها أنَّها آلهةٌ؛ فأُجرِيَتْ عليها صيغةُ جمعِ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً لاعتِقادِهم أنَّها تَعقِلُ وتَشفَعُ وتَستجيبُ[3].

- وأفرَد ﴿يَمْلِكُ﴾ نَظرًا إلى لفظِ ﴿مَا﴾، وجَمَع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ نَظرًا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

مَعناها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[1] [الزخرف: ١٢-١٣].

- وقولُه: ﴿شَيْـًٔا﴾ مُبالَغةٌ في المنفيِّ، أي: ولا يَملِكون جُزءًا قَليلًا مِن الرِّزقِ[2].

- قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ عطفًا على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، وأن يكونَ مُستأنفًا للإخبارِ عن حالِ الآلهةِ، ومفعولُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ محذوفٌ، هو ضميرُ المِلْكِ، أي: لا يستطيعون أن يملِكوا ذلك ولا يُمكِنُهم، فالكلامُ تتميمٌ لسابِقِه، وفيه من الترقِّي ما فيه، فلا يكونُ نفيُ استطاعةِ المِلكِ بعد نفيِ مِلكِ الرِّزقِ غيرَ مُحتاجٍ إليه.

وإن جُعِلَ المفعولُ ضَميرَ الرِّزقِ يكونُ هذا النفيُ تأكيدًا لِما قبلَه.

وقيل: حُذِف مفعولُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ لقَصدِ التَّعْمِيم، أي: لا يستطيعونَ شَيئًا. ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ مُنزَّلًا منزلةَ اللازمِ، فيكونَ المرادُ نفيَ الاستطاعةِ عنهم مطلقًا، فالمعنى أنَّهم أمواتٌ لا قُدرةَ لهم أصلًا، فيكونَ تذييلًا للكلامِ السَّابقِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تفريعٌ على جميعِ ما سبَق مِن الآياتِ والعِبَرِ والمِنَنِ؛ إذْ قد استَقامَ مِن جَميعِها انفرادُ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، ونَفيُ الشَّريكِ له فيما خلَق وأنعَم، وبالأولَى نفيُ أن يكونَ له ولَدٌ؛ فلا جَرَمَ استَتَبَّ للمَقامِ أن يُفرَّعَ على ذلك زجرُ المشرِكين عن تَمثيلِهم غيرَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص٣١٠)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

اللهِ باللهِ في شيءٍ مِن ذلك، وأن يُمثِّلوه بالموجوداتِ[1].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ...﴾ الْتِفاتٌ إلى الخِطابِ؛ للإيذانِ بالاهتمامِ بشَأنِ النَّهيِ، أي: لا تُشرِكوا به شيئًا. والتَّعبيرُ عن ذلك بضَربِ المثَلِ؛ للقَصدِ إلى النَّهيِ عن الإشراكِ به تعالى في شأنٍ مِن الشُّؤونِ؛ فإنَّ ضرْبَ المثَلِ مَبْناه تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ، وقِصَّةٍ بقِصَّةٍ، أي: لا تُشبِّهوا بشأنِه تعالى شأنًا مِن الشُّؤونِ[2].

- قولُه: ﴿فَلَا﴾ الفاءُ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ النَّهيِ على ما عَدَّد مِن النِّعَمِ الفائضةِ عليهم مِن جِهَتِه سُبحانَه[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ المذكورِ، وهو النَّهيُ عن الشِّركِ، ووعيدٌ على المنهيِّ عنه، وتنبيه على أنَّ جهلَهم هو الذي أوقَعهم في تلك السخافاتِ مِن العقائدِ، وأنَّ الله إذ نهاهم وزجَرهم عن أن يشبِّهوه بما شبَّهوه إنَّما نهاهم لعلمِه ببطلانِ اعتقادِهم[4]. ويجوزُ أن يُرادَ: فلا تَضرِبوا للهِ الأمثالَ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ كيف يَضرِبُ الأمثالَ، وأنتُم لا تَعلَمون[5]. وقيل غيرُ ذلك.

٣- قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أعقب زَجْرَهم عن أن يُشبِّهوا اللهَ بخَلقِه، أو أن يُشبِّهوا الخلقَ بربِّهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

بتمثيلِ حالِهم في ذلك بحالِ مَن مَثَّل عبدًا بسيِّدِه في الإنفاقِ، فجُملةُ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، فشبَّه حالَ أصنامِهم في العجزِ عن رزقِهم بحالِ مملوكٍ لا يَقدِرُ على تصرُّفٍ في نفسِه، ولا يَملِكُ مالًا، وشبَّه شأنَ اللهِ تعالى في رزقِه إيَّاهم بحالِ الغَنيِّ المالِكِ أمْرَ نفسِه بما شاء مِن إنفاقٍ وغيرِه، ومعرفةُ الحالَين المشبَّهتَين يَدُلُّ عليها المَقامُ، والمقصودُ نفيُ المماثَلةِ بينَ الحالَتَينِ، فكيف يَزعُمون مُماثَلةَ أصنامِهم للهِ تعالى في الإلهيَّةِ؟! ولذلك أُعقِب بجُملةِ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾، وذيَّل هذا التَّمثيلَ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ فائدةُ ذِكْرِه ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ بعدَ قولِه: ﴿عَبۡدٗا﴾ الاحترازُ عن الحُرِّ؛ فإنَّه عبدٌ للهِ تعالى، وليس مَملوكًا لغيرِه، وفائدةُ ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ بعدَ قولِه: ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ الاحترازُ عن المأذونِ له، والمكاتَبِ؛ لقُدرتِهما على التَّصرُّفِ استِقلالًا[2]؛ فوصَف ﴿عَبۡدٗا﴾ هنا بقولِه: ﴿مَّمۡلُوكٗا﴾ تأكيدًا للمَعْنى المقصودِ، وإشعارًا لِمَا في لفظِ (عبدٍ) مِن معنى المملوكيَّةِ المقتضِيَةِ أنَّه لا يتصرَّفُ في عمَلِه تَصرُّفَ الحُرِّيَّةِ[3].

- قولُه: ﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى التَّكلُّمِ؛ للإشعارِ باختلافِ حالَيْ ضَرْبِ المثَلِ والرِّزقِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣- ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

- في قولِه: ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ الفاءُ لِتَرتيبِ الإنفاقِ على الرِّزقِ، كأنَّه قيل: ومَن رزَقْناه مِنَّا رِزقًا حسَنًا فأنفَق. وإيثارُ ما عليه النَّظْمُ الكريمُ مِن الجملةِ الاسميَّةِ الفعليَّةِ الخَبرِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الإنفاقِ، واستِمْرارِه التَّجدُّديِّ[(١)]. وفُرِّعَت جملةُ ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ على الَّتي قبلَها دونَ أن تُجعَلَ صِفةً للرِّزقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَضمونَ كِلْتا الجُملتَينِ مَقصودٌ لِذاتِه كَمالٌ في مَوصوفِه؛ فكَونُه صاحِبَ رِزقٍ حسَنٍ كَمالٌ، وكونُه يتَصرَّفُ في رزقِه بالإعطاءِ كمالٌ آخَرُ، وكِلاهُما بضِدِّ نَقائِصِ المملوكِ الَّذي لا يَقدِرُ على شيءٍ من الإنفاقِ، ولا ما يُنفَقُ مِنه. وجعَل المسنَدَ فِعلًا ﴿يُنفِقُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقوِّي، أي: يُنفِقُ إنفاقًا ثابتًا. وجعَل الفِعلَ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، أي: يُنفِقُ ويَزيدُ[(٢)].

- قولُه: ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ حالانِ من ضميرِ ﴿يُنفِقُ﴾، وهما مَصْدَرانِ مُؤوَّلانِ بالصِّفةِ، أي: مُسِرًّا وجاهِرًا بإنفاقِه، والمقصودُ مِن ذِكرِهما: تعميمُ الإنفاقِ، كنايةً عن استِقْلالِ التَّصرُّفِ، وعدَمِ الوِقايةِ مِن مانعٍ إيَّاه عن الإنفاقِ[(٣)].

- وفي قولِه: ﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ تقديمُ السِّرِّ على الجهرِ؛ للإيذانِ بفَضلِه عليه. والعُدولُ عن تَطبيقِ القَرينتَينِ بأن يُقالَ: (وحُرًّا مالِكًا للأموالِ) -مع كونِه أدَلَّ على تَبايُنِ الحالِ بينَه وبينَ قَسِيمِه- لِتَوخِّي تحقيقِ الحقِّ بأنَّ الأحرارَ أيضًا تحتَ رِبْقةِ عُبوديَّتِه سُبحانَه وتَعالى، وأنَّ مالِكيَّتَهم لِمَا يَملِكونه ليسَت إلَّا بأن يَرزُقَهم اللهُ تعالى إيَّاه مِن غيرِ أن يكونَ لهم مَدخَلٌ في ذلك[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٤- ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٢٩).

- وجملةُ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، فبيَّن غرَضَ التَّشبيهِ بأنَّ المثَلَ مُرادٌ منه عدَمُ تَساوي الحالَتَينِ؛ لِيَستدِلَّ به على عدَمِ مُساواةِ أصحابِ الحالةِ الأُولى لِصاحِبِ الصِّفةِ المشبَّهةِ بالحالةِ الثَّانيةِ. والاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[1].

- وجملةُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مُعترِضةٌ بينَ الاستِفْهامِ المفيدِ للنَّفيِ في ﴿هَلۡ يَسۡتَوُۥنَ﴾ وبينَ الإضرابِ بـ (بل) الانتقاليَّةِ في ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، والمقصودُ مِن هذه الجملةِ: أنَّه تبيَّن مِن المثَلِ اختِصاصُ اللهِ بالإنعامِ، فوجَب أن يَختَصَّ بالشُّكرِ، وأنَّ أصنامَهم لا تَستحِقُّ أن تُشكَرَ، وجيءَ بهذه الجملةِ البَليغةِ الدَّلالةِ، المفيدةِ انحِصارَ الحَمدِ في مُلكِ اللهِ تعالى، وهو إمَّا حَصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ الحمدَ إنَّما يَكونُ على نِعمةٍ، وغيرُ اللهِ إذا أنعَم فإنَّما إنعامُه مَظهَرٌ لِنِعمةِ اللهِ تعالى الَّتي جَرَتْ على يدَيْه، وإمَّا قصرٌ إضافيٌّ، قصرَ إفرادٍ للرَّدِّ على المشرِكين؛ إذ قسَّموا حَمْدَهم بيْنَ اللهِ وبينَ آلِهَتِهم[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فيه إسنادُ نَفْيِ العلمِ إلى أكثَرِهم؛ لأنَّ مِنهم مَن يَعلَمُ الحقَّ ويُكابِرُ؛ استِبْقاءً للسِّيادةِ، واستِجْلابًا لِطاعةِ دَهْمائِهم؛ فهذا ذَمٌّ لأكثَرِهم بالصَّراحةِ، وهو ذمٌّ لأقلِّهم بوَصْمةِ المكابَرةِ والعِنادِ بطَريقِ التَّعريضِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٦).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَمثيلٌ ثانٍ للحالَتَينِ بحالَتَينِ باختلافِ وجْهِ الشَّبَهِ، وقد قرَنَ في التَّمثيلِ هنا حالَ الرَّجُلَينِ ابتِداءً، ثمَّ فَصَّل في آخِرِ الكلامِ مع ذِكْرِ عدَمِ التَّسويةِ بينَهما بأسلوبٍ مِن نَظْمِ الكلامِ بَديعِ الإيجازِ؛ إذ حُذِف مِن صدْرِ التَّمثيلِ ذِكْرُ الرَّجلِ الثَّاني؛ للاقتصارِ على ذِكْرِه في استِنْتاجِ عدَمِ التَّسويةِ؛ تَفنُّنًا في المخالَفةِ بينَ أسلوبِ هذا التَّمثيلِ، وأسلوبِ سابِقِه الَّذي في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا...﴾، ومِثلُ هذا التَّفنُّنِ مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ؛ كَراهيةً للتَّكريرِ؛ لأنَّ تَكريرَ الأسلوبِ بمَنزِلةِ تَكريرِ الألفاظِ[١]. وقيل: ومُقابِلُه رجلٌ موصوفٌ بما يُقابِلُ تلك الصِّفاتِ مِن النُّطقِ والقدرةِ والكفايةِ، ولكنَّه حذَفَ المقابِلَ؛ لِدَلالةِ مُقابِلِه عليه[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللَّامُ فيه لامُ المِلْكِ، والإخبارُ بأنَّ الأشياءَ الخَفيَّةَ والعوالِمَ الَّتي لا تَصِلُ إلى مُشاهَدتِها حواسُّ المخلوقاتِ الأرضيَّةِ مِلكٌ للهِ؛ يَقتَضي بطَريقِ الكِنايةِ أيضًا أنَّه عالِمٌ بها. وتقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ أفاد الحَصْرَ، أي: له لا لغيرِه، ولامُ المِلْكِ أفادَتِ الحصرَ؛ فيكونُ التَّقديمُ مُفيدًا تأكيدَ الحَصْرِ، أو هو للاهتِمامِ[٣].

- ووجهُ الشَّبَهِ هو كونُ لَمْحِ البصَرِ مَقدورًا بدونِ كُلفةٍ؛ لأنَّ لَمْحَ البصَرِ هو أمكَنُ وأسرَعُ حرَكاتِ الجَوارِحِ؛ فهو أيسَرُ وأسرَعُ مِن نقلِ الأرجُلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٢).

في المشيِ، ومِن الإشارةِ باليَدِ. ويجوزُ أن يكونَ وجْهُ الشَّبهِ السُّرعةَ، أي: سُرعةَ الحُصولِ عندَ إرادةِ اللهِ، أي: ذلك يَحصُلُ فجأةً بدونِ أَماراتٍ، كقولِه: ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والمقصودُ: إنذارُهم وتحذيرُهم مِن أن تَبْغَتَهم السَّاعةُ؛ لِيُقلِعوا عمَّا هم فيه مِن وقتِ الإنذارِ(١).

- قولُه: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ (أو) للإضرابِ الانتقاليِّ -على قولٍ-؛ إضرابًا عن التَّشبيهِ الأوَّلِ بأنَّ المشبَّهَ أقوى في وجهِ الشَّبهِ من المشبَّهِ به؛ فالمتكلِّمُ يُخيِّلُ للسَّامِعِ أنَّه يُريدُ تَقْريبَ المعنى إليه بطَريقِ التَّشبيهِ، ثمَّ يُعرِضُ عن التَّشبيهِ، بأنَّ المشبَّهَ أقْوى في وجهِ الشَّبهِ وأنَّه لا يَجِدُ له شَبيهًا، فيُصرِّحُ بذلك، فيَحصُلُ التَّقريبُ ابتِداءً ثمَّ الإعرابُ عن الحقيقةِ ثانيًا. ثمَّ المرادُ بالقُربِ في قولِه تعالى: ﴿أَقۡرَبُ﴾ على الوجهِ الأوَّلِ في تفسيرِ لَمْحِ البصَرِ: هو القُربُ المكانيُّ؛ كنايةً عن كَونِه في المقدوريَّةِ بمنزِلةِ الشَّيءِ القريبِ التَّناوُلِ، كقولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وعلى الوجهِ الثَّاني في تفسيرِه يَكونُ القُربُ قُربَ الزَّمانِ، أي: أقرَبُ مِن لَمْحِ البصَرِ حِصَّةً، أي: أسرَعُ حُصولًا(٢).



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٢٩).

الآيات (٧٨-٨٣)

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٧٩ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ۝٨١ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٢ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: أي: مُذَلَّلاتٍ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[1].

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: أي: يَخِفُّ عليكم حَمْلُها، وأصلُ (خفف): يُخالِفُ الثِّقَلَ والرَّزانةَ[2].

﴿ظَعْنِكُمْ﴾: أي: سَفَرِكم وتَرْحالِكم، وأصلُ (ظعن): يدُلُّ على الشُّخوصِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

﴿وَأَوْبَارِهَا﴾: جمعُ وبرٍ، وهو للإبلِ كالصوفِ للغنمِ، وهو خاصٌّ بالإبلِ(١).

﴿أَثَٰثًا﴾: أي: مَتاعَ البَيتِ، وأصلُه: مِن الكَثرةِ والاجتِماعِ؛ اجتِماعِ بَعضِ المَتاعِ إلى بَعضٍ حتى يَكثُرَ، كالشَّعرِ الأثيثِ، وهو الكثيرُ المُلتَفُّ(٢).

﴿أَكۡنَٰنًا﴾: أي: مَواضِعَ تَستَكِنُّونَ بها، كالكُهوفِ والأسرابِ وغَيرِها، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ(٣).

﴿سَرَٰبِيلَ﴾: أي: جميعَ ما يُلبَسُ على البَدَنِ، كالقُمُصِ والدُّروعِ وغيرِها(٤).

﴿بَأۡسَكُمۡ﴾: أي: شِدَّةَ الطَّعنِ والضَّربِ والرَّمي في الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدلُّ على الشِّدَّةِ(٥).

المَعنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللهُ تعالى عبادَه معدِّدًا أنواعًا مِن نعمِه عليهم، فيقولُ: واللهُ أخرَجَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن بُطونِ أمَّهاتِكم لا عِلمَ لكم بشَيءٍ، وجعَلَ لكم

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

السَّمعَ والأبصارَ والقُلوبَ؛ لعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ، وتُفرِدونَه عزَّ وجَلَّ بالعبادةِ.

ثم ساق الله تعالى دَليلًا آخَرَ على وحدانيتِه، وكَمالِ قُدرتِه، فقال تعالى: ألم يَنظُروا إلى الطَّيرِ مُذَلَّلاتٍ للطَّيَرانِ في الهَواءِ بين السَّماءِ والأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى؟ ما يُمسِكُهنَّ في الجوِّ، ويمنعُهنَّ مِن الوُقوعِ غيرُه سُبحانَه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، لِقَومٍ يُؤمِنونَ.

ثمَّ ساق الله تعالى ألوانًا مِن النِّعمِ، منها ما يتعلَّقُ بنعمةِ المسكنِ، فقال: واللهُ سُبحانَه جعَلَ لكم مِن بُيوتِكم راحةً واستقرارًا، تأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وجعَلَ لكم مِن جُلودِ الأنعامِ خيامًا يَخِفُّ عليكم حَمْلُها وَقتَ تَرْحالِكم وحِلِّكم، وجعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَمِ، وأوبارِ الإبِلِ، وأشعارِ المَعْزِ، أثاثًا لبُيوتِكم، ومتاعًا تتمَتَّعونَ به إلى أجلٍ مُسمًّى.

ثمَّ ذكَر الله تعالى نعمةَ الظِّلالِ والجبالِ واللباسِ فقال: والله جعَلَ لكم ما تَستَظِلُّون به مِن الأشجارِ وغَيرِها، وجعَلَ لكم مِن الجبالِ مغاراتٍ وكُهوفًا تَلجَؤونَ إليها عندَ الحاجةِ، فهي تحميكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ، وجعَلَ لكم ثيابًا تَقيكم الحَرَّ، وجعَلَ لكم مِن الحديدِ دروعًا وغيرَها تقيكم الطَّعنَ في حُروبِكم وتدفَعُ عنكم ضَرَرَ السِّلاحِ، كما أنعَمَ اللهُ عليكم بهذه النِّعَمِ يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم؛ لتَخضعوا لأمرِ اللهِ وَحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا في عبادتِه.

ثم قال تعالى مسليًا نبيَّه: فإنْ أعرَضوا عنك- يا مُحمَّدُ- بعدَ ما رأَوا مِن الآياتِ، فما عليك إلَّا البلاغُ الواضِحُ لِما أُرسِلتَ به، ولا لومٌ عليك ولا عتابٌ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن نعمِ الله، فقال: يَعرِفُ هؤلاءِ المُشرِكونَ نِعمةَ الله عليهم ثمَّ يَجحَدونَها، وأكثَرُهم كافِرون.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أمْرَ السَّاعةِ، وأنَّها كائِنةٌ لا محالةَ، فكان في ذلك دَلالةٌ على النَّشأةِ الآخرةِ، وتقَدَّمَ وَصفُ الكافرينَ بانتفاءِ العِلمِ؛ ذكَرَ تعالى النَّشأةَ الأُولَى، وهي إخراجُهم مِن بُطونِ أمَّهاتِهم غيرَ عالِمينَ شَيئًا، تنبيهًا على وقوعِ النَّشأةِ الآخِرةِ، ثمَّ ذكَرَ تعالى امتِنانَه عليهم بجَعلِ الحواسِّ التي هي سبَبٌ لإدراكِ الأشياءِ والعِلمِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا انقضى توبيخُ المُشرِكينَ على إيمانِهم بالباطِلِ، وكُفرانِهم بالحَقِّ وما استتبَعَه، وختَمَ بأمرِ السَّاعةِ؛ عطَفَ على قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ ما هو مِن أدلَّةِ السَّاعةِ، وكمالِ القُدرةِ والفِعلِ بالاختيارِ مِن النَّشأةِ الأولى[2].

وأيضًا فإنَّها عَودٌ إلى إكثارِ الدَّلائِلِ على انفرادِ اللهِ بالتصَرُّفِ، وإلى تَعدادِ النِّعَمِ على البشَرِ، عطفًا على جملةِ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ بعدما فصَلَ بينَ تَعدادِ النِّعَمِ بما اقتضاه الحالُ مِن التذكيرِ والإنذارِ[3].

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣١).

أي: واللهُ أخرَجَكم -أيُّها النَّاسُ- بقُدرتِه وعِلمِه مِن بُطونِ أمَّهاتِكم أطفالًا جاهِلينَ، لا عِلمَ لكم بشَيءٍ من أمورِ الدُّنيا والآخرةِ[1].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: وخلَقَ لكم السمعَ الذي به تَسمَعونَ، والأبصارَ التي بها تُبصِرونَ، والأفئِدةَ[2] التي بها تَعقِلونَ؛ كي تَشكُروا اللهَ على ما رزَقَكم، وتَستَعمِلوها في طاعتِه، فتَعبُدوه وَحْدَه ولا تَعصُوه[3].

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا دَليلٌ آخَرُ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ فإنَّه لولا أنَّه تعالى خلَقَ الطَّيرَ خِلقةً معها يُمكِنُه الطَّيرانُ، وخلَقَ الجَوَّ خِلقةً معها يُمكِنُ الطَّيرانُ فيه- لَمَا أمكَنَ ذلك؛ فإنَّه تعالى أعطى الطيرَ جناحًا يَبسُطُه مَرَّةً، ويَكسِرُه أخرى، مِثلَ ما يَعمَلُه السَّابِحُ في الماءِ، وخلَقَ الهواءَ خِلقةً لطيفةً رقيقةً، يَسهُلُ بِسَبَبِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢١٨).

(٢) قال ابن عاشور: (الأفئدةُ: جمعُ الفُؤادِ، وأصلُه القَلبُ، ويُطلَقُ كثيرًا على العَقلِ، وهو المرادُ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: ومقصودُ الآيةِ: أنَّ الله تعالى أبان نِعَمَه عليهم؛ حيث أخرجَهم جُهَّالًا بالأشياءِ، وخلَقَ لهم الآلاتِ التي يتوصَّلونَ بها إلى العِلمِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٥).

خَرقُه والنَّفاذُ فيه، ولولا ذلك لَمَا كان الطَّيرانُ مُمكِنًا[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مدارِكَ العِلمِ الثَّلاثةَ: السَّمعَ، والنَّظَر، والعَقلَ، والأوَّلانِ مُدرَكُ المَحسوسِ، والثَّالِثُ مُدرَكُ المَعقولِ؛ اكتفَى مِن ذِكرِ مُدرَكِ المحسوسِ بذِكرِ النَّظَرِ، فإنَّه أغرَبُ لِمَا يُشاهَدُ به مِن عَظيمِ المخلوقاتِ على بُعدِها المُتَفاوِتِ، كمُشاهَدتِه النَّيِّراتِ التي في الأفلاكِ. وجعَلَ هنا مَوضِعَ الاعتبارِ والتعَجُّبِ الحَيوانَ الطَّائِرَ، فإنَّ طَيرانَه في الهواءِ مع ثِقَلِ جِسمِه مِمَّا يُعجَبُ منه ويُعتبَرُ به. وتضَمَّنَت الآيةُ أيضًا ذِكرَ مُدرَكِ العَقلِ في كَونِه لا يَسقُطُ؛ إذ ليس تحتَه ما يَدعَمُه، ولا فَوقَه ما يتعَلَّقُ به، فيُعلَمُ بالعَقلِ أنَّه له مُمسِكٌ قادِرٌ على إمساكِه، وهو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]، فانتظَمَ في الآيةِ ذِكرُ مُدرَكِ الحِسِّ ومُدرَكِ العَقلِ[٢].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: ألم يَنظُروا[٣] إلى الطُّيورِ التي ذلَّلَ اللهُ لها الطَّيرانَ بأجنِحَتِها في الهواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٥).

(٣) ممَّن ذهب إلى أنَّ الآيةَ تنبيهٌ للنَّاسِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٤).

وخصَّهم ابنُ جرير، ومكي بالمشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤٠٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠).

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

أي: ما يُمسِكُ الطُّيورَ في الجوِّ إلَّا اللهُ بقُدرتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَسخيرِ اللهِ الطُّيورَ للطَّيرانِ في جوِّ السَّماءِ -حيث خلَقَها اللهُ تعالى خِلقةً تَصلُحُ معها للطَّيرانِ، وخلَقَ هذا الهواءَ اللَّطيفَ بحيث يُمكِنُ الطيرانُ فيه، مع إمساكِها في الهواءِ على خلافِ طَبْعِها- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه، وحِكمتِه وعِلْمِه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ ورُسُلِه[2].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما مَنَّ به عليهم مِن خَلْقِهم، وما خلَقَ لهم مِن مدارِكِ العِلمِ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به عليهم ممَّا يَنتَفِعونَ به في حياتِهم من الأمورِ الخارجةِ عن ذَواتِهم مِنَ البُيوتِ التي يَسكُنونَها، مِن الحَجَرِ والمَدَرِ والأخشابِ وغَيرِها[3]، فقال تعالى:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾.

أي: واللهُ جعَل لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن بُيوتِكم -كالتي مِن الحَجَرِ والمَدَرِ والخَشَبِ- مساكِنَ لكم تَستَقِرُّونَ فيها، وتأوُونَ إليها، وتَستَتِرونَ بها، وتقيكم الحَرَّ والبَردَ، وغوائِلَ السِّباعِ والهَوامِّ، وتنتَفِعونَ بها في غيرِ ذلك[١].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾

أي: وجعَلَ لكم -أيُّها النَّاسُ- خِيامًا مِن جُلودِ الأنعامِ، أو مِمَّا يَنبُتُ عليها مِن صُوفٍ وشَعرٍ ووَبَرٍ[٢].

﴿تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾.

أي: تَجِدونَ الخِيامَ خَفيفةَ الحَملِ والنَّقلِ في تَرْحالِكم، وفي حِلِّكم[٣].

﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾.

أي: واللهُ جعَلَ لكم مِن أصوافِ الغَنَمِ وأوبارِ الإبِلِ وأشعارِ الماعِزِ أثاثًا[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧-٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨-٢٣٩).

قال ابن عاشور: (أي: خَفيفةُ المَحمَلِ حينَ تَرحَلونَ؛ إذ يَسهُلُ نَقضُها مِن مواضِعِها، وطَيُّها وحَمْلُها على الرَّواحِلِ، وحين تُنيخونَ إناخةَ الإقامةِ في الموضِعِ المُنتَقَلِ إليه، فيَسهُلُ ضَربُها وتَوثيقُها في الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨).

(٤) قال ابنُ كثير: (﴿أَثَٰثٗا﴾ أي: تتَّخِذون منه أثاثًا، وهو المال. وقيل: المتاعُ. وقيل: الثيابُ، والصحيحُ أعَمُّ من هذا كلِّه؛ فإنَّه يُتَّخَذُ من الأثاث البُسُطُ والثيابُ وغير ذلك، ويُتَّخَذُ مالًا وتجارةً). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١).

تتَّخِذونَه لبُيوتِكم، وبَلاغًا تتبلَّغونَ وتَستَمتِعونَ به إلى أجَلٍ[(١)].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما مَنَّ به عليهم ممَّا سبَقَ ذِكرُه، وكانت بِلادُهم غالِبًا عليها

وقال السعدي: (وهذا شامِلٌ لكُلِّ ما يُتَّخَذُ منها؛ مِن الآنيةِ والأوعيةِ والفُرُشِ والألبِسةِ والأجِلَّةِ، وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

وقال ابن عاشور: (والأَثاثُ -بفتح الهمزة- اسمُ جمعٍ للأشياء التي تُفرَشُ في البيوت من وسائِدَ وبُسُطٍ وزرابيَّ، وكلُّها تُنسَجُ أو تُحشى بالأصواف والأشعار والأوبار، والمتاع أعمُّ مِن الأثاثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٨).

قيل: معنى ﴿إِلَى حِينٍ﴾: أي: إلى انقضاءِ آجالِهم بالموتِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٦).

وقيل: المرادُ: إلى وقتٍ غيرِ معينٍ، بحسبِ كلِّ إنسانٍ في فقدِ ذلك. وممن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيةَ، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٢٦).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ يريدُ به وقتًا غيرَ مُعيَّنٍ، وهو بحسَبِ كُلِّ إنسانٍ، إمَّا بموتِه، وإمَّا بفقد تلك الأشياءِ التي هي أثاثٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى أجَلٍ مُسمًّى ووقتٍ معلومٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١).

قال الزمخشري: (﴿إِلَى حِينٍ﴾ إلى أن تقضُوا منه أوطارَكم، أو إلى أن يَبلَى ويفنَى، أو إلى أن تموتوا). ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٦).

الحَرُّ؛ ذكَرَ امتِنانَه عليهم بما يَقيهم الحَرَّ مِن خَلقِ الأجرامِ التي لها ظِلٌّ، كالشَّجرِ وغَيرِه مِمَّا يَمنَعُ مِن أذَى الشَّمسِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يخُصُّ النَّاسَ؛ أتبَعَه ما يُشارِكونَ فيه سائِرَ الحيواناتِ، فقال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾.

أي: واللهُ جعَلَ لكم ممَّا خلَقَ مِن الأشجارِ والسَّحابِ والجِبالِ والبُيوتِ وغَيرِها[3] ظِلالًا تستظلُّون بها من حرارة الشَّمس[4].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾.

أي: وجعل لكم مِن الجِبالِ مَغاراتٍ وحُصونًا تَحمِيكم مِن الحَرِّ والبَردِ، والأمطارِ والأعداءِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٦).

(٣) قال ابن عطية: (قولُه: ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعُمُّ جميعَ الأشخاصِ المُظِلَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

وقال ابن تيمية: (فالظِّلالُ يعُمُّ جَميعَ ما يُظِلُّ مِن العُرُشِ والفساطيطِ والسُّقوفِ، مِمَّا يَصطَنِعُه الآدميُّونَ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

قال ابنُ عطية: (نِعَمٌ عَدَّدَها اللهُ عليهم بحسَبِ أحوالِهم وبلادِهم، وأنَّها الأشياءُ المُباشِرةُ لهم؛ لأنَّ بلادَهم مِن الحرارةِ وقَهرِ الشَّمسِ بحيثُ للظِّلِّ غَناءٌ عَظيمٌ، ونَفعٌ ظاهِرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

قال ابن تيمية: (فَرقٌ بين الظِّلالِ والأكنانِ؛ فإنَّ الظِّلالَ يكونُ بالشَّجرِ ونحوِه مِمَّا يُظِلُّ ولا يَكُنُّ،

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا تَدفَعُ عنكم ضَرَرَ الحَرِّ[1].

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾.

أي: وجعَلَ لكم ثِيابًا -كالدُّروعِ وغَيرِها- تدفَعُ عنكم وقتَ الحَربِ ضَرَرَ السِّلاحِ[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

أي: كما أعطاكم اللهُ هذه النِّعَمَ، فكذلك يُتِمُّ نِعمَتَه عليكم بما تحتاجونَ إليه في دينِكم ودُنياكم؛ لتُخلِصوا له العِبادةَ، وتَخضَعوا له، وتَنقادوا لأمْرِه؛ لِما تَرَونَ مِن كَثرةِ إحسانِه بما لا يَقدِرُ عليه غيرُه، ولِتَكونَ تلك النِّعَمُ عَونًا لكم على طاعتِه سُبحانَه[3].

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾.

بخلافِ ما في الجِبالِ مِن الغِيرانِ؛ فإنَّه يُظِلُّ ويَكُنُّ. ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٠).

قال ابنُ عاشور: (وإضافتُه [أي: البأس] إلى الضَّميرِ على معنى التَّوزيعِ، أي: تقي بعضَكم بأسَ بَعضٍ، كما فُسِّرَ به قولُه تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ -يا مُحمَّدُ- عن دَعوتِك بعدَ هذا البَيانِ والامتنانِ، والتَّذكيرِ بالنِّعَم والإحسانِ، فلم يُؤمِنوا بك ويَستَجيبوا لك؛ فما عليك مِن لَومٍ ولا عِتابٍ؛ إذ ليس عليك إلَّا تَبليغُهم ما أرسَلَك اللهُ به تبليغًا واضِحًا، وقد أدَّيتَه إليهم، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم(١).

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾.

أي: يَعرِفُ المُشرِكونَ نِعَمَ اللهِ عليهم، ثم يَجحَدونَها، فلا يَشكُرونَ اللهَ عليها، ويَنسُبونَها إلى غَيرِه، ويُشرِكونَ به في عبادتِه(٢)، ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٠).

وممَّن اختار هذا القول: ابن قتيبة، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بنحو هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ السائب، ومجاهد في رواية عنه، وعبد الله بن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧).

وقيل: المعنى: يعرف المشركون نعمةَ الله عليهم بإرسالِ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام، ثمَّ يجحدون نبوَّتَه، وأكثرُهم الجاحدون نبوَّتَه مع عِلمِهم بصدقِه. وممن اختار هذا المعنى: ابن جرير، والزجاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٦).

وممن قال بهذا القول من السلف: مجاهد، والسدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧).

قال ابن القيم: (وقالت طائفةٌ: النعمةُ هاهنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارُها: جحدُهم

وأكثرُهم الكافرون[1].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ هذا الصُّنعُ باعِثٌ على شُكرِ اللهِ بتوحيدِه، ونَبذِ الإشراكِ؛ فإنَّ الإنعامَ يَبعَثُ العاقِلَ على الشُّكرِ؛ لهذا قال تعالى عَقِبَه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ خَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لِشَرَفِها وفَضلِها، ولأنَّها مِفتاحٌ لكُلِّ عِلمٍ، فلا وَصَلَ للعبدِ عِلمٌ إلَّا مِن أحَدِ هذه الأبوابِ الثَّلاثةِ، وإلَّا فسائِرُ الأعضاءِ والقُوى الظَّاهِرةِ والباطنةِ هو الذي أعطاهم إيَّاها، وجعَلَ يُنَمِّيها فيهم شيئًا فشيئًا إلى أن يَصِلَ كُلُّ أحدٍ إلى الحالةِ اللَّائقةِ به؛ وذلك لأجلِ أن يَشكُروا اللهَ، باستعمالِ ما أعطاهم مِن هذه الجوارِحِ في طاعةِ اللهِ، فمَنِ استعمَلَها في غيرِ ذلك كانت حُجَّةً عليه، وقابَلَ النِّعمةَ بأقبَحِ المُقابَلةِ[3].

نبوَّتَه. وهذا يُروى عن مجاهد والسدِّي، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكارِ؛ فإنَّه إنكارٌ لِما هو أجلُّ النِّعَم أن تكونَ نِعمةً). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٦).

(١) قال الشوكاني: (﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: الجاحدون لنِعَم الله، أو الكافرون بالله، وعبَّرَ هنا بالأكثر عن الكلِّ، أو أراد بالأكثر العقلاءَ دون الأطفالِ ونحوِهم، أو أراد كُفرَ الجحودِ، ولم يكن كفرُ كُلِّهم كذلك، بل كان كفرُ بعضِهم كفرَ جهلٍ، وكفرُ بعضِهم بسببِ تكذيبِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع اعترافهم بالله وعدَمِ الجَحدِ لربوبيَّتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).

٣- أخبَرَ سُبحانَه أنَّ الشُّكرَ هو الغايةُ مِن خَلقِه وأمْرِه، بل هو الغايةُ التي خلقَ عَبيدَه لأجْلِها ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فهذه غايةُ الخَلقِ، وغايةُ الأمرِ[1].

٤- المقصودُ مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الوَعظُ بأنَّهم صائِرونَ إلى زَوالٍ يَحولُ دونَ الانتفاعِ بها؛ لِيَكونَ النَّاسُ على أُهْبةٍ واستعدادٍ للآخِرةِ، فيَتَّبِعوا ما يُرضي اللهَ تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[2] [الأحقاف: ٢٠].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الأصلُ في الإنسانِ الجَهلُ، وهو ما يدُلُّ على نَقصِه؛ حيث كان ذلك هو الأصلَ فيه؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، فبيَّنَ طُرُقَ العِلمِ: ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وبهما الإدراكُ، و﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ وبها الوعيُ والحِفظُ[3]. وبما أنَّ الأصلَ في النَّاسِ الجَهلُ- استدلالًا بهذه الآيةِ- فلا يجوزُ استِفتاءُ رَجُلٍ غيرِ مَشهورٍ بالعِلمِ، حتى يُبحَثَ عن عِلمِه، ومَن ادَّعى جَهلَ شَيءٍ كان القَولُ قَولَه؛ لِمُوافقَتِه للأصلِ[4].

٢- في ضِمنِ قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ إثباتُ النُّطقِ؛ لأنَّ مَن لم

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

يسمَعْ لم يتكَلَّمْ، وإذا وُجِدَت حاسَّةُ السَّمعِ وُجِدَ النُّطقُ(١).

٣- السَّمعُ والبَصَرُ، هاتان الحاسَّتانِ هما الأصلُ في العِلْمِ بالمعلوماتِ التي يمتازُ بها الإنسانُ عن البَهائمِ؛ ولِهذا يَقرُنُ اللهُ تعالى بينهما وبينَ الفُؤادِ في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ مِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾(٢)، فهما أعظَمُ آلاتِ الإدراكِ؛ إذ بهما إدراكُ أهَمِّ الجُزئيَّاتِ، وهما أقوى الوَسائِلِ لإدراكِ العُلومِ الضَّروريَّةِ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ فيه جوازُ الانتفاعِ بجلودِ الأنعامِ(٤)، والانتفاعِ بصوفِ الغنمِ، ووبرِ الإبلِ، وشعرِ المعزِ والبقرِ(٥).

٥- مِن الدَّليلِ على خَلقِ أعمالِ العِبادِ قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ فأخبَرَ أنَّه هو الذي جعَلَ السَّرابيلَ، وهي الدُّروعُ والثِّيابُ المصنوعةُ، ومادَّتُها لا تُسَمَّى سرابيلَ إلَّا بعدَ أن تُحيلَها صَنعةُ الآدميِّينَ وعَمَلُهم، فإذا كانت مَجعولةً لله فهي مخلوقةٌ له تعالى، بجُملَتِها

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٤) عامةُ أهلِ العلمِ على تقييدِ قولِه: ﴿جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بجلودِ الأنعامِ المذكَّاةِ، أو بما بعدَ الدِّباغِ. يُنظر: ((تيسير البيان لأحكام القرآن)) لابن نور الدين (٣/ ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٤٩)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٢٤٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٣).

وصُورتِها، ومادَّتِها وهيئاتِها[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى قَولِه تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مع أنَّه كان كُلُّهم كافرينَ؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

الأوَّلُ: أنَّ ظاهِرَ كَلِمةِ (أكثَر) وكَلِمة (الكافِرون) أنَّ الذين وُصِفوا بأنَّهم الكافِرونَ هم غالِبُ المُشرِكينَ لا جَميعُهم، فيُحمَلُ المُرادُ بالغالبِ على دَهماءِ المُشرِكينَ؛ فإنَّ مُعظَمَهم بُسَطاءُ العُقولِ، بُعَداءُ عن النَّظَرِ، فهم لا يشعُرونَ بنِعمةِ الله، فإنَّ نِعمةَ اللهِ تقتضي إفرادَه بالعبادةِ. فكان إشراكُهم راسِخًا، بخلافِ عُقَلائِهم وأهلِ النَّظَرِ؛ فإنَّ لهم تردُّدًا في نُفوسِهم، ولكِنْ يَحمِلُهم على الكُفرِ حُبُّ السِّيادةِ في قَومِهم، وقد تقدَّمَ قَولُه تعالى فيهم: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وهم الذين قال الله تعالى فيهم في الآيةِ الأخرى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢] [الأنعام: ٣٣]. أو: لأنَّه كان فيهم مَن لم تقُمْ عليه الحُجَّةُ مِمَّن لم يَبلُغْ حَدَّ التَّكليفِ، أو كان ناقِصَ العَقلِ مَعتوهًا، فأراد بالأكثَرِ البالِغينَ الأصِحَّاءَ. أو: يكون المرادُ بالكافِرِ: الجاحدَ المعانِدَ، وحينَئذٍ يكونُ قد قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾؛ لأنَّه كان فيهم مَن لم يكُنْ مُعانِدًا، بل كان جاهِلًا بصِدقِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما ظهَرَ له كونُه نبيًّا مِن عندِ الله.

الثاني: أنَّه ذكَرَ الأكثَرَ، والمرادُ الجميعُ؛ لأنَّ أكثرَ الشَّيءِ يقومُ مَقامَ الكُلِّ،

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٤- ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

فذِكرُ الأكثَرِ كذِكْرِ الجَميعِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(١) [لقمان: ٢٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ اجتماعُ الضِّدَّيْنِ في القلبِ؛ فجَمَعَ بين المعرفةِ والإنكارِ، وهذا كما يجتَمِعُ في الشَّخصِ الواحِدِ خَصلةُ إيمانٍ وخَصلةُ كُفْرٍ، وخَصلةُ فُسوقٍ وخَصلةُ عَدالةٍ(٢).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ على المَنْصوباتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بكَوْنِ المجعولِ نافِعًا لهم، ولِتَشويقِ النَّفسِ إلى المؤخَّرِ؛ لِيتمكَّنَ عِندَ وُرودِه عليها فَضْلَ تَمكُّنٍ(٣).

- واقتَصَر على السَّمعِ والأبصارِ مِن بينِ الحواسِّ؛ لأنَّهما أهَمُّ، ولأنَّ بهما إدراكَ دَلائِلِ الاعتقادِ الحقِّ(٤). وتقديمُ السَّمعِ على البصَرِ؛ لِمَا أنَّه طريقُ تَلقِّي الوحيِ، أو لأنَّ إدراكَه أقدَمُ من إدراكِ البصَرِ، وإفرادُه باعتبارِ كونِه مصدرًا في الأصلِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).

- وجمَع (الأبصار والأفئدة) ولم يَجمعِ (السَّمعَ)، والحِكمةُ في ذلك هي: أنَّ السَّمع قوَّةٌ واحدةٌ، ولها فِعلٌ واحدٌ؛ فالإنسانُ لا يضبطُ في زمانٍ واحدٍ كلامين، والأذنُ مَحلُّ السَّمعِ ولا اختيارَ لها فيه؛ فإنَّ الصوتَ مِن أيِّ جانبٍ كان يَصِلُ إليه، ولا قُدرةَ لها على تَخصيصِ القُوَّةِ بإدراكِ البعضِ دونَ البَعضِ. وأما الإبصارُ فمَحلُّه العينُ ولها فيه شِبهُ اختيارٍ؛ فإنها تتحرَّكُ إلى جانبٍ مرئيٍّ دون آخَرَ، وكذلك الفؤادُ محلُّ الإدراكِ وله نوعُ اختيارٍ يلتفتُ إلى ما يُريدُ دون غَيرِه[1]. وقيل: جَمَعَ (الأبصارَ والأفئِدَةَ) دونَ السَّمعِ؛ لأنَّ التَّفاوُتَ فيهما أكثَرُ مِن التَّفاوُتِ فيه، بما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى[2]. وقيل: جمَع الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تعدُّدِ أصحابِها، وأمَّا إفرادُ السَّمعِ فجَرَى على الأصلِ في إفرادِ المصدرِ؛ لأنَّ أصْلَ السَّمعِ أنَّه مَصدرٌ. وقيل: الجمعُ باعتبارِ المُتعلَّقاتِ؛ فلمَّا كان البصرُ يَتعلَّقُ بأنواعٍ كثيرةٍ مِن الموجوداتِ وكانتِ العقولُ تُدرك أجناسًا وأنواعًا، جُمِعَا بهذا الاعتبارِ، وأُفرِدَ السمعُ؛ لأنَّه لا يَتعلَّقُ إلَّا بنوعٍ واحدٍ، وهو الأصواتُ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ موقعُ هذه الجملةِ مَوقعُ التَّعليلِ والتَّدليلِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ صُنعِه وعلى لُطفِه بالمخلوقاتِ، فإنَّه لَمَّا ذَكَر مَوهِبةَ العقلِ والحواسِّ الَّتي بها تَحصيلُ المنافِعِ، ودَفعُ الأضرارِ- نبَّه النَّاسَ إلى لُطفٍ يُشاهِدونه أَجْلى مُشاهَدةٍ لأضعَفِ الحيَوانِ، بأنَّ تَسخيرَ الجوِّ للطَّيرِ وخَلْقَها صالِحةً لأنْ تُرفرِفَ فيه بدُونِ تَعليمٍ هو لُطفٌ بها، اقْتَضاه ضَعفُ بُنيانِها؛ إذ كانَت

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٠٤).

عادِمةَ وَسائلِ الدِّفاعِ عن حَياتِها، فجعَل اللهُ لها سُرعةَ الانتقالِ معَ الابتعادِ عن تَناوُلِ ما يَعْدو عليها مِن البشَرِ والدَّوابِّ. فلأَجْلِ هذا الموقِعِ لم تُعطَفِ الجملةُ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها ليس في مَضمونِها نِعمةٌ على البشَرِ، ولكنَّها آيةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى وعِلْمِه، بخِلافِ نَظيرتِها في سورةِ (المُلكِ): ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ [الملك: ١٩]، فإنَّها عُطِفَت على آياتٍ دالَّةٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى؛ ولذلك المعنى عُقِّبَت هذه الآيةُ وَحْدَها بجُملةِ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا ...﴾ الاستِفْهامُ إنكاريٌّ، معناه: إنكارُ انْتِفاءِ رؤيتِهم الطَّيرَ مُسخَّراتٍ في الجوِّ بتَنْزيلِ رُؤيتِهم إيَّاها مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤيةِ؛ لانْعِدامِ فائدةِ الرُّؤيةِ مِن إدراكِ ما يَدُلُّ عليه المَرْئيُّ مِن انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ[2].

- قولُه: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (المُلكِ): ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]؛ فورَد في الأولى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ وفي الثَّانيةِ: ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾، قيل في وجهِ ذلك: إنَّ آيةَ سورةِ (المُلكِ) لَمَّا انطَوَتْ على ذِكْرِ حالَينِ للطَّائرِ مِن صَفِّ جَناحَيه وقَبْضِهما، وهما حالَتان يَستريحُ إليهِما الطَّائرُ، فتارةً يَصُفُّ جَناحَيه كأنَّه لا حرَكةَ به، وتارَةً يَقبِضُهما إلى جنبَيْه حتَّى يُلزِقَهما بهِما، ثمَّ يَبسُطُهما ويَقبِضُهما مُوالاةً بسُرعةٍ كما يَفعَلُ السَّابِحُ، فناسَب هذا الإنعامَ منه تعالى وُرودُ اسْمِه الرَّحمنِ. أمَّا آيةُ (النَّحلِ) فلَم يَرِدْ فيها ذِكرُ هذه الاستراحةِ، فقيل هنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣٥).

ٱللَّهُ﴾، وتَناسَب ذلك، ولم يُناسِبْ عَكسُ الوارِدِ[1].

- وجملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الإنكارَ على المشركين عدَمَ الانتفاعِ بما يرَوْنه مِن الدَّلائلِ يُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ: أكان عدَمُ الانتفاعِ بدَلالةِ رُؤيةِ الطَّيرِ عامًّا في البشَرِ؟ فيُجابُ بأنَّ المؤمِنين يَستدِلُّون مِن ذلك بدَلالاتٍ كثيرةٍ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مُناسِبٌ لاستفهامِ الإنكارِ على الَّذين لم يَرَوْا تلك الآياتِ؛ فأُكِّدَت الجملةُ الدَّالَّةُ على انتِفاعِ المؤمِنين بتلك الدَّلالةِ؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للَّذينَ لم يَهْتَدوا بتِلك الدَّلالةِ؛ فهُم بمَنْزلةِ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك دَلالةً للمُؤمِنين؛ لأنَّ المشرِكين يَنظُرون بمِرْآةِ أنفُسِهم[2].

- قولُه: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ فيه جمْعُ الآياتِ؛ لأنَّ في الطَّيرِ دَلائِلَ مُختلِفةً: مِن خِلْقةِ الهواءِ، وخِلْقةِ أجسادِ الطَّيرِ مُناسِبةً للطَّيَرانِ في الهواءِ، وخَلْقِ الإلهامِ للطَّيرِ بأن يَسبَحَ في الجوِّ، وبأن لا يَسقُطَ إلى الأرضِ إلَّا بإرادتِه[3]؛ ولِمَا في ذلك مِن الآياتِ: خِفَّةِ الطَّائرِ الَّتي جعَلها اللهُ فيه لأنْ يَرتفِعَ بها، وثِقَلِه الَّذي جعَله فيه لأنْ يَنزِلَ، والفَضاءِ الَّذي بينَ السَّماءِ والأرضِ، والإمساكِ الَّذي للهِ تعالى، أو جَمَع باعتبارِ ما في هذه الآيةِ والَّتي قَبْلَها[4].

- قولُه: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ خُصُّوا بالذِّكرِ؛ لأنَّهم هم الَّذين ينتَفِعون بالاعتبارِ، ويتفَكرونَ فيما جُعِلَت آيةً عليه، وأمَّا غَيرُهم فإنَّ نظَرَهم نظَرُ لَهوٍ وغَفلةٍ،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٠٥-٣٠٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٥- ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٣٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

وأيضًا لِتَضمُّنِ الآيةِ أنَّ المسخِّرَ والممسِكَ لها هو اللهُ، فهو إخبارٌ منه تعالى ما يُصدِّقُ به إلَّا المؤمِنُ[١]، وكذلك خُصَّتِ الآياتُ بالمؤمنينَ؛ لأنَّهم بِخُلقِ الإيمانِ قد أَلِفوا إعمالَ تَفْكيرِهم في الاستدلالِ على حقائقِ الأشياءِ، بخِلافِ أهلِ الكُفرِ، فإنَّ خُلقَ الكُفرِ مَطْبوعٌ على النُّفْرةِ مِن الاقتداءِ بالنَّاصِحينَ وعلى مُكابَرةِ الحقِّ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا...﴾ فيه تقديمُ ﴿لَكُم﴾ على ما سيأتي مِن المجرورِ والمنصوبِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّه لِمَصلَحتِهم ومنفَعتِهم، ولِتَشويقِ النَّفسِ إلى وُرودِه[٣].

- وفي هذه الآيةِ ترتيبٌ بديعٌ، حيث ذكَر أوَّلًا ما غالِبُ البيوتِ عليه؛ مِن كونِها لا تُنقَلُ، بل يَنتقِلُ النَّاسُ إليها. ثمَّ ذكَر ثانيًا ما منَّ به علَينا مِن المتَّخَذِ مِن جُلودِ الأنعامِ، وهو ما يَنتقِلُ مِن القِبابِ والخِيامِ والفَساطيطِ الَّتي مِن الأَدَمِ، أو ذكَرَ أوَّلًا البيوتَ على طَريقِ العُمومِ، ثمَّ ذكَر بُيوتَ الجُلودِ خُصوصًا تَنْبيهًا على حالِ أكثَرِ العربِ؛ فإنَّهم لانْتِجاعِهم إنَّما بُيوتُهم مِن الجُلودِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٦).

- قوله: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ﴾، اقتصَر على هذه الثَّلاثةِ؛ لأنَّ بلادَهم لم تكُنْ بِلادَ قُطنٍ وكَتَّانٍ وحريرٍ، واندرَجَت في قَولِه بعدَ ذلك: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾[١]، وإنَّما عدَّد عليهم ما أنعَم به عليهم، وخُوطبوا فيما عرَفوا بما فهِموا، وما قام مَقامَ هذه، وناب منابَها فيدخلُ في الاستعمالِ والنعمةِ مدخلَها[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ فذكَر الجبالَ، ولم يذكُرِ السَّهلَ؛ لأنَّهم كانوا أصحابَ جِبالٍ، ولم يكونوا أصحابَ سَهلٍ، فذكَرَ لهم نِعَمَه التي تختَصُّ بهم، وأيضًا: فذِكْرُ أحدِهما يدُلُّ على الآخَرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾، أي: والبَرْدَ، وإنَّما حَذَفه؛ لِدَلالةِ ضِدِّه عليه، وخَصَّ الحرَّ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الخِطابَ بالقرآنِ أوَّلَ ما وقَع بالحِجازِ، والوِقايةُ مِن الحَرِّ أهَمُّ عندَ أهلِه[٤].

وقيل: حُذِفَ الآخَرُ للعِلمِ به. ويُقالُ: هذا مِن بابِ التَّنبيهِ؛ فإنَّه إذا امتَنَّ عليهم بما يقي الحَرَّ فالامتِنانُ بما يقي البَرْدَ أعظَمُ؛ لأنَّ الحَرَّ أذًى؛ والبَردَ بُؤسٌ، والبَردُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٢).

الشَّديدُ يَقتُلُ، والحَرُّ قَلَّ أن يقعَ فيه هكذا، فإنَّ بابَ التَّنبيهِ والقياسِ كما يكونُ في خِطابِ الأحكامِ يكونُ في خِطابِ الآلاءِ، وخِطابِ الوَعدِ والوَعيدِ.

وقيل: إنَّه قد تقدَّمَ ذِكرُ وقايةِ البَردِ في أوَّلِ السُّورةِ بقولِه تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل: ٥] فيُقالُ: لمَ فَرَّقَ هذا؟ فيُقالُ- واللهُ أعلَمُ: المذكورُ في أوَّلِ السُّورةِ النِّعَمُ الضَّروريَّةُ التي لا يقومونَ بدُونِها: مِن الأكلِ وشُربِ الماءِ القَراحِ (الصافي الخالص)، ودَفعِ البَردِ، والرُّكُوبِ الذي لا بُدَّ منه في النُّقلةِ، وفي آخِرِها ذكَرَ كمالَ النِّعَمِ: من الأشْرِبةِ الطَّيِّبةِ، والسُّكونِ في البُيوتِ، وبيوتِ الأَدمِ، والاستِظلالِ بالظِّلالِ، ودَفعِ الحَرِّ والبَأسِ بالسَّرابيلِ، ففي الأوَّلِ الأُصولُ، وفي الآخِرِ الكَمالُ؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[1].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تذييلٌ لِمَا ذكَر مِن النِّعمِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ تفريعٌ على جملةِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾، وقَع اعتِراضًا بينَ جُملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾، وجُملةِ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾، وقد حوَّل الخِطابَ عنهم إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو نوعٌ مِن الالْتِفاتِ، فيه الْتفاتٌ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ، والْتِفاتٌ عمَّن كان الكلامُ مُوجَّهًا إليه بتَوجيهِ الكلامِ إلى شَخصٍ آخَرَ، والمعنى: كذَلك يُتِمُّ نِعمَتَه علَيكم لِتُسلِموا، فإن لم يُسْلِموا فإنَّما عليك البَلاغُ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٨-٢١٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧).

والمقصودُ: تَسْليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عدَمِ استِجابَتِهم[١].

- قولُه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ يَحتمِلُ أن يَكونَ ماضِيًا، أي: فإن أعرَضوا عن الإسلامِ، ويَحتمِلُ أن يَكونَ مُضارِعًا، أي: فإن تتولَّوْا، وحُذِفَت التَّاءُ، ويكونَ جارِيًا على الخِطابِ السَّابِقِ، والماضي على الالتفاتِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ ذكَر سبَبَ العُذرِ وهو البَلاغُ؛ لِيَدُلَّ على المسبَّبِ؛ فالتَّقديرُ: فإن تَولَّوْا فلم يَقبَلوا مِنك فقد تَمهَّد عُذرُك بعدَما أدَّيتَ ما وجَب عليك مِن التَّبليغِ[٣]، والقصرُ إضافيٌّ، أي: ما علَيك إلَّا البلاغُ لا تَقْليبُ قُلوبِهم إلى الإسلامِ، أوْ: لا تَولِّي جَزائِهم على الإعراضِ، بل علَينا جَزاؤُهم، وجُعِل هذا جَوابًا لجُملةِ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ مِن إقامةِ السَّببِ والعِلَّةِ مَقامَ المسبَّبِ والمعلولِ، وتقديرُ الكلامِ: فإنْ تَولَّوْا فلا تَقْصيرَ ولا مُؤاخَذةَ عليك؛ لأنَّك ما عليك إلَّا البَلاغُ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

إخبارٌ عنهم على سَبيلِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ[٥]، وهو استئنافٌ لبيانِ أنَّ تَولِّيَهم وإعراضَهم عن الإسلامِ ليس لِعَدمِ مَعرفتِهم بما عدَّد مِن نِعَمِ اللهِ تعالى أصلًا؛ فإنَّهم يَعرِفونها ويَعترِفون أنَّها مِن اللهِ تعالى[٦]، ولأنَّ تَولِّيَهم عن الإسلامِ مع وَفْرةِ أسبابِ اتِّباعِه يُثيرُ سُؤالًا في نَفْسِ السَّامعِ: كيف خَفِيَت عليهم دَلائلُ الإسلامِ؟ فيُجابُ بأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٧- ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٤).

عرَفوا نِعمةَ اللهِ، ولكنَّهم أعرَضوا عنها إنكارًا ومُكابَرةً[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ معنى (ثُمَّ) هنا: للدَّلالةِ على أنَّ إنكارَهم مُستبعَدٌ بعدَ حُصولِ المعرفةِ؛ لأنَّ حقَّ مَن عرَف النِّعمةَ أن يَعترِفَ لا أن يُنكِرَ[2]؛ فـ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها في عَطْفِ الجُمَلِ؛ فهو عطفٌ على جملةِ ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّه قيل: ويُنكِرونها؛ لأنَّ (ثمَّ) لَمَّا كانت للعطفِ اقتَضَتِ التَّشريكَ في الحكمِ، ولَمَّا كانت للتَّراخي الرُّتبيِّ زال عنها مَعْنى المُهْلةِ الزَّمانيَّةِ الموضوعةِ هي له؛ فبَقِي لها معنى التَّشريكِ، وصارت المهلةُ مُهلةً رُتبيَّةً؛ لأنَّ إنكارَ نعمةِ اللهِ أمرٌ غريبٌ[3].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٢).

الآيات (٨٤-٨٩)

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٨٥ وَإِذَا رَءَا
ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ٨٦ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ
ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ٨٨ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ٨٩ ﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[1].

﴿ٱلسَّلَمَ﴾: أي: الاستِسلامَ والانقيادَ لأمرِ اللهِ وحُكمِه، يُقالُ: سَلَّم واستسلَمَ وأسلَمَ: إذا انقادَ وخضَع، ومنه الإسلامُ: وهو الطَّاعةُ والانْقيادُ لِله عَزَّ وجلَّ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[2].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)،

المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ويومَ نَبعَثُ مِن كُلِّ أمَّةٍ رَسولَها الذي أُرسِلَ إليها، يَشهَدُ عليهم، ثمَّ لا يُؤذَنُ للذينَ كَفَروا بالاعتِذارِ عن كُفرِهم، ولا يُطلَبُ منهم إرضاءُ رَبِّهم. وإذا رأى المشركونَ عذابَ اللهِ في الآخرةِ، فلا يُخفَّفُ عنهم منه شَيءٌ، ولا يُمهَلونَ، وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ آلهَتَهم التي عَبَدوها مع اللهِ، قالوا: رَبَّنا هؤلاءِ الذين كُنَّا نَعبُدُهم مِن دُونِك، فقالت آلهتُهم المزعومةُ: إنَّكم- أيُّها المُشرِكونَ- لَكاذِبونَ في اتِّخاذِنا شُرَكاءَ لله! وانقاد المُشرِكون لأمرِ اللهِ واستسلَموا وخضَعوا، وغاب عنهم ما كانوا يختَلِقونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستَشفَعُ لهم.

ثم قال الله متوعدًا مَن كفَر، وصدَّ عن سبيلِه: الذين كفَروا ومَنَعوا غيرَهم مِن الإيمانِ باللهِ ورسولِه زِدْناهم عذابًا فوقَ عذابِهم؛ بسَبَبِ إفسادِهم وصَدِّهم النَّاسَ عن الهدى.

واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نبعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ رَسولَهم شَهيدًا عليهم، وجِئْنا بك شَهيدًا على أمَّتِك يومَ القيامةِ. ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ موضِّحًا لكُلِّ شيءٍ، وهاديًا مِن الضَّلالِة، ورَحمةً لِمَن صدَّقَ وعَمِلَ به، ومُبَشِّرًا للمُؤمِنينَ بحُسنِ عاقِبتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٨٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا بَيَّنَ مِن حالِ القَومِ أنَّهم عَرَفوا نِعمةَ اللهِ ثمَّ أنكَروها، وذكَرَ

((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٩٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تاج العروس)) (٣٢/ ٣٧٢).

أيضًا مِن حالِهم أنَّ أكثَرَهم الكافِرونَ؛ أتبَعَه بالوعيدِ، فذكَرَ حالَهم يومَ القيامةِ، فقال[١]:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

أي: ويومَ[٢] نَبعَثُ مِن كُلِّ أمَّةٍ شاهِدًا عليهم -وهو رَسولُهم الذي أُرسِلَ إليهم- لِيَشهَدَ بما أجابَتْه به أُمَّتُه فيما بلَّغَها عن اللهِ تعالى[٣].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: ثمَّ لا يُعطَى الذين كَفَروا الإذْنَ للاعتذارِ إلى اللهِ مِن كُفرِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) قيل: هو متعلقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: واذكُرْ. على اعتبارِ أنَّ التذكيرَ بذلك اليومِ مِن البلاغِ المبينِ الذي أُمِر به النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما في الآيةِ قبلَ السابقةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ اليومَ، ويَستنكِرونَ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (وَصفُ شَهيدٍ يَقتَضي أنَّه شاهِدٌ على المؤمنينَ به، وعلى الكافرينَ، أي: شَهيدٌ؛ لأنَّه بلَّغَهم رسالةَ الله. وبَعْثُ شَهيدٍ مِن كُلِّ أمَّةٍ يُفيدُ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شهيدٌ على هؤلاء الكافرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢١).

أي: ولا يُطلَبُ مِن الكافرينَ أن يُرضُوا اللهَ، ولا هم يُرَدُّون إلى الدُّنيا ليَتوبوا، ويَعمَلوا بما أمَرَ اللهُ تعالى به[1].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٥﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ﴾.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ النَّارَ، فلا يُخفَّفُ عنهم عَذابُها بأيِّ نَوعٍ مِن أنواعِ التَّخفيفِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمهَلونَ عن العَذابِ، ولا يُؤخَّرونَ عن دُخولِ النَّارِ حين يَرَونَها ولو لَحظةً[3].

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠).

قال ابن عاشور: (ثمَّ يُساقُونَ إلى العذابِ، فإذا رأوه لا يُخَفَّفُ عنهم، أي: يَسألونَ تَخفيفَه، أو تأخيرَ الإقحامِ فيه، فلا يُستجابُ لهم شيءٌ مِن ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

وقال السعدي: (من غير إنظارٍ ولا إمهالٍ من حين يرونَه؛ لأنهم لا حسابَ عليهم؛ لأنَّهم لا حسناتٍ لهم، وإنَّما تعَدُّ أعمالُهم وتحصى، ويُوقَفون عليها ويُقِرُّون بها ويفتَضحون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾.

أي: وإذا رأى المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَعبوداتِهم التي جَعَلوها شُرَكاءَ لله في العبادةِ، قالوا: ربَّنا هؤلاءِ الذين كنَّا نَعبُدُهم مِن دُونِك، ونَجعَلُهم شُرَكاءَ لك[1].

﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: فقال للمُشرِكينَ شُرَكاؤُهم الذين كانوا يَعبُدونَهم: إنَّكم لكاذِبونَ في ادِّعائِكم أنَّنا آلِهةٌ، وما أمَرْناكم بعِبادتِنا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦).

﴿يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٨٧﴾.

﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾.

أي: واستسْلَم المُشرِكونَ يومَ القيامةِ لله، وذلُّوا وانقادُوا خاضِعينَ لحُكمِه فيهم، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ للعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ۞ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٥-٢٦].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾.

أي: وغاب عن المُشرِكينَ ما كانوا يَعبُدونَه في الدُّنيا، واضْمَحلَّ ما كانوا يَفتَرونَه مِن أنَّ آلهتَهم ستشفَعُ لهم، وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى، فليس لهم ناصرٌ ولا معينٌ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ۞

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٥).

وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وعيدَ الذين كَفَروا؛ أتبَعَه بوَعيدِ مَن ضَمَّ إلى كُفرِه صَدَّ الغَيرِ عن سَبيلِ الله، فقال تعالى[1]:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: الذين كَفَروا وكَذَّبوا بالحَقِّ لَمَّا جاءَهم، وصَدُّوا النَّاسَ عن اتِّباعِ الإسلامِ؛ زِدْناهم في النَّارِ عذابًا على ما بهم مِن العذابِ؛ لأنَّهم كانوا يُفسِدونَ في الأرضِ بصَدِّهم النَّاسَ عن اتِّباعِ الحَقِّ[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: (عَقارِبُ أنيابُها كالنَّخلِ الطِّوالِ)[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٠، ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٦).

قال ابنُ القيم: (فالعذابُ الأوَّلُ بكُفرِهم، والعَذابُ الذي زادهم إيَّاه بصَدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٩).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٤١٣٨)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٩/ ٢٢٦) (٩١٠٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٣٥٧)، والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٥٦٠).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.

أي: واذكُرْ- يا مُحمَّدُ- يومَ نَبعَثُ في كُلِّ أمَّةٍ نَبيًّا شاهِدًا عليهم، وهو منهم، ويتحدَّثُ بلسانِهم[1].

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾.

أي: وجِئْنا بك يومَ القيامةِ شاهِدًا على أمَّتِك[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ٤١].

صحَّحه الحاكم، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٣٩٢): (رجاله رجال الصحيح)، وقال البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢١٦): (موقوفٌ بسند صحيحٍ، وله شاهدٌ)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٦٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٧).

قيل: يشهدُ عليهم بما أجابوه وردُّوا عليه. وممن قال ذلك: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣).

وقيل: المعنى: يشهدُ عليهم بأنَّهم بلَّغوا الرسالةَ، ودعَوْهم إلى الإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٤).

قال السعدي: (وهذا مِن كَمالِ عَدلِ الله تعالى: أنَّ كُلَّ رَسولٍ يَشهَدُ على أمَّتِه؛ لأنَّه أعظَمُ اطِّلاعًا مِن غيرِه على أعمالِ أمَّتِه، وأعدَلُ وأشفَقُ مِن أن يشهَدَ عليهم إلَّا بما يَستَحِقُّونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧).

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما شَرَّفَه اللهُ به من الشَّهادةِ على أمَّتِه، ذكَرَ ما أنزَلَ عليه مِمَّا فيه بيانُ كُلِّ شَيءٍ مِن أمورِ الدِّينِ؛ ليُزيحَ بذلك عِلَّتَهم فيما كُلِّفوا، فلا حُجَّةَ لهم ولا مَعذِرةَ[(١)].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: ونزَّلْنا عليك القُرآنَ مُبَيِّنًا لكُلِّ شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إلى بيانِه، مِن أمورِ دينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤].

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: ونَزَّلْنا عليك القُرآنَ هاديًا مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ للمُسلمينَ المُنقادينَ لحُكمِه، الخاضِعينَ له

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤، ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٣).

بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ أي: هذه الزِّيادةُ مِن العذابِ إنَّما حَصَلَت مُعَلَّلةً بذلك الصَّدِّ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن دعا غَيرَه إلى الكُفرِ والضَّلالِ، فقد عَظُمَ عَذابُه، فكذلك إذا دعا إلى الدِّينِ واليَقينِ، فقد عَظُمَ جزاؤُه(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ أضافوهم إلى أنفُسِهم؛ لأنَّه لا حقيقةَ لِشَرِكتِهم سوى تَسميتِهم لها المُوجِبةِ لضَرِّهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٠).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: لم قالت الأصنامُ للمُشرِكينَ ذلك، مع أنَّهم كانوا صادقينَ فيه؟

الجوابُ من وجوهٍ:

الأول: أنهم قالوه لهم لتظهَرَ فَضيحتُهم؛ حيث عَبَدوا مَن لا يَعلَمُ بعِبادتِهم(١).

الثاني: أنَّ تكذيبَهم لهم منصبٌّ على زعمِهم أنَّهم آلهةٌ، وأنَّ عبادتَهم حقٌّ، وأنَّها تقرِّبُهم إلى الله زلفى. ولا شكَّ أنَّ كلَّ ذلك مِن أعظمِ الكذبِ وأشنعِ الافتراءِ(٢).

الثالث: أنَّهم لَمَّا كانوا غيرَ راضِينَ بعِبادتِهم، فكأنَّ عِبادتَهم لم تَكُنْ عِبادةً، والدَّليلُ عليه قولُ الملائكةِ: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤١]، يَعْنون أنَّ الجنَّ كانوا راضِينَ بعِبادتِهم، لا نَحن؛ فهُم المعبودونَ دونَنا(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف أثبَتَ للأصنامِ نُطقًا هنا، ونفاه عنها في قَولِه تعالى في الكهفِ: ﴿ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾؟

الجواب: المُثبَتُ لهم هنا النُّطقُ بتَكذيبِ المُشرِكينَ في دعوى عبادتِهم

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٢٧).

لها، والمنفيُّ عنهم في الكَهفِ النُّطقُ بالإجابةِ إلى الشَّفاعةِ لهم، ودَفْعِ العذابِ عنهم، فلا تنافيَ[1].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ وفائدةُ قولِهم ذلك مع أنَّه تعالى عالِمٌ بهِم: أنَّهم لَمَّا أنكَروا الشِّرْكَ بقولِهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] عاقبَهم اللهُ بإصماتِ ألسِنَتِهم، وأنطَقَ جوارِحَهم، فقالوا عِندَ مُعايَنةِ آلهتِهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ فأقرُّوا بعدَ إنكارِهم؛ طلَبًا للرَّحمةِ، وفِرارًا مِن الغضبِ، فكان هذا القولُ على وَجْهِ الاعترافِ مِنهم بالذَّنبِ، لا على وجهِ إعلامِ مَن لا يَعلَمُ، أو أنَّهم لَمَّا عايَنوا عَظيمَ غضَبِ اللهِ، قالوا ذلك رجاءَ أن يُلزِمَ اللهُ الأصنامَ ذُنوبَهم فيَخِفَّ عنهم العذابُ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ هذا دليلٌ على تفاوُتِ الكُفَّارِ في عذابِهم، كما يتفاوَتُ المُؤمِنونَ في مَنازِلِهم في الجَنَّة ودَرَجاتِهم، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾[3] [الأعراف: ٣٨]. وتفاوتُ أهلِ النارِ في العذابِ، هو بحسبِ تفاوتِ أعمالِهم التي دخلوا بها النارَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، فليس عقابُ مَن تغلَّظ كفرُه، وأفسَد في الأرضِ، ودعا إلى الكفرِ، كمَن ليس كذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٤- ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان كذلك، فكيف اختلَفَت الأئمَّةُ في كثيرٍ مِن الأحكامِ؟

الجوابُ: لأنَّ أكثَرَ الأحكامِ ليس مَنصوصًا عليه فيه، وبعضُها مُستنبَطٌ منه، وطُرُقُ الاستنباطِ مُختَلِفةٌ؛ فبَعضُها بالإحالةِ إمَّا على السُّنَّة، بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، أو على القياسِ بقَولِه تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، والاعتبارُ: النظَرُ والاستدلالُ اللَّذانِ يَحصُلُ بهما القياسُ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا﴾ لَمَّا كان التِّبيانُ قد يكون للضَّلالِ، قال تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي: مُوصِلًا إلى المقصودِ، ولَمَّا كان ذلك قد لا يكونُ على سبيلِ الإكرامِ، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ولَمَّا كان الإكرامُ قد لا يكونُ بما هو في أعلَى طبقاتِ السُّرورِ، قال سُبحانَه: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: بشارةً عظيمةً جدًّا ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ بيانُ أنَّ هذا الدِّينَ شامِلٌ كامِلٌ لا يَحتاجُ إلى زيادةٍ، كما أنَّه لا يجوزُ فيه النَّقصُ؛ فما مِن شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إليه في مَعادِهم ومَعاشِهم إلَّا بَيَّنَه اللهُ تعالى في كِتابِه؛ إمَّا نصًّا، أو إيماءً، وإمَّا منطوقًا، وإمَّا مَفهومًا[٣].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٥).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٤٤).

٩- في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُوجَدَ في القرآنِ آياتٌ مُتشابِهةٌ على جَميعِ النَّاسِ لا يَعرِفونَ معناها! فلا يُوجدُ فيه شَيءٌ غيرُ واضِحٍ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فلا يُمكِنُ إطلاقًا أن يُوجَدَ فيه آيةٌ أو كَلِمةٌ لا يُفهَمُ معناها، لكنَّ الذي يَخفى هو حقيقةُ مَدلولاتِ الآياتِ، مِثْلَ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفْسِه واليومِ الآخِرِ؛ فإنَّنا لا نَعرِفُ حقيقتَه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ بَقِي الظَّرفُ (يَوْمَ) بدونِ مُتعلَّقٍ فلم يَكُنْ للسَّامعِ بُدٌّ مِن تقديرِه بما تَذهَبُ إليه نفْسُه، وذلك يُفيدُ التَّهويلَ والتَّفظيعَ، وهو مِن بديعِ الإيجازِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ابتلاءَهم بالمنعِ عن الاعتذارِ المنبِئِ عن الإقناطِ الكليِّ- وهو عندَما يُقالُ لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]- أشدُّ مِن ابتلائِهم بشهادةِ الأنبياءِ- عليهم السلامُ- عليهم(٣).

- ويجوزُ أن يَكونَ نَفْيُ الإذنِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ﴾ كِنايةً عن الطَّرْدِ، كما كان

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٤٣).

الإذنُ كِنايةً عن الإكرامِ، وعليه فيُقالُ: استَعتَب فلم يُستَعتَبْ، ويُقالُ على الأصلِ: استَعتَب فُلانٌ فلم يُعتَبْ، وهذا استِعمالٌ نشَأ عن الحذفِ، وأصلُه: استُعتِبَ له، أي: طُلِب منه أن يَستعتِبَ؛ فكَثُر في الاستعمالِ حتَّى قَلَّ استِعْمالُ استُعتِبَ مَبنيًّا للمجهولِ في غيرِ هذا المعنى(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ الَّذين ظلَموا هم الَّذين كفروا؛ فالتَّعبيرُ به مِن الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ لِقَصدِ إجراءِ الصِّفاتِ المتلبِّسينَ بها علَيهم(٢).

- وجاء المسنَدُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ مُخبَرًا عنه بالجملةِ الفعليَّةِ؛ لأنَّ الإخبارَ بالجملةِ الفعليَّةِ عن الاسمِ يُفيدُ تَقوِّيَ الحكمِ، فأُريدَ تَقوِّي حُكمِ النَّفيِ، أي: إنَّ عدمَ تَخفيفِ العذابِ عَنهم مُحقَّقُ الوقوعِ، لا طَماعيَةَ في إخلافِه؛ فحصَل تأكيدُ هذه الجملةِ، كما حصَل تأكيدُ الجملةِ الَّتي قبْلَها بالفاءِ، أي: فهُم يُلْقَون بسُرعةٍ في العذابِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ ﴾ الَّذين أشرَكوا هم الَّذين ظلَموا، الَّذين يَرَوْن العذابَ، وهم الَّذين كفَروا، الَّذين لا يُؤذَنُ لهم، وإجراءُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٣).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه الصِّلاتِ الثَّلاثِ علَيهم؛ لزيادةِ التَّسجيلِ عليهم بأنواعِ إجرامِهم الرَّاجعةِ إلى تَكذيبِ ما دَعاهم اللهُ إليه، وهو نُكتةُ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ هنا[1].

- قولُه: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَلْقَوْاْ﴾ للتَّعقيبِ؛ للدَّلالةِ على المبادَرةِ بتكذيبِ ما تَضمَّنَه مَقالُهم، أنطَق اللهُ تلك الأصنامَ فكَذَّبَت ما تَضمَّنَه مَقالُهم مِن كونِ الأصنامِ شُركاءَ للهِ، أو مِن كونِ عِبادتِهم بإغراءٍ منها؛ تَفْضيحًا لهم وحَسْرةً عليهم. والجمعُ في اسمِ الإشارةِ واسمِ الموصولِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ جمعُ العُقَلاءِ؛ جَريًا على اعتِقادِهم إلهيَّةَ الأصنامِ. ولَمَّا كان نُطقُ الأصنامِ غيرَ جارٍ على المتعارَفِ عَبَّر عنه بالإلقاءِ المؤْذِنِ بكَونِ القولِ أجْراه اللهُ على أفواهِ الأصنامِ مِن دونِ أن يَكونوا ناطِقين، فكأنَّه سقَط منها. وأجرَى عليهم ضَميرَ جَمعِ العُقلاءِ في فِعْلِ ﴿أَلْقَوْا﴾ مُشاكَلةً لاسْمِ الإشارةِ واسمِ الموصولِ للعُقلاءِ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أعيدَ فِعلُ ﴿أَلْقَوْا﴾؛ لاختلافِ فاعلِ الإلقاءِ؛ فضَميرُ القَولِ الثَّاني عائِدٌ إلى الَّذين أشرَكوا[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ تعريفُ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ تعريفُ الجنسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٧).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٨).

المعهودِ؛ حيث تَقدَّم ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ لأنَّ عَذابَ كُفرِهم لَمَّا كان مَعلومًا بكَثرةِ الحديثِ عنه صارَ كالمعهودِ، وأمَّا عذابُ صَدِّهِمُ النَّاسَ فلا يَخطُرُ بالبالِ؛ فكان مَجهولًا؛ فناسَبه التَّنكيرُ[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تكريرٌ لجُملةِ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لِيُبنَى عليه عَطفُ جُملةِ ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على جُملةِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ ولَمَّا كان تكْريرًا أُعيدَ نَظيرُ الجملةِ على صورةِ الجملةِ المؤكِّدةِ مُقترِنةً بالواوِ، ولأنَّ في هذه الجملةِ زِيادةَ وصْفِ ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فحَصَلَت مُغايَرةٌ معَ الجملةِ السَّابقةِ، والمغايَرةُ مُقتضِيَةٌ للعطفِ أيضًا، ومِن دَواعي تَكْريرِ مَضمونِ الجملةِ السَّابقةِ أنَّه لِبُعدِ ما بينَ الجُملتَينِ بما اعترَض بينَهما مِن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قولِه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ مع أنَّ الإعادةَ هنا أجْدَرُ؛ لأنَّ الفَصْلَ أطوَلُ، وقد حصَل مِن هذه الإعادةِ تأكيدُ التَّهديدِ والتَّسجيلِ. وعُدِّي فِعلُ ﴿نَبْعَثُ﴾ هنا بحَرفِ (في)، وعُدِّي نَظيرُه في الجملةِ السَّابقةِ بحَرفِ (مِنْ)؛ لِيَحصُلَ التَّفَنُّنُ بينَ المكرَّرين؛ تجديدًا لِنَشاطِ السَّامِعين[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٤٩- ٢٥٠).

- ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ عبَّر بالمضارِعِ عن بَعْثِ الشُّهداءِ للأُممِ الماضيَةِ؛ لأنَّه مُرادٌ به بَعثُهم يومَ القيامةِ[1].

- قولُه: ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فيه إيثارُ لفظِ (المَجيءِ) على (البَعْثِ)؛ لكَمالِ العنايةِ بشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وصيغةُ الماضي ﴿وَجِئۡنَا﴾ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوقوعِ[2].

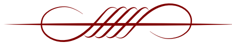
- ولم يُوصَفْ هنا نبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مِن أنفُسِهم كما وُصِفَ كلُّ شَهيدِ أُمَّةٍ بقوله: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مَبعوثٌ إلى جَميعِ الأممِ، وشَهيدٌ عليهم جميعًا، وأمَّا وصفُه بذلك في قولِه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فذلك وَصْفٌ كاشِفٌ اقْتَضاهُ مَقامُ التَّذكيرِ للمُخاطَبين مِن المنافِقين- في سورةِ (التوبةِ)- فهم الَّذين ضَمُّوا إلى الكُفرِ باللهِ كُفرانَ نِعمةِ بَعثِ رسولٍ إليهم مِن قومِهم، وليس في قولِه: ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ما يَقْتضي تَخْصيصَ شَهادتِه بكَونِها شَهادةً على المتحدَّثِ عنهم مِن أهلِ الشِّركِ، ولكِنِ اقْتصَرَ عليهِم؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في تَهْديدِهم وتَحذيرِهم، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى حاضِرٍ في الذِّهنِ وهُم المشرِكون الَّذين أكثَرُ الحديثِ علَيهم[3].

- ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ...﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿وَجِئۡنَا بِكَ شَهِيدًا﴾ وهذا تَخلُّصٌ للشُّروعِ في تَعْدادِ النِّعمِ على المؤمِنين مِن نِعَمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٢).

الإرشادِ، ونِعَمِ الجزاءِ على الامتثالِ، وبَيانِ بَرَكاتِ هذا الكتابِ المنزَّلِ لهم[١].

- قولُه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ التِّبيانُ مَصدرٌ دالٌّ على المبالَغةِ في المصدريَّةِ، ثمَّ أُريدَ به اسمُ الفاعِلِ، فحَصَلَت مُبالَغتانِ. و(كُلِّ شَيْءٍ) يُفيدُ العُمومَ، إلَّا أنَّه عمومٌ عُرْفيٌّ في دائرةِ ما لِمِثلِه تَجيءُ الأديانُ والشَّرائعُ؛ مِن إصلاحِ النُّفوسِ، وإكمالِ الأخلاقِ، وتقويمِ المجتمَعِ، وتبيينِ الحقوقِ وغيرِ ذلك، وفي خِلالِ ذلك كلِّه أسرارٌ ونُكتٌ مِن أصولِ العلومِ والمعارفِ، صالِحةٌ لأَنْ تكونَ بَيانًا لكلِّ شيءٍ على وجهِ العُمومِ الحقيقيِّ إنْ سُلِك في بَيانِها طَريقُ التَّفصيلِ، واستُنيرَ فيها بما شَرَح الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما قَفَّاه به أصحابُه وعُلماءُ أُمَّتِه؛ ففي كلِّ ذلك بَيانٌ لكلِّ شيءٍ يُقصَدُ بيانُه للتَّبصُّرِ في هذا الغَرَضِ الجليلِ؛ فيَؤولُ ذلك العُمومُ العُرفيُّ بصَريحِه إلى عُمومٍ حقيقيٍّ بضِمْنِه ولَوازِمِه، وهذا مِن أبدَعِ الإعجازِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٥٣).

الآيات (٩٠-٩٢)

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا
عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا
تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ
بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ
وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣ ﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: أي: كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ ومُستَشنَعٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ، وشَناعةٍ[1].

﴿وَٱلۡبَغۡيِ﴾: أي: الظُّلمِ، والاستطالةِ على الناسِ، وقيل: الكِبْر، وأصلُ (بغي): يدلُّ على مجاوزةِ الحَدِّ[2].

﴿كَفِيلًا﴾: أي: مُتكَفِّلًا بوفائِكم، والكفيلُ: الشَّاهِدُ، والضَّامِنُ، والرَّقيبُ على الشَّيءِ، المُراعي لتحقيقِ الغَرَضِ منه، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٢).

﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: أي: حَلَّتْه وأفسَدَتْه بعدَ إبرامِه وإحكامِه، والغَزْلُ: هنا مَصدرٌ بمعنى المفعولِ، أي: المغزولُ، والغَزْلُ: فَتْلُ نُتَفٍ مِن الصوفِ أو الشَّعرِ؛ لِتُجعَلَ خيوطًا مُحكَمةً، وأصلُ (نقض): يدُلُّ على نكثِ شَيءٍ[1].

﴿أَنكَاثًا﴾: أي: أنقاضًا، جمعُ نِكثٍ: وهو ما نُقِضَ مِن غَزلِ الشَّعرِ وغَيرِه، وأصلُ (نكث): يدلُّ على نَقضِ شَيءٍ[2].

﴿دَخَلًا﴾: أي: دَغَلًا ومَكرًا وخيانةً، وكُلُّ ما دخَلَه عَيبٌ، قيل: هو مَدخُولٌ، وفيه دَخَلٌ، وأصلُ (دخل): يدلُّ على وُلوجٍ[3].

﴿أَرْبَىٰ﴾: أي: أكثَرَ وأزْيَدَ؛ من رَبا الشَّيءُ يَربُو: إذا كَثُرَ وزادَ، وأصلُ (ربو): يدلُّ على زيادةٍ ونماءٍ وعُلُوٍّ[4].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا عبادَه إلى أمهاتِ الفضائلِ، ومكارمِ الأخلاقِ، ومحذِّرًا مِن الرذائلِ: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يأمُرُ عبادَه بالعَدلِ والإنصافِ في حَقِّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

وفي حَقِّ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه وإلى خَلقِه، وإعطاءِ ذَوِي القَرابةِ حُقوقَهم، وينهى عن كُلِّ ما قَبُحَ قَولًا أو عَملًا، وعَمَّا يُنكِرُه الشَّرعُ ولا يَرضاه، وعن ظُلمِ النَّاسِ والتعَدِّي عليهم، يَعِظُكم اللهُ؛ لكي تتذَكَّروا أوامِرَه وتَنتَفِعوا بها.

ويأمرُ الله تعالى بالوفاءِ بالعهدِ فيقولُ: والتَزِموا الوفاءَ بكُلِّ عَهدٍ فيما بينكم وبينَ الله، وما بينَكم وبينَ الناسِ مما لا يُخالِفُ كِتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّه، ولا تُخالِفوا العُهودَ التي أكَّدْتُموها بالحَلِفِ بالله، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حفيظًا وضامِنًا حينَ عاهَدتُم؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تَفعَلونَ.

ثمَّ ضرَب الله مثلًا فيه تقبيحٌ لنقضِ العهدِ، فقال: ولا يكنْ مَثَلُكم في نَقضِ العُهودِ مَثَلَ امرأةٍ غَزَلَت غَزْلًا وأحكَمَتْه، ثم نقَضَتْه بعد تَقويتِه وإحكامِه، تَجعلونَ أيمانَكم التي حَلَفْتُموها عند التَّعاهُدِ خَديعةً لِمَن عاهَدتُموه، وتَنقُضونَ عَهدَكم إذا وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثَرَ مالًا ومنفعةً مِن الذين عاهَدتُموهم، إنَّما يَختبرُكم اللهُ بما أمرَكم به مِن الوفاءِ بالعُهودِ، وليُبيِّنَنَّ لكم يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختلِفونَ في الدُّنيا.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ قدرتَه لا يُعجِزُها شيءٌ فقال: ولو شاء اللهُ لجَعَلكم على مِلَّةٍ واحدةٍ، وهي الإسلامُ، ولكِنَّه سُبحانَه يُضِلُّ بحِكمتِه مَن يشاءُ؛ عدلًا منه، ويَهدي مَن يشاء؛ فَضلًا منه، ولَيَسألَنَّكم اللهُ جميعًا يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تعمَلونَ في الدُّنيا، وسيُجازيكم عليه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا استقصَى في شَرحِ الوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ أتبَعَه بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ فجمَعَ في هذه الآيةِ ما يتَّصِلُ بالتَّكليفِ فَرضًا ونَفلًا، وما يتَّصِلُ بالأخلاقِ والآدابِ عُمومًا وخُصوصًا[1].

وأيضًا: لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى فَضْلَ هذا القُرآنِ بما يقطَعُ حُجَّةَ الكافرينَ، وكان قد قدَّمَ فَضْلَ مَن يأمُرُ بالعَدلِ وهو على صِراطٍ مُستقيمٍ؛ أخذَ يُبَيِّنُ اتِّصافَ القُرآنِ ببيانِ كُلِّ شَيءٍ، وتضَمُّنِه لذلك الطَّريقِ الأقومِ، فقال اللهُ تعالى[2]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يأمُرُ عِبادَه بالإنصافِ، وأداءِ حُقوقِ الله تعالى، وحُقوقِ عبادِه، ويأمُرُ بالإحسانِ في عبادتِه، والإحسانِ إلى خَلْقِه، ويأمُرُ بإعطاءِ الأرحامِ حُقوقَهم، وإسداءِ الخَيرِ إليهم؛ صِلةً لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤- ٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٧).

قال ابنُ عطية: (العدلُ: هو فِعلُ كلِّ مفروضٍ مِن عقائِدَ وشرائعَ وسَيرٍ مع الناسِ؛ في أداء الأمانات، وتركِ الظُّلم، والإنصافِ وإعطاء الحقِّ. والإحسانُ: هو فِعلُ كُلِّ مندوب إليه، فمِن الأشياءِ ما هو كلُّه مندوبٌ إليه، ومنها ما هو فرضٌ إلَّا أنَّ حَدَّ الإجزاء منه داخِلٌ في العدلِ، والتكميلُ الزائدُ على حد الإجزاءِ داخِلٌ في الإحسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٦).

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقال سُبحانه: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾.

أي: وينهَى اللهُ عن كُلِّ مَعصيةٍ مُتناهيةٍ في القُبحِ، كالزِّنا، وينهَى عمَّا تَستنكِرُه النُّفوسُ المُعتَدِلةُ، وتأباه الشَّريعةُ مِن فِعلٍ أو قولٍ، وينهَى عن ظُلمِ النَّاسِ، والتَّعدي عليهم في دمائِهم وأموالِهم وأعراضِهم(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال سُبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وعن أبي بَكْرةَ نُفَيع بنِ الحارِثِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن ذَنبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا، مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرةِ؛ مِن البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))(١).

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: يُذكِّرُكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- بما يأمُرُكم به، وما يَنهاكم عنه؛ لأجلِ أن

قال ابنُ كثير: (فالفَواحِشُ: المُحَرَّمات. والمُنكَرات: ما ظهَرَ منها مِن فاعِلِها؛ ولهذا قيل في الموضِعِ الآخَرِ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٥).

وقال البقاعي: (﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهي ما اشتَدَّ تَقصيرُه عن العَدلِ، فكان ضِدَّ الإحسانِ. ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما قصُرَ عن العَدلِ في الجُملةِ. ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ وهو الاستعلاءُ على الغيرِ ظُلمًا). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٣٨).

وقال ابن عاشور: (فدخلَ في الفَحشاءِ كُلُّ ما يُوجِبُ اختلالَ المُناسِبَ الضَّروريَّ، وقد سَمَّاها اللهُ الفواحِشَ... وشَمِلَ المُنكَرُ كُلَّ ما يُفضي إلى الإخلالِ بالمُناسِبِ الحاجِيِّ، وكذلك ما يُعطِّلُ المُناسِبَ التَّحسينيَّ بدونِ ما يُفضي منه إلى ضُرٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٧).

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١) واللفظ له، وأحمد (٢٠٤١٤).

قال الترمذي: حسن صحيح، وصححه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٢٣١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١).

تتذَكَّروه فتَتُوبوا إليه، وتَمتَثِلوا أوامِرَه، وتَجتَنِبوا نواهِيَه[١].

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا جمَعَ كُلَّ المأموراتِ والمَنهِيَّاتِ في الآيةِ السَّابقةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَ في هذه الآيةِ بَعضَ تلك الأقسامِ، فبدأ تعالى بالأمْرِ بالوَفاءِ بالعَهدِ[٢].

﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾.

أي: وأوفُوا -أيُّها النَّاسُ- بجَميعِ العُهودِ، فيما بَينَكم وبين رَبِّكم، وفيما بَينَكم وبَينَ النَّاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

قال الشوكاني: (وخَصَّ هذا العهدَ المذكورَ في هذه الآيةِ بَعضُ المُفَسِّرينَ بالعَهدِ الكائِنِ في بيعةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإسلامِ، وهو خِلافُ ما يُفيدُه العَهدُ المضافُ إلى اسمِ اللهِ سُبحانَه مِن العُمومِ الشَّامِلِ لجَميعِ عُهودِ الله، ولو فُرِضَ أنَّ السَّبَبَ خاصٌّ بعَهدٍ مِن العهودِ، لم يكن ذلك مُوجِبًا لقَصْرِه على السَّبَبِ؛ فالاعتبارُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (وهذا يشمَلُ جَميعَ ما عاهدَ العبدُ عليه ربَّه مِن العباداتِ والنُّذورِ والأيمانِ التي عقَدَها، إذا كان الوفاءُ بها بِرًّا، ويشمَلُ أيضًا ما تعاقَدَ عليه هو وغيرُه، كالعُهودِ بين المُتعاقِدين، وكالوَعدِ الذي يَعِدُه العَبدُ لغَيرِه، ويؤكِّدُه على نفسِه، فعليه في جميعِ ذلك الوفاءُ، وتتميمُها مع

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال سُبحانه: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾.

أي: ولا تُخالِفوا العُهودَ التي أكَّدْتُموها وغلَّظْتُموها بالحَلِفِ بالله[١].

﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾.

أي: لا تَنقُضوا عُهودَكم المُؤكَّدةَ باليمينِ، فتَحْنَثوا فيها، وقد جعَلْتُم اللهَ عليكم حَفيظًا وشَهيدًا ومتكَفِّلًا بوفائِكم بالعُهودِ، فيَكونَ ذلك منكم تَرْكًا لتعظيمِ اللهِ واستهانةً به[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

مناسبتُها لما قبلَها:

القدرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

قال ابن تيمية: (أمَرَهم أن يُوفوا بالعقودِ التي كانوا يتعاقدون بها، وكانوا يسمُّونَها تحالُفًا، ويسمُّونَ الرجُلَ حليفًا، وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ ولم يكن بصيغة القسَمِ التي ذكرها النُّحاةُ؛ ولهذا لم يقلْ: وقد أقسَمْتُم بالله، بل قال: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ كما عاهد موسى عليه السَّلامُ صاحِبَ مدينَ على النكاحِ بخدمته المدَّةَ المشروطةَ، وقال موسى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨] ولم يتقاسَما بالله، وكذلك الذي دفع ألفَ دينارٍ قَرضًا، وقال: «هلُمَّ شاهدًا، قال: كفى بالله شهيدًا، قال: هلُمَّ كفيلًا، قال: كفى بالله وكيلًا»، فلما جاء الأجلُ نقَرَ خشبةً وألقى الذهبَ فيها؛ لكفالة الله تعالى إيَّاه). ((العقود)) (ص: ٦٥).

لما كان مِن شأنِ الرَّقيبِ حفظُ أحوالِ مَن يراقبُه، قال تعالى مُرَغِّبًا مُرهِّبًا[١]:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كُلَّ ما تَفعَلونَه، ومِن ذلك وفاؤُكم بالعُقودِ ونَقضُها، وسيُجازي كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه[٢].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ بالوَفاءِ، ونهى عن النَّقضِ؛ شرَعَ في تأكيدِ وُجوبِ الوَفاءِ، وتَحريمِ النَّقضِ وتَقبيحِه؛ تنفيرًا منه، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾.

أي: ولا تَكونوا -أيُّها النَّاسُ- في نَقضِ العُهودِ التي أكَّدْتُموها كالمرأةِ التي تَنقُضُ غَزْلَها ونَسْجَها بعد تَقويتِه وإحكامِه، فتَحُلُّ ما نسَجَت وتجعَلُه أنقاضًا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤١، ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿أَنكَٰثٗا﴾ يحتَمِلُ أن يكون اسمَ مصدر: نقَضَت غَزْلَها أنكاثًا، أي: أنقاضًا. ويحتَمِلُ أن يكون بدلًا عن خبَرِ كان، أي: لا تكونوا أنكاثًا، جمعُ نِكْثٍ، مِن ناكث).

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

أي: تَجعَلونَ أيمانكم وسيلةً للغَدرِ والمَكرِ بمَن عاهَدْتُموهم، فتحلفونَ لهم؛ ليَطمئنُّوا إليكم، وتَعقِدونَ معهم العُهودَ، وأنتم مُضمِرونَ نَقْضَها إن وجَدْتُم قومًا آخرينَ أكثرَ منهم عددًا أو قُوَّةً أو غِنًى؛ طلبًا للدُّنيا، فإذا أمكنَكم الغدرُ بهم غَدَرتُم[1].

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾.

أي: إنَّما يَختبِرُكم اللهُ بما يأمُرُكم به من الوَفاءِ بالعُهودِ، ولو كان قَومٌ أحسَنَ مِن قَومٍ؛ ليتبَيَّنَ المُطيعُ منكم، والمُخالِفُ لأمره[2].

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

قال السعدي: (لا تنبغي هذه الحالةُ منكم؛ تَعقِدونَ الأيمانَ المُؤكَّدةَ وتَنتَظِرونَ فيها الفُرَصَ، فإذا كان العاقِدُ لها ضعيفًا غيرَ قادرٍ على الآخَرِ أتمَّها، لا لتعظيمِ العَقدِ واليَمينِ، بل لِعَجزِه، وإن كان قويًّا يرى مَصلحتَه الدُّنيويَّةَ في نَقْضِها، نَقَضَها غيرَ مُبالٍ بعَهدِ اللهِ ويَمينِه. كُلُّ ذلك دَورانًا مع أهواءِ النُّفوسِ، وتقديمًا لها على مُرادِ اللهِ منكم، وعلى المُروءةِ الإنسانيَّةِ، والأخلاقِ المَرْضيَّةِ؛ لأجلِ أن تكونَ أمَّةٌ أكثَرَ عددًا وقُوَّةً مِن الأخرى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

وقال ابنُ جزي: (وقيل: الإشارةُ بالأربى هنا إلى كفَّارِ قريشٍ إذ كانوا حينئذٍ أكثرَ مِن المسلمين). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور في معنى الآيةِ: (أي: لا يحملُكم على نقضِ الحلِفِ أنْ يكونَ المشركونَ أكثرَ عددًا وأموالًا مِنَ المسلمينَ، فيبعثُكم ذلك على الانفصالِ عن جماعةِ المسلمينَ، وعلى الرُّجوعِ إلى الكفَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

أي: ولَيُبيِّنَنَّ اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ ما كُنتُم فيه تَختَلِفونَ في الدُّنيا، كالاختِلافِ في تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسُلِه، وثُبوتِ البَعثِ، والعُهودِ التي عَقَدْتُموها، فيَحكُمُ بينكم، ويُجازي كُلَّ عاملٍ بعَمَلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۞ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٨-٦٩].

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ونهى، وخَوَّفَ مِن العذابِ في القيامةِ، وكان ربَّما ظَنَّ مَن لا عِلمَ له -وهم الأكثَرُ- مِن كثرةِ التَّصريحِ بالحَوالةِ على القيامةِ؛ نَقْصَ القُدرةِ في هذه الدَّارِ- صَرَّحَ بنَفيِ ذلك[٢].

وأيضًا لَمَّا كَلَّفَ اللهُ تعالى القَومَ بالوفاءِ بالعَهدِ، وتحريمِ نَقضِه؛ أتبَعَه ببيانِ أنَّه تعالى قادِرٌ على أن يجمَعَهم على هذا الوفاءِ، وعلى سائِرِ أبوابِ الإيمانِ، ولكِنَّه سُبحانَه بحُكمِ الإلهيَّةِ يُضِلُّ مَن يشاءُ، ويهدي مَن يَشاءُ[٣]، فأحال الأمرَ هنا على المشيئةِ إجمالًا، لتعذُّرِ نشرِ مطاوي الحكمةِ مِن ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٧).

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء اللهُ لجعَلَكم جميعًا -أيُّها النَّاسُ- على مِلَّةٍ واحدةٍ؛ مِلَّةِ الإسلامِ، دونَ حُدوثِ اختلافٍ أو تفرُّقٍ بينكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ بحِكمَتِه خالَفَ بينَكم، فجعَلَكم أهلَ مِلَلٍ شَتَّى مُختَلِفةٍ، يخذُلُ مَن يشاءُ عن اتِّباعِ الحَقِّ، فيَحرِمُ توفيقَه مَن لا يستَحِقُّ؛ عدلًا منه سُبحانه، ويوفِّقُ مَن يشاءُ، فيهدي للحَقِّ مَن يستَحِقُّ؛ فضلًا منه سُبحانه(٢).

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وليَسألَنَّكم اللهُ جميعًا -أيُّها النَّاسُ- يومَ القيامةِ عَمَّا كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها(١).

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ فالإحسانُ فَوقَ العَدلِ، وذلك أنَّ العَدلَ هو أن يُعطِيَ ما عليه، ويأخُذَ ما له، والإحسانَ أن يُعطيَ أكثَرَ ممَّا عليه، ويأخُذَ أقلَّ ممَّا له، فالإحسانُ زائِدٌ عليه، فتَحرِّي العَدلِ واجِبٌ، وتحَرِّي الإحسانِ نَدْبٌ وتَطَوُّعٌ؛ ولذلك عَظَّمَ اللهُ ثوابَ أهلِ الإحسانِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (إيتاءُ ذي القُربى) لَفظٌ يَقتَضي صِلَةَ الرَّحِمِ ويعُمُّ جَميعَ إسداءِ الخَيرِ إلى القَرابةِ، وتَرْكُه مُبهمًا أبلَغُ؛ لأنَّ كُلَّ مَن وصَلَ في ذلك إلى غايةٍ وإن عَلَت، يرى أنَّه مُقَصِّرٌ(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ خصَّ اللهُ تعالى بالذِّكرِ مِن جِنسِ أنواعِ العَدلِ والإحسانِ نَوعًا مُهِمًّا يَكثُرُ أن يَغفُلَ النَّاسُ عنه ويتهاونوا بحَقِّه أو بفَضلِه، وهو إيتاءُ ذي القُربى؛ فقد تقَرَّرَ في نُفوسِ النَّاسِ الاعتناءُ باجتلابِ الأبعَدِ واتِّقاءِ شَرِّه، كما تقَرَّرَ في نُفوسِهم الغَفلةُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٦).

القريبِ، والاطمِئنانُ مِن جانِبِه، وتعَوُّدُ التَّساهُلِ في حُقوقِه، ولأجْلِ ذلك صَرَفوا مُعظَمَ إحسانِهم إلى الأبعَدينَ؛ لاجتلابِ المَحمَدةِ، وحُسنِ الذِّكرِ بينَ النَّاسِ، ولم يَزَلْ هذا الخُلُقُ مُتفَشِّيًا في النَّاسِ حتى في الإسلامِ إلى الآنَ، ولا يَكترِثونَ بالأقرَبينَ، فخَصَّ اللهُ تعالى بالذِّكرِ مِن بينِ جِنسِ العَدلِ وجِنسِ الإحسانِ إيتاءَ المالِ إلى ذي القُربى؛ تنبيهًا للمُؤمِنينَ يومَئذٍ بأنَّ القَريبَ أحَقُّ بالإنصافِ مِن غَيرِه، وأحَقُّ بالإحسانِ مِن غَيرِه؛ لأنَّه محَلُّ الغفلةِ، ولأنَّ مَصلحَتَه أجدى مِن مصلحةِ أنواعٍ كثيرةٍ[١].

٤- قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ وضابِطُ الوَعظِ: هو الكَلامُ الذي تَلينُ له القُلوبُ، وأعظَمُ ما تَلينُ له قُلوبُ العُقَلاءِ أوامِرُ رَبِّهم ونواهيه؛ فإنَّهم إذا سَمِعوا الأمْرَ خافُوا مِن سَخَطِ اللهِ في عدَمِ امتِثالِه، وطَمِعوا فيما عندَ اللهِ مِن الثَّوابِ في امتِثالِه، وإذا سَمِعوا النَّهيَ خافُوا مِن سخَطِ اللهِ في عدَمِ اجتِنابِه، وطَمِعوا فيما عِندَه من الثَّوابِ في اجتنابِه، فحَداهم حادي الخَوفِ والطَّمَعِ إلى الامتِثالِ، فلانَت قُلوبُهم للطَّاعةِ خَوفًا وطَمعًا[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ فيه الحَثُّ على الوفاءِ بالعُهودِ، والبِرِّ في الأيمانِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ خَتَمَ اللهُ الآيةَ بالعلمِ؛ تهديدًا عن نَقْضِ العهدِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ ما يَفعَلُ، فإنَّه لا يَنقُضُ العهدَ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٧٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ ينبغي أن يُحافِظَ على ما اعتادَه مِن الخَيرِ، يعني: لا تكونوا كالمرأةِ الغازِلةِ التي تَغزِلُ الصُّوفَ، ثمَّ إذا غزَلَتْه وأتقَنَتْه نَقَضَتْه أنكاثًا ومَزَّقَتْه!! بل دُوموا على ما أنتُم عليه[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الآيةُ جَمَعت أحكامًا كثيرةً، وتضَمَّنَت جميعَ أوامِرِ الشَّرعِ ونواهيه[٢]، وهي أجمعُ آيةٍ في القُرآنِ للحَثِّ على المَصالحِ كُلِّها، والزَّجرِ عن المَفاسِدِ بأَسْرِها[٣]، وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: (إنَّ أجمَعَ آيةٍ في القُرآنِ، في سُورةِ النَّحلِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾)[٤]، وعن الحَسَنِ البصريِّ: (أنَّه قرأ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ إلى آخِرِها، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ جمَعَ لكم الخَيرَ كُلَّه والشَّرَّ كُلَّه في آيةٍ واحدةٍ، فواللهِ ما ترَكَ العَدلُ والإحسانُ مِن طاعةِ اللهِ شَيئًا إلَّا جمَعَه، ولا ترَكَ الفَحشاءُ والمُنكَرُ والبَغيُ مِن معصيةِ الله شَيئًا إلَّا جمَعَه)[٥].

٢- الدِّينُ الإسلاميُّ ليس دينَ مُساواةٍ، الدينُ الإسلاميُّ دينُ عَدْلٍ، وهو إعطاءُ كلِّ

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤).

(٣) يُنظر: ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) للعز بن عبد السلام (٢/ ١٨٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في ((المصنف)) (٣/ ٣٧٠) (٦٠٠٢)، وابنُ جرير ((تفسيره)) (١٤/ ٣٣٧).

(٥) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (١٣٨).

شَخصٍ ما يَستَحِقُّ، فإذا استوى شَخصانِ في الأحقِّيَّةِ؛ فحينئذٍ يتساويانِ فيما يَتَرَتَّبُ على هذه الأحقِّيَّةِ، أمَّا مع الاختلافِ فلا، ولا يُمكِنُ أن يُطلَقَ أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ دينُ مساواةٍ أبدًا، بل إنَّه دينُ العَدلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا﴾ وجهُ جَعْلِ اللهِ له كَفيلًا: أنَّ الإنسانَ إذا عَاهَدَ غيرَه قال: أعاهِدُك باللهِ، أي: أجْعَلُ اللهَ كفيلًا[٢].

٤- يُستَفادُ عمومُ قدرةِ اللهِ جلَّ وعلا؛ وأنَّ بيَدِه الأمورَ الشَّرعيَّةَ والكونيَّةَ، مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ يعني: على مِلَّةٍ واحدةٍ، ولكِنَّه سُبحانه وتعالى له الحِكمةُ البالِغةُ فيما قَدَّرَ وشَرَعَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ شَديدةٌ؛ لجَمْعِه بين المَشيئةِ والإضلالِ، والهُدى والسُّؤالِ عن العَمَلِ في آيةٍ واحدةٍ، وهو قَولُنا الذي نَقولُه: إنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه لو شاء لجعَلَ النَّاسَ كُلَّهم مُؤمِنينَ، ولكِنَّه لم يفعَلْ، فأضَلَّ قومًا فكَفَروا، وهدى قومًا فآمَنوا، فعذَّبَ الكافِرَ بجِنايتِه، وقد قضاها عليه بعَدلِه سُبحانَه، وأثاب المؤمِنَ على إحسانِه، وقد هداه إليه بفَضلِه سُبحانَه. وكُلُّ هذا حُكمٌ مُنتَظِمٌ، وعَدلٌ شامِلٌ، وفَضلٌ بيِّنٌ، عقَلَتْه الخَليقةُ بعُقولِها أم لم تَعقِلْه، ولو لم يكُنْ في القُرآنِ مِنَ الرَّدِّ عليهم إلَّا هذه الآيةُ وَحدَها لكَفَتْهم، فكيف وهو مملوءٌ بأمثالِها بحَمدِ اللهِ ونِعمتِه[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ١٠٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٨٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بشأنِ ما حَوَتْه، وتَصديرُهما باسْمِ الجَلالةِ للتَّشريفِ، وذِكَر ﴿يَأۡمُرُ﴾ ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾ دونَ أن يُقالَ: اعدِلوا واجتَنِبوا الفَحشاءَ؛ للتَّشويقِ[١].

- فيه إيثارُ صيغةِ الاستِقْبالِ ﴿يَأۡمُرُ﴾ ﴿وَيَنۡهَىٰ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ تخصيصٌ بعدَ تعميمٍ؛ للمُبالَغةِ[٣].

- قولُه تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ﴾ خَصَّ اللهُ تعالى بالذِّكْرِ نوعًا مِن الفَحشاءِ والمنكَرِ، وهو البَغيُ؛ اهتِمامًا بالنَّهيِ عنه، وسدًّا لِذَريعةِ وُقوعِه؛ لأنَّ النُّفوسَ تَنساقُ إليه بدافِعِ الغضَبِ، وتَغفُلُ عمَّا يَشمَلُه مِن النَّهيِ مِن عُمومِ الفحشاءِ؛ بسبَبِ فُشوِّه بينَ النَّاسِ[٤].

- وهذه الآيةُ قيل: هي أجمَعُ آيةٍ في القرآنِ للخيرِ والشَّرِّ، وقد اشتَمَلَت على أفانينَ مِن البلاغةِ؛ منها الإيجازُ: حيث أمَر في أوَّلِ الآيةِ بكلِّ معروفٍ، ونَهى بعدَ ذلك عن كلِّ مُنكَرٍ، وختَم الآيةَ بأبلَغِ العِظاتِ، وصاغ ذلك في أوجَزِ العباراتِ. ومنها: صِحَّةُ التَّقسيمِ؛ فقد استَوْفى فيها جميعَ أقسامِ المعنى؛ فلم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٥٨).

يَبْقَ معروفٌ إلَّا وهو داخِلٌ في نِطاقِ الأمرِ، ولم يَبقَ مُنكَرٌ إلَّا وهو داخِلٌ في حيِّزِ النَّهيِ، وقدَّم ذِكرَ العدلِ؛ لأنَّه واجبٌ، وتَلاه بالإحسانِ؛ لأنَّه مندوبٌ؛ لِيَقَعَ نَظمُ الكلامِ على أحسَنِ تَرتيبٍ، وقرَنَهما في الأمرِ؛ لأنَّ الفَرضَ لا يَخْلو مِن خلَلٍ وتفريطٍ يَجبُرُه النَّدْبُ والنَّوافلُ، وخَصَّ ذا القُرْبى بالذِّكْرِ بعدَ دُخولِه في عُمومِ مَن أمَر بمُعامَلتِه بالعَدلِ والإحسانِ؛ لِبيانِ فَضلِ ذي القُربى، وفَضلِ الثَّوابِ عليه. ومِنها: حُسنُ النَّسَقِ في ترتيبِ الجُمَلِ وعَطْفِها بَعضِها على بعضٍ كما ينبَغي، حيث قدَّم العدْلَ وعطَف عليه الإحسانَ؛ لِكَونِ الإحسانِ اسمًا عامًّا، وإيتاءُ ذي القُرْبى خاصٌّ؛ فكأنَّه نوعٌ مِن ذلك الجنسِ، ثمَّ أتى بجُملَةِ الأمرِ مُقدَّمةً، وعطَف عليها جُملةَ النَّهيِ. ومِنها: تمكينُ الفاصِلةِ؛ لأنَّ مَقطَعَ الآيةِ مُستقِرٌّ في حيِّزِه، ثابتٌ في مَقرِّه، وقَرارُه مَعناه متعلِّقٌ بما قَبلَه إلى أوَّلِ الكلامِ، ولأنَّه لا تَحسُنُ الموعظةُ إلَّا بعدَ التَّكليفِ ببَيانِ الأمرِ والنَّهيِ، ولأنَّ أيَّ لفظةٍ حذَفْتَها مِن ألفاظِ الآيَةِ يَختَلُّ المعنى بحَذْفِها اختِلالًا ظاهِرًا، ويَنقُصُ نَقصًا بيِّنًا(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (إذا) لمجرَّدِ الظَّرفيَّةِ؛ لأنَّ المخاطَبين قد عاهَدوا اللهَ على الإيمانِ والطَّاعةِ؛ فالإتيانُ باسْمِ الزَّمانِ لِتَأكيدِ الوَفاءِ.

- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ خَصَّ اليمينَ بالذِّكرِ؛ تنبيهًا على أنه أَولى أنواعِ العَهدِ بوُجوبِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦).

الرِّعايةِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيه التَّوكيدُ بـ (إنَّ) للاهْتِمامِ بالخبَرِ، وكذلك التَّأكيدُ ببِناءِ الجملةِ بالمسنَدِ الفِعليِّ: ﴿يَعۡلَمُ﴾ دونَ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ عليمٌ، ولا: قد يَعلَمُ اللهُ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ تشنيعٌ لحالِ الَّذين يَنقُضون العَهدَ، وعطفٌ على جملةِ: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ واعتمَد العَطفُ على المغايَرةِ في المعنى بينَ الجُملتَينِ؛ لِمَا في هذه الثَّانيةِ مِن التَّمثيلِ وإن كانت مِن جهةِ الموقِعِ كالتَّوكيدِ لِجُملةِ: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ نُهوا عن أن يَكونوا مَضرِبَ مَثَلٍ معروفٍ في العرَبِ بالاستهزاءِ، وهو المرأةُ الَّتي تَنقُضُ غَزْلَها بعدَ شَدِّ فَتْلِه، وعبَّر عَنها بطريقِ الموصوليَّةِ؛ لاشتِهارِها بمَضْمونِ الصِّلَةِ، ولأنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو الحالةُ المشبَّهُ بها في هذا التَّمثيلِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا للتَّعليلِ بما يَقْتَضي الحِكْمةَ، وهو أنَّ ذلك يَبتَلي اللهُ به صِدْقَ الإيمانِ، والقَصْرُ المستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ قصرُ موصوفٍ على صِفةٍ. ثمَّ عطَف عليه تأكيدَ أنَّه سيُبيِّنُ لهم يومَ القيامةِ ما يَختلِفون فيه مِن الأحوالِ، فتَظهَرُ الحقائقُ كما هي غيرَ مُغشَّاةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٦٤).

بزَخارِفِ الشَّهواتِ، ولا بمَكارِهِ مُخالَفةِ الطِّباعِ؛ لأنَّ الآخِرةَ دارُ الحقائقِ لا لَبْسَ فيها. وأكَّد هذا الوعدَ بمُؤكِّدَينِ: القسَمِ الَّذي دلَّت عليه اللَّامُ، ونونِ التَّوكيدِ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مؤكَّدٌ بتأكيدَينِ، وهُما القَسَمُ الَّذي دلَّتْ عليه اللَّامُ، ونونُ التَّوكيدِ، والسُّؤالُ: كنايةٌ عن المُحاسَبةِ؛ لأنَّه سؤالٌ حَكيمٌ تَترتَّبُ عليه آثارُه، وليس سؤالَ استِطْلاعٍ[2].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٦- ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٦٨).

الآيات (٩٤-٩٧)

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَزِلَّ﴾: أي: فتَسقُطَ وتَزْلَقَ؛ مِن الزَّلَلِ: وهو عُثورُ القَدَمِ، وزَلَلُ القَدَمِ تَقولُه العَرَبُ لكُلِّ ساقِطٍ في وَرطةٍ بعدَ سَلامةٍ[1].

﴿يَنفَدُ﴾: أي: يفنى، والنَّفَادُ: الفَناءُ، وأَصْل (نفد): يدلُّ على انقطاعِ شيءٍ وفنائِه[2].

المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ولا تَجعَلوا الأيمانَ التي تَحلِفونَها خديعةً لِمَن حَلَفتُم لهم، فتَزِلَّ أقدامُكم بعد أن كانت ثابِتةً على الدِّينِ، وتَذوقوا ما يَسوؤُكم من العذابِ في الدُّنيا؛ بسببِ إعراضِكم ومَنْعِ غيرِكم عن هذا الدِّينِ؛ لِما رأَوْه منكم مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

الغَدرِ، ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ. ولا تَنقُضوا عهدَ اللهِ؛ لتُحَصِّلوا عَرَضًا قليلًا مِن متاعِ الدُّنيا، إنَّ ما عندَ اللهِ مِن الثَّوابِ على الوفاءِ أفضَلُ لكم من هذا الثَّمَنِ القليلِ، إن كُنتُم تعلَمون.

ثمَّ رغَّبهم الله تعالى في العملِ بما يُرضيه بعدَ الترغيبِ السابقِ، فقال: ما عِندَكم مِن حُطامِ الدُّنيا يذهَبُ، وما عندَ اللهِ لكم مِن الرِّزقِ والثَّوابِ في الجنَّةِ باقٍ لا يَزولُ، ولنُثيبَنَّ الذين صَبَروا ثوابَهم على أحسَنِ أعمالِهم الصالحةِ، ونتَجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم.

ثمَّ بيَّن تعالى حسنَ عاقبةِ المؤمنينَ الذين يحرصونَ على عملِ الصالحاتِ، فقال تعالى: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا ذكرًا أم أنثى، وهو مؤمِنٌ بالله ورَسولِه؛ فلَنُحيينَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، ولنَجزينَّهم في الآخرةِ ثوابَهم على أحسَنِ ما عَمِلوا في الدُّنيا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا حَذَّرَهم اللهُ تعالى مِن نَقضِ الأيمانِ الذي يَؤولُ إلى اتِّخاذِ أيمانِهم دَخَلًا فيهم، وأشار بالإجمالِ إلى ما في ذلك من الفَسادِ فيهم؛ أعاد الكَرَّةَ إلى بيانِ عاقبةِ ذلك الصَّنيعِ إعادةً تُفيدُ التَّصريحَ بالنَّهيِ عن ذلك، وتأكيدَ التَّحذيرِ، وتَفصيلَ الفَسادِ في الدُّنيا، وسوءَ العاقبةِ في الآخرةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ أنَّ الكَذِبَ وما جرَّ إليه أقبَحُ القَبائِحِ، وأبعَدُ الأشياءِ عن المكارِمِ، وكان مِن أعظَمِ أسبابِ الخِلافِ، فكان أمرُه جَديرًا بالتَّأكيدِ، أعاد الزَّجرَ عنه بأبلَغَ مِمَّا مضى بصَريحِ النَّهيِ مُرَهِّبًا مِمَّا يترَتَّبُ على ذلك(١).

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾.

أي: ولا تَجعَلوا أيمانكم خَديعةً لِمَن تَحلِفونَ لهم؛ لِيُصدِّقوكم، وأنتم تَنوُونَ الغَدرَ والمَكرَ بهم إن سَنَحَت لكم فُرصةٌ، فتَنْحَرِفَ أقدامُكم بعد أن كانت ثابتةً على الدِّينِ وصِراطِ اللهِ المُستقيمِ، فتَهلِكوا(٢).

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ويَحُلَّ بكم العَذابُ في الدُّنيا؛ بسبَبِ إعراضِكم، وصَدِّكم النَّاسَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ، حين تَخدَعونَهم بالحَلِفِ الكاذِبِ، وتَغدِرونَ عَهْدَكم معهم، فلا يبقَى لهم وُثوقٌ في دينِ اللهِ سُبحانَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦).

ممن قال: إنَّ المرادَ هنا أنَّهم صدُّوا غيرَهم: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، ومكي، والخازن، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي ابن أبي طالب (٦/ ٤٠٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (و﴿صَدَدتُّمۡ﴾ هنا قاصرٌ، أي بكونِكم معرضينَ عن سبيلِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

وجمَع البقاعي والسعدي بينَ المعنيين السابقين.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولكم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ(١).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما كانت الرغبةُ في الدنيا، والمنافسةُ في الاستكثارِ منها، والطلبُ لِلَذَّاتِها، مِن أعظمِ الأسبابِ الباعثةِ للإنسانِ على نقضِ الأيْمانِ؛ زجَرهم الله تعالى عنها، ونبَّهَهم على ما هو خيرٌ لهم منها(٢).

وأيضًا فإنَّه لَمَّا كان ما سبَقَ خاصًّا بالأيمانِ؛ أتبَعَه النَّهيَ عن الخيانةِ في عُمومِ العَهدِ؛ تأكيدًا بعد تأكيدٍ؛ للدَّلالةِ على عظيمِ النَّقضِ، فقال تعالى(٣):

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا تَنقُضوا عُهودَكم التي أكَّدْتُموها بالأيمانِ؛ لنَيلِ مَتاعٍ قليلٍ مِن الدُّنيا(٤).

قال البقاعي: (﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ أي: أنفسَكم، ومنعتُم غيرَكم بأيمانِكم التي أردتُم بها الإفسادَ؛ لإخفاءِ الحقِّ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٤٦).

وقال السعدي: (﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيثُ ضللتُم وأضللتُم غيرَكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

وقال السمعاني: (سهَّلْتُم طريقَ نقضِ العهدِ على النَّاسِ بنقضِكم العهدَ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٩٩). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ ثَوابَ اللهِ لكم في الجَنَّة -إذا آثَرْتُم رِضا اللهِ فأطَعْتُموه بالوَفاءِ بعُهودِكم- أفضَلُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا القَليلِ، إنْ كُنتُم تَعلَمونَ حَقيقةَ الفَرقِ بينَ الدُّنيا الفانيةِ، والآخرةِ الباقيةِ(١).

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩٦﴾.

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

أي: ما عِندَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ينتهي ويَفنى، وإن كان كثيرًا، وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ في الجَنَّةِ مُستَمِرٌّ لا يَنقَطِعُ ولا يفنَى؛ فاحرِصوا عليه، واعمَلوا للظَّفَرِ به(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وقال سُبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولَنُثيبَنَّ يومَ القيامةِ الصَّابرينَ على أحسَنِ الذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الأعمالِ الصَّالحةِ، ونَتَجاوَزُ عن سَيِّئِ أعمالِهم(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وعَدَ اللهُ تعالى بعدَ أن توعَّدَ؛ أتبَعَه ما يُبيِّنُ أنَّ ذلك لا يخُصُّ شَريفًا ولا وَضيعًا، وإنَّما هو دائِرٌ مع وصفِ الإيمانِ، فقال تعالى، مرغِّبًا في عمومِ شرائعِ

وممَّن ذهب إلى أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾: الطاعات: ابن جرير، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن عاشور: (والباءُ للسَّببيَّة. و«أحسن» صيغةُ تفضيلٍ مُستعمَلةٌ للمبالغةِ في الحسَن... أي: بسبَبِ عَمَلِهم البالغِ في الحُسنِ، وهو عمَلُ الدَّوامِ على الإسلامِ، مع تجرُّعِ ألم الفِتنةِ من المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٢).

وقيل: المعنى: ولنجزينَّهم بجزاءٍ أشرفَ وأوفرَ مِن عملِهم. وممن قال بهذا المعنى: القاسمي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

قال الشنقيطي: (أقسَم -جلَّ وعَلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّه سيَجْزي الَّذينَ صَبَروا ﴿أَجْرَهُم﴾ أي: جزاءَ عملِهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وبيَّن في مواضعَ أُخرَ: أنَّه جزاءٌ بلا حِسابٍ؛ كما في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٣٩).

وقال الماوردي: (﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يحتَمِل وجهين: أحدُهما: أن يُجازى على أحسَنِ الأعمالِ، وهي الطاعة، دونَ المباحِ منها. الثاني: مضاعفةُ الجزاء، وهو الأحسَنُ، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢١٢).

قال الألوسي: (وجُوِّز أن يكون المعنى (لنجزينَّهم) بحسَبِ أحسَنِ أفراد أعمالِهم، أي: لنُعطينَّهم بمقابلة الفردِ الأدنى مِن أعمالِهم ما نُعطيه بمقابلة الفرد الأعلى منها، من الأجر الجزيلِ، لا أنَّا نعطي الأجرَ بحسَبِ أفرادها المتفاوِتةِ في مراتِبِ الحَسنِ، بأن نجزي الحَسَن منها بالحَسَنِ، والأحسَنَ بالأحسَنِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

الإسلامِ، جوابًا لمن كأنَّه قال: هذا خاصٌّ بأحدٍ دونَ أحدٍ[1]:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

أي: مَن عَمِلَ عمَلًا صالِحًا خالِصًا لله، مُوافِقًا للقُرآنِ والسُّنَّةِ- ومن ذلك الوَفاءُ بالعُهودِ- مِن ذكَرٍ أو أُنثَى، وهو مؤمِنٌ باللهِ ورَسولِه، مُصَدِّقٌ بوَعدِ اللهِ ووَعيدِه؛ فلَنُحيِيَنَّه في الدُّنيا حياةً سَعيدةً، وذلك بما يجده من حلاوةِ الإيمان، والأنسِ بالله تعالى، والتلذذِ بعبادتِه، وطُمأنينةِ قَلبِه، وسُكونِ نَفسِه، وبما يَرزُقُه اللهُ مِن الرزقِ الحلالِ الطيبِ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، معَ القناعةِ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤١٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٥، ٣٦)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠، ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٠).

قال ابن كثير: (والحياةُ الطيِّبةُ تشمَلُ وجوهَ الراحةِ مِن أي جهةٍ كانت، وقد رُوي عن ابن عباس وجماعةٍ أنَّهم فسَّروها بالرِّزقِ الحلال الطيِّبِ. وعن عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسَّرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس، وعِكرمة، ووهب بن منبِّه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: إنَّها السعادة. وقال الحسن، ومجاهد، وقتادة: لا يطيبُ لأحدٍ حياةٌ إلَّا في الجنة. وقال الضحَّاك: هي الرِّزقُ الحلالُ والعبادةُ في الدنيا، وقال الضحَّاك أيضًا: هي العمَلُ بالطاعة والانشراحُ بها. والصَّحيحُ أنَّ الحياةَ الطيِّبةَ تشمَلُ هذا كُلَّه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠١).

وقال ابن عاشور: (وهذا مقامٌ دَقيقٌ تتفاوَتُ فيه الأحوالُ على تفاوُتِ سرائِرِ النُّفوسِ، ويعطي اللهُ فيه عبادَه المُؤمِنينَ على مراتِبِ هِمَمِهم وآمالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قد أفلَحَ مَن أسلَمَ، ورُزِقَ كَفافًا[١]، وقنَّعَه اللهُ بما آتاه))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ خُبَيبٍ، عَن عَمِّه رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا بأسَ بالغِنى لِمَن اتَّقى، والصِّحةُ لِمَن اتَّقى خَيرٌ مِن الغِنى، وطِيبُ النَّفسِ مِن النَّعيمِ))[٣].

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولنجزينَّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ- في الآخرةِ- ثوابَ إيمانِهم وأعمالِهم على أحسَنِ الذي كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا من الطَّاعاتِ، ونَتَجاوزُ عن سَيِّئاتِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال سُبحانه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

---

(١) الكَفافُ: الكِفايةُ بلا زيادةٍ ولا نقصٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٤٥).

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٤١) واللفظ له، وأحمد (٢٣١٥٨).

صحح إسناده الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٣)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٥) وقال: (رجالُه ثقاتٌ)، والحديث صححه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٦/ ٤٠٨٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧).

ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٥].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه حَثٌّ على التأمُّلِ والعِلمِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ فيه الحَثُّ والتَّرغيبُ على الزُّهدِ في الدُّنيا، خُصوصًا الزُّهدَ المتعَيِّنَ، وهو الزُّهدُ فيما يكونُ ضررًا على العَبدِ، ويُوجِبُ له الاشتِغالَ عمَّا أوجَبَ اللهُ عليه، وتقديمَه على حَقِّ اللهِ؛ فإنَّ هذا الزُّهدَ واجِبٌ. ومِن الدَّواعي للزُّهدِ أن يُقابِلَ العَبدُ لذَّاتِ الدُّنيا وشَهَواتِها بخَيراتِ الآخرةِ؛ فإنَّه يَجِدُ مِن الفَرقِ والتَّفاوُتِ ما يَدعوه إلى إيثارِ أعلى الأمرَينِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ دَلالةٌ على أنَّ سَعادةَ الدُّنيا ليسَت بكَثرةِ المالِ والوَلَدِ والمَتاعِ، وإنَّما بالعَمَلِ الصَّالحِ، فلا حياةَ طَيِّبةً إلَّا لِمَن عَمِلَ صالِحًا وهو مُؤمِنٌ، سواءٌ كان ذكَرًا أو أنثى(٣).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ ﴾ عَبَّرَ بالافتعالِ في ﴿تَتَّخِذُوٓا۟ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يُفعَلُ إلَّا بعلاجٍ شَديدٍ مِن النَّفسِ؛ لأنَّ الفِطرةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).
(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٣٦).

السَّليمةَ يَشتَدُّ نِفارُها منه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ إنَّما كان قليلًا وإن كَثُرَ؛ لأنَّه مِمَّا يزولُ، فهو على التَّحقيقِ قَليلٌ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ يدُلُّ على أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ لا ينقَطِعُ، وفي ذلك حُجَّةٌ على جَهمِ بنِ صَفوانَ[٣]؛ إذ زعَمَ أنَّ نَعيمَ الجَنَّةِ مُنقَطِعٌ[٤]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ قَولُه تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ في هذا البيانِ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ يَستوي فيها الذُّكورُ والنِّساءُ، عدا ما خَصَّصَه الدِّينُ بأحَدِ الصِّنفَينِ[٥].

٥- الإيمانُ شَرطٌ في صِحَّةِ الأعمالِ الصَّالحةِ وقَبولِها، بل لا تُسمَّى أعمالًا صالِحةً إلَّا بالإيمانِ، والإيمانُ مُقتَضٍ لها؛ فإنَّه التَّصديقُ الجازِمُ المُثمِرُ لأعمالِ الجَوارِحِ مِن الواجِباتِ والمُستحَبَّاتِ، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٤٥-٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٣).

(٣) جَهمُ بنُ صَفوانَ: هو أُسُّ الضَّلالةِ، ورأسُ الجَهْميَّةِ،كان يُنكِرُ الصِّفاتِ، وينزِّهُ الباريَ عنها بزعمِه، ويقولُ بخَلقِ القرآنِ، ويقولُ: إنَّ اللهَ في الأمكنةِ كُلِّها، وكان يقول: الإيمانُ عَقدٌ بالقلبِ وإن تلفَّظ بالكُفرِ. يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٦/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٨).

حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ضَمِنَ اللهُ لأهلِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ الجَزاءَ في الدُّنيا بالحياةِ الطَّيِّبةِ، والحُسنى يومَ القيامةِ، فلهم أطيَبُ الحَياتَينِ، فهم أحياءٌ في الدَّارَينِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ المُباحَ داخِلٌ في قِسمِ الحَسَنِ؛ ووَجهُه: أنَّ (أحسَنَ) أفعَلُ تَفضيلٍ يقتَضي المُشارَكةَ، والواجِبُ أحسَنُ مِن المَندوبِ قَطعًا، والمندوبُ أحسَنُ مِن المُباحِ؛ إذ لا ثَوابَ فيه، فبَقِيَ المُباحُ حسَنًا[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافُ إنشاءٍ عن اتِّخاذِ الأَيْمانِ دخَلًا على العُمومِ، فيَشمَلُ جميعَ الصُّورِ مِن الحَلِفِ في المبايَعةِ، وقَطعِ الحقوقِ الماليَّةِ، وغيرِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كَرَّر النَّهيَ عن اتِّخاذِ الأَيمانِ دخَلًا بينَهم؛ تأكيدًا عليهم، وإظهارًا لعِظَمِ ما يُرتكَبُ منه[٤]، وهو تصريحٌ بالنَّهيِ عنه بعدَ التَّضمينِ؛ تأكيدًا، ومبالَغةً في قُبحِ المنهيِّ[٥]، وكان تفريعُ قولِه تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٠).
(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

تفصيلًا لِما أُجمِل في معنى الدَّخَلِ[١].

- قولُه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ زلَلُ القَدمِ تمثيلٌ لاختلالِ الحالِ، والتَّعرُّضِ للضُّرِّ؛ لأنَّه يترتَّبُ عليه السُّقوطُ أو الكسرُ، كما أنَّ ثُبوتَ القدَمِ تَمكُّنُ الرِّجلِ مِن الأرضِ، وهو تمثيلٌ لاستقامةِ الحالِ، ودَوامِ السَّيرِ، ولَمَّا كان المقصودُ تمثيلَ ما يَجُرُّه نقضُ الأيمانِ مِن الدَّخَلِ شُبِّهَت حالُهم بحالِ الماشي في طريقٍ، بينَما كانت قدَمُه ثابتةً إذا هي قد زلَّت به فصُرِع؛ فالمشبَّهُ بها حالُ رَجُلٍ واحدٍ؛ ولذلك نُكِّرَت ﴿قَدَمُۢ﴾ وأُفرِدَت؛ إذ ليس المقصودُ قدَمًا مُعيَّنةً ولا عددًا من الأقدامِ، كما يُقالُ لجماعةٍ يتَردَّدون في أمرٍ: إنَّكم تُقدِّمون رِجلًا، وتُؤخِّرون أُخرى؛ تَمثيلًا لحالِهم بحالِ الشَّخصِ المتردِّدِ في المشيِ إلى الشَّيءِ[٢].

- وقيل: السِّرُّ في إفرادِ القدَمِ وتنكيرِها: استعظامُ أن تَزِلَّ قدَمٌ واحدةٌ عن طريقِ الحقِّ بعدَ أن تَوطَّأَ لها مِهادُه، وثَبتَت عليه؛ فكيف بأقدامٍ كثيرةٍ[٣]؟!

- وزيادةُ ﴿بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مع أنَّ الزَّللَ لا يُتَصوَّرُ إلَّا بعدَ الثُّبوتِ؛ لِتَصويرِ اختلافِ الحالَينِ، وأنَّه انحِطاطٌ مِن حالِ سعادةٍ إلى حالِ شقاءٍ، ومِن حالِ سلامةٍ إلى حالِ مِحنةٍ[٤].

- وقولُه: ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ وعيدٌ بعِقابِ الآخرةِ، وهو معطوفٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٢-٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٩).

التَّفريعِ، وبهذا التَّصديرِ، وهذا التَّفريعِ النَّاشئِ عن جملةِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ فارقَتْ هذه الآيةُ نَظيرَتَها السَّابقةَ بالتَّفصيلِ والزِّيادةِ؛ فحُقَّ أن تُعطَفَ عليها لهذه المغايَرةِ، وإن كان شأنُ الجملةِ المؤكِّدةِ ألَّا تُعطَفَ[(١)].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا نهيٌ عن نَقْضِ عهدِ الإسلامِ؛ لأجْلِ ما فاتَهم بدُخولِهم في الإسلامِ مِن مَنافِعَ عندَ قومِ الشِّركِ، وبهذا الاعتبارِ عُطِفَت هذه الجملةُ على جُملةِ ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ وعلى جملةِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾؛ لأنَّ كلَّ جملةٍ منها تَلتَفِتُ إلى غرَضٍ خاصٍّ ممَّا قد يَبعَثُ على النَّقضِ[(٢)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ صفةٌ كاشِفةٌ وليسَت مُقيِّدةً، أي: إنَّ كلَّ عِوَضٍ يُؤخَذُ عن نقضِ عهدِ اللهِ هو عِوَضٌ قليلٌ، ولو كان أعظَمَ المكتسَباتِ[(٣)].

- وجملةُ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ باعتبارِ وصْفِ عِوَضِ الاشْتِراءِ المنهيِّ عنه بالقِلَّةِ؛ فإنَّ ما عِندَ اللهِ هو خيرٌ من كلِّ ثمَنٍ وإن عَظُم قدرُه[(٤)]، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تعليلٌ للنَّهيِ على طريقةِ التَّحقيقِ[(٥)].

٣- قولُه تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ﴾ تعليلٌ للخَيْريَّةِ بطَريقِ الاستِئْنافِ، أي: ما تتَمتَّعون به مِن نَعيمِ الدُّنيا وإنْ جَلَّ، بل الدُّنْيا وما فيها جَميعًا يَنْفَدُ، وإنْ كَثُر عددُه، ويَنقَضي وإن طالَ أمَدُه(١)، وهو تذييلٌ وتعليلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ بأنَّ ما عِندَ اللهِ لهم خيرٌ مُتجدِّدٌ لا نَفادَ له، وأنَّ ما يُعْطيهم المشرِكون مَحدودٌ نافِدٌ؛ لأنَّ خَزائنَ النَّاسِ صائِرةٌ إلى النَّفادِ بالإعطاءِ، وخَزائِنَ اللهِ باقيةٌ، أي: ما عِندَ اللهِ لا يَفْنى؛ فالأجدَرُ الاعتِمادُ على عَطاءِ اللهِ الموعودِ على الإسلامِ، دونَ الاعتمادِ على عطاءِ النَّاسِ، الَّذين يَنفَدُ رِزقُهم ولو كَثُر. وهذا الكلامُ جَرى مَجْرى التَّذييلِ لِمَا قَبْلَه، وأطلَق إرسالَ المَثَلِ فيُحمَلُ على الأعَمِّ؛ ولذلك كان ضميرُ ﴿عِندَكُمۡ﴾ عائِدًا إلى جَميعِ النَّاسِ بقَرينةِ التَّذييلِ والمثَلِ، وبقَرينةِ المقابَلةِ بما عِندَ اللهِ، أي ما عِندَكم- أيُّها النَّاسُ- ما عِندَ الموعودِ وما عِندَ الواعِدِ؛ لأنَّ المنهيِّينَ عن نَقْضِ العهدِ ليس بيَدِهم شيءٌ(٢).

- وفي إيثارِ الاسمِ ﴿بَاقٖ﴾ على صيغةِ المضارِعِ (يَبْقى) مِن الدَّلالةِ على الدَّوامِ ما لا يَخْفى(٣).

- قولُه: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ تكريرُ الموعِدِ المستفادِ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ على نهجِ التَّوكيدِ القسَميِّ؛ مُبالَغةً في الحَمْلِ على الثَّباتِ في الدِّينِ. والالْتِفاتُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧١).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

عمَّا يَقتَضيه ظاهِرُ الحالِ مِن أن يُقالَ: (ولَنجزِينَّكم أجرَكم بأحسَنِ ما كُنتم تَعمَلون)؛ للتَّوسُّلِ إلى التَّعرُّضِ لأعمالِهم، والإشعارِ بعِلِّيَّتِها للجزاءِ، أي: واللهِ لَنجزِيَنَّ[١].

- قولُه: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أُضيفَ إليه الأحسَنُ؛ للإشعارِ بكَمالِ حُسنِه كما في قولِه سبحانه: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، لا لإفادةِ قَصْرِ الجزاءِ على الأحسَنِ منه دونَ الحسَنِ؛ فإنَّ ذلك مِمَّا لا يَخطُرُ ببالِ أحَدٍ لا سِيَّما بعدَ قولِه تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾، أو ﴿لَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بحسَبِ أحسَنِ أفرادِ أعمالِهم المذكورِ على مَعْنى: لَنُعطينَّهم بمُقابَلةِ الفردِ الأدنى مِن أعمالِهم المذكورةِ ما نُعطيه بمُقابلةِ الفردِ الأعلى منها مِن الأجرِ الجزيلِ، لا أنَّا نُعْطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادِها المتفاوِتةِ في مَراتبِ الحُسْنِ بأن نَجزِيَ الحسَنَ مِنها بالأجرِ الحسَنِ والأحسَنَ بالأحسَنِ[٢]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قالَه هنا بلَفظِ ﴿مَا﴾ وفي سورةِ (الزُّمرِ) قال: ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥]، فعَبَّر بلفظِ ﴿الَّذِي﴾ مُوافَقةً في كلٍّ مِنهما لِمَا قَبلَه؛ إذْ قَبْلَ ما هنا: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقولُه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ وقبلَ ما هناك: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الزمر: ٣٥]، وقولُه: ﴿وَالَّذِي جَاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِٱلصِّدۡقِ﴾[(١)] [الزمر: ٣٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ...﴾: ﴿مَنۡ﴾ اسمٌ موصولٌ مُتناوِلٌ في نفسِه للذَّكَرِ والأنثى؛ وإنَّما نبَّه بِهما؛ لأنَّ (مَن) مُبهَمٌ صالِحٌ على الإطلاقِ للنَّوعينِ، إلَّا أنَّه إذا ذُكِر كان الظَّاهِرُ تناوُلَه للذُّكورِ، فقيل: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ على التَّبْيينِ؛ لِتَبيينِ العُمومِ الَّذي دَلَّت عليه (مَن) الموصولةُ؛ لِيَعُمَّ الموعِدُ النَّوعَينِ جميعًا؛ فبيَّنه بالنَّوعينِ دفعًا للتَّخصيصِ؛ فإنَّه لو لم يَذكر الأُنثَى لكانتْ داخِلةً في الحُكمِ بطَريقِ التَّغليبِ، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حيثُ دخلتِ النساءُ في الخِطابِ بطريق التغليبِ؛ فلَمَّا كان المرادُ هنا مِن ﴿مَنۡ﴾ العمومَ والاستيعابَ لحُصولِ التَّسويةِ بينهما في الحُكمِ، لا بطَريقِ التغليبِ بيَّن بقولِه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾. وقيل: إنَّه تعالَى لَمَّا رغَّب المؤمنين في الصَّبرِ على ما الْتزَمُوه من فِعلِ الواجباتِ والمندوباتِ دونَ المباحاتِ بقوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾، ثُمَّ رغَّبهم في الإيمانِ بكُلِّ ما كان مِن شرائعِ الإسلامِ بقولِه: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ أَتبَع ذلك بقولِه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ تقريرًا للوعدِ، وإزالةً لوهمِ التَّخصيصِ كَرمًا وفَضلًا[(٢)].

وهذا مِن التَّتميمِ، وتَكرَّر في هذه الآيةِ مرَّتَين؛ الأُولى في قولِه: ﴿مِّن ذَكَرٍ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٩/ ١٩٠- ١٩١).

أَوۡ أُنثَىٰ﴾؛ لأنَّ (مَن) الشَّرطيَّةَ أو الموصوليَّةَ تُفيدُ العُمومَ؛ فكان لا بُدَّ مِن تَتميمِها بذلك؛ للتَّأكيدِ، وإزالةً لِوَهمِ التَّخصيصِ جَرْيًا على مُعتقَداتِ العرَبِ القديمةِ في تَفضيلِ الذَّكرِ على الأُنثَى، وإيثارِه بكلِّ ما هو خيرٌ، والثَّانيةَ في قولِه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ أيضًا إيثارُ إيرادِه بالجملةِ الاسميَّةِ الحاليَّةِ على نَظْمِه في سِلْكِ الصِّلةِ، أي: لم يَقُلْ: (وآمَنَ)، عَطفًا على (مَن عَمِل صالِحًا)؛ لإفادةِ وُجوبِ دَوامِه، ومُقارَنتِه للعمَلِ الصَّالحِ[2].

- قولُه: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ابتُدِئ الوعدُ بإسنادِ الإحياءِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ تَشريفًا له، كأنَّه قيل: (فلَه حياةٌ طيِّبةٌ منَّا)، ولَمَّا كانت حياةُ الذَّاتِ لها مُدَّةٌ معيَّنةٌ كَثُر إطلاقُ الحياةِ على مُدَّتِها، فوَصَفها بالطِّيبِ بهذا الاعتبارِ، أي: طِيبِ ما يَحصُلُ فيها[3].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٦٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٣).

الآيات (٩٨-١٠٠)

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فإذا أردتَ -يا مُحمَّدُ- أن تقرأَ شَيئًا مِن القُرآنِ، فاستَجِرْ باللهِ مِن شَرِّ الشَّيطانِ المَطرودِ مِن رَحمةِ اللهِ، قائِلًا: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيم؛ إنَّ الشَّيطانَ ليس له تسلُّطٌ على المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، المُعتَمِدين على ربِّهم وحدَه، إنَّما تَسَلُّطُه على الذينَ اتخذوه وليًّا فأطاعُوه فيما يأمرُهم به، والذين هم مُشرِكونَ باللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما منَّ اللهُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنزالِ كتابٍ جامعٍ لصفاتِ الكمالِ، وأنَّه تبيانٌ لكلِّ شيءٍ، فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، وذكَرَ أشياءَ مِمَّا بُيِّنَ في الكِتابِ؛ قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: إذا شرَعْتَ في قراءةِ هذا الكتابِ الشريفِ الجامعِ الذي نبَّهتُ على بعضِ ما اشتَمل عليه، ونازَعك فيه الشيطانُ بهمزِه ونفثِه فاستعِذْ بالله منه[1].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ العمَلَ الصَّالِحَ، ووَعَدَ عليه، وصَلَ به قَولَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٤-٢٧٥).

تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾؛ إيذانًا بأنَّ الاستِعاذةَ مِن جُملةِ الأعمالِ الصَّالحةِ التي يُجزِلُ اللهُ عليها الثَّوابَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه العمَلَ الصَّالِحَ والجَزاءَ عليه؛ أتبَعَه بذِكرِ الاستعاذةِ التي تَخلُصُ بها الأعمالُ الصَّالحةُ عن الوَساوِسِ الشَّيطانيَّةِ، فقال تعالى(٢):

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أي: فإذا أردْتَ قِراءةَ القُرآنِ- يا مُحمَّدُ- فالْتَجِئْ إلى المَعبودِ الحقِّ سُبحانَه، واستَجِرْ به(٣) مِنْ كُلِّ جانٍّ مُتمَرِّدٍ، مَطرودٍ عن كلِّ خَيرٍ؛ حتى لا يَصرِفَك بوَساوِسِه عن تدبُّرِ القُرآنِ، والانتفاعِ به(٤).

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالاستعاذةِ مِن الشَّيطانِ، وكان ذلك يُوهِمُ أنَّ للشَّيطانِ قُدرةً على التصَرُّفِ في أبدانِ النَّاسِ، فأزال اللهُ تعالى هذا الوَهمَ، وبيَّنَ أنَّه لا قُدرةَ له البتَّةَ إلَّا على الوَسْوسةِ، فقال تعالى(٥):

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٦٩).

أي: إنَّ الشَّيطانَ ليس له طَريقٌ يتسَلَّطُ بها على المُؤمِنينَ المُعتَمِدينَ على رَبِّهم وَحْدَه، الذينَ استعاذُوا برَبِّهم مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فلا قُدرةَ له عليهم، ولا حُجَّةَ له فيما يَدعوهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

أي: إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ واقِعٌ على الذينَ يتَّخِذونَه وَلِيًّا لهم مِن دُونِ الله تعالى، فيَتَّبِعونَه ويُطيعونَه فيما يأمُرُهم به[2]، وعلى الذين يُشرِكونَ باللهِ تعالى[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣).

وممن اختار أنَّ مرجعَ الضميرِ في: ﴿بِهِۦ﴾ [النحل: ١٠٠] يعودُ إلى الله تعالى: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممن اختار ذلك أيضًا: ابنُ أبي زمنين، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٤١٨)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، والضحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨٣).

قال الرسعني: (وهو مِن بابِ ما جاء في التنزيلِ مِن الضميرينِ المختلفينِ). ((تفسير الرسعني)) (٤/ ٩١).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الشيطانِ، أي: بسببِه ومن أجلِه صاروا مشركين بالله. وممن فسَّره بذلك: ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي، والسمين الحلبي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ فإذا أراد العبدُ القراءةَ لكتابِ الله الذي هو أشرفُ الكتبِ وأجلُّها، وفيه صلاحُ القلوبِ، والعلومُ الكثيرةُ، فإنَّ الشَّيطانَ أحرَصُ ما يكونُ على العَبدِ عندَ شُروعِه في الأمورِ الفاضِلةِ، فيَسعَى في صَرْفِه عن مَقاصِدِها ومَعانيها، فالطَّريقُ إلى السَّلامةِ مِن شَرِّه: الالتجاءُ إلى اللهِ، والاستعاذةُ به مِن شَرِّه، فيقولُ القارئُ: (أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ) مُتدَبِّرًا لمعناها، مُعتَمِدًا بقَلبِه على اللهِ في صَرفِه عنه، مُجتَهِدًا في دَفْعِ وَساوِسِه، وأفكارِه الرَّديئةِ[1]؛ ليكونَ الشيطانُ بعيدًا عن قلبِ المرءِ وهو يتلو كتابَ الله حتى يحصلَ له بذلك تدبرُ القرآنِ، وتفهمُ معانيه، والانتفاعُ به؛ فلهذا شُرِع تقديمُ الاستعاذةِ على القراءةِ في الصلاةِ،

ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٤).

وقال الشنقيطي: (معنَى كونِهم مشركينَ به هو طاعَتُهم له في الكفرِ والمعاصي). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٤٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: الربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦١).

قال السمين الحلبي: (قوله تعالى: ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ يجوزُ أن يعودَ الضميرُ على الشيطان، وهو الظَّاهِرُ؛ لتتَّحِدَ الضمائِرُ). ((الدر المصون)) (٧/ ٢٨٦)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

والقاعدةُ: أنَّه إذا تعاقَبت الضمائرُ فالأصلُ أن يتَّحِدَ مرجعُها. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤١٤).

قال ابن تيمية: (قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ صفتان لموصوفٍ واحد، فكُلُّ من تولَّاه فهو به مُشرِكٌ، وكلُّ من أشرك به فقد تولَّاه). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

وخارج الصلاةِ[(١)].

٢- نفيُ سُلطانِ الشَّيطانِ مَشروطٌ بأمرَينِ: الإيمانِ، والتوكُّلِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فالإيمانُ مَبدأٌ أصيلٌ لِتَوهينِ سُلطانِ الشَّيطانِ في نَفسِ المُؤمِنِ، فإذا انضَمَّ إليه التوكُّلُ على اللهِ، اندفَعَ سُلطانُ الشَّيطانِ عن المُؤمِنِ المتوكِّلِ[(٢)].

٣- الإخلاصُ يَمنَعُ مِن تسَلُّطِ الشَّيطانِ؛ قال تعالى فيما قَصَّه مِن قِصَّةِ آدمَ وإبليسَ أنَّه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢- ٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ فبيَّنَ أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ وإغواءَه إنَّما هو لِغَيرِ المُخلَصينَ[(٣)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ فيه الأمرُ بالاستعاذةِ عندَ القِراءةِ[(٤)]، وذلك شامِلٌ للصَّلاةِ وغَيرِها[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨-٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٢٢)، (١٠/ ٥٠).

(٤) قال ابنُ كثيرٍ: (وجمهورُ العلماءِ على أنَّ الاستعاذةَ مستحَبَّةٌ ليست بمتحَتِّمةٍ يأثمُ تارِكُها). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (ومحمَلُ الأمرِ في هذه الآيةِ عندَ الجمهورِ على الندبِ؛ لانتفاءِ أماراتِ الإيجابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ إنَّما لم تُشرَعْ لذلك كَلِمةُ (باسْمِ الله)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَخَلٍّ عن النَّقائِصِ، لا مَقامُ استِجلابِ التيَمُّنِ والبَرَكةِ؛ لأنَّ القُرآنَ نَفسَه يُمنٌ وبَرَكةٌ وكَمالٌ تامٌّ، فالتيَمُّنُ حاصِلٌ، وإنما يُخشَى الشَّيطانُ أن يغشَى بركاتِه فيُدخِلَ فيها ما يَنقُصُها، فإنَّ قِراءةَ القُرآنِ عِبارةٌ مُشتَمِلةٌ على النُّطقِ بألفاظِه والتفهُّمِ لِمَعانيه، وكلاهما مُعَرَّضٌ لوَسْوسةِ الشَّيطانِ: وَسْوَسةً تتعلَّقُ بألفاظِه مثل الإنْساءِ؛ لأنَّ الإنساءَ يُضَيِّعُ على القارئِ ما يحتوي عليه المِقدارُ المَنسِيُّ من إرشادٍ، ووَسوسةً تتعَلَّقُ بمعانيه، مثل أن يُخطِئَ فهمًا، أو يقلبَ عليه مُرادًا؛ وذلك أشَدُّ مِن وَسوَسةِ الإنساءِ(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ فإذا كان الشَّيطانُ ليس له سُلطانٌ إلَّا على من أشرَكَ به، فكُلُّ من أطاع الشَّيطانَ في معصيةِ اللهِ، فقد تسَلَّطَ الشَّيطانُ عليه، وصار فيه مِن الشِّركِ بالشَّيطانِ بقَدرِ ذلك(٢)، وذلك على أحدِ وجهَي تفسيرِ ﴿بِهِۦ﴾.

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ فيها التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، ونَظيرُها الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقد جاء في بعضِ الآياتِ ما يدُلُّ على نَفيِ سُلطانِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢٠- ٢١]، وقَولِه تعالى حاكيًا عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٩١).

مُقرِّرًا له: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]؟

والجوابُ: أنَّ السُّلطانَ الذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الذي نفاه، وذلك مِن وَجهينِ:

الأول: أنَّ السُّلطانَ الثَّابتَ هو سُلطانُ التمكُّنِ منهم، وتلاعُبِه بهم، وسَوقِه إيَّاهم كيفَ أراد، بتمكينِهم إيَّاه مِن ذلك بطاعتِه ومُوالاتِه، والسُّلطانَ الذى نفاه سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكُنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يتسَلَّطُ بها، غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القُرآنِ.

الثاني: أنَّ الله لم يجعَلْ له عليهم سُلطانًا ابتداءً البتَّةَ، ولكِنْ هم سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في جُملةِ جُندِه وحِزبِه، فلم يتسَلَّطْ عليهم بقُوَّتِه؛ فإنَّ كَيدَه ضَعيفٌ، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم، والمقصودُ أنَّ مَن قصَدَ أعظَمَ أوليائِه وأحبابِه ونُصَحائِه فأخذَه، وأخَذَ أولادَه وحاشِيتَه، وسَلَّمَهم إلى عَدُوِّه؛ كان مِن عُقوبتِه أن يُسَلَّطَ عليه ذلك العَدُوُّ نَفسُه(١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ، والمقصودُ بالتَّفريعِ الشُّروعُ في التَّنويهِ بالقُرآنِ، وإظهارُ اسْمِ القُرآنِ دونَ أن يُضمَرَ للكِتابِ المَذكورِ في قولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤-١٣٥).

شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٨٩]؛ لأجْلِ بُعدِ الكَلامِ المُعادِ؛ فإنَّه قَبْلَه بتِسعِ آياتٍ[1].

- قولُه: ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴾ فيه التَّعبيرُ بالقراءةِ عن إرادتِها، على طريقةِ إطْلاقِ اسْمِ المسبَّبِ على السَّببِ؛ إيذانًا بأنَّ المرادَ هي الإرادةُ المتَّصِلةُ بالقراءةِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالاستِعاذةِ مِن الشَّيطانِ عندَ إرادةِ قِراءةِ القرآنِ، أو لِجَوابِه المنْويِّ، أي: يُعِذْك، أو نَحوُه؛ وهذا التَّعليلُ لزِيادةِ الحَثِّ على الامْتِثالِ للأمرِ بأنَّ الاستعاذةَ تَمنَعُ تَسلُّطَ الشَّيطانِ على المستعيذِ؛ لأنَّ اللهَ منَعَه مِن التَّسلُّطِ على الَّذين آمَنوا المتوكِّلينَ، والاستعاذةُ مِنه شُعبةٌ مِن شُعَبِ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ لأنَّ اللَّجَأَ إليه تَوكُّلٌ عليه، ففي الإعلامِ بالعِلَّةِ تنشيطٌ للمأمورِ بالفعلِ على الامتثالِ؛ إذْ يَصيرُ عالِمًا بالحِكْمةِ[3]. وقيل: هي أيضًا بيانٌ لصِفةِ الاستعاذةِ؛ لِمَا تضَمَّنَته مِن ذِكْرِ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ لِيُبيِّنَ أنَّ الاستعاذةَ إعرابٌ عن التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى لِدَفعِ سُلطانِ الشَّيطانِ؛ لِيَعقِدَ المستعيذُ نيَّتَه على ذلك، وليسَت الاستعاذةُ مُجرَّدَ قولٍ بدونِ استحضارِ نيَّةِ العَوْذِ باللهِ[4].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ الماضي في الصِّلَةِ الأُولى ﴿ءَامَنُواْ ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، وفي التَّعرُّضِ لوصفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).

الرُّبوبيَّةِ عِدَةٌ كريمةٌ بإعاذةِ المتوكِّلينَ(١).

- جملةُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ صفةٌ ثانيةٌ للموصولِ، وقدَّم المجرورَ على الفعلِ للقَصْرِ، أي: لا يتوكَّلون إلَّا على ربِّهم، وجعَل فِعلَها مُضارِعًا؛ لإفادةِ تَجدُّدِ التَّوكُّلِ واستِمْرارِه(٢).

- وإنَّما عطَف ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ دونَ إعادةِ اسمِ الموصولِ كما سيأتي في الآيةِ الَّتي بعدَها؛ للإشارةِ إلى أنَّ الوصفَيْنِ كصِلَةٍ واحدةٍ لِمَوصولٍ واحدٍ؛ لأنَّ المقصودَ اجتماعُ الصِّلتَينِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ جملةٌ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ مَضمونَ الجملةِ قَبْلَها يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ يَقولُ: فسُلْطانُه على مَن؟ والقَصْرُ المستفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصرٌ إضافيٌّ بقرينةِ المقابَلةِ، أي: دونَ الَّذين آمَنوا، وعلى ربِّهم يتوكَّلون؛ فحصَل به تأكيدُ جُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بتَقْريرِ مَضمونِها، فلا يُفهَمُ مِن القصرِ أنَّه لا سُلطانَ له على غيرِ هذَينِ الفَريقينِ، وهم المؤمِنون الَّذين أهمَلوا التَّوكُّلَ، والَّذين انخَدَعوا لبعضِ وَسوَسةِ الشَّيطانِ(٤).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ إيثارُ الجملةِ الفعليَّةِ الاستقباليَّةِ في الصِّلةِ الأُولى: ﴿يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ التَّجدُّديِّ، كما أنَّ اختيارَ الجُملةِ الاسميَّةِ في الثَّانيةِ: ﴿هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٨).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الثَّباتِ[١]؛ فعبَّر بالمضارِعِ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ التَّولِّي، أي: الَّذين يُجدِّدون تَولِّيَه؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم كلَّما تولَّوْه بالميلِ إلى طاعتِه تَمكَّنَ مِنهم سُلطانُه، وأنَّه إذا انقطَع التَّولِّي بالإقلاعِ أو بالتَّوبةِ انسلَخَ سُلطانُه عليهِم، وجُعِلَت الصِّلةُ جُملةً اسميَّةً؛ لِدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ لأنَّ الإشراكَ صِفةٌ مُستمِرَّةٌ؛ لأنَّ قَرارَها القَلبُ، بخِلافِ المعاصي؛ لأنَّ مَظاهِرَها الجَوارِحُ، للإشارةِ إلى أنَّ سُلطانَ الشَّيطانِ على المشرِكين أشدُّ وأدوَمُ؛ لأنَّ سبَبَه ثابتٌ ودائمٌ[٢].

- وتقديمُ المجرورِ في ﴿بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ، أي: ما أشرَكوا إلَّا بسَببِه، ردًّا عليهم إذْ يَقولون: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقولُهم: ﴿وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨][٣]، وذلك على أحدِ وجهي تأويلِ ﴿بِهِۦ﴾.

- وتكريرُ الموصولِ (الَّذين - والَّذين)؛ للاحترازِ عن تَوهُّمِ كَونِ الصِّلةِ الثَّانيةِ حاليَّةً مُفيدةً لعدَمِ دُخولِ غيرِ المشرِكين مِن أولياءِ الشَّيطانِ تحتَ سُلطانِه[٤]، وتقديمُ الأُولى على الثَّانيةِ الَّتي هي بمُقابَلةِ الصِّلةِ الأُولى فيما سلَف؛ لِرعايةِ المقارَنةِ بينَها وبينَ ما يُقابِلُها مِن التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، ولو رُوعي التَّرتيبُ السَّابقُ لانفصَل كلٌّ مِن القَرينتَينِ عمَّا يُقابِلُها[٥].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٧٩- ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١٠١-١٠٢)

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ
مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ
لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريلُ عليه السلام، سمِّي بذلك؛ لأنَّه يأتي بما فيه حياةُ القلوبِ، وأصل القُدس الطَّهارةُ، حيثُ إنَّه ينزِلُ بالقُدسِ، أي: بما يُطهِّرُ به نفوسَنا؛ مِن القرآنِ والحِكمةِ. أو المرادُ: الروحُ المقدَّسُ، أي: المطهَّرُ[١].

﴿يُلْحِدُونَ﴾: أي: يَميلونَ إليه، ويَزعُمونَ أنَّه يُعَلِّمُك، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن استقامةٍ[٢].

المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى، قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت -يا مُحمَّدُ- كاذِبٌ تختَلِقُ هذا القرآنَ مِن عندِ نفسِك، بل أكثَرُ هؤلاء المُشرِكين جُهلاءُ لا عِلْمَ لهم بأنَّ القرآنَ حقٌّ، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ إنما هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ.

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٨).

ثمَّ أمَر الله نبيَّه أن يرُدَّ عليهم، فقال: قُلْ لهم- يا مُحمَّدُ: ليس القُرآنُ مُختلَقًا مِن عندي، بل نَزَّلَه جِبريلُ مِن رَبِّي بالصِّدقِ والحَقِّ؛ لِيزيدَ المؤمنين ثباتًا في إيمانِهم، وليكونَ هدايةً وبِشارةً لكُلِّ من أسلمَ وجهَه لله.

ثمَّ حكَى الله تعالى مقولةً أُخرَى مِن مقولاتِ المشركينَ، وردَّ عليها، فقال: ونحن نعلَمُ أنَّ المُشرِكينَ يقولونَ: إنَّك تتلَقَّى هذا القرآنَ مِن بَشَرٍ، كَذَبوا! فإنَّ لِسانَ الذي نَسَبوا إليه تَعليمَك القرآن -يا محمَّدُ- أعجميٌّ لا يُفصِحُ، والقُرآنُ عَربيٌّ غايةٌ في الوُضوحِ والبَيانِ!!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنزالَ الكِتابِ تِبيانًا لكُلِّ شَيءٍ، وأمَرَ بالاستعاذةِ عندَ قراءتِه؛ ذكَرَ تعالى نَتيجةَ ولايةِ الشَّيطانِ لأوليائِه المُشرِكينَ، وما يُلقيه إليهم مِن الأباطيلِ(١).

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾.

أي: وإذا نَسَخْنا آيةً مِن القُرآنِ بآيةٍ أُخرَى سواها، خيرٍ منها أو مثلِها- واللهُ أعلَمُ بما يُنَزِّلُ في كتابِه، ويَنسَخُه بما يَصلُحُ لِعباده -قال المُشرِكونَ: إنَّما أنت-

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

يا مُحمَّدُ- كاذِبٌ تختَلِقُ على اللهِ الباطِلَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما قال هؤلاء المُشرِكونَ، ولكِنَّ حقيقةَ الأمرِ هي أنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ حَقيقةَ القُرآنِ وصِحَّتَه، وأنَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ: ناسِخُه ومَنسوخُه، وأنَّ ما فيه مِن نَسخٍ هو لحِكَمٍ إلهيَّةٍ بالغةٍ، كمُراعاةِ مَصلحةِ عِبادِه، وإذا كانوا جُهَّالًا لا يَعلَمونَ ذلك، فقدْحُهم وذَمُّهم لا عِبرةَ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥).

واقتصر ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي على أنَّ معنى تبديلِ آيةٍ بآيةٍ: تغييرُ حكمِها بحكمٍ آخرَ ونسخُه.

وممن قال مِن السلفِ بأنَّ معنَى تبديلِ الآياتِ: النسخُ: مجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والسدي.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣).

قال القاسمي: (والأكثرونَ على أنَّ المعنَى نسخُ آيةٍ مِن القرآنِ لفظًا أو حكمًا بآيةٍ أخرَى غيرِها). ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤٠٨).

وقال أبو حيان: (والظاهِرُ أنَّ هذا التبديلَ رفعُ آيةٍ لفظًا ومعنًى، ويجوزُ أن يكونَ التبديلُ لحُكمِ المعنى وإبقاءِ اللَّفظِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

لكن قال ابنُ عاشورٍ: (وأمَّا نسخُ التلاوةِ فلم يَرِدْ مِن الآثارِ ما يقتضي وقوعَه في مكةَ، فمَن فسَّر به الآيةَ، كما نُقِل عن مجاهدٍ، فهو مشكلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٤).

ثُمَّ بَيَّن سبحانَه لهؤلاءِ المعترضينَ على حِكمةِ النَّسخِ، الزَّاعمينَ أنَّ ذلك لم يَكُنْ مِنْ عندِ اللَّه، وأنَّ رسولَه صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم افْتَراه، فقالَ[1]:

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.

أي: قُل -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: ليس هذا القُرآنُ مُفتَرًى مِن عندي، وإنَّما نزَّله عليَّ -ناسِخَه ومَنسوخَه- جبريلُ المُطهَّرُ مِن كُلِّ خيانةٍ وهَوًى، وعَيبٍ وآفةٍ[2]، نزَّله مِن عندِ رَبِّي سُبحانَه مُشتَمِلًا على الحَقِّ؛ بالصِّدقِ في الأخبارِ، والعَدلِ في الأحكامِ، بلا خطأٍ فيه ولا تَحريفٍ؛ لِيُثبِّتَ المُؤمِنينَ على الحَقِّ، ويُقَوِّيَ إيمانَهم[3].

وقال ابن عاشور: (ضميرُ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ للذين قالوا: إنَّما أنت مفترٍ، أي: ليس كما قالوا، ولكِنَّ أكثَرَ القائلين ذلك لا يعلمون، أي: لا يفهمون وضْعَ الكلام مواضِعَه وحَمْلَه محامِلَه، وفُهِمَ من الحكم على أكثَرِهم بعدم العلمِ أنَّ قليلًا منهم يعلمون أنَّ ذلك ليس افتراءً، ولكنهم يقولون ذلك تلبيسًا وبهتانًا، ولا يعلمون أنَّ التنزيلَ مِن عند الله لا ينافي إبطالَ بعض الأحكامِ إذا اختلفت المصالحُ أو رُوعي الرِّفقُ. ويجوز حملُ لفظ «أكثر» على إرادة جميعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٢).

(٢) قال ابن عطية: (إنَّما نَزَّلَه جبريلُ عليه السَّلامُ، وهو رُوحُ القُدُسِ، لا خلافَ في ذلك، والقُدُسُ: الموضِعُ المُطَهَّرُ، فكأنَّ جبريلَ أُضيفَ إلى الأمرِ المُطَهَّرِ بإطلاقٍ، وسُمِّي رُوحًا إمَّا لأنَّه ذو رُوحٍ مِن جُملةِ رُوحِ الله الذي بَثَّه في خَلقِه، وخُصَّ هو بهذا الاسم، وإمَّا لأنَّه يجري من الهِداياتِ والرِّسالاتِ ومِن الملائكةِ أيضًا مجرى الرُّوحِ مِن الأجسادِ؛ لِشَرفِه ومَكانتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢١).

وقال الشنقيطي: (وروحُ القدسِ: جبريلُ، ومعناه: الروحُ المقدَّسُ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

أي: وَهُدًى مِن الضَّلالةِ، وبُشرى بالخَيرِ للَّذينَ استَسْلَموا لأمرِ اللهِ تعالى، وخَضَعوا له وانقادوا إلى ما أنزَلَه، فأقَرُّوا بذلك وصدَّقوا به قولًا وعَملًا[1].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ

السعدي)) (ص: ٤٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٣).

قال ابن جرير: (ليزدادوا بتصديقِهم لناسخِه ومنسوخِه إيمانًا لإيمانِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤).

وقال السعدي: (﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عند نزولِ آياتِه وتوارُدِها عليهم وقتًا بعد وقت، فلا يزال الحقُّ يَصِلُ إلى قلوبِهم شيئًا فشيئًا، حتى يكونَ إيمانُهم أثبَتَ مِن الجبال الرواسي، وأيضًا فإنهم يعلمون أنَّه الحقُّ، وإذا شرَعَ حُكمًا [من الأحكامِ] ثمَّ نسخَه، علموا أنَّه أبدَلَه بما هو مثلُه أو خيرٌ منه لهم، وأنَّ نَسخَه هو المناسِبُ للحكمة الربانيَّةِ والمناسبةِ العقليةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

وقال البقاعي: (﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في دينِهم بما يَرَون من إعجاز البَدَلِ والمُبدَلِ مع تضادِّ الأحكامِ، وما فيه من الحِكَم والمصالح بحسَبِ تلك الأحوال- مع ما كان في المنسوخِ مِن مِثلِ ذلك بحسَبِ الأحوال السالفة- وليتمَرَّنوا على حُسنِ الانقياد، ويُعلَم بسرعةِ انقيادهم في ترك الإلفِ تمامُ استسلامِهم وخلوصِهم عن شوائِبِ الهوى). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

قال السعدي: (وأيضًا فإنَّه كلَّما نزل شيئًا فشيئًا، كان أعظَمَ هدايةً وبِشارةً لهم ممَّا لو أتاهم جملةً واحدةً وتفَرَّق الفِكرُ فيه، بل يُنزِل الله حكمًا وبشارةً أكثَرَ، فإذا فهموه وعقَلوه وعرفوا المرادَ منه وترَوَّوا منه، أنزل نظيرَه وهكذا؛ ولذلك بلغ الصحابةُ رضي الله عنهم به مبلغًا عظيمًا، وتغيَّرَت أخلاقُهم وطبائعُهم، وانتقلوا إلى أخلاقٍ وعوائِدَ وأعمالٍ فاقوا بها الأوَّلينَ والآخِرينَ، وكان أعلى وأولى لِمَن بعدهم أن يترَبَّوا بعلومِه ويتخَلَّقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنورِه في ظلماتِ الغَيِّ والجهالاتِ، ويجعلوه إمامَهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيمُ أمورُهم الدينيَّةُ والدنيويةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ هذا إبطالٌ لتَلبيسٍ آخَرَ مِمَّا يُلَبِّسُ به الكافِرونَ على عامَّتِهم(١).

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾.

أي: ونحنُ نَعلَمُ أنَّ مُشرِكي مكَّةَ يَقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ مُحمَّدًا هذا القُرآنَ إنسانٌ مِن بني آدَمَ، وليس هو مِن عندِ الله كما يقولُ(٢).

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾.

أي: يقولُ الله تعالى تكذيبًا لهم وردًّا على فِريَتِهم: لغةُ الرَّجُلِ الذي يُشيرُ إليه مُشرِكو قُرَيشٍ ويُضيفونَ إليه -ميلًا وانحِرافًا عن الحَقِّ- أنَّه يُعلِّمُ مُحمَّدًا القُرآنَ؛ لُغةٌ أعجميَّةٌ ليسَت بعربيَّةٍ، ولَيسَت بالتي تُبيِّنُ المعانيَ، وتُفصِحُ عن المرادِ بأوضَحِ بَيانٍ، وهذا القُرآنُ قد نزَلَ بلُغةٍ عَربيَّةٍ ذاتِ فَصاحةٍ وبَيانٍ واضحٍ عظيمٍ، فكيف يَزعُمونَ أنَّ مُحمَّدًا تلقَّى القرآنَ مِن أعجَميٍّ(٣)؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يُستَفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ...﴾ أنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ هذا القُرآنَ تكلَّمَ به ربُّ العالَمينَ؛ أوجَبَ لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

ذلك تعظيمَ هذا القُرآنِ واحترامَه، وامتثالَ ما جاء فيه مِن الأوامرِ، وتَرْكَ ما فيه مِن المنهيَّاتِ والمَحذوراتِ، وتصديقَ ما جاء فيه مِن الأخبارِ عن اللهِ تعالى وعن مَخلوقاتِه السَّابقةِ واللَّاحقةِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ هذه الآيةُ دَلَّت على وُقوعِ نَسخِ القُرآنِ بالقُرآنِ[٢]، ففيها رَدٌّ على مَن أنكَرَ النَّسْخَ[٣].

٢- تأمَّلْ حُسْنَ الاعتراضِ وجزالَتَه في قَولِ الربِّ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ فقَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتِراضٌ بين الشَّرطِ وجَوابِه أفاد أمورًا:

منها: الجوابُ عن سؤالِ سائلٍ: ما حكمةُ هذا التَّبديلِ، وما فائِدتُه؟

ومنها: أنَّ الذي بُدِّلَ وأُتِيَ بغيرِه مُنَزَّلٌ، مُحكَمٌ نزولُه قبلَ الإخبارِ بقَولِهم.

ومنها: أنَّ مَصدَرَ الأمْرَينِ صادِرٌ عن عِلْمِه تبارك وتعالى، وأنَّ كُلًّا منهما مُنَزَّلٌ؛ فيَجِبُ التَّسليمُ والإيمانُ بالأوَّلِ والثَّاني[٤].

ومنها: أنَّ هذا التبديلَ ليس مِن عَمَلِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ، بل هو

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤).

مِن اللهِ؛ أنزلَه بعِلمِه، وأبدلَ آيةً مكانَ آيةٍ بعِلمِه؛ وليس منك أيها الرسولُ[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كذابٌ، بالأمسِ تقولُ لنا كذا، واليومَ تقولُ لنا كذا! لكن هذا القولُ الذي يقولونه إزاءَ إتيانِه بآيةٍ مكانَ آيةٍ هو قولُ سَفَهٍ، ولو أمْعَنوا النظرَ؛ لعَلِموا عِلْمَ اليقينِ أنَّ الذي يأتي بآيةٍ مكانَ آيةٍ هو اللهُ سبحانه، وذلك يدلُّ على صِدْقِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ الكذَّابَ يَحْذَرُ غايةَ الحذرِ أنْ يأتيَ بكلامٍ غيرِ كلامِه الأولِ؛ لأنه يخشَى أنْ يُطَّلَعَ على كذِبِه، فلو كان كاذبًا- كما يَدَّعُون أنَّ ذلك مِن علامةِ الكذبِ- ما أتى بشيءٍ يُخَالِفُ الأولَ؛ لأنَّه إذا أتَى بشيءٍ يُخَالِفُ الأولَ- على زعمِهم- تَبَيَّنَ كَذِبُه، بل إتيانُه بما يُخالِفُ الأولَ دليلٌ على صِدْقِه بلا شكٍّ؛ ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وهذا إضرابٌ إبطاليٌّ؛ معناه: بل لستَ مفتريًا، ولكنَّ أكثرَهم لا يَعْلَمُون، ولو أنَّهم كانوا مِن ذوي العلمِ لَعَلِمُوا أنَّه إذا بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ؛ فإنما ذلك دليلٌ على صِدْقِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ دَلَّ اختِصاصُ التَّعليلِ بالمُسلِمينَ على اتِّصافِ الكُفَّارِ بضِدِّه مِن لَحاقِ الاضطِرابِ لهم، وتزَلْزُلِ عقائِدِهم، وضَلالِهم[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ دَلالةٌ على

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ حيث أخبَرَ سُبحانَه عن نُزُولِ القُرآنِ منه تعالى[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لم يَقُلْ: (مِن ربِّ العالَمين)؛ إشارةً إلى الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ؛ رُبوبيَّةِ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهي رُبوبيَّةٌ أخَصُّ الخاصَّةِ[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: نُزولُه بالحَقِّ، وهو مُشتَمِلٌ على الحَقِّ في أخبارِه وأوامِرِه ونواهيه؛ فلا سبيلَ لأحَدٍ أن يَقدَحَ فيه قَدْحًا صَحيحًا؛ لأنَّه إذا عَلِمَ أنَّه الحَقُّ، عَلِمَ أنَّ ما عارَضَه وناقَضَه باطِلٌ[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾، إنَّما لم يصرِّحْ باسمِ مَن زعموا أنَّه يعلِّمُه عليه الصلاة والسلام، مع أنَّه أدخلُ في ظهورِ كذبِهم؛ للإيذانِ بأنَّ مدارَ خطئِهم ليس بنسبتِه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى التعلُّمِ مِن شخصٍ معيَّنٍ، بل مِن البشرِ كائنًا مَن كان[4].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ هذا يَدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَلَّغَ القرآنَ- لفْظَه ومعناه- لم يَنْزِلْ عليه مَعانيَ مُجَرَّدةً؛ إذ لو كان كذلك لأمكَنَ أن يُقالَ: تَلَقَّى مِن هذا الأعجميِّ معانيَ صاغَها بلِسانِه، فلمَّا ذكَرَ قولَه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦٨).

مُّبِينٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ دلَّ ذلك على أنَّ رُوحَ القُدُسِ نَزَلَ بهذا اللِّسانِ العربيِّ المُبينِ[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ في الالْتِفاتِ إلى الغَيْبةِ، مع إسنادِ الخبرِ إلى الاسمِ الجليلِ (اللَّهُ) المستجمِعِ للصِّفاتِ: ما لا يَخْفى مِن تربيَةِ المهابةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ؛ لِتوبيخِ الكفَّارِ على قولِهم، والتَّنبيهِ على فَسادِ سنَدِهم[٣].

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ بالَغوا في نسبةِ الافتراءِ للرَّسولِ بلَفظِ ﴿إِنَّمَآ ﴾، وبمُواجَهةِ الخِطابِ، وباسْمِ الفاعلِ﴿مُفۡتَرِۭ﴾الدَّالِّ على الثُّبوتِ[٤].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ عبَّر بـ (الأكثرِ)؛ مُراعاةً لِما كان عندَ قليلٍ مِنهم مِن تَوقُّفٍ، وقِلَّةِ مُبالَغةٍ في التَّكذيبِ والظَّنِّ، أو لأنَّ بعضَهم يَعلَمُ ويَكفُرُ عِنادًا؛ فيكونُ هذا اللَّفظُ قرَّر على قليلٍ مِنهم أنَّهم يَعلَمون ويَكفُرون

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

تَمرُّدًا وعِنادًا(١).

- ومفعولُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ محذوفٌ؛ لِدَلالةِ المعنى عليه، أي: لا يَعلَمون أنَّ الشَّرائعَ حِكَمٌ ومَصالِحُ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾

- في صيغةِ التَّفعيلِ في الموضِعَينِ ﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿نَزَّلَهُۥ﴾ وما فيهما مِن التَّنزيلِ شيئًا فشيئًا على حسَبِ الحوادثِ والمصالحِ، إشعارٌ بأنَّ التَّدريجَ في الإنزالِ ممَّا تَقْتَضيه الحِكَمُ البالِغةُ، وأنَّ التَّبْديلَ مِن بابِ المصالحِ كالتَّنزيلِ، وأنَّ تَرْكَ النَّسْخِ بمَنزِلةِ إنزالِه دَفْعةً واحدةً في خُروجِه عن الحِكْمةِ(٣).

- قولُه: ﴿رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى القُدُسِ وهو الطُّهرُ؛ للمُبالَغةِ في ذلك الوصفِ كأنَّه طَبْعٌ مِنه، كإضافةِ حاتِمٍ إلى الجُودِ، حيث قيل: حاتِمُ الجُودِ(٤).

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ فيه الْتِفاتٌ، وهو جارٍ على خِلافِ مُقتَضى ظاهرِ حِكايةِ المَقولِ المأمورِ بأن يَقولَه؛ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهرِ أن يَقولَ: (مِن ربِّي)؛ فوقَع الالْتِفاتُ إلى الخطابِ؛ تَأنيسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بزيادةِ تَوغُّلِ الكلامِ معَه في طريقةِ الخطابِ، ونُكتتُه: أنَّه بعدَ أن أبطَلَ اللهُ دَعْواهم عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٠- ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

أنَّه مُفترٍ بطريقةِ النَّقضِ، أمَر رسولَه أن يُبيِّنَ لهم ماهِيَّةَ القرآنِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ اختيرَ اسْمُ الرَّبِّ؛ لِمَا فيه مِن مَعنى العِنايةِ والتَّدبيرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه تَعريضٌ بحُصولِ أضْدادِ ذلك لغَيرِهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾ فيه افتِتاحُ الجملةِ بالتَّأكيدِ بلامِ القسَمِ و(قَد)، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ خاصَّةَ المشركينَ كانوا يَقولون ذلك لِعَامَّتِهم، ولا يَجهَرون به بينَ المسلِمين؛ لأنَّه باطِلٌ مكشوفٌ، وأنَّ اللهَ أطْلَع المسلِمين على ذلك، والجملةُ جوابٌ عن كلامِهم، فهي مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يتَضمَّنُ أنَّه ليس مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ، فيَسأَلُ سائلٌ: ماذا جوابُ قولِهم؟ فيُقالُ: لسانُ الَّذي... إلخ[٤]؛ ففيه تَحْليَةُ هذه الجملةِ بفُنونِ التَّأكيدِ؛ لِتَحقيقِ ما تتَضمَّنُه مِن الوعيدِ[٥].

- وصيغةُ الاستقبالِ في ﴿نَعْلَمُ﴾ لإفادةِ استمرارِ العِلمِ بحسَبِ الاستمرارِ التَّجدُّدِيِّ في مُتعلَّقِه ﴿يَقُولُونَ﴾؛ فإنَّهم مُستمِرُّون على تَفوُّهِ تلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤١).

العظيمةِ[١]، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ﴾ ولم يَقُلْ: «لقد عَلِمْنا»؛ لأنَّ قولَهم هذا يتجَدَّدُ، فكان التَّعبيرُ بالمُضارعِ أَولى مِن التَّعبيرِ بالماضي؛ لأنَّه لو قال: «لقد عَلِمْنا» لتَبادرَ إلى ذِهنِ بَعضِ النَّاسِ أنَّ المعنى: عَلِمْنا أنَّهم قالوا ذلك سابِقًا، لا أنَّهم يستَمِرُّونَ عليه[٢].

- قولُه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ الجملتانِ مُستأنَفَتان لإبطالِ طَعنِهم[٣]، ويجوزُ أن تكونَ جملةً حاليَّةً، وذلك أبلَغُ في الإنكارِ عليهم، أي: يَقولون ذلك والحالةُ هذه، أي: عِلمُهم بأعجميَّةِ هذا البَشَرِ وإبانةِ عرَبيَّةِ هذا القرآنِ كان يَمنَعُهم مِن تلك المقالةِ[٤].



(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٥).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٦).

الآيات (١٠٤-١١١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا
يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن
كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن
شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ
﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ
رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ
مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ
نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَبَعَ﴾: أي: ختَم، والطَّبعُ: تصويرُ الشَّيءِ بصورةٍ ما، وهو مَثَلٌ على نهايةٍ ينتهي إليها الشَّيءُ، حتَّى يُختمَ عندَها[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

﴿مَن﴾ اسمُ شرطٍ جازِمٌ مبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأً، وجوابُه محذوفٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨).

تقديرُه: (فعليهم غضَبٌ)، ودلَّ عليه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ الآتي بعد ﴿مَن﴾ الثَّانية في قولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا...﴾، والشَّرطُ وجوابُه المحذوفُ في محلِّ رَفعٍ خَبَرُ ﴿مَن﴾، والجملةُ كلُّها: ﴿مَن كَفَرَ...﴾ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، استئنافيَّةٌ لا تعلُّقَ لها بما قَبلَها. ﴿إِلَّا﴾ أداةُ استِثناءٍ. ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محلِّ نصبٍ على الاستِثناءِ، وجملةُ ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ حاليَّةٌ مِن الضَّميرِ في ﴿أُكۡرِهَ﴾، وجُملةُ ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الواو عاطِفةٌ. (لَكِنْ) حرفُ استدراكٍ. ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محلِّ رفعٍ مُبتدأٌ. ﴿صَدۡرٗا﴾ مَفعولٌ به، أو تمييزٌ على تَضمينِ ﴿شَرَحَ﴾ معنى (طاب)، وجملةُ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ في مَحلِّ رفعِ خبَرُ المبتدأِ ﴿مَن﴾، والفاءُ فيها زائدةٌ تَشبيهًا للمَوصولِ بالشَّرطِ. والجُملةُ كُلُّها لا محَلَّ لها من الإعرابِ، مَعطوفةٌ على الجُملةِ الاستِئنافيَّةِ ﴿مَن كَفَرَ﴾. وقيل غَيرُ ذلك(١).

المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ الكُفَّارَ الذين لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه سبحانَه، وعلى صِدقِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يبلِّغُه عنه؛ لا يُوَفِّقُهم اللهُ للإيمانِ واتباعِ الحَقِّ، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُؤلِمٌ.

إنَّما يختلقُ الكَذِبَ مَن لا يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ، وأولئك هم الكاذِبونَ.

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٨٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٣٩٤)، ((المجتبى)) لأحمد الخراط (٢/ ٥٩٨).

ثمَّ بيَّن تعالى حُكمَ مَن أُكْرِه على النُّطقِ بكلمةِ الكفرِ، وحكمَ مَن استحبَّ الكفرَ على الإيمانِ، فقال: مَن نطَقَ بكَلِمةِ الكُفرِ وارتدَّ بعد إيمانِه، فعليهم غضَبٌ مِن اللهِ، إلَّا مَن أُكرِه على النُّطقِ بالكُفرِ، فنطَقَ به خَوفًا من الهلاكِ، وقَلبُه ثابِتٌ على الإيمانِ، لكِنْ مَن نطَقَ بالكُفرِ، وانشرَح صدرُه به، فعليهم غَضَبٌ شَديدٌ مِن اللهِ، ولهم عَذابٌ عَظيمٌ؛ وذلك بسبَبِ إيثارِهم الدُّنيا وزِينتَها على الآخرةِ، وأنَّ اللهَ لا يهدي الكافرينَ، أولئك هم الذينَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم وسَمعِهم وأبصارِهم، وأولئك هم الغافِلونَ، حقًّا أنَّهم في الآخرةِ هم الخاسِرونَ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى جانبًا مِن لطفِه وإحسانِه لقومٍ هاجروا في سبيلِه، فقال: ثمَّ إنَّ رَبَّك للمُستضعَفينَ الذين عذَّبهم المُشرِكون وفَتَنوهم، حتى وافَقوهم على ما هم عليه ظاهِرًا، وقلوبُهم ثابِتةٌ على الإيمانِ، ثمَّ هاجروا وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ، وصَبَروا على البلاءِ والأذى طلبًا لرضا الله تعالى- إنَّ رَبَّك مِن بعدِها لَغَفورٌ لهم رحيمٌ بهم.

ثم قال تعالى: يومَ تأتي كُلُّ نَفسٍ تُخاصِمُ وتدافِعُ عن نفسِها، وتعتَذِرُ بكُلِّ المعاذيرِ، وفي هذا اليوم تُعطَى كلُّ نفسٍ جزاءَ عَمَلِها وافيًا غيرَ منقوصٍ، ولا يُظلَمونَ بزيادةٍ في سَيِّئاتِهم، ولا بنَقصِ شَيءٍ مِن حَسَناتِهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نِسبةَ الكافرينَ الافتراءَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ما أتَى به مِن عندِ اللهِ إنَّما يُعَلِّمُه إيَّاه بَشَرٌ؛ كان ذلك تَسجيلًا عليهم بانتِفاءِ الإيمانِ، فأخبَرَ تعالى عنهم أنَّهم لا يَهديهم اللهُ أبدًا؛ إذ كانوا جاحِدينَ

بآياتِ اللهِ، وهو ما أتَى به الرَّسولُ مِن المُعجِزاتِ وخُصوصًا القُرآنَ، فمَن بالَغ في جَحدِ آياتِ اللهِ، سَدَّ اللهُ عليه بابَ الهِدايةِ، وذكَرَ تعالى وَعيدَه بالعذابِ الأليمِ لهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سبحانَه جوابَهم وبَّخَهم وهدَّدَهم[٢] فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: إنَّ الذينَ لا يُؤمِنونَ بحُجَجِ اللهِ وأدِلَّتِه، وما أنزَله على رسولِه، لا يُوَفِّقُهم اللهُ للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ عُقوبةً لهم على رَدِّهم الهُدى[٣].

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُوجِعٌ[٤].

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٠٥ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا زَيَّفَ اللهُ تعالى شُبَهَ الكافرينَ، أثبَتَ لهم ما قَذَفوا به النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو بَريءٌ منه، مقصورًا عليهم[٥].

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٥٧).

أي: إنَّما يَختَلِقُ الكَذِبَ على اللهِ الذينَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللَّهِ[1].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أي: والذينَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ، هم المُعتادونَ للكَذِبِ، وهو مُنحَصِرٌ فيهم[2].

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَظَّمَ تهديدَ الكافرينَ، ذكَرَ في هذه الآيةِ تَفصيلًا في بيانِ مَن يَكفُرُ بلِسانِه لا بقَلبِه، ومَن يَكفُرُ بلِسانِه وقَلبِه معًا[3].

وأيضًا فإنه لَمَّا سبَقَ التَّحذيرُ مِن نَقضِ عَهدِ الله الذي عاهَدوه، وألَّا يَغُرَّهم ما لأُمَّةِ المُشركينَ مِن السَّعةِ والرُّبُوِّ، والتَّحذيرُ مِن زَلَلِ القَدَمِ بعدَ ثُبوتِها، وبُشِّروا بالوَعدِ بحَياةٍ طَيِّبةٍ، وجزاءِ أعمالِهم الصَّالحةِ مِن الإشارةِ إلى التَّمسُّكِ بالقُرآنِ، والاهتداءِ به، وألَّا تَغُرَّهم شُبَهُ المُشرِكينَ وفُتونُهم في تكذيبِ القُرآنِ- عَقَّبَ ذلك بالوَعيدِ على الكُفرِ بعدَ الإيمانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٢).

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾.

أي: مَن[1] كفَرَ باللهِ بعد أنْ كان مُؤمِنًا مُهتَديًا، فعَلَيهم غَضَبٌ مِن اللهِ، إلَّا مَن أُكرِهَ على الكُفرِ، والحالُ أنَّ قَلْبَه مُوقِنٌ بحَقيقةِ الإيمانِ، لم يتغيَّرِ اعتقادُه الصَّحيحُ[2]، ولكِنْ مَن اتَّسَعَ صَدرُه لِقَبولِ الكُفرِ واعتَقَده، واختارَه على الإيمانِ، وطابَت به نَفسُه، واطمأنَّت إليه؛ فعَلَيهم غَضَبٌ شديدٌ مِن الله، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[3].

عن مُحمَّدِ بنِ عَمَّارِ بنِ ياسرٍ، عن أبيه رضي الله عنه، قال: ((أخذَ المُشرِكونَ عَمَّارَ بنَ ياسرٍ، فلم يَترُكوه حتى سَبَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذكَرَ آلِهَتَهم بخَيرٍ، ثمَّ تَرَكوه، فلمَّا أتَى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ما وراءَك؟ قال: شَرٌّ يا رسولَ اللهِ؛ ما تُرِكْتُ حتى نِلتُ منك، وذكَرْتُ آلِهتَهم بخيرٍ، قال: كيف

(١) ممن ذهب إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ ابتداءُ كلامٍ، وخبرُه في قولِه: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: ابنُ جرير، والواحدي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

قال ابنُ كثير: (أخبر تعالى عمَّن كفر به بعدَ الإيمانِ والتبصُّرِ، وشرَح صدرَه بالكُفرِ واطمأنَّ به: أنه قد غَضِبَ عليه؛ لعِلمِهم بالإيمانِ ثمَّ عدولِهم عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

(٢) قال البَغَوي: (أجمع العُلَماءُ على أنَّ مَن أُكرِهَ على كَلِمةِ الكُفرِ يجوزُ له أن يقولَ بلِسانِه، وإذا قال بلسانِه غيرَ مُعتَقِدٍ، لا يكونُ كُفرًا، وإنْ أبى أن يقولَه حتى يُقتَلَ كان أفضَلَ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٠٧-٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

تَجِدُ قَلْبَك؟ قال: مُطمَئِنًّا بالإيمانِ، قال: إنْ عادوا فعُدْ))(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ذلك الغَضَبُ مِن اللهِ والعذابُ الأُخرويُّ العَظيمُ بسَبَبِ أنَّ الذين كَفَروا بعدَ إيمانِهم اختارُوا نعيمَ الحَياةِ الدُّنيا على نَعيمِ الآخرةِ، فارتَدُّوا على أدبارِهم؛ طَمَعًا في شَيءٍ مِن زَهرةِ الدُّنيا الفانيةِ(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ولأنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ القَومَ الكافرينَ بآياتِه، المُصرِّينَ على كُفرِهم، للهدايةِ واتِّباعِ الحَقِّ(٣).

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) أخرجه الحاكم (٣٣٦٢)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٤٠)، والبيهقي (١٧٣٥٠).
صحَّحه الحاكمُ على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٣٨٩)، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٢٩٥) وقال: (وزاد بعضُهم: وفي هذا أُنزِلَت: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ ...﴾ الآيةَ)، وقال ابنُ حجر في ((الدراية)) (٢/ ١٩٧): (إسنادُه صحيحٌ إن كان محمَّدُ بنُ عمَّارٍ سَمِعَه من أبيه).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

هذه جُملةٌ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بأنَّ حِرمانَهم الهِدايةَ بحِرمانِهم الانتفاعَ بوَسائِلِها: مِن النَّظَرِ الصَّادِقِ في دلائِلِ الوَحدانيَّةِ، ومِنَ الوَعيِ لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقُرآنِ المُنَزَّلِ عليه، ومِن ثَباتِ القَلبِ على حِفظِ ما داخَلَه مِن الإيمانِ؛ حيث انسَلَخوا منه بعدَ أن تلَبَّسوا به[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾.

أي: أولئك الذين كَفَروا بعدَ إيمانِهم، هم الذينَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم، فلا يَعقِلونَ بها الحَقَّ، وأصمَّ أسماعَهم، فلا يَسمَعونَ الهُدى، وأعمَى أبصارَهم، فلا يَنظُرونَ آياتِ اللهِ، ولا يَعتَبِرونَ بها[2].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾.

أي: وأولئك هم السَّاهونَ عمَّا خَلَقَهم اللهُ لأجْلِه، وعمَّا أعدَّ لهم في الآخرةِ مِن العَذابِ[3].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾.

أي: حقًّا أنَّ الذينَ كَفَروا بعدَ إيمانِهم هم الهالِكونَ المَغبونونَ الذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، وفاتَهم نَعيمُ الجَنَّةِ، ولم يَسْلموا من عذابِ النَّارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٢)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٣/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى -فيما تقدَّمَ- حالَ مَن كفَرَ باللهِ مِن بعدِ إيمانِه، وحالَ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ فذكَرَ بسبَبِ الخَوفِ كَلِمةَ الكُفرِ، وحالَ مَن لم يَذكُرْها- ذكَرَ بعده حالَ من هاجرَ مِن بعدِ ما فُتِنَ[1].

وأيضًا لَمَّا قَدَّمَ الفاتِنَ والمَفتونَ، أتبَعَ ذلك ذِكرَ حُكمِهما، فقال تعالى[2]:

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿فتَنُوا﴾ بفَتحِ الفاءِ والتاءِ مَبنيًّا للفاعِلِ، أي: فَتَنُوا أنفُسَهم، قيل المعنى: أنَّهم هَجَروا أوطانَهم وقد عَرَفوا ما في ذلك مِن الشِّدَّة. وقيل: المعنى: أنَّهم فتَنوا مَن آمَنَ باللهِ حين كانوا كُفَّارًا. وقيل غير ذلك[3].

٢- قِراءةُ ﴿فُتِنُوا۟﴾ بضَمِّ الفاءِ وكَسرِ التاءِ مبنيًّا للمَفعولِ، أي: مِن بَعدِ ما فتَنَهم الكُفَّارُ بالإكراهِ على التَّلَفُّظِ بالكُفرِ، وقُلوبُهم مُطمَئِنَّةٌ بالإيمانِ. وقيل

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦١).

(٣) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦١).

المعنى: مِن بعدِ ما فتَنَهم اللهُ[١].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾.

أي: ثمَّ إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- للَّذين هاجَروا مِن أصحابِك مِن ديارِ الكُفرِ إلى دِيارِ الإسلامِ، مِن بَعدِ ما فتَنَهم كُفَّارُ مكَّةَ عن دينِهم بإكراهِهم على الكُفرِ، فأظهَرُوه لهم مع إخْفاءِ اعتِقادِهم الصَّحيحِ، ثمَّ جاهَدوا الكُفَّارَ وقاوَموهم؛ كي لا يَرُدُّوهم إلى الكُفرِ، وصَبَروا على تحمُّلِ المَشاقِّ[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد ما فتَنَهم الكفارُ حتى أظْهَروا الكفرَ، وقلوبُهم مطمئنَّةٌ بالإيمانِ؛ لَغفورٌ لهم، يَستُرُ ذُنوبَهم، ويتَجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم رَحمةً تَصلُحُ بها أمورُ دينِهم ودُنياهم[٣].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢١٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٠).
قال ابن تيمية: (نزَلَت هذه الآيةُ في طائفةٍ مِن الصَّحابةِ كان المُشرِكونَ فَتَنوهم عن دينِهم، ثمَّ تاب اللهُ عليهم فهاجروا إلى اللهِ ورَسولِه، وجاهدوا وصَبَروا). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).
قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: إذا كان ذلك رخصَةً، فلا يحتاجُ إلى المغفرةِ والرَّحمةِ؟ والجوابُ: أنَّه يحتملُ أنَّهم فعلوا ما فعلوا ذلك قبلَ نزولِ الرُّخصةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٢٠٥).

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَما تقدَّم كثيرٌ مِن التحذيرِ والتبشيرِ، وتقدَّم أنَّه لا يُؤذَنُ للذين كفروا ولا هم يُستعتبونَ، وختَم ذلك بانحصارِ الخسارِ في الكفارِ؛ بيَّن اليومَ الذي تظهرُ فيه تلك الآثارُ[1]، فقال تعالى:

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾.

أي: يومَ[2] تأتي كُلُّ نَفسٍ[3] تُخاصِمُ عن نَفسِها؛ فلا يُحاجِجُ عنها غَيرُها، ولا تُحاجِجُ هي عن غَيرِها، فتُدافِعُ بقَولِها عمَّا عَمِلَت في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[4].

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٢).

(٢) قال الزجاج: (﴿يَوۡمَ﴾ منصوبٌ على أحدِ شيئين، على معنى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ * يَوۡمَ تَأۡتِي﴾، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: اذكُرْ؛ لأنَّ معنَى القرآنِ العظةُ والإنذارُ والتذكيرُ. أي: اذكُرْ يومَ تأتي كلُّ نفسٍ...). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٣).

وعلى القولِ الأوَّلِ لا يَضُرُّ تقييدُ الرَّحمةِ بذلك اليَومِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ في غَيرِه تَثبُتُ بالطَّريقِ الأَولى. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٧٥).

(٣) قال ابن عطية: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ كُلَّ نفسٍ تجادِلُ كانت مؤمنةً أو كافرة، فإذا جادل الكفَّارُ بكَذِبِهم وجَحْدِهم للكفرِ، شَهِدَت عليهم الجوارحُ والرسُلُ وغير ذلك بحسَبِ الطوائف، فحينئذ لا ينطِقون، ولا يؤذَنُ لهم فيعتَذِرونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٢).

أي: وتُوفَّى كُلُّ نَفسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ بزيادةٍ في سَيِّئاتِهم، ولا بنَقصِ شَيءٍ مِن حَسَناتِهم[(١)].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ في الآيةِ أبلَغُ زَجْرٍ عن الكَذِبِ؛ حيث أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه إنَّما يَفتَري الكَذِبَ مَن لا يُؤمِنُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ جعَلَ اللهُ تعالى استِحبابَ الدُّنيا على الآخِرةِ هو الأصلَ المُوجِبَ للخُسرانِ[(٣)].

٣- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مَن هاجر في سبيلِ الله وخلَّى ديارَه وأموالَه؛ طلبًا لِمَرضاة الله، وفُتِن على دينِه ليَرجِعَ إلى الكفر، فثَبَت على الإيمانِ، ثمَّ جاهَد أعداءَ الله ليُدخِلَهم في دين اللهِ بلِسانِه ويَدِه، وصبر على هذه العباداتِ الشَّاقَّةِ على أكثَرِ النَّاسِ- فهذه أكبَرُ الأسبابِ التي تُنالُ بها أعظَمُ العَطايا وأفضَلُ المَواهِبِ، وهي مَغفِرةُ اللهِ للذُّنوبِ؛ صِغارِها وكِبارِها، المتَضَمِّنةُ زَوالَ كُلِّ أمرٍ مَكروهٍ، ورَحمتُه العَظيمةُ التي بها صَلَحَت أحوالُهم، واستَقامَت أمورُ دينِهم ودُنياهم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يَدخُلُ في معناها كُلُّ مَن فتَنَه الشَّيطانُ عن دِينِه، أو أوقَعَه في معصيةٍ، ثمَّ هجرَ السَّيِّئاتِ، وجاهَدَ نَفسَه وغَيرَها مِن العَدُوِّ، وجاهَدَ المُنافِقينَ بالأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ وغيرِ ذلك، وصبَرَ على ما أصابَه مِن قَولٍ أو فِعلٍ[1].

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ ﴾ أنَّ مَن لم يُؤْمِنْ بآياتِ اللهِ لا يهديه اللهُ، ومَفهومُ المُخالفةِ فيها: أنَّ مَن آمَنَ بآياتِ اللهِ، هداه اللهُ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ، وأُجبِرَ عليه، وقَلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ راغِبٌ فيه؛ فإنَّه لا حرَجَ عليه ولا إثمَ، ويَجوزُ له النُّطقُ بكَلِمةِ الكُفرِ عندَ الإكراهِ عليها[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ دلالةٌ على أنَّ مَن أُكْرِهَ على قولٍ مُحَرَّمٍ إكراهًا مُعتبَرًا فإنَّ له أنْ يفتديَ نفسَه به، ولا إِثْمَ عليه[4]؛ لأنَّه إذا كان قد سُومِحَ لكَلِمةِ الكُفرِ، أو فِعلِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٨٤).
(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٠).
(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٧٢).

ما يُؤدِّي إليه، فالمُسامَحةُ بغَيرِه مِن المعاصي أَولى[(١)].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دلَّ على أنَّ كَلامَ المُكرَهِ على الطَّلاقِ أو العِتاقِ، أو البَيعِ أو الشِّراءِ أو سائِرِ العُقودِ؛ لا عِبرةَ به، ولا يترَتَّبُ عليه حُكمٌ شَرعيٌّ؛ لأنَّه إذا لم يُعاقَبْ على كَلِمةِ الكُفرِ إذا أُكرِهَ عليها، فغيرُها مِن بابِ أَولى وأحرى[(٢)]. وأيضًا فكُلُّ مَن أُكرِهَ على فِعلٍ؛ فإنَّه لا حُكْمَ لِفعلِه، فلَمْ تُخَصِّصِ الآيةُ القولَ[(٣)]، خلافًا لمن قال: إنَّ هذه الرُّخصةَ المذكورةَ في هذه الآيةِ إنَّما جاءت في القَولِ، وأمَّا في الفِعلِ فلا رُخصةَ، مثل: أن يُكرَهَ على السُّجودِ لِغَيرِ اللهِ. ويَدفَعُه ظاهِرُ الآيةِ؛ فإنَّها عامَّةٌ فيمن أُكرِهَ، مِن غَيرِ فَرقٍ بين القَولِ والفِعلِ، ولا دليلَ لهؤلاء القاصرينَ للآيةِ على القَولِ، وخُصوصُ السَّبَبِ لا اعتبارَ به مع عُمومِ اللَّفظِ[(٤)].

٥- الغضبُ صفةٌ فعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ[(٥)]، فاللهُ تعالى يَغضَبُ على مَن يَستَحِقُّ الغضَبَ مِن الكافرينَ وغَيرِهم؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[(٦)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لَمَّا فَعَلوا فِعلَ مَن استَحَبَّ، أُلزِموا ذلك، وإن كانوا غَيرَ مُصَدِّقينَ بالآخِرةِ، لكِنْ مِن حيثُ أعرَضوا عن النَّظَرِ فيه، كانوا كَمَن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٦٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٣٤).

استحَبَّ غَيرَه[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: النَّفسُ لا تكونُ لها نَفسٌ أُخرى، فما معنى قَولِه تعالى هذا؟

الجوابُ: النَّفسُ قد يُرادُ بها بَدَنُ الحَيِّ، وقد يُرادُ بها ذاتُ الشَّيءِ وحَقيقتُه؛ فالنَّفسُ الأُولى هي الجُثَّةُ والبَدَنُ، والثَّانيةُ: عَينُها وذاتُها، فكأنَّه قيل: يومَ يأتي كُلُّ إنسانٍ يُجادِلُ عن ذاتِه، ولا يُهِمُّه شَأنُ غَيرِه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ عبَّرَ بالمُجادَلةِ؛ إفهامًا للدَّفعِ بأقصَى ما تَقدِرُ عليه[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما كان مطلقُ الجزاءِ مخوفًا مقلقًا، بُني للمفعولِ قولُه: ﴿وَتُوَفَّىٰ﴾[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما كان المرهوبُ مطلقَ الظلمِ، وكان البناءُ للمفعولِ أبلغَ جزاءٍ في نفيه قال: ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موقِعُ هذه الجملةِ مِن الَّتي قَبْلَها موقِعُ التَّعليلِ لِجَميعِ أقوالِهم المحكيَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّذييل لخُلاصةِ أحوالِهم؛ ولذلك فُصِلَت بدونِ عَطفٍ[(١)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾: لَمَّا كان في كَلامِهم ﴿إِنَّمَا﴾، كقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ وهو يَقتَضي الحصرَ، جاء الرَّدُّ عليهم بـ ﴿إِنَّمَا﴾ أيضًا، وجاء بلَفظِ ﴿يَفْتَرِى﴾ الَّذي يَقْتَضي التَّجدُّدَ، ثمَّ علَّق الحكمَ على الوصفِ المقتَضِي للافتراءِ، وهو: انتفاءُ الإيمانِ، وختَم بقولِه: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ فاقتضَى التَّوكيدَ البالِغَ والحصْرَ بلفظِ الإشارةِ، والتَّأكيدَ بلَفظِ ﴿هُمُ﴾، وإدخالِ (أل) على ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وبكَونِه اسْمَ فاعِلٍ يَقْتَضي الثُّبوتَ والدَّوامَ، فجاء ﴿يَفْتَرِى﴾ بلَفظِ المضارِعِ يَقتَضي التَّجدُّدَ، وجاء ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يَقْتَضي الثُّبوتَ والدَّوامَ[(٢)]؛ فهذا ردٌّ لقولِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ بقَلْبِ ما زعَموه عليهم، كما كان قولُه تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣] جوابًا عن قولِهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾؛ فبعدَ أن نَزَّه القرآنَ عن أن يكونَ مُفترًى والمنزَّلَ عليه عن أن يكون مُفترِيًا ثُنِيَ العِنَانُ لِبَيانِ مَن هو المفتَرِي، وهذا مِن طريقةِ القَلْبِ في الحالِ. ووجهُ مناسَبةِ ذِكْرِه هنا أنَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ يَستلزِمُ تكذيبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في أنَّ ما جاء به مُنزَّلٌ إليه مِن عندِ اللهِ، فصاروا بهذا الاعتبارِ يُؤكِّدون بمَضمونِه قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾؛ يُؤكِّدُ أحدُ القولَينِ القولَ الآخَرَ، فلمَّا ردَّ قولَهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ بقولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠١- ١٠٢]، ورُدَّت مَقالَتُهم الأخرى في صَريحِها بقولِه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٥٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٢).

يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ﴾ ورُدَّ مَضمونُها هنا بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ...﴾ حاصِلًا به ردُّ نَظيرِها وهو قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ بكلامٍ أبلَغَ مِن كلامِهم[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ عبَّر عن المقصورِ عليهم باسْمِ الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ أن يَذكُرَ ضميرَهم -فيُقالَ: إنَّما يفتري الكذبَ أنتُم- لِيُفيدَ اشتِهارَهم بمضمونِ الصِّلةِ، ولأنَّ للصِّلةِ أثَرًا في افترائِهم؛ لِما تُفيدُه الموصوليَّةُ مِن الإيماءِ إلى وجهِ بِناءِ الخبَرِ. واختِيرَ في الصِّلةِ صيغةُ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ (لم يُؤمِنوا)؛ لِتَكونَ على وِزَانِ ما عُرِفوا به سابِقًا في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، ولِما في المضارِعِ مِن الدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّون على انتفاءِ الإيمانِ لا يَثبُتُ لهم ضِدُّ ذلك، ثمَّ أُردِفَت جملةُ القَصرِ بجُملةِ قصرٍ أُخرَى بطريقِ ضميرِ الفصلِ، وطريقِ تعريفِ المسنَدِ، وهي جملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾. وافتُتِحَت جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ باسْمِ الإشارةِ، بعدَ إجراءِ وصْفِ انتفاءِ الإيمانِ بآياتِ اللهِ عنهم؛ لِيُنبِّهَ على أنَّ المشارَ إليهم جَديرون بما يَرِدُ مِن الخبرِ بعدَ اسْمِ الإشارةِ، وهو قَصْرُهم على الكذِبِ؛ لأنَّ مَن لا يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ يتَّخِذُ الكذبَ دَيْدَنًا له مُتجدِّدًا. وجعَلَ المسنَدَ في هذه الجملةِ مُعرَّفًا باللَّامِ؛ لِيُفيدَ أنَّ جِنسَ الكاذِبين اتَّحَد بهِم، وصار مُنحصِرًا فيهم، أي: الَّذين تَعرِفُ أنَّهم طائفةُ الكاذِبين هم هؤلاء[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو وَعيدٌ على الكفرِ بعدَ الإيمانِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ استدراكٌ على الاستثناءِ ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو احتراسٌ مِن أن يُفهَمَ مِن الاستثناءِ أنَّ المكرَهَ مرخَّصٌ له أن يَنسَلِخَ عن الإيمانِ مِن قلبِه[٢].

- واختِيرَ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ دونَ نحوِ: (فقد غَضِب اللهُ عليهم)؛ لِما تَدُلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ مِن الدَّوامِ والثَّباتِ، أي: غضَبٌ لا مَغفِرةَ معَه. وتقديمُ الخبَرِ المجرورِ (علَيهم) على المبتدَأِ ﴿غَضَبٞ﴾؛ للاهتِمامِ بأمْرِهم، فقَدَّم ما يَدُلُّ عليهم، ولِتَصحيحِ الإتيانِ بالمبتدَأِ نكِرةً حينَ قَصَد بالتَّنكيرِ التَّعظيمَ، أي: غضَبٌ عظيمٌ؛ فاكتَفى بالتَّنكيرِ عن الصِّفةِ. وأمَّا تقديمُ (لهم) على ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فللاهتمامِ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه الجملةُ واقِعةٌ موقِعَ التَّعليلِ؛ فلِذَلك فُصِلَت عن الَّتي قبلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٦-٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٦).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تذييلٌ؛ لِما في صيغةِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن العمومِ الشَّامِلِ للمتحدَّثِ عنهم وغيرِهم؛ فليس ذلك إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، ولكنَّه عُمومٌ بعدَ خُصوصٍ. وذِكرُ لفظِ (قومٍ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَن كان هذا شأنَهم فقد عُرِفوا به، وتَمكَّن منهم، وصار سَجِيَّةً حتَّى كأنَّهم يَجمَعُهم هذا الوصفُ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ فيه افتِتاحُ الجملةِ باسْمِ الإشارةِ؛ لِتَمييزِهم أكمَلَ تمييزٍ؛ تَبْيينًا لِمَعنى الصِّلةِ المتقدِّمةِ، وهي اتِّصافُهم بالارْتِدادِ إلى الكفرِ بعد الإيمانِ بالقولِ والاعتقادِ، وأخبَرَ عن اسْمِ الإشارةِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الحُكْمِ المبيَّنِ بهذه الجملةِ، وهو مَضمونُ جُملةِ ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ تكمِلةٌ للبَيانِ، أي: الغافِلونَ الأكمَلونَ في الغَفلةِ؛ لأنَّ الغافِلَ البالِغَ الغايةَ يُنافي حالَةَ الاهتداءِ، والقَصرُ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو حقيقيٌّ ادِّعائيٌّ يُقصَدُ به المبالَغةُ؛ لعَدمِ الاعتدادِ بالغافِلين غيرِهم؛ لأنَّهم بَلَغوا الغايةَ في الغفلةِ حتَّى عُدَّ كلُّ غافِلٍ غيرِهم كمَن ليس بغافِلٍ، ومِن هنا جاء مَعْنى الكَمالِ في الغفلةِ، لا مِن (لامِ التَّعريفِ)[3].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٧- ٢٩٨).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ جملةٌ واقِعةٌ موقِعَ النَّتيجةِ لِمَا قَبلَها؛ لأنَّ ما قبْلَها صار كالدَّليلِ على مَضمونِها؛ ولذلك افتُتِحَت بكلمةِ نَفْيِ الشَّكِّ: ﴿ لَا جَرَمَ ﴾[(١)].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ، كما هو شأنُها في عطفِها الجُملَ؛ وذلك أنَّ مَضمونَ هذه الجملةِ المعطوفةِ أعظَمُ رُتبةً مِن المعطوفِ عليها؛ إذ لا أعظَمَ مِن رِضَا اللهِ تعالى[(٢)].

- قولُه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ وقَعَ الإقبالُ بالخطابِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ إيماءً إلى أنَّ تلك المغفِرةَ مِن برَكاتِ الدِّينِ الَّذي أُرسِلَ به[(٣)]، وإضافةُ لفظِ (رَبٍّ) إلى ضميرِ النَّبيِّ يُومِئُ إلى أنَّ المغفِرةَ والرَّحمةَ لأصحابِه كانت لأنَّهم أُوذُوا لأجْلِ اللهِ ولأجْلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ فكان إسنادُ المغفِرةِ إلى اللهِ بعُنوانِ كَونِه ربَّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم حاصِلًا بأُسلوبٍ يَدُلُّ على الذَّاتِ العَليَّةِ وعلى الذَّاتِ المحمَّديَّةِ، وهذا مِن أدَقِّ لَطائفِ القرآنِ في قَرْنِ اسمِ النَّبيِّ باسْمِ اللهِ بمُناسَبةِ هذا الإسنادِ بخُصوصِه[(٤)]، وكذلك في إضافةِ الرَّبِّ إلى ضَميرِه صلَّى الله عليه وسلَّم مع ظُهورِ الأثَرِ في الطَّائفةِ المذكورةِ: إظهارٌ لكَمالِ اللُّطفِ به عليه السَّلامُ،

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٢٩٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٠١).

وإشعارٌ بأنَّ إفاضةَ آثارِ الرُّبوبيَّةِ عليهم مِن المغفرةِ والرَّحمةِ بواسِطتِه عليه السَّلامُ، ولِكَونِهم أتباعًا له(١).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مُتعلِّقٌ بـ (غفُورٌ) مقدَّمٌ عليه؛ للاهتمامِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وبالتَّوكيدِ اللَّفْظيِّ؛ لِتَحقيقِ الوعدِ، والاهتمامُ يَدفَعُ النَّقيصةَ عنهم في الفضلِ(٣).

- وأُعيدَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ وتكرَّر ثانِيًا؛ لِطولِ الفصلِ بينَ اسْمِ إنَّ وخبَرِها المقترِنِ بلامِ الابتداءِ، مع إفادةِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ(٤).

٨- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ فيه إطلاقُ اسْمِ السَّببِ على المسبَّبِ؛ فالتَّقديرُ: (جَزاءَ ما عَمِلَت)؛ إشعارًا بكَمالِ الاتِّصالِ بينَ الأجزِيَةِ والأعمالِ(٥).

- وقولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيه إيثارُ إظهارِ (نَفْس) على إضمارِها حيث لم يَقُل: (تُوفَّى) فقط؛ لزيادةِ التَّقريرِ، وللإيذانِ باختلافِ وَقْتَي المجادَلةِ والتَّوفيَةِ، وإن كانَتَا في يومٍ واحدٍ(٦)، وكذلك لِتَكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً؛ فتَجْرِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَجْرى المثَلِ[١].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٢).

الآيات (١١٢-١١٩)

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ
(١١٢) وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (١١٣)
فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن
قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ
بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَغَدًا﴾: واسعًا طَيِّبًا كثيرًا، وأصلُ (رغد): يدلُّ على أطيَبِ العَيشِ[(١)].

﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾: أي: ذُبِحَ لغَيرِ اللهِ، ورُفِعَ فيه الصَّوتُ عند ذبحِه بتَسميةِ غَيرِ اللهِ، وأصلُ الإهلالِ: يدلُّ على رَفعِ الصَّوتِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦، ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

قال الشنقيطي: (كانوا إذا ذَبَحوا لغيرِ الله رفَعوا أصواتَهم باسمِ الأصنامِ، فصار يُطلقُ على كلِّ ما

﴿ٱضۡطُرَّ﴾: أي: أُلْجِئَ، وأُحوِج، أو أُكرِه، والاضْطِرارُ: يُطلقُ على حمْلِ الإنسانِ على ما يَضُرُّه وما يكرهُه، وأصلُ الاضطرارِ: فِعلُ ما لا يَتهيَّأُ له الامتناعُ منه[(١)].

﴿بَاغٖ﴾: أي: طالِبٍ له، راغِبٍ فيه لِذاتِه، وأصلُ (بغي): يَدُلُّ على قَصْدِ الفَسادِ[(٢)].

﴿عَادٖ﴾: أي: مُتَجاوِزٍ قَدْرَ الضَّرورةِ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على التَّجاوُزِ[(٣)].

﴿هَادُواْ﴾: أي: دخَلوا في دينِ اليَهوديَّةِ؛ مِن قَولِهم: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ﴾[الأعراف: ١٥٦]، وكان اسمَ مَدْحٍ، ثمَّ صار بعد نَسخِ شَريعتِهم لازِمًا لهم، وإن لم يكُنْ فيه معنى المَدحِ، وأصلُ (هود): يدُلُّ على الرُّجوعِ برِفقٍ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾

﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مَنصوبٌ، وفي نَصبِه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّه مَفعولٌ به لـ ﴿تَصِفُ

ذُبِحَ لغيرِ الله: «أُهِلَّ لغيرِ الله به»». ((العذب النمير)) (٢/ ٣٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٢٠١)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٠، ٤٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

﴾. و﴿لِمَا تَصِفُ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ عن قَولِ ذلك. و(ما) في ﴿لِمَا﴾ مَصدريَّةٌ. و﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ جُملةٌ في محَلِّ نَصبٍ مَقولُ القَولِ، أي: ولا تقولوا: هذا حَلالٌ وهذا حرامٌ لأجْلِ وَصْفِ ألسِنَتِكم الكَذِبَ، والمعنى: لا تُحَلِّلوا ولا تُحَرِّموا لأجلِ قَولٍ تَنطِقُ به ألسِنَتُكم من غيرِ حُجَّةٍ. **الثاني**: أنَّه مَفعولٌ به لـ ﴿تَقُولُواْ﴾، ويكونُ قَولُه: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ ...﴾ بَدَلًا مِن ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ؛ لأنَّه عَينُه، والتقديرُ: ولا تقولوا الكَذِبَ: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ؛ لِوَصفِ ألسِنَتِكم. **الثالث**: أن يَنتَصِبَ على البَدلِ مِن العائِدِ المحذوفِ على ﴿مَا﴾ إذا قُلْنا: إنَّ (ما) مَوصولةٌ بمعنى الذي، والتَّقديرُ: لِما تَصِفُه[١].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سوءَ عاقبةِ الذين يجحدونَ نعمَ الله، ويكذِّبونَ بآياتِه: وضرَبَ اللهُ مثَلًا قَريةً كانت في أمانٍ واطمِئْنانٍ يأتيها رِزقُها هنيئًا سَهلًا مِن كُلِّ جِهةٍ، فجحَدَ أهلُها نِعَمَ اللهِ عليهم، وأشرَكوا به، ولم يَشكُروا له، فعاقَبَهم اللهُ بالجُوعِ والخَوفِ؛ بسبَبِ كُفرِهم وصَنيعِهم. ولقد أرسلَ اللهُ إلى أهلِ تلك القَريةِ رَسولًا منهم، يَعرِفونَ نَسَبَه وأمانَتَه وصِدْقَه، فكذَّبوه، فأخَذَهم العذابُ مِن القتل والجُوعِ والخَوفِ، وهم مشركون باللهِ.

ثمَّ أمَر الله عبادَه بأن يأكلوا ممَّا أحلَّه لهم، وأن يشْكُروه على نعمِه، فقال: فكُلوا -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا رزَقَكم اللهُ حالَ كَونِه حَلالًا مُستَطابًا، واشكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم بالاعترافِ بها وصَرْفِها في طاعةِ اللهِ، إن كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وَحدَه.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٨٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٠).

ثمَّ بيَّن ما حرَّمه على عبادِه، فقال: إنَّما حرَّم اللهُ عليكم المَيتةَ مِن الحَيوانِ، والدَّمَ المَسفوحَ -كالذي يخرجُ مِن الحيوانِ عندَ ذَبحِه- ولَحمَ الخِنزيرِ، وما ذُبِحَ لغَيرِ الله؛ فمَن ألجأَتْه ضَرورةٌ إلى أَكْلِ شَيءٍ مِن هذه المُحَرَّماتِ وهو غيرُ مريدٍ لأكلِها مِن غيرِ اضطرارٍ، ولا مُتَجاوِزٍ حدَّ الضَّرورةِ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ له رَحيمٌ به، لا يُعاقِبُه على ما فعَلَ.

ثمَّ نهَى الله تعالى عن القولِ عليه بغيرِ علمٍ، فقال: ولا تَقولوا- أيُّها المُشرِكونَ- لِما تَصِفُه ألسِنَتُكم كَذِبًا: هذا حَلالٌ، لِما حرَّمَه اللهُ، وهذا حَرامٌ، لِما أحَلَّه اللهُ؛ لتختَلِقوا على اللهِ الكَذِبَ؛ إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يَفوزونَ بخَيرٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، مَتاعُهم في الدُّنيا مَتاعٌ قليلٌ، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ مُوجِعٌ.

ثم ذكر تعالى أنَّ ما حرَّمه على اليهودِ مِن طيباتٍ، إنَّما كان بسببِ ظلمِهم، فقال: وعلى اليهودِ حَرَّمْنا ما أخبَرْناك به- يا مُحمَّدُ- مِن قبلُ في سُورةِ (الأنعامِ)، وما ظَلَمْناهم بتَحريمِ ذلك عليهم، ولكِنْ كانوا ظالِمينَ لأنفُسِهم بمخالفةِ أمرِ الله، فاستحَقُّوا ما عُوقبوا به.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سَعةَ رحمتِه سبحانَه بعبادِه، ورأفتِه بهم، فقال: ثمَّ إنَّ رَبَّك للَّذينَ فَعَلوا المعاصيَ في حالِ سَفَهٍ وجهالةٍ منهم وغَفلةٍ عن عاقِبتِها، ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ عمَّا كانوا عليه من الذُّنوبِ، وأصلَحوا أعمالَهم- إنَّ رَبَّك مِن بعدها لَغفورٌ لهم، رحيمٌ بهم.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ

يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا هَدَّدَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بالوَعيدِ الشَّديدِ في الآخرةِ؛ هَدَّدَهم أيضًا بآفاتِ الدُّنيا، وهو الوقوعُ في الجُوعِ والخَوفِ[1].

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ قَريةً يعيشُ أهلُها في أمنٍ واطمِئنانٍ واستقرارٍ[2] مَثَلًا لكُلِّ مَن أنعَمَ اللهُ عليهم، فأبطَرَتْهم النِّعمةُ وكَفَروا وتوَلَّوا، فأحلَّ اللهُ بهم نِقَمَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ: هل المراد بهذه القريةِ قريةٌ معينةٌ، أو المرادُ قريةٌ غيرُ معينةٍ؟

فقيل: هي قريةٌ معينةٌ، وممن اختار أنَّ المرادَ بها مكَّةُ: ابنُ جريرٍ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابنُ الجوزي -ونَسَبه للجُمهورِ- والقرطبي، وابنُ كثير، والسَّعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال الشنقيطي: (وهذه الصِّفاتُ المذكورةُ الَّتي اتَّصَفتْ بها هذه القريةُ: تتَّفقُ معَ صفاتِ أهلِ مكَّةَ المذكورةِ في القرآنِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٥٥).

وقال الرازي: (هذه القريةُ الَّتي ضَرَب اللَّهُ بها هذا المثلَ يحتملُ أنْ تكونَ شيئًا مفروضًا، ويحتملُ أنْ تكونَ قريةً مُعيَّنةً، وعلى هذا التَّقديرِ الثَّاني فتلك القريةُ يحتملُ أنْ تكونَ مكَّةَ أوْ غيرَها... والأقرَبُ أنَّها غيرُ مَكَّةَ؛ لأنَّها ضُرِبَت مَثَلًا لِمَكَّةَ، ومَثَلُ مَكَّةَ يكونُ غيرَ مَكَّةَ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٨، ٢٧٩).

وقيل: المرادُ: قريةٌ غيرُ معينةٍ، وممن اختار ذلك: ابنُ عطيةَ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤).

كما قال تعالى عن مكَّةَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾.

أي: يأتي أهلَ تلك القَريةِ أقواتُهم ومَعايشُهم بوَفرةٍ وهَناءٍ وسُهولةٍ، مِن كُلِّ ناحيةٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فجحَدَ أهلُ تلك القَريةِ بما أنعَمَ اللهُ عليهم، فلم يَشكُروا اللهَ عليها[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

قال الرازي: (قوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحَّةِ؛ لأنَّ هواء ذلك البلدِ لَمَّا كان ملائمًا لأمزجتِهم، اطمأنُّوا إليه واستقرُّوا فيه). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٩).

وقال الشوكاني: (وصَفَ القريةَ بأنَّها كانت آمنةً غيرَ خائفةٍ، مُطمئِنَّةً غيرَ منزعجةٍ، أي: لا يخافُ أهلُها ولا ينزَعِجون). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٦).

﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

أي: فأذاق اللهُ أهلَ تلك القَريةِ الجُوعَ والخَوفَ الذي بان أثَرُه عليهم مِن الهُزالِ وشُحوبةِ اللَّونِ وسُوءِ الحالِ مِمَّا ظهَرَ على أبدانِهم، وذلك بعد أن كانوا في رَغَدٍ مِن العَيشِ والأمْنِ؛ بسبَبِ ما كانوا يَصنَعونَ مِن الكُفرِ وجُحودِ النِّعَمِ، والتَّكذيبِ بالحَقِّ، وارتِكابِ المعاصي[1].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ قُرَيشًا لَمَّا غَلَبوا النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم واستَعصَوا عليه قال: اللهُمَّ أعِنِّي عليهم بسَبْعٍ كسبعِ يوسُفَ، فأخذَتْهم سَنَةٌ[2] أكَلوا فيها العِظامَ والميتةَ مِن الجَهْدِ، حتى جعَلَ أحَدُهم يرى ما بينَه وبينَ السَّماءِ كهَيئةِ الدُّخانِ مِن الجُوعِ))[3].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكافِرينَ بأنَّهم أُذيقوا لِباسَ الجُوعِ والخَوفِ بما كانوا يَصنَعونَ، وكان إنَّما ذكَرَ مِن صُنعِهم أنَّهم كَفَروا بأنْعُمِ اللهِ؛ زِيدَ هنا أنَّ ما كانوا يَصنَعونَ عامٌّ لكُلِّ عَمَلٍ لا يُرضي اللهَ، غيرُ مَخصوصٍ بكُفرِهم نِعمةَ الله، وإنَّ مِن أشنَعِ ما كانوا يَصنَعونَ تَكذيبَهم رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّه منهم، وذلك أظهَرُ في معنى الإنعامِ عليهم والرِّفقِ بهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٥، ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٨).

(٢) السَّنةُ: القَحْطُ والجَدْبُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٤١).

(٣) رواه البخاري (٤٨٢٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٨).

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾.

أي: ولقد جاءَ أهلَ تلك القَريةِ رَسولٌ مِن أنفُسِهم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ نَسَبَه؛ لِيَدعُوَهم إلى الحقِّ، فكذَّبوه فيما جاءَهم به مِن الوَحيِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨- ١٢٩].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: فأخَذَهم عذابُ الدُّنيا بالجُوعِ والخَوفِ والقَتلِ، والحالُ أنَّهم مُشرِكونَ باللهِ[2].

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا تقَرَّرَ بما مضى من أدلَّةِ التَّوحيدِ، فثَبَت ثباتًا لا يتطَرَّقُ إليه شَكٌّ أنَّ اللهَ هو الإلهُ وَحدَه، كما أنَّه هو الرَّازِقُ وَحدَه، ونَبَّهَهم على دقائِقَ في تَقديرِه للأرزاقِ تدُلُّ على عَظَمتِه وشُمولِ عِلمِه وقُدرتِه واختيارِه، فثَبَت أنَّهم ظالِمونَ فيما جَعَلوا للأصنامِ مِن رِزقِه، وأنَّه ليس لأحدٍ أن يتحَرَّكَ إلَّا بأمْرِه سُبحانَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٦)، ((الهداية)) لمكي (٦/ ٤١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٠).

وختَمَ ذلك بهذا المثَلِ المُحذِّرِ مِن كُفرانِ النِّعَمِ- عَقَّبَه بقولِه تعالى صادًّا لهم عن أفعالِ الجاهليَّةِ(١):

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾.

أي: فكُلوا -أيُّها النَّاسُ- مِمَّا رزَقَكم اللهُ مِن الحَيواناتِ والحُبوبِ والثِّمارِ وغَيرِها، في حالِ كَونِها حلالًا لم يُحَرِّمْها اللهُ، ومِن كَسْبٍ طَيِّبٍ لا إثمَ فيه، مُستلَذَّةً يَطيبُ للنَّاسِ طَعمُها(٢).

﴿ وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

أي: واشكُروا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- على نِعَمِه، واصرِفوها في طاعتِه، إن كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وَحدَه وتُطيعونَه فيما أمَرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك استِحلالُ ما أحَلَّ اللهُ مِن الرِّزقِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإذنُ في قَولِه تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ إنَّما

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

هو في بَعضِ الرِّزقِ في الحالِ المَذكورِ، فاحتِيجَ إلى مَعرِفتِه، وكانت المُباحاتُ أكثَرَ مِن المَحظوراتِ؛ حَصَرَ القَليلَ لِيُعلَمَ منه الكثيرُ؛ لأنَّ كُلَّ ضِدَّينِ مَعروفينِ إجمالًا عُيِّنَ أحَدُهما، عُرِفَ مِن تَعيينِه الآخَرُ، فقال تعالى(١):

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

أي: إنَّما حرَّم اللهُ تعالى عليكم المَيْتةَ مِن الحيواناتِ التي ماتَت حَتْفَ أنفِها -دونَ ذَكاةٍ شرعيَّةٍ ولا اصطِيادٍ(٢)- والدَّمَ المَسفوحَ(٣)، ولَحمَ الخِنزيرِ(٤)، وما ذُبِحَ على غَيرِ اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَحُ للأصنامِ، ويُسمَّى عليه بغيرِ اسمِه سُبحانَه(٥).

كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٨).
(٢) ويُستثنى مِن ذلك مَيتةُ الجَرادِ والسَّمَكِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).
(٣) الدَّم المَسفوح: هو المُنصَبُّ المُسالُ كالذي يَخرُجُ عند الذَّكاةِ، أو يَخرُجُ عند فَصْدِ العِرْقِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٩-٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٧).
(٤) وذلك شاملٌ للحمِه، وشحمِه، وجميعِ أجزائِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: فمَن ألجأَتْه الضَّرورةُ إلى الأكْلِ مِن تلك المُحرَّماتِ الأربعةِ، وهو غيرُ مُبتَغٍ لِتَناوُلِها مِن غيرِ ضَرورةٍ، ولا مُريدٍ التلذُّذَ بأكْلِها، وغيرُ مُتَجاوزٍ قدْرَ الضَّرورةِ، فلا يتناوَلُ منها إلَّا بمِقدارِ ما يَدفَعُ عنه الهَلاكَ؛ فمَن كانت حالُه كذلك فلا حرَجَ عليه ولا إثمَ مِن تَناوُلِ تلك المحرَّمات؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِه، فيَستُرُها، ويتَجاوَزُ عن المُؤاخَذةِ بها، ومِن ذلك تجاوزُه عمَّن أكَل ما حرَّمه الله مضطرًّا، وهو الرَّحيمُ بعِبادِه، ومِن رَحمتِه أنْ شرَع لهم ذلك؛ توسِعةً منه، فأباح أكْلَ ذلك عند الضَّرورةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٨٨)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (١/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال الماوردي: (وفي قولِه: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ على الإمامِ، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ على الأُمةِ بإفسادِ شملِهم، فيدخلُ الباغي على الإمامِ وأُمتِه، والعادي: قاطعُ الطريقِ، وهو معنَى قولِ مجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جبيرٍ.

والثاني: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في أكلِه فوقَ حاجتِه، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ يعني: متعديًا بأكلِها وهو يجدُ غيرَها، وهو قولُ قتادةَ، والحسنِ، وعكرمةَ، والربيعِ، وابنِ زيدٍ.

والثالثُ: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ في أكلِها شهوةً وتلذذًا، ﴿وَلَا عَادٖ﴾ باستيفاءِ الأكلِ إلى حدِّ الشِّبَعِ، وهو قولُ السُّديِّ). ((تفسير الماوردي)) (١/ ٢٢٢).

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حَصَر اللهُ تعالى المُحَرَّماتِ في تلك الأربَعِ؛ بالَغَ في تأكيدِ ذلك الحَصرِ، وزَيَّفَ طريقةَ الكُفَّارِ في الزِّيادةِ على هذه الأربَعِ، وفي النُّقصانِ عنها أُخرَى؛ فإنَّهم كانوا يُحَرِّمونَ البَحيرةَ، والسَّائِبةَ، والوَصيلةَ، والحاميَ، وكانوا يقولونَ: ما في بُطونِ هذه الأنعامِ خالِصةٌ لذُكُورِنا ومُحَرَّمٌ على أزواجِنا، فقد زادوا في المُحَرَّمات وزادوا أيضًا في المُحَلَّلاتِ؛ وذلك لأنَّهم حَلَّلوا المَيتةَ والدَّمَ ولحمَ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ به لغيرِ الله تعالى، فاللهُ تعالى بَيَّنَ أنَّ المُحَرَّماتِ هي هذه الأربعةُ، وبيَّنَ أنَّ الأشياءَ التي يقولونَ: إنَّ هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، كَذِبٌ وافتراءٌ على اللهِ تعالى، ثمَّ ذكَرَ الوَعيدَ الشَّديدَ على هذا الكَذِبِ[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَهم بتناوُلِ ما أحَلَّ لهم؛ عدَّد عليهم مُحرَّماتِه؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما عَداها حِلٌّ لهم، ثمَّ أكَّد ذلك بالنَّهيِ عن التَّحريمِ والتَّحليلِ بأهوائِهم، فقال[2]:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾.

أي: لا تحرِّموا وتُحلِّلوا مِن تلقاءِ أنفسكم، كذبًا على اللهِ، مِن غيرِ مُستنَدٍ صَحيحٍ، ولا حُجَّةٍ بيِّنةٍ، فتَقولوا لِما أحَلَّ اللهُ: هو حَرامٌ، وتَقولوا لِما حَرَّمه: هو حَلالٌ؛ كي تختَلِقوا الكَذِبَ على اللهِ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير))

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٣٨- ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يونس: ٥٩-٦٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾.

أي: إنَّ الذين يَتقَوَّلونَ على اللهِ الكَذِبَ لا يفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ(١).

﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾.

أي: للمُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ مَتاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ولهم بعد ذلك عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ(٢).

(٤/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦١-٤٦٢)، (٧/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٣).

قال ابن جرير: (لا يُخَلَّدونَ في الدُّنيا، ولا يَبقَونَ فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠).

وقال الشنقيطي: (أي: لا يَنالونَ الفَلاحَ، وهو يُطلَقُ على مَعنَيينِ: أحدهما: الفوزُ بالمطلوبِ الأكبر، والثاني: البقاءُ السَّرمديُّ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية))

كما قال تعالى: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان: ٢٤].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه إنَّما حَرَّمَ علينا المَيتةَ والدَّمَ ولَحمَ الخِنزيرِ، وما أُهِلَّ لِغَيرِ الله به، وأنَّه أرخَصَ فيه عندَ الضَّرورةِ، وفي ذلك تَوسِعةٌ لهذه الأمَّةِ التي يُريدُ اللهُ بها اليُسرَ، ولا يُريدُ بها العُسرَ- ذكَرَ سُبحانَه وتعالى ما كان حَرَّمَه على اليَهودِ في شَريعتِهم قبل أن يَنسَخَها، وما كانوا فيه من الآصارِ والأغلالِ، والحَرَجِ والتَّضييقِ[1].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى لهم نِعمَتَه بتَوسِعتِه عليهم بما ضَيَّقوا به على أنفُسِهم؛ بيَّنَ لهم نِعمةً أخرى، بتَمييزِهم على بني إسرائيلَ[2].

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: وعلى اليَهودِ حَرَّمْنا ما أوحَيناه إليك -يا محمَّدُ- من قبلُ في سُورةِ (الأنعامِ)[3].

كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ

(٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

ﭐلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾.

أي: وما ظَلَمْنا اليَهودَ بتَحريمِ ما حرَّمْنا عليهم مِن الطَّيِّباتِ، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بمَعصيةِ اللهِ سُبحانَه، فاستَحَقُّوا عُقوبةَ اللهِ بتَحريمِ الطيِّباتِ عليهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ١١٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ المقصودَ بَيانُ أنَّ الافتراءَ على اللهِ ومُخالفةَ أمرِ اللهِ، لا يَمنَعُهم مِن التَّوبةِ، وحُصولِ المَغفِرةِ والرَّحمةِ[2]، فلمَّا ذُكِرَت أحوالُ أهلِ الشِّركِ، وكان منها ما حَرَّموه على أنفُسِهم، وكان المُسلِمونَ قد شارَكوهم أيَّامَ الجاهليَّةِ في ذلك،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣).

وورَدَت قوارِعُ الذَّمِّ لِمَا صَنَعوا؛ كان مِمَّا يُتوَهَّمُ عُلوقُه بأذهانِ المُسلِمينَ أن يَحسَبوا أنَّهم سينالُهم شَيءٌ مِن غَمصٍ[(١)] لِما اقترَفوه في الجاهليَّةِ، فطَمْأَنَ اللهُ نُفوسَهم بأنَّهم لَمَّا تابوا بالإقلاعِ عن ذلك بالإسلامِ، وأصلَحوا عمَلَهم بعدَ أن أفسَدوا؛ فإنَّ اللهَ قد غفَرَ لهم مَغفِرةً عَظيمةً، ورَحِمَهم رَحمةً واسِعةً[(٢)].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى هذه النِّعمةَ الدُّنيَويَّةَ، عطَفَ عليها نِعمةً هي أكبَرُ منها جِدًّا؛ استِجلابًا لكُلِّ ظالمٍ، فقال تعالى[(٣)]:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ﴾.

أي: ثمَّ إنَّ رَبَّك -يا مُحَمَّدُ- للذين اقترَفوا ما لا ينبغي فِعلُه مِن الكُفرِ أو المعاصي، عن سَفَهٍ منهم، وإيثارٍ للدُّنيا، وعَمايةٍ عن عَواقِبِ ما اقترَفوا[(٤)].

---

(١) الغَمْصُ: الاحتِقارُ والاستِصغارُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ هذه آيةُ تأنيسٍ لجَميعِ العالَمِ، أخبَرَ اللهُ تعالى فيها أنَّه يَغفِرُ للتَّائِبِ، والآيةُ إشارةٌ إلى الكُفَّارِ الذين افترَوا على اللهِ، وفَعَلوا الأفاعيلَ المذكورةَ، فهم إذا تابوا مِن كُفرِهم بالإيمانِ، وأصلَحوا مِن أعمالِ الإسلامِ؛ غَفَرَ الله لهم، وتناولَت هذه الآيةُ بعدَ ذلك كلَّ واقعٍ تحتَ لَفظِها مِن كافرٍ وعاصٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠).

وقال أيضًا: («الجهالةُ» عندي في هذا الموضِعِ ليست ضِدَّ العلمِ، بل هي تعدِّي الطَّورِ وركوبُ الرأسِ، ومنه قول النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «أو أجهَلَ أو يُجهَلَ عليَّ»). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من فاعلِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾، ومعناها المصاحبةُ، أي: يعملون السوءَ ملتبِسينَ بجهالةٍ، أي: مصاحِبينَ

﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

أي: ثمَّ رَجَعوا إلى اللهِ، ونَدِموا، وأقلَعوا عن السُّوءِ مِن بعدِ ما عَمِلوه، وأصلَحوا أعمالَهم، فأقبلوا على فِعلِ الطَّاعاتِ[1].

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّك مِن بَعدِها[2] لَغفورٌ لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، رحيمٌ بهم، فيَقبَلُ تَوبتَهم منها، ولا يُعاقِبُهم[3].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ...﴾ فيجِبُ على كُلِّ عاقلٍ أنْ يعتبِرَ بهذا المَثَلِ، وألَّا يُقابِلَ نِعَمَ اللَّهِ بالكفرِ والطُّغيانِ؛ لئلَّا يَحِلَّ به ما حلَّ بهذه القريةِ المذكورةِ، بل عليه أنْ يُقابلَها بالشُّكرِ، فيشكُرها

لها، ويجوز أن يكونَ حالًا من المفعولِ، أي: ملتبَسًا بجهالةٍ، وفيه بعدٌ وتجوُّزٌ. والثاني: أن يتعلقَ بـ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على أنها باء السببيةِ). ((الدر المصون)) (٣/ ٦٢٣). وممَّن قال بالأولِ: ابنُ عاشور، وممَّن قال بالثاني: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٢) قيل: الضَّميرُ يعودُ على التَّوبةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ على الفَعلةِ السَّيِّئةِ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

وجمَع بينهما البقاعيُّ، فقال: (﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: التَّوبةِ وما تقَدَّمَها من أعمالِ السُّوءِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠).

بالطَّاعةِ والعبادةِ لِلَّه، فقد بَيَّن تعالى أَنَّ الشُّكرَ يزيدُ النِّعمَ والكفرَ يُذْهِبُها، إلَّا ما كان استدراجًا، فقال في شُكرِ النِّعمةِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١] [إبراهيم: ٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أنَّ الجَدْبَ والقَحطَ، وضِيقَ الرِّزقِ والفِتَنَ كُلَّها؛ سَببُها المعاصي[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ الآيةُ تحذِّرُ المسلمينَ مِن أن يتقوَّلوا على اللهِ ما لم يَقُلْه بنصٍّ صريحٍ، أو بإيجادِ معانٍ وأوصافٍ للأفعالِ قد جعَل لأمثالِها أحكامًا[٣]، فلا يجوزُ للعَبدِ أن يقولَ: هذا حَلالٌ وهذا حَرامٌ إلَّا بما عَلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه أحَلَّه وحَرَّمه. وقال بعضُ السَّلَفِ: لِيَتَّقِ أحَدُكم أن يقولَ: أحَلَّ اللهُ كذا، وحَرَّمَ كذا، فيقولَ اللهُ له: كَذَبْتَ! لم أُحِلَّ كذا، ولم أُحَرِّمْ كذا؛ فلا ينبغي أن يقولَ لِما لا يَعلَمُ وُرودَ الوَحيِ المُبينِ بتَحليلِه وتَحريمِه: أحَلَّه اللهُ، وحَرَّمَه اللهُ؛ لمُجَرَّدِ التَّقليدِ، أو بالتَّأويلِ[٤]. وعن أبي نَضرةَ، قَالَ: (قرأت هذه الآية في سُورَة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ...﴾، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا)[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٥٩) و (٩/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٧/ ٢٣٠٦).

بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ حَضٌّ منه تعالى لعبادِه على التَّوبةِ، ودَعوةٌ لهم إلى الإنابةِ، فأخبَرَ أنَّ مَن عَمِلَ سُوءًا بجَهالةٍ بعَاقبةِ ما تجني عليه، ولو كان مُتعَمِّدًا للذَّنبِ- فإنَّه لا بُدَّ أن يَنقُصَ ما في قَلبِه مِن العِلمِ وَقتَ مُقارفَةِ الذَّنبِ- فإذا تاب وأصلَحَ بأن تَرَك الذَّنبَ ونَدِمَ عليه، وأصلَحَ أعمالَه؛ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ له ويَرحَمُه، ويتقَبَّلُ تَوبتَه، ويُعيدُه إلى حالتِه الأولى أو أعلى منها[١].

٥- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ فكُلُّ مَن عصى الله فهو جاهِلٌ، وكلُّ من أطاعه فهو عالمٌ، وبيانُه مِن وجهينِ:

أحدهما: أنَّ مَن كان عالِمًا بالله تعالى وعظَمتِه وكبريائِه وجلالِه، فإنه يهابُه ويخشاه، فلا يقَعُ منه مع استحضارِ ذلك عصيانُه، كما قال بعضُهم: (لو تفكَّر النَّاسُ في عظمةِ الله تعالى، ما عَصَوه)، وقال آخَرُ: (كفى بخشيةِ اللهِ عِلمًا، وكفى بالاغترارِ بالله جَهلًا).

والثاني: أنَّ مَن آثر المعصيةَ على الطاعةِ فإنَّما حمَلَه على ذلك جهلُه وظنُّه أنَّها تنفَعُه عاجِلًا باستِعجالِ لذَّتِها، وإن كان عنده إيمانٌ فهو يرجو التخلُّصَ مِن سوءِ عاقبتِها بالتَّوبةِ في آخِرِ عُمُرِه، وهذا جَهلٌ مَحضٌ؛ فإنَّه يتعجَّلُ الإثمَ والخِزيَ، ويفوتُه عِزُّ التقوى وثوابُها ولذَّةُ الطَّاعةِ، وقد يتمكَّنُ مِن التوبة بعد ذلك، وقد يعاجلُه الموتُ بغتةً، فهو كجائعٍ أكلَ طعامًا مسمومًا لدَفعِ جُوعِه الحاضرِ، ورجا أن يتخلَّصَ مِن ضَرَرِه بشُربِ الدِّرياقِ بعدَه، وهذا لا يفعَلُه إلَّا جاهِلٌ[٢]!

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٣٤).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ إنْ قيلَ: الأنعُمُ جمعُ قِلَّةٍ، فكأنَّ تلك القَريةَ كَفَرَت بأنواعٍ قَليلةٍ مِن نِعَمِ اللهِ، فعَذَّبَها اللهُ تعالى، فلِمَ لم يَقُلْ تعالى: (كَفَروا بنِعَمٍ عَظيمةٍ فاستوجبوا العَذابَ)؟

أجيب: بأنَّ المَقصودَ التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى؛ فإنَّ كُفرانَ النِّعَمِ القَليلةِ لَمَّا أوجَبَ العَذابَ، فبِكُفرانِ النِّعَمِ الكثيرةِ أَولى[(١)].

وقيل: إنَّ الله سُبحانَه نبَّه على سعةِ فضلِه بجمعِ القِلَّةِ الدالِّ على أنَّ كثرةَ فضلِه عليهم تافهةٌ بالنسبةِ إلى ما عندَه سُبحانَه وتعالى[(٢)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تعليقُ ذلك بالشَّرطِ؛ للبَعثِ على الامتِثالِ، لإظهارِ صِدقِ إيمانِهم[(٣)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ تحريمُ لحمِ الخنزيرِ، ويُلْحَقُ بذلك شَحْمُه؛ لأنَّ اللَّحمَ عندَ الإطلاقِ يعمُّ جميعَ أجزائِه حتَّى الشَّحْم، وهذا هو المفهومُ مِن لغةِ العربِ، ومِن العرفِ المطَّرِدِ، أمَّا لو قيل: لحمٌ وشَحْمٌ؛ فإنه يُفَرَّقُ بينهما، فإذا قيل: لحمُ الإبلِ، أو لحمُ الضَّأنِ، أو لحمُ البقرِ، أو لحمُ الخِنزيرِ؛ صار شامِلًا للجَميعِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ تعظيمُ أمرِ الشِّركِ، وبيانُ خطورته؛ فإنَّه يؤثِّرُ حتى على المأكولاتِ[(١)].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ يدخُلُ في هذا كُلُّ مَن ابتدَعَ بِدعةً ليس له فيها مُستنَدٌ شَرعيٌّ، أو حلَّل شيئًا ممَّا حرَّم اللهُ، أو حرَّم شيئًا ممَّا أباح اللهُ بمجرَّدِ رأيِه وتَشهِّيه[(٢)].

٦- يجِبُ أن نَعرِفَ أنَّ مَنْعَ العِبادِ مِمَّا لم يَدُلَّ الشَّرعُ على مَنْعِه، كالتَّرخيصِ لهم فيما دَلَّ الشَّرعُ على مَنعِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَهما سواءً، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾، بل قد يقولُ قائِلٌ: إنَّ تَحريمَ الحَلالِ أشَدُّ مِن تَحليلِ الحرامِ؛ لأنَّ الأصلَ الحِلُّ، واللهُ عزَّ وجَلَّ يُحبُّ التَّيسيرَ لِعبادِه[(٣)].

٧- أنَّ الأمرَ إلى اللهِ تعالى تحليلًا وتَحريمًا، وليس إلينا، ولا لأحدٍ مِن النَّاسِ، بل هو إلى اللهِ ورَسولِه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[(٤)].

٨- أنكَرَ تعالى على مَن نسَبَ إلى دِينِه تَحليلَ شَيءٍ أو تَحريمَه مِن عِندِه بلا بُرهانٍ مِن اللهِ، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا

ونقَل غيرُ واحدٍ الإجماعَ على حرمةِ شحمِ الخنزيرِ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٢٣)، ((الإقناع)) لابن القطان (١/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٦٣).

﴿حَرَامٌ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ فكيف بمن نسَبَ إلى أوصافِه سُبحانَه وتعالى ما لم يَصِفْ به نَفسَه؟! أو نفى عنه منها ما وصَفَ به نَفسَه[١]؟!

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ لَمَّا كان تَحليلُهم وتَحريمُهم قولًا فارِغًا ليس له حَقيقةٌ أصلًا؛ لأنَّه لا دليلَ عليه؛ عبَّرَ عنه بأنَّه وَصفٌ باللِّسانِ لا يَستَحِقُّ أن يَدخُلَ إلى القَلبِ[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لَمَّا كان المُفتَري يَفتَري لتَحصيلِ مَطلوبٍ، نفى اللهُ تعالى عنه الفَلاحَ؛ لأنَّه الفوزُ بالخيرِ والنَّجاحِ[٣].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ ليس المعنى أنَّه يَغفِرُ لِمَن يَعمَلُ السُّوءَ بجَهالةٍ، ولا يَغفِرُ لِمَن عَمِلَه بغيرِ جَهالةٍ، بل المرادُ أنَّ جَميعَ مَن تاب فهذا سَبيلُه، وإنَّما خُصَّ مَن يَعمَلُ السُّوءَ بجَهالةٍ؛ لأنَّ أكثَرَ مَن يأتي الذُّنوبَ يأتيها بقِلَّةِ فِكرٍ في عاقبةٍ، أو عندَ غَلَبةِ شَهوةٍ، أو في جَهالةِ شَبابٍ، فذُكِرَ الأكثَرُ على عادةِ العَرَب في مثلِ ذلك[٤].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ويدخلُ في هذا الحكمِ مَن

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٨).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٩).

عمِل حرامًا مِن المسلمينَ جاهلًا بأنَّه حرامٌ، وكان غيرَ مقصِّرٍ في جهلِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ فيه التَّعبيرُ عن ضَربِ المثَلِ الواقعِ في حالِ نُزولِ الآيةِ بصِيغةِ الماضي ﴿ضَرَبَ﴾-، على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ للتَّشويقِ إلى الإصْغاءِ إليه، وهو مِن استِعْمالِ الماضي في الحالِ لِتَحقيقِ وُقوعِه، مثلُ قولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، أو لِتَقريبِ زمَنِ الماضي مِن زمَنِ الحالِ، مثلُ: قد قامَتِ الصَّلاةُ. ويَجوزُ أن يَكونَ ﴿ضَرَبَ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى الطَّلبِ والأمرِ، أي: اضْرِبْ يا محمَّدُ لقَومِك مثَلًا قريةً إلى آخِرِه، وإنَّما صِيغَ في صيغةِ الخبَرِ تَوسُّلًا إلى إسنادِه إلى اللهِ؛ تَشريفًا له، وتنويهًا به[٢].

- قولُه: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ جعَل المثَلَ قريةً موصوفةً بصِفاتٍ تُبيِّنُ حالَها المقصودَ مِن التَّمثيلِ، فاستَغْنى عن تَعيينِ القَريةِ، والنُّكتةُ في ذلك أن يَصلُحَ هذا المثَلُ للتَّعريضِ بالمشركينَ باحتِمالِ أن تَكونَ القريةُ قريتَهم- مكَّةَ- بأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤).

جعَلَهم مثَلًا للنَّاسِ مِن بَعدِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً﴾ تأخيرُ قريةٍ مع كونِها مفعولًا أوَّلَ؛ لِئَلَّا يَحولَ المفعولُ الثَّاني بينَها وبينَ صِفَتِها وما يترتَّبُ عليها؛ إذِ التَّأخيرُ عن الكلِّ مُخِلٌّ بتَجاذُبِ أطرافِ النَّظْمِ وتَجاوُبِها، ولأنَّ تأخيرَ ما حقُّه التَّقديمُ ممَّا يورِثُ النَّفسَ ترقُّبًا لِوُرودِه، وتَشوُّقًا إليه لا سيَّما إذا كان في المقدَّمِ ما يَدْعو إليه؛ فإنَّ المثَلَ ممَّا يَدْعو إلى المُحافَظةِ على تَفاصيلِ أحوالِ ما هو مثَلٌ، فيتَمكَّنُ المؤخَّرُ عندَ وُرودِه لدَيْها فَضْلَ تمكُّنٍ[٢].

- وقَدَّمَ الأمْنَ على الطُّمَأنينةِ في قولِه: ﴿ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً﴾؛ إذ لا تَحصُلُ الطُّمَأنينةُ بدُونِه، كما أنَّ الخوفَ يُسَبِّبُ الانزِعاجَ والقَلَقَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا﴾ غيَّرَ سَبْكَها عن الصِّفةِ الأُولى ﴿ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً﴾؛ لأنَّ إتيانَ رِزقِها متجدِّدٌ، وكونَها آمِنةً مطمئنَّةً ثابتٌ مستمرٌّ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾: فيه اقتِرانُ فِعلِ (كَفَرَتْ) بفاءِ التَّعقيبِ بعدَ أنْ كانَت آمِنةً مُطمئنَّةً باعتبارِ حصولِ الكفرِ عَقِبَ النِّعمِ الَّتي كانوا فيها حينَ طرَأَ عليهم الكُفرُ؛ وذلك عِندَ بَعثةِ الرَّسولِ إليهم، وهذا على القولِ بأنَّ القريةَ هي مكةُ. وأمَّا قَرْنُ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ، فهو تَعقيبٌ عُرْفيٌّ في

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٥).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

مِثلِ ذلك[١]. وقيل: لما كانت السعةُ تجرُّ إلى البطرِ غالبًا، نبَّه تعالى لهم ذلك بالفاءِ، فقال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾[٢].

- في قولِه: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ شَبَّهَ ما يُدرَكُ مِن أثَرِ الضَّرَرِ والألَمِ بما يُدرَكُ مِن طَعمِ المُرِّ، وأمَّا اللِّباسُ فقد شُبِّهَ به- لاشتمالِه على اللَّابِسِ- ما غَشِيَ الإنسانَ، والتبَسَ به مِن بَعضِ الحَوادِثِ، وأمَّا إيقاعُ الإذاقةِ على لِباسِ الجُوعِ والخَوفِ؛ فلأنَّه لَمَّا وقعَ عِبارةً عَمَّا يغشَى منهما ويُلابسُ، فكأنَّه قيل: فأذاقهم ما غَشِيَهم مِنَ الجُوعِ والخَوفِ[٣].

- وقولُه: ﴿الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ مُقابَلٌ بما تقدَّم مِن ذِكْرِ الأمنِ وإتيانِ الرِّزقِ، فقابَلَهما بالجوعِ النَّاشِئِ عن انْقِطاعِ الرِّزقِ وبالخَوفِ، وقدَّم الجوعَ؛ لِيَلِيَ المتأخِّرَ وهو إتيانُ الرِّزقِ[٤].

- قولُه: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في صيغةِ (الصُّنعِ) إيذانٌ بأنَّ كُفْرانَ النِّعمةِ صار صَنْعةً راسِخةً لهم، وسُنَّةً مَسلوكةً[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ مفرَّعٌ على نَتيجةِ التَّمثيلِ، وصَدٌّ لهم عمَّا يؤدِّي إلى مِثلِ عاقِبتِه، أي: وإذْ قد استَبان لكُم حال مَن كفر

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٥).

بأنعُمِ اللهِ، وكذَّب رسولَه، وما حلَّ بهم بسَببِ ذلك مِن اللُّتَيَّا والَّتي أوَّلًا وآخِرًا؛ فانْتهُوا عمَّا أنتم عليه مِن كُفرانِ النِّعَمِ، وتَكْذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ كَيْ لا يَحُلَّ بكُم مِثلُ ما حَلَّ بهم، واعْرِفوا حقَّ نِعَمِ اللهِ تعالى، وأطيعوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِه ونهيِه، وكُلوا مِن رزقِ اللهِ حالَ كونِه ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[١].

- قولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجلالةِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ الإضمارُ؛ لزيادةِ التَّذكيرِ، ولِتَكونَ جُملةُ هذا الأمرِ مُستقِلَّةً بدَلالتِها بحيث تَصِحُّ أن تَجرِيَ مَجْرى المثَلِ[٢].

- وصرَّح هنا بالنِّعْمةِ؛ لِتَقدُّمِ ذِكْرِها مع مَن كفَر بها، ولم يَجِئْ ذلك في سورةِ (البقرةِ)، بل قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢] لَمَّا لم يتَقدَّمْ ذلك[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ حصَرَ التَّحريمَ في هذه الأربعةِ؛ فإنَّها مُحرَّمةٌ في كلِّ مِلَّةٍ، لا تُباحُ بحالٍ، إلَّا عند الضَّرورةِ، وبدأ بالأخَفِّ تَحريمًا، ثمَّ بما هو أشَدُّ منه؛ فإنَّ تَحريمَ الميتةِ دونَ تَحريمِ الدَّمِ؛ فإنَّه أخبَثُ منها، ولحمُ الخِنزيرِ أخبَثُ منهما، وما أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ أخبثُ الأربعةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٢٧).

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾: وَصْفُ ألسِنَتِهم الكَذِبَ هو مِن فَصيحِ الكلامِ وبَليغِه، وهو مُبالَغةٌ في وَصْفِ كلامِهم بالكذبِ، حيث جعَل قولَهم كأنَّه عَينُ الكَذِبِ ومَحْضُه، فإذا نطَقَت به ألسِنتُهم فقد حلَّت الكذبَ بحِلْيَتِه وصوَّرَتْه بصورتِه، وكأنَّ حقيقةَ الكذبِ كانت مَجهولةً، وألسِنَتَهم تَصِفُها وتُعرِّفُها بكَلامِهم هذا، كقولِهم: (ووَجهُها يَصِفُ الجَمالَ، وعينُها تَصِفُ السِّحرَ)[(١)].

- وفي قولِه: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ عاد الخِطابُ إلى المشرِكين بقَرينةِ قولِه: ﴿ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ ﴾؛ فالجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... ﴾ الآية، وفيه تَعريضٌ بتَحذيرِ المسلِمين؛ لأنَّهم كانوا قَريبي عَهْدٍ بجاهليَّةٍ، فرُبَّما بَقِيَت في نُفوسِ بعضِهم كَراهيَةُ أكْلِ ما كانوا يتعفَّفون عن أكلِه في الجاهليَّةِ[(٢)].

٥- قولُه تعالى: ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ في صورةِ جوابٍ عمَّا يَجيشُ بِخاطِرِ سائلٍ يَسأَلُ عن عدَمِ فَلاحِهم مع مُشاهَدةِ كثيرٍ مِنهم في حالةٍ مِن الفَلاحِ، فأُجيبَ بأنَّ ذلك مَتاعٌ، أي: نفعٌ مُوقَّتٌ زائلٌ، ولهم بعدَه عذابٌ أليمٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه تقديمُ ﴿لَهُمْ﴾؛ للاهتمامِ؛ زِيادةً في التَّحذيرِ، وجيءَ بلامِ الاستحقاقِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العذابَ خصَّهم لأجْلِ افترائِهم[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا﴾ فيه تقديمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾؛ للاهتمامِ، وللإشارةِ إلى أنَّ ذلك حَرُم عليهم ابتِداءً، ولم يَكُنْ مُحرَّمًا مِن شريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، الَّتي كان عليها سلَفُهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: ٩٣]، أي: علَيهم دونَ غَيرِهم؛ فلا تَحسَبوا أنَّ ذلك مِن الحَنيفيَّةِ[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ وقَع الإقبالُ بالخطابِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيماءً إلى أنَّ تلك المغفِرةَ مِن برَكاتِ الدِّينِ الذي أُرسِل به[٣].

- و﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ الجملةَ المعطوفةَ بـ (ثُمَّ) تضمَّنَت حُكمَ التَّوبةِ وأنَّ المغفِرةَ والرَّحمةَ مِن آثارِها، وذلك أهَمُّ عِندَ المخاطَبينَ ممَّا سبَق

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٢- ٣١٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٢).

مِن وعيدٍ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِن بعدِ ما عَمِلوا ما عَمِلوا، والتَّصريحُ به مع دَلالةِ (ثُمَّ) عليه للتَّأكيدِ والمبالَغةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فيه تَكْريرُ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لِتَأكيدِ الوَعدِ، وإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بإنجازِه[٣]؛ وهو تأكيدٌ لفظيٌّ لقولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لزيادةِ الاهْتِمامِ بالخبَرِ على الاهتِمامِ الحاصِلِ بحَرفِ التَّوكيدِ ولامِ الابْتِداءِ، وليتَّصِلَ خبَرُ إنَّ باسْمِها؛ لِبُعدِ ما بينَهما[٤].

- والتَّعرُّضُ لوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِ النبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ مع ظهورِ الأثرِ في التَّائِبين؛ للإيماءِ إلى أنَّ إفاضةَ آثارِ الرُّبوبيَّةِ مِن المغفرةِ والرَّحمةِ عليهم بسَببِ كونِه الواسطةَ في تبليغِ شَريعةِ اللهِ تعالى، وكَونِهم مِن أتْباعِه صلَّى الله عليه وسلَّم[٥].

- قولُه: ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ وقَع الخبرُ بوَصفِ اللهِ تعالى بصفةِ المبالَغةِ في المغفرةِ والرَّحمةِ، وهو كِنايَةٌ عن غُفرانِه لهم ورَحمتِه إيَّاهم في ضِمْنِ وصفِ اللهِ بهاتَينِ الصِّفتَينِ العَظيمتينِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

الآيات (١٢٠-١٢٢)

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ
ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمَّةً﴾: أي: إمامَ هُدًى، مُعَلِّمًا للخَيرِ، يُقتَدَى به، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ[1].

﴿قَانِتًا﴾: أي: مُطيعًا خاضِعًا، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على الطَّاعةِ[2].

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مقبلًا على اللهِ، معرضًا عما سِواه، أو: مائلًا عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، أو: مسلمًا مستقيمًا، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٢٠١، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

وقيل: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ: الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ:

المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالَى أنَّ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- كان جامِعًا لخِصالِ الخَيرِ، إمامًا يُقتَدى به، وكان مُقبِلًا على اللهِ، مُستَقيمًا على الإسلامِ غيرَ مائلٍ عنه، ولم يكُنْ مِن المُشرِكين، وكان شاكِرًا لنِعَمِ اللهِ عليه، اختاره اللهُ لِرسالتِه وخُلَّتِه، وأرشَدَه ووَفَّقَه إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ -وهو الإسلامُ- وآتاه الله في الدُّنيا حَسَنةً، كإعطائِه الذريَّةَ الصَّالحةَ، والسِّيرةَ الحَسَنةَ؛ وإنَّه عند اللهِ في الآخرةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ. ثمَّ أوحَينا إليك- يا مُحمَّدُ- أن اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ، وما كان إبراهيمُ مِن المُشرِكينَ باللهِ تعالى.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا زَيَّفَ في هذه السُّورةِ مَذاهِبَ المُشرِكينَ في أشياءَ؛ منها قَولُهم بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأندادِ لله تعالى، ومنها طَعنُهم في نبُوَّةِ الأنبياءِ والرُّسُلِ عليهم السَّلامُ إلى غيرِ ذلك، فلمَّا بالغَ في إبطالِ مذاهِبِهم في هذه الأقوالِ، وكان إبراهيمُ عليه السَّلامُ هو الذي دعا النَّاسَ إلى التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ، وإلى الشَّرائِعِ، فهو إمامُ الموحِّدينَ، والمُشرِكونَ كانوا مُفتَخِرينَ به مُعترِفينَ بحُسنِ طَريقتِه مُقِرِّينَ بوُجوبِ الاقتداءِ به؛ لا جرَمَ ذَكَرَه اللهُ تعالى في آخِرِ هذه السُّورةِ، وحكى عنه طريقَتَه في التَّوحيدِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا لهؤلاءِ المُشرِكينَ

المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

على الإقرارِ بالتَّوحيدِ، والرُّجوعِ عن الشِّركِ[(١)].

وأيضًا فإن هذا انتقالٌ إلى غرضِ التنويهِ بدينِ الإسلامِ بمناسبةِ قولِه: ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ المقصودُ به أنَّهم كانوا في الجاهِليَّةِ ثمَّ اتَّبَعوا الإسلامَ، فبَعدَ أنْ بَشَّرهم بأنَّه غفَر لهم ما عَمِلوه مِن قبلُ، زادَهم فضلًا ببَيانِ فضلِ الدِّينِ الَّذي اتَّبَعوه، وجعَل الثَّناءَ على إبراهيمَ- عليه السَّلامُ- مُقدِّمةً لذلك؛ لبيانِ أنَّ فضلَ الإسلامِ فضلٌ زائدٌ على جميعِ الأديانِ بأنَّ مبدَأَه برسولٍ ومُنتَهاه برسولٍ. وهذا فضلٌ لم يَحْظَ به دينٌ آخَرُ[(٢)].

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان مُعَلِّمًا جامِعًا لخِصالِ الخَيرِ، يُقتدَى به[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾.

أي: مُطيعًا لله، مُلازِمًا لعِبادتِه بإخلاصٍ وخُشوعٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٤).

قال ابنُ تيميَّة: (قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ أي: كان مُؤمِنًا وَحدَه، وكان النَّاسُ كُفَّارًا جميعًا. وفي صحيحِ البخاري: «أنَّه قال لسارَةَ: ليس على الأرضِ اليومَ مُؤمِنٌ غيري وغيرُك»). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٠)، ((جلاء الأفهام))

﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: مُقبِلًا على اللهِ، مُعْرِضًا عمَّا سواه، مُستَقيمًا على الإسلامِ، مائلًا عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ولم يكُنْ مِمَّن يُشرِكونَ باللهِ شيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾.

أي: قائِمًا بشُكرِ اللهِ وَحدَه على ما أنعَمَ عليه مِنَ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ(٢).

﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

أي: اختارَ اللهُ إبراهيمَ لخُلَّتِه، وجَعَلَه مِن صَفوةِ خَلْقِه، وأرْشَدَه ووَفَّقَه إلى طريقِ الحَقِّ المُستَقيمِ، وهو دينُ الإسلامِ، وعِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له(٣).

لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٥).

قال ابن جرير: (وهذا إعلامٌ مِن اللهِ تعالى أهلَ الشِّركِ به مِن قُرَيشٍ أنَّ إبراهيمَ منهم بَريءٌ، وأنَّهم منه بَراءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي))

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨].

وعن جُنْدَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنِّي أبرَأُ إلى اللهِ أن يكونَ لي منكم خَليلٌ؛ فإنَّ الله تعالى قد اتَّخذني خليلًا كما اتَّخذَ إبراهيمَ خَليلًا))[(١)].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

أي: وآتَينا إبراهيمَ في الدُّنيا كُلَّ ما فيه راحةُ العَيشِ، فجَمَعْنا له خيرَ الدُّنيا مِن جَميعِ ما يَحتاجُ إليه المُؤمِنُ في إكمالِ حياتِه الطَّيِّبةِ[(٢)].

(ص: ٤٥١).

(١) رواه مسلم (٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).

قال ابنُ عطية: (الحَسَنةُ لِسانُ الصِّدقِ، وإمامتُه لجميعِ الخَلقِ، هذا قولُ جميعِ المفَسِّرينَ).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت عظَمةُ الدُّنيا لا تُعتبَرُ إلَّا مَقرونةً بنِعمةِ الآخرةِ، قال تعالى[1]:

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ في الدَّارِ الآخرةِ يومَ القيامةِ لَمِنَ الصَّالحينَ الذين أنعَمَ اللهُ عليهم، فصَلَحَت أمورُهم وأحوالُهم عند اللهِ، وعَلَت مَراتِبُهم، وحَسُنَت مَنزِلتُهم لديه سبحانَه[2].

((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١).

وقال القرطبي: (﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل: الولَدُ الطَّيِّب. وقيل: الثَّناءُ الحسَن. وقيل: النبُوَّة. وقيل: الصَّلاةُ مقرونةً بالصَّلاةِ على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في التشَهُّد. وقيل: إنَّه ليس أهلُ دينٍ إلَّا وهم يتولَّونَه. وقيل: بقاءُ ضيافتِه وزيارةُ قبره. وكُلُّ ذلك أعطاه اللهُ وزاده صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ بتلك الأوصافِ الشَّريفةِ، وقرَّر مِن عظمتِه في الدُّنيا والآخرةِ ما هو داعٍ إلى اتِّباعِه؛ صرَّح بالأمرِ به، فأمَرَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتَّبعَ مِلَّته، وهذا الأمرُ مِن جُملةِ الحَسَنةِ التي آتاها اللهُ إبراهيمَ في الدُّنيا(١).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- وقُلْنا لك: اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ مُستقيمًا على التَّوحيدِ، وما كان إبراهيمُ على دِينِ المُشرِكينَ باللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ٦٧- ٦٨].

قال القرطبي في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾: («مِنْ» بمعنَى «معَ»، أي: معَ الصَّالحينَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا أيضًا معَ الصَّالحينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨).

قال الشنقيطي: (وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، لا يخفَى أنَّ الصَّلاحَ في الدُّنيا يظهرُ بالأعمالِ الحسنةِ، وسائرِ الطَّاعاتِ، وأنَّه في الآخرةِ يظهرُ بالجزاءِ الحسنِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٦)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((أصبَحْنا على فِطرةِ الإسلامِ، وعلى كَلِمةِ الإخلاصِ، وعلى دينِ نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعلى مِلَّةِ أبينا إبراهيمَ حَنيفًا مُسلِمًا، وما كان مِنَ المُشرِكينَ))(١).

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قيل لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الأديانِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ))(٢).

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قد عُلِمَ مِن هذا أنَّ دِينَ الإسلامِ مُنَزَّهٌ عن أن تتعَلَّقَ به شَوائِبُ

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٨٣١)، وأحمد (١٥٣٦٠).
صحح إسناده النووي في ((الأذكار)) (١١٣)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٣٢)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١١٩): (رجاله رجال الصحيح)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٠١)، وقال الشوكاني في ((تحفة الذاكرين)) (١١٦): (رجال إسناده رجال الصحيح)، وصحح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٨٤٧)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ٣٢)، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري مُعلَّقًا قبل حديث (٣٩) مختصرًا، وأخرجه موصولًا في ((الأدب المفرد)) (٢٨٧)، وأحمد (٢١٠٧)، والطبراني (١١/ ٢٢٧) (١١٥٧٢).
قال ابن الملقن في ((شرح البخاري)) (٣/ ٨٠): (إسنادُه لا بأسَ به)، وحسَّن إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (١/ ٩٤)، وصحَّحَ إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٥٥)، والحديث حسنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٠).

الإشراكِ؛ لأنَّه جاء كما جاء إبراهيمُ عليه السَّلامُ مُعلِنًا توحيدًا لله بالإلهيَّةِ، ومُجْتثًّا لوَشيجِ الشِّركِ(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولَمَّا كان السِّياقُ لإثباتِ الكَمالِ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وكانت الأوصافُ الثُّبوتيَّةُ قَريبةَ المأخَذِ، سَريعةَ الوُصولِ إلى الفَهمِ، وأتَى بعدَها وَصفٌ سلبيٌّ بجُملةٍ؛ حُذِفَ نُونُ (يَكُن) منها إيجازًا، وتَقريبًا للفَهمِ، تخفيفًا عليه، وحِفظًا له مِن أن يذهَبَ قبلَ تمامِها إلى غيرِ المُرادِ، وإعلامًا بأنَّ الفِعلَ مَنفيٌّ عنه عليه السَّلامُ على أبلَغِ وُجوهِ النَّفيِ، لا يُنسَبُ إليه شَيءٌ منه ولو قلَّ، فقيل: ﴿وَلَمۡ يَكُ﴾(٢).

٣- الحَنَفُ: هو مَيلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستِقامةِ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾، والجَنَفُ: مَيلٌ عن الاستِقامةِ إلى الضَّلالِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾(٣) [البقرة: ١٨٢].

٤- أثنى اللهُ سُبحانَه على إبراهيمَ خَليلِه بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِ﴾ فهذه أربعةُ أنواعٍ مِنَ الثَّناءِ:

الأول: أنَّه افتتَحَها بأنَّه أُمَّةٌ، والأُمَّةُ: هو القُدوةُ الذي يُؤتَمُّ به.

الثاني: قَولُه: ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ والقُنوتُ يُفَسَّرُ بأشياءَ كُلُّها تَرجِعُ إلى دَوامِ الطَّاعةِ.

الثالث: قَولُه: ﴿حَنِيفٗا﴾ والحَنيفُ: المُقبِلُ على اللهِ، ويلزَمُ هذا المعنى مَيْله عمَّا سِواه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٦٠).

الرابع: قَولُه: ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾ والشُّكرُ للنِّعَمِ مَبنيٌّ على ثلاثةِ أركان: الإقرارُ بالنِّعمةِ، وإضافتُها إلى المُنعِمِ بها، وصَرفُها في مَرضاتِه، والعَمَلُ فيها بما يَجِبُ، فلا يكونُ العَبدُ شاكِرًا إلَّا بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ، والمقصودُ أنَّه مَدَحَ خَليلَه بأربَعِ صِفاتٍ كُلُّها ترجِعُ إلى العِلمِ والعَمَلِ بمُوجِبِه، وتعليمِه ونَشْرِه، فعاد الكَمالُ كُلُّه إلى العِلمِ والعَمَلِ بمُوجِبِه، ودَعوةِ الخَلقِ إليه[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فيه سُؤالٌ: لمَ قال: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ولم يَقُلْ: (وإنَّه في الآخرة في أعلى مقاماتِ الصَّالحينَ)؟

والجوابُ: لأنَّه تعالى حكى عنه أنَّه قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]، فقال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه تعالى أجاب دُعاءَه، ثمَّ إنَّ كَونَه مِن الصَّالِحينَ لا ينفي أن يكونَ في أعلَى مَقاماتِ الصَّالحينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ ذلك في آيةٍ أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾[2] [الأنعام: ٨٣].

ووجهٌ آخَرُ: أنَّه إنَّما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، ولم يَقُل: في أعلى منازِلِ الصَّالحينَ، بحَسَبِ ما تقتَضيه حالُه من الفَضلِ؛ لِمَدحِ مَن هو منهم، والتَّرغيبِ في الصَّلاحِ؛ لِيَكونَ صاحِبُه في جنْبِه إبراهيم، وناهيك بهذا التَّرغيبِ في الصَّلاحِ، وبهذا المَدحِ لإبراهيمَ أن يُشَرِّفَ جُملةً هو فيها، حتى

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٥).

يَصيرَ الاستدعاءُ إليه بأنَّه فيها[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ فيه دَليلٌ على جَوازِ اتِّباعِ الأفضَلِ للمَفضولِ لمَّا تقَدَّمَ إلى الصَّوابِ والعَمَلِ به، ولا دَرَكَ على الفاضِلِ في ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وقد أُمِرَ بالاقتداءِ بهم، فقال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]. وقال هنا: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[٢] [النحل: ١٢٣].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ استُدلَّ بهذه الآيةِ على وُجوبِ الخِتانِ، وما كان مِن شَرْعِه، ولم يَرِدْ به ناسِخٌ[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ نفَى عنه الشِّركَ؛ لِقَصدِ الرَّدِّ على المُشرِكينَ مِن العَرَبِ الذين كانوا يَنتَمونَ إليه[٤].

٩- حصَلَ مِن قَولِه تعالى السَّابِقِ: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠] ومِن قَولِه هنا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ ثلاثُ فوائِدَ: نفيُ الإشراكِ عن إبراهيمَ في جميعِ أزمِنةِ الماضي، وتجَدُّدُ نَفيِ الإشراكِ تجَدُّدًا مُستَمِرًّا، وبراءتُه مِن الإشراكِ بَراءةً تامَّةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٩).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قيل: هو اعتِراضٌ لإبطالِ مَزاعِمِ المشرِكينَ أنَّ ما هم عليه هو دينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو كالتَّأكيدِ لِوَصفِ الحَنيفِ بنَفْيِ ضدِّه، مِثلُ: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾[1] [طه: ٧٩]. وفيه إعلامٌ مِن الله تعالى أهلَ الشركِ به مِن قريشٍ أنَّ إبراهيمَ منهم بريءٌ، وأنَّهم منه براءٌ[2].

- ونَفيُ كونِه مِن المشرِكينَ بحَرفِ (لَم)؛ لأنَّ (لم) تَقلِبُ زمَنَ الفعلِ المضارِعِ إلى الماضي؛ فتُفيدُ انتِفاءَ مادَّةِ الفِعلِ في الزَّمنِ الماضي، وتُفيدُ تَجدُّدَ ذلك المنفيِّ الَّذي هو مِن خَصائصِ الفِعلِ المضارِعِ، فيَحصُلُ معنَيانِ: انْتِفاءُ مَدْلولِ الفِعلِ بمادَّتِه، وتَجدُّدُ الانتفاءِ بصيغتِه، فيُفيدُ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لم يتَلبَّسْ بالإشراكِ قَطُّ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لم يُشرِكْ باللهِ منذُ صار مميِّزًا، وأنَّه لا يتَلبَّسُ بالإشراكِ أبدًا[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ فيه إيثارُ صيغةِ جَمعِ القِلَّةِ (أَنعُمٍ)؛ للإيذانِ بأنَّه عليه السَّلامُ كان لا يُخِلُّ بشُكرِ النِّعمةِ القليلةِ؛ فكَيف بالكثيرةِ؟! وللتَّصريحِ بكَونِه عليه السَّلامُ على خِلافِ ما هم عليه مِن الكُفْرانِ بأنعُمِ اللهِ تعالى حسَبَما بيَّن ذلك بضَربِ المثَلِ[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٩).

- وجملةُ ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؟ لأنَّ الثَّناءَ المتقدِّمَ يُثيرُ سؤالَ سائلٍ عن سبَبِ فَوزِ إبراهيمَ بهذه المَحامِدِ، فيُجابُ بأنَّ اللهَ اجْتَباه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعْتِناءِ بشَأنِه، وتَفْخيمِ مَكانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]، وللتَّفنُّنِ في الأسلوبِ؛ لِتَوالي ثلاثةِ ضمائرِ غَيبةٍ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ في ﴿ثُمَّ﴾ هذه مِن التَّراخي في الرُّتْبةِ ما فيها مِن تعظيمِ مَنزِلةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم، وإجلالِ محَلِّه، والإيذانِ بأنَّ أشرَفَ ما أوتي خليلُ اللهِ إبراهيمُ مِن الكَرامةِ، وأجَلَّ ما أُولِيَ مِن النِّعمةِ: اتِّباعُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم مِلَّتَه؛ لأنَّ (ثُمَّ) دلَّت على تَباعُدِ هذا النَّعتِ في المرتَبةِ مِن بينِ سائرِ النُّعوتِ الَّتي أثنَى اللهُ عليه بها؛ ففيها الإيذانُ بأنَّ هذه النِّعمةَ مِن أجَلِّ النِّعَمِ الفائضةِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[4]؛ فـ(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ المشيرِ إلى أنَّ مَضمونَ الجملةِ المعطوفةِ مُتباعِدٌ في رُتبةِ الرِّفْعةِ على مَضمونِ ما قبْلَها؛ تَنويهًا جَليلًا بشأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم وبشريعةِ الإسلامِ، وزيادةً في التَّنويهِ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٤٩).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٧).
(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٦٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

أي: جعَلْناك مُتَّبِعًا ملَّةَ إبراهيمَ، وذلك أجَلُّ ما أَوْلَيْناكُما مِن الكرامةِ، وهذه الجملةُ هي المقصودُ، وجملةُ ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... ﴾ تمهيدٌ لها[١].

- وزِيدَ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ اتِّباعَ محمَّدٍ مِلَّةَ إبراهيمَ كان بِوَحيٍ مِن اللهِ، وإرشادٍ صادقٍ، تعريضًا بأنَّ الَّذين زعَموا اتِّباعَهم مِلَّةَ إبراهيمَ مِن العرَبِ مِن قبلُ قد أخطَؤُوها بشُبهةٍ أو بغيرِ شُبهةٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكريرٌ لِما سبَق؛ لزيادةِ تأكيدٍ، وتقريرٌ لِنَزاهتِه عليه السَّلامُ عمَّا هم عليه مِن عَقدٍ وعمَلٍ[٣].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

الآيات (١٢٤-١٢٨)

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ
ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ
مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى أنَّه إنَّما جعَلَ تَعظيمَ يومِ السَّبتِ -بالتفَرُّغِ للعبادةِ فيه، وتركِ العملِ- عقوبةً على اليَهودِ حينَ اختَلَفوا في استِحلالِه وتَحريمِه، واعتبارِه أفضَلَ الأيَّامِ، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لَيَحكُمُ بين المُختَلِفينَ يومَ القيامةِ فيما اختَلَفوا فيه، ويُجازي كُلًّا بما يَستَحِقُّه.

ثمَّ يأمرُ الله نبيَّه بالدعوة إلى دينِه، قائلًا له: ادعُ -يا مُحَمَّدُ- إلى دينِ رَبِّك بالحكمةِ، وبالموعظة الحسنة التي ترَقِّقُ القلوبَ، وتهَذِّبُ النُّفوسَ، وجادِلْهم بأحسَنِ طُرُقِ المُجادَلةِ مِن الرِّفقِ واللِّينِ؛ إنَّ اللهَ أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، وهو أعلَمُ بالمُهتَدينَ.

ثمَّ بيَّن تعالى ما ينبغي على المسلمِ أن يفعلَه في حالةِ الاعتداءِ عليه، ومحاربةِ دعوتِه، فقال: وإنْ أردتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- مُعاقَبةَ من اعتَدى عليكم، فلا تَزيدوا عَمَّا فَعَلوه بكم، ولَئِنْ صَبَرتُم لَهو خَيرٌ لكم عند الله، واصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على الدَّعوةِ وما يترتَّبُ عليها من أذًى في اللهِ، وما صَبرُك إلَّا باللهِ؛ فهو الذي يُعينُك عليه ويوفِّقُك، ولا تَحزَنْ على مَن كفَرَ ولم يَستَجِبْ لِدَعوتِك، ولا تغتَمَّ مِن

تكذيبِهم ومَكْرِهم؛ فإنَّ اللهَ ناصِرُك عليهم، إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى مع الذينَ اتَّقَوه ومع المُحسِنين بِعَونِه وتَوفيقِه ونصرِه وتأييدِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ مَوقِعَ هذه الآيةِ يُنادي على أنَّها تضَمَّنَت معنًى يَرتَبِطُ بمِلَّةِ إبراهيمَ وبمَجيءِ الإسلامِ على أساسِها؛ فلَمَّا نَفَت الآيةُ قبلَ هذه أن يكونَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن المُشرِكينَ؛ ردًّا على مَزاعِمِ العَرَبِ المُشرِكينَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ؛ انتقَلَ بهذه المُناسَبةِ إلى إبطالِ ما يُشبِهُ تلك المزاعِمَ، وهي مَزاعِمُ اليَهودِ أنَّ مِلَّةَ اليَهوديَّةِ هي مِلَّةُ إبراهيمَ(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باتِّباعِ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وكان الرَّسولُ قد هداه الله إلى يومِ الجُمُعةِ، فدَلَّ ذلك على أنَّه كان في شَرعِ إبراهيمَ، بيَّنَ أنَّ يومَ السَّبتِ لم يكُنْ تَعظيمُه واتِّخاذُه للعبادةِ مِن شَرعِ إبراهيمَ ولا دينِه(٢).

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾.

أي: إنَّما فُرِضَ تَعظيمُ يومِ السَّبتِ على اليَهودِ، وتَرْكُ العَمَلِ فيه، والتفَرُّغُ للعبادةِ؛ تَغليظًا عليهم، وعُقوبةً لهم حين اختَلَفوا في استِحلالِ يومِ السَّبتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١١).

وتَحريمِه، واعتبارِه أفضَلَ الأيَّامِ، فَضلُّوا عن يومِ الجُمُعةِ، وبَدَّلوا به يومَ السَّبتِ، ولم يكُنْ في شَريعةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ تَعظيمُ ذلك اليَومِ(١).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((نحنُ الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القِيامةِ، بَيْدَ(٢) أنَّهم أُوتوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، ثمَّ هذا يَومُهم الذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ؛ فالنَّاسُ لنا فيه تَبَعٌ: اليَهودُ غَدًا، والنَّصارى بعدَ غَدٍ))(٣).

وعن أبي هُريرةَ وحُذيفةَ رَضِيَ الله عنهما، قالا: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أضَلَّ اللهُ عن الجُمُعةِ مَن كان قَبْلَنا، فكان لليَهودِ يومُ السَّبتِ، وكان للنَّصارى يومُ الأحَدِ، فجاء اللهُ بنا، فهدانا اللهُ لِيَومِ الجُمُعةِ، فجعَلَ الجُمعةَ والسَّبتَ والأحدَ، وكذلك هم تبَعٌ لنا يومَ القيامةِ، نحنُ الآخِرونَ مِن أهلِ الدُّنيا، والأوَّلونَ يومَ القيامةِ، المَقضيُّ لهم قَبلَ الخلائِقِ))(٤).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك- يا مُحمَّدُ- لَيَحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ أولئك المُختَلِفينَ في الدُّنيا في شأنِ استِحلالِ يومِ السَّبتِ أو تَحريمِه، فيُبيِّنُ لهم المُحِقَّ مِن المُبطِلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) بَيْدَ: أي: غيرَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧١).

(٣) رواه البخاري (٨٧٦) واللفظ له، ومسلم (٨٥٥).

(٤) رواه مسلم (٨٥٦).

ويُجازي كلًّا منهم بما يستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣].

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ١٢٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باتِّباعِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بَيَّنَ الشَّيءَ الذي أمَرَه بمُتابَعتِه فيه، فقال تعالى[(٢)]:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: ادعُ -يا محمدُ- جميعَ الناسِ إلى دينِ ربِّك بما أوحاه الله إليك مِن الكتابِ والسنةِ، وانصحْهم بما في وحْيِ الله إليك مِن العبرِ الجميلةِ، وذكِّرْهم بنعمِ الله تعالى ونقمِه وثوابِه وعقابِه بما يستحسنُه السامعون فترقُّ قلوبُهم، ويلينونَ للحقِّ، فيقبلونَه، ويفعلونَ ما أمَرهم الله به، وينتهونَ عمَّا نهاهم عنه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٢).

قال السَّعدي: (أي: ليكُن دعاؤك للخلقِ؛ مُسلمِهم وكافِرِهم، ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ المستقيمِ المشتمِلِ على العلمِ النافعِ والعمَلِ الصالحِ ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: كلُّ أحدٍ على حسَبِ حالِه وفهمِه، وقولِه وانقيادِه، ومن الحكمةِ الدعوةُ بالعلمِ لا بالجهلِ، والبداءةُ بالأهمِّ فالأهمِّ، وبالأقربِ إلى الأذهانِ والفهمِ، وبما يكون قبولُه أتَمَّ، وبالرِّفقِ واللينِ، فإن انقاد بالحِكمة وإلَّا فينتَقِل معه

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾.

أي: وجادِلْ المُعانِدينَ بالطَّريقةِ التي هي أحسَنُ طُرُقِ المُجادَلةِ؛ مِن الرِّفقِ واللِّينِ، وحُسنِ الخِطابِ، والعَفوِ والصَّفحِ، وغيرِ ذلك مِمَّا يكون أدعى للاستجابةِ والقَبولِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

بالدعوةِ بالموعظةِ الحسنةِ، وهو الأمرُ والنهيُ المقرونُ بالترغيبِ والترهيب؛ إمَّا بما تشتَمِلُ عليه الأوامِرُ من المصالحِ وتَعدادِها، والنَّواهي من المضارِّ وتعدادِها، وإمَّا بذِكرِ إكرامِ من قام بدينِ الله، وإهانةِ مَن لم يقُمْ به، وإمَّا بذكر ما أعدَّ الله للطائعين من الثَّوابِ العاجلِ والآجلِ، وما أعدَّ للعاصين من العقابِ العاجِلِ والآجلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

وقال البيضاوي: (فالأُولَى لدعوةِ خواصِّ الأمةِ الطالبينَ للحقائقِ، والثانيةُ لدعوةِ عوامِّهم. ﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾: وجادِلْ معانديهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابنُ تيميةَ: (النوعُ الأكملُ مِن الناسِ مَن يعرِفُ الحقَّ، ويعملُ به، فيُدْعَوْن بالحكمةِ، والثاني: مَن يعرِفُ الحقَّ، لكن تخالفُه نفسُه، فهذا يُوعَظُ الموعظةَ الحسنةَ، فهاتان هما الطريقانِ: الحكمةُ والموعظةُ، وعامَّةُ الناس يحتاجون إلى هذا وهذا؛ فإنَّ النفسَ لها أهواءٌ تدعوها إلى خلافِ الحَقِّ وإن عرَفَتْه، فالنَّاسُ يحتاجون إلى الموعظةِ الحسنةِ وإلى الحِكمةِ، فلا بدَّ مِن الدَّعوةِ بهذا وهذا). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

قال السَّعدي: (فإن كان المَدعوُّ يرى أنَّ ما هو عليه حَقٌّ، أو كان داعِيةً إلى الباطِلِ، فيُجادَلُ بالتي هي أحسَنُ، وهي الطُّرُقُ التي تكون أدعى لاستجابتِه عَقلًا ونَقلًا؛ ومن ذلك الاحتجاجُ عليه بالأدِلَّةِ التي كان يعتَقِدُها؛ فإنَّه أقرَبُ إلى حُصولِ المَقصودِ، وألَّا تؤدِّيَ المُجادَلةُ إلى خِصامٍ أو مُشاتَمةٍ تَذهَبُ بمَقصودِها، ولا تَحصُلُ الفائِدةُ منها، بل يكونُ القَصدُ منها هِدايةَ الخَلقِ إلى الحَقِّ، لا المُغالبةَ ونَحوَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن زاغَ عن طَريقِ اللهِ، فلم يتَّبِعْ دِينَه، كالذين اختلَفوا في السَّبتِ، وسيُجازِيه على عَمَلِه[1].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: وربُّك أعلَمُ بالمُهتَدينَ لِدِينِه، الذينَ اتَّبَعوا الحَقَّ، وسيُجازيهم على أعمالِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠].

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٢).

قال البيضاوي: (أي: إنَّما عليك البلاغُ والدَّعوةُ، وأمَّا حُصولُ الهدايةِ والضَّلالِ، والمُجازاةُ عليهما، فلا إليك، بل اللهُ أعلَمُ بالضَّالِّينَ والمُهتَدينَ، وهو المُجازي لهم). ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ٢٤٥).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: قد عَلِمَ الشَّقيَّ منهم والسعيدَ، وكتب ذلك عنده وفَرَغ منه؛ فادعُهم إلى الله، ولا تذهَبْ نفسُك على من ضَلَّ منهم حسراتٍ؛ فإنَّه ليس عليك هداهم، إنَّما أنت نذيرٌ عليك البلاغُ، وعلينا الحِسابُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣).

وقال السعدي: (﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ عَلِمَ أنَّهم يَصلُحونَ للهدايةِ فهداهم، ثمَّ مَنَّ عليهم فاجتباهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

أمَرَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يدعُوَ الخَلْقَ إلى الدِّينِ الحَقِّ بأحَدِ الطُّرُقِ الثَّلاثةِ، وهي: الحِكمةُ، والمَوعِظةُ الحَسَنةُ، والجِدالُ بالطَّريقِ الأحسَنِ، ثمَّ إنَّ تلك الدَّعوةَ تتضَمَّنُ أمْرَهم بالرُّجوعِ عن دينِ آبائِهم وأسلافِهم، وبالإعراضِ عنه، والحُكمَ عليه بالكُفرِ والضَّلالةِ، وذلك مِمَّا يُشَوِّشُ القُلوبَ، ويُوحِشُ الصُّدورَ، ويَحمِلُ أكثَرَ المُستَمِعينَ على قَصدِ ذلك الدَّاعي بالقَتلِ تارةً، وبالضَّربِ ثانيًا، وبالشَّتمِ ثالثًا، ثمَّ إنَّ ذلك المُحِقَّ إذا شاهَدَ تلك السَّفاهاتِ، وسَمِعَ تلك المُشاغَباتِ، لا بُدَّ أن يَحمِلَه طَبعُه على تأديبِ أولئك السُّفَهاءِ؛ تارةً بالقَتلِ، وتارةً بالضَّربِ، فعند هذا أمَرَ المُحِقِّينَ في هذا المقامِ برِعايةِ العَدلِ والإنصافِ وتَركِ الزِّيادةِ[1].

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا كانَ يومُ أُحُدٍ، أُصيبَ منَ الأنصارِ أربعةٌ وسِتُّونَ رجُلًا، ومنَ المُهاجرينَ ستَّةٌ فيهم حَمزةُ، فمَثَّلوا بِهم، فقالتِ الأنصارُ: لَئِنْ أصَبْنا منْهم يومًا مثلَ هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، قالَ: فلمَّا كانَ يومُ فتحِ مَكَّةَ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فقالَ رجلٌ: لا قُرَيشَ بعدَ اليومِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عليه وسلم: كُفُّوا عنِ القَومِ إلَّا أربَعةً))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٢٩)، وأحمد (٢١٢٦٧).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ مِن حديث أُبَيٍّ)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٢٩): (حسنٌ صحيحُ الإسنادِ)، وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٥/ ١٣٥).

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

أي: وإنْ عاقَبْتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- مَن اعتَدى عليكم بقَولٍ أو بفِعلٍ؛ فعاقِبوه بمِثلِ ما ظلَمَكم به، مِن غيرِ زيادةٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أباح لهم دَرَجةَ العَدلِ؛ رقَّاهم إلى رُتبةِ الإحسانِ، بقَولِه تعالى[2]:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ولَئِنْ صَبَرْتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن عُقوبةِ مَن اعتدى عليكم، فعَفَوتُم عنهم؛ فذلك الصَّبرُ خَيرٌ عندَ اللهِ للصَّابِرينَ مِن الانتِقامِ والانتِصارِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

قال ابنُ عطية: (أطبق أهلُ التَّفسيرِ أنَّ هذه الآيَةَ مَدَنيَّةٌ نزَلَت في شأنِ التَّمثيلِ بحَمزةَ في يومِ أُحُدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((وما زاد اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا))[١].

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما خُيِّر المخاطبون في المعاقبةِ والصبرِ عنها؛ عزَم على الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الذي هو خيرٌ، وهو الصبرُ[٢].

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

أي: واصبِرْ- يا مُحَمَّدُ- على دَعوةِ قَومِك إلى اللهِ، وتحَمَّلْ ما يُصيبُك مِن أذاهم، وما يَحصُلُ صَبْرُك إلَّا بإعانةِ اللهِ وتَوفيقِه لك إلى ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٨).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان -بعدَ تَوطينِ النَّفسِ على الصَّبرِ، وتَفريغِ القَلبِ مِن الإحْنةِ[1]- يَرجِعُ إلى الأسفِ على إهلاكِهم أنفُسَهم بتَماديهم على العُتُوِّ على اللهِ تعالى، قال سُبحانَه[2]:

﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: ولا تَحزَنْ على قَومِك إذا لم يُؤمِنوا بما جِئتَهم به، وأعْرَضوا عن دَعْوتِك[3].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾.

أي: ولا يَضِقْ صَدْرُك فتَغْتَمَّ بسَبَبِ مَكرِ قَومِك بك، وتَكذيبِهم وعَداوتِهم لك، واحْتيالِهم بالخُدَعِ للصَّدِّ عما جِئْتَهم به من الحَقِّ؛ فإنَّ اللهَ ناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دِينَه[4].

---

(١) الإحنَةُ: الحقدُ والغضبُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٤/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالاقتصارِ على قَدرِ الجُرمِ في العُقوبةِ، ورَغَّبَ في الصَّبرِ على الأذى، والعَفوِ عن المُعتَدينَ، وخَصَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ، والاستعانةِ على تحصيلِه بمَعونةِ اللهِ تعالى، وصَرْف الكَدَرِ عن نفسِه مِن جَرَّاءِ أعمالِ الذين لم يُؤمِنوا به؛ عَلَّلَ ذلك كُلَّه بأنَّ اللهَ مع الذينَ يتَّقونَه فيَقِفونَ عند ما حَدَّ لهم، ومع المحسِنينَ[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بنَصْرِه وتأييدِه ومَعونَتِه مع الذين اتَّقَوه، فاجتَنَبوا نواهِيَه[2].

﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

أي: ومع المُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عِبادِ اللهِ، يُعينُهم ويُؤَيِّدُهم ويَنصُرُهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٥٢).

قال الماوَرديُّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾: ﴿ٱتَّقَواْ﴾ يعني: فيما حَرَّمَ الله عليهم. ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ فيما فرَضَه اللهُ تعالى، فجَمَعَ في هذه الآيةِ اجتِنابَ المعاصي، وفِعلَ الطَّاعاتِ). ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٢٢٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه في حديثِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال: ((فأخبِرْني عن الإحسانِ، قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه، فإنَّه يراك))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن نفَّسَ عن مُؤمِنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا، نفَّسَ اللهُ عنه كُرْبةً مِن كُرَبِ يومِ القِيامةِ، ومَن يسَّرَ على مُعسِرٍ يسَّرَ اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن سترَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه))[٢].

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ حُجَّةٌ في تَركِ الغِلظةِ والخُرقِ[٣] عند الأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، واستِعمالِ اللِّينِ واللُّطفِ فيهما؛ لأنَّه أجدَرُ أن يَلينَ له قَلبُ المأمورِ، وأحرى أن تَصِلَ المَوعِظةُ إليه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ذكَرَ سُبحانَه مَراتِبَ الدَّعوةِ وجعَلَها ثلاثةَ أقسامٍ؛ فإنه: إمَّا أن يكونَ طالبًا للحَقِّ راغبًا فيه، مُحِبًّا له، مُؤثِرًا له على غَيرِه إذا عَرَفَه؛ فهذا يُدعى بالحِكمةِ ولا يَحتاجُ إلى مَوعِظةٍ ولا جِدالٍ، وإمَّا أن يكونَ مُعرِضًا مُشتغِلًا بضدِّ

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) الخُرقُ: الحُمْقُ وسُوءُ التصَرُّفِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ١٠٥).

الحَقِّ؛ ولكنْ لو عَرَفه آثَرَه واتَّبَعه؛ فهذا يحتاجُ مع الحِكمةِ إلى المَوعِظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وإمَّا أن يكونَ مُعانِدًا مُعارِضًا؛ فهذا يُجادَلُ بالتي هي أحسنُ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ فيه الحثُّ على الإنصافِ في المُناظَرةِ، واتِّباعِ الحَقِّ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ يُفهَمُ مِن هذه الآيةِ أنَّ مَن لا يَستَطيعُ المُجادَلةَ بالتي هي أحسَنُ؛ فلا يُجادِلْ[٣]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، هذا تَصريحٌ بأنَّ الأَولَى تَرْكُ ذلك الانتقامِ[٤]، فقد أباح لهم سُبحانَه وتعالى إذا عاقَبوا الظَّالِمَ أن يُعاقِبوه بمِثْلِ ما عاقَبَ به، ثمَّ قال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾، فعُلِمَ أنَّ الصَّبرَ عن عُقوبتِه بالمِثلِ خَيرٌ مِن عُقوبتِه[٥].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ لَمَّا كان الصَّبرُ في هذا المقامِ شاقًّا شديدًا؛ ذكَرَ بَعدَه ما يُفيدُ سُهولتَه، فقال: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، أي: بتَوفيقِه ومَعونتِه، وهذا هو السَّببُ الكُلِّيُّ الأصليُّ المُفيدُ في حُصولِ الصَّبرِ، وفي حُصولِ جميعِ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢٧٦)، ويُنظر أيضًا: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٦٢).

أنواعِ الطَّاعاتِ[(١)].

٧- الحزنُ لم يأمُرِ الله به ولا رسولُه، بل قد نهَى عنه في مواضعَ، وإنْ تعلَّقَ أمرُ الدِّينِ به، كقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وأمثالُ ذلك كثيرةٌ، وذلك أنَّه لا يجلبُ منفعةً، ولا يدفعُ مضرَّةً، ولا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمرُ الله به. نَعمْ لا يأثمُ صَاحبُه إذا لم يقترِنْ بحزنِه محرَّمٌ، كما يحزنُ على المصائبِ، وقد يقترنُ بالحزنِ ما يُثابُ صاحبُه عليه، ويُحمدُ عليه، ويكونُ محمودًا مِن تلك الجهةِ لا مِن جهةِ الحزنِ، كالحزينِ على مُصيبةٍ في دينِه، وعلى مصائبِ المسلمينَ عُمُومًا، فهذا يُثابُ على ما في قلبِه مِن حبِّ الخيرِ، وبُغضِ الشَّرِّ، وتوابعِ ذلك[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ تعالى، وقَولُه: ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلقِ اللهِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كَمالَ السَّعادةِ للإنسانِ في هَذينِ الأمرينِ: التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ تعالى، والشَّفَقةِ على خَلقِ اللهِ[(٣)].

٩- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي الحِرصُ على الإحسانِ والتَّقوى؛ فإنَّ كلَّ إنسانٍ يُحِبُّ أن يكونَ اللهُ معه[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٨٩).
(٢) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٩٠).
(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٥).

الفَوائِدُ العِلْمِيَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ شَدَّدَ عليهم في أمْرِه؛ انتقامًا منهم بما تُفهِمُه التَّعديَةُ بـ (على)، فكان ذلك وَبالًا عليهم، وفي ذلك تذكيرٌ بنِعمةِ التَّيسيرِ علينا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أضاف سُبحانَه السَّبيلَ إلى نفْسِه؛ لسَبَبينِ:

السَّببُ الأولُ: أنَّه هو الذي وَضَعَها للعِبَادِ؛ ودَلَّهم عليها.

السَّببُ الثاني: أنَّها مُوصِلةٌ إليه، فلا شيءَ يُوصِلُ إلى اللهِ إلَّا سَبيلُ اللهِ التي شَرَعَها لعبادِه على ألسِنةِ رُسُلِه صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ قُيِّدت الموعِظةُ بالحَسَنةِ ولم تُقيَّدِ الحِكمةُ بمِثلِ ذلك؛ لأنَّ الموعظةَ لَمَّا كان المقصودُ منها- غالبًا- ردعَ نَفسِ الموعوظِ عن أعمالِه السيِّئةِ، أو عن توقُّعِ ذلك منه؛ كانت مَظِنَّةً لصدور غِلظةٍ مِن الواعِظِ ولحصولِ انكسارٍ في نفسِ الموعوظ- أرشد اللهُ رسولَه أن يتوخَّى في الموعظةِ أن تكونَ حَسنةً، أي: بإلانةِ القولِ، وترغيبِ الموعوظِ في الخيرِ؛ قال تعالى خطابًا لِموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]. وأمَّا الحِكمةُ فهي تعليمٌ لِمُتطلِّبي الكمالِ مِن معلِّمٍ يهتَمُّ بتعليمِ طُلَّابه، فلا تكونُ إلَّا في حالةٍ حَسَنةٍ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٠).

فلا حاجةَ إلى التنبيهِ على أن تكونَ حَسَنةً[١]، فوَصفُ الحُسنِ لها ذاتيٌّ، وأمَّا المَوعِظةُ فقَيَّدَها بوَصفِ الإحسانِ؛ إذ ليس كُلُّ مَوعِظةٍ حَسَنةً، وكذلك الجدَلُ قد يكونُ بالتي هي أحسَنُ، وقد يكونُ بغيرِ ذلك، وهذا يحتَمِلُ أن يَرجِعَ إلى حالِ المُجادِلِ وغِلظَتِه، ولِينِه وحِدَّتِه ورِفقِه، فيكونُ مأمورًا بمُجادلتِهم بالحالِ التي هي أحسَنُ، ويحتَمِل أن يكونَ صِفةً لِما يُجادِلُ به مِن الحُجَجِ والبراهينِ، والكَلِماتِ التي هي أحسَنُ شَيءٍ وأبيَنُه، وأدَلُّه على المقصودِ، وأوصَلُه إلى المطلوبِ، والتَّحقيقُ: أنَّ الآيةَ تتناوَلُ النَّوعَينِ[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، المُجادَلةُ لَمَّا كانت مُحاجَّةً في فِعلٍ أو رأيٍ لِقَصدِ الإقناعِ بوَجهِ الحَقِّ فيه، فهي لا تعدو أن تكونَ مِن الحِكمةِ أو مِنَ المَوعِظةِ، ولكِنَّها جُعِلَت قَسيمًا لهما هنا بالنَّظَرِ إلى الغَرَضِ الدَّاعي إليها[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، الجدَلُ لا يُدْعَى به، بل هو من بابِ دفعِ الصائِلِ، فإذا عارض الحقَّ معُارِضٌ جودِلَ بالتي هي أحسَنُ، ولهذا قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم ﴾ فجعَله فعلًا مأمورًا به، مع قولِه: ادْعُهم؛ فأمَره بالدعوةِ بالحكمةِ، والموعظةِ الحسنةِ، وأمَره أن يجادلَ بالتي هي أحسنُ، وقال في الجدالِ: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾، ولم يقُلْ: بالحسنةِ، كما قال في الموعظةِ؛ لأنَّ الجدالَ فيه مدافعةٌ ومغاضبةٌ، فيحتاجُ أنْ يكونَ بالتي هي أحسنُ حتى يُصْلِحَ ما فيه مِن الممانعةِ والمدافعةِ، والموعظةُ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٩).
(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٩).

تُدافَعُ كما يُدافَعُ المُجادِلُ! فما دام الرجلُ قابلًا للحكمةِ أو الموعظةِ الحسنة أو لهما جميعًا لم يُحْتَجْ إلى مجادلةٍ، فإذا مانَعَ فإنَّه يُجادَلُ بالتي هي أحسنُ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ليس مِن الأحسنِ أن ندفعَ الباطِلَ بالباطِلِ، أو أن نَرُدَّ ما عَلِمْناه بالفِطرةِ والضَّرورةِ لِظَنِّنا أنَّ المُبطِلَ يَدفعُ به الحَقَّ(٢).

٧- الجِدالُ قد يكونُ واجِبًا أو مُستحَبًّا، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾، وقد يكونُ الجِدالُ مُحَرَّمًا في الحجِّ وغيرِه، كالجِدالِ بغيرِ عِلمٍ، وكالجِدالِ في الحقِّ بعدَ ما تبيَّنَ(٣)، وقد دلَّت الآيةُ على أنَّ المناظرةَ والمجادلةَ في العلمِ جائزةٌ، إذا قُصِد بها إظهارُ الحقِّ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ لها أمثالٌ في القُرآنِ؛ فإنَّها مشتملةٌ على مشروعيَّةِ العدلِ، والنَّدبِ إلى الفضلِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ ثمَّ قال: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٦/ ١٠٧)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٢٩٧).

عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ ثمَّ قال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[(١)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على جَوازِ التَّماثُلِ في القِصاصِ؛ فمَن قَتَلَ بحَديدةٍ قُتِلَ بمِثْلِها، ومَن قَتَل بحَجَرٍ قُتِلَ بمِثْلِه، ولا يتعَدَّى قَدرَ الواجِبِ، وذلك خِلافًا لِمَن قال: لا قَوَدَ إلَّا بالسَّيفِ[(٢)]، فالآيةُ تدلُّ على مُراعاةِ المُماثَلةِ في القِصاصِ، وعلى وُجوبِ المِثْلِ في المِثْليَّاتِ[(٣)].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾، يُستَدَلُّ به لمسألةِ الظَّفَرِ[(٤)]، وقد سُئِلَ النَّخعيُّ عن الرَّجُلِ يخونُ الرَّجُلَ ثمَّ يقَعُ له في يَدِه الدَّراهِمُ، قال: إن شاء أخذَ مِن دراهِمِه بمِثلِ ما خانه، ثمَّ قرأ هذه الآيةَ[(٥)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أنَّه إذا ردَّ الإنسانُ على مَن ظَلَمه بمثلِ مظلِمتِه؛ فإنَّه لا يكونُ آثِمًا، بل هو عادِلٌ[(٦)].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ...﴾ هذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ بما قَبلَها أتَمَّ اتِّصالٍ، وحَسبُك وجودُ العاطِفِ فيها. وهذا تدَرُّجٌ في رُتَبِ المُعاملةِ مِن مُعاملةِ الذين يُدعونَ ويُوعَظونَ إلى مُعاملةِ الذين يُجادَلونَ، ثمَّ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦١٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٢/ ١٨٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).
(٤) مسألةُ الظفرِ: هو أن يكونَ الرجلُ له حقٌّ عندَ غيرِه، ويستطيعَ أخذَه، فيأخُذه ويظفَر به. يُنظر في تفصيلِ المسألةِ: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ١٥٦).
(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٦٥).
(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٤٥).

مُعاملةِ الذين يُجازَونَ على أفعالِهم، وبذلك حصَلَ حُسنُ التَّرتيبِ في أُسلوبِ الكَلامِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ الاستطاعةَ، وإنْ كانت مَنسوبةً إلى العَبدِ، فالمَعونةُ عليها مِن عندِ اللهِ سُبحانَه(٢).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ هذه مَعيَّةٌ خاصَّةٌ تختَصُّ بالرُّسُلِ وأتباعِهم، وهي تقتضي مع الإحاطةِ النصرَ والتَّأييدَ(٣).

١٥- قَرْنُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وإخبارُهم بأنَّ اللهَ معهم؛ يُوجِبُ زوالَ الضِّيقِ مِن مَكرِ عَدُوِّهم(٤).

١٦- سورةُ (النَّحل): افتُتِحَت بالنَّهيِ عن الاستِعجالِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وخُتِمَت بالأمرِ بالصَّبرِ، فقال سُبحانه وتعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((مراصد المطالع)) للسيوطي (ص: ٥٣).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا، نشَأ عن قولِه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ إذْ يُثيرُ سُؤالًا مِن المخالِفينَ: كيف يكونُ الإسلامُ مِن مِلَّةِ إبراهيمَ؟ ولعَلَّ اليهودَ شغَّبوا على المسلِمين بِجَعْلِ يومِ الجُمعةِ اليومَ المقدَّسَ عِندَهم؛ فكان قولُه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ بيانًا لِجوابِ هذا السُّؤالِ. وقد وقَعَتْ هذه الجملةُ مُعترِضةً بينَ جُملةِ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وجملةِ ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ...﴾؛ ولذلك افتُتِحَت الجملةُ بأداةِ الحَصرِ ﴿إِنَّمَا﴾؛ إشعارًا بأنَّها لِقَلْبِ ما ظَنَّه السَّائِلون المشغِّبون[1].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ إيرادُ الفِعلِ ﴿جُعِلَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ جَريًا على سَنَنِ الكِبْرياءِ، وإيذانًا بعدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بالفاعلِ؛ لاستحالةِ الإسنادِ إلى الغيرِ، وإنَّما عبَّر عن ذلك بالجَعْلِ مَوصولًا بكلمةِ ﴿عَلَى﴾، وعنهم بالاسْمِ الموصولِ باختلافِهم: ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾؛ للإيذانِ بتضمُّنِه للتَّشديدِ والابتلاءِ المؤدِّي إلى العذابِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

- قولُه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: في مُخاطَبةِ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بهذا الأمرِ في حينِ أنَّه داعٍ إلى الإسلامِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٠).

ومُوافِقٌ لأصولِ مِلَّةِ إبراهيمَ: دليلٌ على أنَّ صيغةَ الأمرِ مُستعمَلةٌ في طلَبِ الدَّوامِ على الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، معَ ما انْضَمَّ إلى ذلك مِن الهدايةِ إلى طَرائقِ الدَّعوةِ إلى الدِّينِ؛ فتضَمَّنَت هذه الآيةُ تَثبيتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم على الدَّعوةِ، وألَّا يُؤيِسَه قولُ المُشرِكينَ له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ [النحل: ١٠١]، وقولُهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾(١) [النحل: ١٠٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالاستمرارِ على الدَّعوةِ، بعدَ الإعلامِ بأنَّ الَّذين لا يُؤمِنون بآياتِ اللهِ لا يَهْديهم اللهُ، وبعدَ وصْفِ أحوالِ تَكذيبِهم وعِنادِهم، ثمَّ أتبَعَ ذلك بالعِلمِ بالمهتَدِينَ على وجهِ التَّكميلِ، وفيه: إيماءٌ إلى أنَّه لا يَدْري أن يَكونَ بعضُ مَن أَيِسَ مِن إيمانِه قد شرَحَ اللهُ صدْرَه للإسلامِ بعدَ اليأسِ مِنه(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بضميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾؛ للاهتِمامِ به، وأمَّا ﴿إِنَّ﴾ فهي في مَقامِ التَّعليلِ ليسَت إلَّا لِمُجرَّدِ الاهتمامِ، وهي قائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ؛ فإنَّ إفادتَها التَّأكيدَ هنا مُستَغنًى عنها بوُجودِ ضَميرِ الفصلِ في الجملةِ المفيدةِ لقَصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ؛ فإنَّ القصرَ تأكيدٌ على تأكيدٍ(٣).

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فيه تقديمُ مَن ضلَّ على المهتَدينَ؛ لأنَّ مَساقَ الكلامِ لهم، وإيرادُ الضَّلالِ بصيغةِ الفِعلِ ﴿ضَلَّ﴾ الدَّالِّ على الحدوثِ؛ لأنَّه تغييرٌ لفطرةِ اللهِ الَّتي فطَر النَّاسَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٢- ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٣).

عليها وإعراضٌ عن الدَّعوةِ، وذلك أمرٌ عارِضٌ، بخلافِ الاهْتِداءِ الَّذي هو عبارةٌ عن الثَّباتِ على الفِطْرةِ، والجرَيانِ على مُوجِبِ الدَّعوةِ؛ ولذلك جِيءَ به على صيغةِ الاسْمِ ﴿الْمُهْتَدِينَ﴾ المنبِئِ عن الثَّباتِ(١). وقيل: قدَّمَ ذِكرَ عِلمِه بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه على ذِكرِ عِلمِه بالمُهتَدينَ؛ لأنَّ المَقامَ تَعريضٌ بالوَعيدِ للضَّالِّينَ، ولأنَّ التَّخْليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحْليةِ، فالوعيدُ مُقَدَّمٌ على الوَعدِ(٢).

- وتَكْريرُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾؛ للتَّأكيدِ، والإشعارِ بتَبايُنِ حالِ المعلومِينَ ومآلِهما مِن العقابِ والثَّوابِ(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾، أي: بمِثْلِ ما فُعِل بكم، وقد عبَّر عنه بالعقابِ على طريقةِ إطلاقِ اسمِ المُسبَّبِ على السَّببِ، أو على نَهْجِ المشاكَلةِ(٤)؛ فيكونُ قولُه: ﴿بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم﴾ مُشاكَلة لـ ﴿عَاقَبۡتُمۡ﴾؛ استَعمَل عُوقِبتُم في مَعْنى عُومِلْتُم به؛ لِوُقوعِه بعدَ فِعلِ عاقَبْتم(٥).

- قولُه: ﴿وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ فيه تأكيدُ كَونِ الصَّبرِ خيرًا بلامِ القسَمِ؛ زيادةً في الحثِّ عليه(٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥١).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ١٥٢).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٥).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ يجوزُ أن يَكونَ عامًّا، أي: الصَّبرُ خيرٌ لجِنْسِ الصَّابِرين، وأن يَكونَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، أي: صَبْرُكم خيرٌ لكم، وعبَّر عنهم بـ (الصَّابِرين)؛ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّنْويهِ بصفةِ الصَّابِرين[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ خَصَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَقامَه أعْلَى، فهو بالْتِزامِ الصَّبرِ أوْلى[2].

- وجملةُ ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ معترِضةٌ بينَ المتعاطِفاتِ، أي: وما يَحصُلُ صَبرُك إلَّا بتوفيقِ اللهِ إيَّاك، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ صبرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عظيمٌ لَقِي مِن أذى المشركينَ أشَدَّ ممَّا لَقِيَه عمومُ المسلِمين؛ فصَبرُه ليس كالمعتادِ؛ لذلك كان حُصولُه بإعانةٍ مِن اللهِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَا تَكُ﴾ بحذفِ النُّونِ، وفي سورةِ (النَّملِ) قال: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠] بإثباتِها؛ فورَد ما في النَّحلِ بحَذفِ النُّونِ؛ تَشبيهًا لها بحُروفِ العِلَّةِ، وخصَّ بحَذفِها مُوافَقةً لقولِه قَبلُ: ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وإثباتُها في النَّملِ جاء

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٦١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٤/ ٣٣٧).

على القِياسِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يجوزُ أن يُرادَ أنَّ في الكلامِ تَشبيهًا؛ فقد شَبَّه الضَّيْقَ بالشَّيءِ الَّذي يُحيطُ بالإنسانِ، وهو مِن رَوائعِ التَّعبيرِ، وجَوامِعِ الكَلِمِ. وقيل غير ذلك[(٢)].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ تعليلٌ لِمَا سبَقَ مِن الأمرِ والنَّهيِ[(٣)]؛ فهو تعليلٌ للأمرِ بالاقتصارِ على قَدْرِ الجُرْمِ في العُقوبةِ، وللتَّرغيبِ في الصَّبرِ على الأذَى، والعَفْوِ عن المعتَدينَ، ولِتَخصيصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأمرِ بالصَّبرِ، والاستعانةِ على تَحصيلِه بمَعونةِ اللهِ تعالى، ولِصَرفِ الكدَرِ عن نفسِه مِن جَرَّاءِ أعمالِ الَّذينَ لم يُؤمِنوا به[(٤)].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ تكريرُ الموصولِ (الَّذينَ- وَالَّذينَ)؛ للإيذانِ بكِفايةِ كلٍّ مِن الصِّلَتَينِ في وَلايتِه سُبحانَه مِن غيرِ أن تَكونَ إحداهما تَتِمَّةً للأُخرى[(٥)].

- وفيه إيرادُ الأُولى ﴿اتَّقَوا﴾ فِعليَّةً؛ للدَّلالةِ على الحُدوثِ، كما أنَّ إيرادَ الثَّانيةِ ﴿هُم مُّحْسِنُونَ﴾ اسميَّةً؛ لإفادةِ كَونِ مَضمونِها شِيمةً راسِخةً لهم[(٦)]؛ فأتى في جانبِ التَّقْوى بصِلَةٍ فعليَّةٍ ماضيةٍ؛ للإشارةِ إلى لُزومِ حُصولِها،

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣١٧).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٨٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

وتَقرُّرِها مِن قَبلُ؛ لأنَّها مِن لَوازِمِ الإيمانِ؛ لأنَّ التَّقوى آيلةٌ إلى أداءِ الواجبِ، وهو حقٌّ على المكلَّفِ؛ ولذلك أمَر فيها بالاقتصارِ على قَدْرِ الذَّنبِ، وأتى في جانبِ الإحسانِ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للإشارةِ إلى كَونِ الإحسانِ ثابتًا لهم دائمًا معَهم؛ لأنَّ الإحسانَ فَضيلةٌ، فبِصاحبِه حاجةٌ إلى رُسوخِه مِن نفسِه، وتَمكُّنِه[1].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ فيه تقديمُ التَّقْوى على الإحسانِ؛ لأنَّ التَّخْليَةَ متقدِّمةٌ على التَّحْليةِ[2].

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثالثَ عشرَ

ويليه المجلدُ الرابعَ عشرَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الإسراءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ١٥٣).

الفهرس







الفهرس

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠